دراسات في
حاضر العالم الإسلامي

د. حمدي شاهين
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة

دار الأصالة

دار الأصالة

دار الأصالة

رقم الإصدار 219
الترقيم الدولي 978-625-6752-40-5

اسم الكتاب دراسات في حاضر العالم الإسلامي
اسم المؤلف د. حمدي شاهين

رئيس التحرير رجب صونگول

الاخراج الفني AsaletAjans
ajans@asaletyayinlari.com.tr

الطبعة الأولى - يناير 2024 م / رجب 1445 هـ

دار النشر دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
Asalet Eğitim Danışmanlık
Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
Sertifika No: 40687
Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
Yümni İş Merkezi, No: 16B/16 Vezneciler
Fatih, İSTANBUL-TÜRKİYE
Tel: +90 212 511 85 47
www.asaletyayinlari.com.tr
asalet@asaletyayinlari.com.tr

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.
Sertifika No: 45522
Göztepe Mh. Bosna Cd. No: 11
Bağcılar/İSTANBUL

كما أن إصداراتنا متاحة على منصّتي
Google Play Books
amazon kindle

Copyright ©2024
دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2024
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

دراسات في

حاضر العالم الإسلامي

د. حمدي شاهين

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

دار الأصالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه..

تعد معرفة حاضر العالم الإسلامي؛ ودراسة واقعه، واستقراء أسباب قوته ومواطن ضعفه؛ ضرورة ثقافية ومعرفية، كما أنها فريضة إسلامية ودعوية..

فهي ضرورة ثقافية لكل معنيٍّ بالتاريخ الإنساني، والمعرفة البشرية على اتساع حقولها، إذ ظل العالم الإسلامي -على مدى عقود- في القلب من حركة التاريخ وتطور العلوم والثقافات وسياقاتها المتعددة، كما أن مؤهلات الارتقاء والنهوض ما زالت حيّة في مكونات الأمة، قادرة على الانبعاث من جديد، على الرغم مما تواجهه من تحديات وجهود لفرض التخلف عليها، وإذكاء عللها وأسقامها، والحيلولة دون أسباب عافيتها ونهوضها..

وهي فريضة إسلامية لأتباع دين أمر باعتبار سنن الماضين، واستيفاء دروسها، من لدن آدم أبي البشر، مرورًا بتواريخ الأنبياء ورسالاتهم، ومواقف أقوامهم منهم، وقصص الغابرين من عاد وثمود وقوم لوط، وأصحاب مدين والمؤتفكات، وغيرهم، وبيان مآلات بغيهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ويؤكد على ديمومة هذه السنن، وأنها ماضية لا تحابي أحدًا، ولا تستثني أمة﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ويفرض على أمة الإسلام تولي صدارة البشرية، وقيادة العالم، إذ ذلك هو مراد الله لها، ومكانتها الجديرة بها ما دامت قائمة برسالتها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

.. ولا سبيل إلى ذلك بعيدًا عن معرفة أسباب الفلاح والعزة، وعوامل الخسارة والذلة..

والمدخل الجليّ إلى ذلك هو دراسة الواقع التاريخي والعوامل الفاعلة في صيرورته ونمائه.

إن دراسة الواقع والإحاطة بأسباب حركته منهج قرآني، ومسلك نبوي.. فالقرآن العظيم يحدث العرب الذي أنزل إليهم عن واقعهم القريب، وواقع العالم المحيط بهم.. فعن واقعهم القريب يحدثهم عن حادثة القيل، وغزو أبرهة الحبشي مكة، ومحاولته هدم الكعبة، وسورة من سور القرآن قد تسمَّت باسم الفيل الهالك، وذكَّرت بمصير أصحابه الطاغين.. وسورة أخرى تحدثت عن إيلاف قريش، ومنَّة الله عليهم بالمكانة والكفاية والأمن، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ١-٤].

وحدثهم القرآن عن الواقع الخارجي، ومنه صراع الفرس والروم، وهزيمة الأولين، وقرب انتصار الآخرين، فقال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢-٦].. وكانت تلك الآيات الكريمات تتنزل في مكة، وقت انشغال المؤمنين المستضعفين بالإبقاء على أنفسهم، حاملين جذوة الإيمان، فلم يشغلهم ذلك عن إدراك ما حولهم من أمر الصراع العالمي المحتدم.

وفي ذلك الوقت نفسه - بأوضاعه الضاغطة - كان رسولنا الكريم صلوات الله عليه محيطًا بأحوال قوى الإقليم الفاعلة، ويأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فيقول: "لو

خرجتم إلَى أرض الْحبشة فإن بها ملكًا لَا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا "[1].

وتنزَّل القرآن الكريم مصاحبًا الأحداث التي مرت بها الأمة، في جهادها وغزواتها، ومواطن النصر والهزيمة، وأسباب كل منها، وفي علاقات المسلمين بالقوى الاجتماعية المشتبكة معهم، من مشركين ومنافقين، وفي حركتهم السياسية واتساع نطاق دعوتهم، وتطور تنظيم دولتهم، وتوصيف أوضاعهم المعيشية، وعلاج أزماتهم، ووضع أسس اقتصادهم، وسيرورة مجتمعاتهم، ورصد القيم الحاكمة لها، في إطارها الفردي والجماعي.. وهو في كل ذلك لا يقدم وصفًا ظاهريًا لما يعرض له، بل يرشد إلى أسبابه وعلله وتشابك دوافعه.. إلى غير ذلك مما يطول بيانه، وله مواضع شرحه وتفصيله.

وتستبين من فقه الواقع علامات واضحات:

منها أن الإسلام هو المؤسس لهذه الأمة، فهو الذي صاغ أسسها في الاعتقاد، فأقام بناءها عليه، ومنه انبثقت نظمها وقيمها وعاداتها وأعرافها، وإن أية محاولة لتغريبها عن ذلك الأساس يعني السعي لهدمها، وإقامة كيان جديد غريب عنها، وهو سعي قضت سنة التاريخ بخطئه، وأكدت خذلانه، ووجب على الأمة التصدي له، ومواجهته في حسم وضراوة، لأنها بذلك تدافع عن كينونتها، وسر وجودها وبقائها..

إن الأمة لم تترك الإسلام بكليتها ولا بغالبيتها قط، وما زال هذا الدين فاعلاً فيها، وإن تأخر - لأسباب شتى - عن سدة القيادة وسنن الحكم.. لقد كان الإسلام سبب قوتها، وكان الآخذ بيدها في مواطن زللها، وأحوال ضعفها.. وكان رجاله وعلماؤه روّاد الفعل الحضاري الباعث لها، والحامي دونها.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٢١.

إن التاريخ لا يكرر نفسه، وإن قطرة الماء لا تمر في ذات النهر مرتين، بل تمضي الحياة قدمًا، لكنها تمضي محكومة بتلك السنن الخالدة.. وإن تدبُّر التاريخ يعلن دون خفاء حقيقةً لا يمكن إنكارها أو تجاوزها.. وهي أن الأيام دولٌ، وأن أمة الإسلام تضعف لكنها لا تموت، وهذا قدر إلهي رحيم بها، وقدر رحيم بالبشرية كلها، إذ لا تفقد مشعل الهداية التي كلفت الأمة بحمله، سواء كان قويًا مزهرًا، أم ضعيفًا خابيًا.

ولا شك أن لزماننا قضاياه.. وله معاركه التي ينبغي أن يواجهها، ولا يجفل عنها، وأن إحياء قضايا التاريخ الماضي -التي انقضى أثرها- هو صرف للأمة عن وجهتها الحقة، وتبديد لقواها من غير طائل.. لماذا يحيي فريق من أمتنا معارك كلامية وعقدية لا تشغل إلا بال أصحابها؟ بينما أصل العقيدة التوحيدية في خطر، وحماتها في تضييق وتشريد وعنت، وضجيج أسلحة التنصير والتغريب والاستعمار - في صوره الحديثة والمتجددة- يصم الآذان، والنهب المنظم لخيرات الأمة، وفرض أنظمة الاستبداد والقهر عليها، واعتبار الحرية الإنسانية في التصور الإسلامي لها ترفًا، وطمس حقائقها، وتعقب الدعاة إليها، وتأليه الحاكم الفرد، والوثنية السياسية الغاشمة، وتغوُّل الفساد السياسي والاقتصادي، وتغشِّيه شتى جوانب الحياة في ديار الإسلام.. والحرب المعلنة على الفضيلة والأسرة المسلمة، وامتهان المرأة وحجابها، والاصطفاف الأممي العالمي في جانب الشذوذ والخنا.. كل ذلك مما ينبغي السعي إلى إبرازه، وبيان خطره، والذود عن حياض الدين تجاهه، وفي ذلك مشغلة أي مشغلة عن المعارك الموهومة التي يُراد جر الأمة إليها، وصرف طاقاتها فيها.

وفي بلاءات أبناء الإسلام وقتل دعاته وتشريد شعوبه، وإفقار أمته، واستهداف شبابه مشغلة أي مشغلة! وحيثما وجهت وجهك تجد مخاضًا تجتازه الأمة، يحتاج حشد الجهود، وتضافر القوى، وإعلاء الهمم؛ في فلسطين، وفي بورما، والهند، والبلقان، وفي

أفريقية وغيرها من بقاع الأرض، وفيما تعانيه الأقليات المسلمة من طغيان الكراهية، والإسلاموفوبيا، والخوف من حيوية هذا الدين، وقواه الذاتية، وانتشاره الحثيث بالرغم من هذه الحروب الدامية.. وفي كل ذلك مساحات للجهاد المعرفي والعلمي والسياسي، فضلاً عن مواجهة العدوان المسلح وحروب الإبادة والقهر.

وفي هذا الكتاب محاولة لإبراز هذه المعالم المهمة من حاضر العالم الإسلامي وقضاياه.. ويأتي في قسمين ضم أولهما ثلاثة فصول، وثانيهما أربعة.

وكانت البداية هي محاولة التعرف على جذور مصطلح "العالم الإسلامي" الذي لم يكن معروفًا قبل بدايات القرن الماضي، فلم يعرف المسلمون سوى أن بلادهم هي "دار الإسلام"، وأن الخلافة هي النظام الجامع لها، وعلى ذلك فقد تتبعنا مصطلح "دار الإسلام"، وتطور معناه، وصولاً إلى ظهور مصطلح "العالم الإسلامي" في الكتابات الغربية الحديثة.. وشغل ذلك الفصل الأول من قسم الكتاب الأول.

أما الفصل الثاني فقد استعرض نشأة العالم الإسلامي، متتبعًا انتشار الإسلام في دياره التي حُكمت باسمه، وانتظمتها شريعته، على امتداد العالم القديم في آسيا وإفريقية وأوروبا.

ثم جاء الفصل الثالث ليبحث عوامل القوة في العالم الإسلامي، بين الإفادة منها والتفريط فيها، فكم من سبب من أسباب القوة، سنحت فرص الإفادة منه، ثم تراخت الأمة في الاستمساك به، فغدا عاملاً لإضعافها وخضد شوكتها.. وعلى ذلك جاء هذا الفصل في مبحثين، بحث أولهما عوامل القوة، وثانيهما عوامل الضعف.

واختص القسم الثاني بدراسة المخاطر المهددة للعالم الإسلامي، وغنيٌّ عن البيان أن تلك المخاطر لا تعني بالضرورة عوامل ضعف للأمة، بل قد تستحيل - إن أحسنا فقهها ومدافعتها – سببًا من أسباب القوة، وفرصة للوثوب والتقدم. وكان أولها معنيًّا ببحث أشدها بأسًا، وهو التغريب والحرب على الهوية الإسلامية، وبيان وسائله وروافده،

والتصدي لمحاولات تذويب هذه الشخصية الإيمانية، وترويضها، وتهجينها، وتدجينها.. وافتراق النخبة المبرزة في الأمة تجاه ذلك التغريب، بين داعٍ إليه، ورافض له، ومنفتح على نتاج الغرب الفكري والثقافي، مدرك لما يؤخذ منه، وما ينبغي تركه ومواجهته.

وبحث الفصل الثاني المخاطر السياسية التي واجهت العالم الإسلامي، من إسقاط الخلافة الناظمة للأمة، والممثلة لوحدتها ونظامها السياسي، على ما عابها في الهزيع الأخير من عمرها من ضعف، وما أصابها من وهن، وكذا تجزئة الأمة سياسيًا بدعاوى القومية والوطنية الضيقة، ونجاح خطط الاستعمار وتحقيق أطماعه، وجلب الصهيونية، والتمكين لها في ديار الإسلام، وتسلط الأنظمة العسكرية العلمانية واستبدادها.

ويدرس الفصل الرابع والأخير الحرب الدائرة منذ أمد على المجتمعات الإسلامية، بفرض التخلف العلمي والتقني عليها، وغرس مؤسسات ومناهج التعليم الغربي فيها، وإقصاء الشريعة الإسلامية عنها، وإفساد الأخلاق، والسعي الحثيث لهدم الأسرة، مع تخريب العقائد الإسلامية، بالتنصير والماسونية.

ويبقى أن نعرض في دراسة لاحقة إن شاء الله لقضايا الأمة التي ما زالت تمثل تحديًا كبيرًا وامتحانًا لها، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، وقضايا الأقليات المسلمة في قارات الدنيا، وما تعانيه من تضييق وعنت، وما يُتاح أمامها من فرص وإمكانات..

والله من وراء القصد.. وهو المستعان.. وعليه التكلان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا الكريم وآله وصحبه.

حمدي شاهين

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

القسم الأول

- التعريف بمصطلح العالم الإسلامي
- نشأة العالم الإسلامي وتطوره
- عوامل القوة والضعف في العالم الإسلامي

الفصل الأول

التعريف بمصطلح العالم الإسلامي وتطوره

لم يظهر مصطلح "العالم الإسلامي" إلا في العصر الحديث، أما قبل ذلك فلم يكن معهودًا.. إذ كان المسلمون يطلقون على وطنهم الأكبر مصطلح "دار الإسلام"، ويميزون بينه وبين الآخر الذي قد يكون معاديًا؛ فيكون "دار حرب"، أو يكون معاهدًا ومسالمًا؛ فيكون "دار عهد"، أو ما قارب ذلك من تعريفات وفهوم، وظل الأمر على ذلك ما دامت للمسلمين خلافة تجمع شملهم، وتشكل الإطار الجامع لأمتهم، سواء كانت قوية سائدة، أو كانت ضعيفة مريضة خامدة.

فلما دار الزمان دورته، وعظم ضعف أمر الأمة، وتوزعها أعداؤها فيما بينهم، وتفرقت إلى قوميات وأوطان شتى، وانهارت خلافتهم، وسقطت رسومها، لما حدث ذلك بحثوا عن مصطلح جديد، يتواضعون عليه، ويتفقون - أو يكادون - على مدلوله، فبرز عند ذاك مصطلح "العالم الإسلامي"، ثم تباحثوا عن مدلول له، جامع مانع، يعبر عن حالهم، فانشعبت حوله آراؤهم، حتى اتفقوا على أقرب مدلولاته، وهو تلك الرقعة الجغرافية المتصلة التي تجمع الأوطان التي يزيد فيها عدد المسلمين عمّن سواهم.

المبحث الأول

مفهوم مصطلح "دار الإسلام" وما اتصل به جدلية الفقه والتاريخ

رؤية فقهائنا قديمًا لدار الإسلام ودار الحرب:

درج المسلمون منذ بدايات الإسلام على استعمال مصطلح "دار الإسلام"، و"دار الكفر"، أو "دار الحرب"، للتعبير عن الواقع التاريخي الذي ساد عصرهم، ثم اجتهد الفقهاء في مرحلة تالية في وضع الضوابط الواصفة لتلك المصطلحات، فرأى جمهور الفقهاء أن "كل دار غلبت عليها أحكام الإسلام فدار الإسلام، وإن غلبت عليها أحكام الكفار فدار الكفر، ولا دار لغيرهما"[(١)]، فدار الإسلام هي التي تحكم بشرائع الإسلام، وإن لم يكن معظم أهلها مسلمين، إذ إنه "ليس من شرط دار الإسلام أن يكون فيها مسلمون، بل يكفي كونها في يد الإمام، وإسلامه"[(٢)]، والبلاد التي كان المسلمون يفتحونها كانت تدخل ضمن دار الإسلام بمجرد الفتح، وهذا ما حدث لخيبر بعد أن فتحها المسلمون سنة ٧هـ، وإن ظل أهلها على يهوديتهم. وكانت الحال كذلك في كل بلد فتحتها جيوش المسلمين، عدا المدينة المنورة التي فتحت بالدعوة، وبالرغم من ذلك كانت بها عند الهجرة جماعات كثيفة من المشركين واليهود.

---

(١) ابن مفلح، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الحنبلي (ت ٧٦٣هـ): **الآداب الشرعية** ١/ ٢١١-٢١٢، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، سنة ١٩٩٩م، ويرى ابن القيم أن دار الإسلام هي التي "جرت عليها أحكام الإسلام، وما لم يجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام، وإن لاصقها". (راجع ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١هـ): **أحكام أهل الذمة** ٢/ ٧٢٨، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، رمادى للنشر، الدمام، ط١، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)

(٢) الرافعي، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٢٣هـ): **فتح العزيز بشرح الوجيز** ٦/ ٤٠٤، تحقيق علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م

وقد يستغرق الأمر عدة قرون ليعتنق أغلب أهل البلد المفتوح الإسلام، كما حدث في مصر وشمالي إفريقية والأندلس، بل ظل الحكم الإسلامي للهند قرونًا، وكان معظم أهلها على غير الإسلام، حتى خرجت من أيدي المسلمين، وهي طوال تلك المدة معدودة ضمن "دار الإسلام"..

كما كانوا يعدون "دار الحرب" تلك التي "لا تجري فيها أحكام الإسلام"[١]، وفي ذلك يقول الإمام مالك: إن مكة قبل الفتح كانت دار حرب؛ "لأن أحكام الجاهلية كانت ظاهرة يومئذ"[٢]..أي تلك الدار التي يملكها الكفار، أو استولوا عليها من المسلمين؛ وإن ظل أكثر أهلها مستمسكين بإسلامهم، لكنهم غير قادرين على إنفاذ أحكامه[٣]، كما حدث في البلاد التي احتلها نصارى الإسبان من الأندلس، وتلك التي احتلها الصليبيون في الشام، قبل أن يغيِّر هؤلاء وأولئك من التركيبة السكانية لما استولوا عليه.

هذا ما يراه جمهور علماء المسلمين[٤]، وعلى ذلك تصير دار الإسلام دار حرب بظهور أحكام الكفر عليها، وغيبة أحكام الإسلام عنها، ويعارضهم قليلون يرون أن "ما حكم بأنه دار إسلام لا يصير بعد ذلك دار كفر مطلقا"[٥]، وهو ما لا تنهض به الأدلة الشرعية ولا الواقع التاريخي.

---

(١) د. عبد الكريم زيدان: **أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام** ص ٢٠، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م

(٢) مالك بن أنس بن عامر الأصبحي ت ١٧٩ه: **المدونة** ١/ ٥١١، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م

(٣) راجع عبد القادر عودة: **التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي** ١/ ٢٧٧، دار الكاتب العربي، بيروت، (د.ت)

(٤) راجع ابن مفلح: **الآداب الشرعية** ١/ ٢١١-٢١٢، ابن القيم: **أحكام أهل الذمة** ٢/ ٧٢٨، وراجع عبد الوهاب خلاف: **السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية**، دار القلم، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٨٣

(٥) ابن حجر الهيتمي أحمد بن محمد بن علي (ت ٩٧٤هـ): **تحفة المحتاج في شرح المنهاج**، ٩/ ٢٦٩،=

لكن أبا حنيفة يضيف بعدًا آخر، إذ قال إن دار الإسلام لا تصير دار الكفر إلا بثلاثة شروط، أحدها: ظهور أحكام الكفر فيها، والثاني: أن تكون متاخمة لدار الكفر، والثالث: ألا يبقى فيها مسلم ولا ذمي آمنا بالأمان الأول، وهو أمان المسلمين[1]، وذلك يعني أنه لو تخلف أحد تلك الشروط لم تكن الدار دار حرب.. فمدار الأمر عنده ليس على الإسلام والكفر، بل على الأمان والخوف[2]، فلو بقي المسلمون في بلد يغلب عليه الكفار، وتحكم فيه شرائعهم؛ وظلوا آمنين على دينهم وأنفسهم وأموالهم، على ما كانوا عليه حال مقامهم في دار الإسلام؛ وكان البلد الذي يقيمون فيه ليس مجاورًا لدار الحرب التي تحارب المسلمين؛ في هذه الحال لم تكن دارهم دار حرب، وهذا الشرط الأخير تجاوزه التطور التاريخي، إذ قد تكون الدار بعيدة كل البعد عن بلاد المسلمين، تفصل بينهما مفاوز وبحار، وهي عدوة لهم، معتدية عليهم، بعدما تطورت طرق الاتصال، ووسائل القتال[3].

رؤية الفقهاء المعاصرين لدار الإسلام ودار الحرب:

وقد تباينت رؤية فقهائنا المعاصرين إلى تقسيم الأولين الدور إلى دار إسلام ودار حرب؛ فمنهم من يرى أنه قائم على استقراءٍ لنصوص شرعية، ورؤية مقاصدية، ولا يُتصور

= المكتبة التجارية الكبرى بمصر، سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٨٣م، عابد بن محمد السفياني: **دار الإسلام ودار الحرب وأصل العلاقة بينهما**، رسالة ماجستير من كلية الشريعة، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤٠٠-١٤٠١هـ، ص ٢٢

(١) الكاساني، أبو بكر بن مسعود بن أحمد (ت ٥٨٧هـ): **بدائع الصناع في ترتيب الشرائع** ٧/ ١٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

(٢) قال السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت ٤٩٠هـ): "دار الإسلام اسم للموضع الذي يكون تحت يد المسلمين، وعلامة ذلك أن يأمن فيه المسلمون"، **شرح السير الكبير** ٣/ ١٢٥٣، الشركة الشرقية للإعلانات، ١٩٧١م

(٣) راجع محمد أبو زهرة: **العلاقات الدولية في الإسلام** ص ٥٧-٥٨، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، د. وهبة الزحيلي: **آثار الحرب في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة** ص ١٧٣-١٧٤، دار الفكر، دمشق، ط٣، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

منهم غير ذلك[1]، ومنهم من يرى أن "هذا التقسيم لم يرد به قرآن ولا سنة، وأن الجهاد لم يكن العلاقة الطبيعية بين المسلمين وغيرهم"[2]، وأنه "مبني على أساس الواقع، لا على أساس الشرع، ومن محض صنيع الفقهاء في القرن الثاني الهجري"[3]، وأنه "تقسيم طارئ بسبب قيام حالة الحرب، أو الحرب نفسها، فهو ينتهي بانتهاء الأسباب التي دعت إليه"[4]..

سبب اختلاف تعريف الفقهاء لدار الإسلام ودار الحرب:

ويرجع التباين في نظرة العلماء إلى هذا التقسيم إلى رؤيتهم لأصل العلاقات الدولية في الإسلام، هل هو الجهاد أم السلام والدعوة؟ فمنهم من يرى أنه الجهاد ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ومنهم من يرى أنه السلام الذي يفتح أبواب دعوة الشعوب والأمم إلى الإسلام، وتعرفها عليه، وأن الجهاد إنما شُرع لحماية دار الإسلام، وأهلها، وحماية دينها، والداعين إليه، فالجهاد طريق لحماية الدعوة، وليس طريق الدعوة الذي يجبر الآخرين على الدخول فيها بقوة السلاح، فأمر الاعتقاد يقوم على الدعوة والإقناع، لا الاضطرار والجبر[5]، كما قال تعالى﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

النظر في الأصل الذي تقوم عليه العلاقات الدولية في الإسلام:

والحق أن المقصد الذي تهدف إليه العلاقات الدولية في الإسلام هو ضمان سلامة دولة الإسلام، وحرية الدعوة إليه، وما الجهاد والدعوة السلمية إلا سبيلان لتحقيق ذلك

---

(١) راجع د. يوسف القرضاوي: **فقه الجهاد** ٢/ ٨٦٩-٨٧٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، سنة ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

(٢) د. وهبة الزحيلي: **آثار الحرب في الفقه الإسلامي** ص ١٩٣

(٣) د. وهبة الزحيلي: المرجع السابق ص ١٩٤

(٤) المرجع نفسه ص ١٩٤-١٩٥

(٥) راجع عبد الوهاب خلاف: مرجع سابق ص ٧٥-٧٦، أبو زهرة: المرجع السابق ص ٥٠-٥٢

الأصل، وإدراك هذه الغاية. فقد تنفتح سبل الدعوة السلمية للإسلام، فلا تكون ثمة حاجة للقتال، وقد توصد تلك السبل، فلا يبقى إلا الجهاد سبيلاً لتوصيل دعوة الله إلى العالمين، وقد ينفسح الزمن أمام الدعوة السلمية، أو يطول أمد الجهاد، ولا يعني ذلك أن ما طال مداه هو الأصل.

نظرات في أدلة تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب ودار عهد:

إن استقراء هذه النصوص الشرعية التي أسس عليها فقهاؤنا تقسيمهم الدور إلى دار إسلام ودار حرب ودار عهد [1] يقودنا إلى ما يلي:

١- إن هذه النصوص الشرعية وردت لتقيم أحكامًا فقهية تعالج حاجات الواقع القائم آنذاك الذي يتمثل في وجود دار للإسلام تقوم فيها حكومته، ودار للحرب القائمة بالفعل بين الإسلام والشرك، ودار أخرى فيها (قوم بينكم وبينهم ميثاق)، أي دار للعهد، يربطها بدار الإسلام اتفاق قبلت به دفع ضريبة الخراج للمسلمين، لذلك جعل بعض الفقهاء قسمة الدور ثلاثية، بإضافة دار العهد إلى دار الإسلام ودار الحرب. بينما نفى بعضهم ذلك، ورأى أنها بالعهد أصبحت ضمن دار الإسلام، فإن نقضته عادت دارًا للحرب[2].

٢- ولم يكن من الممكن تصور وجود تلك الدائرة الرمادية بين دار الإسلام ودار الحرب في -عصور الإسلام الباكرة، فلم تكن القبائل العربية الضاربة في البداوة حول

(١) سورة النساء آية ٩٢، الأنفال ٧٢-٧٣، مع وجود أحاديث صحيحة، وآثار صالحة، ورد فيها أوصاف مثل "دار المهاجرين"، "أرض العدو"، أرض الشرك، وورد عن بغض الصحابة وصف "دار الهجرة ودار الإسلام"... راجع د. يوسف القرضاوي: فقه الجهاد ٢/ ٨٦٩-٨٧٣

(٢) راجع الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ): **الأحكام السلطانية** ص ٢١٦، دار الحديث، القاهرة (د. ت)

المدينة – عاصمة الإسلام – تفهم غير منطق الغزو والقوة[1]، ولم يكن تجمُّعهم الحضري في مكة أو الطائف إلا على حد العداوة والسيف مع المسلمين، أما الشام فقد قَتل أمير بُصرى رسول النبي ﷺ الذي أرسله يدعوهم إلى الإسلام، وأما فارس فقد مزق كسرى رسالة النبي ﷺ إليه، وأمر عامله على اليمن أن يأتيه به أسيرًا[2]، فلم تعد ثمة وسيلة لإبلاغ رسالة الله تعالى إلى البشر إلا بإزاحة هذه الأنظمة الحاكمة المستبدة التي تحول دون وصول دعوة الله تعالى ورسالته الخاتمة إلى الناس، ولم يكن ثمة وسائل أخرى للاتصال والتفاعل بين الشعوب كالتي نعرفها اليوم، فلا سبيل أمام المسلمين لتعريف الناس بدعوة الإسلام في هذه الأنحاء آنذاك إلا بالجهاد.

٣- كان من الممكن تلافي كثير من الاختلاف بين الفقهاء لو لم نجعل المقابلة بين "دار الإسلام" و"دار الحرب"، بل بين دار الإسلام ودار الكفر، وبين دار السلام ودار الحرب. فمقابل الإسلام هو الكفر أو الشرك، وليس الحرب، وليست كل دار للكفر دارًا للحرب، فقد تكون دارًا للعهد أو الصلح أو الموادعة، وقد رَوَى الْبُخَارِيُّ عن ابن عباس، "كان المشركون على منزلتين من النبي ﷺ والمؤمنين: كانوا مشركي أهل حرب، يقاتلهم ويقاتلونه، ومشركي أهل عهد، لا يقاتلهم ولا يقاتلونه"[3].

---

(١) عبر شاعرهم عن ذلك بقوله:

يُغار علينا واترين فيُشتفى ... بنا إن أُصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فلا ينقضي إلا ونحن على وتر

الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ): **البيان والتبيين** ٣/ ٢١٧، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة ١٤٢٣هـ

(٢) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ): **الطبقات الكبرى** ١/ ٢٥٨، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، سنة ١٩٦٨م، الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ): **تاريخ الرسل والملوك** ٢/ ١٣٢- ١٣٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٧هـ.

(٣) البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي: **صحيح البخاري** ٥/ ٢٤، حديث رقم ٤٩٨٢، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط ٥، سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م

٤- وبالرغم من انفتاح الجبهات الإسلامية للجهاد في عصر الخلفاء الراشدين فإننا نجد حالات كثيرة للهدنة، وحالات لكفِّ القتال، ولو من غير هدنة أو صلح، بل لضرورات عسكرية وسياسية، كما حدث بعد فتح أرمينية وأذربيجان مع ما يليهما، وبعد فتح تونس (إفريقية)، وحين تاخمت جيوش الإسلام بلاد الترك، في خلافة عثمان، وفي الفترة التي واكبت الفتنة في أواخر خلافة عثمان، وخلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٥- إن تضييق دائرة "دار العهد" لتكون تلك التي تدفع الخراج للمسلمين ينافي الواقع التاريخي، وقد ذكر القرافي أنه لا يشترط في عقود الصلح دفع جزية، إذ إن الصلح يجوز "بغير مال يعطونه"[١]. كما في حالة النوبة التي عقد أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح مع أهلها صلحًا، قال عنه إمام أهل مصر الليث بن سعد: إنما الصلح بيننا وبين النوبة على ألا نقاتلهم ولا يقاتلونا، وأن يعطونا رقيقًا، ونعطيهم بقدر ذلك طعامًا"[٢].

٦- إن هذه النصوص الشرعية جاءت "مخبرة" عن الحكم الشرعي لواقع تاريخي قابل للتطور والتغيير، وليست "منشئة" لذلك الواقع، مما يفتح الباب للاجتهاد إن جدت وقائع جديدة، أو تغير الواقع بفعل التطور السياسي والاجتماعي.. إن حصر الدور في هذه القسمة الثنائية أو الثلاثية أوجد اضطرارًا إلى تصنيف كل حالات الواقع السياسي ضمن ذلك الإطار، وقد يجد الفقيه نفسه أمام واقع يندُّ عن ذلك التصنيف، وينفر منه، هو ما حدث بالفعل في أزمنة تالية، وأجاب ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن سؤال عن التصنيف الفقهي لبلدة ماردين التي سيطر عليها التتار، هل تدخل ضمن دار الإسلام، أم دار الحرب؟ فقال: "وأما كونها دار حرب أو سلم فهي مركبة؛ فيها المعنيان؛ ليست بمنزلة دار السلم التي تجري

---

(١) القرافي، أبو العباس أحمد بن إدريس (٦٨٤هـ): **الفروق، أو أنوار البروق في أنواء الفروق** ٣/ ٢٤، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ)، **فتوح البلدان** ص ٣٥، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة ١٩٨٨م

عليها أحكام الإسلام لكون جندها مسلمين؛ ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار؛ بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه، ويقاتل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه"[1].. فقد جعلها قسمًا آخر، لا دار إسلام، ولا حرب، بل لم يجعلها دار عهد! فالأمر إذن مظنة اجتهاد محكوم بقواعده كلما تغير واقع العالم المحيط بالإسلام..

وقد يجد المؤرخ نفسه أمام وقائع يصعب "حشرها" داخل ذلك الإطار، وينفسح لمجال أمامه لتصور دار أخرى يمكن **تسميتها "دار الدعوة"**، وهي دار ليست مسلمة؛ لكنها محايدة في أمر الاعتقاد، تلتزم برؤية عقدية منفتحة تجاه العقائد المخالفة، ولا تتبنى عقيدة دينية خاصة، فهي دار مسالمة، لا خطر منها على المسلمين، ولا تحول بين أهلها وبين الإسلام، وقد تحقق هذا بالفعل كما في حالة الحبشة زمن النبوة وعهود الإسلام الأولى، وفي حالة بعض دول المغول حتى فشا فيهم الإسلام، وكما حدث في دول الملايو أو جنوب شرق آسيا التي انتشر الإسلام فيها بالدعوة السلمية عن طريق التجار والعلماء[2]، وكما في حالة بعض دول إفريقية جنوب الصحراء مثل دولة غانة التي تمتع المسلمون فيها بحرية دينية كاملة، وكان لهم حي إسلامي في العاصمة يقيمون فيه، ولهم مساجدهم، وكان كثير من وزرائها مسلمين، بالرغم من أن ملكها كان وثنيًا آنذاك، ولم يدخل في الإسلام مع بقية شعبه إلا في وقت تالٍ، وذلك في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[3].

---

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ)، **مجموع الفتاوى** ٢٨/ ٢٤١، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م

(٢) توماس أرنولد: **الدعوة إلى الإسلام** ص ٤٠١ وما يليها، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، ود. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧١م

(٣) راجع البكري عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت ٤٨٧هـ): **المسالك والممالك** ٢/ ٧٨١-٧٨٢، دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٩٢م، المقريزي أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ): **الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام**، القاهرة، ١٨٩٥م، ص ٢٣

٧- ومن ذلك التطور التاريخي أنه لم تعد هناك "دار إسلام" واحدة، ولا "دار حرب" واحدة، منذ عصر طويل، فقد تفتتت الخلافة الإسلامية الواحدة منذ نهاية العصر العباسي الأول سنة ٢٣٢هـ إلى دول متعددة، كل منها دار إسلام، وقامت خلافة عبيدية (فاطمية) في شمال إفريقية سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، ثم في مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، وخلافة أموية في الأندلس سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م. وكانت هناك دور حرب متعددة في الجبهات المحيطة بدول الإسلام..

٨- إن اشتراط "ظهور أحكام الإسلام" في بلد ما ليُحكم بأنه ضمن دار الإسلام عسير التحقق في زماننا هذا، بل منذ عقود متعددة، حيث تسلط الاستعمار الغربي والشيوعي على بلاد الإسلام، فكان أول ما فعله أن أبطل الحكم بشريعة الإسلام، واستبدل بها قوانينه، ثم إنه حين اضطر للانسحاب منها ترك على سدة الحكم فيها أذنابه، ووكلاءه، ليكملوا مسيرة إبعادها عن دينها، ولا يكاد يسلم من ذلك البلاء بلد إسلامي، وما بقي من شرائع الإسلام فيها لا يتجاوز غالبًا قوانين الأحوال الشخصية، وتنفيذ بعض الحدود الشرعية فيما ندر من بلادنا، أما الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها فلم تؤسس على الإسلام، والصلة بينها وبين الإسلام واهية واهنة.

واشتراط ظهور أحكام الإسلام في بلد ليُقضى بأنه بلد إسلامي يفتح مجال التكفير واسعًا للنظم الحاكمة، ويخرج جل ما يُعرف بعالمنا الإسلامي من دائرة "دار الإسلام"..

ويرى بعض مفكرينا للخروج من ذلك المأزق أن اجتهاد الإمام أبي حنيفة جدير باستصحابه في زماننا، حيث يجعل مدار الأمر في القول بأن الدار للإسلام أو للحرب على الأمن والخوف، فكل بلد يأمن المسلمون فيه على دينهم، ولا يحارب بلاد الإسلام، هي دار للإسلام.. لكن أبا حنيفة وسائر علماء المسلمين ينطلقون من وجود دار للإسلام

تظهر فيها أحكامه، ثم ينضاف إليها عنده تلك التي يأمن المسلمون فيها على أنفسهم، وعلى ذلك لا بد من وجود هذه الدار في الواقع، حيث تظهر فيها أحكام الإسلام، وتعلو فيها شريعته، وتحمل لواء الدعوة إليه في العالم، ثم يأتي دخول غيرها من البلدان فيها، تلك التي يأمن المسلمون بها على دينهم، ويظهرون أحكام دينهم، وهو دخول التابع على أصله الذي ينبغي أن يظل قائمًا، وأن يسعى المسلمون إلى إقامته في حال غيابه، لتقوم أحكام الإسلام في مجتمعاتهم، بل لتقوم مجتمعاتهم على أحكام الإسلام.

دار الإسلام بعد سقوط الخلافة العثمانية:

كانت الخلافة الإسلامية تمثل في العقل الجمعي للمسلمين على مدى عمر الإسلام رمز نظامه السياسي، ووحدته، وما ينضوي تحت لوائها يمثل "دار الإسلام"، غير أنه قبل سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م كان ظلها قد تقلص عن كثير من بلاد الإسلام، وكانت مفاهيم الدولة القومية والدولة الوطنية قد ضربت بلاد الإسلام وافدة من الغرب، وسادت بين النخب السياسية والفكرية، كما كانت أحكام الإسلام وشريعته قد انحسرت في بلاده منذ السيطرة الاستعمارية على معظم بلدانه، وبهذا وذاك أصبحت الحاجة ملحة لإيجاد تعريف جامع مانع واصف للحالة الإسلامية الواقعة.

كما أن "ديار غير المسلمين" قد شهدت تطورًا فكريًا وسياسيًا كبيرًا، فقد انتهت سيادة البابوية على أوروبا، وانتهت هيمنتها على واقعها الديني - الذي احتكرت تفسيره - والسياسي؛ الذي طالما أخضع حكامها لسيطرة الكنيسة وتوجيهات رجالها، وكانت البروتستانتية مرحلة مهمة لإنهاء الاحتكار الكنسي لتفسير الدين، ثم انتشرت أفكار العلمانية المتمردة على هيمنة رجال الدين وسطوتهم، ثم على هيمنة الدين في الفضاء السياسي والمجتمعي، وفي أحيان كثيرة على الدين نفسه، وكانت الثورة الفرنسية

١٧٩٨م المسمار الأخير في نعش النفوذ البابوي والملكي المستبد، وكان شعارها الشهير المنسوب إلى الفيلسوف فولتير: "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس".

وكانت الحقبة الاستعمارية التي طالت من القرن الخامس عشر الميلادي حتى أواخر القرن العشرين أكثر ما هز بعنف مفهوم "دار الإسلام"، إذ أصبحت أغلب بلاد المسلمين تحت سيطرة غيرهم، وزالت أحكام الشريعة من معظم هذه البلاد، إلا قليلاً، ثم قامت الصراعات بين هذه القوى الاستعمارية نفسها، وبلغت أوجها في الحربين العالميتين الأولى والثانية، فاضطرت إلى إيجاد المنظمات الدولية - عصبة الأمم سنة ١٩١٩م بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ثم منظمة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥م مع انتهاء الحرب العالمية الثانية - لفرض نوع من السلام العالمي الذي يتناسب مع مصالح الدول الكبرى المنتصرة في الحربين، ونشطت الدبلوماسية الدولية، ووقعت اتفاقية فيينا سنة ١٩٦١م لتنظيم عمل البعثات الدبلوماسية بين الدول، وبيان ضوابطها. كما عقدت المؤتمرات ووضعت الاتفاقيات الدولية لضمان حقوق الأقليات.

كل هذه التطورات أدت إلى عدة نتائج:

١ - انتهاء الخلافة الإسلامية كرمز للوحدة الإسلامية التي كانت تعبر عن دار الإسلام. كما انتهى نفوذ البابوية والإمبراطورية اللتين كانتا تعبران عن الوحدة السياسية والدينية للغرب بعدائه التاريخي للإسلام.

٢- تجزئة دار الإسلام إلى دول وطنية، وقد أسهم الاستعمار بدور كبير في وضع حدودها بما يحقق مصالحه.

٣- استقرار مفاهيم الوطنية والقومية على مستوى النخب السياسية والفكرية، ووجود التعبير السياسي الواقعي عنها، ووضع العراقيل والموانع أمام أية محاولة لبعث

فكرة الوحدة الإسلامية، أو الخلافة الجامعة، أو السعي العملي لتوحيد الدول العربية والإسلامية.

٤- لم تمانع القوى الكبرى في وجود منظمات إقليمية تعبر عن الدول العربية - مثل جامعة الدول العربية التي أنشئت بتحريض بريطاني لتسهيل التعامل مع هذه الدول مجتمعة في فترة الحرب العالمية الثانية[١]- أو تعبر عن الدول الإسلامية - مثل منظمة التعاون الإسلامي - مع التأكيد على أنها مجرد منظمات للتنسيق والتعاون، لا ترقى إلى حد تحقيق الوحدة المنشودة بين شعوبها.

٥- قيام منظمات دولية تلزم أعضاءها بمواثيق تؤكد سيادة الدول الأعضاء، وحل المنازعات بينها بالطرق السلمية، وتنظيم التبادل الدبلوماسي بينها، وضمان حقوق أفرادها في التنقل والسفر إلى كافة الدول، وتضمن لهم الأمن في حالات السلم.

ترتب على ذلك إمكان الدعوة إلى الإسلام من خلال الوفود الرسمية، أو الأكاديمية، أو العمل التطوعي للعلماء وغيرهم، في ديار غير المسلمين ضمن القوانين الحاكمة في دولهم. ثم أسهم التطور العلمي والتقني في تطوير هذه الإمكانيات من خلال وسائل الإعلام الرسمي والشعبي، وأخيراً الإعلام الفردي الفاعل من خلال وسائل الاتصال الاجتماعي.

(١) راجع: جميل عارف: **صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام**، ١/ ٢٦٠-٢٦١، المكتب المصري الحديث، القاهرة، سنة ١٩٧٧م

المبحث الثاني

ظهور مصطلح "العالم الإسلامي" ودلالته

لقد ظهر مصطلح "العالم الإسلامي" أولاً في الكتابات الغربية الحديثة في بدايات القرن الماضي، إذ صدرت مجلة "العالم الإسلامي" ""The Muslim World عام ١٩١١م[١]، وكتب لوثروب ستودارد كتابه " "The New World of Islam سنة ١٩٢١م، وتُرجم إلى العربية تحت عنوان "حاضر العالم الإسلامي"[٢]، ومنها انتقل المصطلح إلى الكتابات الإسلامية.

وتأخر وجود إطار جامع لدول العالم الإسلامي - بعد تراجع شأن الخلافة ثم سقوطها - حتى تأسست منظمة **المؤتمر الإسلامي** في مؤتمر الرباط بالمملكة المغربية سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، بعدما تزلزل العالم الإسلامي نتيجة محاولة اليهود إحراق المسجد الأقصى المبارك، ثم تغير اسمها فيما بعد إلى منظمة التعاون الإسلامي سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، وهي تضم الآن في عضويتها سبعًا وخمسين دولة.

---

(١) نشأت المجلة كنتاج لمؤتمر التبشير العالمي الذي عقد في أدنبرة عام ١٩١٠ مثلما أشار صمويل زويمر في العدد الأول. ومنذ نشأتها حتى اليوم تصدر مجلة فصلية، لكنها شهدت في تطورها عبر السنوات الماضية تحولاً جذريًا في توجهاتها، بداية من اتباع الوسائل التبشيرية المباشرة والمتعصبة، إلى إظهار سمت الأكاديمية والصفة البحثية في محتواها، خاصة مع تغيير هيئتها التحريرية التقليدية من مبشرين متعصبين إلى كتاب ومفكرين أكاديميين، بعضهم من المسلمين، والمجلة يرأس تحريرها حاليا (سنة ٢٠١١م) د. يحيى محمد ميشوتYahya Michot المحاضر بالمركز الإسلامي بكلية اللاهوت، جامعة أوكسفورد، وزميل مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، وهو مسلم بلجيكي الجنسية، وله العديد من الكتب والمقالات في الفكر الإسلامي، خاصة عن ابن تيمية وابن سينا.(أمل خوري: **مجلة العالم الإسلامي.. رحلة تبشير في مئة عام**، مقال منشور بموقع أتباع المرسلين على الشبكة العنكبوتية، تم الاطلاع عليه بتاريخ ٤/ ٣/ ٢٠١١)، على الرابط: http://www.ebnmaryam.com/vb/t183216.html

(٢) **حاضر العالم الإسلامي**، راجع مقدمة المترجم عجاج نويهض ج١ ص ٢٩، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٧١م، وقد نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٥ بالمكتبة السلفية بالقاهرة

ويرى بعض الباحثين إمكان النظر إلى "العالم الإسلامي" على أنه مجموعة الدول التي تنتظم في عضوية "منظمة **التعاون الإسلامي**"، غير أن ثمة اعتراضًا على ذلك، فبعض هذه الدول لا يشكل المسلمون معظم سكانها، مثل أوغندا التي انضمت إلى منظمة المؤتمر الإسلامي منذ سنة ١٩٧٤م في أثناء حكم رئيسها الأسبق عيدي أمين، ويبلغ عدد مسلميها نحو ٤٠٪[١]، وغويانا التي انضمت إلى المنظمة منذ سنة ١٩٩٨م[٢]، وعدد المسلمين فيها نحو ١٥٪، وسورينام التي يبلغ عدد المسلمين فيها نحو ٣٣٪ من سكانها[٣].

بينما لا تحظى دول غالبية أهلها من المسلمين بعضوية هذه المنظمة، لرغبة هذه الدول عن ذلك، وتحكُّم الأقليات النصرانية بمقاليد الحكم فيها، مثل إريتريا وإثيوبيا[٤]، أو لأنها ما زالت تقع تحت الاحتلال كما في حال تركستان الشرقية التي تحتلها الصين، والشيشان وداغستان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية الداخلة ضمن الاتحاد الروسي[٥]. بل إن انضمام هذه الدول الواقعة تحت الاحتلال إلى عضوية منظمة التعاون الإسلامي أمر

---

(١) إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر: **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، مكتبة دار المريخ للنشر، الرياض، سنة١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م،، ٢/ ٢٦٩

(٢) ((راجع **موقع منظمة التعاون الإسلامي** للتعرف على دول المنظمة على الرابط: http://oic-oci.org/states/?lan=ar، وتقع غويانا على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، ولها حدود مع دولتي فنزويلا وسورينام (راجع عنها **موقع مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب**، التابع لمنظمة التعاون الإسلامي، على الرابط الآتي: http://www.sesric.org/cif-ar.php?c_code=22

(٣) راجع د. محمد عوض الهزايمة: **حاضر العالم الإسلامي وقضاياه السياسية المعاصرة**، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، سنة ٢٠١٢م، ص ٣١٥

(٤) إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: مرجع سابق ص ٢٥٢، وراجع أسماء ملكاوي: حالة العالم الإسلامي، أرقام ومؤشرات، موقع قناة الجزيرة، على الرابط:
https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/c73b7204-f2e5-4083-9476-9908b7e5bf64

(٥) راجع د. زيد محمد الرماني: **العالم الإسلامي مفهوم واحد أم مفاهيم متعددة؟** مقال على موقع الألوكة، ورابطه: https://www.alukah.net/world_muslims/0/126052/#ixzz67ov07ZQ4

مستبعد في الفترة الحالية، إذ ينص ميثاق المنظمة المعدل[١] على اشتراط اعتراف الأمم المتحدة بالدول التي تطلب الانضمام إليه[٢].

وقد نص الميثاق المعدل أيضًا على شرط جديد للعضوية، حيث أوجب أن تكون الدولة الساعية إليها ذات أغلبية مسلمة، وبذا أصبحت دولها التي تنضم - بعد تعديل ميثاقها - ذات أغلبية مسلمة، وإن ظلت في داخله بعض دوله ذات أغلبية غير مسلمة، انضمت إليه قبل التعديل، كما رأينا.. مما يعبر عن قلق ماثل في تعريفه للدولة الإسلامية. وإن انتصر آخر الأمر اعتماد المعيار الكمي لتعداد المسلمين في كل دولة معيارًا صالحًا لوصفها ب "الإسلامية"، وقبول انضمامها إلى المنظمة.

لقد كان ثمة رأي يقول بوجوب أن تكون تلك الدولة المنضوية تحت ميثاق المنظمة قد نصت في دستورها على أنها دولة إسلامية، أو أنها تعتمد الإسلام دينًا رسميًا لها، لكنهم استبعدوا ذلك، إذ خلت دساتير بعض دوله من ذلك، وبخاصة تلك التي لا يمثل المسلمون أغلبية سكانها، كما أن تركيا ينص دستورها على علمانية الحكم فيها[٣].

وبناء على ما سبق نجد أن المفكرين الغربيين قد استعملوا مصطلح "العالم الإسلامي" للتعبير عن محتوى سياسي جغرافي، وليس عقديًا بالضرورة، وتبعهم في ذلك الكتاب المسلمون، ويَقصدون به - كما يبدو من خلال استعمالهم - "تلك الرقعة المتصلة من العالم التي تضم دولاً معظم سكانها من المسلمين"، أي يزيد عدد المسلمين في كل دولة منه عن نصف عدد السكان، ويتوسع فيه بعضهم، فيجعله دالاً على كل دولة تزيد أعداد

---

(١) تم تعديل الميثاق في المؤتمر الذي انعقد في داكار بالسنغال سنة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

(٢) راجع **ميثاق منظمة التعاون الإسلامي** المادة الثالثة فقرة ٢، على الرابط:
https://www.oic-oci.org/page/?p_id=61&p_ref=27&lan=ar

(٣) راجع بلخير فؤاد: **التعاون في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية الحقوق، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص ٣٣-٣٥

المسلمين فيها عن أعداد غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، كما هو الحال في أوغندا التي يزيد عدد مسلميها عن عدد النصارى أو الوثنيين[١].

ولعل السيد محمد رشيد رضا من أسبق المفكرين المسلمين الذين أشاروا إلى أهمية تعداد السكان في تحديد الصفة الإسلامية، ذلك؛ حين تحدث عن "البلاد التي توصف بالإسلامية نسبة إلى السواد الأعظم من أهلها"[٢].

مفهوم العالم الإسلامي والأمة الإسلامية:

ويسوِّي بعض الباحثين بين مفهوم "العالم الإسلامي" ومفهوم "الأمة الإسلامية"، فيرى أن "العالم الإسلامي" هو "مفهوم جغرافي يشمل الدول التي تسكنها أكثرية مسلمة، أو كانت تخضع للمسلمين سابقًا، أو كانت ذات أغلبية مسلمة"، ويتألف من "الشعوب والدول ذات العقيدة الإسلامية على اختلاف بيئاتها، ومناطقها، وتباين ثقافاتها، وتعدد سلالاتها البشرية، ويندرج تحت مفهوم العالم الإسلامي أيضًا الأقليات الإسلامية التي تعيش في دول غير إسلامية"، وتُقدر مساحته بنحو ٣١ مليون كيلو متر مربع[٣].

ويمزج الكاتب هنا بين المنظور العقدي المنسجم مع هوية الأمة وحضارتها؛ والمنظور الجغرافي الواقعي.. ولو كان الأمر كما يصفه هؤلاء لوجب أن تتضاعف مساحة "العالم الإسلامي"، حيث سيضم الهند - وقامت بها سابقًا دول إسلامية كبرى- وأجزاء واسعة من شرق أوروبا حكمها العثمانيون، وكذلك الأندلس، وجنوبي فرنسا، وغيرها.

---

(١) د. محمد خميس الزوكة: **جغرافية العالم الإسلامي** ص ١١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ٢٠٠٠م

(٢) ((**الخلافة** ص ١٠٢ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٣م

(٣) د. تاج السر أحمد حران: **حاضر العالم الإسلامي** ص ٩- ١٠، إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

والحق أن توسيع المصطلح على ذلك النحو لا يستند إلى أساس مكين، وأنه يجب التفريق بين الوضعية القانونية والسياسية لبلدان العالم الإسلامي التي يشكل المسلمون غالب سكانها؛ ووضعية الأقليات الإسلامية التي تنتشر في معظم أنحاء المعمورة، وتقيم في دول لها خصوصياتها السياسية والاجتماعية، وأطرها القانونية.

إن الأقليات الإسلامية - حيث كانت - تتشارك مع بلدان العالم الإسلامي في مفهوم آخر، هو "الأمة الإسلامية" التي تضم المسلمين جميعًا، مهما تناءت ديارهم، وتباينت أحوالهم، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].. والوشائج الوثيقة التي تربط بين أبناء الأمة الإسلامية لم تتغير منذ برزت هذه الأمة إلى الوجود بظهور دعوة الإسلام.. وتشمل وحدة العقيدة، والقرآن الكريم، ووحدة المنظومة القانونية والأخلاقية، والتشارك في الإنتاج الحضاري، والإنجاز التاريخي، واللغة العربية التي ينطق بها أو يفهمها معظم أبناء الإسلام.

تعداد المسلمين في العالم:

وتبعًا لإحصائية أجراها مركز بيو للأبحاث Pew Research Centre فإن أعداد المسلمين قد بلغت في سنة ٢٠١٥م حوالي ١,٨ مليار نسمة، يشكلون ٢٤,١٪ من سكان العالم، وبحسب إحصائيات سنة ٢٠١٠م تتمثل أكبر كثافة سكانية للمسلمين في إندونيسيا، حيث يعيش ٢٠٩ مليون مسلم، أي حوالي ١٣٪ من مسلمي العالم، تليها كتلة المسلمين في الهند - وإن كانوا أقلية بالنسبة للهندوس - (١٧٦ مليونًا، أو حوالي ١١٪ من مسلمي العالم)، ثم باكستان (١٦٧ مليونًا، أو حوالي ١٠٪ من مسلمي العالم)، وبنجلاديش (١٣٤ مليونًا، أي ٨٪ من مسلمي العالم)، ثم في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حيث يعيش نحو ٢٠٪ من مسلمي العالم.

وتبعًا لإحصائيات عام ٢٠١٠م يعيش حوالي ثلاثة أرباع مسلمي العالم (١ , ٧٤٪) في ٤٩ دولة يشكل فيها المسلمون غالبية السكان، بينما يعيش أكثر من خمس المسلمين (٣ , ٢٣٪) أقليات في بلدان غير مسلمة في العالم النامي، ويعيش حوالي ٣٪ من مسلمي العالم في مناطق أكثر تطوراً مثل أوروبا وأمريكا الشمالية، وأستراليا ونيوزيلندا واليابان.. ويعيش نحو ربع المسلمين (٨ , ٢٤٪) في قارة آسيا، أما في إفريقية فإن أعداد المسلمين في تزايد مطرد، إذ بلغت أعدادهم في إفريقية جنوب الصحراء نحو ٥ , ٢٤٢ مليون في عام ٢٠١٠م، ومن المتوقع أن تصل إلى ٩ , ٣٨٥ مليون في عام ٢٠٣٠م[1].

الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي:

سبقت الإشارة إلى الرأي الراجح في تعريف العالم الإسلامي المعاصر، وأنه يعني الدول الإسلامية التي يشكل المسلمون غالبية سكانها، أو تزيد نسبتهم فيها عن غيرهم من أتباع الديانات الأخرى.

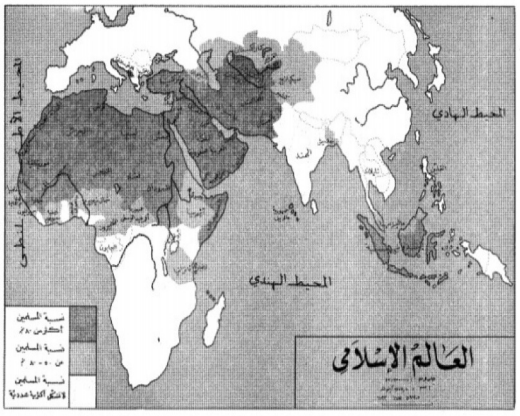

وعلى ذلك فإن رقعة العالم الإسلامي تمتد بين دائرة عرض٤٨ـ ٥٤° شمالاً حيث الحد الشمالي لجمهورية كازاخستان مع روسيا الاتحادية، ودائرة عرض ١٣ جنوبًا تقريبًا حيث تقع جزيرة مايوت Mayotte إحدى

(١) مركز بيو للأبحاث Pew Research Centre راجع الرابط: https://www.pewforum.org/2015/04/02/muslims/#fn-22776-40 تم الاطلاع عليه في ١٣/ ١/ ٢٠٢٠م الساعة ١٥ , ٤ عصرًا.

جزر القمر، أي أن العالم الإسلامي يمتد جغرافيًا بين الشمال والجنوب في حوالي ٦٨ دائرة عرض، بينما يمتد بين خطي طول ١٤١ شرقًا – عند الحدود الشرقية لإقليم إيريان الغربية التابع لإندونيسيا – و ٢٥ غربًا عند جزيرة سانتو أنتاو Santo Antao إحدى جزر جمهورية الرأس الأخضر بساحل غربي إفريقيا، أي أن العالم الإسلامي يمتد بين الشرق والغرب لأكثر من ١٩ ألف كيلو متر، ويصل إجمالي مساحته نحو ٣١,٦٨٨,٥٠٩ كيلو مترًا، وهو ما يوازي ٢٢,٢٪ من إجمالي مساحة اليابسة في العالم[١].

ولا يعني ذلك أن ما بين دائرتي العرض وخطي الطول المبينين جميعه ينتمي إلى العالم الإسلامي، فثمة بلاد غير إسلامية ضمن ذلك التحديد، كما أن الهند والصين ودولاً عديدة في جنوب شرقي آسيا تفصل أرخبيل ماليزيا وإندونيسيا عن بقية العالم الإسلامي، حيث شكلت سلسلة جبال الهيمالايا حاجزًا طبيعيًا متسعًا حال دون تواصل الفتح الإسلامي برًّا لشرق آسيا وجنوبها الشرقي، فوصلها الإسلام عن طريق التواصل البحري في المحيط الهادي، فانتشر في إندونيسيا وماليزيا، ومناطق ساحلية في الفلبين وميانمار وتايلاند وغيرها[٢].

وأكبر دول العالم الإسلامي مساحة هي كازاخستان ٢,٧٢٤,٩٠٠ كم٢، أما أصغرها مساحة فهي المالديف (٢٩٨ كم٢)[٣].

(١) د. محمد خميس الزوكة: **جغرافية العالم الإسلامي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ٢٠٠٠م، ص ١٧، وتوجد تقديرات أخرى متفاوتة عن مساحة العالم الإسلامي، ولكنها غير بعيدة عما ذكر أعلاه.

(٢) د. جمال حمدان: **العالم الإسلامي المعاصر**، نشر عالم الكتب، ط١، سنة ١٩٧١م، ص ٤٢-٤٣

(٣) كتاب حقائق العالم، منشور على الرابط:
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/

الفصل الثاني

نشأة العالم الإسلامي وتطوره

جاءت نشأة العالم الإسلامي متواكبة مع تنزل رسالة الإسلام، واعتناق الناس لها.

المبحث الأول: توسع الدولة الإسلامية زمن النبوة والخلافة الراشدة:

تأسست دولة الإسلام الأولى بالمدينة المنورة عقب هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، وكانت رقعتها تتسع باطراد مع تزايد عدد المؤمنين به، وسُمي العام التاسع للهجرة عام الوفود، حيث دخل الناس في دين الله أفواجًا بعدما فُتحت مكة في العام السابق له، وأسلمت زعيمة الوثنية العربية، ولم ينتقل الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى في العام الحادي عشر للهجرة حتى كانت شبه جزيرة العرب قد تغشاها نور الدين الجديد. وانقادت إليه.

ولم تكن حركة الردة إلا محاولة بائسة لبقايا الوثنية المحسورة، والروح القبلية التي ما زالت تستنكف عن الانصهار في الدولة المركزية الواحدة، واستشرت كالنار في أرجاء شبه الجزيرة، حتى لم يبق على إسلامه غير أهل المثلث الحضري: المدينة ومكة والطائف، وبقايا من القبائل في أنحاء متفرقة وسط مرتدين متوثبين بهم، فقيض الله لهم ثبات أبي بكر خليفة النبي صلوات الله عليه، وعزائم الصادقين من أصحابه، وسرعان ما انقمعت حركات المرتدين، وخبت نارهم في أقل من سنة واحدة[1]، وفي مطلع سنة ١٢هـ كانت جيوش الخلافة المنتصرة تغزو العراق الخاضع لاحتلال الفرس، وفي غضون أشهر قليلة

(١) بدأت الردة في أخريات حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث ادعى الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة وطليحة الأسدي النبوة، وقد توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ربيع الأول سنة ١١هـ، وواجه أبو بكر المرتدين في أعقابها، وفرغ منها في أخريات هذه السنة، (راجع تفصيلات أحداث الردة عند الطبري: **تاريخ الرسل والملوك** ٣/ ٢٤١- ٣٤٢).

كانت تطرد الفرس منه[١]، وفي أوائل سنة ١٣هـ بسط أبو بكر يده الأخرى إلى الشام فأرسل أربعة جيوش لفتحها[٢].

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة سنة ١٣هـ اتجه بهمته إلى إعادة فتح العراق الذي انتقض على المسلمين أواخر خلافة أبي بكر، فكانت معركة القادسية الحاسمة سنة ١٤هـ التي انتصر فيها سعد بن أبي وقاص على أكبر جيوش الفرس، ثم ما لبث سعد أن افتتح المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦هـ[٣]، وانساحت جيوش المسلمين فاتحة حتى افتتحت فارس كلها، وشنت الغارات على طبرستان وبلاد الترك، فصالحوا المسلمين، وغزت جيوش المسلمين أرمينية وأذربيجان، فافتتحت تلك النواحي في السنوات المباركات الباقيات من خلافة عمر (ت٢٣هـ)، ثم أُعيد فتحها في خلافة عثمان بن عفان، وفي خلافته أيضًا قتل يزدجرد آخر أكاسرة الفرس مهزومًا مطاردًا سنة ٣١هـ في خراسان[٤].

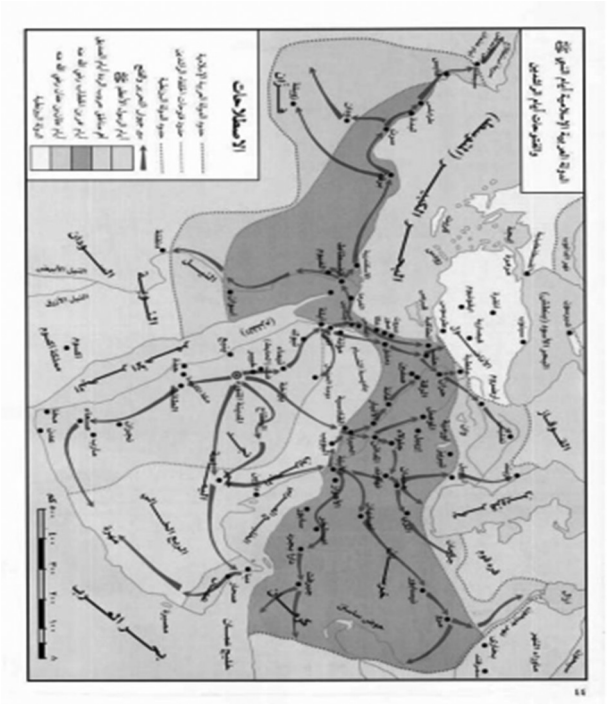

(١) راجع المصدر السابق ٣/ ٣٤٢-٣٨٥.

(٢) راجع المصدر السابق ٣/ ٣٩١.

(٣) ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠): **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٧، ٢/ ٣٣٨-٣٤١.

(٤) راجع د. حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٤، سنة ١٩٩٦م، ١/ ١٨١، وتفاصيل المعارك عند الطبري وابن الأثير.

أما الشام فقد توفي أبو بكر سنة ١٣هـ وجيوشه منشغلة بمعركة اليرموك مع حشود الروم المتكاثرة، وقد أمدهم قبيل وفاته بخالد بن الوليد، نقله من العراق إلى الشام، فكان لهم النصر المبين، مع بدء خلافة عمر بن الخطاب[١]، ثم انساحت الجيوش في الشام فأتمت فتحها في السنوات القليلة التالية ١٣-١٧هـ[٢].

وفي سنة ١٨هـ أذن عمر بن الخطاب لقائده عمرو بن العاص بفتح مصر، واستمر فتحها على الأغلب حتى سنة ٢١هـ، ثم واصلت قواته الفتح غربًا فافتتح برقة وطرابلس سنة ٢٢هـ[٣].

وفي خلافة عثمان غزا عامله على مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح إفريقية (تونس الحالية) فانتصر انتصارًا حاسمًا على جيش الروم بها، واضطرهم إلى طلب الصلح[٤]. وفي خلافته أيضًا كان تأسيس البحرية الإسلامية، على يد معاوية بن أبي سفيان الذي غزا جزيرة قبرص سنة ٢٨ أو ٢٩هـ واضطر أهلها إلى توقيع الصلح[٥]، وكانت معركة ذات الصواري نقلة كبيرة في تاريخ الأمة الناهضة، حيث انتصر الأسطول الإسلامي الوليد نصرًا حاسمًا على الأسطول البيزنطي العتيد سنة ٣٤هـ[٦].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/ ٢٥٥-٢٥٨

(٢) راجع تفاصيل الفتوح عند الطبري وابن الأثير في أحداث السنوات المذكورة

(٣) راجع وقائع الفتح عند ابن عبد الحكم: **فتوح مصر والمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، سنة ١٤١٥ هـ، البلاذري: فتوح البلدان ص ٢١٠-٢٢٣، ألفريد بتلر: **فتح العرب لمصر**، ترجمة محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

(٤) وكان فتح إفريقية سنة ٢٧، أو ٢٨، أو ٢٩هـ على اختلاف الروايات. راجع البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ): **فتوح البلدان** ص ٢٢٣-٢٢٤

(٥) البلاذري: المصدر السابق ص ١٥٣-١٥٤

(٦) ابن عبد الحكم: المصدر السابق ص ٢١٧-٢١٨

المبحث الثاني

توسع الدولة الإسلامية زمن الخلافتين الأموية والعباسية:

أولًا: توسع الدولة الإسلامية زمن الخلافة الأموية:

أما الموجة الثانية من الفتوحات الإسلامية فكانت في العصر الأموي، حيث كانت "سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبًا، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه"[1].

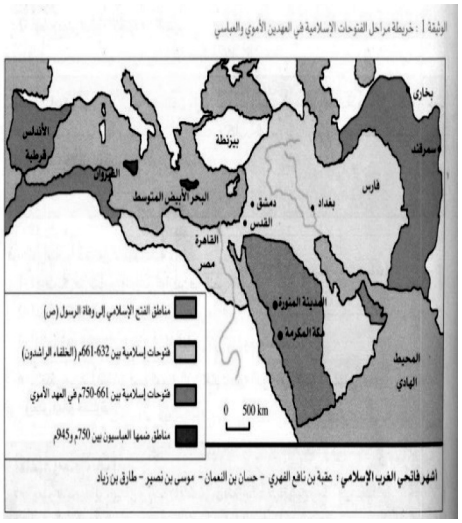

وكان استئناف حركة الفتح أول خلافة معاوية أمرًا لا بد منه، لشغل المسلمين بما ينفعهم، وتصريف قواهم الحربية في الجهاد وتحرير العباد، بدل صرفها في الحروب الأهلية كما حدث أواخر عصر الراشدين في أثناء الثورة على عثمان وحروب الجمل وصفين والنهروان.

ففي **شرق الدولة الإسلامية** تتابعت غزوات جيوش معاوية محاولة فتح بلاد السند، وتثبيت الفتوحات في خراسان، والانطلاق منها لغزو أراضي تركستان مرات متعددة، وفي

(١) ابن كثير: **البداية والنهاية** ٩/ ١٠٤، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، سنة ١٤٠٨/ ١٩٨٨م

خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) ضم ولاية خراسان وسجستان إلى الحجاج بن يوسف مع ولاية العراق سنة ٧٨هـ، فشهدت الفتوحات بها نقلة كبيرة، وتتالت غزوات المهلب بن أبي صفرة بلاد الترك، غير أن الفضيلة الكبرى لفتح بلاد الترك والوصول إلى كاشغر على حدود الصين الغربية تعود إلى قتيبة بن مسلم الباهلي في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ)، الذي حقق استقرار الفتح في هذه الجهات، وسعى جاهدًا إلى نشر الإسلام بين أهلها.

وتولى يزيد بن المهلب ولاية خراسان سنة ٩٧هـ في خلافة سليمان بن عبد الملك، فافتتح جرجان وطبرستان في السنة التالية، أما بلاد السند شمالي الهند فقد غزاها محمد بن القاسم الثقفي، وألح في غزوها، حتى أتم فتحها سنة ٩٠هـ[١].

انتشار الإسلام في شرق الدولة الإسلامية:

وساعدت عدة عوامل على انتشار الإسلام المبكر في هذه المناطق منها اختلاط المسلمين الفاتحين بأهل البلاد الأصليين إذ سكن المسلمون مدنهم ولم يبنوا مدنًا جديدة كما كان الحال في العراق ومصر حيث بنوا الكوفة والبصرة والفسطاط، ومنها كثرة السبي والموالي الوافدين على العراق والحجاز من فارس واختلاطهم بالمسلمين؛ وإسلام بعض قادتهم منذ وقت مبكر مثل الهرمزان زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما كان لمصاهرة الفرس لآل البيت دور كبير في تقريب الفرس إلى الإسلام، حيث ساعد على اختلاط الدين بالقومية الفارسية القوية، فكان زواج الحسين بن على من ابنة يزدجرد آخر ملوك فارس طريقًا مفتوحًا لهم نحو الإسلام ثم التشيع فيما بعد[٢].

---

(١) راجع وقائع الفتح عند البلاذري والطبري وابن الأثير

(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣٨

وإزاء مقاومة الفرس وانتقاضهم المتكرر أدرك الفاتحون "أن الأمر لا يستقر للمسلمين في هذا الجانب من الأرض إن لم يرافق هذا الغلب الحربي أنواع من الاتصال بالأرض، والاختلاط بالسكان، ومن ثم توثيق العلائق بهم، وطيّ هذه الفجوات التي تفصل بينهم"[١]، ولذا فقد عمد الأمويون إلى نوع من التهجير الجماعي لبعض العرب إلى هذه المناطق الشرقية، فاستقروا هناك واختلطوا بالناس، وزادت معرفتهم بالإسلام ومعايشتهم له[٢].

أما في **شمال الدولة الإسلامية**؛ حيث الحدود مع الدولة البيزنطية؛ فقد سنَّ معاوية - منذ كان أميرًا زمن عمر بن الخطاب - نظام الصوائف والشواتي ليضمن استمرار الجاهزية العسكرية للمسلمين، ودوام الضغط العسكري على البيزنطيين، بتسيير الجيوش للغزو في الصيف - وتسمى صوائف - وتسييرها للغزو في الشتاء، وتسمى شواتي. وشحن الدروب النافذة إلى آسيا الصغرى بالمقاتلة يرابطون في حصون منيعة عرفت بإقليم العواصم والثغور، وغزا معاوية بنفسه الصوائف في عدة سنوات[٣].

تتابعت غزوات قادة معاوية أراضي آسيا الصغرى، برًا وبحرًا، واشتهر قادة كبار منهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وبسر بن أرطأة، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وجنادة بن أبي أمية الأزدي، وغيرهم، ووصلت بعض جيوشهم إلى عمورية، جنوب أنقرة الآن.

وكان الهدف الأكبر للدولة الأموية هو فتح القسطنطينية التي غزتها جيوشهم ثلاث مرات: الأولى سنة ٤٩-٥٠هـ بقيادة يزيد بن معاوية، وتوفي فيها الصحابي أبو أيوب

(١) د. شكري فيصل: **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، سنة ١٩٨١م، ص ٢٠٥

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٧٩-٣٨٠، ٣٩٦

(٣) راجع د. حمدي شاهين: **الدولة الأموية المفترى عليها**، دار القاهرة للكتاب، ط١، سنة ٢٠٠٢م، ص ١٥٥

الأنصاري[1]، ودفن تحت أسوار المدينة العتيدة، والثانية فرض فيها المسلمون حصارًا جزئيًا على القسطنطينية أعوام ٥٤-٦٠هـ، يحاصرونها صيفًا، ويأوون إلى جزيرة أرواد القريبة منها شتاء[2]، وكانت المرة الثالثة في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨-٩٩هـ، ولم تحقق النتيجة المرجوة أيضًا[3]، وظلت العاصمة البيزنطية متحدية وصامدة حتى فتحها العثمانيون فيما بعد على يدي محمد الفاتح، سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م كما سنرى.

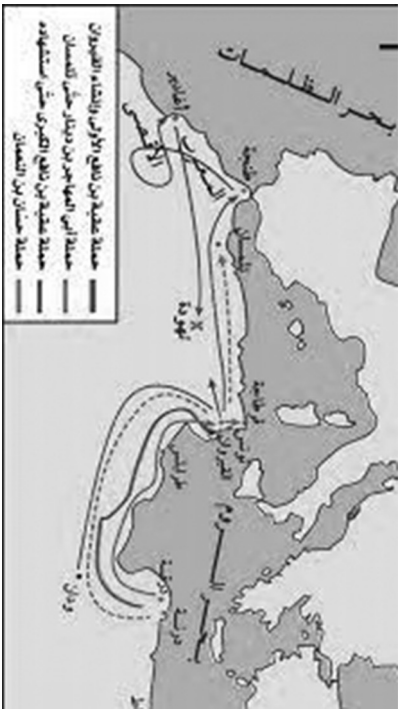

وفي غرب العالم الإسلامي اتجه معاوية بن أبي سفيان أوائل خلافته إلى استئناف الفتوحات في شمالي إفريقية، فافتتح أمير مصر معاوية بن حديج بعض مدنه[4]، وفي سنة ٤٦هـ ولى الخليفة معاوية عقبة بن نافع ولاية إفريقية، فكانت له الفتوحات الواسعة، واختط مدينة القيروان لتكون قاعدة لفتوحاته سنة ٥٠-٥٤هـ، ولما عزل عقبة وتولى أبو المهاجر دينار إفريقية سنة ٥٥هـ غزا المغرب الأوسط، وعُني بدعوة البربر إلى الإسلام، فأسلم كثير من قبائلهم.

وفي سنة ٦٠هـ أعيد عقبة بن نافع مرة أخرى إلى ولاية إفريقية، وواصل غزوه السريع حتى بلغ المحيط الأطلسي، وقال: " يا رب لولا هذا البحر لمضيت في

(١) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٥٦-٥٧

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق أحداث السنوات المذكورة، محمود شاكر: **موسوعة الفتوحات الإسلامية**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، سنة ٢٠٠٢م، ص ١٢٨-١٢٩

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ٤/ ٨٦-٨٧، ٩٩، محمود شاكر: المرجع السابق ١٨٩٩-١٢

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٢٢١

البلاد مجاهدا في سبيلك"، لكنه استشهد في طريق عودته إلى القيروان سنة ٦٣هـ على يد البربر، الذين واصلوا قتال المسلمين حتى سقطت القيروان في أيديهم سنة ٦٤هـ[١]، وكأن جهود سنوات الفتح الماضية ذهبت هباءً..

وكان على المسلمين أن ينتظروا سنين عددًا حتى تستقر أوضاعهم السياسية بعد ثورة ابن الزبير، فلما دانت الأمور إلى عبد الملك بن مروان وجَّه جيشًا ضخمًا لاستعادة إفريقية بقيادة حسان بن النعمان الغساني، وذلك سنة ٧٤هـ، لكن حسانًا هزم هزيمة منكرة من قوات البربر، واضطر للتراجع بجيشه إلى برقة، وفي سنة ٨٠هـ أعاد عبد الملك الكرَّة، فبعث جيشًا ضخمًا تحت قيادة حسان بن النعمان الذي نجح هذه المرة في هزيمة البربر وإبادة جيشهم، ثم بنى مدينة تونس، لتكون قاعدة لفتوحاته القادمة، وأنشأ فيها داراً لصناعة الأسطول. وبث دعاته بين البربر، يعلمونهم قواعد الدين واللغة العربية، ففشا فيهم الإسلام حتى أصبح معظم جيشه منهم.

وفي سنة ٨٥هـ تولى إمارة إفريقية موسى بن نصير، فتابع الفتوحات حتى استكمل فتح المغرب الأقصى كله سنة ٨٧هـ[٢]، أي بعد أكثر من أربعين سنة منذ بدأ معاوية بن حُدَيج فتوحاته هناك.

انتشار الإسلام في شمال إفريقية:

وتزامنت مع حركة الفتح حركة الدعوة إلى الإسلام ونشر اللغة العربية، وقد بذل الفاتحون في ذلك جهودًا حثيثة مستبصرة، وحققوا نتائج هائلة، وكان من وسائلهم في ذلك بناء المدن، كالقيروان وتونس، وتشييد المساجد في كل صقع يصلون إليه، وبث

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٢٠٥-٢٠٧

(٢) راجع في فتوحات شمال إفريقية د. السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط٢، سنة ١٩٨٢م، ص ٨٨-١٧١

الدعاة لدعوة البربر، وبخاصة زعمائهم، وإشراكهم في الجيوش الإسلامية، بل تولوا مناصب القيادة فيها، مثل طارق بن زياد الذي أسهم بدور بارز في فتح طنجة، ثم ولاه موسى بن نصير إمارتها، وسيكون بعد قليل قائد الجيش المتجه لفتح الأندلس.

وكانت أعداد السبي نتيجة الحروب كبيرة، واختلط هؤلاء بسادتهم من العرب، فكانت تلك الخلطة من أنجع الوسائل لنشر الإسلام فيهم، وكانت حاجة البربر لتعلم اللغة العربية كبيرة، إذ كانت لهجات قبائلهم متباينة، وتعرقل وحدتهم وتعايشهم في مجتمعهم الجديد، فأقبلوا يتعلمونها، ولن يمضي وقت طويل حتى نرى منهم من يتجه إلى الشرق لطلب العلم، ونرى القيروان قد أضحت منارة من منارات العلم والتحضر الإسلامي[1].

فتح الأندلس:

كان قرار عبور مضيق جبل طارق **لفتح الأندلس** يحتاج إلى استئذان الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتحديد غايات الفتح، وكانت الغاية وقتها الوصول إلى القسطنطينية من جهة الغرب، بعد أن تعذر فتحها من الشرق، وكانت الخطوة الأولى هي شن حملات استطلاعية لاختبار قوة الأعداء ومعرفة طبيعة الأرض التي ستجري عليها المعارك الأولى، لقد أنجز طريف بن عبد الله المهمة بنجاح، وبدأ موسى بن نصير يجهز قواته ويطمئن إلى وسائل العبور الكافية، وجعل قائده طارق بن زياد أميرًا على سبعة آلاف معظمهم من البربر[2]. استطاع طارق عبور المضيق، ونزل عند الموضع الذي عرف باسمه فيما بعد في جنوبي شبه الجزيرة، ومضي يتوسع نحو الشمال، وهزم الجيوش التي أرسلها إليه لذريق ملك القوط الإسبان واحدًا إثر الآخر، حتى كانت المعركة الكبرى التي جرت في منطقة شذونة

---

(١) راجع د. حمدي شاهين: الدولة الأموية المفترى عليها ص ٢٥٦-٢٥٨

(٢) راجع: المقري، أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٩٧م، ١/ ٢٥٣-٢٥٤

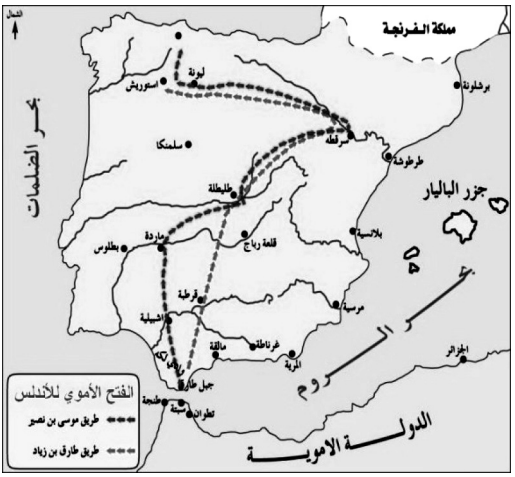

إلى الغرب من جبل طارق، وخاضها طارق بقواته التي بلغت اثني عشر ألفًا - بعد إمداد موسى بن نصير له بخمسة آلاف، بينما بلغ جيش لذريق أعدادًا هائلة اختلف حولها المؤرخون، وذلك في رمضان سنة ٩٢هـ، واستمرت المعارك ثمانية أيام، وحقق المسلمون فيها نصرًا حاسمًا، وقتل فيها لذريق أو غرق، أو هرب، على اختلاف الروايات، وتشتت جيشه شذر مذر، بين قتيل ومأسور وفارٍّ مخذول[١]، واستثمر طارق نتيجة انتصاره، وتوافد جموع كثيرة من المسلمين إليه بعدما سمعوا أخبار نصره، فأرسل قطعة من جيشه بقيادة مغيث الرومي فافتتحت قرطبة[٢]، فيما زحف هو نحو الشمال، مشتتًا جموع من لاقوه، حتى وصل إلى طليطلة، وتبعد عن موقع انتصاره في شذونة نحو ٦٥٠ كيلو مترًا، وقد قذف الله الرعب في قلوب أعدائه، ففروا عنها، فافتتحها دون عناء[٣].

ثم عبر موسى بن نصير في جيش بلغ ثمانية عشر ألفًا إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣هـ، وقد تخوَّف على طارق بن زياد ومن معه أن تطوقه جيوش النصارى الإسبان بعدما أوغل في بلادهم، فاختار أن يسلك جنوب البلاد وغربها، ليستبرئ المناطق التي خلفها طارق في زحفه السريع، والتي يخشى أن يستولي عليها النصارى، فيقطعوا خطوط إمداد طارق،

(١) المقري: المصدر السابق ١/ ٢٥٥-٢٥٩، وراجع في تفاصيل المعركة د. أحمد مختار العبادي: **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت)، ص ٣١-٣٥

(٢) المقري: المصدر السابق ١/ ٢٥٩-٢٦٣

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٦٤، د. حسين مؤنس: **موسوعة تاريخ الأندلس**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٦م، ١/ ١٩

وسبيل مواصلاته إلى العدوة المغربية، وجعل هدفه مدينة إشبيلية لحصانتها وخطورة موقعها خلف قوات طارق، وكانت عاصمة الأندلس قبل أن ينقل القوط العاصمة إلى طليطلة، فحاصرها أشهرًا، ثم افتتحها، وواصل زحفه فافتتح ماردة بعد جهد[1]، ثم واصل مسيره حتى التقى بطارق بن زياد وواصلا فتح بقية البلاد معًا[2].

انتشار الإسلام في الأندلس:

كانت الأوضاع في إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي وفي أثنائه تمهد السبيل لانتشار الإسلام بين قاعات عريضة من السكان، فقد كانت الكاثوليكية قد فرضت فرضًا على السكان النصارى المخالفين لها في المذهب، واشتعلت الخصومات المذهبية التي حولت النصرانية إلى هرطقات يكفر بعضها بعضًا، ويصعب فهم تعقيداتها العقدية، ورأى الكثيرون في الإسلام الداخل إليهم وضوح العقيدة، وسهولة الدين.

وكان الفساد يضرب بأطنابه في الكنيسة التي تباع فيها المناصب الدينية لمن يزيد، مع تراجع الفضائل الأخلاقية لرجال الدين، وتعاظم آثامهم، واستشراء نفوذهم.

كما جعل اضطهاد الكاثوليكية لليهود جماعة ناقمة على حالها، تترقب وقت الخلاص، ولا تمانع في منح ولائها للجيش الإسلامي الفاتح، الذي وجدوا فيه الخلاص من عبوديتهم وشقائهم، ووجد فيهم معينًا له.

فضلاً عن نقمة جماعات الرقيق التي سيمت الخسف والمهانة في المجتمع القوطي المتعالي، ورأوا في الإسلام حريتهم وكرامتهم، فبادروا إلى اعتناقه مرحبين[3].

---

(١) المقري: المصدر نفسه ١/ ٢٦٩-٢٧٠، د. حسين مؤنس: **فجر الأندلس**، مكتبة العصر الحديث للنشر والتوزيع، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٢م، ص ١٥٢-١٥٤

(٢) المقري: المصدر نفسه ١/ ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٥-٢٧٦، د. العبادي: مرجع سابق ص ٣٧

(٣) راجع في تلك العوامل أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٥٤-١٥٦.

وكان التسامح الذي امتاز به الفاتحون المسلمون مما يقارب بين السكان والإسلام، فكانت الجزية المفروضة - في مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين - مما لا يشكل عبئًا يذكر، وقد أعفي منها الرهبان والنساء والأطفال والفقراء والمرضى والأرقاء، وتمتع النصارى بالحرية الدينية، فسلمت كنائسهم وأديرتهم وصلبانهم، بل بُنيت أديرة جديدة، وأحيانًا كنائس جديدة، ونعموا بالحرية في إقامة شعائرهم، وفي أعيادهم واحتفالاتهم الدينية، وفي التحاكم أمام قضاتهم، بل في ارتقاء المناصب العالية في البلاط، وفي الجملة فقد حظوا من الحرية وطيب المعاملة بما لم يحظ به إخوانهم النصارى الذين آثروا الرحلة إلى فرنسا المجاورة، والإقامة بين ظهراني إخوتهم في الدين، حيث تعرضوا للمظالم المتكررة، وطالما جأروا بالشكوى من تردي أحوالهم[1].

وكثر اختلاط النصارى الإسبان مع المسلمين، والتصاهر بينهم منذ وقت مبكر، حيث تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير أمير الأندلس بأرملة لذريق ملك القوط الهالك، وعظم تأثر الإسبان بالمسلمين في لغتهم، وفي مظهرهم وعاداتهم، حتى سموا المستعربين Muzarabes، وحلت اللغة العربية محل اللاتينية في التعامل بين الناس، وفي طلب العلم، بل في الكنائس، حيث غدت لغة التعبد آنذاك، حتى جأر بعض كبار الإسبان بالشكوى من تغلغل لغة المسلمين وثقافتهم وعاداتهم بين بني ملتهم.

لقد أسفرت تلك العوامل كلها عن انتشار الإسلام في الأندلس، وتسارع التحول الديني إليه من غير إكراه[2]، "حتى قال أحد كبار المستشرقين: "لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بعدًا تامًا عن الاضطهاد الديني"[3]. لتدخل بذلك أمة جديدة إلى عالم الإسلام الرحيب متعدد اللغات والقوميات والديانات في منظومته الإنسانية الرحيبة، والراقية، والمتفردة.

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧-١٥٩.

(٢) راجع المصدر السابق ص ١٥٩-١٦٣.

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٤

الفتوحات في جنوب فرنسا:

لم تتوقف فتوحات المسلمين عند حدود الأندلس، بل عبرت جيوشهم جبال البرنيه (البرتات) الفاصلة بين الأندلس وفرنسا عدة مرات، كان من أهمها غزوة السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠١ هـ، حيث عبر جبال البرنيه، وحقق عدة انتصارات متتالية، واستعاد معظم مدن مقاطعة سبتمانيا (لانجدوك)، ثم اتجه غربًا نحو مقاطعة أكوتين (أقطانية)، وحاصر مدينة طولوشة (تولوز)، وهناك تكالبت عليه جيوش النصارى يقودها أودو كونت أكوتين، واستطاعت أن تنتصر انتصارًا كبيرًا على المسلمين، وتبيد معظم جيشهم، وخر السمح بن مالك نفسه شهيدًا، وذلك سنة ١٠٢ هـ[1].

وفي سنة ١٠٥هـ غزا عنبسة بن سحيم الكلبي، وكانت غزواته سريعة خاطفة، حتى أوغل في مسيره حتى اجتاح حوض نهر الرون كله، وتخطى نهر اللوار، ووصل إلى نهر السين، إلى مسافة تبعد نحو ٧٠ كيلو مترًا جنوبي باريس، أي أنه أبعد عن جبال البرنيه إلى مسافة ٨٠٠ كيلو متر، مما يذكرنا بالغزوة السريعة لعقبة بن نافع التي وصل فيها إلى شاطئ الأطلسي، لكنه - كما حدث لعقبة أيضًا - اصطدم على غير أهبة بجيوش النصارى، فلقي الشهادة قبل أن تلحق به بقية جيشه، وذلك سنة ١٠٧ هـ[2].

---

(١) راجع تفاصيل هذه المعارك عند د. حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس ١/ ٣٩، عنان: **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٩٧م، ١/ ٧٥-٧٦

(٢) راجع د. مؤنس: المرجع السابق ١/ ٤٠، عنان: المرجع السابق ١/ ٨٢

وكانت أخطر جهود الفتح في فرنسا غزوة عبد الرحمن الغافقي في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٤هـ، الذي اقتحم الجنوب الفرنسي كله، ووصلت جيوشه إلى قريب من باريس، عاصمة فرنسا الحالية، بعدما استولى على بلدتي تور وبواتييه، فأثارت غزوته الهلع في أرجاء أوروبا، فتقاطرت الإمدادات الصليبية تدعم جيوش الفرنجة الجرارة، التي قادها شارل مارتل، وكان الجيش الإسلامي قد أثقلته الغنائم الهائلة التي ظفر بها من معاركه السابقة في الجنوب الفرنسي، وتخللت صفوفه النزاعات بسببها، ولم تفلح جهود الغافقي في إقناعهم بالتقلل منها، والتخفف من أثقالها، وقد حقق الغافقي نصرًا باهرًا أول الأمر في القتال الذي استعر نحو عشرة أيام، لكن جيش الفرنجة استطاع النفاذ إلى معسكر غنائم المسلمين، مما أثار الجزع في نفوس كثير منهم، فارتدوا لحماية أسلابهم وغنائمهم، فكانت الدائرة عليهم، وأصيب الغافقي بسهم أرداه شهيدًا، فاختل نظام جيشه، لكنه صمد حتى جنَّ الليل، وآثر الانسحاب تحت جنح الظلام، تاركًا غنائمه التي جلبت عليه عار الهزيمة، وسُمِّيَ الموضع الذي جرت فيه المعركة "بلاط الشهداء"، ولم تجرِ بعده محاولات جسيمة لاستمرار الفتوح في تلك الأنحاء[١].

وقد صف بعض المؤرخين هذه المعركة؛ وهزيمة المد الإسلامي فيها؛ بأنها "كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب، ففي سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره، وتغيرت مصائر العالم القديم كله، وارتد تيار الفتح الإسلامي أمام الأمم الشمالية، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب، وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام..."[٢].

ثانيًا: توسع الدولة الإسلامية في خلافة العباسيين:

لم يشهد العصر العباسي فتوحات واسعة كتلك التي شهدها العصر الأموي، وبخاصة في شرق الدولة، حيث استقرت الحدود مع الصين عدا معارك ومكاسب محدودة[٣].

---

(١) راجع عنان: المرجع نفسه ١/ ٩٦-١٠١.

(٢) المرجع السابق ١/ ١١١.

(٣) كموقعة نهر طراز سنة ٢٣٣هـ (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٤٠).

أما الجبهة الشمالية فكانت مسرحًا لحروب متعددة لم تستهدف إحداث فتح مستقر، وإن أسهمت في قمع خطر الروم، بل أجبرت بعض ملوكهم على دفع الجزية للمسلمين، كما حدث في حملة الأمير هارون ابن الخليفة المهدي سنة ١٦٥هـ التي بلغ فيها خليج البسفور، واضطر الإمبراطورة البيزنطية إيريني إلى دفع الجزية[١]، وقد حاول خليفتها نقفور التمرد على تلك الحال المهينة، فأرسل إلى هارون الرشيد - بعدما أصبح خليفة المسلمين – بادئًا باسمه قبل اسم الرشيد، قائلاً: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أضعافها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك"، فرد عليه الرشيد برسالته المشهورة: "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه، والسلام". ثم سار إليه - وذلك سنة ١٨٧هـ – حتى نزل على هرقلة، ففتح وغنم وأحرق وخرَّب، فسأله نقفور المصالحة على خراج يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك[٢].

وكما حدث في حملة الخليفة المعتصم على عمورية بسبب هجوم جيش الروم على زبطرة وملطية من حصون المسلمين، وعيْثه فيها، وأسره من أهلها، فصاحت امرأة مسلمة قرشية من السبي: "وامعتصماه"! فأجابها الخليفة:"لبيك، لبيك"، وسار مع جيوشه وكبار قادته، سنة ٢٢٣هـ، قاصدًا عمورية - من أعظم حصونهم - قرب أنقرة، فخرب ما بينهما، وأحرق، وهدم عمورية وأحرقها[٣].

---

(١) راجع الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٨/ ١٥٢-١٥٣، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ): **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، سنة ١٣٩٧هـ ص ٤٣٨.

(٢) الطبري: المصدر السابق ٨/ ٣٠٨، ابن الأثير: المصدر السابق ٥/ ٣٥٨-٣٥٩.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ٦/ ٣٨-٤٤.

التوسع الحضاري في العصر العباسي:

لئن كان العصر العباسي لم يشهد فتوحات كبرى كالتي شهدها العصر الأموي؛ فإنه شهد توسعًا رأسيًا بزيادة أعداد الداخلين في الإسلام من أبناء الشعوب المفتوحة، ومشاركتهم الثرية في ازدهار حضارته في شتى ميادينها، حتى برع منهم من فاق كثيرًا من أبناء العرب أنفسهم الذين حملوا إليهم رسالته، فبرع رجال من أمثال سيبويه وابن جني وابن فارس وعبد القاهر الجرجاني في **اللغة والنحو والبلاغة**، والطبري والقرطبي والزمخشري في **التفسير**، والبخاري ومسلم بن الحجاج والنسائي وابن ماجة وأبي داود في **الحديث الشريف**، والليث بن سعد -وأصل أسرته فارسي- والغزالي والجويني والفخر الرازي في **الفقه**، والبيروني والإدريسي والإصطخري في **الجغرافيا والفلك**، والرازي والزهراوي وابن زهر وابن النفيس في **الطب**، وجابر بن حيان والخوارزمي وابن الهيثم في **الرياضيات**، والبلاذري والطبري واليعقوبي في **التاريخ**، وابن سينا والفارابي في **الفلسفة**، وغيرهم كثيرون، تعرَّب آباؤهم، وتعربوا، وتحدثوا العربية، وكتبوا بها، وبرعوا فيها، فكان لهم في حضارة الإسلام أوفى نصيب.

ولما ضعفت الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٦٥٦هـ) ظهرت الدول المستقلة في شرق الدولة وغربها، وكان لبعضها دور في مد مساحة الدولة الإسلامية، كما فعل الأغالبة وغيرهم في فتح جزر البحر المتوسط، والغزنويون في الهند، والسلاجقة في آسيا الصغرى، وسنعرض لكل ذلك في مواطنه، إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: فتح جزر البحر المتوسط:

وكانت بعض الجزر شرقي المتوسط قد شهدت فتحًا إسلاميًا، أو بسطًا للنفوذ الإسلامي منذ زمن الخلفاء الراشدين، وكان معاوية بن أبي سفيان استأذن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزو البحر فلم يأذن له، فلما ولى عثمان بن عفان كتب إليه يستأذنه

في غزوة **قبرص**، ويُعلِمُه قربها، وسهولة الأمر فيها، فكتب إليه أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين استأمرته في غزو البحر. فلما دخلت سنة ٢٧هـ كتب إليه معاوية مرة أخرى، يهوِّن عليه ركوب البحر إليها، فكتب إليه عثمان: فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونًا لك، وإلا فلا"، وإنما اشترط ذلك عليه ليأخذ كامل العدة والحذر، مخافة أن تقع امرأته أسيرة إن غُلب المسلمون، فتكون سُبَّة عليه، فركب معاوية أسطوله، وحمل امرأته فاختة بنت قرظة معه، وأنزل الله نصره على المسلمين، حتى اضطر أهل قبرص إلى طلب الصلح، فصالحهم معاوية، وذلك سنة ٢٨هـ أو ٢٩هـ، وكان جماعة من الصحابة ضمن جيش معاوية، منهم عبادة بن الصامت وامرأته أم حرام بنت ملحان التي بشرها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها من أول جيش يغزو في البحر[1]، وقد عثرت بها دابتها فماتت أثناء الغزوة، ودفنت هناك، فكان أهل قبرص يعرفون قبرها بأنه قبر المرأة الصالحة.. ثم غزاهم معاوية ثانية سنة ٣٣هـ - وقيل سنة ٣٥هـ - لما أعانوا الروم على غزو المسلمين بمراكب أعطوهم إياها، ففتحها عنوة، "وأقرهم على صلحهم، وبعث إليها باثني عشر ألفًا من المسلمين، فبنوا بها المساجد"[2].

(١) البخاري: الصحيح ٤/ ١٦، ٨/ ٦٣، ٩/ ٣٤، مسلم: الصحيح ٣/ ١٥١٨

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٥٣-١٥٤.

وافتتح جنادة بن أبي أمية الأزدي **جزيرة رودس** سنة ٥٢هـ، "وأمره معاوية فأنزلها قوما من المسلمين"[١]، وجزيرة أرواد – ويحددها الجغرافيون المسلمون بأنها قريبة من القسطنطينية - سنة ٥٤هـ، "وأسكنها معاوية المسلمين"[٢] أيضًا، مما يكشف عن رغبة الخلافة في دوام بقاء تلك الجزر بحوزة الدولة الإسلامية، ونشر الإسلام فيها.

ثم كان للأندلسيين دور بارز في فتح عدة جزر أخرى، كان أولها جزيرة كريت (أقريطش) الواقعة شرقي المتوسط قريبًا من بحر إيجة، وكان جنادة بن أبي أمية قد غزاها أيضًا في خلافة معاوية، ثم تعاقب الغزو عليها زمن الأمويين والعباسيين[٣]، لكن لم يتم فتحها نظرًا لبسالة دفاع البيزنطيين عنها؛ لأهميتها بالقرب من عقر دارهم، ثم غزاها عدة آلاف من الغزاة الأندلسيين، وبدأ فتحهم لها سنة ٢١٢هـ، وظلت في أيدي المسلمين، وكانت قاعدة لشن الهجمات على الجزر والأراضي البيزنطية في شرقي المتوسط، حتى سقطت بأيدي النصارى البيزنطيين بعدما هاجموها بأسطول من ألفي سفينة حربية سنة ٣٥٠هـ، ولم يستطع الإخشيديون بمصر والعبيديون (الفاطميون) بإفريقية إنقاذها[٤]، وستظل بأيديهم حتى يستعيدها العثمانيون سنة ١٠٨٠هـ.

وامتدت سيطرة المسلمين إلى أواسط البحر المتوسط وغربيه، حتى أصبح "بحر الروم" بحرًا إسلاميًا في معظمه، فاستمرت محاولات فتح **صقلية** على فترات في العصر الأموي[٥]، أما الفتح المنظم لها فقد بدأ على يد زيادة الله بن الأغلب الذي أوفد قاضي

(١) المصدر السابق ص ٢٣٣.
(٢) المصدر السابق والصفحة.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٣-٢٣٤.
(٤) السيد عبد العزيز سالم و د. أحمد مختار العبادي: **البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٦٩م**، ص ٦٧-٦٨، ٨١-٩٤.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ٩٥-٩٦.

القيروان أسد بن الفرات لفتح الجزيرة سنة ٢١٢هـ، ففتح أجزاء منها، ثم أدركته الوفاة، واستمرت جهود الأغالبة لاستكمال فتحها حتى تم لهم ذلك في عهد أميرهم إبراهيم بن أحمد الأغلبي سنة ٢٩٦هـ، أي أن الجزيرة العنيدة قد استغرق فتحها من الأغالبة نحو ٨٤ عامًا[١]، وظلت الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي المهم بأيدي المسلمين، وأصبحت إحدى أهم معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبـا، حتى سقطت في أيدي النورمان النصارى - الذين كانوا قد استولوا على جنوب إيطاليا - بعد مقاومة إسلامية طويلة، وذلك سنة ٤٨٤هـ[٢].

وافتتحت جزيرة **مالطة** أيضًا سنة ٢٥٥هـ أيام حكم الأغالبة إفريقية، بما لها من أهمية عسكرية في غرب البحر المتوسط، وظلت تحت سيطرة المسلمين حتى انتزعها منهم النورمان سنة ٤٨٣هـ[٣].

أما جزيرة **سَرْدَانِيَة** - وهي جزيرة كبيرة واقعة بين إيطاليا والأندلس - فقد "غزاها المسلمون في سنة ٩٢هـ في عسكر موسى بن نصير"[٤]، وتكرر غزوهم لها عدة مرات، منها غـزوة سنة ١٣٥هـ وسنة ٣٢٣هـ[٥]، حتى افتتحها مجاهد العامري أحد القادة الأندلسيين البارزين سنة ٦٠٤هـ، واتخذها قاعدة للهجوم على مدن إيطاليا، وبخاصة بيزة وجنوة، مما أدى إلى تحالف قوى النصرانية ضده، ودعمها قوى البحرية الإيطالية، حتى

---

(١) راجع تفاصيل الفتح عند ابن الأثير: المرجع السابق ص ١٠٤-١١٩

(٢) راجع المصدر السابق ص ٢٠٧-٢٠٩، وانظر الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٠م، ص٣٦٧، أماري: **المكتبة العربية الصقلية**، طبعة ليبسك سنة ١٨٥٧م، ص ٢٧٣-٢٧٨.

(٣) د. سالم و د. العبادي: مرجع سابق ص ١٢١-١٢٢.

(٤) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٥م، ٣/ ٢٠٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٤٤.

تمكنت من إلحاق الهزيمة به، وتدمير أسطوله القوي، واستعادة السيطرة على الجزيرة، وعاد مجاهد إلى ملكه في الجزائر الشرقية للأندلس[١].

أما **جزر البليار** أو الجزائر الشرقية - وهي تلك الواقعة بالقرب من الساحل الشرقي للأندلس - وأهمها ميورقة، ومنورقة، ويابسة، فقد غُزيت عدة مرات منذ إمارة موسى بن نصير، حتى دانت لمجاهد العامري أمير دانية سنة ٤٠٥هـ[٢]، وغدت مركزًا لغزو سواحل إيطاليا الشمالية والغربية، فتحالفت قوى النصارى في إيطاليا وإسبانيا ضدها، واستطاعوا احتلالها في النهاية سنة ٦٢٧هـ، بمعاونة حشود صليبية ضخمة، وارتكبوا في حق أهلها مذبحة كبرى، قتل فيها زهاء ثلاثين ألفًا من المسلمين[٣].

(١) المصدر السابق ٤/ ٤٤٥،، ٧/ ٦٣٥، الحميدي، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي (ت٤٨٨هـ): **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٦م، ص ٣٥٣.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت٨٠٨هـ): تاريخ ابن خلدون (المسمى **العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط١، سنة ١٩٨١، ٤/ ٢١٠-٢١١

(٣) عنان: المرجع السابق ٤/ ٤٠٣-٤٠٧

المبحث الثالث

الفتوحات الإسلامية في الهند وشرق آسيا:

١- فتح الهند:

كانت معرفة العرب بالهند قديمة قبل الإسلام، حيث كان التجار من سواحل بلاد العرب الجنوبية يصلون بتجارتهم إلى سواحل الهند وما وراءها، فلما عمَّ الإسلام جزيرة العرب في أخريات حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلفائه الراشدين حمل التجار معهم بشريات الدين الجديد إلى تلك البلاد التي يئن أهلها من الوثنية الضاربة أطنابها فيهم، ومعها ألوف الديانات والخرافات، فضلاً عن الطبقية الاجتماعية الخانقة، فأصبح للإسلام ذكر وأتباع - وإن قلت أعدادهم - وبخاصة على سواحل السند ومليبار المطلة على بحر العرب[١].

ولم تزد محاولات الفتح زمن الخلفاء الراشدين عن مناوشات خاطفة لم تجد دعمًا من الخلفاء[٢]. وتجددت محاولات محدودة لغزو شمال الهند في خلافة معاوية[٣]، فلما كانت خلافة الوليد بن عبد الملك، استطاع محمد بن القاسم الثقفي غزو بلاد السند، شمالي الهند، وفتحها بلدًا إثر الآخر[٤].

ظلت بقية بلاد الهند بمنأى عن الفتح الإسلامي حتى كان العصر العباسي الثاني، وضعف أمر الخلفاء، وظهرت الدول المستقلة في شرق الدولة وغربها. ومن هذه الدول الدولة الغزنوية، وعاصمتها غزنة من بلاد الأفغان، ومؤسسها سبكتكين الغزنوي (ت

---

(١) راجع د. عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٨٨-٨٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٤١٦.

(٣) المصدر السابق ص ٤١٧-٤١٨.

(٤) راجع المصدر السابق ص ٤٢٠-٤٢٣

٣٨٧هـ)، والذي سيَّر عدة جيوش لفتح الهند، وهزم ملكها جيبال، وافتتح عدة حصون ومدائن[١]، لكن الفتح الأعظم لها كان من نصيب ولده محمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١هـ).

سار محمود الغزنوي للغزو سنة ٣٩١هـ، وفي مطلع ٣٩٢هـ التقى بملكهم جيبال، وبدد جيشه، واقتاده أسيرًا، "وفتح من بلاد الهند بلادًا كثيرة، فلما فرغ من غزواته أطلق سراح الملك جيبال الذي أرهقه الشعور بالذل، فحلق رأسه، ثم ألقى نفسه في النار"[٢].

وكرر محمود الغزو سنة ٣٩٥هـ، فافتتح "بهاطية" من أعمال الهند[٣].. وتتابعت غزواته، فغزا "الملتان"، وافتتحها[٤]، وافتتح كشمير، وإليه يرد الفضل في نشر الإسلام بهذا الإقليم الجبلي الواسع، وافتتح إقليم البنجاب كله، وما حوله، وكذا إقليم قنوج سنة ٤١٠هـ، وهو "درة ولايات الهند الشمالية وأقدمها"[٥].

"ولئن كان غزو قنوج[٦] يُعد من بين وقائع محمود الحربية الباهرة، فإن فتح "الكُجرات" و"سومنات" هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعًا"[٧]. وكانت هذه الغزاة الباهرة سنة ٤١٦هـ، وسومنات هذه بلدة كبيرة على ساحل بحر العرب، في شمال غرب الهند،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٥٥-٣٥٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ٧/ ٥٢٤-٥٢٥، وراجع عبد الحي بن فخر الدين الحسني (ت ١٣٤١هـ): **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"**، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ١/ ٧١،

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ٧/ ٥٣٩.

(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٨١-٤٨٢.

(٥) د. أحمد محمود الساداتي: **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**، مكتبة الآداب، القاهرة، (د.ت)، ١/ ٩٢، ٩٣.

(٦) راجع ابن خلدون: المصدر السابق ٤/ ٤٩١.

(٧) د. الساداتي: المرجع السابق ١/ ٩٤.

وبها أحد أعظم أصنامهم[١]، فافتتح البلدة بعد حرب ضروس، وكسر الصنم، وأحرق بعضه، وأخذ بعضه الآخر معه إلى مقر ملكه في غزنة، فجعله عتبة لجامعه[٢].

ولمعبد سومنات قداسة عظمى عتد الهندوس حتى الآن، "حتى إنهم بادروا من فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة، أي بعد مضي أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له"[٣]

لقد ظل محمود الغزنوي يجاهد حتى غزا بلاد الهند "سبع عشرة مرة في مدى سبعة وعشرين عامًا، فيما بين عامي ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م، و٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية"[٤]، ولم ينكسر له جيش، ولم تنتكس له راية، حتى أدركته الوفاة سنة ٤٢١هـ[٥].

ولم يكن محمود الغزنوي مجرد حاكم أو قائد مجاهد، بل كان فقيهًا، ألف كتابًا في الفقه سماه "التفريد في الفروع"، واشتهر كتابه بين العلماء في بلاد غزنة، "وهو في غاية الجودة، وكثرة المسائل، ولعله نحو ستين ألف مسألة[٦]... وكان حنفي المذهب، لكنه لما رأى أن مذهب الشافعي أوفق بظواهر الحديث تشفَّع"[٧].

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ٧/ ٦٨٤، وراجع ابن خلدون: المصدر السابق ٤/ ٤*١-٤٩٣.

(٢) راجع عبد الحي الحسني: الإعلام ١/ ٧٢.

(٣) الساداتي: مرجع سابق ١/ ٩٥.

(٤) الساداتي: المرجع نفسه ١/ ٨٧، وراجع في جهوده العسكرية ١/ ٨٨-٩٧، و د. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص ١١٥-١٢٣.

(٥) راجع في ترجمته تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، سنة ١٤١٣هـ، ٥/ ٣١٤-٣٢٧، ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٤م، ٥/ ١٧٥-١٨٢، عبد الحي الحسني: الإعلام ١/ ٧١-٧٣.

(٦) حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ١/ ٤٢٦، مكتبة المثنى، بغداد، سنة ١٩٤١م

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ١٨٠-١٨١، السبكي: مصدر سابق٥/ ٣١٦.

وكان عاقلا دينا خيرا، عنده علم ومعرفة، وصنف له العلماء كثيرا من الكتب في فنون العلم، وقصده أهل العلم من أقطار البلاد، وضم بلاطه جماعة من أكابر علماء عصره... وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم، كثير المعروف[1].

كانت آثار خلفاء محمود الغزنوي في استكمال فتح الهند محدودة، حتى جاءت الموجة الثانية للفتح هناك على يد شهاب الدين الغوري (ت ٦٠٢هـ) الذي اتخذ من لاهور عاصمة لدولته في الهند، وقد استطاع أن يحقق انتصارًا كبيرًا على تجمع لملوك الهند سنة ٥٨٨هـ، في حين استطاع نائبه على الهند قطب الدين أيبك افتتاح دلهي وجعلها عاصمة للهند سنة ٥٨٩هـ، كما واصل شهاب الدين الغوري غزواته وانتصاراته، حتى استقام له شمال الهند جميعه من السند إلى البنغال الشرقية، وعلى أيدي رجاله بدأ الحكم الحقيقي للمسلمين بالهند، فقد تحول الغزاة إلى الاستقرار، والإقامة الدائمة بالبلاد التي فتحوها[2].

وحكم **المماليك** الهند منذ أيام قطب الدين أيبك، ثم تلتهم أسرة الخلجي الأفغانية الأصول، فبرز من بينهم علاء الدين الخلجي (٦٩٦-٧١٦هـ)، وقد عُرف بالإسكندر الثاني، نظرًا لكفاءته العسكرية، وتصديه للفتح ورد غارات المغول على

(١) عبد الحي الحسني: الإعلام ١/ ٧٢-٧٣، الساداتي: المرجع نفسه ١/ ٩٩-١٠٠.

(٢) راجع د. عبد المنعم النمر: مرجع سابق ١٣٤-١٣٩، د. الساداتي: مرجع سابق ١/ ١١٥-١٢١.

مملكته، وله اليد البيضاء في فتح أواسط الهند، فافتتح مملكة الكجرات، ثم مملكة "جيتور"، وفتح مملكة الدكن سنة ٧٠٦هـ - وقد استعصت على من قبله - ودانت له ممالك أخرى، منها مملكة "مهرات"[١].

ثم جاء حكم **المغول** للهند (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦-١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م)، ليجعل منها قوة حضارية، ومركزًا للثروة الاقتصادية والرقي العلمي، وبرز ملوكهم الكبار بدءًا من ظهير الدين بابر، ومرورًا بجلال الدين أكبر، وابنه جهانكير، ثم شاه جهان، وأعظمهم أورنكزيب الملقب بعالَمكير الذي مد رقعة الإسلام بالهند إلى الشرق، فضم آسام وأراكان في بورما[٢]، وتوسع في اتجاه الجنوب، فضم إمارات المراهتا و بيجابور وكولكنده[٣]، وفي سنة ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م أصبح شبه الجزيرة الهندية في يد أورنكزيب[٤].

لم يكن خلفاء أورنكزيب على درجة من القوة تمكنهم من الحفاظ على هذه المملكة الواسعة، وظلت الأمور في صراعات داخلية، واضمحلال، في الوقت الذي كان الإنجليز فيه يتوسعون تحت ظل شركة الهند الشرقية البريطانية - التي أسست سنة ١٦٠٠م[٥]- ويحسمون الأمور لصالحهم بعد طول منافسات وصراعات بينهم وبين البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين، وبوسائل شتى جمعت بين الدهاء والمخاتلة والقوة، وضرب

---

(١) راجع د. النمر: مرجع سابق ص ١٥٨-١٥٩.

(٢) د. النمر: المرجع نفسه ص ٣٤٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٥٤.

(٤) د. حسين مؤنس: **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٧م، ص ٢٥٨.

(٥) جوستاف لوبون: **حضارات الهند**، ترجمة **عادل** زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٩م، ص ٢٤١.

الملوك الصغار آنذاك بعضهم ببعض[١]، حتى تمكنوا من دخول العاصمة دلهي سنة ١٨٠٣م، ثم تمكنوا من القضاء على ثورات المسلمين وغيرهم، وإخضاع البلاد لهم سنة ١٨٥٨م، فكانت سيطرتهم على بلاد مترامية الأطراف تضم ملايين البشر بقوات محدودة العدد قوامها عدة آلاف أمرًا مثيرًا للعجب، إذ أحكموا سيطرتهم على الهند برجال من الهند ذاتها، وبأموال من أموالها، "وإن شئت فقل: بجنود غير جنودهم، ونقود غير نقودهم"[٢].

انتشار الإسلام في الهند:

ولا تسعفنا وقائع التاريخ بتصور شافٍ عن الطرق التي انتشر بها الإسلام في الهند، غير أن التصور الأولي يُنبئ بقصور كبير في دور الحكومات الإسلامية المتتابعة هناك في نشر الإسلام، بدليل تعاقب ثمانية قرون ونصف من الزمن سادت فيها تلك النظم الإسلامية بينما ظلت ملايين السكان تحتفظ بوثنيتها، وتتباين دياناتها، بالرغم من الطبيعة المواتية لبلاد لا يجمع بين أهلها دين، أو قومية، أو لغة واحدة.. ويعاني أهلها من غلبة الطبقية الجائرة، والقهر الاجتماعي.

لقد كانت طوائف المنبوذين والمهمشين اجتماعيًا تشكل محيطًا مهيأً للإقبال على الإسلام، يستهدف حياة إنسانية راقية، وملاذًا من أوضار العبودية، وقد حدث تحول كثير منهم إلى الإسلام بالفعل[٣]، لكن كثيرين آخرين لو وجدوا الاستيعاب السياسي والمجتمعي الإسلامي لهم لكان التاريخ الهندي قد اتخذ مسارًا جديدًا[٤].

---

(١) راجع عن ذلك التنافس والصراع جوستاف لوبون: السابق ص ٢٤١- ٢٤٥.

(٢) لوبون: المرجع السابق ص ٢٤٨.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٠١-٣٠٢، ٣٢٣-٣٢٤.

(٤) راجع د. النمر: الإسلام في الهند ص ٥٥-٥٦.

وقد كان الفاتحون الأولون في العصر الأموي، والتجار النشطون، والدعاة المخلصون الذين بادروا بالارتحال إلى الهند يموجون بالحماسة الدينية، ولا ريب أنهم تركوا آثارهم الدعوية باستقرارهم في الأماكن الشمالية والشمالية الغربية، وبعض السواحل على بحر العرب[١]، كما أسهم تجار ودعاة في مراحل تالية في نشر الإسلام في جزر المالديف، وفي منطقة الدكن، واستمرت جهودهم السلمية في بلاد السند وما صاقبها من المناطق الشمالية الهندية، فغلب الإسلام على هذه النواحي، بالرغم من التفتت السياسي الذي عانته[٢]، وكذا بلاد التبت التي أبلى تجار كشمير بلاء حسنًا في تحويل كثير من أهلها إلى الإسلام[٣]، كما انتشرت الدعوة إلى الإسلام في إقليم البنغال، حيث وُجد الدعاة المخلصون، والحكام المتحمسون، ووجد المهمشون من الطبقات المستضعفة، الذين رأوا فيه طوق النجاة من أوضاعهم المزرية، ووجدوا في عقيدته السهلة ما ارتاحت إليه نفوسهم[٤].

لكن كثيرًا من الفاتحين الآخرين - مثل الغزنويين والخلجيين والمغول- لم يكونوا على ذات الحماسة، أو فهم الإسلام على نحو يمكنهم من الدعوة الكثيفة إليه، ثم شغلتهم الفتوحات والحروب الأهلية المتتالية، والمؤامرات المتواصلة عن نشر الإسلام والتعريف به، اللهم إلا في حالات محدودة. ولقد حاول بعض المستشرقين رد كثير من حالات الدخول في الإسلام إلى الإكراه السياسي والديني فإن الواقع يبدد هذه الدعاوى، إذ مضت ثمانية قرون ونصف وما زال أغلب سكان الهند غير مسلمين[٥].

(١) أرنولد: المرجع السابق ص ٢٩٦-٢٩٨، ٣٠٥-٣٠٦.
(٢) أرنولد: المرجع نفسه ص ٣٠٢-٣٠٨.
(٣) المرجع نقسه ص ٣٢٩-٣٣٠.
(٤) المرجع نفسه ص٣١١-٣١٥.
(٥) المرجع السابق ص ٢٩٢-٢٩٥

وكان التصوف الانعزالي الغالب على كثير من علماء ذلك العصر- وبعضه ممزوج بالخرافة - حائلاً بما يقدمه من إشباع روحي لأصحابه عن استهداف دعوة غيرهم.

٢- انتشار الإسلام بين المغول:

توحدت قبائل المغول تحت قيادة جنكيزخان[١]، فزاد توحشها، واستفحل خطرها، وانطلقت جحافلهم تدمر كل ما وقف في طريقها، حتى اجتاحت أواسط آسيا، وشرق ووسط أوروبا، وسقطت تحت ضرباتهم الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ، ولم يقف في طريقها إلا قوة المماليك الناشئة في مصر والشام، فأذاقتهم مرارة الهزيمة في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ[٢].

كان المغول يدينون بالشامانية، فكانوا - "على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر- لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من "الآلهة" المنحطة، وبخاصة تلك "الآلهة" الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان؛ والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم"[٣]، فغدت تلك العقائد الساذجة عاجزة عن مواجهة العقائد الكبرى المنتشرة آنذاك: الإسلام والنصرانية والبوذية.

---

(١) واسمه "تيموجين"، وجنكيزخان لقبه، ومعناه أعظم الحكام، أو إمبراطور البشر، ولد في منغوليا سنة ٥٤٩ م، (راجع د. فؤاد عبد المعطي الصياد: **المغول في التاريخ**، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨٠م، ١/ ٣٩، ٤٨) وقد استطاع إخضاع قبائل المغول له، وأخضع مناوئيهم من قبائل التتار، وإن غلبت تسمية التتار على المغول حينًا من الدهر (المرجع السابق١/ ٢٦-٢٧)، والموطن الأصلي للمغول هو هضبة منغوليا في أواسط آسيا، جنوبي سيبيريا وشمالي التبت، وغربي منشوريا، وشرقي التركستان (المرجع نفسه ١/ ٣٠)

(٢) راجع الهمذاني، رشيد الدين بن فضل الله (ت ٧١٨هـ): **جامع التواريخ، (الإيلخانيون)**، ترجمة محمد صادق نشأت وصاحبيه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ت) مجلد ٢ ج١، ص ٣١٣-٣١٤.

(٣) أرنولد: مرجع سابق ص ٢٥١.

لقد حقق البوذيون قدرًا من النجاح في اجتذاب أعداد من المغول إلى ديانتهم، وبخاصة في الجزء الشرقي من إمبراطورية المغول"[١]، كما لقيت النصرانية الشرقية – في مذهبها النسطوري – شيئًا من التوفيق[٢]، لكن النصرانية لم تكن مهيأة للانتشار بين المغول بسبب الانشقاقات المذهبية والتردي الأخلاقي والانتهازية السياسية [٣].

وكان لتحريض البوذيين والنصارى ضد المسلمين أثره في إهاجة غضب المغول على المسلمين، واجتياح بلادهم، وقتل الملايين منهم، وتدمير مظاهر حضارتهم، "وعلى الرغم من جميع المصاعب، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف، وجعلوها في مواطئ أقدامهم، ولسوء الحظ لا يلقي التاريخ إلا ضوءًا يسيرًا على تقدم حركة الدعوة الإسلامية هذه"[٤].

وعلى الرغم من الروايات التي تثبت إسلام بعض أمراء المناطق المغولية[٥] يبقى إسلام "بركة خان" (ت ٦٦٥هـ) علامة فارقة في تاريخ تحول المغول إلى الإسلام، وبركة خان هو ملك القبيلة الذهبية المغولية في روسيا، وسواء كان إسلامه على يد بعض التجار، أو أنه أسلم في طفولته، فقد سعى في نشر الإسلام بين قومه، فانتشر في سرعة وعمق، وعارض عدوان المغول على المسلمين، وإسقاطهم الخلافة العباسية، وغزوهم الشام، وتحالف مع الظاهر بيبرس ضد بني قومه من المغول الكفار في آسيا[٦].

---

(١) أرنولد: المرجع نفسه ص ٢٥٢.

(٢) رشيد الدين: مصدر سابق مجلد٢ ج١ ص ٢١٩-٢٢١.

(٣) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٢-٢٥٤.

(٤) أرنولد: المرجع السابق ص ٢٥٨.

(٥) المرجع نفسه والصفحة.

(٦) راجع المرجع السابق، المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ١/ ٤٨٦، ٥٣٩.

استطاع بركة خان الصمود في وجه مقاومة التحول إلى الإسلام التي أبداها بعض قادة المغول في دولته[١]، وأحرزت قضية انتشار الإسلام مزيدًا من النجاح في عهد خلفه "أوزبك خان"، والراجح أن قبائل الأوزبك في أواسط آسيا قد انتسبت إليه، وقد فشا الإسلام بينهم، غير أن نجاح أوزبك في وسط آسيا لم يضارعه نجاحه في الدعوة إلى دينه في بلاد الروس، ويُعزى ذلك إلى ضعف نفوذ المغول في روسيا بالرغم من حكمهم إياها على مدى قرنين من الزمان[٢].

ثم اعتنق "تكودار أحمد بن هولاكو الإسلام، وتحمس للدعوة إليه، ووثق صلاته بسلطان المماليك في مصر سيف الدين قلاوون[٣]، ولكن أمر تكودار وما أحدثه من ثورة دينية سياسية واجتماعية لم يكن ليمر عفوًا صفوًا، إذ أغضب المغول وحلفاءهم من النصارى، فثار عليه ابن أخيه أرغون وقتله، وخلفه على العرش، وظلت الوثنية حاكمة حتى جاء غازان فأعلن إسلامه سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م، وتسمى بمحمود غازان، فكان إسلامه حدثًا جللاً في تاريخ المغول، وانفسح باب انتشار الدين الحق على مصراعيه بين مغول فارس[٤].

وقد أسلم أخوه وخليفته أولجايتو، وتسمى باسم محمد خدابنده، بعدما كان نصرانيًا، وفي عهده أصبح الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات (ملوك) فارس[٥].

ويشير أرنولد بحق إلى دور السبايا المسلمات في التأثير على رجالهن ودعوتهم إلى الإسلام، كما تجدر الإشارة إلى دور الدعاة المسلمين، وبعض الصوفية المتحمسين

(١) أرنولد: المرجع السابق ص ٢٧١.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٧١-٢٧٢.
(٣) المرجع نفسه ٢٦٠-٢٦١.
(٤) راجع المرجع السابق ٢٦٣-٢٦٤، المقريزي: السلوك ٢/ ٢٥٩.
(٥) أرنولد: المرجع نفسه ص ٢٦٤-٢٦٥.

للإسلام، ورغم التضحيات الكبيرة التي قدمها المسلمون إثر هزائمهم المروعة في فترة الزحف المغولي الهادر فقد انتشر الإسلام في آسيا الوسطى، وعلى الأطراف الغربية للصين في كاشغر، بعد مد وجزر عنيفين[١].

وسيظل من عجائب الإسلام أن يتحول المغول إلى الإسلام، ويصبحوا دعاة إليه، وفي عداد حماته، ومن آثارهم نشر الإسلام في بلاد الروس، وتحقيقهم في ذلك نتائج كبيرة، كما حدث في منطقة القرم وليتوانيا[٢]، وفي قازان؛ عاصمة جمهورية تتارستان الآن[٣]، وفي سيبيريا التي انضوت تحت لواء الحكم الإسلامي بعدما حكمها كوتشم خان أحد الأمراء المغول من أحفاد جنكيز خان حوالي سنة ١٥٧٠م، واستقدم إليها الدعاة من بخارى وقازان[٤].

٣- انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا:

يمتد الوجود الإسلامي على مناطق واسعة من جزر جنوب شرق آسيا، أبرزها جزر ماليزيا وإندونيسيا وبروناي التي يشكل المسلمون غالبية سكانها، مع وجود أقليات مسلمة في الفلبين، وفطاني بتايلاند، وميانمار (بورما)، وسنغافورة، وهي البلاد التي كان يطلق عليها اسم أرخبيل الملايو، أو جزر الهند الشرقية، والتي اشتهرت – في فترة تاريخية سابقة في الحجاز ومصر – باسم "بلاد جاوة"، وهي إحدى جزر إندونيسيا[٥].

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٦-٢٧٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧٦.

(٣) المرجع نفسه ٢٧٨-٢٨٣.

(٤) المرجع نفسه ٢٨٣-٢٨٤.

(٥) عبد الغني يعقوب فطاني: **مساهمات علماء جاوا في إثراء التراث الملايوي العلمي**، مجلة الإسلام في آسيا، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية الماليزية، مجلد ١٢، العدد ٢، ديسمبر سنة ٢٠١٥م، ص ٢٨.

ولم تصل مسيرة الفتوحات الإسلامية إلى تلك الأنحاء، بل وصلها الإسلام مبكرًا مع التجار العرب الذين اعتادوا أن يجوبوا موانئ البحار في القرن الهجري الأول[١]، وفي أوائل القرنِ السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، تغيّرَ حالُ المسلمين في أرخبيل الملايو بسببِ انهيارِ قوةِ الممالكِ الهندوسية، وانتشارِ الدعوة الإسلاميةِ بشكلٍ قويٍّ وواضحٍ في الأرخبيل، فاستطاع المسلمون تأسيسَ العديدِ مِن الممالكِ الإسلاميةِ القويّة[٢]؛ وقد تحدث الرحالة ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) عن مشاهداته في بلاط سلطان جاوة الملك الظاهر، ووصفه بأنه "من فضلاء الملوك وكرمائهم، شافعي المذهب" وتحدث عن حبه للفقهاء ومجالسته معهم، وكثرة غزوه وجهاده، وظهوره على من يليه من أعدائه[٣].

ومع النفوذ السياسي وتكون الممالك الإسلامية كان النشاط التجاري وما يصاحبه من نشر الإسلام في تصاعد، "وفي الفترة التي بين القرنين العاشر والخامس عشر - حتى قدوم البرتغاليين - كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع"[٤]، ومع التجار والدعاة العرب كان الدعاة يفدون من جنوبي الهند، وربما كان ذيوع المذهب الشافعي في أرخبيل الملايو عائدًا إلى نشاطهم، حيث إن المذهب السائد في المناطق المجاورة لهم هو المذهب الحنفي[٥]، وكانت رقعة الإسلام تتسع في رويّة وثبات بوسائل التجار والدعاة السلمية، حيث تكلموا لغة البلاد، وأصهروا إلى أهلها، واشتروا العبيد، فزادت قوتهم، وتنامت ثرواتهم، فكانت سبيلاً إلى تزايد الدور السياسي، ثم تأسيس الممالك الإسلامية[٦].

---

(١) محمود عيد فهمي: **الإسلام في أرخبيل الملايو في القرون العشر الأول من الهجرة**، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم جامعة المنيا، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، الفصل الثاني.

(٢) راجع عن هذه الممالك المرجع السابق الفصل الثالث.

(٣) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ): **رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، سنة ١٤١٧هـ، ٤/ ١١٤.

(٤) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٤٠١.

(٥) راجع أرنولد: المرجع السابق ص ٤٠٢.

(٦) المرجع نفسه ص ٤٠٣.

ومن أشهر هذه الممالك التي تأسست في الأرخبيل سلطنة أتشيه في شمال سومطرة، التي تأسست على يد السلطان علي محياة شاه سنة ١٤٩٦م، وتصدت للاستعمار البرتغالي الذي سيطر على عدة ممالك مجاورة، بل توسعت أتشيه على حسابها بفضل مساعدات العثمانيين الذين دخلوا في تحالف مع سلطنة أتشيه، واستمرت السلطنة بين قوة وضعف حتى هاجمها الهولنديون، ورغم مقوماتها الصلبة سقطت بيد الهولنديين سنة ١٩٠٤م[١].

إن تتبع حركة انتشار الإسلام في جزر الأرخبيل واحدة إثر الأخرى، وفي ممالكها يسير في مسارات متشابهة من الدعوة السلمية الهادئة، والتواصل الاجتماعي الحميم، مع بعض الصراعات المحدودة مع القوى الوثنية والهندوسية[٢].

وكانت نهايات الممالك الإسلامية أيضًا متشابهة، إذ إن التنافس الاستعماري بين قوى الاستعمار الزاحف مع ما سُمّي مع الكشوف الجغرافية الإسبانية والبرتغالية أولاً في القرن السادس عشر الميلادي، ثم الهولندية والبريطانية بعد ذلك، والأمريكية، أودى باستقلال تلكم الممالك، رغم ما أبدته من بطولات وتضحيات كبيرة متواصلة في مقاومته[٣].

---

(١) راجع محمود شاكر: **إندونيسيا**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٢٤، وراجع **سلطنة أتشيه**، مقال منشور على ويكيبيديا الموسوعة الحرة، ورابطه https://cutt.us/OVEGP، تم الاطلاع عليه بتاريخ ١٦/ ٧/ ٢٠٢٠ الساعة ٢١,٣٠.

(٢) راجع أرنولد: السابق ص ٤٠٣-٤٤٨

(٣) راجع مقال: "**الإمبراطورية البرتغالية**" على موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط: https://cutt.us/cV9q0 تم الاطلاع عليه في ١٨ / ٧/ ٢٠٢٠ الساعة ١٢ ظهرًا.

المبحث الرابع

الفتوحات الإسلامية في آسيا الصغرى وأوروبا:

١- فتح آسيا الصغرى زمن السلاجقة:

ينتسب السلاجقة إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق، وهم إحدى قبائل الغز التركية، وتعود مواطنهم الأولى إلى منطقة تركستان في أواسط آسيا، وقد أعلن سلجوق وقبيلته إسلامهم في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ودخلوا في صراعات مع جيرانهم الغزنويين، واستطاعوا بمزيد من الصبر والجلد التوسع على حسابهم، حتى بسطوا سلطانهم على خراسان، وما زالوا يتوسعون غربًا حتى وصلت جيوشهم أيام سلطانهم طغرلبك إلى تخوم الدولة البويهية الشيعية التي كانت تخضع لسيطرتها الدولة العباسية السنية المذهب، فانتهز الخليفة العباسي الفرصة، واستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك الذي دخل بغداد ظافرًا، وأزال ملك البويهيين سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وتوفي طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، فخلفه ابن أخيه ألب أرسلان، الذي غزا أراضي أرمينية، ودخل عاصمتها، ومد غزواته إلى أملاك البيزنطيين في آسيا الصغرى، وحقق عدة انتصارات، وتجهز لغزو الشام، وإنهاء الخلافة الفاطمية (العبيدية)[1]، ولكن قُدِّر لجيشه المحدود الذي جهزه لتلك المهمة أن يواجه الجيش البيزنطي اللجب الذي قاده الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينوس بنفسه، وهاجم السلاجقة، ورفض عرض السلطان ألب أرسلان بالصلح، قائلاً: "لا صلح إلا بالري"، أي عاصمة السلاجقة، وفي شهر رجب سنة ٤٦٣هـ/ أغسطس ١٠٧١م، التقى الجيشان في ملازكرد، وكانت المعركة غير متكافئة،

---

(١) د. قاسم عبده قاسم: **ماهية الحروب الصليبية** سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٤٩، الكويت، سنة ١٩٩٠م، ص ٧١-٧٣، د. حمدي شاهين: **الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي**، دار الهاني للطباعة، (د.ت)، ص ١١٢.

حيث كان الجيش البيزنطي في نحو مئتي ألف، بينما السلاجقة في خمسة عشر ألفًا - فيما يروون[1] - ولكن السلطان وجنده تعاهدوا على الموت، وتجهزوا للشهادة، ولبس السلطان البياض، وتحنط، وقال: "إن قتلت فهذا كفني"، فأنزل الله عليهم النصر الباهر العجيب، حيث أبيد الجيش البيزنطي، وخر الإمبراطور نفسه أسيرًا لأول مرة في تاريخ الإسلام والروم، وصالحه السلطان، ورده إلى ملكه بعد تعهده بدفع الفدية عن نفسه، والجزية دلالة على خضوعه، لكن البيزنطيين في القسطنطينية عزلوا إمبراطورهم المهزوم، ولما وصل إلى عاصمته ألقوا القبض عليه، وسملوا عينيه[2].

وبالرغم من ذلك فإن السلاجقة لم يستثمروا جيدًا نتائج انتصارهم الكبير، إذ سارع ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر ليخمد الثورات التي اشتعلت ضده هناك، لكنه قُتل غيلة، وخلفه ولده ملكشاه سنة ٤٦٥هـ[3].

على أن اضطراب الأوضاع في الإمبراطورية البيزنطية في هذه الفترة كان يؤذن بضياع أسيا الصغرى منها، وكان صاحب الدور الأبرز في ذلك بعض قادة السلاجقة المستقلين عن السلطة السلجوقية مثل سليمان بن قتلمش وبنو الدانشمند.

وقد وضع سليمان بن قتلمش Qutalmish أساس دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى؛ وذلك بتوسعه هناك على حساب السلطان ملكشاه والبيزنطيين معًا؛ حيث استغل الفوضى الضاربة في الدولة البيزنطية في التوسع عن طريق تأييد الثائرين على الدولة من الأمراء الطامحين؛ حتى استطاع السيطرة على نيقية سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م،

---

(١) هذه تقديرات ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٢٢٣، أما ابن القلانسي فيجعل البيزنطيين ٦٠٠ ألفًا، والسلاجقة ٤٠٠ ألفًا (**تاريخ دمشق**، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢٣-٢٢٥.

(٣) ابن الأثير: السابق ٨/ ٢٣١.

واتخذها عاصمة له - قبل أن تحل محلها قونية- وأصبح السلاجقة السادة الحقيقيين في آسيا الصغرى من الفرات شرقًا حتى بحر مرمرة غربًا[١] أما في الجنوب فقد استولى سليمان على منطقة الثغور الإسلامية البيزنطية التي كانت بيزنطة قد احتلتها[٢]، ثم استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧هـ من البيزنطيين[٣].

لقد قُدر للسلاجقة في آسيا الصغرى - وقد عرفت دولتهم بدولة سلاجقة الروم - أن يواجهوا في بطولة وصبر طويل هجمات الصليبيين الذين اتخذوا دولتهم طريقًا للوصول إلى الشام.

وكان استقرار السلاجقة وسلطنتهم يغرى مزيدًا من العناصر التركمانية بالتوافد على الأناضول، واستقر بعضها على أطرافه الغربية المجاورة للبيزنطيين مستفيدين من انشغال الدولة البيزنطية آنذاك بمشكلاتها في الجانب الأوروبي، ومع هذه الهجرات كان العلماء والصوفية يكثرون، ويغذون مشاعر الأتراك بمعاني الجهاد وحب الشهادة في سبيل الله[٤].

ثم جاء زحف المغول الهادر نحو آسيا الصغرى ليقوض دولة سلاجقة الروم، ولما ضعف أمر المغول قامت في تلك المنطقة ممالك سلجوقية وتركمانية متعددة[٥].

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، سنة ١٩٧١م، ١/ ٩٢-٩٣.

(٢) راجع د. سهيل زكار: **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية** (ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ١/ ١٨٦.

(٣) ابن القلانسي: السابق ص١١٧، زكار: السابق ١/ ١٨٦-١٨٧.

(٤) د. محمد سهيل طقوش: **تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**، دار النفائس، بيروت، ط٣، سنة ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص ٢٠-٢٣.

(٥) راجع موجزًا عنها عند محمود شاكر: **التاريخ الإسلامي، ج٨، العهد العثماني**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٤٨-٥٧.

٢-الفتوحات زمن العثمانيين:

وكانت قبيلة عثمان بن أرطغرل - مؤسس الدولة العثمانية – إحدى قبائل عشيرة قايي من الأتراك الأوغوز، قد هاجرت أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى آسيا الصغرى تحت ضغط الغزو المغولي، وقد قيل إن أرطغرل هو أول من دخل في الإسلام من قبيلته، وقيل إن ابنه عثمان هو أولهم إسلامًا، والغالب أن إسلام القبيلة كان أقدم من ذلك، وقبل هجرتهم إلى آسيا الصغرى[١]، واستقرت تلك القبيلة في غربي الأناضول، منذ عهد أرطغرل والد عثمان الذي بذل العون للأمير السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦-٦٣٤هـ/ ١٢١٩-١٢٣٥م) في بعض معاركه ضد خصومه، وطلب منه أن يقطعه أرضًا مع قبيلته، فأقطعه أرضًا مجاورة للبيزنطيين – شمال غربي الأناضول – ليكون حاجزًا بينه وبينهم، وذلك سنة ١٢٣١م على أرجح الأقوال[٢]، فوسع أرضه على حساب البيزنطيين في الأناضول، ثم توفي أرطغرل حوالي

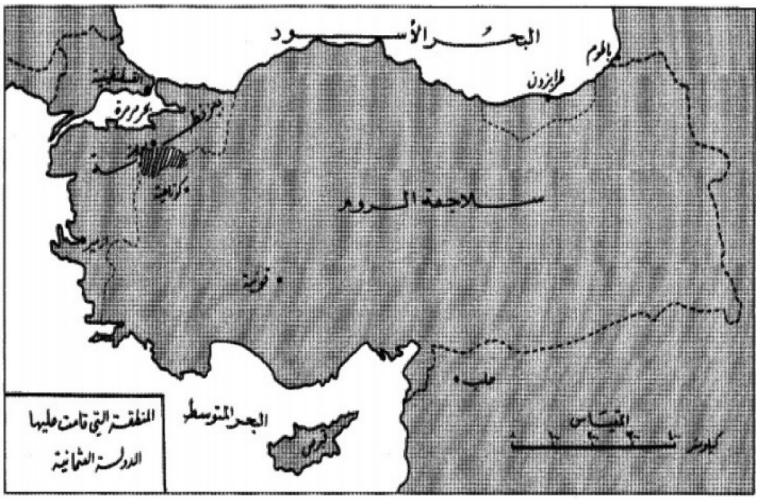

(١) د. عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٨٠م، ١/ ٣٦-٣٨، وراجع محمد فؤاد كوبريلي: **قيام الدولة العثمانية**، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، دار الكاتب العربي، (د.ت)، ص ٨-٩، ١٤-١٨.

(٢) تقع الأراضي التي أعطيت له عند حدود أسكي شهر - بيله جك- كوتاهية من تركيا الحالية، وتقدر =

سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م[١] عن عمر يناهز تسعين سنة، بعد أن وطد ملكه ووسعه على مدى خمسين سنة، وأصبحت إمارته محدودة المساحة والعدد[٢] قبلة للراغبين في الجهاد من الأتراك، والعلماء والصوفية الذين قاموا بدور بارز في التعليم والتربية والحض على الجهاد في سبيل الله، فضاعف من مساحة ولايته من نحو ألفي كيلومتر إلى ٤٨٠٠ كيلومتر[٣].

فخلفه ولده عثمان الذي يعد المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية، وقد استقل بالملك بعد أن انهارت مملكة علاء الدين السلجوقي تحت مطرقة الغزو التتري سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م، وأرسل إلى جميع أمراء البيزنطيين في آسيا الصغرى يخيرهم بين الإسلام والجزية والحرب، فأسلم بعضهم، ودفع آخرون الخراج، وأنف آخرون فاستعانوا بالمغول، فحاربهم عثمان وانتصر عليهم، حوالي سنة

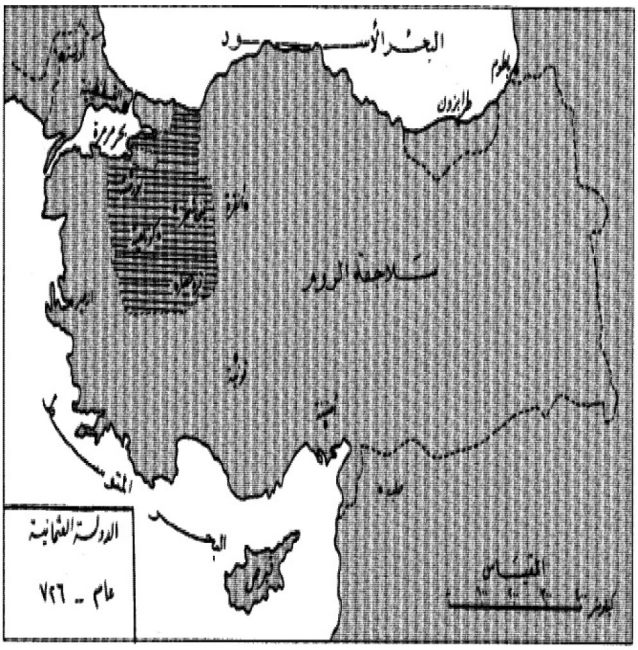

= مساحتها ما بين ألف إلى ألفي كيلو مترًا مربعًا (يلماز أوزتونا: **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سلمان، نشر مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، ط١، سنة ١٩٨٨م، ١/ ٨٧.

(١) هناك تباين في المصادر التاريخية بشأن تاريخ وفاة أرطغرل ووقائع حياته بشكل عام.

(٢) كانت أعداد قبيلته لما استقرت غرب الأناضول أربع مئة بيت فقط (محمد فؤاد كوبريلي: **قيام الدولة العثمانية** ص ٩).

(٣) يلماز أوزتونا: المرجع السابق ١/ ٨٣-٨٩، وراجع محمود شاكر: مرجع سابق ٨/ ٥٩-٦٠.

٧١٧هـ/ ١٣١٧م، وافتتح بعد ذلك مدينة بورصة سنة ١٣٢٦م[١]، وقد ركز جهوده نحو فتح الأراضي البيزنطية دون غيرها، ولم يُغْرِه ضعف بعض الولايات السلجوقية المجاورة له بغزوها، وقد عبر مضيق الدردنيل، وضم إليه بعض القلاع والأراضي المهمة، فزاد في مساحة دولته إلى نحو ١٦ ألف كيلو متر، وقدم عددًا من إخوته وأقاربه شهداء في ذلك الجهاد[٢]. وقد توفي عثمان سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م، وخلفه ولده أورخان[٣].

وفي عهد **أورخان** (٧٢٦-٧٦١هـ/ ١٣٢٦-١٣٦٠م) تم تأسيس نظام الإنكشارية، وهو الجيش الذي تولى شرف كثير من الفتوحات العثمانية، ويتكون من الأسرى صغار السن الذين يُنشَّؤون تنشئة إيمانية وعسكرية صارمة، ولا سبيل أمامهم للتحزب لقبيلة أو أمير، فلا أب لهم إلا السلطان ولا حرفة لهم إلا الجهاد، وظل ذلك حالهم حتى تطرق الفساد والطغيان إليهم، فعصف بهم السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م[٤].

وقاد أورخان جيشه بنفسه لملاقاة الإمبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثالث باليولوجوس الذي عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى مؤملاً القضاء على خطر العثمانيين وتهديدهم، وهزمه هزيمة منكرة، أصيب فيها الإمبراطور بجروح، وولى هاربًا نحو القسطنطينية سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م، وافتتح أورخان نيقية سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م، لتنتهي بذلك سلطة البيزنطيين عمليًا في آسيا[٥]، واجتاز ولده وولي عهده سليمان الدردنيل سنة ١٣٥٢م، وافتتح بعض الأراضي المهمة في الجانب الأوروبي للمرة الأولى في

---

(١) محمد فريد بك: **الدولة العلية العثمانية**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٤م، ص ٥٤.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق ص ٩٢-٩٣.

(٣) محمد فريد: مرجع سابق ص ٥٥.

(٤) المرجع السابق ص ١٢٣-١٢٤ـ برنارد لويس: **ظهور تركيا الحديثة**، ترجمة قاسم عبده قاسم وسامية محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٦م، ص ١٠٨.

(٥) أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١/ ٩٣-٩٤، د. طقوش: مرجع سابق ص ٣٨-٣٩.

عمر الدولة سنة ١٣٥٤م[١]، منها غاليبولي ذات الموقع الاستراتيجي على بحر مرمرة، "ومن أجل توطيد رأس الجسر الأوروبي أخذ سليمان ينقل المسلمين من الأناضول إلى أوروبا، وخاصة العشائر الرحل التي كانت تتميز بسهولة التكيف مع المكان الجديد"، لكن سليمان مات بعد أن سقط عن جواده سنة ١٣٥٧م، واستطاع أخوه مراد ولي العهد الجديد أن يواصل بعض الفتوحات، ويفرض الحصار على أدرنة سنة ١٣٥٩م، لتسقط بعدها في صيف سنة ١٣٦١م، وتصبح عاصمة الدولة العثمانية حتى فتحت القسطنطينية[٢].

وتوفي السلطان أورخان سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٢م، ليخلفه ولده مراد الأول، بعد أن سطر صفحة من صفحات المجد في التاريخ العثماني، إذ بلغت مساحة الدولة في عصره ٩٥ ألف كيلو متر، أي ستة أضعاف مملكته حين تولى الحكم[٣].

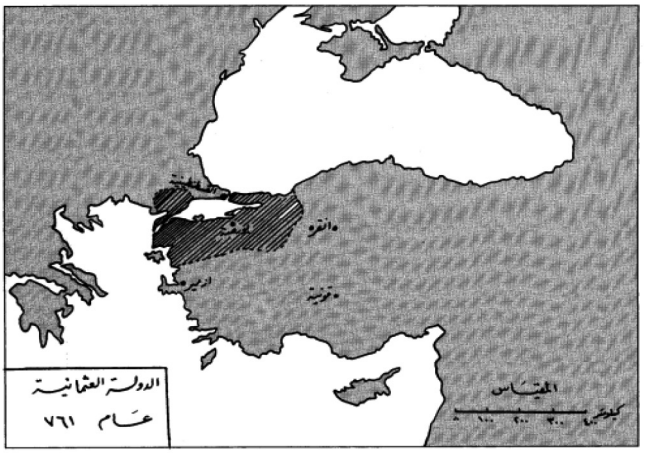

حكم مراد الأول ما بين عامي (٧٦٢-٧٨٩هـ/ ١٣٦٢-١٣٨٩م)[٤]، وقد واجه بعض المتاعب من إمارة قراماني وما عاونها من إمارات

(١) وفي السنة نفسها افتتح العثمانيون مدينة أنقرة في قلب آسيا الصغرى (أوزتونا: مرجع سابق ١/ ٩٤).

(٢) د. خليل إينالجيك: **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، ترجمة د. محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٢م، ص٢٠-٢١، أوزتونا: المرجع نفسه ١/ ٩٥-٩٦، ويرى أن أدرنة فتحت سنة ١٣٦٢م أول سلطنة مراد (راجع ص ٩٨).

(٣) أوزتونا: المرجع نفسه ١/ ٩٧.

(٤) أوزتونا: المرجع نفسه ١/ ٩٨، إينالجيك: المرجع السابق ص ٢٧، بينما جعل محمد فريد تاريخ وفاة والده أورخان وتوليه الحكم سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م (تاريخ الدولة العلية ص ٥٩، وتابعه طقوش (المرجع السابق ص ٤٤).

التركمان المستقلة، لكنه أنزل بهم الهزيمة، واضطرهم للصلح، واستسلمت له أنقرة، وأصبحت له السيادة الفعلية على معظم تلك الإمارات[١].

وبينما كان مراد الأول منشغلاً بمشاكل الأناضول، تحالفت صربيا وبلغاريا والبوسنة ضده، وتمكن البوسنيون من توجيه ضربة قوية له سنة ١٣٨٨م، لكنه استعاد المبادرة في السنة نفسها، وأخضع شمال بلغاريا، وفي يونية ١٣٨٩م عبر مراد إلى أوروبا ليواجه حملة صليبية واسعة النطاق، يقودها ملكا صربيا والبوسنة، وتشارك فيها جيوش صربيا والبوسنة وبلغاريا والمجر ورومانيا (الأفلاق) وبولونيا ومولدافيا، وقد استطاع الجيش العثماني - يقوده السلطان مراد الأول - تحطيم القوات الصليبية في سهل قوصوه (كوسوفا)، وإبادتها، لكنه استشهد وهو يتفقد ساحة المعركة بعد انتهائها، إذ قتله أمير صربي جريح، اقترب منه بحجة أن له عنده حاجة. وبذا توطد ملك العثمانيين في البلقان، واستطاعوا فيما بعد أن يفرضوا سلطتهم المباشرة على بلغاريا وصربيا[٢].

تولى بايزيد الملقب بيلدرم (وتعني الصاعقة) السلطنة بعد أبيه (١٣٨٩-١٤٠٢م)، وبعد أن أخضع تمرد بعض الإمارات في الأناضول انتقل إلى أوروبا، حيث هاجم رومانيا وأدخلها ضمن أملاك دولته، وفي ١٣٩٢م استمرت فتوحاته في مقدونيا وألبانيا واليونان، حيث افتتح أثينا، وأكمل حصار القسطنطينية مما أثار هلع أوروبا ضده، فحشدت الممالك الأوروبية ضده ١٣٠ ألف مقاتل، برعاية وأوامر بابوية، وشاركت إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والمجر وألمانيا وبولونيا والنرويج وأسكوتلندا وجنوة والبندقية بأسطولها، يقودهم ملك المجر سيجسموند الأول، وتحرك السلطان بايزيد لملاقاتهم في ٧٠ ألفً، ومعهم ٢٠ ألفًا آخرين جندا احتياطيًا، وعند مدينة نيقوبوليس جرت المعركة الهائلة التي لم تشهد

(١) إينالجيك: المرجع نفسه ص ٢٧-٢٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٨-٢٩، أوزتونا: المرجع السابق ١/ ١٠٠.

أوروبا مثل حشودها، في ذي الحجة سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م، حيث مات أو غرق في نهر الطونة (نهر الدانوب) حوالي مئة ألف من الصليبيين، وأسر نحو عشرة آلاف، ونجح ملكا المجر وإنجلترا وعدد من كبار القادة في الفرار المذل[١].

غير أنه بعد ذلك النصر العظيم وقعت **كارثة الغزو المغولي** بقيادة تيمورلنك لأراضي الدولة العثمانية، حيث أبيدت زهرة الجيش العثماني الذي دوخ أوروبا، في معركة أنقرة سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م، وأسر السلطان بايزيد وظل في أسره سبعة أشهر ثم مات، وسلم تيمورلنك معظم ولايات الأناضول إلى سلالات أسرهم السابقين، فقامت فيها ست ولايات، فأضاع ثمرة عقود من الجهد لتوحيد تلك الجهات، كما أعاق حركة الفتح في أوروبا نحو نصف قرن من الزمان، وظل العرش العثماني نهبًا للصراعات بين أبناء بايزيد نحو أحد عشر عامًا [٢].

ومن عجب أن ما لم تفلح فيه البابوية وحشود الصليبيين حققه جيش مغولي يعلن إسلامه، وليس له من قيمه وغاياته نصيب.

لم تستقر الأمور في العرش العثماني إلا بموت السلطان محمد جلبي ابن السلطان بايزيد سنة ٨٢٤هـ بعد صراع مع إخوته، وتولي **ولده مراد الثاني** (٨٢٤-٨٥٥هـ/ ١٤٢١-١٤٥١م) الذي أنفق سنوات حكمه في إزالة آثار العدوان المغولي باسترداد ممتلكاته في الأناضول وفي الجانب الأوروبي، وشعر بعدها السلطان بالتعب، فقرر أن يتنازل عن عرشه لولده محمد (الذي لقب بالفاتح فيما بعد) وهو في الثانية عشرة من العمر سنة ١٤٤٤م، لكن السلطان الأب اضطر إلى العودة للحكم من جديد مرتين: إحداهما

(١) أوزتونا: المرجع السابق ١/ ١٠٧-١٠٨، ويل ديورانت: **قصة الحضارة**، الإصلاح الديني، ترجمة د. عبد الحميد يونس، مجلد ٦، ج٢، دار الجيل للطبع والنشر، بيروت، ص٣٢-٣٤.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق ١٠٩-١١٣.

ليسطر إحدى صفحات المجد في التاريخ العثماني بانتصاره على حملة صليبية جديدة ضد جيوش المجر والصرب وأحلافهما من ممالك الغرب، ومعهم مندوب من البابا، وذلك سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م، عند مدينة فارنا البلغارية غربي البحر الأسود، قتل فيها ملك المجر والمندوب البابوي، وأسر نحو ٨٠ -٩٠ ألف صليبي، وأبيد بقية الجيش، واحتفل المسلمون بالنصر في القاهرة، حيث أمر السلطان جقمق بالدعاء للسلطان مراد بعد الخليفة العباسي وقبل ذكره هو.. والمرة الثانية ليحارب من جديد المجر وألبانيا[١].

ثم قُدر له أن يواجه حملة صليبية جديدة، احتشدت في مئة ألف مقاتل من المجر وألمانيا وبولونيا وصقلية ونابولي ومولدافيا، وحظيت بتأييد البابوية، وذلك في كوسوفو سنة ١٤٤٨م، واستمرت المعارك الضارية ثلاثة أيام، وكللت بالفوز الحاسم للجيش العثماني، وخر سبعة عشر ألف صليبي صرعى، وأسر ألوف آخرون، وكان من أهم نتائجها أن كفت أوروبا والبابوية عن الدعوة لحروب صليبية جديدة، وانتقلت من الهجوم إلى الدفاع، بعد أن تحطمت آمالها في إخراج الأتراك من البلقان[٢].

توفي السلطان مراد الثاني سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م، وخلفه ولده وولي عهده محمد الثاني وهو في التاسعة عشرة من عمره، فجعل نصب عينيه تحقيق حلم العالم الإسلامي الأكبر منذ زمن الأمويين بفتح القسطنطينية لتصدق فيه بشرى رسول الله ﷺ: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"[٣]. ولم يمض عام على توليته العرش حتى كان يقف أمام أسوار القسطنطينية عازمًا على الفتح، لا تثنيه تهديدات أوروبا والبابوية التي ارتاعت من تحركات الفاتح وقصده، وسارع الإمبراطور البيزنطي

(١) شاكر: مرجع سابق ص٧٨- ٨٥، أوزتونا: المرجع السابق ١/ ١٢٥-١٢٧.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق ١/ ١٢٨-١٢٩.

(٣) رواه أحمد: المسند ٣١/ ٢٨٧، وصححه الحاكم والذهبي راجع **المستدرك على الصحيحين**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، سنة ١٤١١/ ١٩٩٠، ٤/ ٤٦٨.

بالاتفاق مع البابوية على توحيد الكنيستين الأرثوذكسية في القسطنطينية، والكاثوليكية في روما في ديسمبر سنة ١٤٥٢م[١]، مع ما بينهما من خلاف لاهوتي عميق، وتاريخ دموي حافل، ومهد لذلك بعقد صلح جديد مع المجر والبندقية[٢].

ولا شك أن فتح عاصمة الدولة البيزنطية العتيدة التي استعصت على المسلمين وغيرهم قرونًا عديدة، وفاقت في حصانتها ما عداها[٣]، كان عملًا عظيمًا حشد فيه السلطان الشاب - ابن الحادية والعشرين – كل طاقات الدولة، حتى لقد بنى قلعة "روملي حصار" الهائلة على مضيق القسطنطينية في الجهة المقابلة لقلعة أناضولي حصار التي بناها جده بايزيد الصاعقة، عند أضيق اتساع للبوسفور، ليحكم الحصار البحري للمدينة، بناها في أربعة أشهر (مارس - يوليو ١٤٥٢م) فقط على عظمة بنائها ودقة عمارتها[٤]، واستنفر كل مواهبه وقدراته، حتى لقد خطط بنفسه لصنع أول مدفع هاون في التاريخ، واختبر عمله بنفسه، وقد استغرق تحريك ذلك المدفع العملاق شهرًا، (فبراير– مارس ١٤٥٣م)[٥]، كما أنه صنع منجنيقًا هائلاً بحجم لم يسبق له مثيل[٦].

ومن عجيب صنعه أنه أعجزه إكمال حصار المدينة بسبب تحكم سلسلة حديدية غليظة كانت تغلق خليج القسطنطينية (القرن الذهبي)، فقرر أن يتخطاها بفكرة عبقرية جريئة، حيث أمر بتمهيد الطريق البري الواصل إلى الخليج من خلف السلسلة، والذي يحوي الهضاب والمنخفضات، وجر السفن على ألواح من الخشب المطلي بالزيوت والدهن

(١) د. خليل إينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية ص ٤١.
(٢) المرجع السابق ص ٤١.
(٣) راجع عن حصانة القسطنطينية أزتونا: المرجع السابق ١/ ١٣٢-١٣٣.
(٤) يبلغ ارتفاع القلعة عن سطح البحر ٨٢ مترًا، وتشتمل على ثلاثة أبراج ارتفاع كل منها نحو ٢٧ مترًا، وتشغل مساحتها نحو ٢٥٠ , ٣٠ م٢ (أوزتونا: المرجع نفسه ١/ ١٣١).
(٥) وكان يجره ٦٠ ثورًا و٤٠٠ جندي على جانبي الثيران لضمان اتزانه وعدم ميلانه (المرجع نفسه ١/ ١٣٣).
(٦) المرجع نفسه ١/ ١٣٣.

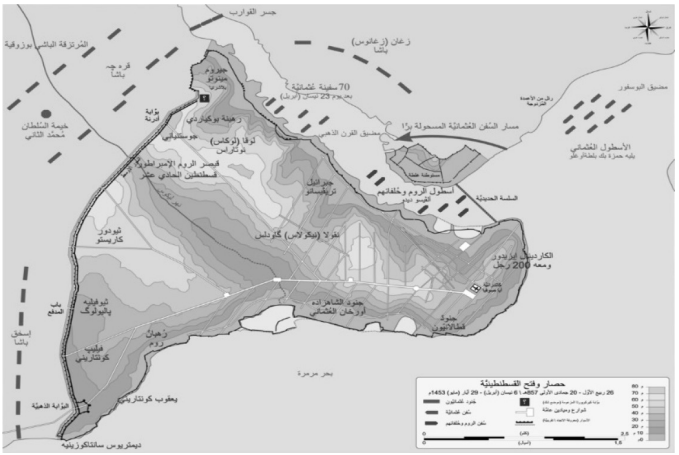

ليسهل انزلاق السفن فوقها، وجر تلكم السفن على ذلك الطريق البري لتنتقل إلى داخل مياه القرن الذهبي، مما مثَّل مفاجأة مدوية للبيزنطيين، وعامل إحباط كبير لهم، إذ رأوا سبعين سفينة في مياه خليجهم، وبها تم إحكام الحصار، ومن عجب أن ذلك العمل قد تم في ليلة واحدة، وأصبحت المدفعية والمقاتلون في مواجهة أضعف أسوار المدينة، وهي تلك المطلة على القرن الذهبي. وقد عبر المؤرِّخ والدبلوماسي البيزنطي الأمير دوكاس – الذي التقى بالسُلطان مُحمَّد شخصيًّا– عن عجبه بقوله: "ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، مُحمَّد الفاتح يُحوِّلُ الأرض إلى بحارٍ، وتعبرُ سُفنهُ فوق قمم الجبال بدلًا من الأمواج. لقد فاق مُحمَّد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر"[1].

وبينما كان الجيش الإسلامي يشدد الحصار على المدينة ويحاول جنوده تسلق الأسوار التي ضعضعت المدفعية من قواها؛ كانت الحمية الدينية قد بلغت أوجها، وكان الشيخ آق شمس الدين– شيخ السلطان وأستاذه – ومعه الصوفية المجاهدون يبشرون المسلمين بقرب الفتح، ويعلو الدعاء والتكبير والتهليل من أفواه الجند الصائمين، وعلى الجانب الآخر كانت صلوات الرهبان والقساوسة ومعهم الإمبراطور البيزنطي – الذي صمم على مواصلة القتال، ورفض عرض السلطان بالاستسلام والصلح – في كاتدرائية آيا

(١) المرجع نفسه ١/ ١٣٤-١٣٥.

صوفيا تلهب حماستهم، وأمر الإمبراطور البيزنطي بإعدام ٢٦٠ من الأسرى المسلمين، ورمي رؤوسهم أمام العسكر الإسلامي، وتتالت موجات الجنود العثمانية ونخبة الجيش الإنكشاري تتسلق الأسوار، غير عابئة بتضحياتهم الجسيمة، وتساقط الشهداء من فوق الأسوار، حتى أنزل الله نصره عليهم، ونجحوا في اقتحام الأسوار، وفتح أبواب المدينة، بعد حصار استمر ٥٤ يومًا (من٤/ ٤ إلى ٢٩/ ٥/ ١٣٥٤م)، وزحفت ألوف الجنود نحو كاتدرائية آيا صوفيا، يحيطون بقائدهم الفاتح، الذي أمر بتحويلها إلى مسجد، وأمّن النصارى على أرواحهم، وأبدى من ضروب التسامح وحسن المعاملة ما فاضت به ألسنة المؤرخين الغربيين أنفسهم.

وكان الفتح العظيم يوم الثلاثاء ٢١ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ ٢٩ مايو ١٤٥٣م، وكان الفتح حدًا فاصلاً بين العصور الوسطى، والعصر الحديث، وأحدث رجة هائلة في العالم، حيث عمت البهجة والبشرى العالم الإسلامي، وتتالت الوفود تهنئ السلطان الفاتح، بينما عمت الحسرة والخوف العالم النصراني بعد أن انهارت القلعة المنيعة التي عوقت الفتح الإسلامي لأوروبا سبعة قرون[1].

(١) راجع في وقائع الفتح أوزتونا: المرجع السابق ١/ ١٣٥-١٤٥، إينالجيك: المرجع السابق ٤١-٤٣، ويؤكد بول كولز أن العثمانيين كانوا يلاقون الترحيب من الأهالي الذين أثقلتهم المغارم والمظالم من بني جلدتهم (**العثمانيون في أوروبا**، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٣م، ص ١٥٢).

وسارع محمد الفاتح لجني ثمار نصره الكبير، فقد تحرك نحو بلاد المورة والصرب، فتلقته الدولتان بالخضوع ودفع الجزية سنة ١٤٥٤م، ثم أتم فتح بلاد الصرب سنة ١٤٥٨- ١٤٦٠م، ثم أتبعه بإكمال فتح بلاد المورة سنة ١٤٦٠م، وأتم الاستيلاء على البوسنة (بلاد البوشناق) سنة ١٤٦٣م، وأسلم كثير من أهلها بمجرد الفتح، إذ كانوا ينتمون إلى طائفة دينية تسمى "البوغوميل"، لا تؤمن بألوهية المسيح، وطالما عانت من حكامهم النصارى الاضطهاد والعنت[١]، ثم استولى على شبه جزيرة القرم (جنوب أوكرانيا الحالية)، وولى عليها تابعًا له من أمرائها، وطرد أسطول البندقية من أماكنه على البحر الأسود، واشتد نزاعه مع البندقية التي ردت بتحالف مع البابوية وإيطاليا، حيث فتح السلطان مدينة أوترانت في الجنوب الإيطالي، وهاجم أسطول العثمانيين جزيرة رودس التي تحتلها جماعة فرسان القديس يوحنا، من بقايا صليبيي الشرق المدحورين، ثم رفع الحصار عنها، وغزا ألبانيا غزوات، ولم يكمل فتحها[٢].

توفي السلطان محمد الفاتح، فخلفه ولده بايزيد الثاني (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م- ٩١٨م/ ١٥١٢م)، وكان مؤثرًا للعافية، محبًا للآداب والعلوم، حتى اشتهر باسم بايزيد الصوفي، وشغل شطرًا من مملكته بتوطيد ملكه إزاء تمرد أخيه "جم"، وخاض معارك محدودة مع خصومه الأوروبيين، لكن دواعي السلام كان أكثر إلحاحًا عنده، فنشطت علاقاته الدبلوماسية، مع الممالك والقوى الأوروبية، ومنها البابوية وفلورنسا ونابولي وفرنسا، وعقد صلحًا مع البنادقة والمجر[٣].

---

(١) شكيب أرسلان: **تاريخ الدولة العثمانية**، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دمشق، ط١، سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص ٨٧-٨٨.

(٢) شكيب أرسلان: المرجع السابق ٨٨-٩٠.

(٣) د. إسماعيل أحمد ياغي: **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٥٢.

ثم أجبر سليم بن بايزيد الثاني أباه على التنازل له عن العرش سنة ٨٨٦هـ، ووطأ العرش لنفسه بالقضاء على مظان الخطر، ولو كانوا إخوته، والتفت سليم الأول إلى ما رآه أكبر الأخطار المحدقة بدولته الشاسعة، وهو الخطر الشيعي الصفوي، بعدما قام به الشاه إسماعيل الصفوي من محاولات لنشر المذهب الشيعي في شرقي الأناضول، وما قام به من مذابح للسنة في بلاد فارس، فزحف إليه سليم الأول في قواته، وحقق نصرًا حاسمًا في جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، ودخل تبريز عاصمة الصفويين، فأصبحت حدود دولة العثمانيين تماس حدود الدولة المملوكية في وقت تأزمت العلاقة بين الدولتين، وكان لا بد من الاقتتال بينهما، فزحف سليم الأول نحو الشام، وعصف بجيش السلطان المملوكي قنصوة الغوري سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، ثم اتجه نحو مصر، حيث بسط سيطرته عليها، وقتل حاكمها طومان باي في السنة التالية ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وجاءته بيعة الحجاز، وتنازل له الخليفة العباسي بالقاهرة عن الخلافة، فأصبح (السلطان) سليم الأول أول (خليفة) عثماني، وبينما كان يعد العدة للغزو في أوروبا وافته منيته سنة ٨٢٦هـ/ ١٥٢٠م[١].

وبلغ التوسع العثماني مداه في عهد ولده سليمان (الذي لُقب فيما بعد بالقانوني أو المشرع لعنايته بتنظيم القوانين في الدولة وولاياتها) (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م-٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م)، حيث غزا المجر، منتهزًا خلافاتهم الداخلية، فافتتح بلغراد التي استعصت على العثمانيين من قبل ثلاث مرات، وذلك سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م، ثم غزا جزيرة رودس التي يحكمها صليبيو فرسان القديس يوحنا الإسبتارية، وطال حصاره لها عدة أشهر حتى استسلمت أوائل العام التالي، وبسقوطها زال شر كثير، فطالما ساعدت أعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية شرقي البحر المتوسط، وأصبحت بعد فتح مصر والشام عائقًا أمام التواصل البحري معهما[٢].

---

(١) راجع: المرجع السابق ٥٦-٦٠، بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تعريب نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، سنة ١٩٦٨م، ٤٤٦-٤٤٩.

(٢) أوزتونا: مرجع سابق ١/ ٢٦١-٢٦٣، إينالجيك: مرجع سابق ص ٥٧.

وأعلنت البندقية ولاءها للسلطان العثماني، في حين توثقت الصلات بينه وبين ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي حرض السلطان على غزو خصمه شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وكانت تضم المجر والنمسا وإيطاليا وإسبانيا، وفي عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م غزا سليمان القانوني أراضي المجر في جيش بلغ تعداده نحو مئة ألف مقاتل، فواجهه لويس الثاني ملك المجر في مئتي ألف، فدارت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ أوروبا الوسيط، هي معركة موهاج (موهاكس) التي تبعد ١٨٥ كم شمال غربي بلغراد، وخطب السلطان جنده وهو يلبس دروعه قائلاً: "روح الرسول ﷺ تنظر إليكم"، فلم يملك الجند دموعهم، وكان الانتصار العثماني حاسمًا، حيث قُتل من المجريين نحو أربعة عشر ألفًا، وقتل ملكهم لويس الثاني وكبار قساوسته وأمراؤه غرقًا في المستنقعات القريبة من ساحة المعركة، وسقط من نجا من القتل أسيرًا وهم خمسة وعشرون ألفًا، ولم يخسر العثمانيون سوى ١٥٠ رجلاً، وقد "استغرقت الحرب ساعة ونصف ساعة فقط، وفي نهاية هذه المدة أصبح الجيش المجري الذي عاش ٦٣٧ سنة في ذمة التاريخ"[١]، ثم أغذ السلطان السير نحو بودابست، فوصلها خلال ثمانية أيام، وافتتحها في سرعة خاطفة، حيث تلقى هناك التهنئة بعيد الأضحى، وكان قد تلقى تهنئة عيد الفطر في بلغراد[٢].

وأدى الانتصار العثماني إلى تقسيم المجر لعدة قرون بين العثمانيين ومملكة الهابسبورج (النمسا)، وإمارة ترانسلفانيا، وفي سنة ١٥٢٩م عاد سليمان القانوني لغزو المجر، وافتتح بعض الأراضي، ثم واصل زحفه حتى بلغ فيينا، وضرب حولها الحصار

(١) أوزتونا: مرجع سابق ١/ ٢٧٠، د. إسماعيل أحمد ياغي: مرجع سابق ص ٦٤، شكيب أرسلان: مرجع سابق ص ١٥٢.

(٢) أوزتونا: المرجع السابق ١/ ٢٧١.

ثلاثة أسابيع، ثم تركها، وعاود الغزو سنة ١٥٣١م، حتى وصل إلى ٦٠ ميلاً من فيينا، وفي عام ١٥٤١م ضم إليه المجر وحكمها حكمًا مباشرًا[١].

وجاءت وفاة السلطان سليمان القانوني وهو على رأس جيش يغير على المجر التي عادت للانتقاض والثورة وذلك سنة ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م[٢]، وهي نهاية جديرة بهذا البطل المجاهد الذي بلغت الفتوحات الإسلامية في أوروبا ذروتها في عهده، ولم تحقق بعده تقدمًا ذا بال.

(١) المرجع السابق ١/ ٢٧٢-٢٧٥، إينالجيك: مرجع سابق ص٥٨، إسماعيل أحمد ياغي: مرجع سابق ص٦٤.

(٢) إسماعيل أحمد ياغي: المرجع نفسه ص ٧٤.

المبحث الخامس

الفتوحات الإسلامية في إفريقية:

١- انتشار الإسلام في غرب إفريقية:

مرّ انتشار الإسلام في إفريقيا بعدة مراحل، كان أولها مرحلة الفتح العسكري لمصر وشمال إفريقيا، ومرحلة الهجرات العربية، والدعوة السلمية التي مارسها الدعاة من العرب والبربر والزنج.

لقد وصل الفتح الإسلامي إلى سواحل المحيط الأطلسي، وانتشر الإسلام بين قبائل البربر، لكن ظل كثير منهم يعاني الجهل بحقائق الدين، وكان ذلك دافعًا إلى ظهور حركات تستهدف تحويل الإسلام الظاهري لكثير من قبائل البربر إلى إيمان حقيقي ينطلق بالدعوة إلى ركائز الخرافة والجهل، وبالجهاد إلى معاقل الوثنية المجاورة.

وكان دور المرابطين الذين اتخذ مؤسس دعوتهم عبد الله بن ياسين من جنوبي المغرب الأقصى وحوض نهر السنغال منطلقًا لدعوته، وجاهد بمن علمهم من قبائل صنهاجة البربرية من خالفهم، حتى فشا الإسلام في تلك النواحي، إسلامًا فتيًّا فوارًا بالحمية الدينية لهؤلاء الصحراويين، فامتدت دولتهم لتشمل المغرب والأندلس معًا.

ويعظم بعض المؤرخين من دور المرابطين في نشر الإسلام بين قبائل السودان الغربي[1]، مما يعني تأخر إسلامها إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بينما تتجه الدراسات الحديثة إلى تأكيد أن تلك القبائل قد تعرفت على الإسلام عبر روافد متعددة منها التجارة بين الشمال وغرب إفريقية، ومنها الهجرات العربية التي وفدت من

---

(١) المقصود بمصطلح السودان الغربي المنطقة الممتدة من بحيرة تشاد شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن الصحراء الكبرى شمالًا إلى نطاق الغابات الاستوائية جنوبًا (د. حسن أحمد محمود: **الإسلام والثقافة العربية في إفريقية**، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٨٦م، ص ١٩٩).

شرق القارة ومن شمالها، ومنها جهود طائفة من العلماء الذين عرفوا طريقهم إلى تلك الجهات لأسباب شتى، ومنها الجهاد المسلح الذي شنته الحكومات المسلمة التي ازدهرت في تلك الجهات ضد القبائل الوثنية التي جاورتها.

وقد تأسست في السودان الغربي عدة ممالك واسعة كان لها دورها الحضاري، وحضورها الإسلامي، أشهرها إمبراطورية غانا، وإمبراطورية مالي، وإمبراطورية سنغاي.

وقد تعاصرت بعض هذه الإمبراطوريات أحيانًا، وتجاورت، وبسط بعضها السيطرة على بعض حتى حين.. وكان كل منها يتعرف على الإسلام، فتسلم جماعات من أهلها، ثم ينتشر الإسلام ويربو، ثم يؤول الأمر إلى إعلان ملكها الإسلام، "فجاءت أسلمة الدولة بعد المجتمع"[1].

شملت **إمبراطورية غانة** معظم أراضي السودان الغربي، وهي إمبراطورية عريقة تأسست بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وقام اقتصادها على التجارة، وبخاصة تجارة الذهب، والتبادل التجاري مع الشمال الإفريقي، وقد عرفت تلك المملكة الإسلام من وقت مبكر نتيجة علاقاتها التجارية مع الشمال، والهجرات الإسلامية إليها، وفي مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان في عاصمتها حي إسلامي، ما لبث أن اتسع حتى أصبحت مدينة غانة - وتسمى أيضًا كومبي صالح[2] - مدينتين: إحداهما إسلامية- تنتشر فيها المساجد، وتقام فيها الجمعة، وفيها طلبة العلم والعلماء- والأخرى تسمى الغابة، وفيها مقر الملك، وبها مسجد أيضًا، يصلي فيه الوافدون إليها،

(١) د. عز الدين موسى: **دراسات إسلامية غرب إفريقية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ٢٤-٣١.

(٢) تقع بالقرب من الحدود الجنوبية لموريتانيا الحالية، وهي ضمن أراضي جمهورية مالي الحالية (د. إبراهيم علي طرخان: **إمبراطورية غانة الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ٣٣).

وأكثر وزراء المملكة مسلمون[١]، وقال المقريزي: "وغانة مدينتان، إحداهما يسكنها المسلمون، والأخرى الكفار"[٢].

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المرابطين قد وجهوا جهودهم للدعوة السلمية إلى الإسلام في مملكة غانة[٣]، فأسلم بقية أهلها بدعوتهم، وتذهب بعض مصادرنا إلى أنهم غزوا بجيوشهم هذه المملكة[٤] حتى سقطت عاصمتها سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، ودخل ملكها في الإسلام، فأسلم بإسلامه كثير من سكان مملكته، وهو ما يبدو غير مناسب لتدهور أحوال المرابطين وقوتهم آنذاك، ولما تفرق المرابطون بعد موت أبي بكر بن عمر سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م تخلصت غانة من سيطرتهم، ولكنها ظلت مخلصة للإسلام، داعية إليه[٥]، وادعى ملوكها النسب العلوي، وأعلنت طاعتها للخلافة العباسية مباشرة، حتى سقوطها في سنة ١٢٠٣م[٦].

وجاء سقوط مملكة غانة تحت ضربات قبائل وثنية مجاورة، استقلت في وقت سابق عن المملكة، تسمى قبائل الصوصو Su Su، بينما تأسست مملكة إسلامية في الجنوب منها تحكمها قبائل الماندنج، (MANDING)، بقيادة "سُنْجَاتا كيتا (SONDJATA KEITA) – ويُعرف عند كتاب العرب باسم "ماري جاطه" – الذي أسس مملكته سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م.

---

(١) راجع البكري: **المسالك والممالك**، ٢/ ٧٨١-٧٨٢، د. إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق ص٣١.

(٢) المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة، ١٨٩٥م، ص ٢٣.

(٣) راجع أحمد الشكري: **الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، سنة ١٩٩٩م، ص ١٤٥-١٦٠.

(٤) ابن أبي زرع، علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي (ت ٧٢٦): **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٢م، ص ١٣٥، ابن خلدون: العبر، ٦/ ٢٦٦.

(٥) د. عصمت عبد اللطيف دندش: **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية**، دار الغرب الإسلامي، ط١، سنة ١٩٨٨م، ص ١٠٨-١١٤، وراجع د. إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق ص ٤٦، ٥٢-٥٣.

(٦) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله الحسني (ت ٥٦٠هـ): نزهة **المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٩هـ، ١/ ٢٣، المقريزي: مصدر سابق ص ٢٢.

ثم نشب النزاع بين مملكة الصوصو الوثنية، والماندنج.. فانتصر المسلمون عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م).

واتخذ المسلمون من مدينة مالي عاصمة لها، فسميت المملكة باسمها "**مملكة مالي الإسلامية**"[١]. وقد توسعت مملكة مالي على حساب جيرانها، واشتهر عدد من ملوك مالي بالصلاح والثراء، وحرصوا على أداء فريضة الحج، فذاع صيتهم بما أنفقوه من أموال ومبرَّات في رحلتهم إلى الحجاز، وعودتهم منها[٢]، وتبدأ أسماؤهم بلفظ "منسا" التي تعني "السلطان" في لسانهم، ومن هؤلاء منسا ولي- أي السلطان علي- وكان من أعاظم ملوكهم. وحج أيام الظاهر بيبرس[٣]، ومنهم "منسا موسى بن أبي بكر، وكان رجلا صالحًا، وملكا عظيما، له في العدل أخبار تؤثر عنه. وحج سنة أربع وعشرين وسبع مئة "[٤].

وكانت مساحة مملكة مالي "أيام ازدهارها تمتد إلى سبع من دول غرب إفريقية الحديثة، وهي: جمهورية مالي الحديثة وأعلى السنغال الشرقي، وشمال غينيا كوناكري، وشمال بوركينافاسو وأجزاء من شمال جمهورية بنين وغرب جمهورية النيجر، وأجزاء من شمالها الشرقي، وجنوب موريتانيا"[٥].

كان ذلك التوسع الكبير في المملكة يحتاج دائمًا إلى إدارة قوية، وسيطرة على القلب والأطراف، ولم يكن ذلك متاحًا في فترات ضعف ملوك مالي المتأخرين، فتعددت

(١) د. طرخان: مرجع سابق ص ٥٢-٥٣ ، وللمؤلف نفسه: **دولة مالي الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة عام ١٩٧٣م، ص ٤٢.

(٢) المقريزي: **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك**، تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص ١٤٠-١٤٣.

(٣) ابن خلدون: العبر ٦/ ٢٦٧.

(٤) المصدر السابق والصفحة.

(٥) د. علي يعقوب: **دولة مالي الإسلامية (٦٢٨هـ- ٨٣٤هـ/ ١٢٣٠م- ١٤٣٠م)**، مجلة قراءات إفريقية، العدد ٢٠ ربيع الاخر ١٤٣٥هـ/ ابريل ٢٠١٤ م.

هجمات القبائل المجاورة للمملكة، أو الخاضعة قديمًا لها، كما أن الثورات المتتالية لإقليم كوكو - حيث قبائل سنغاي المنافسة والطامحة إلى الاستقلال - أقضّ مضاجع مالي، وانتهى إلى انهيارها في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وقيام **مملكة سنغاي**[١].

كانت مملكة سنغاي عريقة يعود عهدها الأول إلى قرون قبل الميلاد، وربما كانت أقدم ممالك غرب إفريقية، وكان موطنها حوض نهر النيجر، ثم ظهرت مملكة سنغاي الثانية في القرن الأول الهجري، ودخلها الإسلام "في وقت مبكر، في النصف الأول من القرن الأول الهجري في الوقت نفسه الذي دخل فيه مصر"، ولا غرابة فقد كانت طرق القوافل والتجارة والتواصل مستمرة بين شرق القارة وغربها قبل ظهور الإسلام نفسه[٢].

وقد ذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون تلك المملكة، باسم مملكة كوكو، نسبة إلى عاصمتها، وأشادوا بضخامة ملكها[٣] وإسلام ملوكها وعامة أهلها[٤]، وأنهم - بحسب وصف البكري (ت ٤٨٧هـ) - "ملكهم مسلم، لا يملِّكون غير المسلمين"[٥]

واشتهر من ملوكها "زاكسي"، في توطيد الإسلام في مملكة سنغاي، إذ أصدر مرسوما ملكيًّا عام ٤٠٠هـ بمنع غير المسلم من تولي الملك في سنغاي، وقد التزم من بعده بالقرار، وقاموا بنشر الإسلام، بالدعوة والجهاد حتى تلاشى أمرها، وانضوت

---

(١) راجع أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني، مرجع سابق، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) د. هارون المهدي ميغا: **إمبراطورية سنغاي، دراسة تحليلية في الترتيب التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا**، محلة دراسات إفريقية، العدد ٣٧، سنة ٢٠٠٧م، د. عبد الفتاح الغنيمي: **حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا**، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، سنة ١٩٨٥م، ص ١٠٦.

(٣) المسعودي: **أخبار الزمان**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٨٨.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٤٩٥.

(٥) البكري: المسالك والممالك، ٢/ ٨٨٣.

تحت حكم مالي، ثم ما زالت طمَّاحة إلى الاستقلال والمجد حتى انبعثت من جديد على حساب مملكة مالي سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م[١].

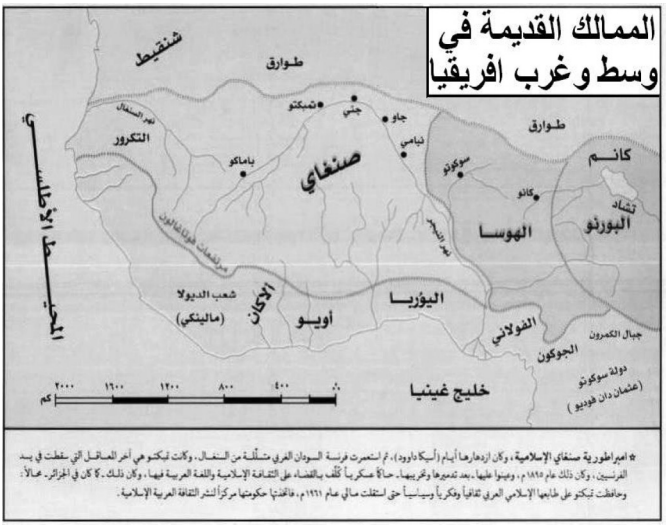

وفي عهد الملك الأسكيا الحاج محمد (٨٩٨هـ - ٩٣٥هـ) بلغت المملكة أوج اتساعها، بحيث تجاوزت حدودَ مملكة مالي التي سبقتها، وقد اشتهر الأسكيا محمد بعدله وديانته وتسامحه مع رعاياه من غير المسلمين، كما عُرف بحماسته الدينية، وسعيه لنشر الإسلام بين رعاياه، وفي القبائل المجاورة، بالدعوة، أو بالجهاد. وتعد فتوحات أسكيا الحاج محمد في بلاد الهوسا (شمال نيجيريا) من أهم فتوحاته وأعظمها، وذلك لما حققه من إخضاعٍ لأهم مدن هذه المنطقة الحصينة، الواحدة تلو الأخرى، وبذلك أصبحت مساحة هذه البلاد شاسعة، تمتد من شرقي النيجر، حتى بحيرة تشاد. وساعده في سعيه لنشر الإسلام كوكبة من العلماء الذين عظم دورهم ومكانتهم في مملكته، وأظهر من تبجيلهم ما احتفت به المصادر التاريخية، وعُني هؤلاء العلماء بنشر العلم، والثقافة الإسلامية، وتربية أجيال من العلماء[٢].. ولما ضعفت مملكة

(١) د. هارون المهدي ميغا: إمبراطورية سنغاي، مقال سابق.

(٢) عبد الله عيسى: **مكانة الإسلام في مملكة سنغاي خلال القرن ١٦ ميلادي**، مقال بمجلة قراءات إفريقية، العدد ٢٣، محرم ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥ م.

سنغاي واجهت الغزو المغربي السعدي عام ٩٩٩هـ / ١٥٩١م الذي ألحق الهزيمة بالسنغيين، وأزال دولتهم[١].

٢- انتشار الإسلام في شرق إفريقية:

كانت علاقات العرب بشرق إفريقية قديمة، حيث نشطت التجارة بين المراكز التجارية العربية في اليمن وساحل عمان والحجاز وبين السواحل الشرقية الإفريقية، ومعها كانت الهجرات العربية التي أثمرت مصاهرات واستقرارًا[٢].

ولما جاء الإسلام استمرت هذه العلاقات، ومشهورة هجرة جماعة من المسلمين الأوائل إلى الحبشة بعد اضطهاد المشركين لهم[٣]، ومقدم جماعة من الرهبان النصارى الأحباش إلى مكة واستماعهم إلى القرآن، وإسلامهم[٤]، ومكاتبة النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام، وإجابته تلك الدعوة[٥]، وصلاة النبي ﷺ عليه بعد وفاته[٦].

ولما فتحت العراق والشام ومصر زادت المبادلات التجارية مع الحبشة وشرقي إفريقية، واتسع مداها في الخلافتين الأموية والعباسية، وسعت الخلافة إلى تأمين التجارة، فازداد نشاطها، كما زادت الهجرات العربية إلى تلك النواحي، وزادت أماكن

---

(١) د. هارون المهدي ميغا: مرجع سابق.

(٢) راجع د. محمد عبد الله النقيرة: **انتشار الإسلام في شرق إفريقية ومناهضة الغرب له**، دار المريخ للنشر، الرياض، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٢٢-٣٢.

(٣) ابن هشام: **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط٢، سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ١/ ٣٢١ -٣٣٠، البخاري: الصحيح ٤/ ٩٠، ٥/ ١٣٧، مسلم: الصحيح ٤/ ١٩٤٦.

(٤) قيل إن الوفد كانوا من الحبشة، وقيل من نجران، راجع ابن هشام: المصدر السابق ١/ ٣٩١-٣٩٢.

(٥) مسلم: الصحيح ٣/ ١٣٩٧.

(٦) البخاري: الصحيح ٢/ ٧٢، ٥/ ٥١، مسلم: الصحيح ٢/ ٦٥٧.

استيطانهم ومراكزهم التجارية على الساحل الإفريقي[١]، وكان الإسلام يسير حيث سار التجار والمهاجرون بما اشتهروا به من أخلاق حسنة.

وتعددت أسباب الهجرات، منها ما كان لأسباب اقتصادية من بعض القبائل التي تضيق أمامها سبل العيش، فتخرج تتلمس أسبابه في المشرق الإفريقي البكر، ومنها ما كان لأسباب سياسية من جماعات واجهت الفشل السياسي في تحقيق طموحاتها، وأعقبه الخوف والاضطهاد، فهاجر بعض العلويين والإباضين فرارًا من الأمويين، ثم هاجر بعض الأمويين إلى شرق أفريقية فرارًا من بطش الثورة والنظام العباسي بهم بعد الإطاحة بدولتهم، وهاجرت إليها جماعات من أهل السنة في الخليج العربي فرارًا من القرامطة وجرائمهم، واستطاعوا تأسيس مدينة مقديشو على الساحل الصومالي سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٦م، فظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة[٢].

في حين استطاعت أسرة فارسية مهاجرة من شيراز تأسيس مدينة كلوة على ساحل زنجبار (ضمن حدود تنزانيا الآن) سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م، ثم توحيد تلك المدن أو الإمارات الصغيرة في دولة واحدة - تمتد من مقديشو شمالاً حتى سوفالا (ضمن موزمبيق الآن) جنوبًا - عُرفت بإمارة كلوة[٣].

ويشير المسعودي في القرن الرابع الهجري إلى انتشار الإسلام في مدن القرن الإفريقي ومنها دهلك وزيلع ومصوع وبربرة وغيرها[٤].

وقد زار ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) إمارة كلوة فوجد أهلها شافعية المذهب - وقد كانوا وقت تأسيسها شيعة -"وهم أهل جهاد لأنّهم في برّ واحد متّصل مع كفار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح"، ووجد ملكهم عادلاً ديِّنًا، "كثير الغزو إلى أرض الزنوج"[٥].

---

(١) د. النقيرة: مرجع سابق ص ٦٣- ٦٨.

(٢) راجع أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧٨، د. النقيرة: مرجع سابق ص ٨١-٩٠.

(٣) أرنولد: المرجع السابق ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ١٥.

(٥) رحلة ابن بطوطة ٢/ ١٢٢.

وثمة رافد آخر انساب منه الإسلام إلى شرق إفريقية، وهو طريق الشمال القادم مع نهر النيل، حيث عاشت قبائل البجة (البجا) الوثنية في الأراضي من النوبة جنوبي مصر إلى شمالي الحبشة، وما بين البحر الأحمر ونهر النيل[١]، وقد غزاها عبد الله بن سعد بن أبي السرح أمير مصر سنة ٣١هـ، فصالح أهلها، وأسلم كثير منهم إسلامًا غير عميق، واختلطت أحكامهم التي ورثوها ببعض أحكام الإسلام[٢]، وتوثقت العلاقات التجارية بين المسلمين في مصر وقبائل البجة، ووجدوا فيهم وسطاء للتجارة مع الحبشة وشرق إفريقية، ونزلت بهم عدة قبائل عربية من ربيعة ومضر للتجارة، فجاوروهم، وتعلموا لغتهم، وأصهروا إليهم، مما قاد إلى انتشار الإسلام في تلك النواحي منذ أواخر القرن الأول الهجري، وازدادت الروابط الاجتماعية في القرن الثالث الهجري بعد ما أُسقط العرب من ديون العطاء، فلم يجدوا سبيلاً للعيش إلا العمل، فزادت خلطتهم بمن جاورهم[٣].

أما في الداخل من الشرق الإفريقي فقد انتشر الإسلام تدريجيًا، وكان للتجارة والهجرات أيضًا الدور الأكبر في ذلك، حيث نجد إمارات إسلامية تتأسس في الهضبة الحبشية، بدأت مبكرًا في **مملكة (شوا)** التي أنشأتها جماعة مهاجرة من بني مخزوم بزعامة ودّ بن هشام المخزومي سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٦م، واستمرت أربعة قرون إلى عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٩م، حيث تدهورت بسبب الحروب الداخلية، ودخلت تحت سيطرة مملكة إسلامية ناشئة، هي **مملكة إيفات**، وهي مملكة قوية أسستها أسرة عربية أخرى هاشمية تسمى أسرة وَلَسمع نسبة إلى مؤسسها عمر وَلَسمع القرشي من بني عبد الدار، وقد حكمت هذه الأسرة قرابة

(١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٦٧ هـ): صورة **الأرض**، دار صادر، بيروت، أوفست ليدن، سنة ١٩٣٨م، ١/ ١٦.

(٢) ابن حوقل: المصدر السابق ١/ ٥٠-٥١.

(٣) ابن حوقل: المصدر السابق ١/ ٥٠-٥٤، ١٣٢، ابن بطوطة: الرحلة ٢/ ١٠٠، ١٥٩، النقيرة: المرجع السابق ص ٩٣-٩٥.

مئتي عام (٦٨٤هـ - ٨١٧هـ/ ١٢٥٨م - ١٤١٥م)، واتخذت "جبرتة" عاصمة لها، وامتد سلطانها ليشمل مناطق واسعة من الهضبة وبلاد زيلع والساحل، واشتهر بعض أمرائها بالجهاد، مثل علي وحق الدين الذي كانت له نحو عشرين وقعة ضد ملوك النصارى في مدة تسع سنين، حتى استشهد في شوا عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م، ثم قام أخوه سعد الدين، الذي استمر في جهاده حتى استشهد عام ٨١٧هـ/ ١٤١٥م بعد أن ملك نحو ٣٠ سنة.

وعلى أنقاض مملكة إيفات قامت **مملكة عَدَل** التي واكب ظهورها دخول منطقة القرن الإفريقي مرحلة الصراع الدولي بين الدولة العثمانية - التي أقامت لها قواعد في المناطق الساحلية- والقوة البرتغالية التي طمحت إلى سيادة البحار، وعمدت إلى التحالف مع نصارى الحبشة، وقد بلغت مملكة عدل أوج مجدها على يد حاكمها الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي (٩١٢-٩٥٠هـ) الذي اشتهر بأنه فاتح الحبشة، وقد لقي الدعم الكبير من العثمانيين في مواجهة التحالف الحبشي البرتغالي، واستطاع في انتصارات عسكرية متلاحقة أن يضم إليه ثلاثة أرباع أراضي مملكة الحبشة، فاستعرت الحرب البرتغالية ضده حتى خر شهيدًا سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م.. لترث دولته **مملكة هرر** التي أسسها نور مجاهد أحد قادة الإمام أحمد غازي، وقد ظلت هرر تقوم بدورها في حراسة الإسلام ونشره حتى سقطت في نهاية المطاف على يد ملك الحبشة مينيليك سنة ١٨٨٧م[١].

٣- انتشار الإسلام في وسط إفريقية:

تعد غزوة عقبة بن نافع الفهري فزان وكوار (في الجنوب من فزان، وتقع في الشمال الشرقي لجمهورية النيجر حاليًا)، أول اتصال بين الإسلام والسودان الأوسط[٢]، غير

(١) عبد الله قدير أحمد: **أثر الهجرة في انتشار الإسلام في إفريقية، حالة الحبشة**، مجلة كلية الإلهيات، العدد ٣٨، ص ١٤١ - ١٦٨، جامعة ١٩ مايو، ٣٠ ديسمبر ٢٠١٥ م، على الرابط: https://dergipark.org.tr/tr/pub/omuifd/issue/20317/215737.

(٢) راجع ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٢٢، البكري: المسالك والممالك ٢/ ٦٦١.

أن فتوح عقبة السريعة لم تستهدف خلق واقع إسلامي مستقر، بقدر ما استهدفت معرفة بالطبيعة الجغرافية والبشرية بأماكن الفتح، وإحداث هزة قوية تصك آذان الناس وقلوبهم بذكر الإسلام، أما الانتشار المستقر للإسلام فقد انتظر التواصل الاجتماعي السلمي الهادئ كما رأينا في مناطق الشرق والغرب من إفريقية، وهو ما تحقق عن طريق التجارة التي وجدت في وسط القارة سبيلاً إلى وصل ما بين مصالح الشمال العربي والبربري؛ والجنوب، وما بين شرق القارة وغربها، أو الهجرات الإسلامية إلى تلك المواطن سواء كانت لأسباب سياسية أو اقتصادية، وقد ذكر البكري أن جماعة من بني أمية استوطنوا وسط إفريقية فارين من اضطهاد العباسيين بعد سقوط دولتهم[1].

إن التطور الحاسم في مسيرة انتشار الإسلام في أواسط إفريقية هو تحول مملكة الكانم[2] إلى الإسلام منذ أواسط القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ بعد إعلان ملكها محمد بن جبل بن عبد الله (١٠٩٧-١٠٨٥م) إسلامه، وسعيه إلى نشر الإسلام في مملكته، وكذا جهود ولده وخليفته "دوناما" وهو أول من حج من ملوك الكانم[3].

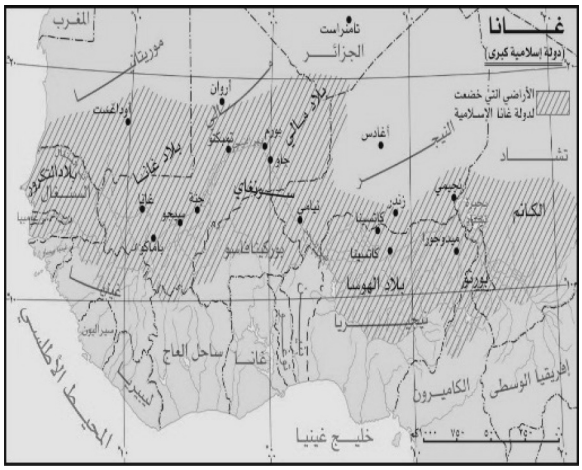

(١) البكري: المصدر السابق ٢/ ٦٥٨.

(٢) يُرجِع كثيرٌ من المؤرخين تاريخ تأسيس مملكة "كانم - برنو" إلى ق١هـ / ق٨م، وإذا أخذنا بالاعتبار تاريخ سقوطها على يد الاستعمار في نهايات ق١٣هـ/ ق١٩م، فيمكن القول بأنّها عمّرت قرابة اثني عشر قرناً، وعلى ذلك فهي من أطول الممالك التي عرفتها بلاد السودان عمرًا (مصطفى إنجاي: **من كانم إلى صوكوتو: موجز التاريخ السياسي للسودان الأوسط**، مقال بمجلة قراءات إفريقية، العدد ٣٥).

(٣) مصطفى إنجاي: من كانم إلى صوكوتو، مقال سابق.

وكان من الطبيعي أن ينساح الإسلام بين أبناء مملكة الهوسا المجاورة المحصورة بين مملكتي الكانم وسونغاي المسلمتين، غير أن المصادر تؤخر ذلك إلى منتصف القرن الثامن الهجري حيث انتشر الإسلام هناك عن طريق التجار المسلمين القادمين من مملكة مالي.. وقد تعزّز الوجود الإسلامي في بلاد الهوسا بعد خضوع كثيرٍ من إماراتها لسيطرة السنغاي في عهد الملك أسكيا محمّد في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وبخاصة بعد سقوط مملكة السنغاي علي يد القوات المغربية، وفرار كثير من علمائها إلى الهوسا[1]، غير أن انتشار الإسلام بقي سطحيّاً ومحصورًا على نخبة معيّنة من التجّار والسياسيين، وعليه؛ يمكن القول بأنّ انتشار الإسلام في ربوع بلاد الهوسا، وعلى مستوى الشرائح الاجتماعية كافّة، إنّما كان في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي على يد الخلافة الصوكوتية بقيادة الشيخ عثمان بن فُودُي Usuman ɓii Foduye (ت ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م) أحد زعماء قبيلة الفولاني العريقة، وهي الخلافة التي أسسها الشيخ عثمان بعد جهود جليلة في الدعوة إلى الإسلام، وتربية أتباعه عليه، ومجاهدة خصومه، واتخذ من صوكوتو (سوكوتو) - بشمال نيجيريا الحالية - عاصمة له، وضم إليه أراضي الهوسا والكانم، وقام بجهد بارز في نشر الإسلام في مملكته الواسعة، وقام خلفاؤه على نهجه، حتى ضعفت دولتهم، وخاضت معارك طويلة مع الاستعمار البريطاني انتهت بسقوط خلافتهم في بداية القرن العشرين[2].

(١) راجع مهدي آدامو: **الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط**، مقال ضمن كتاب (تاريخ إفريقية العام)، أصدرته منظمة اليونسكو، سنة ١٩٨٨م، المجلد ٤، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٢) مصطفى إنجاي: من كانم إلى صوكوتو (مقال سابق).

الفصل الثالث

عوامل القوة في العالم الإسلامي بين الإفادة منها والتفريط فيها

تتعدد عوامل القوة في العالم الإسلامي، وهي امتداد لعوامل قوته التي أجاد الإفادة منها في عصور مجده، فصنع بها تاريخًا حافلاً، وقدم للبشرية نموذجًا هاديًا.

فهناك العقيدة الصحيحة التي يدين بها معظم أبنائه، وهناك القواسم المشتركة الجامعة بين المسلمين وغيرهم من مواطنيه، سواء في الإيمان بالله الخالق، وأن للكون المخلوق مبتدأ ومنتهى، وأنه مدين بيوم بعث وجزاء، وأنهم جميعًا يتفقون على منظومة أخلاقية، تستحسن الحسن، وتستقبح القبيح، بما تذهب إليه الفطر السليمة.

وهناك الموقع الجغرافي العظيم الذي يتيح له امتلاك أسباب التحكم والسيادة في عالمه، حيث يشرف على أهم بحار الدنيا ومحيطاتها ومضايقها، وتجري فيه أنهار من أنهارها.

وهناك الثروة البشرية المنسجمة في عقائدها، وتصوراتها للكون والحياة والإنسان، والتي تمتاز بخصوبة وافرة، فلا ينضب معين شبابها، في وقت تشيخ فيه الأمم من حولها.

وهناك الموارد الاقتصادية التي أنعم الله عليها بها، من ثروات زراعية ومعدنية، وقد امتلكت أهم ثروات العصر المادية التي لا غنى للبشرية عنها، من نفط وغاز وغيرهما.

لكن الأمة في حال تراجعها وضعفها لم تحسن الإفادة من تلك العطاءات العظمى، فبددت كنوزها من بين أيديها، سواء كان ذلك بقهرها عنها، أم بغفلتها وتهاونها، وسوء إدارتها، وخيانة قادتها.

وسوف نعرض في هذا الفصل لتفاصيل ذلك، أو لكثير من تفاصيله.

المبحث الأول

من عوامل القوة في العالم الإسلامي

أولاً: وحدة العقيدة الدينية وتأثيراتها:

لعل أهم عوامل القوة في العالم الإسلامي هو وحدة العقيدة الإسلامية التي تربط بين معظم أبنائه، أما غير المسلمين فتجمع أواصر عديدة بينهم وبين المسلمين: منها ذلك التاريخ المشترك الذي ألف بين أبناء الوطن الإسلامي الواحد، وما نتج عنه من إحساس بالمصير المشترك، والهمّ الواحد، وتقارب النظر إلى الأعداء والأصدقاء على المحيط الدولي الواسع، مع تشابه العادات والتقاليد التي أنتجتها قرون من العيش المشترك، واتفاق على مكارم الأخلاق التي لا تختلف بتعدد الديانات والشرائع.

أما **عقيدة الإسلام**، وأركان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر، فهي التي وحدت نظرة المسلمين إلى الكون، وبدئه، وصيرورته ومنتهاه، والسنن الحاكمة له، وإلى الحياة وتكوُّنِها، وسيرورتها، والغاية منها ومآلاتها، وإلى الإنسان وخلقه الأول، والغاية من خلقه، واستخلافه في الأرض، وتسخيرها له، ومؤهلاته للاستخلاف، ومعوقاته عنه، ومعاداة الشيطان وذريته إياه، والمنهج الإلهي المكلف به.

وكذلك القرآن الكريم، بكل ما يمثله من قداسة عند المسلمين، فمنه يستمدون عقيدتهم، وأصول شريعتهم، ومنظومة قوانينهم، ومجموع أخلاقهم، وتصوراتهم الواحدة للكون والحياة والإنسان، يقرؤه العربي والأعجمي، ويتدارسونه واثقين في حفظ الله له، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وكانت شرائع الإسلام من أبرز عوامل الوحدة والترابط، فقد وحدت بين أبنائه في عباداتهم، فجميعهم يصلون إلى قبلة واحدة، ويصومون فرضهم في شهر واحد، ويحجون

إلى بيت الله المعظم، فيجتمع حجيجهم في صعيد عرفات في يوم واحد، ويؤدون زكوات أموالهم وفق منظومة واحدة.

ووحدت بينهم في منظومة تشريعية تدين لرؤية حاكمة متسقة، لا تحابي، ولا يختل ميزان العدل فيها، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم يأتي ذلك البناء القيمي والأخلاقي الذي ينتظم المؤمنين على اختلاف مجتمعاتهم ومَواطنهم، فيقارب بين مشاعرهم ومنطلقات أفعالهم، ورؤيتهم لما يحيط بهم من أحداث، وما ينزل بهم من نوازل، ونظرهم فيمن يستحق ولايتهم، ومن يستوجب معاداتهم، فيتآزرون ويتناصرون، وقد قال نبيهم ﷺ: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة"[(١)].

وكذلك التاريخ المشترك الذي عاشته أمة الإسلام وبدأ مع بزوغ فجره، بما يلهم المسلمين من اعتزاز بإنجاز أمتهم التاريخي، ودورها في التاريخ الإنساني العام، وما قدمته من نماذج وضاءة في السياسة والإدارة، ما تزال ثرية في إلهامها، ودافعة إلى الاقتداء بها، وفي الفتوحات الإسلامية التي حررت الشعوب المفتوحة من مظالم الاستبداد السياسي، والاضطهاد الديني، والاسترقاق الاجتماعي.

وهو تاريخ حافل بما يورث الاعتزاز بعطاء الأمة، وقدرتها على التصدي لأعدائها، وقهر خصومها، وحماية بلادها، والدفاع عن مقدساتها.

---

(١) البخاري: **صحيح البخاري**، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم، ولا يسلمه، ٣/ ١٢٨، مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٦.

كما يقدم النماذج لاستفاقتها من كبواتها، ونهوضها من عثراتها، وإفادتها من أسباب الخلل، ومواطن الزلل في مسيرتها.

وهي مسيرة آخذة بيد الأمة في طورها التاريخي الحاضر، مؤكدة أن الأيام دُوَل، والتاريخ دورات، لا يمضي على حال واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وجمعت الحضارة الإسلامية الإنسانية العالمية التي أقامها المسلمون بينهم وبين غيرهم في العالم الإسلامي، وتشارك في إنجازها العرب - وهم أصل الإسلام - وغير العرب، من فرس وترك وروم وهنود وبربر وإسبان، وغيرهم... وتنعموا بثمارها جميعًا من غير تفريق ولا تمييز، وما زالت آثارها شاخصة في كل أرض ظللتها دولة الإسلام، وما زالت إسهامات العلماء المسلمين في شتى ضروب العلم موضع اعتراف وتقدير، وإجلال وإكبار لدى المنصفين من ذوي الحضارات المعاصرة.

ولم تتخلَّ الأمة عن دورها الحضاري حتى في أوقات ضعفها، كما هي الآن.. فما زال علماؤها يسهمون في ميادين الحضارة المتعددة، وما الحضارة الأوروبية الحالية إلا مزيج من عطاءات علماء الدنيا الذين استوعبتهم حضارة أوروبا بقدراتها المادية الهائلة، ومنهم علماء مسلمون كبار.. وهؤلاء قادرون على العطاء تحت مظلة أمتهم الإسلامية حين يتوافر لهم المناخ الصالح للعطاء.

وهناك اللغة العربية التي بقيت لغة المسلمين جميعا قرونًا من الزمن، وقد حفظها القرآن الكريم، فلما حلت محلها لغات أخرى في ظل تنامي القوميات وتباعد البلدان؛ بقيت كثير من مفرداتها وتراكيبها وأساليبها حاضرة في ثنايا تلك اللغات، وما يزال كثيرون

من أبناء تلك اللغات يتقن العربية، ويجل قدرها؛ لأنها لغة القرآن العظيم، ولغة الثقافة العربية الأولى ومصادرها الباكرة، وقد أدرك أعداء الإسلام أثر تلك اللغة في توحيد المسلمين[1]، وتشكيل مداركهم ومشاعرهم، فشنوا عليها غاراتهم، وما فتئت كثير من لغات المسلمين التي حلت محل عربيتهم تكتب بالأحرف العربية، كالفارسية والأوردية والكشميرية والطاجيكية، والبلوشية والجاوية والتركية العثمانية؛ قبل أن يستبدل القوميون الأتراك – بعد إسقاط الخلافة العثمانية – الأحرف اللاتينية بالأحرف العربية.

وقد أثمر ذاك كله مشاعر فياضة من الأخوَّة الإيمانية، تجمع بين المسلمين على الرغم من عوامل تفرقهم المفروضة عليهم، من وطنية ضيقة، وقومية متعصبة مغلقة، ونظم سياسية قاهرة مستبدة، وإملاءات استعمارية تجد بين حكامنا المستجيب لها، والمبادر إلى تنفيذها، وقد عبر القرآن الكريم عن حقيقة الأخوة الإيمانية، مطلبًا ربانيًا، وواقعًا حيًّا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات ١٠]، وقال رسوله الكريم صلوات الله عليه: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[2].

تلك الأخوة التي مزجت بين دماء المسلمين وأرواحهم في معارك الجهاد، ومعاهد العلم، وساحات الكدح والعمل، ووحدت نظرتهم إلى قضايا المسلمين الكبرى، فهم سواء في نظرتهم إلى مأساة المسلمين تحت الاحتلال الصهيوني، والحكم الشيوعي، والتسلط البوذي، والقهر الهندوسي، والتعصب الصليبي.

---

(١) راجع عن أهمية عامل اللغة في توحيد الأمة (محمد رشيد رضا: الخلافة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٣م ص ٨٦).

(٢) مسلم: صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٩-٢٠٠٠، حديث رقم ٢٥٨٦.

ثانيًا: الموقع الاستراتيجي:

يتميز العالم الإسلامي بموقع استراتيجي فريد، إذ يتوسط قارات العالم القديم: آسيا وإفريقيا وأروبا، وتذهب بعض البحوث الحديثة إلى أن مكة تقع في قلب اليابسة من العالم الآن[1].

ويمثل العالم الإسلامي كتلة جغرافية متواصلة غالبًا، لا يفصل بينها عوائق كبيرة تحول دون التواصل بين أطرافها من جبال ممتدة، أو بحار مانعة، أو أنهار متسعة.

وبهذا الموقع الاستراتيجي الفريد يصبح العالم الإسلامي معبرًا لا غنى عنه لطرق المواصلات بين قارات الدنيا، سواء كانت برية أو بحرية أو جوية.. كما يمكِّنه موقعه من الإشراف على أهم البحار والمحيطات، وكذلك المضايق المائية التي تتحكم في طرق الانتقال بينها..

فقد كان البحر المتوسط - على مدى زمني طويل من عمر الخلافة الإسلامية الأموية والعباسية والعثمانية - بحرًا إسلاميًا يسيطر المسلمون على شواطئه الجنوبية والشرقية، وجزء من شواطئه الشمالية والغربية، ومعظم جزره الكبرى مثل قبرص وكريت وصقلية وروردوس وسردينيا وجزر البليار شرقي إسبانيا، وظلت الأساطيل الإسلامية ردحًا من الزمن سيدة ذلك البحر، والحاكمة على حركة التجارة والتنقل فيه، ثم تقلص الوجود الإسلامي به بضعف المسلمين، لكن ما زالت سواحله الشرقية والجنوبية وبعض سواحله الشمالية - في الأناضول بتركيا وفي ألبانيا - ضمن بلاد العالم الإسلامي.

---

(١) بحوث أجراها العالم المصري د. حسين كمال الدين استغرقت عدة سنوات، وانتهى فيها إلى هذه النتيجة الموثقة بالأدلة العلمية والقياسات الدقيقة سنة ١٩٧٧م، بل وصل في بحثه إلى أن مكة كانت مركز اليابسة في العالم القديم قبل اكتشاف الأمريكتين وأستراليا، (راجع موقع د. زغلول النجار على الإنترنت http:// elnaggarzr.com/pg/759/61.html)

أما البحر الأحمر فهو بحر إسلامي بالكامل - لولا وجود الكيان الصهيوني في أقصى شماله الشرقي من خلال ميناء إيلات - وكذا بحر العرب الواصل ما بين البحر الأحمر والمحيط الهندي، جنوبي شبه الجزيرة العربية.

وتُحكم المضايق التي تمر في العالم الإسلامي السيطرة على عدد من تلكم البحار والمحيطات، فمضيق جبل طارق يكاد يغلق المدخل الغربي للبحر المتوسط من جهة المحيط الأطلسي، ومضيق البوسفور يتحكم في مدخل البحر الأسود، وقناة السويس تتحكم في مدخل البحر الأحمر الشمالي، بينما يتحكم مضيق باب المندب في مدخله الجنوبي، ومضيق هرمز يتحكم في المخرج الوحيد للخليج العربي، أما مضيق ملقا[1] فيتحكم في طريق الشحن والتجارة العالمي الواصل بين المحيطين الهندي والهادي.

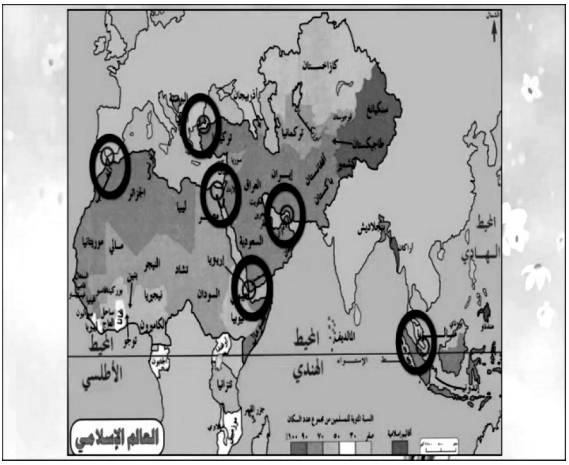

لقد تسبب الموقع الاستراتيجي فائق الأهمية للعالم الإسلامي في تنافس الدول الاستعمارية، بل تصارعها من أجل السيطرة عليه، وألقى على أبنائه عبء استمرار اليقظة، ودوام المرابطة للدفاع عنه.

فلا شك أن المغنم الحاصل للأمة بجلال موقعها الاستراتيجي يستلزم ضرورة الحفاظ عليه، والإفادة منه.. لقد تحولت ميزة الموقع الاستراتيجي في حال ضعف الأمة إلى عبء كبير، وسبيل لحصارها، والوصول إلى مناطق الضعف فيها، إذ سيطرت البحرية

(١) يقع بين شبه جزيرة الملايو وغرب ماليزيا وجزيرة سومطرة الإندونيسية.

الأوروبية - منذ القرن السادس عشر- ثم الأمريكية في القرن العشرين والقرن الحالي على تلك البحار والمضايق، ومن خلال السفن العملاقة والغواصات والأساطيل الحاملة للقوات المقاتلة فرضت أوروبا وأمريكا إرادتها عليها.

فقد تعرضت جزر الملايو وجنوب شرق آسيا وسواحل الهند للغزو البرتغالي والهولندي والبريطاني والفرنسي من خلال القدرات البحرية الفائقة لتلك الدول، وتحولت قناة السويس في مصر من نعمة تعزز المكانة الاستراتيجية لها إلى سبب لتنافس بريطانيا وفرنسا من أجل احتلالها، إذ هي الطريق الأقرب للوصول الأوروبي إلى الهند، ثم ظفرت بريطانيا بعد لأي بالسيطرة عليها، ثم دخلت دائرة الصراع بين العرب والكيان الصهيوني فيما بعد.

ثالثًا: وفرة الثروة البشرية:

وتعداد المسلمين في تزايد مطرد، إذ يتوقع أن ترتفع أعداد المسلمين من ١,٨ نسمة - كما مر بنا سنة ٢٠١٥م - يشكلون ٢٤,١٪ من سكان العالم - إلى نحو ٢,٨ مليار سنة ٢٠٥٠م، يشكلون نحو ٣٠٪ من تعداد العالم[١]، وذلك التمدد للإسلام يجري بالرغم من الحروب الظاهرة والخفية التي تعرض لها من قوى الاستعمار في القرون الأربعة الأخيرة، وما زال يواجهها، من غير ظروف مادية متكافئة، ولا قوى سياسية أو اقتصادية أو مؤسسية دافعة، ومن يطَّلع على جهود الاستعمار لتحجيم انتشار الإسلام، وما تنفقه المؤسسات الكنسية وغيرها من أموال طائلة، وضغوط مستترة وظاهرة، ناهيك عن الاضطهاد الديني والإبادة العرقية التي تعرض لها المسلمون تحت سيطرة الاستعمار

(١) راجع الرابط الخاص بمركز بيو للأبحاث The pew Research Centre, The Future of World Religions: Population Growth Projections ٢٠١٠-٢٠٥٠ مؤرشف من الأصل (PDF) في ١ مايو ٢٠١٨.

الشيوعي في الدول التي خضعت للاتحاد السوفيتي قبل سقوطه[١]، والتي يتعرض لها المسلمون في تركستان الشرقية تحت سيطرة الصين، وفي الفلبين، وفي الهند، وفي البوسنة والهرسك وغيرها، من يطلع على ذلك يتأكد أن تمدد الإسلام إنما جاء بقواه الذاتية[٢]، وببنائه القيمي الذي حفظ أبناءه، ودفعهم إلى التكاثر الصائن للوجود وللهوية.

ولا ريب أن ذلك الانتشار للإسلام، وتزايد أعداد أبنائه، مما يثير مخاوف أعداء المسلمين، وأصحاب الديانات الأخرى، ويتيح أمام العالم الإسلامي مستقبلاً أفضل إذا تم تأهيل هذه الأعداد لتناسب تحديات المستقبل ومتطلباته.

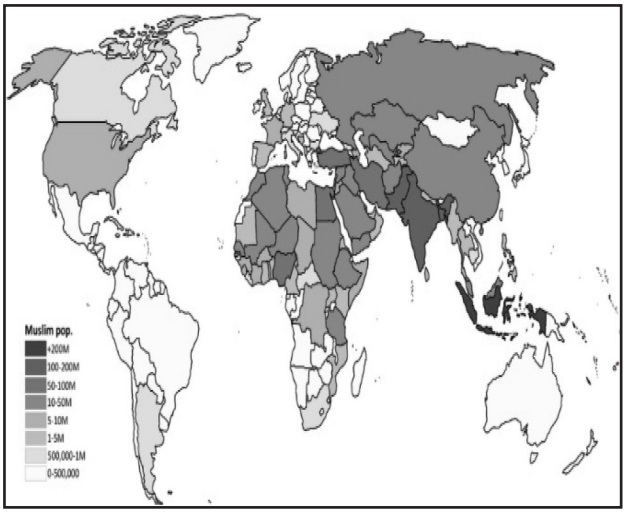

ويُعد الإسلام هو الديانة الثانية انتشارًا في العالم بعد النصرانية، وتشير دراسة لمركز بيو للأبحاث أنه بحلول عام ٢٠٥٠م سيكون هناك تكافؤ تقريبًا بين أعداد المسلمين والنصارى[٣].

ويؤكد د. جمال حمدان أن التفوق العددي للنصرانية على الإسلام لم يتحقق إلا في العصور الحديثة بعد الكشوف الجغرافية، وتمدد الاستعمار الغربي، وما صاحبه من نشاط تنصيري[٤].

---

(١) راجع محمد الغزالي: **الإسلام في وجه الزحف الأحمر**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٥م، الفصل الخامس، ص ٨٦-١١٥.

(٢) راجع د. جمال حمدان: العالم الإسلامي المعاصر، ص١٢-١٣.

(٣) راجع الرابط الخاص بمركز بيو للأبحاث، سبقت الإشارة إليه.

(٤) العالم الإسلامي المعاصر ص ١٤.

كما يؤكد ظاهرة تمدد الإسلام في إفريقية في مطلع السبعينات من القرن الماضي[١]، لكنه قرنها بانكماش المد الإسلامي في أوروبا آنذاك، وأنه "يزداد دفئًا وحرارة، إذ يزداد ابتعادًا عن القطب، واقترابًا من خط الاستواء، إنه باختصار وبالمجاز "يهاجر" من أوروبا إلى إفريقيا"[٢]، ولو طال الأجل بالدكتور حمدان (ت ١٩٩٣م) لراجع تقديره، إذ انهار الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩١م، وتفكك الاتحاد اليوغسلافي في السنة نفسها، وبرز المد الإسلامي في دول مثل ألبانيا وكوسوفو والبوسنة والهرسك، وارتفع معدل الهجرة إلى أوروبا، وكثير من المهاجرين إليها من المسلمين، كل ذلك أدى إلى تزايد الوجود الإسلامي في أوروبا، ومن المتوقع أن تنمو أعداد المسلمين هناك من نحو ١,٤٤ مليون في عام ٢٠١٠م إلى ٢,٥٨ مليون في عام ٢٠٣٠م[٣].

ويزيد من قيمة هذه الثروة البشرية في العالم الإسلامي أن معظمها ينتمي إلى مرحلة الشباب، فإن أكثر من نصف سكان العالم الإسلامي يتركزون في الفئة العمرية من ١٥-٦٤ سنة، وبنسبة ٥٧,٢٪، تليها الفئة العمرية دون الرابعة عشرة وبنسبة حوالي ٣٩٪. وبشكل عام فإن مجتمعات العالم الإسلامي مجتمعات شابة، تقع أعمار أغلب سكانها بين ١٥ - ٤٠ عاماً[٤]، كما تُشير أحدثُ الإحصائيات إلى أنَّ أعمار ثُلثَي سكان المنطقة العربية سنة ٢٠١٦م تقل عن ٣٠ عامًا، نصفهم في الشريحة العمرية ١٥-٢٩ سنة. ويقدر عددهم بأكثر من مئة مليون[٥].

---

(١) كانت الطبعة الأولى لكتابه "العالم الإسلامي المعاصر" سنة ١٩٧١م.

(٢) العالم الإسلامي المعاصر ص ١٨-١٩.

(٣) مركز بيو للأبحاث، الرابط السابق.

(٤) أسماء ملكاوي: **حالة العالم الإسلامي**، أرقام ومؤشرات، مقال على موقع الجزيرة، راجع الرابط: https://cutt.us/hN2w5 تم الاطلاع عليه في ١١/ ٨/ ٢٠٢١ الساعة ٢٠,٠٠.

(٥) **تقرير التنمية الإنسانية العربية** للعام ٢٠١٦ الشباب وآفاقُ التنمية الإنسانية في واقع متغير، صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ص ٦، موقع الأمم المتحدة، على الرابط: https://www.un.org/ar/esa/ahdr/ahdr16.shtml

ولقد "كان الشباب قديمًا وحديثًا في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سر قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها"[1].. والإنسان هو الركيزة الأولى لكل تقدم، وهو الضمانة للحفاظ على مكتسبات الأمة، والسير بها. وعلى طول التاريخ الإسلامي للأمة كان الإنسان المسلم ديانة، أو حضارة هو سر قوتها، وصانع منجزاتها ومعجزاتها.

ولا ريب أن هذه ال ١,٨ مليار نسمة الذين يدينون بعقيدة واحدة، ويتجهون نحو قبلة واحدة، ويؤمنون برسالة سماوية شاملة تقدم تصورًا ساطعًا ومتماسكًا للكون والحياة والإنسان، ويعتزون بتاريخ مشترك، وإنجاز حضاري وإنساني ممتد زمانًا زمكانًا، وتحدوهم آمال وطموحات متشابهة.. لا ريب أن مثل هذه الملايين تمثل ثروة هائلة إن أُحسن توجيهها وتوظيفها وتنمية قدراتها، وإن امتلكت زمام أمورها، وقد حقق كثير من أفرادها سبقًا يشار إليه في شتى الميادين، بالرغم مما تعانيه من عداء، وحروب، ومؤامرات جلية، ومستترة.

ومما يثير الأسى ألا يقدر كثير من حكام المسلمين قيمة ما تزخر به بلادهم من ثروة بشرية، فتتعالى صيحاتهم بضرورة تحديد النسل، وتتصاعد تحذيراتهم من قلة الموارد الاقتصادية وكثرة الموارد البشرية، واختلال التوازن بينهما. إن هذا ما يبدو من النظرة العجلى، ولكنه ستار يخفي فشل السياسات الاقتصادية والتنموية لتلك الحكومات، وسوء إدارتها لثرواتها البشرية، بحسن توظيف موارد الدولة، والإدارة الرشيدة لأموالها، وفتح مسارات متجددة لإيجاد فرص العمل، وتطوير منظومات التعليم فيها، وتوجيهها للتحقق بالتقنيات العالية، والسعي نحو التكامل بين الدول الإسلامية في ذلك المجال للجمع بين أفضل الإمكانات المتاحة من القوى البشرية، والطاقات العقلية والعلمية، والثروات المادية والنفطية.

---

(١) الإمام حسن البنا: **رسالة إلى الشباب عامة وإلى الطلبة خاصة، ضمن مجموعة رسائل الإمام البنا**، إعداد البصائر للبحوث والدراسات، ط٢، سنة ٢٠١٠م، ص٣٢٦.

وتزداد - في المدى القريب والمتوسط - أهمية الثروة البشرية الإسلامية حين النظر الكلي إلى توزيع التكتلات البشرية في العالم، حيث تعاني أوروبا وكندا مثلاً من الندرة السكانية، ومن شيخوخة مواطنيها، فتقل معدلات المواليد لانصراف الرجال عن الزواج وتكوين أسر جديدة، بغية إرواء الشهوات المستعرة، واستسلامًا لأنانية بغيضة تضن بأصحابها عن تحمل مسؤوليات الزوجة والولد، مع ما ابتليت به هذه المجتمعات من شيوع الشذوذ الجنسي، واكتفاء كثير من الذكور بأشباههم، والنساء بأشباههن.

وقد رأينا تباين مواقف الاتحاد الأوربي وكندا من الهجرة إليها، فبينما تفتح بعض هذه الدول أبوابها للمهاجرين من نوعيات متميزة إليها، بعد معاناتها من قلة سكانها، تتخوف دول أخرى من تغيير ديموغرافي قد يشمل مواطنيها، وبخاصة مع وفود المسلمين إليها.

إن تفاقم هذه الأوضاع قد يؤدي بالعقلاء إلى النظر الحصيف لهذا الجانب من مشكلات العالم، حيث تختل موازين الإنصاف في توزيع الثروات نتيجة سياسات الاستغلال التي تفرضها الدول الكبرى، فيمتلك ٢٠٪ من سكان العالم ٨٠٪ من ثرواته.

رابعًا: وفرة الموارد الاقتصادية:

الموارد الزراعية:

هيأ الاتساع الجغرافي للعالم الإسلامي جميع أنواع المناخ، ما بين حار وبارد بدرجات كل منهما، كما تتنوع فيه مصادر المياه: فتهطل أمطار غزيرة في بعض مناطقه؛ حيث يبلغ نصيب العالم الإسلامي ٢٢ , ٦٪ من متوسط هطول الأمطار السنوي على العالم[1]. كما تتوافر الأنهار الكبرى، حيث توجد ثمانية أحواض نهرية دولية رئيسة في دول منظمة

(١) مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الإسلامية التابع لمنظمة العالم الإسلامي (سيسرك): **الزراعة والأمن الغذائي في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي**، أنقرة، سنة ٢٠١٦، ص٦.

التعاون الإسلامي؛ ففي المنطقة الإفريقية يوجد النيل والنيجر والسنغال وبحيرة تشاد وأحواض أنهار لمبوبو[١]، أما في منطقة آسيا فيوجد حوض نهري الفرات ودجلة، ونهري آموداريا وسيرداريا في منطقة آسيا الوسطى، ونهر الجانج في شمال الهند وبنجلاديش[٢]. فضلاً عن توفر المياه الجوفية في كثير من المناطق.

وتتوافر الأراضي الخصبة حيث تبلغ مساحة الأراضي الزراعية في العالم الإسلامي١,٤ مليار هكتار، أي ما يعادل ٢٥,٩٪ من مساحة الأراضي الزراعية في العالم، تبعًا لإحصاءات سنة ٢٠١٤م[٣].

الثروة المعدنية:

يمتلك العالم الإسلامي ما يقرب من ٦٠٪ من إجمالي الاحتياطيات العالمية في النفط والغاز[٤]، وينتج نحو ٢,٤٥٪ من الإنتاج العالمي للنفط، و٣٢٪ من الإنتاج العالمي للغاز الطبيعي، وذلك بحسب إحصاء عام ٢٠١٨م[٥].

وتعد منطقة الخليج من أغنى مناطق العالم بالنفط، حيث تحتل المملكة العربية السعودية المرتبة الثالثة بين دول العالم من حيث الإنتاج، وتمتلك ثاني أكبر احتياطي للنفط في العالم بحسب إحصاءات سنة ٢٠١٨م، كما تعد أكبر الأقطار تصديرا له، حيث تصدر٧.٣٤١ مليون برميل في اليوم بحسب تقديرات ٢٠١٥م.

---

(١) ويجري هذا النهر في ٤ دول من منبعه حتى مصبه هي جنوب إفريقية وبتسوانا وزيمبابوي وموزمبيق.

(٢) سيسريك: المرجع السابق ص٩.

(٣) سيسريك: المرجع نفسه ص ٣.

(٤) مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الإسلامية (التابع لمنظمة العالم الإسلامي: سيسرك): **التوقعات الاقتصادية لدول العالم الإسلامي**، أنقرة، سنة ٢٠١٩، ص ٩٤.

(٥) Sesric, STATISTICAL YEARBOOK ON OIC MEMBER COUNTRIES 2019, p. 75.

أما الإمارات العربية المتحدة فهي ثامن دول العالم إنتاجًا للنفط سنة ٢٠١٨م، وهي سابع العالم من حيث الاحتياطي النفطي في السنة نفسها.

وتحتل الكويت المرتبة التاسعة بين دول العالم من ناحية الإنتاج، والمرتبة السادسة من حيث الاحتياطي النفطي سنة ٢٠١٨م.

أما **الغاز الطبيعي** فإن إيران في المرتبة الثالثة بين دول العالم من حيث إنتاجه سنة ٢٠١٧م، والمرتبة الثانية من حيث الاحتياطي العالمي المؤكد سنة ٢٠١٨م.. وتحتل قطر المرتبة الرابعة في العالم من حيث إنتاج الغاز الطبيعي سنة ٢٠١٧م، وهي الثانية في العالم من حيث تصديره في السنة نفسها، والثالثة من حيث احتياطيه سنة ٢٠١٨م.

أما السعودية ففي المرتبة الثامنة من حيث الإنتاج، والرابعة من حيث الاحتياطيات المؤكدة سنة ٢٠١٧م، وتوجد الجزائر في المرتبة العاشرة من حيث إنتاجه في السنة نفسها[١].

ويحتل العالم الإسلامي موقعاً متميزاً في إنتاج بعض المعادن، منها: القصدير ٥٦٪، الكروم ٤٠٪، النحاس ٢٥٪، الفوسفات ٢٥٪، المنجنيز ٢٤٪، البوكسايت ٢٣٪. وموريتانيا لها أهميتها في إنتاج الحديد، تليها الجزائر، ثم تركيا، ثم مصر. وغينيا لها أهميتها في إنتاج البوكسايت[٢]، تليها إندونيسيا ثم ماليزيا. وتركيا لها أهميتها في إنتاج الفحم، تليها باكستان، ثم إيران، ثم المغرب. وللمغرب أهميتها في إنتاج الفوسفات، تليها تونس، ثم الأردن[٣].

---

(١) تبعا لكتاب حقائق العالم:
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/

(٢) هو الخام الطبيعي الذي يصنع منه معظم معدن الألومنيوم.

(٣) د. رفعت العوضي: **عالم إسلامي بلا فقر**، كتاب الأمة، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، سنة ٢٠٠٠م، ص ٨٨

المبحث الثاني

من عوامل الضعف الاقتصادي في العالم الإسلامي

بالرغم من تلك الموارد المتاحة في بلدان العالم الإسلامي فإن السياسات المتبعة قد أثرت تأثيرًا سلبيًا بيِّنًا، قزَّمت من قامته، وأهدرت كثيرًا من أسباب قوته، وعوامل نهضته.

١- ضعف الناتج القومي:

سبق بيان وفرة الموارد الاقتصادية في مجموع دول العالم الإسلامي؛ لكن غياب السياسات الرشيدة في إدارة هذه الموارد، وافتقاد إرادة التكامل بينها قد أدى إلى حال موجع من الضعف الاقتصادي.

وتبدو مشاركة بلدان منظمة التعاون الإسلامي في الإنتاج العالمي متعثرة، وفي بعض الأحيان تبدو متدنية.. ففي سنة ٢٠١٤م أنتجت دول المنظمة ٩ ,١٣٪ من إجمالي إنتاج الحبوب العالمي، و٥ ,١٨٪ من الإنتاج العالمي للفاكهة، بينما أنتجت في عام ٢٠١٣م ما يعادل ٧ ,١٤٪ من إجمالي إنتاج الخضروات في العالم[١]، وإن بدت الإنتاجية أعلى في بعض المحاصيل، فلدى الدول الأعضاء أعلى نسبة من إجمالي الإنتاج العالمي لزيت النخيل ٩٣٪، والكاكاو ٦٤٪، والذرة الرفيعة ٢٤٪[٢]

ويعود التراجع في الإنتاج للظهور فيما يتصل بالثروة الحيوانية والسمكية، ففي سنة ٢٠١٤م أنتجت دول المنظمة ما يعادل ١٤٪ من الإنتاج الحيواني العالمي، و٣ ,١٧٪ من إجمالي إنتاج مصايد الأسماك في العالم[٣]، رغم ما تمتلكه من سواحل طويلة تطل على أهم وأغنى محيطات الدنيا وبحارها وأنهارها.

---

(١) سيسرك: "الزراعة والأمن الغذائي في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي ص ٢٤

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠، ٣٣

وبالنسبة للمشاركة في الناتج المحلي العالمي نجد أنه في عام ٢٠١٨م لم تنتج بلدان منظمة التعاون الإسلامي سوى ١٥,٢٪ من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، رغم أن نسبة سكانها تمثل ٢٤٪ من مجموع سكان العالم، في حين حققت دولة واحدة هي الولايات المتحدة الأمريكية نفس قيمة الناتج المحلي لمجموع دول المنظمة، (١٥,٢٪)، وزادت الصين من ناتجها ليصل إلى ١٨,٧٪ في نفس السنة ٢٠١٨م[١].

ويتباين نصيب دول المنظمة من حيث ناتجها المحلي، حيث تنتج ١٠ دول منها قرابة ثلاثة أرباع ناتج جميع دولها (٧٣٪)[٢]، ويعود معظم ذلك إلى تعاظم صادراتها النفطية[٣]، وليس إلى ناتج زراعي أو صناعي، أو تقني.

كما يتفاوت متوسط نصيب الفرد من ذلك الناتج المحلي بين دول العالم الإسلامي، فيقترب في قطر من ١٢٧ ألف دولار في العام، بينما يصل في موزمبيق إلى أقل من ١،٥٠٠ دولار في العام بحسب إحصائيات البنك الدولي سنة ٢٠١٨م [٤].

أما متوسط نمو ذلك الناتج المحلي داخل دول العالم الإسلامي فلم يتجاوز نسبة ٣,١٪ سنة ٢٠١٨م، وكان من المتوقع أن يتراجع معدل النمو الاقتصادي في دول المنظمة إلى ٢,٤٪ عام ٢٠١٩م[٥].

---

(١) سيسرك: التوقعات الاقتصادية لدول العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) هي على الترتيب إندونيسيا - وهي أعلاها ناتجًا - ثم المملكة العربية السعودية وتركيا وإيران والإمارات العربية المتحدة ونيجيريا وماليزيا وباكستان وبنجلاديش ومصر (المرجع السابق ص٤٠).

(٣) وهي السعودية وإيران والإمارات العربية المتحدة ونيجيريا (المرجع السابق ص ٤١).

(٤) "نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي، وفقا لتعادل القوة الشرائية (بالأسعار الجارية للدولار الدولي"، موقع البنك الدولي على الرابط:
https://data.albankaldawli.org/indicator/NY.GDP.PCAP.PP.CD

(٥) سيسرك: المرجع السابق ص ٤١.

وتُصنَّف دول العالم الإسلامي تنمويًا في مراتب متأخرة مقارنة بالدول المتقدمة، بل تُصنَّف ٢٢ دولة إسلامية ضمن الدول الأقل نموًا في العالم[١].

وتلك نظرة عامة على اقتصاد الدول الإسلامية، تعززها النظرات التفصيلية..

أ- ضعف الناتج الزراعي:

فمساحة الأراضي المزروعة بالفعل حوالي ٢٦٪، والباقي نحو ٧٤٪ مخصص للمروج والمراعي الدائمة، ويستخدم إلى حد كبير في رعي الماشية[٢].

أما من حيث إنتاجية الأرض الزراعية فهي الأدنى من حيث القيمة المطلقة بالمقارنة مع مجموعات البلدان الأخرى[٣]، وقد بلغت حصة الزراعة ٤ , ١٠٪ من مجموع الناتج المحلي الإجمالي لدول منظمة التعاون الإسلامي في عام ٢٠١٤م، ولم يواكب الإنتاج الزراعي في معظم دول منظمة التعاون الإسلامي الطلب المتزايد على الغذاء بسبب سوء الإدارة الاقتصادية مع الزيادة السريعة في أعداد السكان، مما أدى إلى اتساع الفجوة الغذائية التي يتعين سدها بالواردات، فدول المنظمة تستورد أكثر من ثلث إجمالي واردات الحبوب في العالم - بحسب إحصائيات سنة ٢٠١٣م - ناهيك عن ارتفاع نسب استيراد الخضر والفاكهة ومنتجات الألبان واللحوم وغيرها، مما أدى إلى تفاقم العجز التجاري[٤].

---

(١) هي أفغانستان، تشاد، غينيا، مالي، النيجر، السودان، الصومال، اليمن، بينين، بوركينافاسو، المالديف، موزمبيق، توجو، أوغندا، بنجلاديش، جزر القمر، جيبوتي، غامبيا، غينيا بيساو، موريتانيا، سيراليون، السنغال (سيسرك: **المشاكل الاقتصادية للبلدان الأقل نموا والبلدان غير الساحلية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ٢٠٠٩م**، ص ١.

(٢) سيسرك "الزراعة والأمن الغذائي في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي، ص٤.

(٣) المرجع نفسه ص ١٥.

(٤) المرجع نفسه ص ٣٧-٣٨.

وزاد الأمر سوءًا ازدياد نسب المفقود من الإنتاج الزراعي بسبب الآفات وسوء التخزين وغيره، ففي المنطقة العربية مثلاً بلغ المفقود من الخضروات ٢٥٪، ومن الحبوب ١٥٪ من إجمالي الإنتاج، ومن الفاكهة ٤٠٪[١]، حتى غدت ثمانية وعشرين بلدًا في المنظمة تعاني العجز الغذائي[٢]، وأصبح ١٦٦ مليونًا في العالم الإسلامي يعانون من سوء التغذية، وهو ما يفوق خمس المصابين بسوء التغذية في العالم[٣].

ب- مشكلة توزيع الموارد المائية:

ومما يعمق الأزمة الاقتصادية في بلدان العالم الإسلامي شح المياه، أو ندرتها في عديد من مناطقه، حيث تعاني ٢٦ دولة من ذلك، معظمها في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا[٤]، رغم وفرتها في مناطق أخرى وبخاصة قي جنوب شرق آسيا، وتوشك أن تتصاعد النزاعات حول المياه، وتشكل خطرًا على العلاقات بين البلدان الإسلامية[٥].

وتعد أساليب الري السطحي العتيقة – التي تمارس على أكثر من ٨٠٪ من إجمالي المساحة المجهزة للري[٦] – من أسباب تزايد الفاقد من المياه، ولذلك فإن كفاءة استخدام الموارد المائية في الزراعة من خلال تحسين نظم وتقنيات الري هو من بين الاحتياجات الأكثر إلحاحًا، والمتطلبات الأساسية للتنمية الزراعية المستدامة والأمن الغذائي في

(١) صندوق النقد العربي: **التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٩م**، ص ١٩١، على الرابط:
https://www.amf.org.ae/ar/publications/altqryr-alaqtsady-alrby-almwhd/al-tqryr-alaqtsady-alrby-almwhd-2009

(٢) سيسرك: الزراعة والأمن الغذائي في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي ٢٠١٦، ص ٨٢.

(٣) المرجع السابق ص ٨٤.

(٤) المرجع نفسه ص ١، ٨.

(٥) راجع سيسرك: تقرير المياه ص ٧.

(٦) سيسرك: الزراعة والأمن الغذائي ص ١٢.

بلدان منظمة التعاون الإسلامي[١].. كما أصبح التعاون بين الدول المتشاركة في حوض نهري واحد أكثر ضرورة، وغدا منجاة من احتمالات الشقاق والتنازع بين هذه الدول، وسدًا يحول دون نجاح مؤامرات أعدائها لتفريقها، والنيل منها، وتغذية الصراعات بينها،

ومن الأهمية بمكان العناية بالتكثيف المحصولي[٢]، إذ إن رفع كثافة المحصول بنسبة ١,٠٪ خلال السنوات العشر القادمة يعني إضافة ما يتراوح بين ٥,٥ - ٦ مليون هكتار محصولي[٣]، وكذا العناية بالتوسع الرأسي في الزراعة عن طريق تطوير وزيادة إنتاجية الأرض المزروعة[٤]، تلك الإنتاجية التي تشير الدراسات الحديثة إلى تدني قيمتها، وأنها تتراوح بين ٢٥٪ و٥٠٪ من الطاقة الطبيعية الإنتاجية للأرض فيما لو اتبعت التقنيات الحديثة في الزراعة[٥].

لقد ولى الزمن الذي كان يمكن فيه الاعتماد على الزراعة وحدها في التنمية الاقتصادية، وأصبح من الضروري اللجوء إلى التصنيع الزراعي، ففي المنطقة العربية مثلاً لا تزيد نسبة ما يستخدم من المحاصيل الزراعية في الصناعة عن ٢-٣٪[٦].

جـ - ضعف التصنيع والاعتماد على تصدير المواد الأولية:

وكذلك الأمر في الاعتماد على **تصدير النفط الخام والغاز الطبيعي**، وقد أدت تلك الصادرات إلى ثراء بعض الدول الإسلامية، إلا أن أيًّا منها لم يدخل في عداد الدول

---

(١) سيسرك: الزراعة والأمن الغذائي ص ٥.

(٢) والمقصود به حاصل قسمة مساحة محصول في سنة معينة على مساحة الأرض المخصصة لزراعته

(٣) صندوق النقد العربي: التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٩م، ص١٨٢.

(٤) المرجع السابق ص ١٨٢.

(٥) المرجع نفسه ص ١٨٨.

(٦) حسين عبد المطلب الأسرج: **تفعيل دور التصنيع الغذائي في تحقيق الأمن الغذائي العربي، بحث منشور على موقع مجلة** Mpra ص٤، أغسطس ٢٠١٢، على الرابط:
https://mpra.ub.uni-muenchen.de/42502/1/MPRA_paper_42502.pdf

المتقدمة من قبل الوكالات الدولية، ولم ينتهج نهجًا يؤدي إلى تنوع مصادر الدخل، واعتماد التقنيات الكثيفة في شتى المجالات، مما يقود إلى زيادة الإنتاجية والقدرة التنافسية، إذ إن نفقات البحث والتطوير في دول منظمة التعاون الإسلامي أقل بكثير من تلك التي تعتمدها الدول المتقدمة[1].

بل إن بعض الدول الإسلامية ذات الموارد الطبيعية الغنية تعاني الفقر، وتشهد حالات من الحرمان الاقتصادي، وعدم الاستقرار السياسي بسبب غياب المؤسسات ذات الجودة التي يمكنها أن تدير المكاسب، وتوزعها بشكل عادل لصالح شعوبها[2]، في حين تتدفق أموال هذه الأقطار النفطية على دول أوروبا والولايات المتحدة بغية الاستثمار الأعظم ربحًا، والأكثر أمنًا.

إن كلا من النفط والغاز سلعة ناضبة بعد حين، فحقل ""برقان" في الكويت- وهو ثاني أكبر حقول النفط في العالم - قد وصل إلى حد إنتاجه الأقصى عام ٢٠٠٥م، وبدأ في التراجع، طبقًا لتقرير الشركة الكويتية للنفط، وفي أبريل ٢٠٠٦م أعلنت شركة أرامكو السعودية أن حقولها القديمة قد وصلت إلى القمة المستوية التي تبدأ عندها في التناقص، وأن انتاج النفط منها سوف ينخفض بمعدل ٨٪ سنويًا..

بل إن عديدًا من الدول الكبرى المستوردة للنفط بدأت منذ فترة في تخزين جزء من النفط المستورد لديها، بحيث يكفيها مدة إذا انقطعت إمدادات النفط عنها، كما بدأ بعضها في استغلال النفط المستورد ذاته وسيلة لجني الأموال لديها، ودعم ميزانياتها، وذلك بفرض ضرائب عالية على منتجاته، مثلما يحدث في اليابان وفرنسا وبريطانيا وألمانيا،

(١) سيسرك: التوقعات الاقتصادية ص ٩٥-٩٦.

(٢) سيسرك: التوقعات الاقتصادية ص ٩٨.

ففي ألمانيا مثلاً تأخذ الحكومة ٥٠٪ ضريبة على هذه المنتجات، وبلغ دخلها من تلك الضرائب على البنزين والديزل عام ٢٠٠٨م نحو ٤٢ مليار يورو[١].

٢- استثمار الأموال الإسلامية في الغرب:

أما عائدات النفط من ثروات هائلة على امتداد العقود الماضية فإن نسبة لا بأس بها تُستثمر في بنوك الغرب وأمريكا، حيث يرون توفر المناخ الاستثماري الآمن، وقد بلغت استثمارات دول مجلس التعاون الخليجي في أذون وسندات الخزانة الأمريكية ٢٨٤,٣ مليار دولار في يوليو/ تموز ٢٠١٩م[٢]، هذه الأرقام تخصُّ فقط الاستثمارات في أذون وسندات الخزانة، ولا تشمل الاستثمارات الأخرى في الولايات المتحدة، سواءً كانت حكومية أو خاصة، وتقدر بمئات المليارات.

وبالرغم من ذلك فإن الغرب لا ينظر بامتنان إلى هذه الاستثمارات التي تسهم في رواجه الاقتصادي، فقد صرح الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب مرارًا بأنه لولا الحماية الأمريكية لانهارت الأنظمة السياسية في منطقة الخليج.

بل غدت هذه الاستثمارات آلية للضغط عند الحاجة على الأنظمة السياسية في بلادنا إذا قُدر لها أن تخرج من بيت الطاعة الأمريكي والغربي، فلما قامت الثورة الإيرانية جمدت أمريكا الأموال الإيرانية الموجودة لديها، ولما تمرد الرئيس العراقي صدام حسين على النظام السياسي المفروض على بلادنا جمدت أمريكا أرصدة العراق المالية لديها.

---

(١) راجع مادة "سياسة نفطية" على ويكيبيديا الموسوعة الحرة، وتم الاطلاع عليه في ٢٢/ ١/ ٢٠٢٠ الساعة ١٥,٤٥ على الرابط: https://2u.pw/hcH7c0

(٢) "ارتفاع استثمارات الخليج في سندات الخزانة الأمريكية ١,٤٪.." موقع وكالة الأناضول الإخبارية، وتم الاطلاع عليه في ٢٣/ ١/ ٢٠٢٠ الساعة ١٦,٤٥ على الرابط https://2u.pw/tTdDku

٣- مشكلات الفقر وغياب العدالة الاجتماعية:

لقد بلغ عدد الأشخاص الذين يعيشون تحت **خط الفقر** الدولي[١] في العالم الإسلامي ٣٢٢ مليون نسمة سنة ٢٠١١م[٢]، وبينما نرى ارتفاع إحصاءات من يموتون من سوء التغذية وتفشي الأمراض في بلدان إسلامية متعددة، نرى تزايد أعداد الأثرياء فيه، ولما نشرت مجلة "فوربس" الأمريكية تصنيفها السنوي لأثرياء العالم سنة ٢٠٢٢؛ كان من بينهم ٢٢ ثريًا عربيًا، بلغت ثروتهم نحو ٥٣ مليار دولار، منهم ستة مصريون، حققوا ثروة تبلغ ١٨,٣ مليار دولار، وبعض أفراد أسرة رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان الأسبق، وأسرة نجيب ميقاتي رئيس الوزراء الحالي[٣]، في حين نرى تزايد حدة الفقر في مصر ولبنان.. مما يشير إلى اختلال جسيم في ميزان العدالة الاجتماعية.

وهو ما نراه في تفاوت مستويات الثروة حين ننظر إلى اقتصاديات الدول أيضًا، وإجمالي الدخل القومي إلى بلدان النفط العربي مثلاً وما جاورها في المحيط الإقليمي، حيث تحصل دول الخليج على نصف المدخولات المالية لمنطقة الشرق الأوسط سنة ٢٠١٦، بحسب تقرير نشرته مجلة لوريان ٢١ الفرنسية[٤].

إن ذلك التفاوت يقود بلا ريب إلى آثار اجتماعية ونفسية وخيمة، ويؤكد غياب القيم الإسلامية الداعية إلى المواساة والتراحم، والتشريعات الإسلامية التي تؤدي حين تفعيلها إلى تفتيت الثروات بالتوارث والزكاة والصدقات، وفق مراد الله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

---

(١) وهو ١,٢٥ دولار في اليوم الواحد.

(٢) التوقعات الاقتصادية لمنظمة التعاون الإسلامي ص ٥٤.

(٣) تقرير موقع الجزيرة مباشر وعنوانه بثروة قدرها ٥٢,٩ مليار دولار.. فوربس تعلن قائمة الأثرياء العرب لعام ٢٠٢٢ على الرابط https://2u.pw/ZFjeeZ

(٤) "لوريان ٢١: الشرق الأوسط يشهد تفاوتا صارخا بين الأغنياء والفقراء"، تقرير منشور على موقع الجزيرة الإخباري في ٢٢/ ١١/ ٢٠١٨ على الرابط https://2u.pw/QDNgt0

رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

وبلغ معدل **البطالة** في دول منظمة التعاون الإسلامي ١٣,٩٪ عام ٢٠١٩م، وهو أعلى من المعدل العالمي[١]، وفي عام ٢٠١٨م بلغت البطالة بين الشباب أكثر من خمس السكان في ٢٠ دولة إسلامية [٢]، وهي تقترب من ٣٠٪ بين شباب المنطقة العربية [٣]، بما يمثله ذلك من تداعيات سلبية، ونظر قاتم إلى مستقبل الأجيال الجديدة.

لقد تركت هذه الأوضاع أثرها السيِّئ على التنمية البشرية، فتراجع متوسط الإنفاق على الصحة في منظمة العالم الإسلامي إلى ٥,٥٪ من الناتج المحلي سنة ٢٠١٦م، بينما يصل المعدل العالمي إلى ١٠٪ في السنة نفسها، ولم تزد هذه النسبة في العالم الإسلامي من عام ٢٠٠٠م إلى عام ٢٠١٦ سوى بنسبة ٠,٨٪ [٤].

كما أن نحو نصف سكان العالم الإسلامي لا يستطيعون الحصول على خدمات مياه الشرب الأساسية، وقرابة ذلك العدد في ٣٤ دولة إسلامية لا يحصلون على خدمات الصرف الصحي الأساسية [٥].

---

(١) بلغ المعدل العالمي في السنة نفسها ٥,٨٪ راجع
Sesric, STATISTICAL YEARBOOK ON OIC MEMBER COUNTRIES 2019, p . ٤٨٦
(الكتاب الإحصائي لسيسرك حول الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي ٢٠١٩)

(٢) التوقعات الاقتصادية ص٥٧.

(٣) تقرير **التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦، الشباب وآفاق التنمية الإنسانية في واقع متغير**، صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ص ١٩

(٤) Sesric, Op. Cit. p. 130

(٥) Ibid p. 130

٤- استشراء الفساد:

لقد تزايد استشراء الفساد في مجتمعاتنا المأزومة، ونقصد به "سوء استخدام السلطة الموكلة إلى شخص ما لتحقيق منفعة خاصة، غير مستحقة، تنافي الصالح العام"، وأدى ذلك الفساد إلى إهدار موارد ضخمة تقدرها المنظمة العربية لمكافحة الفساد بألف مليار دولار خلال خمسين سنة في المنطقة العربية، وترى الشبكة العربية لتعزيز النزاهة ومكافحة الفساد أنها كانت مبالغَ هائلةً يمكن استثمارها في إيجاد فرص عمل، وتحسين الخدمات الأساسية، وولَّد الفساد الاقتصادي فسادًا إداريًا وأخلاقيًا، واتجه مسؤولون فاسدون إلى توجيه اقتصاد الدولة نحو مشاريع عالية التكلفة، قليلة الجدوى، تحقق لهم الربح الأعلى، أو نحو إبرام عقود لشراء الأسلحة، يغلب عليها طابع السرية، وعدم الوضوح، بدل توظيفها في قطاعات منتجة، بل إنه في حالات تحقيق نمو في الناتج المحلي الإجمالي لم تجنِ الثمار إلا نخبة محدودة، دأبت على استغلال نفوذها للحصول على أكبر قدر من المنافع لها ولمؤيديها لضمان استدامتها. كما أصبح الفساد عاملاً طاردًا للاستثمار الأجنبي، إذ يرفع الكلفة على المستثمر، ويهدد استقرار معاملاته، ويعرضه بشكل متزايد للملاحقة القانونية، نتيجة تطور الأدوات القانونية العابرة للحدود، وتشديد الرقابة على التدفقات النقدية عبر المصارف[١].

ويشير تقرير منظمة الشفافية الدولية سنة ٢٠١٨م إلى أن ٨٠٪ من دول العالم الإسلامي ضمن قائمة الدول الأكثر فسادًا في العالم، ويربط التقرير بين استشراء الفساد وانحسار الحريات والسلم الأهلي وتقدم التنمية، فكلما تقلص نطاق الحريات السياسية ازداد الفساد، وغابت الشفافية والمحاسبة، وكلما زاد الاحتراب الأهلي والطائفي زاد الفساد، وتلاشت جهود محاربته، ولذا نجد الصومال في ذيل قائمة محاربة الفساد، وتسبقها بقليل اليمن وليبيا وسوريا والعراق، وكلما ازدهرت التنمية قلت معدلات الفساد، إذ تتراجع مظاهر الرشوة والمحسوبية والتحايل على القانون.

---

(١) راجع تقرير التنمية الإنسانية العربية ص ١٨.

القسم الثاني

- المخاطر المهددة للعالم الإسلامي

الفصل الأول

التغريب والحرب على الهوية الإسلامية

المقصود بالهوية الثقافية والحضارية لأمة ما هو "الثابت والجوهري والمشترك من السمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل لها طابعًا تتميز به عن الأمم الأخرى"(١).

ويضيف د. عبد الوهاب المسيري إلى ذلك المعنى أن الهوية تتكون "نتيجة عمليةِ تفاعل مركبة بين جماعة من الجماعات البشرية؛ وثقافة وتاريخ المجتمع الذي تعيش في كنفه، وهي عملية تمتد ردحًا من الزمن، ومن خلال ذلك الامتداد الزمني تكتسب هذه الجماعة سمات معينة، وهوية محددة، تصبح ثابتة، أو شبه ثابتة، يُفترض أنها تميزها عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى"(٢).

انطلقت حملات التغريب التي استهدفت العالم الإسلامي من معتقد أساس تولد لدى الاستعمار الغربي، يرى أن نجاح استعماره العالم الإسلامي؛ واستقرار ذلك الاستعمار؛ وتحقيقه نتائجه؛ مرهون بتحقيق الاستتباع الحضاري والاستلحاق الفكري له، أي استكمال الغزو الفكري لهذه المنطقة العصيّة عليه من العالم، وتكوين نخبة تقودها؛ صيغت عقولها ومشاعرها وفق المنظومة الحضارية الغربية، تؤمن بتفوق الغرب، وارتباط مصيرها ومستقبلها به، ولا ترى في انهزامها الحضاري وقابليتها للاستعمار غضاضة، وتكون هذه النخبة رصيدًا مذخورًا للاستعمار، حتى إذا سارت سنن الكون

---

(١) راجع د. خالد رُوشه: **أزمة الهوية الإسلامية**، مقال بموقع المسلم، ١٨ ذو الحجة ١٤٢٩هـ، ورابطه: https://almoslim.net/node/103661

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: **من هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ أسئلة الهوية وأزمة الدولة اليهودية**، دار الشروق، القاهرة، ط٦، سنة ٢٠٠٩، ص١٠١.

سيرها، وضعف الاستعمار بعد قوة، واضطر للانسحاب من هذه المنطقة الحيوية كانت تلك النخب الفاسدة جاهزةً لتتولى زمام الأمور في بلادها، جديرة برعاية الاستعمار لها ما دامت تحقق ذات الأهداف المشتركة.

ولا يقف الأمر عند صناعة النخبات القائدة، بل يمتد إلى تغيير المزاج العام للشعوب، وأذواقها وعاداتها وطبائعها، وماذا تستطيع شعوب - تم تجهيلها ليسلس قيادها - في مواجهة منظومة متكاملة تستهدف المجتمعات المسلمة، من تعليم وإعلام وقدوات بلغ الولع بالغرب إلى عظامها وأعصابها، وكانت مأمولة للهداية والرشاد؟

وكان تغريب النخبة يسبق في الهدف والغاية تغريب الشعوب، فالشعوب الإسلامية من شأنها الغيرة على الدين، والاستمساك به، والدفع عنه، إلا أنها لا تجد من يرتاد لها الطريق من بني جلدتها، وصفوة قادتها.

المبحث الأول

المقصود بالتغريب وأهدافه:

وهذا هو المقصود من التغريب، أي سير الشرق الإسلامي وفق مراد الغرب، لضمان تفوقه؛ واستمرار سيادته. مما يعني التسليم بتفوق السيد الغربي على مستوى القوة المادية والعسكرية، ومستوى الفكر والثقافة والحضارة، ويقود بالضرورة إلى الانسحاب الحضاري المقر بالهزيمة، ثم إلى تذويب الحضارة الإسلامية نفسها وتشويه دعائمها ومعالمها، وإفقادها أي دور يمكن أن تقوم به في تنظيم الحياة الاجتماعية العامة، وتجديد أسسها المعنوية والسياسية والإنتاجية، أي تدفع بها إلى تأكيد هوية مقفرة[1].

ومن أهم أسلحتها لتحقيق ذلك تعميق الهوة بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية؛ أو حضارة الأمة، وتأكيد التناقض بينهما، مما يقود إلى الرفض المتبادل والتنازع، ويدفع بالنخب إلى مزيد من الاعتماد على الخارج، والاندفاع نحوه، و"توحّد النخبة الاجتماعية نفسها مع إيديولوجيات التغيير والتقدم والتحديث المستقاة من ثقافة العصر السائدة، وتجعل من هذه الإيديولوجيات دينًا خاصًا بها، ولُحمة لسلطتها كمجموعة متميزة، وتبقى الجماعة الشعبية تنظر إلى هذه الإيديولوجية كغطاء لتحالف عميق وتفاهم متزايد بين النخبة المحلية والهيمنة الأجنبية"[2].

ولم يكن سؤال الهوية مطروحًا بإلحاح للبحث الفكري لدى النخبة في العالم الإسلامي حتى ظهور الحقبة الاستعمارية الغربية، منذ القرن الخامس عشر الميلادي، حيث غُزيت أطراف بلاد المسلمين في الأندلس وجزر البحر المتوسط وسواحل المحيط

---

(١) راجع د. برهان غليون: **اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٤، ٢٠٠٦، ص ١١٩-١٢٠.

(٢) راجع غليون: السابق ص ١٢٠-١٢١.

الأطلسي والهند والخليج العربي وجنوب شرق آسيا. وهو استعمار جاء مصاحبًا ودافعًا لحركة ما سمي الكشوف الجغرافية.. غير أن ذلك التساؤل بدا خافتًا في ضوء توهج المد العثماني في شرقي أوروبا، وفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣، مما جعل ميزان القوة بين الغرب والشرق لا يبدو مائلاً كل الميل.

وازدادت أهمية التساؤل حول إشكالية الهوية مع وصول الغزو الاستعماري إلى قلب العالم الإسلامي في مصر والدولة العثمانية، على نحو كاشف لعوار التخلف الذي ضرب أطنابه في شتى جوانب الحياة في بلادنا، في ميدان القوة العسكرية، والكفاءة السياسية، والقدرة الاقتصادية، والتخلف العلمي.

هل كان الاستعمار الغربي استباقًا لبعث إسلامي بازغ؟

ويبدو من المبالغة القول بأن الاستعمار الغربي الذي هاجم مصر والدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي كان يستهدف وأد صحوة حضارية واعدة - يراها بعض علمائنا- كان روادها عدد من علماء المسلمين، وكانت قادرة على إحداث نهضة حقيقية مؤسسة على دعائم إسلامية، فبالنظر إلى تراجم هؤلاء العلماء ومنجزاتهم لا نستشعر انبعاثًا حقيقيًا يعالج حالة التردي الحضاري التي سكنت العالم الإسلامي آنذاك. فعلى رأس هؤلاء يقف خمسة كبار وهم: عبد القادر البغدادي (ت ١٦٨٣م) صاحب كتاب خزانة الأدب، وحسن بن إبراهيم الجبرتي، (ت ١٧٧٤م) جد المؤرخ المشهور، والشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت ١٧٩٢م)، والمرتضى الزَّبيدي (ت ١٧٩٠م) صاحب كتاب تاج العروس، والشوكاني اليمني الزيدي (ت ١٩٣٤م) صاحب كتاب نيل الأوطار، وبالنظر إلى آثارهم نجد أن البغدادي والزبيدي لغويان، انصرفت جهودهما إلى ذلك الميدان، مع عناية للأخير بعلوم الحديث، وقد أمضى أحد عشر عامًا يشرح كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وهو كتاب في التربية والتصوف، وكانت العناية بالحديث والفقه

هي ميدان عمل الشوكاني الأثير، أما الشيخ ابن عبد الوهاب فقد عُني بهموم قومه في نجد الذين سرت فيهم البدع والخرافات، ليردهم إلى التوحيد الخالص، ثم تحالف مع محمد بن سعود، وأسلمه زمام السياسة ليشيد ملكه، ويصرف جهده للخصومات والحروب ضد مناوئيه، ولم يبق إلا الجبرتي الكبير الذي بالغ حفيده في منجزاته، فذكر أن طلابًا من الإفرنج قرؤوا على جده علم الهندسة سنة ١١٥٩هـ (= ١٧٤٦م)، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة، ولما عادوا إلى بلادهم طبقوا ما تعلموه من جده فصنعوا "الصنائع البديعة، مثل طواحين الهواء، وجر الأثقال، واستنباط المياه وغير ذلك"[1].

فأي ذلك كان قادرًا على أن يصنع نهضة تنقذ الأمة من وهدتها؟ وأي ذلك أفادها حين هجمت عليها حضارة البخار والكهرباء، والمدفع والباخرة، والكشوف الجغرافية، وجَوْب البحار، والاستعلاء الجامح إلى الاستعمار وسيادة العالم؟

قد يكون شيء من ذلك صالحًا لأن تبني الأمة عليه نهضة، لكنها لم تكن تملك القدرة على البناء، ولا أدواته ووسائله، ولا الروح الدافعة إليه، بعد أن تكالبت عليها عوامل الضعف من كل صوب.

ولو كان التفوق العلمي - إن صح أن يوصف ما فات بهذا الوصف - كافيًا لإحداث نهضة لأمة جاثية لكانت الأمة في النصف الثاني من عصر المماليك في نهضة باسقة، لكن نتاج ابن خلدون (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، والقلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)، وابن حجر (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، والسيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) لم يكن كافيًا لإعادة الوهج الحضاري الذابل للأمة؛ في عصر كانت فيه أوروبا تصنع الفارق بينها وبين المسلمين في السباق الحضاري.

---

(١) محمود محمد شاكر: **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مكتبة الأسرة، سنة ١٩٩٧م، ص ٨٢-٨٣، وانظر الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٣٧هـ): **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الجيل، بيروت، (د. ت)، ١/ ٤٦١.

فهؤلاء العلماء وإن امتلكوا رؤية الإنقاذ لم يكونوا يمتلكون سلطة تحقيقه، فمنذ زمن افترق السلطان والعلم، وانشغل العلماء بلَوْك ما سبق به الأولون، وإنتاج الحواشي عليه، والازورار عن التجديد والإبداع، والاستمتاع بالتصوف الهروبي المنعزل عن صحب الحياة، وصراعات العالم.

وانشغل كثير من الحكام في الشرق بتقاتلهم الذميم، وطموحاتهم الوضيعة، والحفاظ على عروش ورثوها بغير جدارة.. ولولا بروز قوة العثمانيين ويقظتهم تجاه المطامع الأوروبية لكان استعمار قلب العالم الإسلامي أسبق بعقود عن أوان حدوثه. لكنهم في غمرة حماستهم العسكرية لم ينتبهوا إلى تداعي مناهج التعليم، وتراخي آليات التقدم الحضاري، والقفزات العلمية التي يحققها أعداؤهم بمرور الزمن.

المبحث الثاني

شروط النهوض الحضاري للأمة:

للنهوض الحضاري شروط لا يكفي التميز العلمي عند نفر من الأمة لتحقيقه، مع امتداد ساحاتها الجغرافية، وتقطع طرق التواصل الفعال بينها آنذاك، فما بالنا إن كان النتاج العلمي لا يمثل استجابة حقيقية أو مكافئة للتحدي المقابل؟

فامتلاك الرؤية المتكاملة لإصلاح العطب الداخلي في أطره السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية شرط أولي.. تلك الرؤية المنبعثة من هوية الأمة، المتصالحة مع ذاتها، المعتزة بأصول دينها، ومحكمات شريعتها، الراغبة في تلمس طريق سيادتها وريادتها.

والقدرة على توحيد قوى الأمة بما تضمه من طوائف وديانات وقوميات؛ وانتهاج سياسات تعظم القواسم المشتركة، وتوهن أسباب الخُلْف والشقاق؛ مطلب لا غنى عنه.

وامتلاك القدرة على التعامل مع الأخطار الخارجية التي تحيط بالأمة من أعدائها، وتأجيل الصراعات غير المتكافئة، وإدراك تناقضات القوى المعادية، ومعرفة سبل التدافع بينها ومعها؛ ريثما تتمكن الأمة من استعادة زمام الفعل الحضاري والمبادرة الفاعلة شرط ضروري.

والقدرة على الانفتاح الواعي على الحضارات المتعددة، من منظور يتجاوز مخاطر الانهزام النفسي، والاستسلام للغزو الفكري والاجتماعي وما يصحبه من إملاءات سياسية وعسكرية واقتصادية.

الانفتاح على الآخر - بضوابطه - شرط للنهوض:

إنه لا ضير من أن تفيد الأمة الإسلامية من غيرها من الأمم، فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها، وقد تلاقحت أفكار المسلمين الأولين مع أفكار معاصريهم من أهل العلم، وورّاث الحضارات اليونانية والفارسية والهندية والصينية، مدركين أن للعلم والحضارات دورات، وأنه كان للشرق نصيب سالف منها في حضارات مصر وبلاد الرافدين والهند والصين، ولم تكن ثمّة غضاضة من أصل ذلك الأخذ وتلك الإفادة من حضارة الغرب، وإنما اتجه انتقاد أهل الحصافة إلى نوع المنقول، وتأثيره على الأصيل عندنا.. كما أن الأمة آنذاك كانت في طور الزهو والنبوغ، يؤخذ منها أكثر مما تأخذ، وتعتز بما لديها من حضارة وقيم، وحين تأخذ من غيرها فإنها لا تكتفي بمجرد النقل، بل تنتقد، وتضيف، وتراجع المأخوذ، وتكشف عيبه، وتعالج خلله.

ولا نكاد نجد نموذجًا للنهوض الحضاري تم بالانكفاء على الذات، والتشرنق داخلها.

وفي العصر الحديث يكون ذلك مستحيلاً بالنظر إلى القدرات الإعلامية للأقوياء، والسموات المفتوحة، والطفرة الهائلة في وسائل الاتصال والتواصل، فضلاً عن ضرورات الاقتصاد والاستهلاك التي يمسك الغرب بتلابيب حركته، ولا يستطيع غيره الإفلات منها، وكذلك حتمية الدفاع عن الأوطان التي تحتكر مصانع الغرب إنتاج أسلحته المتقدمة، ونظمه وتقنياته.

وإليك جزيرة العرب مثالًا، وقد انعزلت عن تيار الحياة الزاخر قرونًا، كيف أتاها اليقين فتحطمت أسوار العزلة قي زمن وجيز[1]، وأقبلت على حضارة الغرب تعب منها عبًّا بغير تحوط واحتراس، أو بقليل من هذا وذاك؛ مما لا يغني شيئًا.

---

(١) راجع أبو الحسن الندوي: **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية**، دار الندوة للتوزيع، لبنان، ط٢، سنة ١٩٦٨، ص ١٦.

وفي بدايات العصر الحديث كانت الفجوة الحضارية تستلزم الأخذ مما لدى الغرب من أسباب النجاح.. وكان التحدي الماثل في السؤال عن كيفية حدوث ذلك مع المحافظة على هوية الأمة دون تمييع أو استلاب أو إبدال.

ولم يكن للأمة خيار، إذ إن الغزو الحضاري جاء مصحوبًا بالغزو العسكري. وكان مفروضًا بقوته الذاتية، وبمقتضى أن المغلوب مولع دائمًا بتقليد الغالب[1]، مستنفر من داخله للانبهار بما عنده.

ويعبر الشاعر الماروني جبران خليل جبران عن مأساوية الحال بقوله: "أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه، ولكنه لا يتحول إلى كيانهم، بل يحولهم إلى شبه غربيين، وهي حالةٌ أخشاها، وأتبرم منها؛ لأنها تبين لي الشرق تارة كعجوز فقد أضراسه، وطورا كطفل بدون أضراس[2] !

ويوضح الطريق القويم يعد ذلك فيقول في بليغ العبارة: " لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا؛ لأن المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الأريحيّ، ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب، فالموهوب مسيَّر دائمًا، والواهب مخيَّر أبدا"[3].

(١) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، سنة ٢٠٠٤م، ١/ ٢٨٣.

(٢) جبران خليل جبران: **البدائع والطرائف**، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٥٦.

(٣) المرجع السابق ص ٥٨.

المبحث الثالث

وسائل التغريب وروافده:

١- دور البعثات العسكرية وعلمنة الجيوش:

أرسل محمد علي باشا بعثاته الدراسية إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م، بينما أرسل السلطان محمود البعثات الدراسية إلى بلدان أوروبية متنوعة بدءًا من سنة ١٨٢٧م، بعدما استطاع القضاء على الجيش العثماني القديم الذي كان عماده الإنكشارية، في العام السابق[١]، وكان البدء في الحالتين متشابهًا، وذلك عن طريق فتح الأبواب أمام تغريب الجيوش، وهي القوى المنظمة التي يمكن الاعتماد عليها في فرض توجهات الدول وسياساتها. فكانت البدايات من العناية بالجيوش، وتدريبها، وبناء المدارس التي تحتاجها، واتخاذ أساليب وآليات الحرب الأوروبية، وطرق التدريب الأوروبية.

ولم تجرِ الأمور اعتباطًا، فقد آلت - كما يقول المستشرق البريطاني هاملتون جب Gibb (١٨٩٥-١٩٧١م) - إلى أن أصبح "الجيش أكثر عناصر الحياة السياسية تأثرًا بالنزعة الأوروبية"، والجهة التي يلجأ إليها التغريبيون الذين أضجرهم بطء قناعة الرأي العام بالتغريب، وبطء تجاوب المنظومة السياسية معه، فكان اللجوء لقوة الجيوش هو الورقة الحاسمة لإحداث التغيير الفوقي للمجتمعات المسلمة[٢].

ففي مصر كان تأسيس الجيش في أول عصر محمد علي باشا على النسق الفرنسي تحت إشراف الجنرال الفرنسي سليمان باشا.

---

(١) برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ١١٠، ترجمة قاسم عبده قاسم وسامية محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٦م.

(٢) راجع جب: **وجهة الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، طبعة جامعة لندن، سنة ١٩٣٣م، ص ٤٣-٤٤.

وفي الدولة العثمانية كان القضاء على الإنكشارية والنظام التقليدي للجيش في سلطنة محمود الثاني هو البداية لتغلغل التأثير الغربي، وبخاصة الفرنسي في الدولة، إذ تولى الخبراء الفرنسيون كبر ذلك.

تغيير العقيدة القتالية للجيوش:

وكان أخطر ما أُنجز في خطط علمنة الجيوش هو تغيير عقيدتها العسكرية، بعدما كان الجهاد في سبيل الله، وكانت وزارات الدفاع والحرب تسمى "الجهادية"، وكان القتال يستهدف سلامة الدولة الإسلامية في عمومها، وتوسعها لنشر رسالة الإسلام، ولم تكن تضم في تكوينها -غالبًا- سوى المسلمين، ولم تكن ثمة حدود وطنية ضيقة تشكل حدودًا لنطاق حركتها.

كل ذلك تغير بعلمنة الجيوش المسلمة، فانفتحت في تكوينها للجميع، دون اشتراط الديانة، وبالتالي لم تصبح عقيدة الجهاد عقيدتها، فهو عبادة لا تلزم غير المسلمين، ولم تعد وحدة دولة الخلافة هدفًا لها.. فرأينا جيش محمد علي في مصر يحارب الخليفة العثماني محمود الثاني، ويشتت جيوش الخلافة، ويهدد العاصمة نفسها بالزحف إليها. ورأينا جيوش الخلافة تخرِّج الناقمين على مشروع الخلافة نفسه، وتسعى في خرابه، وتقود السياسة التي أنهت الخلافة، بعد أن فرقت الأمة إلى قوميات لا سبيل إلى تواؤمها.

وبعد عقود من تمكن التغريب في المؤسسات العسكرية جاء الدور الذي استهدفه العرب منذ أمد بعيد، والذي تأهب له حين يضطر إلى الانسحاب العسكري من بلادنا، إذ كانت سياساته تستهدف توريث تلك الجيوش العسكرية الحكم؛ ليستكمل مسيرة التغريب، بل ليفرضه فرضًا حين تعترضه الصعوبات.

فبدأت سلسلة من الانقلابات العسكرية في القرن العشرين.. وكان أسبقها تدخل الجيش العثماني في السياسة، فشقت الحركات الثورية طريقها إليه في أثناء حكم السلطان عبد الحميد، مما كان مصدر تخوفه وشكواه، حتى قال- فيما بعد - في مذكراته: "ليتنا كنا استطعنا إبعاد الجيش عن السياسة"[1].

ثم كان انقلاب الجيش سنة ١٩٠٩ الذي أودى بحكم السلطان، وصعد بتركيا الفتاة وأعضاء الاتحاد والترقي المؤمنين بالعلمانية، والمعادين لمبدأ الخلافة والجامعة الإسلامية، وكان إسقاط الخلافة ثم فرض العلمانية، والتماهي مع نموذج الحياة الغربية على ما هو معروف.

ثم تتالت الانقلابات العسكرية العلمانية في سوريا سنة ١٩٤٩، ومصر سنة ١٩٥٢، وفي غيرها، كما سوف نرى مفصلاً.

٢- دور الساسة والأنظمة الحاكمة في مسيرة التغريب:

شكلت قضية تكوين نخبة من قادة البلاد على عين الغرب لوراثته بعد حين زاوية مهمة في الفكر الاستعماري منذ بداياته، حيث كتب نابليون بونابرت قائد الحملة الصليبية على مصر سنة ١٧٩٨ - لما غادر البلاد - رسالة إلى الجنرال كليبر الذي خلفه على مصر يأمره بتجهيز ٥٠٠-٦٠٠ من المماليك، فإن لم يجد العدد كافيًا فمن العرب ومشايخ البلدان لتسفيرهم إلى فرنسا، فيظلوا هناك سنة أو سنتين، ليشاهدوا هناك عظمة فرنسا، ويعتادوا على تقاليدها ولغتها، ثم يعودوا إلى مصر فيكون لفرنسا منهم "حزب يضم إليهم غيرهم"[2].. واللافت للانتباه هنا معيار الاختيار عند نابليون، حيث استهدف جماعة

(١) **مذكرات السلطان عبد الحميد**، تقديم وترجمة د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٩٩١م، ص ١٨٠.

(٢) أحمد حافظ عوض: **فتح مصر الحديث، أو نابوليون بونابارت في مصر**، مطبعة مصر، سنة ١٩٢٥، ص ٤١٠، راجع محمود محمد شاكر: **رسالة في الطريق إلى ثقافتنا** ص ١٠٨.

المماليك بمصر؛ ومشايخ البلاد، أي المستوى الذي يمكن تأهيله للقيادة والحكم، أو للمشاركة فيهما.

وفيما بعد قرر المستشرق جب صراحة أن نجاح التغيير في هوية العالم الإسلامي أو وجهته مرهون بقادته وزعمائه، وبخاصة الشباب منهم[1]، أي أنه لا سبيل إلى نجاح التغريب إلا إذا تولى أزمَّته هؤلاء الزعماء الذين صنعهم الغرب، ورباهم على عينه، وأوكل إليهم تحقيق مقاصده وغاياته!

ومن بين ملايين المسلمين، وألوف النبهاء في العالم الإسلامي؛ كانت عيون الاستعمار تتجه إلى نفر محدود ممن ضمرت عقائدهم، وخارت عزائمهم، وفسدت مواهبهم، وكسدت عقولهم، وقلَّت حيلتهم، فحلت بهم مشاعر الدونية والذلة. واستبد بهم العجز والخور..

وفي ذلك يقول الملك فيصل بن الشريف حسين ملك العراق في حوار له مع الكاتب أمين الريحاني: "تراني اليوم محاطًا بالأعداء، ولا حليف لي غير الإنجليز، فمن لي بحليف لو شئت المحالفة؟"، وذكر أن تركيا من الشمال تطالب بولاية الموصل، والأكراد من الشرق متمردون على الدولة، وشاه إيران يحرض الشيعة ضد حكمه في العراق بدافع مذهبي، والوهابيون مستمرون في غاراتهم على جنوب العراق، ومن الغرب القوات الفرنسية التي أخرجته من عرش سوريا؛ وتعمل على تقويض حكمه في العراق، فمن لي إذن غير الانجليز؟ وهل يُعقل أني أنقلب عليهم؟[2].

والرجل هنا يعبر عن أزمته حيث لا يجد له حليفًا غير أعداء الأمة، والأمة كلها قد أصابتها لعنات التفرق والتعادي، فبعضها يتربص ببعض، وكلهم لا يجد النصير إلا في أعداء دينه وقومه وأمته..

---

(١) د. محمد حسين: **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٩٨٤م، ٢/ ٢١٩.

(٢) أمين الريحاني: **ملوك العرب**، دار الجيل، بيروت، ط٨، سنة ١٩٨٧، ٢/ ٨١٠.

أليست تلك الأزمة نفسها أوضح دليل على نجاح خطط هؤلاء الأعداء؟ وتردي قيادات الأمة المرجوة للنجاة في حمأ الانهزام النفسي والعجز السياسي والفكري؟

ويعبر محمد إقبال عن سبب أزمة الشرق الماثلة في حكامه الخانعين للغرب قائلاً:

يا رب إن سياسة الغرب تعاديك

ولكن لا يعبد هذه السياسة إلا الرؤساء والملوك

لقد خلقت إبليسًا واحدًا من النار

وخلقت مئتي ألف إبليس من التراب[1]!

دور السياسيين المصريين في التغريب:

تولى محمد علي باشا الحكم في مصر سنة ١٨٠٥م، وبدأ مشروعه للنهضة التي رآها غير ممكنة إلا بالأخذ من أوروبا، والإفادة مما أحرزته من تقدم ومدنية، وقد أولع بالمنجزات المادية للحضارة الغربية، دون قواعدها السياسية القائمة على الحرية واحترام القانون وحقوق الإنسان.. وظل حريصًا غاية الحرص على استمرار استبداده بمقاليد البلاد، وإبادة من ينافسه، أو يحاول منافسته.. ولذلك بدا مشروعه النهضوي ظاهر العوار، أنانيًا يستهدف تحقيق الملك له ولأسرته من بعده، والتنعم بخيرات البلاد، واعتناق ميكيافيلية سياسية تبرر كل وسيلة لبلوغ غاياته.

وقد كتب الإمام محمد عبده مقالة طويلة يهاجم فيها حكم محمد علي، وسياساته التي أعاقت تحقيق تمدن حقيقي للأمة، حين أفسدت الإنسان، وجعلته مجرد أداة لتحقيق أهداف الحاكم الفرد؛ بعدما جردته من أسباب قوته التي اعتادها، ليصبح الحاكم هو المالك

(١) محمد إقبال: ديوان ضرب الكليم، ترجمة جلال السعيد الحفناوي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٤، ص ١٢٨.

الأوحد للأرض والموارد والسلاح، وأفسح للأجانب في البلاد، "حتى صار كل صعلوك منهم – لا يملك قوت يومه – ملكًا من الملوك في بلادنا... فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذُلان: ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذل سامهم الأجنبي إياه..."[١].

وكان الخديوي إسماعيل (بن إبراهيم باشا بن محمد علي، حكم بين سنتي ١٨٦٣–١٨٧٩م) مفتونًا بالحضارة الغربية منذ أرسله أبوه وهو صبي في الرابعة عشرة إلى فيينا ليستكمل تعليمه بها، وقد بقي فيها مدة عامين، ثم التحق بالبعثة المصرية الخامسة إلى باريس لينضم إلى تلاميذها، وكان من بينهم أحد إخوته واثنان من أعمامه..

فلما تولى الخديوي إسماعيل الحكم ازداد هوس التغريب، فقد أراد مصر قطعة من أوروبا، ورغم ما قام به من إنجازات حضارية – لا مجال لإنكارها – فقد كان الثمن فادحًا، إذ انفتح المجال أمام الامتيازات الغربية، والاستدانة المفرطة إلى حد السفه، حيث كانت التكلفة الحقيقية للمشروعات أقل بكثير من نصف ما ترتب عليها من قروض، أصبحت البلاد مضطرة لسدادها، مع ما يترتب عليها من فوائد مبهظة[٢]. وتم فرض مراقبَيْن أجنبيين سنة ١٨٧٦: أحدهما بريطاني؛ والآخر فرنسي على مالية البلاد، ففرضا على الخديوي دفع معظم دخل البلاد بسداد ما عليها من ديون[٣]، ثم فرضت الدولتان عليه تعيين وزيرين بدل المراقبين، فتم ذلك سنة ١٨٧٨، وعُين وزير بريطاني للمالية، وآخر فرنسي للأشغال العامة[٤].

---

(١) رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الإمام**، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٢٤هـ، ٢/ ٤١٧، وراجع المقال كاملًا ٢/ ٤١٤-٤٢٠.

(٢) ألينور بيرنز: **الاستعمار البريطاني في مصر**، ترجمة أحمد رشدي صالح، دار القرن العشرين، القاهرة، ١٩٤٦م، ص٧-٨.

(٣) في سنة ١٨٧٧ بلغ مجموع الدخل الحقيقي لمصر ٩,٥ مليون جنيه، تم سداد الدين بما قيمته ٧,٥ مليون جنيه، بالإضافة إلى الضريبة التي تُدفع كل سنة للدولة العثمانية، والفوائد المفروضة على أسهم قناة السويس (بيرنز: الاستعمار البريطاني في مصر ص ٩).

(٤) عبد الرحمن الرافعي: **مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٤٨م، ص ٣٣.

ولما ساءت الأمور إلى حدها الأقصى حاول الخديوي إسماعيل تدارك ما فات، فعزلته الدول الدائنة، وتولى بعده ولده توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢م)، وفي عهده زاد تدخل الأجانب، وكانت ثورة أحمد عرابي التي أعقبها الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م.. فلما تمكنت بريطانيا من البلاد، استدعت اللورد دفرين - سفير بريطانيا في الآستانة، وأحد دهاة الدبلوماسية - إلى مصر ليعد تقريرًا عن كيفية حكمها بعد الاحتلال وإحكام السيطرة عليها، فذكر في مقدمة تقريره أنه لا ينصح بأن تتولى بريطانيا حكم مصر حكمًا مباشرًا، لأنها إن فعلت ذلك أثارت سخط المصريين وكراهيتهم، وتعرضت للدسائس والمؤامرات، فاضطر إلى الجلاء عنها بشروط مهينة، أو ضمها إلى أملاكها، وهو ما لا ينصح به، إذ يجلب منافسة الدول الاستعمارية الأخرى، وخلص إلى أن الطريقة المثلى هي أن تكتفي بنصيب أقل في السيطرة والإدارة، وتعد المصريين ليحكموا أنفسهم في ظل ما أسماه (الصداقة البريطانية)[1].. وفحوى تلك النصيحة أن تعد بريطانيا جيلًا من الساسة الطيِّعين لها، الذين ينفذون إرادتها، لتحكم من خلالهم من وراء ستار..

ومن خلال المعايشة بينهم وبين السيد الأوروبـي، واعتيادهم طاعتهم، تتكون الإيديولوجيا، وتغترب الأفكار.

لقد كان الجهاز الإداري والسياسي في البلاد مصريًا في ظاهره، بدءًا من الخديوي (بحكم المولد لا الأصل)، ومرورًا برؤساء الوزارات، وانتهاءً بالعمد والمشايخ، إلا أن الاحتلال كان يفرض سيطرته الكاملة؛ بالرغم من هذه الصورة الظاهرة الزائفة، من خلال قوته العسكرية في البلاد، مع محدوديتها، ومن خلال مستشارين فرضهم في مراكز اتخاذ القرار، تجب طاعتهم، ومن خلال هذه الطبقة الحاكمة الطيِّعة، المستغربة في فكرها ومشاعرها.. لقد صاغها الاحتلال بدهاء، "حتى صار لفظ "مصرية" فيما يتعلق بنشاط

(١) عبد الرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ٢٣-٢٤.

السلطة مرادفًا للفظ "بريطانية"، وغطاء لهذا اللفظ الأخير"[1]، وقد تكونت هذه الهياكل من نخبة سياسية خانعة تم تدجينها على مدى عقود من الزمن.

ولما قامت ثورة الشعب المصري سنة ١٩١٩ أسفر قائدها سعد زغلول ورفاقه عن قناعاتهم العلمانية، وكانت زوجته صفية زغلول أول امرأة مصرية تخلع حجابها بتحريض زوجها، وتبعتها زوجة رفيقه على شعراوي السيدة هدى شعراوي، وشهد المجتمع المصري نموًا متزايدا لنخبته السياسية والفكرية الموالية للغرب.

ولما حدثت ثورة يوليو ١٩٥٢ تولى أمور البلاد جماعة من صغار الضباط، على رأسهم جمال عبد الناصر، الذي بدأ حياته السياسية على ولاء للمخابرات الأمريكية التي دفعت به وبرفاقه إلى سدة الحكم[2]، ثم وقع الخُلْف بينهما، ففتح الأبواب أمام التأثير الشيوعي الذي كان ملازمًا لتسارع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي آنذاك، وفي كل حال كانت التضحية بالدعاة إلى المشروع الإسلامي، المناهضين للتغريب وسياساته، فحلت بهم المحن، وتقاذفتهم المنافي والمعتقلات...

وهكذا ظل الساسة في بلادنا مدعومين بالقوة العسكرية والقوى الأجنبية يقتاتون من موائد الحلول المستوردة الغريبة عن الأمة وعقيدتها، مما أوردها موارد الهلكة، فلم تجنِ منها ولا منهم إلى الهزائم والنكبات[3].

---

(١) راجع طارق البشري: **دراسات في الديمقراطية المصرية**، دار الشروق، القاهرة، ط ١، سنة ١٩٨٧م، ص٢٤-٢٧.

(٢) راجع محمد جلال كشك: **ثورة يوليو الأمريكية، علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية**، الفصلين الثالث والرابع، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٨م.

(٣) راجع د. يوسف القرضاوي: **الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، سنة ١٩٩٣م.

دور السياسيين العثمانيين في التغريب:

وقد تولى السلطنة في الدولة العثمانية جماعة فُتنوا بالفكر الغربي، ففتحوا أبواب بلادهم أمامه، بعضهم يُقلّ في ذلك، وبعضهم يُكثر..

فالسلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) كان "يستلهم أوروبا بقصد أخذ تكنولوجيّتها العليا... واستقدم من أوروبا الضباط والمهندسين والبحريّين، وألبس الجيش ملابس بطراز مستنبط من اللباس الأوروبيّ"[١]، أمّا السلطان محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩) فإنّه ارتدى الملابس الأوروبيّة، وأدخل الموسيقى الغربيّة إلى القصر والجيش، وأقام الحفلات الموسيقية الغربية وعروض الأوبرا والباليه، وألزم الموظّفين الزيّ الأوروبيّ، وأصبحت اللغة الفرنسيّة علامة الحضارة، وتزايد استعمالها بين صفوف النخبة العثمانية المحدودة[٢].

أمّا السلطان عبد العزيز (١٨٣٠-١٨٧٦)، فقد كان "يحيا حياة مشابهة لحياة الملوك الأوروبيين... ويحب أن يجد نفسه محاطًا بالأعمال الفنية القادمة من باريس وفيينا،... ويظهر على الملأ وصدره مزين بالأوسمة الغربية"[٣]، وهو أوّل من زار أوروبا من سلاطين الدولة العثمانيّة وذلك عام ١٨٦٧م، واستغرقت الرحلة ٤٦ يومًا، زار فيها فرنسا وبريطانيا والنمسا وغيرها، وفي لندن أكل الطعام مع الملكة، وذهب معها إلى المراقص والمسارح[٤].

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ **الدولة العثمانية** ١/ ٦٤٦، وانظر شكيب أرسلان: **تاريخ الدولة العثمانية** ص ٢٥٩

(٢) روبير مانتران (محرر): **تاريخ الدولة العثمانية** ٢/ ٥٩، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٣.

(٣) بول دومون: فترة التنظيمات، ضمن (مانتران (محرر): تاريخ الدولة العثمانية)، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٣)، ٢/ ٦٥.

(٤) أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢/ ٧٢.

وآلت أمور الحكم بعده إلى ابن أخيه مراد الخامس عدة أشهر سنة ١٨٧٦م قبل خلعه، فأطلت الماسونية برأسها، ولا غرو فقد أسس منذ كان وليًّا للعهد أول محفل ماسوني في إسطنبول سنة ١٨٦٧م، وكان مدمنًا على الشرب والموسيقى[١].

قاوم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨) تيار التغريب في بلاده، لكنه لم ينغلق على نفسه وهو يرى ما آلت إليه أمور دولته، وأنه لا سبيل إلا التواصل مع الغرب، مع ضرورة ترشيد ذلك التواصل، فنأخذ ما نحتاج ويفيد، وقد كان من أكبر أنصار التحديث في سائر المجالات؛ مع الاحتفاظ بالأصالة الإسلامية الجامعة لشعوب الدولة، والاستقامة الدينية والنزاهة والعفة[٢]، فقد أرسل مئات من الضباط والأطباء والمتخرّجين الشباب وأرباب المهن الأخرى إلى أوروبا، وخاصّة فرنسا وألمانيا، فربّى جيلًا مجهّزًا بالثقافات واللغات الغربيّة[٣].. لكنه سيُكوى بنار هؤلاء المبتعثين المتضلعين بالعلمانية الغربية بعد زمن يسير.

وبرزت جماعة من كبار رجال الدولة المعجبين بالغرب، والمؤمنين بضرورة التواصل معه، والأخذ عنه، منهم الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠-١٨٥٨) حيث يعد أبًا لحركة الإصلاح والتنظيمات، التي استلهمت النظم الأوروبية[٤].

وكذلك مدحت باشا (١٨٢٢-١٨٨٤)، من يهود الدونمة[٥]، حيث دعمته بريطانيا ليكون صدرًا أعظم، ويمكن اعتباره رجل بريطانيا في الإدارة العثمانية، وقد نجحت

---

(١) أوزتونا: السابق ٢/ ٨٩.

(٢) بول دومون: فترة التنظيمات ٢/ ٦٦.

(٣) أوزتونا: السابق ٢/ ١٨٧.

(٤) دومون: السابق ٢/ ٦٧.

(٥) د. هدى درويش: **حقيقة يهود الدونمة في تركيا، وثائق جديدة**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٣م، ص ٣٩.

الدعاية الغربية في تقديمه على أنه نصير الحريات، وأبو الدستور (المشروطية الأولى) سنة ١٨٦٧م، وقد قاده طموحه إلى التآمر على السلطان عبد العزيز، وقتله بعد خلعه، فعاقبه السلطان عبد الحميد بسجنه، وتقديمه إلى المحاكمة، ولما حكم عليه بالإعدام سنة ١٨٨١م خفف الحكم إلى السجن المؤبد في قلعة بمدينة الطائف، وقد حاولت بريطانيا تهريبه دون جدوى، حتى تم قتله في سجنه سنة ١٨٨٤م[١].

ثم كان الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م، وتولي رجال الاتحاد والترقي الحكم الفعلي للبلاد، وهم علمانيون مستغربون، جعلوا همهم قيادة البلاد نحو التقدم بالمفهوم الغربي الذي يستبعد دور الدين في السياسة والمجتمع، مما أدى إلى نتائج ضخمة قضت على الخلافة العثمانية، وغيرت وجهة الدولة والمجتمع، كما سيأتي بيانه.

٣- تأثير الاستعمار الغربي:

أكد الاستعمار الغربي للشرق المنهزم التفوق الأوربي، ونقل إليه ثقافة الغرب، وقيمه وعاداته، فلم يكن الاستعمار الغربي عسكريًا فقط، بل كان استعمارًا ثقافيًا وفكريًا، يهدف إلى أسر الشرق الإسلامي، وإدارته في أفلاكه، سواء ظلت قواته العسكرية جاثمة على أرضه؛ ناهبة لثرواته؛ أم رحلت عنه بعد حين، كما هي مسيرة التاريخ وسننه.

كان التراجع العسكري للعالم الإسلامي أمام الهجمة الاستعمارية الغربية صدمة كبرى لشعوب ضربتها الغفلة، فلم تدرك حقيقة تخلف تموضعها الحضاري على خريطة العالم الذي سبقها سبقًا بعيدًا. فأفاقت على واقع تعيس كان لا بد أن تتلمس الطريق إلى مواجهته، وإذا كانت الشعوب - كما رأينا آنفًا - كارهة للاستعمار، راغبة في التصدي له، فقد كانت الأنظمة الحاكمة لها حساباتها التي تقودها إلى صعوبة الأوضاع على نحو لا

(١) أوزتونا: السابق ٢/ ١٢٧-١٢٨.

يبشر بقدرتها على الصمود والمقاومة، فتولدت الرغبة في التواصل مع الغرب لعله يمدها بقوة ومدد.. ولم يكن ذلك التواصل مأمون الخطر، ولم يكن بين ندَّيْن أو نظيرين، بل كان بين مغلوب ومنتصر، والبون بينهما شاسع، وقاعدة التاريخ تؤكد أن "المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"(١).

صحيح أن تلك القاعدة قد لا تصلح إذا كان الانتصار مجرد انتصار عسكري لأمة صادفت حظًا ماجدًا منها، وعاثرًا من أعدائها، في جولة من جولات التاريخ، وهما خصمان متعادلان في أوجه الحضارة، وتميز الفكر، كما كان الصراع في الأزمنة الغابرة بين الفرس والروم مثلاً.. أو كان المغلوب يمتلك رصيدًا من القدرات المعنوية والحضارية المخبوءة، يمكنه أن ينبعث منها من قريب، كما حدث في حروب المغول والمسلمين.. بل كان الغالب الأوروبي هنا منتصرًا على المستويين العسكري والحضاري، وعلى كافة الأصعدة.. "فلا يلزم أن توجد الغلبة المعنوية حيثما كانت الغلبة السياسية، كما لا يلزم أن تكون الغلبة المادية مصحوبة بالغلبة المعنوية في كل حال"(٢).

وكانت هزائم المسلمين متكررة على امتداد ساحتهم، مما يعني انكسارًا حضاريًا مريعًا(٣).. فكان الاستسلام والانهزام النفسي لدى المسلمين أقوى أسلحة أعدائهم في حربهم، وكان استمرار ذلك الانهزام الحضاري هدفًا يسعى الغرب المنتصر - و لا يزال - إلى إدامته وتعميقه من خلال تقوية روافد التغريب وأدواته.. "فإن الأمم المتخلفة من الجهتين المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور تكون أصلح للعبودية،

---

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ١/ ٢٨٣، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، سنة ٢٠٠٤م.

(٢) أبو الأعلى المودودي: **نحن والحضارة الغربية** دار الفكر، دمشق، (د. ت)، ص ١.

(٣) راجع برهان غليون: اغتيال العقل ص ١١٦.

وأكثر استعدادًا للخنوع، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها معًا"[1].

٤- تأثير المبعوثين واللاجئين إلى بلاد الغرب:

هؤلاء قد يكونون مبتعثين ذهبوا إلى أوروبا لينهلوا العلم، أو لاجئين سياسيين فروا ليحتموا من تبعات المعارضة السياسية، أو ليدبروا الثورات ضد حكوماتهم، وقد شعر كثير منهم بالامتنان لهذه الحضارة المتفجرة بالعلم، أو المتسترة بأردية الحرية وحقوق الإنسان، فأصبحوا رسلها، يحملون قيمها، أو بعض قيمها، ويدعون إليها في أوطانهم، ويقل تأثرهم بهذه القيم، أو يعظم، وبعضهم يقلل من غلوائه في الإعجاب بها، وبعضهم يرى أن السبيل الأوحد للتقدم لن يكون إلا باتباع أوروبا، في خيرها وشرها.. كما ورد في الحديث الشريف: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قبلَكم شِبْراً بشِبْرٍ، وذِراعـًا بذِراعٍ، حتَّى لو سَلَكوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوه" قلنا: يا رسولَ الله، اليهودَ والنَّصارَى؟ قال: "فمَنْ؟!"[2].

وقد رأينا أن بدء هذه البعثات كان لتطوير الجيوش، سواء كانت بعثات أُرسلت إلى الغرب، أو استُقدمت منه، كما حدث في عصر محمد علي والسلطان محمود الثاني، وكان من الطبيعي أن تتعاظم هذه البعثات على الجانبين، وتتنوع أغراضها، مما مثَّل انفتاحًا كبيرًا على الحضارة الغربية.

وكان كثير من المبعوثين غير محصنين بالفهم والالتزام الإسلامي، وكثير منهم في مقتبل سن الشباب، مما جعلهم عرضة لغوايات يصعب صدها، وربما مقاومتها.

ولقد كان جماعة من أكابر الدعاة إلى التغريب في العالم الإسلامي من هؤلاء الذين ابتُعثوا إلى الغرب، أو عاشوا فيه مدة من الزمن، منهم طه حسين، وسلامة موسى وقاسم أمين في مصر، وعبد الله جودت ومصطفى رشيد باشا في الدولة العثمانية.

---

(١) المودودي: السابق ص ٢.

(٢) رواه البخاري: صحيح البخاري حديث رقم ٦٨٨٩، مسلم: صحيح مسلم حديث رقم ٢٦٦٩.

وبقي باب البعثات العلمية إلى الغرب مفتوحًا على مصراعيه فيما بعد، حتى أصبح التفاخر بها أمرًا معهودًا بين ظهراني المسلمين، وسيجتهد الغرب في الإفادة منها إلى الحد الأقصى بأن يستصفي من هؤلاء المبعوثين بعض نبهائهم، ليكونوا سفراء لحضارته بين أقوامهم، دعاة إلى قيم التغريب فيهم، أو يغريهم بالبقاء في بلاده، ليحرم بلاد الإسلام من أذكى أبنائها، وأبهى ثمرات عقولها لو تم تعليمهم على أسس من الاستقلال المعرفي، والاعتزاز الديني.

٥- تأثير الترجمة:

وكان **تعلم اللغات الأوروبية** سبيلاً مهمًّا للتعرف على النتاج الثقافي والفكري والفلسفي للغرب، في حين كان تعلم اللغات الأوروبية قبل ذلك أمرًا نادر الحدوث، وكثير من هذا النادر كان يضطلع به الأجانب المقيمون في بلاد الإسلام، أو بعض الأقليات الدينية فيها، كما نجد عند اليونانيين والأرمن في تركيا، والنصارى الشوام العرب، ولكي ندرك مقدار ذلك الخلل العلمي نذكر قول رحالة غربي زار إسطنبول سنة ١٨٤٤، حيث استطاع أن يتذكر فقط دستة -اثني عشر- من الأتراك المتعلمين لديهم معرفة كافية بإحدى اللغات الأجنبية، وقدرة على قراءة الكتب الغربية[١].

فيا للعجب من ذلك الاختلال في أمة ورد في آثارها أنه "من تعلم لغة قوم أمن مكرهم"، وأمر نبيها ﷺ صاحبه زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود، فقال: "يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي"، قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ"[٢].

---

(١) برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ١١٦.

(٢) أحمد بن حنبل: مسند أحمد ٣٥/ ٤٩٠ تحقيق شعيب الأرنؤوط وأخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٠٥هـ)، سنن أبي داود، =

غير أنه بمضي الزمن برز رجال عرفوا أو أتقنوا بعض اللغات الأوروبية، وكان الحافز لديهم عظيمًا، إذ اشتدت حاجة الدولة إلى مترجمين وسفراء في أجواء انفتاحها السياسي على أوروبا، فدفعت بهم هذه المعرفة إلى القمة، وأكسبتهم مقدرة عالية على التأثير السياسي والفكري في الدولة العثمانية، كما يقول برنارد لويس، فكانت إجادتهم الفرنسية مثلاً "بمثابة السحر، التي جعلت من الكاتب مترجمًا، ومن المترجم ترجمانًا، ومن الترجمان دبلوماسيًا، ومن الدبلوماسي رجل دولة"[1].

٦- تأثير التبادل الدبلوماسي:

ومنها ذلك التبادل الدبلوماسي بين الغرب والعالم الإسلامي، وقد استباحت السفارات الأجنبية التواصل مع جماعات من المثقفين صنعوها على أعينهم، ومع الهيئات والمؤسسات الفاعلة، بل مع عامة الشعوب متى أرادوا، ولا يحجزهم عن ذلك حاجز، أو يمنعهم مانع، وكيف يُمنعون وقد كبلوا حكوماتنا بالديون، واقتنصوا منهم الامتيازات الأجنبية، فأصبح تدخلهم حقًا مشروعًا لا يُنازعون فيه. بل لقد أصبحت الدول الكبرى تشرف على أمور النصارى الموافقين لمذهبهم الديني، فيشرف الروس على شؤون الكنيسة الأرثوذكسية، ويشرف الفرنسيون على الكاثوليك، بموافقة الدولة العثمانية مضطرة.

وهو إشراف يفتح الأبواب للتأثير والتأثر، وبخاصة في دولة منهكة مريضة.

وكذلك الحال مع **البعثات الدبلوماسية لبلادنا في أوروبا**[2]، حيث أغشى ضوء الحضارة هناك أعينهم الكليلة، وملأ عقولهم الفارغة، فلم يكونوا رسلاً لأقوامهم يرعون مصالحهم،

= تحقيق شعيب الأرنـؤوط ومحمد كامل قره بللي، مؤسسة الرسالة العالمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، باب في كتاب العلم، ٥/ ٤٨٩، حديث رقم ٣٦٤٦.

(١) لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ١٤٨.

(٢) أقيمت أول سفارة عثمانية في لندن سنة ١٧٩٣م، وتلتها فيينا سنة ١٧٩٤، وبرلين ١٧٩٥، ثم باريس ١٧٩٦(برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ٨٤).

ويمثلون حضارتهم، بقدر ما كانوا رسلاً لحضارة الغرب وقيمه.. وحين نستعرض أمثلة للشخصيات المؤثرة في حقول التغريب في الدولة العثمانية سنجد أن عديدًا منهم كانوا يعملون في السفارات العثمانية في العواصم الأوروبية. ومن أبرز هؤلاء الصدر الأعظم مصطفى رشيد (١٨٠٠-١٨٥٨)، الذي تولى أكبر منصب في الدولة بعد الخليفة -منصب الصدر الأعظم- ست مرات، وكان قد عُيِّن سفيرًا في باريس (١٨٣٤-١٨٣٦م)، ثم في لندن (١٨٣٦-١٨٣٨م)، والصدر الأعظم غالي باشا (١٨١٥-١٨٧١م)، الذي ذهب سفيرًا في لندن سنة ١٨٤٠، وكذلك مساعده ومعاونه فؤاد باشا (١٨١٥-١٨٦٩)، الذي عمل سكرتيرًا أول في السفارة العثمانية في لندن سنة ١٨٤٠، وتقلب في عدد من الوظائف الدبلوماسية، وكان الرجال الثلاثة من أهم دعاة الفكر والتنظيمات الغربية في الدولة العثمانية[١].

وضمت السفارات جماعة من الشباب العثماني الذين أتيحت لهم فرص تعلم اللغات الأوروبية، وبخاصة الفرنسية، "ومن ثم منحت هذه البعثات الفرصة لعدد من الشبان للإقامة لفترة من الوقت في مدينة أوروبية، وتعلم لغة من اللغات الأوروبية، والتعرف على مجموعة من الأفكار الثورية السائدة بين معاصريهم الأوروبيين، وعند عودتهم صار البعض منهم من موظفي الباب العالي، وشكلوا أقلية ذات مظهر متغرب بين التسلسل الهرمي البيروقراطي، والتي تشبه تلك التي تم إنشاؤها بين الضباط بواسطة الإصلاحات العسكرية والبحرية"[٢].

٧- دور الأقليات الدينية والإثنية:

ومنها تلك الأقليات الدينية والقومية التي ظلت على تواصل مع أصولها الدينية والجنسية السابقة، وبخاصة أن الحروب بين العثمانيين وأعدائهم كانت تجري في حدود

---

(١) لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ١٤٨.

(٢) المرجع السابق ٨٤

مفتوحة، ويتناوب أطرافها النصر والهزيمة، فيدخل في عداد السكان على الجانبين أعداد من غيرهم، يبقون حاملين خصائص أمتهم، ويشعرون بالحنين- وربما الولاء - لها، ويتوارثون لغاتها وثقافاتها، بل كانت بعض العائلات الموسرة منهم يرسلون أبناءهم لتلقي العلم في الجامعات الأوروبية، فكانوا من أهم معابر الفكر الغربي إلى المسلمين، وكان احتياج الدولة العثمانية إلى مترجمين يدفع بها في حالات عديدة إلى الاستعانة بهؤلاء، مما يرفع من مكانتهم، ويزيد من تأثيرهم[1].

يصدق هذه في الشأن العثماني، كما يصدق في الشأن المصري، حيث شكلت هجرات نصارى الشام إليها رافدًا مهمًّا للتغريب فيها.

وقد تلقى هؤلاء النصارى تعليمًا غربيًا على أيدي الإرساليات التنصيرية التي جالت في بلاد الشام، وأسست هنالك المدارس على النمط الغربي، حيث درسوا فيها اللغات الأجنبية، فانفسح أمامهم الطريق للتواصل مع نتاج مفكري الغرب، فكانوا أوائل العرب الذين تعرفوا على الفكر الغربي، وتفاعلوا معه، ودعوا إليه، ثم جاءت الأحداث الطائفية التي تفجرت سنة ١٨٦٠م[2] لتدفع بعديد منهم إلى ترك الشام، والنزوح إلى مصر، ثم تزايدت أعدادهم وتأثيرهم مع قدوم الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م.

اتجه عدد من مثقفي الشام في مصر إلى تأسيس الصحافة فيها - كما سنرى - مما أتاح لهم نشر آرائهم، والتعبير عن الرؤى الغربية والتيارات المائجة في الغرب، وقد قامت هذه

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٥.

(٢) في عام ١٨٦٠م اندلعت الفتنة في لبنان ودمشق بين المسيحيين والمسلمين، مما أسفر عن سقوط آلاف القتلى والجرحى والمفقودين، وقد تعددت أسبابها بين أسباب داخلية تعود إلى سياسة العثمانيين في هذه المنطقة، والرغبات الطائفية في تعزيز المكاسب، والتدخل الأجنبي لاستغلال الخلافات بين أبناء الوطن الواحد (راجع التفاصيل في فدوى النصيرات: **فتنة دمشق ١٨٦٠ دراسة تاريخية تحليلية**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مجلد ١٥، عدد١، سنة ٢٠٢١).

الصحف بدور بارز في التعريف بالأفكار الغربية والترويج لها، كما قام مؤسسوها بتربية أجيال تالية لهم من الصحفيين على ذات أفكارهم العلمانية[1].

وكان لبعض نصارى الشام دور في العناية باللغة والأدب، فأسس بطرس البستاني (ت١٨٨٣م) أول دائرة معارف، وحاول ابنه سليم من بعده ان يتمها، فبلغت أحد عشر مجلدًا كبيرًا، تضمنت معلومات مختلفة في العلوم الغربية الحديثة، كما حوت كثيرا من أفكار أوروبا وأمريكا العلمانية المتحررة، وبرع منهم في الأدب جرجي زيدان الذي مال إلى قصص التاريخ الإسلامي يُعمل فيها خياله وفكره.

٨- دور مؤسسات التعليم الأجنبي:

ومنها مؤسسات التعليم الأجنبي التي أنشأتها حكومات الدول الأوروبية، والموسرون من أبنائها، في بلادنا، وسوف نفرد حديثًا عنها وعن خطرها إن شاء الله.. ومنها ما أسسته الإرساليات التنصيرية الغربية: إنجليزية وفرنسية وروسية وأمريكية، في بلاد الشام منذ بدايات القرن التاسع عشر، ومما أنشأته الإرساليات الأمريكية "الكلية السورية الإنجيلية" التي تأسست سنة ١٨٦٦م، وأصبح اسمها فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت، وجامعة القديس يوسف اليسوعية التي تأسست سنة ١٨٤٥م، وأنشأ اللورد كرومر في مصر كليه فيكتوريا في الإسكندرية.

وفي إسطنبول بالدولة العثمانية تأسست مدرسة الليسيه في عام ١٨٦٨م في جالاتا سراي، وكان معظم التدريس فيها باللغة الفرنسية، وقد قام خريجوها بدور بارز في السياسة والمجتمع فيما بعد، ثم تأسست عدة مدارس أجنبية قامت عليها بعثات أجنبية، منها كلية روبرت الأمريكية البروتستانتية سنة ١٨٦٢م.

---

(١) راجع د. محمد حسين: **الإسلام والحضارة الغربية**، دار الفرقان، القاهرة، (د. ت)، ٢/ ٥٥.

وقامت هذه المؤسسات بالدور التنصيري المطلوب منها، لكنها اضطلعت أيضًا بالدعاية لسياسات بلدانها الأصلية، كما أثرت تأثيرًا بالغًا اتضح فيما بعد، إذ قامت برعاية الواعدين من طلابها النصارى الذين سيكونون بعد قليل أبرز مثقفي الشام ومصر، ولهم القدح المعلى في إدارة دولاب السياسة والفكر فيهما(١)، وللدلالة على مبلغ القوة التي وصلوا إليها نذكر أن ربع النخبة السياسية في سوريا كانوا منهم(٢).

وصرخ شاعر الإسلام محمد إقبال منبهًا إلى خطورة الدور التغريبي للتعليم الأجنبي قائلاً على لسان قائد غربي يعلم ابنه دهاء المستعمر:

ولا تبغِ بالسيف قهر المحكومين

وألقِ بذاتك في حمض مناهج التعليم

ثم شكِّل منها ما يلائم مرادك

إن هذا الحمض يفوق في تأثيره الإكسير

الذي يحول جبل الذهب إلى كومة تراب(٣).

ثم ازداد الاهتمام بالتعليم المدني على حساب التعليم الديني التقليدي، فظهرت المدارس والجامعات، وانتهز الاستعمار فرصة الإشراف على تلك المنظومة التي تهيمن على عقول الأجيال الجديدة، فنظمها على النحو الذي يمكِّن له، وصاغ مناهجها بدهاء يحيط بعقول الدارسين، ويوجه مواهبهم، وقدراتهم وطاقاتهم، كما سنرى فيما بعد.

---

(١) راجع زين نور الدين: نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ص ٥٠-٥٤، دار النهار للنشر، بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٦م.

(٢) د. بشير زين العابدين: الجيش والسياسة في سوريا ١٩١٨-٢٠٠٠، دراسة نقدية ص ٧٤، دار الجابية، ط١، سنة ٢٠٠٨م.

(٣) محمد إقبال: ديوان ضرب الكليم ص ١٣٧.

٩- الهجوم على اللغة العربية:

ظلت اللغة العربية الرابط الأوثق بين شعوب العالم العربي، والصلة المعنوية الأكيدة بين العرب وغيرهم من المسلمين، إذ هي لغة القرآن الكريم، الذي أُمِر المسلمون بتلاوته بها، والصلاة به، ولذا كان تعلم العربية أمرًا معهودًا في العالم الإسلامي بدرجة أو أخرى.

غير أن تيار التغريب الذي نشط منذ بدايات القرن التاسع عشر كان ينظر بامتعاض إلى هذه اللغة، بعدما أشرب من الغرب تمجيد لغاته، والنظر إليها على أنها وحدها الجديرة بالتعبير عن العلوم الحاضرة، والآداب الزاهرة، وأن لغة العرب لا تنهض بهذا ولا ذاك، وقد عبر الشاعر حافظ إبراهيم عن تلكم الأوهام ونقضها حيث قال[1]:

وسعتُ كتابَ اللهِ لَفظًا وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ

فكيف أضِيقُ اليومَ عن وَصفِ آلةٍ ... وتَنْسِيقِ أسماءٍ لمُخْتَرَعاتِ

وقد تتابعت بعد ذلك وسائل الهجوم على اللغة العربية، تحت دعاوى متعددة منها تيسير اللغة، حيث زعموا صعوبة نحوها وصرفها، وغرابة كثير من مفرداتها، ومجاز أساليبها، فدعا أحمد لطفي السيد إلى تسكين حروف الهجاء، وإهمال تشكيل آواخر الكلمات، وفك الإدغام، واستعمال الكلمات الأجنبية في اللغة العربية، بعدما كثر استعمالها في اللهجات العامية، وإطلاق حرية الكاتب والأديب في الإبداع في اللغة ألفاظًا وأساليب[2].

واتخذوا من هذه الدعوى ستارًا **للدعوة إلى العامية** بديلاً للفصحى في التعبير الأدبي، والتواصل الاجتماعي، وهي دعوة قديمة، بدأها د. ولهلم سبيتا في كتابه "قواعد اللغة العربية العامية في مصر" الذي صدر سنة ١٨٨٠م ثم تنامت عناية الأوربيين باللهجات

---

(١) وقد ألقى قصيدته سنة ١٩٠٣.

(٢) د. سيد بن حسين العفاني: **أعلام وأقزام في ميزان الإسلام**، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، جدة، الطائف، المملكة العربية السعودية، ط١، سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ١/ ١٢٢.

العامية العربية، فأصبحت جزءًا من المقررات العلمية في بعض المدارس والجامعات، ومادة للبحث والتأليف لدى عدد من المستشرقين والعرب المستغربين.. ومنهم المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، والمستشرق الألماني كارل فولرس في كتابه "اللهجة العربية الحديثة"، و المستشرق الإنجليزي سلمون ولمور: الذي أصدر كتابه "العربية المحلية في مصر" عام ١٩٠١م، والمستشرق الإنجليزي وليم ولكوكس الذي نشر مقالًا بعنوان "لِمَ توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن؟!"، وأكد أن السبب في ذلك هو تشبُّثهم بالعربية الفصحى، ولقد سار بعضُ الكُتَّاب العرب على سنن هؤلاء الأعاجمَ؛ ومنهم إسكندر معلوف؛ الذي كتب في مجلة الهلال بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٩٠٢م مقالًا بعنوان "اللغة الفصحى واللغة العامية"، حيث يرى فيه أن: سبب تخلف العرب عن الغرب هو التمسك بالفصحى! وأحمد لطفي السيد؛ الذي دعا في عام ١٩١٢م إلى تمصير اللغة الفصحى، وسلامة موسى، ولويس عوض[١].

كما ظهرت **الدعوة إلى استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي**، ومن أبرز من أثارها ولهلم سبيتا في كتابه السابق الإشارة إليه، حيث ضج بالشكوى من صعوبة اللغة العربية، واقترح لحلها استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وقام فعلاً بوضع طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية، طبقها في كتابة النصوص العامية التي مثَّل لها في كتابه. بل إن مجمع اللغة العربية في القاهرة دعا إلى جلسة لمناقشة موضوع تيسير اللغة العربية، وفي جلسته بتاريخ ٣ مايو ١٩٤٣م تقدم عبد العزيز باشا فهمي باقتراح باستبدال الأحرف اللاتينية بالأحرف العربية وتشكيلها- وقدم مشروعًا متكاملاً بذلك، لقي معارضة شديدة من معظم أعضاء المجمع، فكانت نهايته[٢].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٧، وراجع د. عبد الله أحمد جاد الكريم: **محاولات استبدال العامية بالفصحى**، مقال على موقع (منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية)، تم الاطلاع عليه بتاريخ ١٦/ ٣/ ٢٠٢٢، الساعة ١٠, ١٢ ورابطه
http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=16874

(٢) د. نفوسة زكريا سعيد: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، دار المعارف، القاهرة، ط١، سنة ١٩٦٤م، ص ٢٠٨-٢٢٠.

ولا ريب أن تلك الجرأة التي اتسمت بها هذه الدعوة إنما اكتسبت قوتها من التجربة التركية، حيث قرر مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الكتابة بالأحرف العربية، واستبدال الأحرف اللاتينية بها، ونفذ ذلك بكل عزم وصلابة، بالرغم مما لقيه من معارضة، تم العصف بها، إذ بلغ تعلق الأتراك بالكتابة بالأحرف العربية أن "كانت الكتابة – وليست اللغة – العلامة الواضحة والمميزة بين المسلم والكافر"[١].

وفي إيران ظهرت نفس الدعوات إلى إلغاء الحروف العربية التي تكتب بها اللغة الفارسية، واستبدال الأحرف اللاتينية بها في أثناء حكم الشاه رضا بهلوي، ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل بعدما واجهتها مقاومة عنيفة، وكذلك دعوات لحذف الكلمات العربية الموجودة في اللغة الفارسية[٢].

وقد تكثفت **جهود الاحتلال الغربي** لإضعاف اللغة العربية **وتهميشها** في كل مجالات الحياة الثقافية والتعليمية.

ففي مصر استهدف الإنجليز توطين الإنجليزية خاصة، واللغات الأجنبية عامة، وتهميش العربية، وجاء تعيين القس المُنَصِّر (دوجلاس دنلوب) مستشاراً لوزارة المعارف المصرية فاتحةً أولية لتغريب التعليم وتنحية اللغة. وقد اتُّبعت أساليب خبيثة لحصار اللغة العربية وتهميشها في العملية التعليمة ذاتها؛ منها زيادة عدد ساعات تدريس اللغة الإنجليزية في المدارس على حساب اللغة العربية [٣].

---

(١) برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ٥٠٩.

(٢) حسن دادخواه ومحمد رضا علم: **رؤية تاريخية - تحليلية لعملية إمحاء العربية**، مقال تم الاطلاع عليه في ٢١/ ٤/ ٢٠٢٢، على الرابط https://2u.pw/7scl3Q

(٣) () **معتز زاهر: اللغة والهوية بين الاستلاب الحضاري واستعادة الوعي (٧)**، ملف بموقع رؤيا للبحوث والدراسات، ٢٠مارس ٢٠١٩، تم الاطلاع عليه بتاريخ ٢٠/ ٣/ ٢٠٢١، على الرابط: http://ruyaa.cc/Page/8605/#_ftnref34K، وراجع د. سعيد إسماعيل علي: **دور التعليم المصري في النضال الوطني زمن الاحتلال البريطاني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥، ص١٠٥، ٩٩

وما جرى في مصر جرى أسوأ منه في أقطار أخرى، من أهمها ما حدث في الجزائر، حيث استهدف الاستعمار الفرنسي فَرنَسَة الجزائر، بجعلها جزءًا من فرنسا. فأعلن الحرب على هويتها العربية والإسلامية بلا هوادة، وحارب اللغة العربية حيث كانت، وفرض الفرنسية، وحارب الكتاتيب والمساجد، على ما هو مشهور.

١٠- تأثير الإعلام:

ومنها تأثير الإعلام الغربي بأدواته ووسائله وقدراته الهائلة، وهو من أخطر تلك الروافد، حيث سيطر سيطرة تقترب من الكمال على أدواتنا الإعلامية الفقيرة معنًى ومبنى، وغزا كل بيت، وترك أثره على كل فرد، إن خيرًا أو شرًا، فهو يحيط بالمرء من كل جهاته، وفي جميع أحواله، ولديه القدرة النافذة على التزيُّن والتجمّل، والتحبّب والتقرب، والتوسع والإحاطة، فكل العالم أصبح في قبضة المؤسسات الغربية الجبارة التي تسيطر على الإعلام.

ومعظم المؤسسات الإعلامية العالمية يتحكم فيها **اليهود**، حيث يبرز خطر الإفساد، كما قال تعالى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ المائدة: ٦٤. وكانت سيطرة اليهود على معظم وسائل الإعلام العالمية مدخلاً خطيرًا للغزو الفكري للعالم الإسلامي، وتغريب عقوله، وقيمه، وطبائعه.. تلك السيطرة التي جعلت هنري فورد أحد كبار رجال الأعمال اليهود يشكو من غلبة الدعاية والإعلام اليهوديين على الشعب الأمريكي، وسوء تأثيرهما على الشباب هناك[1].

إن شخصية اليهودي التي مثلها "شيلوك" التاجر اليهودي عند شكسبير في مسرحيته "تاجر البندقية" - ذلك المرابي البغيض والقذر - لم تعد كذلك في الميديا العالمية

(١) راجع هنري فورد: **اليهودي العالمي**، ترجمة أكرم مؤمن، ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، سنة ٢٠١٣م ص ٥٣٣.

المعاصرة، بل لقد أصبح فيها المخترع العبقري والفيلسوف النابه، والسياسي المحنك، والأديب البارع، ورجل الأعمال كامل الثراء والقدرة.. كل ذلك التحول استطاعته وسائل الإعلام التي امتلكها اليهود[١]، من وكالات الأنباء العالمية، وكبريات الصحف الدولية[٢]، وشركات الدعاية العظمى، ومراكز السينما الكونية في هوليوود وغيرها[٣].. فما الظن بمبلغ تأثيرها - وتأثير الإعلام كله – على الشعوب الأمية والفقيرة المسلوبة في الشرق الإسلامي؟

وإذا كان اليهود قد امتلكوا أزمَّة الإعلام العالمي فإن العلمانيين في بلاد الإسلام قد أكملوا إحكام ذلك الحصار الإعلامي على الداخل الإسلامي، وتواكبت تلك السيطرة مع بدايات ظهور وسائل الإعلام المعروفة في بلادنا، وقام نصارى الشام الذين اتجهوا إلى مصر بدور بارز، فقد تأسست جريدة الأهرام في سنة ١٨٧٥ من قبل اثنين من الأشقاء اللبنانيين، بشارة وسليم تقلا، وصدرت جريدة المقطم في الفترة ١٨٨٨ -١٩٥٢م، وأنشأها يعقوب صروف، وفارس نمر، وشاهين مكاريوس في القاهرة، وهما جريدتان سياسيتان، بينما صدرت صحف أدبية وعلمية، مثل المقتطف التي صدرت بين عامي ١٨٧٦-١٩٥٢م، في الشام من قبل يعقوب صروف وفارس نمر؛ قبل أن تنتقل إلى القاهرة، ثم صدرت مجلة الهلال لصاحبها جرجي زيدان سنة ١٨٩٢م[٤].

---

(١) راجع زياد أبو غنيمة: **السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية**، دار عمّان للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، سنة ١٩٨٩.

(٢) راجع هنري فورد المرجع السابق ص ٢٤٢-٢٥٠، راجع عبد الله التل: **خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية**، دار القلم، سنة ١٩٦٤، ص ١٨٦-١٨٧، ١٩٢-١٩٣.

(٣) تشير بعض الإحصائيات إلى أن أكثر من ٩٠٪ من مجموع العاملين في الحقل السينمائي الأمريكي إنتاجًا، وإخراجا، وتمثيلاً وتصويرًا ومونتاجًا هم من اليهود. هذا فضلاً عن امتلاكهم شبكات التلفزيون الأمريكية، وهي أقوى الشبكات في العالم؛ حيث تقع في معظمها تحت نفوذهم، وقد امتدت أذرع الأخطبوط الصهيوني إلى المسارح أيضا، وتحكمت في توجيهها (خضر أ. حيدر: **الميديا اليهودية ملحمة التضليل الكبرى في السيطرة على العالم**، ص١٢٥، مجلة الاستغراب، العدد ١١، السنة ٤، ٢٠١٨).

(٤) راجع د. محمد حسين: الإسلام والحضارة العربية ٢/ ٥٥.

المبحث الرابع

تعدد المواقف إزاء التغريب:

تباينت المواقف تجاه التغريب والغزو الفكري، فعبر أولها عن الرفض والمقاومة لذلك التغريب المصاحب للاستعمار، والخادم له، بينما تماهي بعضهم معه، وتحمس له، وأصبح من أبواق الدعوة إليه، في حين تريث آخرون، وآثروا الحكمة إزاء الحضارة الغربية الوافدة، فأخذوا منها وتركوا، ولم يروها شرًّا محضًا، ولا خيرًا صرفًا.

١- اتجاه رفض التغريب ومقاومته:

ولا يعني رفض التغريب رفضًا للحضارة الغربية كلها، إذ لا يكاد يوجد عالم من علماء الإسلام - ممن يعتد بهم - كان معاديًا للإفادة من حضارة الغرب ومنجزاته، وكيف يكون ذلك والإسلام نفسه يقرر أن "الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها"[(١)]، وتواترت الأخبار بإفادة الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من منجزات الفرس والروم وغيرهم في أمور معاشهم ودنياهم، وسلمهم وحربهم.. إنما اتجه رفض الرافضين حضارة الغرب إلى رفض عقائده وفلسفة حضارته، ومنطلقاتها المادية المخاصمة للدين والوحي، كما رفضوا الاستعمار الحامل له في ركابه، وتطابقت دائرتا الاستعمار والتغريب في تصوره، فرفضوا الرفيقين معًا.. وتباينت معارضتهم بين الشدة واللين، واتساع نطاق المعارضة وتضايقه، وقوة التعبير عنه وضعفه.

لقد كان رفض التغريب هنا رفضًا مبدئيًا إذ جاء غازيًا مفروضًا بقوة الغصب والقهر، فلم تكن ثمة فرصة للتفكير الهادئ في مضامينه ومنابعه وغاياته.. لكننا حين نتأمله سنجد أنه كان متوجهًا في الأصل إلى الجانب الاستعماري القهري، وليس إلى الجانب العلمي

---

(١) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة، وقال: "غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه"، وضعَّف أحد رواته (السنن حديث رقم ٢٦٨٧)، لكن معناه صحيح.

الذي قد يصحبه، وإن جاء خادمًا له.. ففي حالة الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م قبل قادة الرفض والمقاومة المشاركة في بعض مؤسساتها التي ادعت الحياد، والحرص على مصالح الناس، وتسيير حاجاتهم. وتتردد أسماء الشيخ الشرقاوي وعبد الرحمن الجبرتي وحسن العطار وغيرهم ممن كانت لهم صلاتهم بعلماء الحملة وقادتها، فكان الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان الذي أسسه نابليون من أصحاب الرأي في البلاد[١]، وكان الجبرتي عضوًا في ذلك الديوان في بعض فتراته، ونقل إلينا صفحات تعبر عن إعجابه بما وصل إليه العلماء الفرنسيون المرافقون للحملة من تقدم علمي أثار دهشته وعجبه[٢]. وكذلك كان لصديقه حسن العطار صلات قوية بعلماء الحملة، وسيتولى حسن العطار مشيخة الأزهر فيما بعد[٣].

أما في الجانب العسكري فقد تولى الأزهر الشريف زعامة مقاومة الحملة، ومظاهر التغريب الوافدة معها، وظهرت أسماء علماء مقاومين كالشيوخ: الشرقاوي[٤] - الذي لم يمانع في أن يكون عضوًا في الديوان كما رأينا - والشيخ السادات[٥] والشيخ محمد عليش[٦]، وتسارعت حدة المواجهة الشعبية للحملة، كما حدث في ثورتي القاهرة الأولى سنة ١٧٩٨، والثانية سنة ١٨٠٠، وقتل وأصيب من أهلها ألوف، ولم تخمد الثورة الأولى

---

(١) راجع د. جمال الدين الشيال: **تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية**، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٥٠م، ص ١٨-١٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٩-٢٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٩-٣١.

(٤) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢/ ٢٠٣-٢٠٤، د. زكريا سليمان بيومي: **قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين**، عالم المعرفة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، سنة ١٩٩١، ص ١٥٠-١٥١.

(٥) الجبرتي: السابق ٢/ ٢٠٤، راجع محمد جلال كشك: **ودخلت الخيل الأزهر**، الزهراء للإعلام العربي، ط٣، سنة ١٩٩٠م، ص٥٤١.

(٦) خير الدين الزركلي: **الأعلام** دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، سنة ٢٠٠٢ م، ٦/ ١٩.

حتى اقتحم الفرنسيون الجامع الأزهر بخيولهم وارتكبوا فيه الموبقات[١]، ولم تخمد الثانية إلا بعد ضرب المدينة بالمدافع وإحراق الأحياء الثائرة[٢].

وعبر الجنرال بيرو عن واقع الرفض الثائر للشعب تجاه الحملة الفرنسية بقوله: "وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه؛ فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع،... وكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان لنا؛ بالحزم مرة، وبالقوة مرة، وقمع كل ثورة، ومكافأة كل من يخدم السلطة الفرنسية"[٣].

فلما جاء الوالي محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨م) بدأ حملة قوية للاتجاه نحو أوروبا، كان لها آثارها في تغريب المجتمع وهوية الدولة، وحجته في ذلك أنه لا سبيل إلى تحديث البلاد وتقدمها إلا بالأخذ عن أوروبا، وبدأ ذلك بتأسيس جيش قوي يكون ركيزته لتكوين دولته، وتحقيق طموحه، وأسند هذه المهمة إلى ضابط فرنسي عُرف بسليمان الفرنساوي، أظهر إسلامه، وجعل الوالي تحت قيادته ألفًا من المماليك يبدأ بهم مسيرته، وجعل معسكرهم جنوبي البلاد في أسوان لتلافي شغبهم، وهناك لم تنته نزعات التمرد فيهم، ويعلل كلوت بك - الفرنسي الذي عينه محمد علي رئيسًا لأطباء الجيش - ذلك بسبب "ما فُطر عليه المسلمون من الشمم وإباء الضيم، والصفات النفسية التي تحول دون رضوخهم لمعلمين مسيحيين" حتى دبروا المؤامرات مرارًا لاغتياله[٤]، حتى اضطر إلى تجنيد المصريين في جيشه، فلم يستقم له أمر استجابتهم وطاعتهم إلا بعد خطوب، فاستدعى مزيدًا من الضباط الفرنسيين لتدريبهم[٥].

---

(١) راجع محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٢٠.

(٢) الجبرتي: المصدر السابق ٢/ ٣٣٤.

(٣) د. زينب عبد العزيز: **مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس**، ص ١٤، (د. ن)، سنة ١٩٩٨، ص٣٠.

(٤) كلوت بك: **لمحة عامة إلى مصر**، ترجمة محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ٢٠١١م، ص ٤٩٨-٤٩٩.

(٥) كلوت بك: المصدر السابق ص ٥٠٠.

أما في تركيا التي سرى الضعف في أوصالها؛ فقد أصبحت الهوة الحضارية بينها وبين أوروبا مثيرة للتساؤل والحيرة منذ زمن السلطان محمود الثاني (حكم بين عامي ١٨٠٨- ١٨٣٩م).

ولما دعا السلطان محمود بعثة بحرية بريطانية لتدريب جيشه سنة ١٨٣٨ لم تحقق النتائج المرجوة، وشاركهم في الفشل نفسه أحد الضباط الألمان الذي عينه السلطان محمود مستشارًا عسكريًا لتدريب جيشه من قبل سنة ١٨٣٥، وأرجع ذلك إلى "الاحتقار البادي من جانب الأتراك تجاه المستشارين الأجانب"، ويزيد الضابط الألماني شهادته بقوله: "في تركيا؛ حتى أقل هِبة تصير محل شك ما دامت من يدي مسيحي، في روسيا ربما يكون الأجانب مكروهين، لكنهم في تركيا محط احتقار"، ويرى أن التركي سوف يسلِّم بتفوق الأوروبيين عليهم في العلم والمهارة والثروة والجسارة والقوة، "دون أن يخطر على باله مطلقًا أن الإفرنجي يتساوى مع أي مسلم"[(١)]، ويتعجب الضابط الألماني من أنه كان يلقى المعاملة الطيبة من كبار موظفي الدولة، "ولكن الرجل العادي لم يكن يمد يده نحونا، كما أن النساء والأطفال كانوا يلاحقوننا من وقت لآخر باللعنات، والجندي يطيع، لكنه لا يؤدي التحية، القائد التركي لم يكن يجرؤ على أن يطلب من الجندي التركي أن يبدي الاحترام لواحد من الكفار"[(٢)].

فكان التوجه نحو الغرب في زمان متقارب، وكانت هاتان الدولتان الأعظم أثرًا في العالم الإسلامي[(٣)].. وكان الرفض الشعبي للتدخل الغربي حادًا في كلتا الحالتين في بدء الأمر..

---

(١) برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة، ص ١١٠- ١١١.

(٢) المرجع السابق ص ١١١.

(٣) راجع جب: **وجهة الإسلام** ص ٤٢.

غير أن استمرار وجودهم؛ وشدة الاحتياج إليهم؛ هيأ النفوس لتقبل الواقع البغيض بالتدريج.

وفي الهند قامت ثورة أهلها ضد سلطة شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٨٥٧م التي فرضت على الهند الفقر والجهل[١]، وضد مظاهر التغريب التي يفرضها المحتل وحضارته، وحُمَّى التنصير المستقوي بالمستعمر الأجنبي[٢]، وقمع البريطانيون قليلو العدد الثورة الحاشدة بجماهيرها - المتواضعة بعلومها وقدراتها - بوحشية بالغة، وُدمرت مدن الثورة وقراها[٣].

وكان للعلماء دورهم في قيادة تلك الثورة[٤]، فلما قُضي عليها لم ييأسوا، بل أدركوا عظم الفوارق بين القوتين، وفداحة الضعف البالغ للمسلمين، فقرر عالم الهند الكبير محمد قاسم الناتوتوي (ت ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) ومعه جماعة من العلماء اللجوء إلى بناء معقل للحضارة الإسلامية وعلوم الشريعة، فأسس معهد ديوبند الكبير؛ أو دار العلوم ديوبند، مركزًا لتربية الدعاة والعلماء المجاهدين، وكانت له مواقف عظيمة في مواجهة التنصير، وتخريب العقيدة الإسلامية والتغريب التي نهض بها السيد أحمد خان ومذهب القاديانية الضالة، وأعقب ذلك تأسيس ندوة علماء الهند على يد الشيخ محمد علي المونكيري (ت ١٣٤٦هـ) والتي قادها العلامة شبلي النعماني (ت ١٣٣٢هـ) وتلميذه السيد سليمان الندوي (ت ١٣٧٣ هـ)، وجعلوا منها قنطرة تصل ما بين الحضارة الإسلامية الأصيلة والغربية الوافدة، باستخلاص النافع منها، وكان لجهودهم فضل كبير في "إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية، ومكافحة مركب النقص عندهم"[٥].

---

(١) راجع د. عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند** ص ٤٨٩-٥٠٤.

(٢) د. النمر: السابق ص ٥٠٤-٥١١.

(٣) راجع النمر: السابق ص ٥٣٥-٥٥٠.

(٤) د. النمر: السابق ص ٥٥٧-٥٦٠.

(٥) راجع أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٦٤-٦٨.

واكتسب اتجاه محاربة التغريب في الهند دفعة قوية في حركة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية العامة ضد الاحتلال البريطاني، وقد فجرها وقوف بريطانيا في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية، بما لها من رصيد روحي عند مسلمي الهند، وفي مدة يسيرة خلع الهنود أردية الحياة الغربية، وهجروا منتجات الحضارة الغربية، وعادوا إلى حياة البساطة والزهد التي عاشها أسلافهم، واستمرت المقاومة التي قادها غاندي مع القادة المسلمين محمد علي وشوكت علي وأبو الكلام أزاد وغيرهم، حتى تحقق للبلاد استقلالها[1].

٢- اتجاه الدعوة إلى التغريب الكامل وأزمة المنطلق:

أسفر استمرار التواصل الفكري والعلمي مع الغرب عن اضطراب في الأفكار والرؤى؛ قاد إلى مزيد من التمايز الفكري في أوائل القرن العشرين، بين من يؤيدون التحديث من خلال الإسلام ذاته، وقيمه الأساسية في الشورى والعدل والمساواة، ومن يرون أن الإسلام قد تجاوزه الزمن، وأنه لا سبيل إلا اتباع الغرب في ضراوة وحسم.

وتحت شعارات زاهية أخاذة من قبيل: الاستنارة، والتحديث، والنهضة، والتمدن... إلخ كان الإلحاح على تبني مضامين التغريب، والسير في تحقيق أهدافه، وإن تعددت المصطلحات الوافدة، أو الرايات المرفوعة.. حيث تقدم تلك المصطلحات على أنها دلالة على مجموعة من الأفكار الجيدة التي سيؤدي تبنِّيها إلى إصلاح حال البلاد والعباد، بينما هي في الحقيقة نتاج المجتمع الغربي، فمصطلحاته "ليست جزءًا من معجمه اللغوي وحسب؛ وإنما هي جزء من معجمه الحضاري أيضًا"، ومحاولة فرضها على مجتمعاتنا تنم عن أزمة فكرية للعقل العربي والإسلامي، الذي "ينقل أفكارًا لا فكرًا؛ ولا منظومات فكرية. فكلمة "فكر" تفترض وجود منظومة مترابطة من الأفكار التي يوجد بينها وحدة ما،

(١) راجع أبو الحسن الندوي: السابق ص ٧٩-٨٠.

ونموذج معرفي واحد، وحينما يتم نقل الأفكار دون إدراك للنموذج الكامن وراءها؛ فإنه يتم تجاهل أبعادها المعرفية الكلية النهائية، ومن ثم يختفي المنظور النقدي، وتتعايش الأفكار المتناقضة جنبًا إلى جنب، ولا يمكن التمييز بين الجوهري منها والهامشي"[1].

وتتكشف الادعاءات الفكرية لدعاة التغريب أنهم في الأغلب يقتاتون على موائد الغرب الفكرية، ويقدمون للناس ترجمات الغربيين على أنها إبداعات الشرقيين الحريصين على إنهاض شعوبهم، فكان هؤلاء "جيلاً مقلدًا فيما كتبوه وأذاعوه، حيث تحول التأليف إلى ترجمة، بحسب تعبير د. عبد الوهاب المسيري: "فنحن نترجم حين نترجم، ونترجم حين نؤلف أيضًا"[2].

رواد الدعوة إلى التغريب الكامل:

ومن رموز الدعوة إلى التغريب الكامل **في تركيا** ظهر **عبد الله جودت (١٨٦٩-١٩٣٢)** من مؤسّسي حركة "تركيا الفتاة"، وكان طبيبًا وكاتبًا ومترجمًا، وبعد نفيه بسبب نشاطه السياسي نشر مجله "الاجتهاد" في جنيف أولاً، ثم في القاهرة، ثم عاد إلى تركيا في عام ١٩١٠ ليمارس دوره الصحفي.

رأي عبد الله جودت أن التغريب ضرورة مطلقة بالنسبة إلي الدولة العثمانية، وقد كتب يقول: "ليست هناك حضارة غير الحضارة الأوروبية، ولا بد من الأخذ بها بوردها وشوكها"، ويقول: "الغرب قدوتنا، وأن نحبّه فذلك يعني أن نحبّ العلم والتقدّم والتطوّر المادّيّ والأدبي"..

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: **فكر حركة الاستنارة وتناقضاته**، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٨م، ص ٥-٦.

(٢) سوزان حرفي: **حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري (٣) الهوية الحركية والإسلامية**، دار الفكر، دمشق، ط٢، سنة ٢٠١٠، ص ٥٦-٥٧.

وهو يرى أن التغريب تغيير للذهنية، والعقبات التي تعترض طريقه هي التعلق بالقيم التقليدية التي فات أوانها، والجهل الذي يمثله ويمارسه رجال الدين المتشددون وعامة الناس، وكان لمجلة "اجتهاد" برنامج متكامل للتغريب، ينطلق من الدفاع عن حقوق المرأة إلى تبني الأبجدية اللاتينية، مرورا بتحديث الأسرة، والنضال ضد المدارس التقليدية الدينية والعلمنة.. ويرى أن الدفاع عن الدولة العثمانية لن يتحقق إلى بتبني قيم الغرب، ويقول: "إما أن نذهب إلى أوروبا؛ أو إنها هي التي سوف تجيء إلى هنا"[1].

ويعبر صديقه **ضياء كوك ألب** (١٨٧٦-١٩٢٤) عن نفس معتقد جودت، وبألفاظ مقاربة، حيث يقول: "علينا أن نختار أحد الطريقين: إما أن نقبل الحضارة الغربية أو نظل مستعبدين لقوى الغرب"، وإن "الحضارة الغربية هي الشارع الوحيد للتقدم"، وقد عُرف ضياء بأنه "أبو القومية التركية"، لقوة دعوته إليها، وكان من الناشطين في جمعية الاتحاد والترقي، والمدافعين بقوة عن العلمانية التركية المجافية للدين، والداعين إلى الأخذ بالحضارة الغربية، التي يرى أنها امتداد لحضارة حوض البحر المتوسط، وأن الأتراك القدماء كانوا من مؤسسيها، وأنه لا يصح أي ارتباط للحضارة بالدين، فليست هناك حضارة إسلامية ولا مسيحية، ويبدو أن منهجه في التفكير راق للاتحاديين، فعيَّنوه سنة ١٩١٥ أستاذًا أول لعلم الاجتماع في جامعة إستانبول، دون شهادات علمية، ودون أن يكون متخرجًا فيها، فاتسع مجال تأثيره في الجيل التركي الجديد، كما عُين عضوًا في لجنة وضع الدستور التركي الجديد سنة ١٩٢٤، ويبدو أن نقاط العلمانية الجامحة في الدستور كانت بتأثير منه[2].

---

(١) بول دومون: **فترة التنظيمات، ضمن (مانتران (محرر): تاريخ الدولة العثمانية** ٢/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) راجع أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٤٢-٤٥

على كل حال مضى تيار التغريب في طريقه، لكنه في بلد الخلافة كان يشق طريقه بصعوبة نظرًا لنفرة الأتراك العثمانيين من الخضوع للأجانب وجلْبهم، واعتزازهم العميق بالإسلام الذي صاغ عزهم وصنع تاريخهم.

ويعبر أرنولد توينبي عن صعوبة التغريب في الدولة العثمانية بقوله: "وحكمنا على العثمانيين في كل حركات الاقتباس من الغرب التي تجرعوا غصصها؛ جرعة بعد أخرى، بوجوه متجهمة، خلال هذه الحقبة من الزمن (يعني ما قبل الحرب العالمية الأولى) هو: "من كل جرعة قليل، لا يكاد يكفي، وفي وقت متأخر غير مناسب". ولبث الحال على ذلك حتى جاء مصطفى كمال (أتاتورك) ورفاقه عام ١٩١٩م..."[١].

وفي الشرق العربي ظهر دعاة للتغريب عبروا بجرأة عن أفكارهم، فاتجه بعضهم إلى التشكيك في عقائد الأمة، أو الدعوة إلى التحلل منها، والإلحاد الصريح، والترويج للداروينية وفلسفتها، مثلما فعل شبلي شميل (١٨٥٠-١٩١٧م) الكاتب النصراني اللبناني الذي نشر كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء" سنة ١٩١٠م، كما نشر سلامة موسى كتابه "نشوء فكرة الله" سنة ١٩١٢[٢].

وظهر جيل من دعاة التغريب المطلق، كان بعضهم يتوسل بأساليب البلاغة الرقيقة للتعبير عن رؤيته لمستقبل بلاده، ويرى ذلك سبيلاً لكسب رضاء الغرب - الذي يحتل بلاده - ونيل وده!! فيقول قاسم أمين: "ولهذا كان أمامها (أي مصر) طريقان: العودة إلى تقاليد الإسلام؛ أو محاكاة أوروبا؛ وقد اختارت الطريق، الثاني... على أنها قد خطت اليوم بعيدًا في هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه، إن مصر تتحول إلى بلد

---

(١) أرنولد توينبي: **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة ٢٠١١، ٣/ ٣١٣

(٢) سلامة موسى: اليوم والغد، المطبعة العصرية، القاهرة سنة ١٩٢٨م، ص ٦٤-٩١.

أوربي بطريقة تثير الدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوربي... إنها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا، أو تفعله، وتجد كل الأفكار التي تحرك حماس أوروبا صداها هنا.... فلعل أوروبا تقدر لمصر مسيرتها، ولعلها ترد لها يومًا بعض هذا الود الكبير الذي تكنه لها مصر"[١].

ومن أبرزهم وأشدهم غلوًا الكاتب النصراني سلامة موسى، وعبر عن ذلك في مقدمة كتابه (بين اليوم والغد)، الذي بدأ نشره على هيئة مقالات، ثم جمعها في كتاب نشره سنة ١٩٢٧م، وفيه يقول: "كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الأدب كما أزاولـه؛ فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا (وهو يرمز بها إلى الإسلام لأنه نبع منها)، وأن نلتحق بأوروبا، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها، وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني، وأنا منها"[٢]، ويقول: "ولست أجهل أن آسيا قد حكمت مصر نحو ألف عام، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها، بل دست دمها في دماء أبنائها، ولكننا نحمد الأقدار على أننا ما زلنا في السحنة والنزعة أوروبيين..." [٣]

ويقول:" أما الثقافة الشرقية (ويعني بها ثقافة الإسلام) فيجبْ أن نعرفها لكي نتجنبها، لما نرى من آثارها في الشرق؛ آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة"[٤]

ويرى أننا "يجب أن نترك تشريعنا الإسلامي، حتى في جانبه الاجتماعي، فيعاقب من يعدد الزوجات، ولا يكون الطلاق إلا أمام المحكمة[٥].

---

(١) د. محمد عمارة: **قاسم أمين الأعمال الكاملة**، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م، ١/ ٢٣٢.

(٢) سلامة موسى: **اليوم والغد** ص ٧.

(٣) المرجع السابق ص٨.

(٤) المرجع السابق ص٨.

(٥) المرجع نفسه ص٨

وبعد أن يؤكد كراهيته الشديدة لكل ما يمت إلى الإسلام والعروبة، في السياسة والاجتماع، والتعليم واللغة والأدب، ومكانة المرأة وطبيعة الأسرة.. يتساءل: "فلماذا إذن لا نصطنع جميعنا الثقافة والحضارة الأوربيتين، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا؟. هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرًّا وجهرة، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب"(١).

ويرى أنه يجب أن نترك تشريعنا الإسلامي، وأن تكون حكوماتنا أوروبية، فيعاقب كل من أرادها أن تكون مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون، ولنهدم شرقيتنا، بل ديننا، فإنه "إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة؛ لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين رابطة تجمعنا"(٢).

والرجل يدرك مغبة دعوته تلك، وأنها تتماهى مع رغبات الاستعمار وغاياته، ولا يجد حرجًا من التصريح بوجوب التعاون مع الاحتلال الإنجليزي، بل التعاون معه لحرب الإسلام ومن يلتزم به، فيقول إننا: "إذا أخلصنا النية مع الإنجليز قد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم، وهم في الوقت نفسه إذا أخلصوا النية لنا فإننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر، وننتهي منها، فلنولِّ وجهنا شطر أوروبا"(٣).

وعلى ذلك لا نستغرب تلك العبارات التي تنضح بالخيانة لوطنه حيث يقول: "وإذا كنا نعلم صبياننا بأنه يجب أن نضحي بأنفسنا لأجل مصر؛ فيجب أن نضحي بمصر من أجل العالم"(٤).

أما د. طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر – الذي طبع أول مرة سنة ١٩٣٨م – فيلخص تصوره لحل إشكالية الهوية حيث يقول إن سبيل النهضة "واضحة بينة

(١) المرجع السابق ص ٩.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩-٢٤٠.
(٣) المرجع نفسه ص ٢٥٧.
(٤) المرجع نفسه ٢٥٥.

مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذَّة، ليس فيها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحب منها وما يُكره، ما يُحمد منها وما يُعاب"[١].

ويرى أن " المسلمين "قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة؛ وهو أن السياسة شيء والدين شيء آخر، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية، قبل أن يقوما على أي شيء آخر"[٢].

وعلى ذلك يقرر أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية، ولا قوامًا لتكوين الدول"[٣].

ترى لو كان طه حسين حيًّا ورأى أوروبا ترفض مرارًا انضمام تركيا المسلمة إلى مجموعة دول الاتحاد الأوروبي بحجة أن المجموعة نادٍ مسيحي.. ماذا كان يقول؟

أما في الهند فيُعد السيد أحمد خان (ت ١٨٩٨م) أبرز من دعا إلى التغريب الصريح، وقد سافر إلى بريطانيا فكان أول هندي يسافر إليها، فلقي من الحفاوة التي أعدوها له ما لا يخطر ببال، فلقي الملكة، وحضر المآدب الملكية، والولائم الأرستقراطية، وأعطي الوسام الملكي ولقب الشرف، وشاهد ألوان الحضارة البريطانية الباذخة في عصر قوتها، فقرَّ في نفسه من الانبهار ما لا حد له، وعاد إلى بلاده يدعو إلى العبِّ من حضارة الغرب بكل سبيل حتى يتحقق للشعب الهندي الرقي الحائل دون نظر المستعمر الغربي إليه نظرة احتقار وهوان، وكان من أخطر ما ركبه من شطط وغلو هو تفسيره القرآن العظيم تفسيرًا ماديًا أثار حفائظ العلماء، "وفتح بابًا للفتنة والتحريف والإلحاد في آيات الله، والفوضى

---

(١) **مستقبل الثقافة في مصر** ص ٤٣، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٤م.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣.

في الدين والعقيدة"[١]. وأسس جامعة عليكرة التي أذاع فيها أفكاره، وشرط في قانونها أن تكون إدارتها بأيدي الإنجليز المحتلين بلاده[٢].

الاندفاع نحو التغريب على يد تركيا الفتاة[٣]:

يعد ظهور جمعية تركيا الفتاة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحلة فاصلة في مسار الصراع بين الرؤية الإسلامية والرؤية العلمانية الغربية في الفكر والسياسة والمجتمع.. حيث نجحت في دعايتها بين صفوف النخبة العسكرية التركية في الجانب الأوروبي (الروملي)، ثم استطاعت إجبار السلطان عبد الحميد الثاني على إعادة الدستور

---

(١) أبو الحسن الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٧١-٧٣، وقد أنكر فيه وجود الملائكة والجن والشياطين، وأوَّل ذلك تأويلاً ماديًا، أما أشد شناعاته فالزعم بأن القرآن الكريم لم ينزل بألفاظه من عند الله، بل نزلت معانيه على قلب النبي صلوات الله عليه، فصاغها بألفاظه هو، ثم زاد فشكك في صحة السنة النبوية، وادعى أن القرآن كافٍ، ولا داعي إليها (د. محمود مزروعة: **شبهات القرآنيين حول السنة النبوية**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، سنة ١٤٢١هـ، ص٣١).

(٢) أبو الحسن الندوي: المرجع السابق ص ٧٤-٧٥.

(٣) يمكن تقسيم تاريخ حركة تركيا الفتاة إلى ثلاثة أدوار: يبدأ الأول منها حوالي سنة ١٨٨٩ بين طلاب المدرسة الطبية العسكرية، في طور سري بالغ، وكان اسمها آنذاك "ترقي واتحاد"، وقد اتسع نشاطها تدريجيًا، ولكن أعين السلطان عبد الحميد تعقبتها، وضيقت عليها، مما وضع حدًا لنشاطها في داخل الدولة سنة ١٨٩٧، فنقلت نشاطها في الدور الثاني إلى خارج البلاد في باريس وجنيف والقاهرة، وكان أبرز رجالها أحمد رضا والأمير صباح الدين، واتسعت دائرة النشاط الصحفي للجمعية، وكانت الصحف تنشر داخل الدولة عن طريق دوائر البريد الأجنبية، ثم كان الدور الثالث للجمعية بدءًا من ١٩٠٦ حيث عادت إلى النشاط في الداخل، وقام مصطفى كمال بتأسيس جمعية (وطن) في أثناء عمله ضابطًا في دمشق، وكان جميع أعضائها من ضباط الجيش الخامس الذي يتولى قيادته، ثم نقل نشاطه إلى محل عمله الجديد في سلانيك، حيث أصبحت الجمعية باسم وطن وحريت، وظهرت هنا تسمية (الاتحاد والترقي)، حيث تمكنت الجمعية من ضم أفراد الجيش الثالث العامل في الروملي -القسم الأوروبي - ثم فرضت إرادتها على السلطان بإعادة الدستور مرة ثانية سنة ١٩٠٨، ثم قررت إكمال الانقلاب وعزله سنة ١٩٠٩ (راجع رامزور (أرنست): **تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨**، ترجمة د. صالح أحمد العلي، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، ١٩٦٠م، وانظر مقدمة د. نقولا زيادة للكتاب ص ١٢-١٣).

سنة ١٩٠٨، ثم خلعه في العام التالي وفرض سيطرتها على البلاد. ومع السيطرة العسكرية والسياسية كان فرض الآراء العلمانية في مجتمع محافظ، وتعاقب من يخالف ذلك بالتضييق والقهر، وكانت سياستهم الفظة تقود إلى تهميش الدين، "والتدرج في محو كل ما هو إسلامي في أعمال الحكومة، وإضعاف سلطة المشيخة الإسلامية، حتى إنهم سلبوا منها الرئاسة على المحاكم الشرعية، ووضعوا قانونًا للأحكام الشخصية، وقللوا عدد من يتخرج من المدارس الدينية حتى أصبح لا يكاد يفي بما يُحتاج إليه، وجعلوا الخلافة والسلطنة مظهرًا لا يملك صاحبه أمرًا ولا نهيًا، وإفساد الأخلاق، حتى أباحوا البغاء للنساء المسلمات[١]، ويعبر المؤرخ اليهودي برنارد لويس عن فداحة الأمر بقوله: "كانت فترة حكم تركيا الفتاة تتسم برواج الأفكار الملحدة والوضعية رواجًا تامًا وواضحًا... وقد تجاوز تأثيرهم في بعض الأحيان الدوائر الفكرية، فعلى سبيل المثال جعل ضباط تركيا الفتاة من شرب الكونياك وأكل لحم الخنزير نقطة اعتزاز"[٢].

٣- اتجاه التوفيق بين الهوية الإسلامية والحضارة الغربية:

وعماد هذا الاتجاه هو بيان فضائل الحضارة الغربية، والاعتراف بما قدمته للبشرية من إنجازات رائعة. مع التحذير من معاطب ماديتها الطاغية، ومحاربتها الدور الاجتماعي والحضاري للدين، وإدراك حاجتها الماسة إلى البناء الأخلاقي والروحي، وأن الحضارة الإسلامية تتلافى ذلك النقص، وأن لها بناءها الخاص الذي لا يمنع الأخذ بالفضائل من كل فكرة ومذهب وحضارة، ومنها حضارة الغرب.

أ) تحليل بعض مواقف أوائل المبعوثين إلى الغرب:

وقد يرد على الذهن أن هذا التيار قد تأخر في الظهور حتى تخلقت حالة الاتزان الضرورية بين رافضي الغرب والدعاة إليه، غير أن الواقع يخالف ذلك الظن، فإن بواكير

---

(١) رشيد رضا: **الخلافة** ص ١٣٣.

(٢) ظهور تركيا الحديثة ص ٤٨٥

المبعوثين إلى الغرب، أو الناهلين من حضارته؛ كان لديهم من أصالة الفكر، وثبات الاعتقاد والاعتزاز بالهوية ما حفظهم من الانبهار بأضواء الحضارة الطاغية على حساب ثوابتهم الدينية والحضارية.. وإن أساء بعض المفكرين النظر إليهم، وتقييم تجربتهم وآرائهم.

- موقف رفاعة الطهطاوي من التغريب:

فقد كان رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م)[١] ضمن أول بعثة أرسلها محمد علي إلى فرنسا، وهو شيخ أزهري أُرسل ليكون إمامًا لهؤلاء المبتعثين.. وتلك من حسنات محمد علي التي ينبغي أن تذكر، أعني حرصه على تحصين هؤلاء الشباب من غواية المدنية الأوروبية وصدمتها وبريقها وشهواتها.

فقضى رفاعة هنالك خمس سنوات (١٨٢٦ - ١٨٣١م)، تعلم فيها اللغة الفرنسية، ونهل من الثقافة، والأدب، والفلسفة، والسياسة. فلما عاد إلى مصر قام بدور بارز في النهضة الفكرية، وكان له عطاؤه المهم في الترجمة من الفرنسية إلى العربية، وبخاصة الكتب التاريخية، وتراجم أبرز زعماء الغرب ومفكريه[٢]، مما أسهم في تفتيح الأذهان على الفكر الغربي، والوقوف منه موقفًا معجبًا حذرًا، وانتقائيًا.

---

(١) ينتهي نسب السيد رفاعة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وُلد في طهطا من صعيد مصر سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م، ولما تُوفي والده جاء رفاعة إلى القاهرة، وانتظم في سلك الطلبة بالجامع الأزهر سنةَ ١٢٢٣/ ١٨٠٨م، وجاهد في المطالعة والدرس حتى صار من طبقة العلماء الأعلام، وكان في جلة مشايخه الشيخ حسنُ العطار شيخ الجامع الأزهر، وعُين سنة ١٢٤٠/ ١٨٢٥م إماما في بعض فرق الجيش المصري، وأرسله محمد علي باشا لأول بعثة أُرسلت إلى فرنسا سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م (راجع ترجمته مفصلة عند جرجي زيدان: **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٢، ٢/ ٢٧-٣٥، ألبرت حوراني: **الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩م**، دار النهار للنشر، بيروت، ترجمة كريم عزقول، ١٩٦٨م، ص ٩١-٩٢).

(٢) راجع ذكر أبرز ما ترجمه أو أشرف على ترجمته عند ألبرت حوراني: المرجع السابق ص ٩٤.

لقد ضمَّن خلاصة رحلته إلى فرنسا في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الذي نشره سنة ١٨٣٤م، ولا يخفي إعجابه فيه بكثير من مناهج الفكر، وطباع البشر، وطرق الحياة في فرنسا، مع تذييل يورده بين الحين والآخر معبرًا عن أمله في وصول بلاده إلى مثل ما يراه من رقي وتقدم.

وينبغي ابتداءً أن نضع كتاب الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" موضعه الصحيح في فكر الرجل، وفي تصنيف المكتبة التاريخية، فالكتاب ينتمي إلى أدب الرحلات، وهو فرع أدبي قديم، يصف فيه صاحبه ما رآه في البلاد التي زارها، وبالأخص ما يثير عجبه منها، وقد يعلق على بعض ما يراه معجبًا، أو متعجبًا، أو معترضًا ناقدًا، مما يعطي بعض الدلالة على ملامح تفكيره ورؤيته.. وقد يَعجَب من بعض ما يراه، ويسجله في كتابه، فيظن المتعجلون أنه مُعجب به، ولا يفرق بين التعجب والإعجاب، وهذا ما نراه في كتاب الطهطاوي.

لكن التصور الكامل لرؤيته وفكره نراها حين نضم ما كتبه في ذلك الكتاب إلى ما دوَّنه في كتبه الأخرى، وهي أدخل في محال بيان الفكر من كتب الرحلات التي ينتمي إليها "تخليص الإبريز"، فمما كتبه في بيان موقفه من المرجعية الإسلامية للأمة كتابه "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية". ومما كتبه لبيان موقفه من المرأة كتابه "المرشد الأمين في تربية البنات والبنين".

لقد تعرض الطهطاوي إلى حملة معادية افتقدت إلى القراءة الحصيفة لتراثه، فليس صحيحًا أنه كان أحد أئمة التغريب، وليس صحيحًا أنه "دعا إلى تحرير المرأة، أي إلى السفور، وإلى الاختلاط، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس"[١]، وأنه سعى إلى نقل المسلمين إلى نقطة ارتكاز جديدة غير الإسلام هي الحضارة الغربية[٢].

(١) محمد قطب: **واقعنا المعاصر**، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٧م، ص ١٩٥.

(٢) محمد قطب: السابق ص ١٩٦.

أما فيما يخص رؤيته لتراث الأمة وعقيدتها، وصلاحية الإسلام لقيادتها، فله تعبيرات في كتاب "تخليص الإبريز" أثارت انتقاد بعض مفكرينا، حيث عقد فصلاً تحت عنوان "في تدبير الدولة الفرنسية"؛ امتدح فيه الدستور والقانون الفرنسي[١]، "وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسوله"، ولكن عقولهم قادتهم إلى ما أصلح شؤونهم[٢]. فأدى ذلك إلى قول د. محمد حسين: "وبذلك مهّد الطهطاوي من حيث يدري، أو لا يدري؛ لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل على قصوره، وعلى مخالطة الشهوات له"[٣].. مع أن كلام الطهطاوي يمكن فهمه على أنه تأكيد لجعل الله عَزَّوَجَلَّ قيم العدل والنصفة مركوزة في فطرة الإنسان، يجتهد في الوصول إليها، وإن لم يعرف شريعة الله.

فالطهطاوي يعبر في كتابات أخرى بجلاء عن انحيازه للشريعة ووجوب تعلمها[٤]، وأنه لا دوام للملك، ولا بقاء للسلطنة بدونها[٥]، "ولا يسوغ لمتولي الأحكام أن يحكم بما يخالف "الأوضاع الشرعية المنقولة عن الأئمة المجتهدين"[٦]. وأنه لا خير في هجر شريعة الله[٧].

وينتقد في "تخليص الإبريز" بقوة عقائد الفرنسيين وعاداتهم، فهم "لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم، ولم يسلكوا سبيل النجاة. ولم يرشدوا إلى الدين الحق، ومنهج الصدق"[٨]..

---

(١) **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٢م، ص ١٠٣.

(٢) السابق ص ١٠٥.

(٣) د. محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص ٣١.

(٤) **مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية** ص ٥١، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٤.

(٥) **المرشد الأمين في تربية البنات والبنين**، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة، ط١، سنة ١٢٩٢هـ، ص ١٠٣.

(٦) المرشد الأمين ص ١٢٣.

(٧) السابق ص ١١٨، وانظر ص ١٢٣.

(٨) تخليص الإبريز ص ١٥.

"ولهم بعض اعتقادات فلسفية، خارجة عن قانون العقل، بالنسبة لغيرهم من الأمم.. ولهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية"[١].. ومن عقائدهم القبيحة قولهم: إن عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها، ولهم كثير من العقائد الشنيعة كإنكار بعضهم القضاء والقدر[٢].. والفرنسيون" على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم"[٣]، وبالرغم مما وصلوا إليه من الرقي العقلي، فإن بلاد الإفرنج "مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات"[٤].

ويقرر الطهطاوي منذ بدء كتابه "تخليص الإبريز" تصوره الإسلامي الذي يقسم العالم إلى دار إسلام ودار كفر، وأنه ذاهب في رحلته إلى فرنسا "التي هي ديار كفر وعناد، وبعيدة عنّا غاية الابتعاد" [٥].

ويعرض الطهطاوي للدستور الفرنسي؛ فيقارب بينه وبين قيم الإسلام في العدل والحرية.. ويقف معجبًا بمادته الأولى التي تقول: "سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة"، وأن "الدعوى الشرعية تقام على المَلِك، وينفذ عليه الحكم كغيره... وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف"[٦].

وقد أفرد صفحات عديدة في كتابه للحديث عن الرعاية الاجتماعية للفقراء والمعوزين في فرنسا متمنيًا مثلها في بلاده[٧].

---

(١) السابق ص ١٧٧.
(٢) السابق ص ٨٩.
(٣) السابق ص.١٧٣
(٤) السابق ص ٨٩ وانظر في تقد أوضاع كنائسهم ص ١٧٤-١٧٥.
(٥) السابق ص ١٣.
(٦) تلخيص الإبريز ص ١١٣.
(٧) تخليص الإبريز الفصل العاشر ص ١٦٣، وانظر ص ١١٤.

ويطيل الطهطاوي الحديث عن العلم في فرنسا، وعن شغف أهلها له، "فكل إنسان له خزنة كتب، سواء الغني أو الفقير؛ حيث إن سائر العامة يكتبون ويقرؤون"[١]، ويتحدث عن اهتمام علمائهم بالثقافة العامة، والتخصص الدقيق في فرع من فروع العلم، وتحدث عن مراتب العلم عندهم، ونوع المدارس والجامعات والأكاديميات، وما يدرس فيها.. وهو في ذلك يبدو معجبًا إعجابًا ممتزجًا بالتحسر على ضعف هذه الجوانب في بلاده، وتوقه إلى الأخذ بها[٢].

ولذلك يجعل من واجبات الحكام حض الرعية على طلب العلم[٣]، غير أنه لا يبعد عن حضارته الإسلامية، فيجعل تعلم العلوم الشرعية أهم تلك العلوم، "والاشتغال بها أوجب للحاجة إليها، والاضطرار إلى معرفة الحلال والحرام، وإقامة الحدود والأحكام، ولهذا كان أهلها أفضل من غيرهم"[٤].. ويؤكد أهمية دور علماء الشريعة[٥]، ولغة العرب وآدابها[٦]، ويقرر "ثبوت فضل العرب على غيرهم بالتواتر في أغلب الصفات الحميدة"[٧].

موقفه من المرأة:

وليس صحيحًا القول بأن الطهطاوي قد شغله ذكر مراقص باريس، وكأنه لم يُعنَ إلا بذلك، فهو لم يذكر ذلك إلا لغرابته عما اعتاده في بلاده؛ على ما يجري عليه أصحاب كتب الرحلات في ذكر الغرائب التي يلقونها في تسفارهم، ولا شك أنه يعبر عن قناعة

(١) السابق ص ١٢٢.
(٢) السابق الفصل الثالث عشر.
(٣) الطهطاوي: المرشد الأمين ص ٨٨-٨٩.
(٤) المرشد الأمين ص ٧١-٧٢.
(٥) مناهج ألألباب ص ٥١.
(٦) السابق ص ٩٤.
(٧) السابق ص ١٣٠.

الفرنسيين وعاداتهم، لا قناعته هو، وذلك ما يستفاد من قوله: "ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس، وكأنه نوع من العياقة والشلبنة؛ لا من الفسق؛ فلذلك كان دائمًا غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتهييجِ الشهوات، وأما في باريس فإنه نمط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا...وبالجملة فمس المرأة – أيّا ما كانت – في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى"[١].

ولا يخطئ الناظر في كتابه تعبيرات متعددة تنم عن استرسال في ذكر جمال المرأة الفرنسية، والتحرر الذي نالته[٢]، لكنه ينتقد "قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم. وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة؛ بمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة"[٣]، بل إن "الرجال عندهم عبيد النساء، وتحت أمرهن؛ سواء كن جميلات؛ أم لا"[٤].

وفي ذات الوقت يمتدح عقل المرأة الفرنسية، وثقافتها، حيث يقول: "فإن للنساء تآليف عظيمة، ومنهن مترجِمات للكتب من لغة إلى أخرى، مع حسن العبارات، وسبكها، وجودتها، ومنهن من يُتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغرَبة"[٥].

وهو يطالب بقوة بتعليم المرأة في بلاده، ويحاجُّ بقوة القائلين بخلافه، "فإن هذا مما يزيدهن أدبًا وعقلاً، ويجعلهن بالمعارف أهلاً"[٦]. لكنه في نفس الوقت لا يغفل أهمية ألا يذهب تعليمها بخصوصيتها وحيائها، فيقول: "فاللائق بمن يربي البنات ويتعهد بشؤونهن أن يتركهن على حيائهن الذي هو زينتهن، فلا تمسه التربية بمحو ولا تخفيف"[٧].

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٣٧.

(٢) السابق ص ٩٠.

(٣) السابق ص ٨٨، ومثل ذلك رآه أحمد فارس الشدياق حين زار باريس وعايش أهلها (**الساق على الساق**، نشر باريس سنة ١٨٥٥م، ص ٣٧١.

(٤) تخليص الإبريز ص ٨٧.

(٥) السابق ص ١٠٠.

(٦) الطهطاوي: المرشد الأمين في تربية البنات والبنين ص٦٦.

(٧) السابق ص٤٩.

ويجيز عمل المرأة "عند اقتضاء الحال"، " فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل"[١].. وبالرغم من ذلك سيظل الغالب على النساء "ملازمة البيوت"[٢]، ويجب أن يحترم الرجال والنساء اختلاف طبائعهم، "فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يخلق النساء لمغالبة الرجال، ولا للآراء والسياسات، فالرجال قوامون عليهن، ولا عكس"[٣].. ولعل وجه عدم تولية النساء القضاء والإمامة والمناصب العامة كونهن عورة، لا يقدرن على مخالطة الرجال في الوفاء بفروض المناصب العمومية"[٤].

ورأى أن الإسلام ندب إلى اقتصار الرجل على زوجة واحدة، "من غير حاجة ظاهرة[٥]، وأن الله أباح تعدد الزوجات "لطفًا منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على خلقه؛ خشية أن تتجاوز بهم الرغبة، لكن بشرط العدل بين الزوجات"[٦].

مآخذ على الطهطاوي:

وبالرغم من ذلك لم يغُضْ الطهطاوي في أسباب الفجوة الحضارية بين الشرق والغرب، وطرق جَسْرها، والتوفيق بين الأخذ من الغرب والحفاظ على الأصالة والهوية، ولم يبدُ مقنعًا في موقفه البارد من الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م الذي حدث في أثناء وجوده في فرنسا، وما صاحبه وتبعه من مجازر ومآسٍ[٧]، وقد نفى أن يكون وراء

(١) السابق ص ٦٦.
(٢) السابق ص ٥٤.
(٣) السابق ص٥٥.
(٤) السابق ص ١٠٥، وراجع ص ١٢٠.
(٥) المرشد الأمين ص ١٣٨.
(٦) السابق ص ١٤٨.
(٧) راجع د. عبد الوهاب المسيري: **الهوية والحركية الإسلامية**، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٩م، ص٥٩.

هذه الحروب غرض ديني، أو أن يكون انتصار فرنسا انتصارًا للملة المسيحية على الملة الإسلامية، وقال إن "الحرب بين الفرنساوية وأهالي الجزائر إنما هو مجرد أمور سياسية، ومشاحنات تجارات ومعاملاتية، ومشاجرات ومجادلات، منشؤها التكبر والتعاظم"[١].

كما أن الرجل الذي قدم ترجمة للدستور الفرنسي؛ مظهرًا إعجابه بأصالة الحرية والمساواة وسلطة الشعب فيه؛ ظل قريبًا من محمد علي باشا بما صبغ تاريخه من استبداد وقهر، وهو يمتدحه غاية المديح، ويقرر أنه باعث نهضة البلاد، ويعدد أفضاله، وينعته بأنه "محيي مصر"[٢]، وأنه "وحيد زمانه في جميع أوصافه، وفريد أوانه؛ في عدلِه وإنصافه"[٣].

- موقف خير الدين التونسي من التغريب:

وفي فترة تالية سافر المفكر والسياسي خير الدين التونسي (١٨٢٠ -١٨٩٠م)[٤] إلى باريس بين سنتي (١٨٥٣ -١٨٥٧م) في مهمة أوفده إليها باي تونس، فلما عاد تولى

(١) تخليص الإبريز ص ٢٥٤.

(٢) مناهج الألباب المصرية ص ١٧٩.

(٣) راجع مناهج الألباب المصرية ص ٢٠٧.

(٤) مفكر وسياسي جركسي الأصل، اختُطف وبيع رقيقًا في تركيا، وانتقل منها إلى تونس صغيرًا، فاتصل بصاحبها الباي أحمد، وتعلم العلوم الدينية، واللغات التركية والفارسية والعربية، ثم التحق بوظائف الحكومة، ولما عاد من فرنسا ولي وزيرًا للبحرية في تونس، حيث أسهم في الإصلاحات السياسية هناك، ثم استقال من مناصبه السياسية، وتفرغ لتأليف كتابه "أقوم المسالك" ثم عاد إلى العمل السياسي فتولى منصب الوزير الأكبر(رئيس الوزراء) سنة ١٨٧٣م وظل به أربع سنوات، فقدم لبلاده إصلاحات اقتصادية وإدارية وتعليمية جمّة، فلما استقال من وزارته طلبه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ليفيد من خبرته الإصلاحية، فعينه صدرًا أعظم للدولة سنة ١٨٧٨، لكنه سرعان ما استقال في العام التالي بعد أن فشل في إقناع السلطان بخططه الإصلاحية، لكنه ظل عضوًا في مجلس الأعيان العثماني حتى وفاته سنة ١٨٩٠ (راجع محمد محفوظ: **تراجم المؤلفين التونسيين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٤م، ٢/ ٢٧١-٢٧٨، عمر رضا كحالة: **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت)، ٤/ ١٣٣.

منصب الوزير الأكبر في تونس، ثم ولي منصب الصدر الأعظم في الدولة العثمانية، أي إنه اضطلع بفرصة تنفيذ ما رآه من مناهج الإصلاح، لكنه في كلتا الحالتين تقدم باستقالته لأنه أدرك صعوبة تحقيق ذلك.

وقد أودع خير الدين رؤاه الإصلاحية في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" الذي طبع سنة ١٨٦٨م، وبخاصة في مقدمة الكتاب، وهو ينطلق من أن "الشريعة الإسلامية كافلة بمصالح الدارين، وضرورة أن التنظيم الدنيوي أساس متين لاستقامة نظام الدين"، ولكن الخلل الذي يصيب الأمة يأتي من عجز علماء الدين، حيث أصبح بعضهم "مُعرِضين عن استكشاف الحوادث الداخلية، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خليَّة". وكذلك بعض رجال السياسة الذين يدركون مواطن الخلل؛ لكنهم يتجاهلون إصلاحها "رغبة في إطلاق الرئاسة"[١]؛ أي استمرار تمتعهم بحظوتهم ومكانتهم.

ولذلك يرى أن السبيل لإحداث نهضة في العالم الإسلامي هو دراسة أحوال الأمم الأخرى، وبخاصة أوروبا، ومعرفة ما اتخذته من وسائل أوصلتها إلى "ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، وأن **نتخير منها** ما كان بحالنا لائقًا، ولنصوص شريعتنا مساعدًا وموافقًا، عسى أن نسترجع ما أُخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا"[٢].

وذكر خير الدين أن الباعث على تأليف كتابه أمران: الأول: إغراء العلماء بالتماس أسباب نهوض الأمة، والثاني: "تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يُحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتقش قي عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يُهجر.... وشأن الناقد البصير

(١) خير الدين التونسي: **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠٢٢م، ص٨.
(٢) التونسي: السابق ص ٨-٩.

تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه؛ قولاً كان أو فعلاً، فإن وجده صوابًا قِبله واتَّبعه، سواءٌ كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم، فليس بالرجال يُعرف الحق، بل بالحق تُعرف الرجال، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها"[1].

ويضرب خير الدين أمثلة للفارق الحضاري في الفكر والإنتاج بيننا وبين العالم المتقدم، فقد تحولت بلادنا إلى سوق لزراعة ما تحتاج مصانع الغرب، ليبيع لنا ما تنتجه بأضعاف أثمان ما اشتراه منا، وإذا زاد الاستيراد وقل الإنتاج والتصدير كان الخراب، "وأما الخلل السياسي فإن احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها... ولا سبب لما ذكرناه إلا تقدم الإفرنج في المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية"[2].

ويسوق الأدلة من الشريعة على وجوب الاستعداد للأخطار بمثل ما عند العدو، ثم يتساءل: "هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد المشار إليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا؟ وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تَنظيمات سياسية، تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسس على دعامتي العدل والحرية اللذين هما أصلان في شريعتنا؟ ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك."[3].

ويفتح خير الدين أبواب الأمل في الإصلاح حيث يذكر أحوال أوروبا قبل نهضتها، وكيف كانت غاية في التوحش والجهل، فلما أدركت أسباب القوة، وتدرجت في الأخذ بها نالت ما هي فيه من رفعة وتمدن، ولم يكن تقدمها بسبب كثرة ثرواتها الطبيعية، فكثير من أمم الأرض أعظم منها ثراء وغنى، ولا بسبب ديانتها النصرانية، فالنصرانية "لا تتداخل

(١) السابق ص ١١-١٢.
(٢) السابق ١٢-١٣.
(٣) السابق ص ١٣.

في التصرفات السياسية؛ لأنها تأسست على التبتل والزهد في الدنيا"، "وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات **بالتنظيمات** المؤسسة على العدل السياسي، وتسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة، ومِلاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم، وقد جرت عادة الله في بلاده أن العدل وحسن التدبير والتراتيب المحفوظة؛ من أسباب نمو الأموال والأنفس والثمرات، وبضدها يقع النقص في جميع ما ذُكر كما هو معلوم من شريعتنا والتواريخ الإسلامية وغيرها"[١].

"وقد كانت الأمة الإسلامية وقت احترامها للأصول الشرعية، بالمكانة التامة من الثروة والشوكة المحروستين بسياج حُسن تدبير أمرائها، وعدلهمِ، واستجلابهم رضا الله تعالى بتعمير أرضه"، ويفرد خير الدين صفحات من كتابه لاستعراض عطاءات المسلمين الحضارية للعالم[٢].

واستمرت صدارة المسلمين حتى استحكم الضعف في الدولة أواخر عهد العثمانيين، من فساد الأمراء والولاة، وتدخل الدول الأجنبية، وإعانتها الأقليات الدينية في الدولة العثمانية، وتعدد الحروب الأهلية، فأراد السلطان محمود ومن جاء بعده إصلاح الأحوال، ففتحوا الباب للإفادة من خبرات أوروبا، ونظمها السياسية والعسكرية والإدارية، فتصاعدت المعارضة لسياساتهم، بحجة مخالفتها أحكام السياسة الشرعية، فأوضح العلماء للرعية خطأ ظنونهم، وصواب هذه الإصلاحات، وأنه "من تأملها بعين الإنصاف لم يجد في حسنها ولياقتها مثار خلاف، بل جزم بأنها قوام الاستقامة، والوسيلة التي يستعاد بها ما كان للدولة من العز والفخامة"[٣].

---

(١) السابق ص ١٣-١٤.

(٢) السابق ٢١-٢٨.

(٣) السابق ص ٣١.

ومن موضوعية خير الدين أنه لم يرد المجازفة بالقطع بصوابية محاولات الإصلاح هذه، فقال: "ونحن وإن لم نطلع على أحوال إدارة المملكة العثمانية في الحال، لا سيما في كيفية إجراء تلك التنظيمات اطلاعًا يمكننا معه معرفة صحة الأسباب التي يتظلم منها الفريق المذكور؛ أو عدم صحتها، فإنَّا نسلم أن هذا المطلب الذي طلبوه هو من أعظم الوسائل في حفظ نظام الدول، وقوة شوكتها، ونمو عمران ممالكها، ورفاهية رعاياها، خصوصًا في هذه الأزمان"[١].

غير أن محاولات الإصلاح هذه تعرضت لمعوقات حقيقية، من أهمها تعدد الأعراق والقوميات والديانات في الدولة العثمانية، ونفور بعضها من بعض، وصعوبة إعطاء بعضها الحرية التي ينشدها دون بعض، أو تأسيس مجلس نيابي يضم جميع فعاليات الدولة، ويمثل قواها، "فمن اعتبر ما أشرنا إليه لا يسوغ له أن يوجه اللوم على الدولة في توقفها إلى الآن عن إعطاء الحرية المطلقة؛ وتأسيس المجلس المذكور، وإن كان ما ذكرناه لا يرفع عنها وجوب الاجتهاد في قطع تلك العوائق"[٢].

وبذا يبين فهم خير الدين بضرورة تعاضد الإصلاح العام المنشود بالإصلاح السياسي، وإن التمس الأعذار لصعوبة تحقيق الإصلاح السياسي الشامل في عصره بسبب تفاقم المشكلات الداخلية فيها.

لم يشر خير الدين في هذا الاقتباس إلى اشتداد الأخطار الخارجية على الدولة، لكنه أشار إليه في موضع آخر قريب، حيث رأى أنه من تلك المعوقات موقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية، وهو موقف لا يقدم الإصلاحات مجانًا، بل مغموسة بتحريض الأقليات وإثارة التحزبات، بل إن بعض الدول الأوروبية تحرض رعايا الدولة على رفض تلكم الإصلاحات حتى لا يتحقق لها انبعاث ولا نهوض[٣].

---

(١) السابق ص ٣١.

(٢) السابق ص ٣٢.

(٣) راجع السابق ص ٣٤.

وعلى ذلك فالمعوَّل عليه في الإصلاح فريقان: العلماء والأمراء، "فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر، والعلماءُ يطبقون العملَ بمقتضاها على أصول الشريعة"، "ومخالطة العلماء لرجال السياسة - بقصد التعاضد على المقصد المذكور- من أهم الواجبات شرعًا لعموم المصلحة".. فينبغي إنهاء الفصام بين العلم الشرعي وسياسة الخلق، إذ يجب على العالم بالشرع معرفة واقع الحياة، كما يجب على السياسي الانقياد للشريعة، وألا يصادم كلياتها ومبادئها[1].

ب) مواقف أخرى لاتجاه التوفيق:

- في الدولة العثمانية:

من هؤلاء المفكرين والأدباء ضياء باشا Ziya Paşa (١٨٢٥ -١٨٨٠م) "أحد أصوات الحداثة العثمانية الأكثر إشكالية" - على حد تعبير المستشرق بول دومون - "إذ "يستمد جانبًا مهمًا من إلهامه من الفكر الصوفي، ويبدي نزعة محافظة دينية وثقافية"، "ويحس تمامًا بأكبر قدر من الارتياب في النماذج الواردة من الغرب، ويتميز - من جهة أخرى - بوصفه أحد المدافعين الأكثر تحمسًا عن الأفكار الجديدة"، وقد مارس تأثيرًا كبيرًا من خلال نشاطه الأدبي والصحفي[2].

وفي الحق إنه لا إشكالية عند ضياء باشا بين محافظته ورؤيته الإسلامية؛ ورغبته في تحديث بلاده، والإفادة من حضارة الغرب، "إذ إن لكل حضارة عبقريتها الخاصة بها"، فهو يعتز بقيمه الدينية كما عرفها، وينظر بتوجس إلى المناداة بالمساواة مع أتباع الديانات الأخرى، ويرفض غزو المجتمعات الإسلامية بالتقاليد الغربية، ويقول: "نسينا ولاءنا

(١) السابق ص ٣٥.

(٢) دومون: السابق ٢/ ٧٤.

الديني في جميع شؤوننا، واتبعنا أفكار الفرنجة الغالبة حاليًا"، ولا يرى تعارضًا بين قيمه الإسلامية وتحقيق الحرية والعدالة من خلال مؤسسات الديمقراطية التي عرفها الغرب، والتي اتبعتها جميع الدول الحرة، ولا بأس عنده في الأخذ بتلك الإصلاحات على نحو متدرج؛ لا يودي بدولة متعددة القوميات والديانات مثل الدولة العثمانية[1].

وشاركه في نشاطه **نامق كمال** (١٨٤٠ -١٨٨٨) الصحفيّ والأديب الذي دافع بقوة عن حقوق الإنسان، وحرية الفرد، والنظام الدستوري، حتى وصفه بعضهم بأنه كان "حواري فكرتين: الحرية والوطن"، حيث قدم للقارئ العثماني هاتين الفكرتين من خلال سلسلة طويلة من الكتابات الأدبية والسياسية "ولكن بصورة تتلاءم مع التقاليد والمواقف الإسلامية[2]، ووصفه آخر بأنه "حاول لبرلة الإسلام" (أي جعله ليبراليًا تحرريًا)، وقد كان وفيًا لموروثات الإسلام عنده، رابطًا بين الحرية المنشودة والمؤسسات النيابية وبين الشورى في الإسلام[3].

وقال عنه برنارد لويس بأنه "على الرغم من وطنيته المتوقدة وليبراليته كان نامق كمال مسلمًا مخلصًا ومتفانيًا.. فإنه يعتبر إسلاميًا بقدر ما هو عثماني". وكان يرى أن تخلف المسلمين "لم يكن بسبب أي عيب متأصل في الإسلام ذاته، ولكن بسبب هيمنة الغرب الذي حرم الشرق من أية فرصة للنهوض الذاتي، إن الدولة الإسلامية كان لا بد لها من تحديث نفسها، ولكنها في سبيل ذلك لا ينبغي أن تقلد بشكل خانع أوروبا، وتتخلى عن قوانينها الخاصة، على العكس من ذلك... فكل ما هو أفضل في الحضارة الأوروبية مشتق من الحضارة الإسلامية الكلاسيكية، والمسلم في تبنيه هذه الأمور يعود إلى ما كان أعمق

(١) برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ١٧٧-١٧٨.
(٢) لويس: السابق ص١٧٨.
(٣) دومون: السابق ص ٢/ ٧٦.

وأكثر أصالة في التقاليد الخاصة به".. وقد وجه انتقادات حادة إلى معاصريه الساعين إلى الأخذ بالنظم الغربية "لفشلهم في حماية أفضل ما تبقى من التقاليد الإسلامية القديمة، والحفاظ عليها"، وكان من المتحمسين لفكرة الجامعة الإسلامية أو الوحدة القومية الإسلامية، التي تتكيف مع الحضارة الحديثة، ليخلق ميزانًا قويًا شرقيًا ليواجه به أوروبا[1].

جمعت أمور كثيرة بين الرجلين: ضياء ونامق، فقد كانا أديبين كبيرن، وصحفيين، وسياسيين عارضا الحكومة أحيانا، ووافقاها، وتوليا الوظائف، ونالا الأعطيات أحيانا، وكان جل ما اعتنيا به من الحضارة الغربية تلك القيم المؤثرة في نظمه السياسية، والتي رأيا أن الدولة العثمانية في حاجة إليها لتستقيم أمورها، وتجتاز محنة تأخرها.

ويبرز الشاعر والمفكر **محمد عاكف** (١٨٧٣ -١٩٣٦م)، ضمن اتجاه التوفيق بين الأصيل والوافد، وقد نشأ نشأة إسلامية، وأُسند إليه سنة ١٩٠٨م تدريس الأدب العربي وأصول الترجمة بين العربية والتركية في جامعة إسطنبول، وشارك في إصدار مجلة "الصراط المستقيم" التي نشر فيها أكثر أعماله الأدبية والفكرية، وتأثر بأفكار الأفغاني ومحمد عبده، وانتسب فترة إلى جمعية الاتحاد والترقي، منجذبًا إلى شعاراتها، ثم ما لبث أن اكتشف الفجوة بين الشعارات والعمل، ففترت علاقته بها، وأشعاره وكتاباته تنمُّ عن روح إسلامية صادقة، وانتخب عضوا في البرلمان التركي (١٩٢٠ -١٩٢٣م)، وألف نشيد الاستقلال التركي سنة ١٩٢١م الذي يفيض اعتزازا بتاريخ بلاده، ثم توالت الصدمات عليه بعد القضاء على الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م، واختار أن يلجأ إلى مصر سنة ١٩٢٥م، حيث قضى بها نحو عشر سنوات، مدرسًا للأدب التركي في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد)، متواصلاً مع مفكريها وعلمائها، ثم عاد إلى بلاده سنة ١٩٣٥م، ليموت بعدها بعام واحد[2].

---

(١) لويس: السابق ص ١٨٠-١٨١.

(٢) راجع مادة "محمد عاكف" في ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تم الاطلاع عليها بتاريخ ٦/ ٦/ ٢٠٢٢.

كان عاكف يرى أنه يجب الاعتماد على روح الإسلام التقدمية، والنموذج الذي يجب الاقتداء به هو اليابان التي نجحت في تبني العلوم والتقنيات الغربية دون أن تفقد مع ذلك روحها، وكان – ومن معه – يرون أن انحطاط البلاد الإسلامية لا يرجع إلى الإسلام نفسه، بل إلى الشكل الفاسد الذي انتهي إليه بسبب البدع والتقليد، وتأثير الطرق الصوفية، لقد أسفر ذلك عن إسلام يتعارض مع التفكير العلمي، ويتميز بالعجز عن التطور والتكيف مع العالم الحديث، ولإنقاذ المجتمعات الإسلامية من التأخر تلزم العودة إلى الإسلام الصحيح، وإلى الاجتهاد؛ لاستعادة دين يتمشى مع العقل، قادر على تبني العلوم الجديدة، والتي استعارتها أوروبا في الواقع من المسلمين فيما مضى[1].

أما **بديع الزمان النورسي** (١٨٧٦- ١٩٦٠م) الذي عاصر أشد الفترات انصياعًا للحضارة الأوروبية في تركيا بعد إسقاط الخلافة العثمانية، فيطالب دعاة هذه الحضارة بالاعتراف بأنها ليس نتاجًا خالصًا للعصر، بل نتيجة تراكم معرفي على مدى عصور كان للمسلمين فيه دور وعطاء، يقول: "ينبغي ألا ننكر أن في المدنية محاسن كثيرة، إلاّ أنها ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم، وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحث الشرائع السماوية؛ ولا سيما الشريعة المحمدية، وحاجة الفطرة البشرية، فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي أحدثه الإسلام، لذا لا يتملكها أحد من الناس"[2].

واستمر في نهج التحذير من الرضوخ للوافد الحضاري بغير وعي، ووجوب التفريق بين ما يُنتفع به من منجزاتها العلمية دون جانبها الفلسفي القيمي؛ فيقول: "لا بد أن ننبه أن أوروبا اثنتان: إحداهما هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة،

---

(١) دومون: السابق ٢/ ٢٦١.

(٢) النورسي. **الكلمات**. كليات رسائل النور. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول، ط ٣،،سنة ١٩٩٨ م، ص ٨٥٨- ٨٥٩.

وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب في هذه المحاورة هذا القسم من أوروبا، وإنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الحسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة، وأردتها الضلالة والتعاسة... يا أوروبا الثانية! اعلمي جيدًا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة؛ وبشمالك المدنية المضرة السفيهة؛ ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شُلت يمينك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون"[1].

- **في مصر والهند:**

وفي هذه الفترة ظهر السيد **جمال الدين الأفغاني** وتلاميذه، وعلى رأسهم الشيخ **محمد عبده**، ومما يُحمد للرجلين جهودهما في مقاومة الاستعمار البريطاني، ولا شك أن الاستعمار من أقبح صور التغريب، وأنه أوسع أبوابه، لكن الذي يثير الاستغراب أن جمال الدين الأفغاني اشتد في حملته على الاحتلال البريطاني، في حين لم يشر إلى الاستعمار الفرنسي للجزائر، ولا الاستعمار الهولندي لإندونيسيا.

وأما تلميذه محمد عبده فقد أيد ثورة أحمد عرابي في مصر، ونفي بعدها إلى الشام، فلما عاد أثار لدى معاصريه تساؤلات محرجة حول علاقته الوطيدة باللورد كرومر المندوب البريطاني في مصر الذي كان دائم المديح له والاستعانة به، والذي ترقى محمد عبده بدعمه وتأييده إلى أن أصبح مفتيًا للديار المصرية.

كما أن صلات الرجلين بالماسونية ألقت ظلالاً من الشك حول عمق رؤيتهما لخطر الأفكار الوافدة، وكان يجب على مثلهما الحذر منها، وإن تخفت، وتدسست إلى غيرهما، وانخدع بها جماعة من الفضلاء، بل لم تخفَ عليهما عند تدقيق النظر في آثارهما، مثلما سنرى في مبحث الماسونية.

---

(١) النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، إستانبول، ط٦، سنة ٢٠١١، ص ١٦٢.

كما أن صلاتهما بالجاسوس الداهية البريطاني بلانت – الذي دعا منذ وقت مبكر إلى الثورة على الخلافة العثمانية وتنصيب شريف مكة خليفة – يظل موقفًا مريبًا[١].

وبالرغم من ذلك فإن للرجلين آراء تحذر من الانقياد غير البصير إلى الحضارة الغربية، فالأفغاني يقول: وإن الظهور بمظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم... ولا ضرورة – في إيجاد المنعة – إلى اجتماع الوسائط؛ وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا مُلجِئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوروبي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك"[٢]..

وينتقد الأفغاني افتتاح العثمانيين والمصريين مدارس على النمط الأوروبي الحديث، وإرسالهم البعثات إلى أوروبا ليطلبوا العلم هناك، ويرى أن التعليم الحديث في أوروبا يعد تمدنًا لأنه نشأ فيها نشأة طبيعية متدرجة، أما في بلادنا فلم يُجد نفعًا؛ رغم السير به مدة غير قصيرة، كما ينتقد ظهور أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية وما شاكلها، ويسمون أنفسهم زعماء الحرية، ومنهم آخرون ساروا على نهج الغرب في حياتهم الاجتماعية؛ في مآكلهم ومشاربهم ومساكنهم، "وتنافسوا في استيراد ذلك والمفاخرة به، فأفقروا اقتصادهم لصالح الغرب، "وهذا جدع لأنف الأمة، يشوه وجهها، ويحط شأنها، وقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة؛ المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم"[٣].

---

(١) راجع د. محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، الفصل الثالث.

(٢) مجلة **العروة الوثقى لا انفصام بها**، حققها وضبط نصها وعلق عليها عبد الرحمن أبو ذكري، تنوير للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٢١م، ص ١٠٨.

(٣) محمد عمارة: **فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين**، نشر جمعية المركز العالمي للتوثيق والدراسات والتربية الإسلامية، (د. ت) ص ٣٠-٣١.

وينتقد الأفغاني إقبال المسلمين على الفلسفة اليونانية؛ وتركهم العلوم الأوروبية، مع قلة حاجتهم إلى الأولى؛ وعظم حاجتهم إلى الثانية، وكونهما معًا ينتميان إلى الغرب.. فهم يقبلون على فلسفة أرسطو؛ "وكأنما هو قطب من أقطاب الإسلام"، ومع ذلك "إذا جاء ذكر جاليليو ونيوتن وكبلر قالوا: هؤلاء كفار"، ثم يقول: وأولئك الذين يحرمون العلم والمعرفة؛ معتقدين بذلك أنهم يصونون الدين الإسلامي؛ هم في الواقع أعداء ذلك الدين"[1].

أما محمد عبده فيقول: "أنفس المصريين أُشربت الانقياد إلى الدين، حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب صلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا تنبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه"[2].

وقد صرف محمد عبده جل عنايته إلى تطوير التعليم والتربية، وقدم لائحة بتصوره في هذه الناحية إلى السلطان العثماني أثناء فترة نفيه في الشام، وقد راعه الدور الخطير الذي يتم من خلال التعليم الأجنبي والإرساليات التنصيرية هناك، مما قاد إلى استنفار الطائفية عند النصارى بمذاهبهم المتعددة، وعند الشيعة من نصيرية ودروز، ولما تحدث عن آثار تغريب التعليم التي عانى منها أهل السنة نبَّه إلى أحد أهم تلك الآثار؛ وهو تنفير الناس من الجهاد في سبيل الله، مما انعكس على موقفهم من خوض الحروب العثمانية، حيث آثر كثيرون الفرار بعد أن كانوا غزاة مغاوير قبل وصول التغريب إليهم، "وما كان خمود الحمية في نفوسهم إلا لضعف العقيدة بمخالطة الأوروبيين، وإهمال التعليم المذهبي (يقصد السنّي)"[3].

---

(١) د.محمد عمارة: **جمال الدين الأفغاني المفترى عليه**، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٤، ص ١٠٧.

(٢) محمد عبده: **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٣، ٣/ ١١٣.

(٣) محمد عبده: السابق ٣/ ١٠٣.

وفي النصف الأول من القرن العشرين برز أحد أكابر نقَدة الحضارة الغربية من الموهوبين الذين درسوا هذه الحضارة بعمق، وعاشوا في بلادها، وتلقوا أكبر شهادات من جامعاتها، وشهد له أهلها بالنبوغ والقدرة، وهو شاعر الإسلام **محمد إقبال** (١٨٧٧-١٩٣٨م)، وقد أدرك علل هذه الحضارة، ومضى يحذر منها، ومن علمانيتها التي يسكن في أعصابها النفَس الصليبي، فقال: "وفي رأيي أن العلمانية هي موت للضمير، وخسة وافتراء من إبليس، صارت سياسة الغرب كشيطان بلا قيود، بعد أن تحرر أهله من حكم الكنيسة، وعندما تقع أنظارهم على متاع الغير؛ فإن سفير الكنيسة يكون في طليعة الجيش"[١].

ويقول:" ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتنًا، وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الروح تموت عطشًا في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب، بل تنزع القلب من القالب، إنها لص قد تمرن على اللصوصية؛ فيُغِيرُ نهارًا جهارًا، وإنها تدع الإنسان لا روح فيه، ولا قيمة له"[٢].

وإن الشرقي المفتون بهذه الحضارة قد تجرد من حقيقته، ففقد قيمته حين انقاد لهذا الهيكل الميت الخالي من الروح، يقول إقبال في نظر فلسفي عميق: يتجلى الغرب في صورة وجودك، وأنت هناك من أجل تعمير البناء المتهدم، لكن هذا الهيكل الترابي يخلو من الذات، أنت غِمْد مُذهَّب فقط بلا سيف، لديك شك في وجود الله، ولديَّ شكٌ في وجودك، ما الوجود؟ إنه تجلي جوهر الذات وحسب، وأنت لا يتجلى فيك جوهر فكرك"[٣]!!

---

(١) ديوان **ضرب الكليم** ص ١٣٦.

(٢) الندوي: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ص ٨٢، نقلًا عن ديوانه "ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق؟

(٣) ديوان ضرب الكليم ص ٤١-٤٢.

ومضى يبشر بزوالها بعدما خالفت فطرة الإنسان وسنن الحق، ويشير إلى دور اليهود في صناعتها والقضاء عليها، فقال:" إنها حضارة شابة - بحداثة سنِّها، والحيوية الكامنة فيها- ولكنها مُحتَضَرة تعاني سكرات الموت، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر، وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة في ذلك، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار، ولا يُستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود"(١).

والحضارة التي على شفا الموت لا تهب الحياة للمخدوعين فيها، وقد آن لهم أن يتحرروا من ربقة الإعجاب المريض بها، يقول إقبال: "العيون التي عميت بالتقليد والعبودية لا يمكن لها أن تدرك الحقائق بلا حجاب، كيف يعيش العرب والفرس وهذه الحضارة الغربية ذاتها على حافة القبر؟"(٢).

وبرزت تلك الرؤية التي تجتهد في الجمع بين خيري الحضارتين الإنسانيتين في المدرسة الحركية الدعوية، وبين أجيال من شباب الإسلام وشيوخه، فيذكر **الإمام حسن البنا** حجج الرافضين حضارة الغرب، والداعين إليها، المفتونين بها، ثم يقول: " ولا شك أن كلا الفريقين قد تطرف، وأن الأمر في حاجة إلى دراسة أعمق وأدق، وإلى حكم أعدل وأقرب إلى الإنصاف والصواب"، ثم يذكر فضل منجزات الحضارة الغربية على العالم، وأن "هذه الحقائق لا يكابر فيها إلا جاهل أو معاند"، وأنه يجب الإفادة منها، ثم يذكر عوارها فيقول: "... هذه الحياة المادية الميكانيكية البحتة - مع ما صحبها من خصومة حادة بين علماء الدنيا وحراس الدين - قد أغفلت هذه الأمم عن أخص خصائصها الإنسانية في الإنسان... ودفعت بها دفعًا عنيفًا إلى التبرم بالعقائد والأديان، والخروج عليها خروجًا قاسيًا شديدًا، وإقصائها إقصاء تامًّا عن كل نواحي الحياة الاجتماعية العملية...

(١) الندوي: السابق ص ٨٢-٨٣.

(٢) ديوان ضرب الكليم ص٧٠.

ونجم عن ذلك أن تحطمت الفضائل في نفوس الأفراد، وتهدمت الروابط بين الأسر، وفسدت الصلات بين الأمم، وصارت القوة – لا العدالة – شريعة الحياة، واندلعت نيران هذه الحرب (يعني الحرب العالمية الثانية)، فتذوق جمرَها المحاربون والآمنون على السواء. وقد أدرك هذه الحقيقة أخيرًا ساسة الأمم الغربية أنفسهم فهبوا ينادون بوجوب العناية بالشؤون الروحية، ويتغنون بالمثل الخلقية العليا، ويهيبون بالحكومات أن تصبغ المدارس ومناهج التعليم والتربية بعد الحرب بهذه الصبغة، وأن تعود بالشعوب إلى الأديان والعقائد الموروثة"[1].

(١) حسن البنا: "**الأمة العربية بين حضارتين**" مقال بمجلة الإخوان المسلمين، العدد (٥٥)، السنة الثانية، ٣ ربيع ثان ١٣٦٤/ ١٧ مارس ١٩٤٥م، ص (١٢)..

الفصل الثاني

المخاطر السياسية على العالم الإسلامي

المبحث الأول

إسقاط الخلافة العثمانية

لم تتوقف المشاريع الغربية لإسقاط الدولة العثمانية منذ بروزها قوة يُحسب حسابها، ويُخشى بأسها وطموحها، وبخاصة بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.

ومن الكتب التي تناولت هذه المشاريع بالتفصيل كتاب "مئة مشروع لتقسيم تركيا" من تأليف "ت. ج. دجوفارا"، أحد وزراء رومانيا، والمبعوث فوق العادة إلى العاصمة العثمانية، وقد ظهرت في باريس النسخة الأولى منه سنة ١٩١٤، وقد عرض السيد شكيب أرسلان هذه المحاولات وذلك الكتاب ضمن تعليقاته على كتاب حاضر العالم الإسلامي للكاتب لوثروب ستودارد[1]. ويتضح من هذه المحاولات المئة أنها لم تستهدف فقط الدولة العثمانية؛ بل العالم الإسلامي كله، حيث تمتد هذه المشاريع ما بين عاميْ ١٢٨١ و١٩١٣م، بينما لم تظهر الدولة العثمانية ألا حوالي عام ١٢٩٩م.

وأثمرت هذه المشاريع المتتالية- مع الغزو الفكري المزوَّق بألوان الخداع والمخاتلة- أن بدأ الوهن يسري في أوصال الدولة العثمانية، وفي أعصابها.

وقد رأينا تسلل الفكر الغربي العلماني إلى عقول جماعات من مثقفي الدولة العثمانية الذين درسوا في الغرب، أو درّس لهم الأساتذة الغربيون في داخل الدولة، أو زاروا أوروبا

---

(١) لوثروب ستودارد: **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة عجاج نويهض، وضع حواشيه وتعليقاته شكيب أرسلان، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، ٣/ ٢٠٨-٣٤٢، وطُبع الكتاب طبعة مستقلة تحت عنوان: "**التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي؟ تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ١٢٨١-١٩١٣م**"، وعلق عليه وقدم له محمد العبده، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٥م.

واختلطوا بمثقفيها، وانبهروا بتقدمها المادي الصاخب، ومن بين هؤلاء لفيف من نصارى الأقليات الأرمن واليونان وغيرهم..

وبينما كانت أنجم هؤلاء في صعود دائم كانت النظرة إلى مؤسسات الدولة القديمة ونخبها العلمية والإدارية التقليدية تتجه إلى التشكك والاستصغار والتهميش.

وكانت القوميات تجد من يشعل أوارها، ويغذي أحقادها من القوى الغربية، ومن القوميين الأتراك المتعصبين، أو مناوئيهم من العرب والأكراد والفرس.

وكانت الضغوط الغربية على الخلفاء والساسة العثمانيين تتصاعد، سواء في جوانبها السياسية والمالية، حيث تعاظمت الديون، واشتدت المراقبة المالية والتدخل الاقتصادي، أو في نواحيها العسكرية، حيث كانت أطراف الدولة تتآكل وتنتقص في شمال الأناضول وشرقيه، وفي غرب الروملي؛ في البلقان وبلغاريا واليونان.. أو في البلاد الإسلامية في إفريقيا وآسيا، حيث سقطت مصر وشمالي إفريقية في براثن الاستعمار البريطاني والفرنسي.

حتى اشتهرت تسمية الدولة العثمانية بالرجل المريض، وكان ذلك تعبيرًا عن الحقيقة المؤلمة في هذه الحقبة التاريخية.

وقد كان من وصايا نابليون التي تركها لكليبر نائبه في حملته على مصر سنة ١٧٩٩م: "تركيا لم تعد دولة، بل مجموعة من الولايات المستقلة".. "إن الدولة العثمانية تنهار"[١].

وصرح اللورد كلارندون Clarendon وزير الخارجية البريطانية سنة ١٨٦٥ بأن "الطريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيين هي بإزالتهم من على سطح الأرض تمامًا"[٢].

---

(١) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص ٥١.

(٢) إسماعيل ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ص١٥٩.

الدعاية لمبدأ الجامعة الإسلامية يطيل عمر الخلافة:

غير أننا ينبغي ألا نغفل عما كانت تمثله تلك الدولة المريضة من قوة روحية يحسب لها أعداؤها حسابًا كبيرًا، ولم يكن السلطان عبد الحميد واهمًا حين قال: "وجود الخلافة في يدي كان يجعل الإنجليز يعيشون دائمًا في دوامة الاضطراب"[(١)].

وفي هذه الأجواء التي تزايدت فيها الأخطار المحدقة بالخلافة كانت دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية تجد أنصارًا يتزايدون.. فقد تزايد عدد الصحف التي تدعو إلى الجامعة الإسلامية تزايدا ظاهرا، حيث كانت في سنة ١٩٠٠ لا يزيد عن ١٠٠ صحيفة، ثم بلغ عددها سنة ١٩٠٦ خمس مئة صحيفة، ثم زاد في سنة ١٩١٤ عن ألف صحيفة؛ بحسب إحصاء لوثروب ستودارد في كتابه حاضر العالم الإسلامي[(٢)].

تشابك القوى التي أسقطت عبد الحميد والخلافة:

كانت نشأة **جمعية الاتحاد والترقي** سنة ١٨٨٩م علامة فارقة في الطريق إلى إسقاط الخلافة في تركيا، بعدما أصبحت الفصيل الأول في حركة تركيا الفتاة الأوسع انتشارًا[(٣)]، وكان فرعها الأكثر نشاطًا في سلانيك[(٤)]، وهي مدينة كانت تقع في غرب الدولة العثمانية، ويقطنها غالبية من اليهود، حيث كان عدد سكانها حوالي ١٤٠ ألفًا، يبلغ عدد اليهود منهم

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٤٧.

(٢) د. محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص ٤٣-٤٤

(٣) محمد روحي بك الخالدي: **أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة**، مكتبة المنار، القاهرة، ١٣٢٦هـ ص ١٢٢

(٤) تقع في الشمال الغربي من بحر إيجة، على بعد ٥٠٠ كم من أثينا عاصمة اليونان، وحوالي ٢٥٠ كم من إسطنبول، تنازلت عنها الدولة العثمانية مضطرة إلى اليونان سنة ١٩١٣م (د. أحمد نوري النعيمي: **اليهود والدولة العثمانية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٧م، ص ٣٠)

نحو ١٠٠ ألف، ٢٠٪ منهم من يهود الدونمة، وهم يهود ذوو أصول إسبانية تظاهروا بالإسلام[١]، وهم ماسونيون، قد حصل معظمهم على الجنسية الإيطالية[٢]..

وكانت تلك التمازجات الماسونية واليهودية والجنسية الإيطالية تخلق أجواء نموذجية للعمل السري الذي استجمع أسباب النجاح، فكونهم يتمتعون بالجنسية الإيطالية جعلهم في أمان من القبض عليهم، أو تفتيش مساكنهم، طبقًا للامتيازات الأجنبية والمعاهدات، وضمان ألا يحاكموا إلا أمام محاكمهم القنصلية، وكونهم ماسون مكنهم من ضمان سرية تنظيمهم، وكانوا يهودًا لديهم المال، قادرين على التواصل مع أهم اللاجئين السياسيين في المنفى، ومنفتحين على التيارات الفكرية العلمانية في الغرب الأوروبي[٣].

"وكان الآمر الناهي في الاتحاديين ثلاثة أشخاص: جاويد (من يهود الدونمة) وطلعت (ماسوني) وقراصو (من يهود الدونمة)"[٤].

---

(١) تعني كلمة (دونمة) المرتدين، وهي طائفة يهودية ظهرت في مدينة إزمير بتركيا في القرن السادس عشر الميلادي، وهم من اليهود الذين فروا من الاضطهاد الكاثوليكي ومحاكم التفتيش الإسبانية بعد إسقاط الحكم الإسلامي في الأندلس، وآوتهم الدولة العثمانية، تظاهر أصحابها بالإسلام، وهم يضمرون الاستمرار في اعتقاد اليهودية، وممارسة شعائرها سرًا في معابدهم، وقد علت مكانتها الاقتصادية والسياسية في المجتمع والدولة، ويعرفون أيضًا باسم السبتمائية، نسبة إلى مؤسسهم سبتاي بن زيفي (شبتاي بن صبي بحسب المصادر العبرانية) الذي ظهر في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م) واعتقدوا أنه مخلصهم والمسيح المنتظر الذي سينهي معاناة اليهود، ويعود بهم إلى الأرض المقدسة في فلسطين، وقد حكم علماء اليهود بكفره لضلال معتقده، وتأكد العثمانيون من خطره، فجرت محاكمته، وفر من حكم الإعدام بادعاء الإسلام، وتبعه أتباعه، وهم يضمرون عقائدهم (راجع د. هدى درويش: حقيقة يهود الدونمة في تركيا، وثائق جديدة ص٧-٩، ١٣-٢٣).

(٢) من رسالة أرسلها السير جيرارد لاونز السفير البريطاني في اسطنبول إلى وزير خارجيته شارل هاردينغ في ٢٩ أيار سنة ١٩٧٤م، راجع نص الوثيقة المهمة في أورخان محمد علي: **السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عصره**، مكتبة الأسرة العربية، ط١، سنة ٢٠١٩م، ص ٤٢٤-٤٢٥، وراجع د. أحمد عبد الحميد مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، سنة ١٩٨٦م، ص ٢٦٤-٣٦٥.

(٣) راجع أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق ص ٢٦٥.

(٤) د. رضا نور: **أتاتورك ورفاقه ونهاية العثمانيين (مذكرات رضا تور)**، تحرير وتعليق د. أحمد عبد الوهاب=

لقد حاول السلطان عبد الحميد استيعاب معارضتهم، واحتواءهم، وكان أحيانًا يبذل لهم المساعدات المالية، ويغض الطرف عما يصل إليهم منها، حتى لا يزداد سقوطهم أمام الإغراءات الأوروبية، ويقول: "إن معارضتهم - رغم خطئها - يجب أن تظل شريفة"[١]، غير أن محافل الماسونية -على حد قوله -"جعلت من هؤلاء المتسكعين أعلامًا"[٢].

ضرر تدخل الجيش في السياسة:

قال السلطان عبد الحميد في مذكراته: "ليتنا كنا استطعنا إبعاد الجيش عن السياسة"[٣]... وذكر دور الجيش في إسقاط عمه السلطان عبد العزيز، ثم مراد، ثم عبد الحميد نفسه، بينما لم يستطع الانتصار في ميدان الحرب الذي هو ميدانه الأصلي، فانهزم أمام الروس، وانهزم في البلقان، ثم قال بأسى: "ولو فقدنا اليوم وطننا فذلك يرجع إلى ذات السبب أيضًا" [٤]؛ يعني تدخل الجيش في العمل السياسي.

سوء أحوال البعثات العثمانية إلى الخارج:

وتحدث السلطان عبد الحميد عن عوامل إسقاط حكمه، فذكر من بينها أن بعض الشباب كان يذهب إلى أوروبا ثم يعود منبهرًا برقص النساء وشرب الخمر- غافلاً عما سافر من أجله وهو العناية بالعلوم الغربية.. وبعضهم عاد يتحدث عن الثورة على الحكومة، ويحض عليها، بعدما انبهر بالثورة الفرنسية، ولم يدرس أسبابها[٥].

= الشرقاوي، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٢٠، ص٩٥.

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٣٢.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٣٤.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٨٠.

(٤) السابق والصفحة نفسها، وانظر ص ٢٤٨.

(٥) السابق ١٨٢-١٨٣.

كانت الأطماع الخارجية والهزائم القاسية التي واجهها السلطان عبد الحميد منذ بداية حكمه[1]، وخطر الانتفاضات القومية الانفصالية، مع ضعف كفاءة الجهاز الإداري للدولة، وانشغال كثير من كبرائه بمصالحهم الخاصة على حساب مصالح الدولة، وهيمنة التصورات العلمانية الغربية على طائفة مهمة من المثقفين الذين تتهيأ أمامهم سبل الارتقاء السياسي والاجتماعي، وتفشي المؤامرات السياسية، ومنها تلك التي أودت بعمه عبد العزيز، "كان كل ذلك مما أقنع السلطان أنه لا يمكن تحقيق إدارة فعالة إلا عن طريق مركزية السلطة"[2].

وقد أدت به هذه الرؤية وذلك التوجس إلى إيقاف العمل بالمشروطية الأولى (دستور ١٨٧٦)، بعد عامين من إقرارها، أي سنة ١٨٧٨م، ومعارضة العودة إليه لما ازدادت المطالبة بذلك، مع إيمانه بوجوب الحرية السياسية (والديمقراطية)، ويعبر عن ذلك بقوله: "إن الأمة لم تكن قد وصلت بعد إلى الحالة الضرورية من الرشد"[3]، ويعني بالرشد هنا تبني الرؤية الإسلامية والجامعة الإسلامية التي تحفظ كيان الخلافة والدولة مترامية الأطراف، متعددة القوميات، والتي تحوطها المؤامرات الغربية والأخطار الخارجية من كل جانب.

الأحداث التي سبقت عزل عبد الحميد:

كانت القوى المطالبة بإعادة المشروطية تزداد قوة، وبخاصة بعد نجاح الاتحاد والترقي في اختراق وحدات الجيش في سلانيك في الجزء الأوروبي، وبناء تحالف سياسي واسع

(١) فُرضت عليه معاهدة سان استيفانو سنة ١٨٧٨ وقضت باستقلال إمارة الجبل الأسود، وضم بعض أراضي البوسنة إليها، واستقلال صربيا، ورومانيا، وضمت روسيا بعض الأراضي في آسيا، كما قضت بالاستقلال الذاتي لبلغاريا الكبرى التي ستمتد مساحتها من نهر الدانوب إلى بحر إيجة.. ويلاحظ أن بعض البنود السابقة لم ينفذ بسبب صراعات الدول الأوروبية وتنافر أطماعها في الدولة العثمانية (أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٤٤).

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٤٠-٢٤١.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٩٦.

يضم المطالبين باللامركزية - حتى لو كانوا من الأرمن الانفصاليين - والتائقين إلى إسقاط الخلافة؛ حتى لو كانوا من اليهود والصهاينة والملاحدة[١]..

وكان تردي الأوضاع الاقتصادية الذي تسبب فيه سوء الإنتاج الزراعي وتراجع عائدات الضرائب، قد أدى إلى تأخر صرف مرتبات الجيش، وتذمر الموظفين، أضف إلى ذلك نجاح إعلان الدستور في فارس سنة ١٩٠٥، وانتصار اليابان الديمقراطية على روسيا الاستبدادية ١٩٠٤-١٩٠٥، وإرغام قيصر روسيا على إعلان الدستور الروسي ودعوة البرلمان للانعقاد، مما كان يعني تفشي موجة من الدعاية للحريات السياسية بالنسبة لشعوب المحيط الإقليمي والدولي[٢].

وأخيرًا نجح الاتحاديون في إجبار الخليفة على إعادة الدستور من جديد، فيما عُرف بالمشروطية الثانية، وازداد تمكنهم في البلاد، وعينوا حكومة موالية لهم، في يوليو ١٩٠٨م، وبرزت مظاهر مجافية للدين من الاتحاديين، مما زاد مشاعر الغضب منهم، وتقرّر لدى الكثيرين أن الشريعة في خطر[٣]، مما قاد إلى رد فعل معاكس، حيث تجمع أنصار الخلافة والشريعة من الجند والعامة، وقرروا التظاهر في إستانبول، أمام قصر الخليفة، فيما عُرف بحادث ٣١ مارت، في ١٣ أبريل ١٩٠٩، وقتلوا في هذه الأجواء ضباطًا موالين للاتحاديين، وهاجموا مجلس المبعوثان (البرلمان)، وأحدثوا فوضى عارمة في استانبول، ونجحوا في عزل الحكومة الموالية للاتحاديين، وتولية حكومة جديدة، وفر الاتحاديون وأنصارهم إلى سلانيك وغيرها[٤].

---

(١) راجع شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية ٣٢٦-٣٣١.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) راجع د. رضا نور: أتاتورك ورفاقه ص ١٠٣-١٠٤.

(٤) شكيب أرسلان: المرجع السابق ص ٣٣٤-٣٣٦.

وفي أعقاب ذلك تحركت فرقة من الجيش؛ من الاتحاديين وأنصارهم، من سلانيك وأدرنة إلى إستانبول، ووقعت اشتباكات انتهت بسيطرة الاتحاديين على قصر الخليفة، وإجباره على التنازل عن الخلافة، وتولية أخيه محمد رشاد - باسم محمد الخامس - بدلاً منه، وتمت محاكمة المشاركين من أنصار الشريعة والخليفة المعزول، وأعدم سبعون منهم، وسُجن مئات آخرون[١].

أما الخليفة الذي رضي بقدره، واستجاب لقرار عزله؛ فظل معتزًا بموقفه في هذه الأحداث، حيث لم يضرب فرق الجيش بعضها ببعض؛ وقد انقسمت بين مؤيد له وثائر عليه، كما لم يلجأ إلى طلب الحماية من أية دولة أجنبية في وقت كانت أوروبا منقسمة على نفسها، وبين دولها من يرحب بتقديم العون له؛ ربما مقابل شيء من التنازلات[٢].

دور اليهود في عزل عبد الحميد:

عُزل عبد الحميد على نحو مهين، وكان الوفد الذي أبلغه قرار العزل يضم المحامي الصهيوني قراصو الذي فاوضه من قبل ليقبل بيع أراضي فلسطين لليهود، فأبى، والآن جاء دور شماتته فيه.. ثم نفوه إلى سلانيك التي تعج باليهود والمعادين له، بل كانت إقامته في قصر كان يمتلكه رجل يهودي[٣]، ثم أجبروه على التنازل عن جميع ما يملك[٤].

---

(١) راجع مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٨٥-١٩٤، د. رضا نور: السابق ١٠٤-١١٠.

(٢) راجع مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٩٨-١٩٩.

(٣) بحسب رواية السلطان وابنته الأميرة شادية فإنه - في الفترة الأولى لاعتقاله - كان ينام على كرسيين متجاورين، وكان أولاده ينامون على أسرَّة ووسائد من القش بغير غطاء، ويأكلون رديء الطعام بأيديهم، بغير ملاعق أو شوك، ويشربون المياه من الصنبور بغير أكواب.. وتغسل ابنته ثيابها، ثم تنتظر عارية حتى تجف لتلبسها، وتحرم العائلة كلها من الشمس والهواء الخارجي، وتعيش في أجواء معادية، وسط احتمالات الاغتيال، وقد حدثت إحدى هذه المحاولات لاغتيال للسلطان (راجع مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٢١١-٢١٥).

(٤) السابق ص ٢٢١-٢٣٢.

مغامرة الاتحاد والترقي بخوض الحرب العالمية ونتائجها:

دخل الاتحاديون الحرب العالمية الأولى متحالفين مع ألمانيا ضد الحلفاء - بريطانيا وفرنسا وروسيا- بغير إعداد ولا طاقة، وكانت حجتهم أنه لا يمكنهم الحياد مع دخول الروس -عدوهم اللدود- في حلف مع بريطانيا وفرنسا، وأنه -حتى ذلك الوقت- لم تُعرف أطماع لألمانيا في الدولة العثمانية، وكانت علاقة وزير الحربية المغامر أنور باشا وثيقة بالألمان، منذ عمل ملحقًا عسكريًا في برلين، وقد تغلغل نفوذهم في الدولة العثمانية والجيش، ووقع أنور باشا اتفاقًا سريًا مع الألمان، يقضي بشن الحرب على روسيا، لم يعلم به رفيقاه في القيادة والجيش - طلعت باشا، وجمال باشا، ولم يعلم به سوى أربعة وزراء، فاضطروا إلى الموافقة عليه بعد إبرامه، وهو ضرب من المغامرة الخطيرة لدولة تشكو من المشكلات المستعصية التي كانت الدولة العثمانية تعانيها، وبذلك دخلت الحرب العالمية مع الطرف الخاسر فيها[1].

لقد لقيت البلاد هزيمة نكراء، وتقدمت روسيا في أراضي الدولة، وسقطت البلقان، وتمددت اليونان في أراضي العثمانيين، وحاصر الأسطولان البريطاني والفرنسي سواحل البسفور والدردنيل، وقُدر لهما أن يلقيا هزيمة كاملة، فدُمر معظم الأسطولين، لكن القوات البريطانية والفرنسية دخلتا إسطنبول، ودخلت قواتهما مع القوات الإيطالية واليونانية الأناضول، وقبل ذلك سقطت ليبيا في قبضة إيطاليا سنة ١٩١١م.

وكان لا بد من تغيير جوهري في موازين القوة في الدولة، فهرب زعماء الاتحاديين المهزومون، وتم فرض هدنة مودروز في ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨م، وبمقتضاها تم استسلام القوات العثمانية دون قيد أو شرط، وانسحابها من الأراضي الواقعة خارج تركيا، وتسريح الجيش، واحتلال مضيقي البوسفور والدردنيل بواسطة قوات الحلفاء، وأن يكون لهم

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ٢٨٥-٢٨٨.

الحق في احتلال أي أراضي عثمانية يرون فيها خطرًا عليهم، مع إعادة أسرى الحرب من المواطنين التابعين لدول الحلفاء دون أية شروط، وإبقاء أسري الحرب العثمانيين تحت تصرف الحلفاء[1].

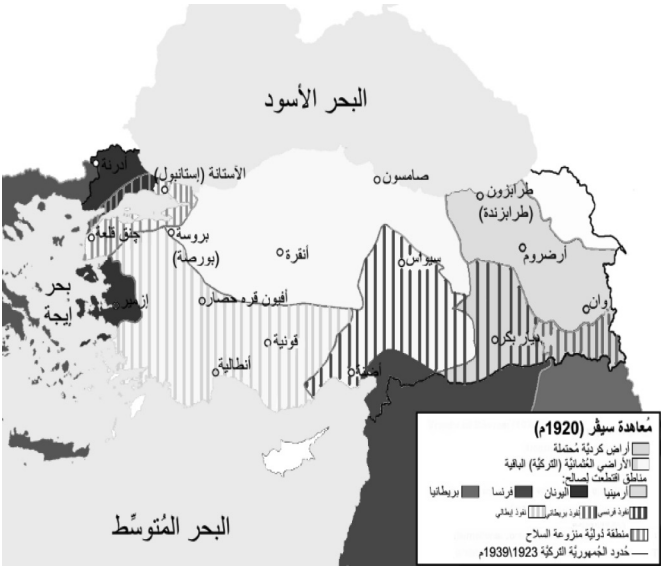

وأظهر نصارى الأرمن واليونان شماتة كاملة، كما عبروا بأقصى ما يستطيعون عن سعادتهم بهزيمة المسلمين، إلى حد أن قدم اليونانيون جوادًا أبيض ليمتطيه دون سرج القائد الفرنسي فرنشيه دسيراي وهو يدخل إسطنبول منتصرًا، كما فعل محمد الفاتح حين دخل القسطنطينية سنة ١٤٥٣، وجرت للمسلمين مذابح كثيرة أمام أنظار جيوش الحلفاء دون أدنى حماية منهم[2].

ظلت هدنة مودروز سارية دون أن تتحول إلى معاهدة صلح بسبب تضارب مصالح الحلفاء المنتصرين، حتى تم توقيع معاهدة سيفر في فرنسا في ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ مع الحكومة العثمانية، التي أصبحت أسيرة في أيدي الحلفاء المنتصرين، وتقضي المعاهدة باعتبار سورية وفلسطين والعراق دولاً مستقلة تُدار من قبل حكومات الانتداب التي تعينها عصبة الأمم، وتتنازل الدولة العثمانية عن كل شمال إفريقية، وعن مصر وقبرص

(١) راجع السابق ص ٢٩٢-٢٩٣.
(٢) السابق ص ٢٩٤.

لبريطانيا، وتعترف باستقلال أرمينية، وتضم إليها جزءًا كبيرًا من شرق الأناضول، وتتنازل الدولة عن تراقيا الشرقية لليونان؛ بما في ذلك أدرنة، وتخضع أزمير والمناطق المحيطة بها لإدارة اليونان مدة ٥ سنوات يحق للسكان بعدها أن يطالبوا بالانضمام لليونان، وتقر الدولة العثمانية باستيلاء اليونان على جزر بحر إيجة، واستيلاء إيطاليا على الجزر الاثنتي عشرة وهي جزر الدوديكانيز الواقعة على مقربة من الساحل الجنوبي الغربي لتركيا، وتمنح حرية الملاحة البحرية لكل الدول في المياه التركية، أما القوات المسلحة التركية فتصبح مجرد قوة شرطة، ويخضع الاقتصاد التركي لرقابة لجنة من دول الحلفاء[١].

حركة المقاومة على يد أتاتورك وتداعياتها:

وإزاء هذه الأوضاع المذلة - التي زادتها ممارسات اليونانيين بعد احتلالهم إزمير، وتفنن أهلها ذوي الأصول اليونانية في إذلال المسلمين بها[٢] - تزايدت المقاومة الشعبية للعثمانيين في الأناضول، ثم ما لبثت أن انتظمت فيما عُرف بحرب الاستقلال منذ سنة ١٩١٩م[٣]، التي قادها مصطفى كمال، ثم أعلن الحلفاء رسميًا احتلالهم استانبول، وهاجموا المجلس النيابي فيها، واعتقلوا أعضاءه، أو نفَوهم، وبالتالي أصبح مصطفى كمال هو الرأس المعبر عن الدولة في الأناضول، وتم تشكيل حكومة جديدة في أنقرة، ومجلس نيابي جديد بها باسم المجلس الوطني الكبير في ١٩ مارس ١٩٢٠م انتخب مصطفى كمال رئيسًا له[٤].. وفي السنة التالية قرر المجلس الوطني الكبير عدم الاعتراف

(١) راجع أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ٢٩٥-٢٩٦، ومادة (معاهدة سيفر) في ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق ص ٢٩٨.

(٣) راجع رضا نور: السابق ص ١٦٣-١٦٦.

(٤) رضا نور: السابق ص ١٩٨-١٩٩، ٢٠٢.

بمعاهدة سيفر وجميع المعاهدات والعقود والالتزامات التي توقعها حكومة إسطنبول الواقعة تحت سلطة الاحتلال[١].

وساعدت الأقدار الثوار الأتراك، إذ استقرت الأوضاع في روسيا بعد الثورة الشيوعية فيها ١٩١٧م، ورأى الشيوعيون الروس أهمية تقديم الدعم إلى حركة الاستقلال التركية لاشتراك الطرفين في العداء للاستعمار الغربي آنذاك، ورغبة الروس في جعل تركيا دولة عازلة قوية تحول دون الأطماع الغربية في جنوب روسيا في القوقاز، وكانت روسيا قبل ذلك أخطر أعداء الدولة العثمانية، ووقع الروس والأتراك معاهدة صداقة سنة ١٩٢١، وتدفقت المساعدات الروسية على الثوار الأتراك، وتعاون الطرفان في إسقاط جمهورية أرمينيا التي قامت في القوقاز، وتوالت الانتصارات على القوات اليونانية في إينونو ثم في سقاريا ١٩٢١، قررت بعدها فرنسا توقيع صلح منفرد مع حكومة أنقرة التركية في السنة نفسها، وفعل الإيطاليون الشيء نفسه؛ فانسحبوا من جنوبي الأناضول عدا جزر الدوديكانز، وقدم الفرنسيون والإيطاليون الأسلحة إلى الأتراك ليكملوا تحرير بلادهم، ودوَّى اسم مصطفى كمال في بلاد الإسلام على أنه البطل والمحرر، ومنقذ عالم الإسلام من خطر الغرب[٢]. وتغنى باسمه أحمد شوقي في قصيدة مشهورة له يشبهه فيها بخالد بن الوليد، ويقول:

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب[٣]

ثم فاجأ مصطفى كمال كثيرًا من الناس بأن أعلن الفصل بين الخلافة والسلطنة في أول نوفمبر١٩٢٢، فانتُزعت من الخليفة سلطة إدارة أمور البلاد، لتتولاها حكومة مصطفى

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق ص ٣٠٦.
(٢) المرجع السابق ٣٠٧-٣٠٩.
(٣) أحمد شوقي: **الشوقيات**، دار العودة، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٨م، ١/ ٥٩.

كمال في أنقرة، ونُفي آخر الخلفاء محمد وحيد الدين – محمد السادس – على ظهر باخرة بريطانية حيث عاش لاجئًا في إيطاليا حتى وفاته سنة ١٩٢٦، وتولى بعده ولي عهده عبد المجيد الثاني الخلافة – رمزًا دينيًا دون سلطات تنفيذية – بموافقة المجلس الوطني في أنقرة[١].

وبينما كانت الأحداث تتسارع على النحو السابق تم توقيع معاهدة لوزان (في سويسرا) في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٣م، تلك التي تعترف بحدود تركيا المعاصرة، مع تخليها عن الأراضي الواقعة خارج تلك الحدود، ومنها معظم تراقيا الشرقية، التي لم يبق لتركيا منها إلا ربعها (الأراضي الأوروبية من تركيا الحالية)، وقبرص، والموصل التي ضمتها بريطانيا إلى العراق، وجزر بحر إيجة التي ضمتها اليونان، (ويُستثنى منها مياهها المحيطة بها، وجزيرتا إمبروز وتنيدوس ذاتا الأهمية الاستراتيجية الواقعتان في مدخل مضيق الدردنيل) مع مد السيادة التركية إلى الإسكندرونة وأنطاكية، وفيما بعد توصلت تركيا واليونان إلى تبادل السكان؛ فينتقل النصارى من الأراضي التركية إلى اليونان، والمسلمون الموجودون في اليونان إلى تركيا[٢].

وبالرغم من مضي قرابة مئة عام على توقيع اتفاقية لوزان فإنها ما زالت تمثل إحساسًا بالمرارة في حلوق أحرار تركيا، فمنذ عدة سنوات، خلال لقائه بالمخاتير (الحكام

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق ص٣١٠.
(٢) راجع السابق ٣١٠-٣١١.

المحليين) الأتراك، تحدَّث الرئيس التركي رجب طيب أردوغان عن معاهدة لوزان أنها تُمثِّل جرحا عميقا في الذاكرة التاريخية التركية، وأنها قلّصت جغرافيًّا خريطة الدولة التركية، وألزمتها بالتنازل عن ٨٠٪ من مساحتها، وقال أردوغان حرفيا في هذا السياق: "هناك مَن يريد إقناعنا بأن معاهدة لوزان كانت انتصارا لتركيا وللأتراك.. هدّدونا بمعاهدة سيفر في عام ١٩٢٠، ليجعلونا نقبل معاهدة لوزان في عام ١٩٢٣... لقد لوّحوا لنا بالموت لنقبل بالعاهة الدائمة" [١]..

لم تنسَ إذن تركيا حتى هذه اللحظة أن معاهدة لوزان كانت بمنزلة عقوبة عليها كطرف مهزوم في الحرب العالمية الأولى.

إعلان قيام الجمهورية وإسقاط الخلافة:

وفي ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م قرر المجلس الوطني التركي دستورًا جديدًا للبلاد، نص على أن تركيا جمهورية، تستمد سلطتها من الشعب، وتم اختيار أتاتورك رئيسًا، وعصمت إينونو رئيسًا للوزراء، ثم جاءت الخطوة الأخيرة بإلغاء منصب الخلافة في٢٧ رجب ١٣٤٢هـ/ ٣ مارس ١٩٢٤م، ونفي أفراد الأسرة العثمانية خارج تركيا[٢].

نتائج إسقاط الخلافة العثمانية:

ترتب على إسقاط الدولة، والفصل بين الخلافة والسلطنة، ثم إنهاء الخلافة نتائج بعيدة المدى..

---

(١) راجع "**الانقضاض على معاهدة لوزان.. هل اقترب انهيار الاتفاقية التي أسست لظهور دول الشرق الأوسط؟**" تقرير بموقع الجزيرة، على الرابط أدناه، وقد تم الاطلاع عليه في ٣٠/ ٧/ ٢٠٢٢ الساعة ١٠,٠٠ صباحًا، على الرابط: https://2u.pw/UTrfJE .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: السابق ص ٣١٢-٣١٤.

فقد مثَّل ذلك صدمة نفسية هائلة لعامة المسلمين الذين ما طاف بخيال أكثرهم جموحًا أن يصحو ذات يوم وقد زالت خلافة الإسلام، وعبر عن تلك الصدمة أمير الشعراء أحمد شوقي بقوله مخاطبًا الخلافة الضائعة:

ضجَّت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواحِ

الهند والهة، ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحَّاح

والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافةَ ماحِ؟[1]

وعُد إسقاط الخلافة على **المستوى الفكري** انتصارًا للعلمانية، وهزيمة لفكرة الجامعة الإسلامية، بل لدعاة منظومة الإسلام السياسية القائمة على دور الدين في إقامة وقيادة الحكومة، ودور تلك الحكومة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به، وقد ظهر نتاج فكري يدافع عن منظومة الخلافة، ويتوجس من مآلات غيابها، من ذلك كتاب "الخلافة أو الإمامة العظمى" للسيد رشيد رضا، الذي صدر سنة ١٩٢٣م، وكتاب "النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة" لشيخ الإسلام مصطفى صبري، وصدر سنة ١٩٢٤م، بينما ظهر نتاج فكري مناوئ لنظام الخلافة، منه كتاب "الخلافة وسلطة الأمة"، وترجمه عن التركية عبد الغني سني بك، وصدر سنة ١٩٢٣م، أما مؤلف الكتاب فغير معروف، والمرجح أنه صدر عن المجلس الذي شكلته الحكومة التركية آنذاك من كبار العلماء؛ لتبرير تصرفها بالفصل بين الخلافة والحكومة، وانتهى إلى القول ببطلان الخلافة العثمانية شرعًا لمخالفتها الإسلام في طريقة حكمها البلاد[2].

ثم صدر كتاب علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" سنة ١٩٢٥م، وهو أكثر هذه الكتب إثارة لردود الأفعال، وإنكارًا من العلماء، ومن المؤسسة الدينية الرسمية

(١) الشوقيات ١/ ١٠٦.

(٢) راجع في عرض هذا النتاج الفكري وتقييمه د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/ ٥٥.

بمصر- الأزهر الشريف- وقد زعم الكتاب أن الإسلام في حقيقته دعوة دينية، لا شأن لها بالسياسة والحكم[1]، ومثلت الردود عليه محافظة الفكر الإسلامي السياسي على أصالته، ودفاعه عن حصونه، ومنها كتاب شيخ الأزهر وقتها محمد الخضر حسين "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" الصادر سنة ١٩٢٦، وكتاب مفتي الديار المصرية محمد بخيت المطيعي "حقيقة الإسلام وأصول الحكم" الذي صدر في السنة نفسها[2]، وغيرهما.

ومن الناحية الواقعية ارتاع العالم الإسلامي لذهاب النظام السياسي الإسلامي الذي لم يعرفوا غيره طوال تاريخهم، فتعالت الصيحات بوجوب تدارك الأمر، والنظر في مواجهة الخطر مواجهة واقعية، ترفض الاستسلام لما جرى، وكانت أعلى تلك الصيحات من الأزهر الشريف، بما يمثله من ثقل علمي، ومكانة عظمى في نفوس المسلمين، ومن مصر باعتبارها موطن الخلافة قبل انتقالها إلى آل عثمان، وهي صيحات تنكر ما حدث، وتدعو إلى استئناف الخلافة في موضع مناسب من بلاد العالم الإسلامي، وتداعى أنصار الفكرة إلى عقد مؤتمر إسلامي يجمع علماء الأمة وقادة الرأي فيها للتشاور فيما آلت إليه الأمور، وانعقد المؤتمر سنة ١٩٢٦، لكن اختلفت الآراء فيه حول شخص من يصلح للخلافة، بين من يزكي الملك فؤاد ملك مصر، ومن بايع بالفعل الشريف حسين بن علي، ومن يطالب بأمان الله ملك الأفغان، ومنهم من قال بجعل الخلافة في مصر، ومنهم من عارض ذلك لأنها تحت سيطرة الإنجليز، ودعا إلى جعل الخلافة في مكة المكرمة، وكانت قد آلت إلى آل سعود.. في خلاف عريض وأد الفكرة، وانتهى المؤتمر بعد انعقاده إلى أن الشروط الشرعية التي يجب توافرها في منصب الخلافة لا يمكن تحقيقها في الحالة التي

---

(١) راجع د. محمد البهي: **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، ط١٠، مكتبة وهبة، القاهرة (د.ت)، ص ٢٠٦-٢٢٧.

(٢) راجع د. محمد عمارة: **معركة الإسلام وأصول الحكم**، دار الشروق، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٩-١٠.

عليها المسلمون آنذاك[1]، فترجم بعجزه عن حقيقة ضعف العالم الإسلامي، وزعاماته، وقواه الفاعلة، وعن سيطرة الاستعمار الغربي على مصائر الأمة، وقيادتها إلى ما خطط له من فقدان خلافتها..

وتقلصت دولة تركيا إلى حدودها المعلومة الآن، وأصبحت اتفاقية سايكس بيكو أمرًا واقعًا، وانزاح عن الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي عبء مقاومة شرعية الخلافة التي تبسط سلطتها المعنوية على بلاد الإسلام، وأصبح على كل دولة أن تقاوم ذلك الاستعمار بمفردها، فلا الفرنسيون في الجزائر؛ ولا الإيطاليون في ليبيا، ولا الإنجليز في الهند ومصر؛ سيجدون من يقول لهم: هذا جزء من بلاد الخلافة.

وأصبح دور الجيوش الفاعل في السياسة- كما حدث في تركيا- سمة المرحلة التالية، حيث رأت تلك الجيوش أنها الطليعة القادرة على قيادة الجماهير وتغيير مسارها نحو واقع أفضل، تحدده طبيعة هذه الطليعة العسكرية نفسها.. وغدت الانقلابات العسكرية - بما تمتلكه من أدوات القوة القاهرة في التغيير الثوري - وسيلة التغيير الأثيرة لدى القوى المهيمنة على المنطقة.

كما أصبح النموذج الكمالي ملهمًا للنظم التي أعقبت نجاحه في تركيا، بما يمثله من علمانية مجافية للدين، ومواجهة للتيارات الفكرية والحركية الإسلامية، وكذا بما يمثله من توهج قومي، هو للقومية التركية هناك، وللعروبة في بلاد العرب، وللكرد في مناطقهم، وللفرس في إيران.. بل إن شخصية مصطفى كمال أتاتورك نفسه كانت قدوة لعدد من الحكام الثوريين، مثل رضا بهلوي في إيران[2]، وحسني الزعيم في سوريا[3]، وجمال عبد

(١) راجع د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/ ٤٧-٥٥.

(٢) د. آمال السبكي: **تاريخ إيران السياسي بين ثورتين ١٩٠٦-١٩٧٩**، سلسلة عالم المعرفة (٢٥٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ١٩٩٩م، ص٨٣، ٩٩-١٠٠.

(٣) د. بشير زين العابدين: **الجيش والسياسة في سوريا ١٩٧٨-٢٠٠٠م، دراسة نقدية**، ص ١٥١.

الناصر، وأنور السادات في مصر، الذي كان أبوه يضع صورة أتاتورك على جدران منزله، وكان السادات نفسه يقول عنه إنه "مثله الأعلى"[١]، وأنه قرأ بانبهار كتاب أرمسترونج "الذئب الأغبر مصطفى كمال"، ويشيد بإنجازاته العظيمة كما رآها[٢].

ويضيف صامويل هنتنجتون Samuel Huntington نتيجة أخرى لإسقاط دولة الخلافة، حيث يرى أن "نهاية الإمبراطورية العثمانية تركت الإسلام دون دولة مركز، وتم تقسيم أراضيها بين قوى غربية، وعندما انسحبت تلك القوى خلفت وراءها دولاً مؤسسة على نموذج غربي، بعيد كل البعد عن تقاليد وتراث الإسلام، وهكذا فإنه على مدى معظم القرن العشرين لم يكن لدى أية دولة إسلامية قوة كافية، ولا ثقافة كافية، ولا شرعية دينية للاضطلاع بهذا الدور لكي تصبح مقبولة من الدول الإسلامية، والمجتمعات غير الإسلامية؛ كزعيم للحضارة الإسلامية"[٣]، وترتب على غياب هذه الدولة المركز تفشي الصراعات الداخلية والخارجية في العالم الإسلامي[٤]، ويرى أن تركيا لا زالت الدولة المرشحة لتكون هي دولة المركز التي يتجمع حولها العالم الإسلامي، ويرجح هنتنجتون ذلك من بين ست دول هي: إندونيسيا والسعودية ومصر وباكستان وإيران وتركيا، ويشترط لذلك أن تعيد تركيا اكتشاف نفسها، وتتخلي عن علمانيتها، وتوجه بوصلتها صوب محيطها الطبيعي في العالم العربي والشرق الأوسط وآسيا الوسطى[٥].

---

(١) راجع أنيس منصور: **من أوراق السادات**، دار المعارف، القاهرة، ط٤، (د. ت)، ص١٦.

(٢) أنيس منصور: المرجع السابق ص ١٨-١٩.

(٣) صمويل هنتنجتون: **صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي**، ترجمة طلعت الشايب، ط٢، سطور، سنة ١٩٩٩، ص٢٨٩.

(٤) هنتنجتون: السابق والصفحة.

(٥) راجع السابق ص ٢٩٠-٢٩٢.

استمرار الآمال والجهود من أجل استعادة الخلافة الإسلامية:

وإذا كانت هذه رؤية بعض المفكرين الاستراتيجيين في الغرب فإن الأمل في استعادة الخلافة الإسلامية لم يبرح ضمائر كثير من الدعاة والعلماء والمفكرين المسلمين منذ سقطت حتى اليوم، وتعددت الرؤى لوسائل إعادة الخلافة المفقودة، فبينما لا تتجاوز التصرف العاطفي الهائج عند بعض التنظيمات الإسلامية التي ترى أن مجرد استيلائها على رقعة جغرافية وتحكيم مفاهيمهم عن الإسلام وشريعته فيها؛ يجعل منها خلافة واجبة الطاعة، يجب أن تُسل السيوف على من يعارضها، بالرغم من بناء واقعها نفسها على شفا جرف هارٍ من حقائق السياسة العالمية وواقع المسلمين، كما رأينا في "تنظيم الدولة الإسلامية (داعش).

ذهب دعاة آخرون إلى أن الطريق الأمثل لاستعادة الخلافة هو التثقيف الفكري الذي يصل إلى مرحلة تبني مشروع إعادتها، والدعوة إليه، كما هو الحال عند حزب التحرير الإسلامي الذي أسسه تقي الدين النبهاني الداعية الفلسطيني الأصل سنة ١٩٥٣م.

بينما يراه الإخوان المسلمون تتمة لجهد كبير تربوي ودعوي متواصل الحلقات، يبدأ ببناء الفرد، فالأسرة، فالمجتمع، فالدولة، فالكيان الدولي للأمة على أساس الإسلام، وعلى ذلك فهم "يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس منهاجهم، وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لابد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات: لابد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها، يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات، وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد،..... ثم يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية، حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين كان عنه الاجتماع على (الإمام) الذي هو واسطة العقد، ومجتمع الشمل، ومهوى الأفئدة..." [(١)].

(١) حسن البنا: رسالة المؤتمر الخامس ضمن "مجموعة رسائل الإمام البنا" ص ٢٨٤.

المبحث الثاني

تجزئة الدولة الإسلامية الواحدة

ظلت الدولة الإسلامية تجمع بين الوحدة والتعددية في واقعها السياسي منذ تأسيسها حتى سقوط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م، فكان المسلمون جميعًا يعرفون أنهم أبناء "دار الإسلام" الواحدة، وأن الإسلام وطن وجنسية، يقر بذلك من يعيش في شرقي بلاد التركستان ومن يحيا بأقصى الغرب الإسلامي على السواء، على الرغم من أن الانقسام في العالم الإسلامي وقع منذ النصف الأول من القرن الهجري الثاني لأسباب جيوسياسية، منذ استقلت الدولة الأموية في الأندلس عن الخلافة العباسية سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦م، ثم أصبحت خلافة أموية في قرطبة منذ سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م، تنازع الخلافة العباسية في بغداد، وقد سبقها في الظهور الخلافة العبيدية (الفاطمية) في شمال إفريقية سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، وبين هذه وتلك ظهرت دول مستقلة عديدة في مشرق العالم الإسلامي وغربه[١].

لم يحُل ذلك الانقسام دون شعور المسلمين بأنهم أمة واحدة، تنتمي إلى دار الإسلام، ويستطيع أحدهم أن يتنقل بين دولها وإماراتها وخلافاتها دون مانع، بالرغم من اشتعال الصراعات بينها في أوقات كثيرة بسبب الأطماع السياسية والمذهبية.

ولم تكن عوامل الانقسام والتفرق مقصورة على العالم الإسلامي، كما لم تكن جديدة عليه، فقد تعايش معها طوال تاريخه، وكانت عوامل التوحد بين أجزائه وقومياته وأقلياته أعمق بكثير من عوامل الانقسام التي لا تخلو منها دولة، ولا يبرأ منها عصر. فكانت العقيدة التي تجمع بين أتباعها على تباين قومياتهم؛ والشريعة التي تضمن العدالة بين أبناء الدولة وإن تعددت أقلياتهم، ومنظومة الأخلاق والقيم التي تؤلف بين أفراد الأمة مهما تناءت ديارهم؛ كانت كلها عوامل جامعة، تفوق أسباب التفرق والشقاق.

---

(١) راجع كليفورد بوزورث: **الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، ترجمة حسين علي اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط٢، سنة ١٩٩٥م.

فلما ضعفت الدولة العثمانية، واستقوت الدول الاستعمارية الغربية، وتوزعت بلاد الإسلام فيما بينها بين مناطق نفوذ واحتلال؛ تعمقت عوامل الانقسام بين قوميات ودعاوى للوطنية الضيقة وأقليات، واستغل الاستعمار تلك العوامل ليؤكد وجوده، ويسهل بقاءه، ويضرب خصومه بعضهم ببعض، وفق شعاره الأثير "فرِّق تسد".

١- دعاوى القومية:

نعني بالقومية إدراك أمة ما خصائصها المميزة لها، والروابط الكائنة بينها، ووحدة مصالحها وأهدافها..

وقد ضمت جميع الإمبراطوريات أو الملكيات الكبرى في أحشائها قوميات متعددة، كانت تشكل -في أحيان كثيرة- عناصر اضطراب وقلق كلما شعرت بتفوقها، وقدرتها على الاستقلال.. وكان التحدي الذي يواجه تلك الإمبراطوريات والممالك يتمثل في التعايش بين قومياتها وعصبياتها، إن طوعًا أو قهرًا، وغالبًا ما كان ذلك يتم بسيادة إحدى عصبياتها القادرة على قهر الأخرين، كما يحدثنا تاريخ الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، أو الانقياد لعقيدة دينية تساوي بين تلك العصبيات، أو تقارب ما بينها؛ ما استطاعت إلى ذلك سبيلا؛ كما نرى في كثير من العصور الإسلامية الزاهرة. وتظل حالة السلم الداخلي الأهلي ظاهرة طالما كانت تلك الرابطة الجامعة عفيَّة وقديرة، فإذا ما انحلت قواها ذوت قوة الإمبراطورية أو المملكة الكبرى، وتناوشتها المخاطر من تناحر قومياتها المتشاكسة المصالح، أو من أعدائها المتربصين بها، ينتهزون سانحة الضعف التي تمر بها.

وفي تاريخنا الإسلامي تعايشت القوميات والعصبيات العربية والفارسية والتركية والبربرية وغيرها ما دامت النزعة الإسلامية العقدية، والممارسات السياسية الراشدة

تعدل بينها، فإن اختل ميزان العدالة، أو ضعفت قوة الدولة، كان الاحتراب، وبرزت الدول المستقلة كما رأينا في العصر العباسي الثاني على سبيل المثال[1]..

ولا ريب أن كل عصبية وقومية كانت تحمل في جيناتها عوامل الاستقلال والتفرق إلى عصبيات داخلها، كما نرى بين قبائل العرب اليمانية والقيسية، وقبائل أتراك تركستان، وقبائل الأمازيغ في شمالي إفريقيا.

غير أنه من الواجب أن نشير هنا إلى أن الدولة الإسلامية قامت على أساس التحاكم إلى الشريعة الإسلامية، وتحقيق غاياتها، وكانت القوميات والعصبيات فيها تُعد أحيانًا بمثابة بعض أحزابها السياسية أو الاجتماعية، أو قواها الفاعلة، التي ترث غيرها، ويرثها من بعدها ضمن الإطار الجامع لدولة الإسلام، ولم تكن إحدى الدول المستقلة التي قامت على أساس قومي في فارس أو خراسان، أو شمال إفريقية مثلاً تمثل استقلالاً تامًا يحول دون التواصل والامتزاج بين رعاياها وبقية المسلمين من رعايا الدول الإسلامية الأخرى.

وذلك لأن الإسلام حارب العصبية المفرقة، وجعل التعارف بين الناس إحدى غايات الخلق، وجعل التفاضل بين الناس بالتقوى، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَن قُتِلَ تَحتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ"[2].

وفي العصر الحديث بدأت أفكار القومية وشعاراتها تغزو أوروبا مع ظهور الثورة الفرنسية ١٧٨٩م، فتزلزلت أوروبا وممالكها، وبدأت هذه الأفكار تجد طريقها إلى

---

(١) إذ أفرزت العصبية الفارسية والتركية دولًا متعددة في شرق الدولة، كالطاهرية والسامانية والصفارية والغزنوية والبويهية والسلجوقية.. وفي مصر ظهرت الدولة الطولونية، ثم الإخشيدية، وهما تركيتان، وفي شمال إفريقية والمغرب ظهرت عدة دول بربرية مثل المرابطية والموحدية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم ١٨٥٠.

جماعات من المثقفين المسلمين من الترك والعرب وغيرهم، الذين تأثروا بالغرب والأفكار المائجة فيه.

إثارة العصبية القومية وسيلة لهدم الدولة العثمانية:

وكانت إثارة النزعات القومية سلاحًا خطيرًا في أيدي الدول المعادية للدولة العثمانية، وبخاصة أنها تضم عديدًا من القوميات والديانات واللغات.. وبدأ ذلك في القسم الأوروبي من الدولة.. حيث الروح القومية البلقانية في بلغاريا ورومانيا وصربيا والجبل الأسود، واليونان، زاد من خطورتها أنها ظلت في معظمها مناطق مسيحية، لم تَسْع الدولة إلى نشر الإسلام فيها على مدى أكثر من خمسة قرون، وهي مجاورة للدول الأوروبية الطامعة، وقد سرت فيها الأفكار العلمانية الأوروبية[١].

وقد قدمت أوروبا المال والعتاد والرجال لمساعدة اليونانيين، وكان مما يؤخذ على الدولة العثمانية أن تركت هذه الأمة المتجانسة عرقيًا ومذهبيًا في مكان واحد، دون تحسُّبٍ لخطورة ذلك[٢]، حتى استقلت سنة ١٨٣٢م[٣].

وكان التدخل الروسي لصالح هذه القوميات في البلقان حاسمًا؛ سواء بالضغوط السياسية؛ أو الحروب العسكرية.. وأثمرت هذه السياسة استقلال تلك النواحي، حيث إنه بمقتضى معاهدة برلين ١٨٧٨م استقلت رومانيا والصرب والجبل الأسود، ونالت ولاية البلغار حكمًا ذاتيًا[٤].

---

(١) راجع د. نادية محمود مصطفى: (إشراف) **العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية**، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٦م، ص ١٧٣.

(٢) ذكر نابليون أن ذلك من أكبر أخطاء السلطان العثماني (المرجع السابق ص ١٧٦).

(٣) عزتلو يوسف بن آصاف: **تاريخ سلاطين بني عثمان**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٥م، ص ١١٧-١١٨.

(٤) التي كانت تسمى الأفلاق والبغدان، واحتلت النمسا بلاد البوسنة والهرسك، واحتلت بريطانيا جزيرة قبرص (بن آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان ص ١٣٣، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٤٦).

القومية الأرمينية:

وفي النصف الأول من بدايات القرن التاسع عشر، حدثت نهضة قومية وثقافية للأرمن، حيث طوروا مراكزهم الثقافية، وأحيوا اللغة الأرمنية الكلاسيكية، ونشروا الأناجيل بلغتهم القومية، وتأثروا بالثقافة الفرنسية نتيجة البعثات العلمية إلى باريس.

طالب الأرمن بالحكم الذاتي. وتعاونوا مع روسيا في حروبها المتكررة ضد الدولة العثمانية [١]، لكنهم فشلوا في إقناع أوروبا باستقلالهم عن الدولة العثمانية، فتحولوا إلى مسلك العنف لتحقيق هذا الهدف حتى يقوم المسلمون بالرد العنيف عليهم، ومن ثم يدفعون أوروبا للتدخل لحمايتهم، ويدعمونهم في الاستقلال عن الدولة العثمانية[٢]، وكثرت حوادث العنف التي يقوم بها الأرمن[٣]، حتى حاولوا اغتيال السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥م[٤]، وتقارب الأرمن مع الحركات السرية المعارضة للسلطان عبد الحميد لاتفاق أهدافهم في الضغط عليه، والانقلاب عليه بكل سبيل؛ لتحقيق مزيد من اللامركزية والحرية[٥]، كما حاربوا الجيش العثماني إبان الحرب العالمية الأولى التي انطلقت عام ١٩١٤.. وتم فرض تأسيس دولة أرمنية بموجب معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠م

(١) محمد رشيد رضا: الخلافة ص١٠٧، د. يوسف حلاج أوغلو: **تهجير الأرمن، الوثائق والحقيقة**، ترجمة أورخان محمد علي، مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول، ط١، سنة ٢٠٢٠، ص ٦٦.

(٢) السلطان عبد الحميد: مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٢٦، وراجع محمد روحي بك الخالدي: أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة ص ١١٦- ١١٧.

(٣) راجع مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٢٦.

(٤) الخالدي: المرجع السابق ص ١٥٤، مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٢١٨، وراجع عن المنظمات الأرمينية الإرهابية والثورية يوسف حلاج أوغلو: المرجع السابق ٧١-٧٣، وعما قامت به من أحداث ص ٧٤-٧٩.

(٥) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٢٨، الخالدي: مرجع سابق ١١٨-١٢٠، ١٥٤-١٥٥، أوزتونا: مرجع سابق ٢/ ٢٤٢.

التي اضطرت الدولة العثمانية إلى توقيعها - كدولة مهزومة - مع الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى.

القومية التركية العلمانية:

بدأ ظهور القومية التركية في الدولة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، أما قبل ذلك فلم يكن هناك شعور بما يسمى قومية تركية، بل كانت كلمة "ترك" تحمل مدلولات سلبية، تتمثل في الخشونة والبدائية والفظاظة[1].

وكان الأتراك "يعدون أنفسهم مسلمين أولاً، ويتجه ولاؤهم للدين والخلافة والسلطان، حتى إنهم "لم يحتفظوا - مثل العرب والفرس - بهويتهم، باعتبارهم جماعة عرقية لها هويتها الثقافية المستقلة داخل نطاق العالم الإسلامي.. فقد ذوّبوا هويتهم في الإسلام، إلى حد ربما كان أكثر من شعب مسلم آخر، ومن المثير أنه بينما كانت كلمة "تركي" في تركيا تكاد ألا تستخدم فإنها باتت في الغرب مرادفة لكلمة "مسلم"، والأوروبي الذي يعتنق الإسلام كان يقال إنه "تحول إلى تركي"، حتى لو كان اعتناقه الإسلام قد حدث في فاس أو أصفهان"[2]..

وكان مما أثار استغراب المؤرخ اليهودي برنارد لويس أنه "إلى يومنا هذا لم يُطلق مصطلح الأتراك على غير المسلمين أبدًا، على الرغم من أصولهم التركية، وأنهم يتحدثون اللغة التركية...مثل المسيحيين واليهود في إستنبول"[3].

---

(١) قيس جواد العزاوي: **الدولة العثمانية قراءة جديدة في عوامل الانحطاط**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط٢، سنة ٢٠٠٣م، ص ١٢٥-١٢٦، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: **في أصول التاريخ العثماني** ص ٢٦٢.

(٢) برنارد لويس: مرجع سابق ص ٢٠- ٢١.

(٣) لويس: المرجع السابق ص ٢٧.

ويؤكد السيد رشيد رضا أن التركي كان إذا "سُئل عن جنسه قال: "مسلم، الحمد لله"، وبذلك يمتاز عن الرومي والأرمني، وأما الآن فصار يجيب بأنه تركي، وكان لا يفهم من وجوب الخدمة العسكرية إلا طاعة خليفته وسلطانه في الجهاد في سبيل الله"[١].

وقد أسهمت **عوامل عديدة** في بروز القومية التركية في القرن التاسع عشر، منها دور الأوروبيين المنفيين في تركيا، والأتراك المنفيين في أوروبا، والنصارى الخاضعين لسلطان الخلافة، المقيمين في أرضها، المنفتحين على الأفكار القومية الآتية من الغرب، والبحوث العلمية عن الأصول التركية والتاريخ التركي القديم[٢]..

لقد برز دور المستشرقين، وخاصة اليهود في التأصيل للقومية التركية المجافية أو المعادية للإسلام، ويُذكر في هذا المقام جماعة من علماء اليهود كان لهم دورهم في التنقيب عن اللغة التركية وأصولها، أو التاريخ التركي القديم في آسيا، مثل دافيد لوملي وفامبري وليون[٣].

وكانت البدايات الباكرة لظهور القومية التركية تحتفظ بأصالتها العثمانية، وحميتها الدينية، كما نجد في الأشعار الأولى لنامق كمال الممتزجة بالدين، قبل أن يغير وجهته[٤].

وقد فرَّق المفكر الإسلامي العثماني **بديع الزمان النورسي** بين الفكر القومي الإيجابي، المتوافق مع الهوية الدينية للخلافة المتداعية آنذاك، والفكر القومي السلبي الساعي إلى تفتيت الوحدة الإسلامية للدولة العثمانية، وإثارة "التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام"، مما ينذر "بهلاك عظيم، وخطب جسيم، اذ إن تلك العناصر أحوج ما يكون بعضهم

(١) الخلافة ص ٦٣.

(٢) راجع عنها العزاوي: المرجع السابق ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) راجع العزاوي: مرجع سابق ١٢٨-١٣١ ، صبري جريس: **تاريخ الصهيونية**، مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، سنة ١٩٨١، ١/ ١٦٥، العزاوي: السابق ١٢٩-١٣١.

(٤) العزاوي: مرجع سابق ص ١٣٥-١٣٦.

لبعض، لكثرة ما وقع عليهم من ظلم وإجحاف، ولشدة الفقر الذي نزل بهم، ولسيطرة الأجانب عليهم، كل ذلك يسحقهم سحقـًا؛ لذا فإن نظر هؤلاء بعضهم لبعض نظرة العداء مصيبة كبرى لا توصف، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض؛ ولا يعبأ بالثعابين الماردة التي تحوم حوله".. ويهتف النورسي بمعاصريه قائلاً: "أيها الأخ التركي! احذر وانتبه! أنت بالذات، فإنّ قوميتك امتزجت بالإسلام امتزاجًا، لا يمكن فصلها عن الإسلام، ومتى ما حاولت عزلها عن الإسلام فقد هلكت اذًا، وانتهى أمرك، ألا ترى أن جميع مفاخرك في الماضي قد سجّل في سجل الإسلام، وان تلك المفاخر لا يمكن ان تمحى من الوجود قطعًا، فلا تمحها أنت من قلبك بالاستماع إلى الشبهات التي تثيرها شياطين الإنس"[1].

وعبر الشاعر العثماني محمد عاكف عن معارضته القومية الانعزالية، "وكتب منتقداً القومية التي شاعت في الدولة العثمانية آنذاك: "يا جماعة المسلمين: أنتم لستم بعرب، ولا ترك، ولا بلقانيين، ولا أكراد، ولا قوقازيين، ولا شركس، أنتم فقط عبارة عن أفراد في أمة واحدة هي الأمة الإسلامية، وكلما حافظتم على الإسلامية لم تفقدوا قومياتكم"[2].

وحذر السلطان عبد الحميد الثاني من خطر القومية الانعزالية، المجافية للدين، التي وجدت لها دعاة عند بعض مثقفي مصر، فقال: "وإن هذا البعض أصبح يقدم القومية على الدين... وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإسلامية إلى هز عرشي، وإن الفكر القومي قد تقدم تقدمًا ملموسًا في مصر، والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة في يد الإنجليز، إنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة، ويهزون معها اعتبار الخلافة"[3].

---

(١) سعيد النورسي: **المكتوب السادس والعشرون، المبحث الثالث**، موقع "نافذة النور"، تم الاطلاع عليه بتاريخ ١٧/ ٣/ ٢٠٢٢، الساعة ٠٨ ,٢٣ على الرابط: https://cutt.us/du4uS.

(٢) راجع **مادة "محمد عاكف"** ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٢٣.

وكان السلطان عبد الحميد يدرك جيدًا مدى صعوبة التوفيق بين رغبات القوميات المتعددة في الدولة إذا انطلقت عصبياتها من عقالها.. ويقارن بين الوحدة القومية عند شعب اليابان والتعدد والتصارع بين قوميات الدولة العثمانية وكيف غدت أهم معاول تفتتها واضمحلال قوتها، فيقول: "ليس هناك أرض في الدنيا قط تشبه بلادنا المسكينة، كيف كنت أوحد الأكراد والأرمن والأتراك مع اليونان والعرب والبلغار؟"[1].

لم يكن الصراع بين الفريقين من القوميين ومعارضيهم متكافئًا، فقد كان سعار العداء للرابطة الإسلامية، الداعي إلى تفتيت دولة الخلافة - بل إنهاء وجودها - مدعومًا بقوى الاستعمار الأجنبي، الذي سيطر على معظم أقطار العالم الإسلامي، وأجهزته المالية والإعلامية، وغزوه الفكري..

واستهدف برنامج القوميين الأتراك "تأسيس دولة قومية تركية قوية، تكون القاعدة الأساسية للانطلاق نحو دولة طوران الكبرى[2]، على أن تقوم هذه الدولة القاعدة بالتخلص من كل ما يربطها بالإسلام ونظمه الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية؛ بدعوى غريبة مفادها من ناحية أن الأتراك ينتمون إلى الجنس الآري، وهم جنس أرقى من الساميين، ومن ناحية ثانية فإن الإسلام مرادف للتخلف (في زعمهم)، وهو المسؤول عن الانحطاط الذي يعانيه الأتراك، ولا خلاص لهم إلا بوحدة جنسهم الراقي، والابتعاد عن الإسلام"[3].

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٩٥.

(٢) الطورانية حركة قومية انتشرت بين جماعة من الأتراك القوميين في أواخر العصر العثماني، استمدت اسمها من طوران، وهي المنطقة الممتدة ما بين هضبة إيران وبحر قزوين، مهد الشعوب والقبائل التركية، واستهدفت تلك الحركة توحيد أبناء العرق التركي لغويًا وثقافيًا وسياسيًا، (راجع مصطفى عبد الكريم الخطيب: **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٦م، ص ٣١٠، وورد ذكر الطورانيين قديمًا عند الفردوسي (ت٤١٠هـ): **الشاهنامة**، ترجمة الفتح البنداري،/ طهران، مكتبة الأسدي، سنة 1970م، ص 81-80).

(٣) العزاوي: مرجع سابق ص ١٣٤.

وبذلوا جهودًا بارزة في تطوير اللغة التركية ودراستها، وجعلها لغة للعلم والأدب، بديلاً عن العربية والفارسية اللتين كانتا حتى ذلك الحين لغتي الثقافة العامة[١].

ونادى المنظر التركي للعصبية الطورانية ضياء كوك ألب بما يراه واجبًا للوفاء للقومية التركية بقوله: "أي بلد يؤذن فيها للصلاة في المساجد يكون باللغة التركية، حتى يفهم الفلاحون معنى الصلاة في عبادتهم، أي بلد يتلى فيه القرآن في المدارس يكون باللغة التركية، حتى يتعلم الكبير والصغير، ويعرف الجميع أوامر الله، إن هذا يا أولاد الترك هو وطنكم، أرض أجدادكم"[٢].

ولما سيطر رجال الاتحاد والترقي على أزمَّة الحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م قرروا فرض اللغة التركية على القوميات الأخرى في الدولة، وجعلها اللغة الرسمية في البلاد، مما تسبب في ردود أفعال معاندة[٣]، "وامتنع الجميع عليهم، وهبَّ أصحاب اللغات غير العلمية المدونة كالألبانيين والكرد والجركس إلى تدوين لغاتهم، وجعلها لغة علم وفنون كما فعل الترك"[٤].

وتعالت أصوات القوميين العلمانيين المتطرفة بصبغ الدولة بالصبغة التركية، وتُرجم ذلك إلى خطط وسياسات تتبناها السلطة في ظل سيطرة الاتحاد والترقي، مما أثار مخاوف وهواجس القوميات الأخرى، ووجدوا الدعم الأوروبي الكثيف لأفكارهم وجهودهم[٥].

---

(١) راجع في ذلك العزاوي: مرجع سابق ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) راجع برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ٤٩٨، وراجع عن أفكاره أبو الحسن الندوي: **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية** ص ٤٢-٤٦٣.

(٣) زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، دار النهار للنشر، بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٦م، ص ٩٤-٩٧.

(٤) رشيد رضا: الخلافة ص ٨٧.

(٥) العزاوي: مرجع سابق ص ١٤٣-١٤٤.

كانت أصوات العداء للعرب ولغتهم تتصاعد على نحو ينذر بخطر جسيم، ومن ذلك قول المفكر التركي جلال نوري بك في كتابه "تاريخ المستقبل": "إن المصلحة تقضي على حكومة الآستانة بإكراه السوريين على ترك أوطانهم، وإن بلاد العرب - لا سيما اليمن والعراق - يجب تحويلها إلى مستعمرات تركية بنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين، ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية، لأن النشء العربي الحديث صار يشعر اليوم بعصبية قومية"[1].

ومما يليق ذكره في هذا المقام القول بأن أحلام القومية التركية الطورانية - التي تسعى إلى وحدة العالم التركي من تركستان إلى تركيا - قد تبددت، وأن الغرب الذي نفخ في أصولها الفكرية والتاريخية اقتصر دوره على ذلك.. واكتفى بتحقيق مراده إذ سلخ تركيا عن محيطها الإسلامي، وأسقط الخلافة العثمانية، أما المناطق التركية الأصل والممتدة من تركستان شرقًا إلى القوقاز غربًا فقد وقع معظمها في براثن التنين الصيني، والدب الروسي.

وقد قام القوميون الأتراك من زعماء الاتحاد والترقي بالدور الأكبر في صناعة المأساة بعدما عزلوا خليفتهم عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩، وأدخلوا بلدهم في أتون الحرب العالمية الأولى، فلقيت على أيديهم شر هزيمة، ففروا منها، وتركوها بين أيدي الاستعمار الغربي، ليعاملها معاملة المهزوم، ويفرض عليها أقسى الشروط في معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠.

بروز القومية العربية:

بدأت فكرة القومية العربية تتبلور ضمن إطار الحكم العثماني على أيدي نصارى الشام، بعد فترة يسيرة من تولي السلطان عبد الحميد الثاني السلطنة سنة ١٨٧٦م، بالرغم من انفتاح السلطان على العرب، من مسلمين ونصارى، وتقديمه زعماءهم، وإكرام من

(١) نقله العزاوي: المرجع السابق ص ١٤٦-١٤٧.

قدم منهم إلى إسطنبول[١]، وتبنيه مبدأ "الجامعة الإسلامية" التي تسعى إلى إعلاء الرابطة الإسلامية الجامعة على حساب خطر القوميات الانعزالية، وتماهي هذه القوميات مع خطط الاستعمار الغربي لهدم دولة الخلافة المتداعية[٢].

وأدرك الناشطون السوريون النصارى أنهم لن يمكنهم النجاح إلا بضم جماعة من المسلمين إليهم، ولم يكن ذلك ممكنًا إلا بدعوتهم إلى مبدأ العروبة، القاسم المشترك بينهم، وقد نجح جزئيًا ذلك المسعى، وأسسوا عدة جمعيات تندد بالحكم العثماني للعرب[٣]، إلا أنهم لم يستطيعوا إقناع فريق من المسلمين بالهدف الأعلى لهم، وهو التخلص من الحكم العثماني لسوريا[٤]، فلم يعدُ ذلك الحراك كونه تعبيرًا عن رغبة العرب آنذاك في تحقيق الإصلاح الداخلي لإنقاذ الدولة المريضة والمستهدفة، ولم يزد طموح الثوريين منهم عن نيل استقلال ذاتي للعرب في الشام، ضمن إطار الدولة العثمانية الجامعة، وكان زعماء الإصلاح العرب آنذاك من المؤمنين بالرابطة الإسلامية العامة، وفرضية الحفاظ على دولة الخلافة، ومنهم محمد عبده والكواكبي ومصطفى كامل ومحمد رشيد رضا[٥].

---

(١) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩م، ص ١٣٥-١٣٦، زين نور الدين: نشوء القومية العربية ص٥٦.

(٢) راجع د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق ص ٢٤٧/ ٢٥٤.

(٣) منها جمعية بيروت السرية، وتأسست سنة ١٨٧٥، وجمعية حقوق الملة العربية، وتأسست سنة ١٨٨١ (راجع دأ سعيد شبَّار: **مختصر الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر**، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط١، ٢٠١٦، ص ١١٩).

(٤) نور الدين: المرجع السابق ص ٦٠-٦١.

(٥) نور الدين: المرجع السابق ص ٦٩-٧١، ومن ذلك قول الزعيم مصطفى كامل (**المسألة الشرقية**، مقدمة الكتاب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٤): ".. وإني أضرع إلى الله فاطر السماوات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدي؛ ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة، وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها وللإسلام، إمامه وناصره، جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازي "عبد الحميد الثاني".

وعلى النقيض من هؤلاء سرت عدوى القومية العلمانية المتطرفة في جماعة من الكتاب والمفكرين العرب، حتى وصل الأمر بشاعرهم النصراني رشيد الخوري – الشاعر القروي – إلى ما يشبه تأليهها، فقال:

هبوني عيدًا يجعل العُرْب أمة ... وسيروا بجثماني على دين برهم[1]

بلادك قدِّمها على كلِّ ملَّة ... من أجلها أفطر، ومن أجلها صُمِ

سلام على كفرٍ يوحد بيننا ... وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم[2]

وزعم أحدهم أنه لن ينهض العرب "إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم، يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الكريم.." [3]..

ونشروا في بعض الجرائد آنذاك – واسمها جريدة القبلة – "مقالات قديمة وحديثة في بطلان خلافة خلفاء الترك في الآستانة، وتكفيرهم، وتكفير حكومتهم"[4].

القوميون الأتراك الانعزاليون يؤججون العصبية القومية العربية:

كان السلطان عبد الحميد يدرك أهمية التواصل مع العرب وإبطال المؤامرات المبذولة لتثويرهم ضد الدولة العثمانية، فنراه يبذل المنح السخية للمؤسسات العلمية العربية، "ويغدق المناصب والميزات على أمراء العرب وأعيانهم، ويبذل المبالغ الطائلة لإصلاح

---

(١) يعني إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

(٢) الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري): **ديوان الأعاصير**، طبع في مطبعة مجلة الشرق، (د.ت) وقد ألقى هذه القصيدة في حفل عيد الفطر الذي أقامته الجمعية الخيرية الإسلامية في الحاضرة سنة ١٩٣٣م.

(٣) عمر فاخوري: مقدمة كتابه "**نهضة العرب**"، صدرت طبعته الأولى سنة ١٩١٣م، وأعادت مؤسسة هنداوي في القاهرة طباعته سنة ٢٠٢٠.

(٤) محمد رشيد رضا: الخلافة ص ٥٤.

وزخرفة المساجد في مكة والمدينة والقدس، ويوكل سدانتها إلى العرب أنفسهم، وشكل فرقة مختارة من الجند العرب ضمها إلى حرسه الخاص، كما استخدم العرب في شؤونه الخاصة في القصر السلطاني، ونال بعضهم حظوة كبيرة لديه.."[١].

وكان عبد الحميد "قد تنبه إلى الروح القومية المتصاعدة في سوريا، وعمل على مقاومتها بتقوية الاتجاه الديني الذي كان يتضمن القضاء على اتجاه العلمنة... على أن سياسته الدينية قد أجلت بروز القومية الناشئة في سوريا لمدة جيل على الأقل"[٢].

لكن القوميين الأتراك - من جماعة الاتحاد والترقي - أسقطوا حكم السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩م، وسقط معه مبدأ الجامعة الإسلامية، وسيطروا على أزمّة الحكم. وأدخلوا البلاد في أتون الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، متحالفين مع ألمانيا، وظلت غالبية العرب على ولائها للخلافة والسلطان العثماني، غير أن ممارسات الحكام الجدد الذين ورطوا البلاد في تلك الحرب - وهي على حال ضعفها - كانت من أبرز أسباب تحول العرب إلى طلب الانفصال عن الدولة العثمانية، ووقوعهم في دائرة الاستغلال الأجنبي لرغباتهم الاستقلالية.

فقد وصل أحمد جمال باشا - أحد قادة الاتحاد والترقي- إلى الشام قائدًا للجيش الرابع التركي فيها، فانتهج سياسة قاسية تجاه العرب وزعمائهم هناك، حيث اتهم كثيرين منهم بالتآمر مع البريطانيين والفرنسيين ضد الدولة العثمانية، وأصدرت محكمة عالية في لبنان حكمها بإعدام ١٣ حضوريًا، و٤٥ غيابيًا، وتم تنفيذ أحكام الإعدام علنًا بالفعل في ١١ منهم، وخفف الحكم إلى السجن المؤبد لاثنين[٣]، ثم تلاه إعدام ٢٢ آخرين من كبار

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ص ٢٥٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٣.

(٣) جورج أنطونيوس: **يقظة العرب**، تعريب علي حيدر الركابي، مطبعة الترقي، دمشق، سنة ١٩٤٦م، ص ٢١١.

رجالات سوريا من آل العظم وأبناء وأحفاد الأمير عبد القادر الجزائري الذي سكن الشام منذ زمن سابق [١].

استغلال الاستعمار الغربي دعوة القومية العربية:

كان التفكير في إثارة النزعة العصبية العربية ضد الدولة العثمانية حاضرًا في أذهان بعض الساسة الأوربيين منذ القرن التاسع عشر، كما يبدو من مذكرات نابليون بونابرت؛ حيث توقع أنه إذا ما انفصلت مصر عن الدولة العثمانية ستنفصل "المملكة العربية التي تتألف من أمة تخالف الأمم غيرها".. بل إن نابليون يفصح عن طموحات الغرب التي تحققت بعد ذلك بنحو مئة وعشرين سنة - لما حرض الشريف حسين شريف مكة ومنَّاه بتكوين خلافة عربية يحكمها- فيقول بونابرت إنه "لو بُعث الرسول من جديد فلن يختار الآستانة لرسالته، بل يختار القاهرة، تلك المدينة المقدسة على ضفاف النيل، وإن الرئيس الديني للإسلام هو صديقنا شريف مكة"[٢]!

وقد كان شريف مكة آنذاك شديد الخضوع والهوان أمام بونابرت وقواته[٣].

ثم ظهر السياسي والمستشرق الإنجليزي ولفريد سكاون بلانت Wilfrid Scawen Blunt (١٨٤٠-١٩٢٢م) الذي أبدى تعاطفًا كاذبًا مع العرب، إلى الحد الذي انخدع به جماعة من كبرائهم، منهم جمال الدين الأفغاني[٤] ومحمد عبده[٥] وأحمد عرابي وغيرهم،

(١) نور الدين: المرجع السابق ص ١١٩-١٢١، وراجع أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢/ ٢٤٦-٢٥٠، أنطونيوس: السابق ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص ٥١ حاشية الصفحة والتي تليها.

(٣) كشك: السابق ص ٥٥.

(٤) كان السلطان عبد الحميد يتشكك في صلاته مع الإنجليز، وأنه يعمل لصالحهم (مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٤٨).

(٥) راجع د. محمد حسين: الإسلام والحضارة العربية ص ٦٦.

وقد وصفه أحمد عرابي بقوله: "الرجل المتفاني في حب الحق والعدل والحرية، محب الشرقيين عمومًا والمصريين خصوصًا"[١]!

وقد كتب بلانت كتابه "مستقبل الإسلام" قبل وقوع الاحتلال الإنجليزي لمصر، وفيه حديث مسهب عن رؤيته لنظام الخلافة الإسلامية وواقعها في عهد السلطان عبد الحميد، الذي يتوقع أن يكون آخر الخلفاء العثمانيين، وفي هذا الكتاب يؤكد أن الخلافة العثمانية غير شرعية من منظور الإسلام، إذ إن الخليفة ينبغي أن يكون عربيًا شريفًا قرشيًا، وتكون عاصمة الخلافة في مكة، ولا بد لتحقيق ذلك من رعاية ودعم إنجليزي، ويتمادى فيذكر (نبوءات) تشيع بأن نهاية الخلافة العثمانية باتت وشيكة، وأن آخر مشاهد صراعها من أجل البقاء سيكون في شمال سوريا [٢]، وأن الوارث للخليفة العثماني في إسطنبول سيكون خليفة عربيًا في مكة، وعندها سيكون رئيسًا دينيًا فحسب، أما الرئاسة المدنية فسيقوم بها غيره[٣].

ولا ريب أن الأمر لم يكن نبوءات وتخرصات كما حاول "بلانت" أن يوحي لقارئه، أو مجرد استقراء لمستقبل محفوف بالغموض آنذاك، بل كانت خططًا سياسية تسعى الإدارة الاستعمارية البريطانية إلى تحقيقها، وتسويقها بين العرب وغيرهم.. وهي الخطط التي باتت بعد نحو أربعة عقود حقيقة واقعة.. وقد تنبه السلطان عبد الحميد إلى ذلك الأمر، وذهب إلى أن بلانت وجمال الدين الأفغاني قد اشتركا في وضع هذه الخطة برعاية وزارة الخارجية البريطانية، بهدف إسقاط الخلافة العثمانية، وإعلان الشريف حسين خليفة في مكة[٤]!

---

(١) السيد أحمد عرابي الحسيني المصري: **كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية**، ١/ ٢٧٠، مطبعة مصر (د.ت).

(٢) بلانت: **مستقبل الإسلام** ص ٨٧-٨٨، وإن كانت النبوءة المزعومة تحدد عام ١٨٨٣ م لتحقيق تلك التوقعات، والكتاب من **تحقيق د. صبري محمد حسن، دار الجمهورية، القاهرة، سبتمبر ٢٠١٠**.

(٣) المرجع السابق ص ٩٠-٩١، ١٠١-١٠٢ ١٠٨-، ١٠٩.

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٤٨.

وكانت بريطانيا قد أرسلت - إبان الحرب العالمية الأولى - ضابط استخباراتها لورانس Lawrence ليفيد من الغضب والهواجس العربية ضد الدولة العثمانية وقادتها من الاتحاد والترقي، ويستثير طموحات أمير مكة الشريف حسين بن علي بدعوى أحقيته بالمطالبة بتنصيب نفسه خليفة عربيًا قرشيًا على المسلمين، واستُغلت رغبة الشريف، وتَوْقَ العرب إلى الخلاص من ضغط التتريك العلماني أسوأ استغلال ضمن منظومة استعمارية غربية لإسقاط الخلافة العثمانية(١).

كانت المطالب العربية التي صاغها القوميون العرب في الشام؛ وتولى الشريف حسين التفاوض بشأنها مع بريطانيا؛ تركز على تحقيق الاستقلال التام للجزيرة العربية بحدودها المعروفة من العراق شرقًا إلى اليمن جنوبًا، مع استثناء عدن التي كانت بريطانيا تبسط سيطرتها عليها، مع إلغاء جميع الامتيازات الأجنبية، والتحالف مع بريطانيا، ومنحها الأفضلية في الشؤون الاقتصادية(٢).

وجرت المفاوضات بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون - المعتمد البريطاني في مصر - التي أعلن فيها مكماهون تعهد حكومة بريطانيا بأن تعترف باستقلال العرب ضمن إطار دولة الخلافة المرتقبة التي يقودها الشريف(٣).

وعجلت ممارسات جمال باشا في سوريا؛ وأحكام الإعدام التي نفذها في جماعة من أبرز زعمائها؛ بإعلان الشريف حسين الثورة، وانتهى الأمر بدخول الجيوش العربية

---

(١) راجع جورج أنطونيوس: السابق ص ١٦٧-١٦٨، وقد حكى لورنس (توماس إدوارد) تجربته هذه في كتابه: **أعمدة الحكمة السبعة**، ترجمة محمد نجار، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، الطبعة العربية الأولى، سنة ١٩٩٨م.

(٢) جورج أنطونيوس: السابق ص ١٧٧-١٧٨.

(٣) راجع جورج أنطونيوس: السابق ص ١٩١-١٩٣، ١٩٧-١٩٨ وراجع نص الرسالة في نجدة فتحي صفوة (اختيار وترجمة وتحرير): "**الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، نجد والحجاز**"، دار الساقي، بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٦المجلد الأول ص ٥٧٢- ٥٧٤، وثيقة رقم ٢٦٤.

الحرب ضد الدولة العثمانية جنبًا إلى جنب مع بريطانيا وحلفائها في يونيو سنة ١٩١٦[١]، وسرعان ما تكشفت الخديعة الكبرى التي تعرض لها الشريف حسين وأنصاره من العرب باتفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في السنة نفسها ١٩١٦ باقتسام أراضي الدولة العثمانية بعد هزيمتها[٢]، ولم تُجدِ محاولات جمال باشا لإثناء الشريف حسين عن خطئه، وإطلاعه على المؤامرة التي حاكتها الدول الأوروبية واتفاقها ضده[٣]، وكان أقصى ما فعله حسين أن أرسل يستفسر من الحكومة البريطانية التي ردت بأن الأمر لا يعدو أن يكون دسيسة تركية لإفساد العلاقة والتحالف بينه وبين بريطانيا، وأن الاتفاقية التي جرى نشرها هي مجرد مباحثات مبدئية مع الحكومتين الفرنسية والروسية جرت في الأيام الأولى للحرب العالمية، ولم تنتهِ إلى نتيجة بسبب قيام الثورة البلشفية وانسحاب روسيا من التفاوض[٤].

وبينما كان القوميون العرب في حربهم ضد الدولة العثمانية صدر وعد بلفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ الذي تعهدت فيه بريطانيا بإعطاء فلسطين وطنًا قوميًا لليهود[٥].

وجنى الشريف حسين خيبات الأمل سريعًا، وسيقضي السنوات التاليات يتجرع الألم، ولعله سمع صرخة اللورد اللنبي يوم دخل القدس الشريف في ١١ ديسمبر ١٩١٧

---

(١) نور الدين: مرجع سابق ص ١٢٣.

(٢) أنطونيوس: السابق ٢٧٢-٢٧٣، صبري جريس: السابق ص ٢٧٧-٢٧٨، ولما قامت الثورة الشيوعية في روسيا سيطر الشيوعيون على أرشيف روسيا القيصرية، فكشفوا النصوص الكاملة لاتفاقية سايكس بيكو، ونشرتها صحيفتا أزفستيا وبرافدا في ٢٣ نوفمبر ١٩١٧؛ وبعدها بعدة أيام نشرتها جريدة جارديان مانشستر في ٢٦ نوفمبر ١٩١٧ (راجع أنطونيوس: السابق ص ٢٨٠، وأيضًا مادة "**اتفاقية سايكس بيكو**"، ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

(٣) أنطونيوس: السابق ٢٨١-٢٨٣.

(٤) أنطونيوس: السابق ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٥) أنطونيوس: السابق ص ٢٩٤، صبري جريس: تاريخ الصهيونية ١/ ٢٨٩.

قائلاً: الآن انتهت الحروب الصليبية[1]، ورأى الشريف ولده فيصل يفقد مملكة سوريا إذ احتلتها فرنسا سنة ١٩٢٠، وجعلوه ملكًا على العراق تحت النفوذ البريطاني إلى حين، ولم يظفر ابنه عبد الله سوى بمملكة الأردن سنة ١٩٢١. ثم إن الشريف حسين نفسه قد فقد مملكة الحجاز سنة ١٩٢٥، لصالح عبد العزيز بن سعود، ثم نُفي هو نفسه إلى قبرص في العام نفسه.

وماذا كان بعد ذلك؟ السقوط في حبائل الاستعمار الغربي، وحضارته التي لا ترحم.. وقد عبرت بلاغة محمد إقبال شاعر الإسلام عن ذلك الواقع المرير حيث يقول:

"ولكن قلبي يحترق من أجل الشام وفلسطين

ولم تُحل هذه العقدة الصعبة بالحيلة

لقد نجوا من قبضة الأتراك القساة

لكن هؤلاء المساكين سقطوا في شرك الحضارة"[2].

وهكذا أثمرت الغفلةُ والجهالة خيبةَ الأمل ومرارة الانسحاق أمام الأجنبي، وما زالت في حلاقيم العرب حتى اليوم.. وما أغنى عنهم أن شهد المستعمرون ببسالتهم، وما أدوه لصالحهم في جبهات الموت الأخرق.. وها هو لورنس الجاسوس البريطاني الذي كلف بخديعة الأمراء العرب يقول إنه ورفاقه من الإنجليز كانوا يقاتلون "ليكون لنا بترول الشرق، ومنتوجاته الزراعية، وكان المطلب الوحيد هو هزْم أعدائنا، ومن بينهم تركيا، وهذا ما حققته في نهاية الأمر حكمة "اللنبي"، بخسائر تقل عن أربع مئة جندي،.... وإنني لفخور جدًا من أن المعارك الثلاثين التي خضتها وقدمتها لم تكلف أي إراقة دماء لجندي إنجليزي"[3].

---

(١) أوزتونا: مرجع سابق ١/ ٢٥٥.

(٢) محمد إقبال: ديوان ضرب الكليم ١٣٦.

(٣) لورنس (توماس إدوارد): أعمدة الحكمة السبعة ص١٢.

أما الخديعة التي قامت بها حكومته للعرب، وكان هو من أدواتها، فيبررها لنفسه بقوله: "كان واضحًا منذ البداية أنه في حال كسبنا الحرب فإن هذه الوعود ستكون عبارة عن ورقة ميتة، وكان لزامًا عليَّ كمستشار أمين ومخلص للعرب أن أنصحهم بأن يذهبوا لوطنهم، وأن لا يخاطروا بأرواحهم في الخوض بحرب لقاء مثل هذا الهراء... وخاطرت بشكل مخادع، على الرغم من قناعتي أن مساعدة العرب لنا كانت ضرورية لانتصارنا الرخيص والسريع في الشرق، وأنه كان من الأفضل أن نكسب الحرب؛ وننقض تعهداتنا، بدلاً من أن نخسرها"[1].

لم يكن العرب جميعًا خائنين للدولة العثمانية:

على أنه لا يمكن القول بخيانة العرب للخلافة العثمانية بشكل مطلق.. إذ إن الحاكمين للدولة العثمانية آنذاك كانوا منقلبين على مبدأ الجامعة الإسلامية، وفلسفة الخلافة نفسها، كإطار سياسي جامع معبر عن رؤية دينية، ولم يكن باشوات الدولة الجدد - جمال وطلعت وأنور - مدافعين عن الإسلام والخليفة في الحرب العالمية الأولى، فقد كان الخليفة نفسه بلا حول ولا قوة في قصره، وكانوا هم يفقؤون عيونهم بأنفسهم بسياستهم القومية الضيقة ضد الآخرين ومنهم العرب.

ولا ينبغي أن ننسى أن الشريف حسين حارب الدولة العثمانية عسكريًا وسياسيًا، لكنه لم يخالف المنظور السياسي الإسلامي القائم على نظرية الخلافة، فقد كان هو نفسه ينادي بخلافة يمثلها عربي قرشي - لا تركي - مثلما كانت طوال عصورها الراشدية والأموية والعباسية..

لكن العرب محدودي الخبرة والقدرة السياسية في مكة وشبه الجزيرة لم ينتبهوا إلى أوضاع السياسة العالمية، ومؤامراتها، وأطماعها الاستعمارية، وأنها تستخدمهم مطية

(١) المرجع السابق ص ١٣.

لتحقيق تلك الأطماع لا غير.. ولم يدركوا أن الخلافة ليست مطلبًا لذاتها، بل لتحقيق وحدة المسلمين، وإعلاء شريعتهم، والحفاظ على دولتهم، وجهاد أعدائهم، لا الارتماء في أحضانهم مقابل كراسي وعروش مهتزة، لا تستمسك إلا بمدد من أعداء الأمة والدين.

كما أنه في الفترة نفسها كان هناك من الزعماء العرب من وقف مع الأتراك، بدوافع دينية، أو بحسابات المصالح السياسية، وناصب الحلفاء والشريف حسين العداء، منهم آل رشيد في منطقة حائل، وكذلك تحالف قبائل العراق - في إمارة بني المنتفق في جنوب ووسط العراق تحت قيادة عجمي باشا السعدون - مع الدولة العثمانية[١]، وحارب معهم السنوسي في ليبيا[٢]، وتحالف سلطان دارفور علي بن دينار مع العثمانيين[٣]، وشهدت مصر بعض أمارات التمرد ضد الإنجليز الذين أقحموها في الحرب ضد الدولة العثمانية[٤]، وشارك ألوف العرب ضمن جيوش الدولة العثمانية، جندًا نظاميين، أو جندًا متطوعين[٥]، واستشهد ألوف العرب في معركة جناق قلعة وهم يحاربون مع الأتراك ضد تحالف بريطانيا وفرنسا.

ويبقى أن نسجل الحقيقة الدامغة التي لا يجوز أن نتجاوزها عند هذا الحديث، وهي أن الأمة الإسلامية المهيضة كانت آنذاك تجني ثمار **الغزو الفكري** الذي تسلط عليها منذ

---

(١) راجع د. علي الوردي: **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**، نشر انتشارات الشريف الرضي، قم، سنة ١٩٧٤، ٤/ ١٤٤-١٤٥.

(٢) يلاحظ أن ليبيا وقتها كانت خاضعة للاحتلال الإيطالي ضمن المحور الألماني العثماني، وعن دور السنوسية في دعم محاولة الغزو العثماني لمصر سنة ١٩١٤ راجع د. لطيفة محمد سالم: **مصر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م**، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٩م، ص ٣٢٤-٣٢٩،،عبد الرحمن الرافعي: **ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١**، دار المعارف، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٨٧، ص ٥٢-٥٣.

(٣) د. لطيفة محمد سالم: المرجع السابق ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٤) راجع د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/ ١٠-١٣.

(٥) راجع شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانية ص ٦٠٢.

عقود، ونتائج اهتزاز الهوية وضعف العصبية الدينية والوعي الإسلامي، وتلك ملاحظات لا تخطئها أعين الراصد لحركة ألوف الجنود المسلمين الذين خضعوا للاستعمار الغربي؛ تقودهم قيادات صليبية متعصبة بريطانية وفرنسية؛ لخوض المعركة الفاصلة ضد منظومة الخلافة، أو ما تبقى منها، جنود من مصر[1]، ومن تونس والجزائر ومراكش، وملايين من الهند وإفريقية.. لولاهم ما كانت قوى الغرب الصليبي تستطيع فرض رؤيتها وواقعها على بلادنا، ولا أن يقف اللورد اللنبي ممتلئًا عنجهية وصلفًا وهو يقول: اليوم انتهت الحروب الصليبية.

وفي الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية لم يقدم القوميون العرب لأمتهم شيئًا غير تجرع حسرات الفشل، وتجذرت التجزئة السياسية للأمة، وقطع المشروع الصهيوني خطوات واسعة في سبيل تأسيس دولته في فلسطين، واستمر الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي بأسمائه المتعددة من انتداب وحماية واحتلال صريح.

تأسيس جامعة الدول العربية:

ثم تأسست جامعة الدول العربية في ٢٢ مارس ١٩٤٥م، وكانت الدول المؤسسة هي: مصر والعراق وسوريا والأردن ولبنان واليمن والمملكة العربية السعودية، وكلها كانت خاضعة لأحد أشكال الاحتلال أو الهيمنة الغربية، مما يوحي بأن قيام هذه الجامعة تم برضا الغرب، بل بتحريض منه في حقيقة الأمر، ففي سنة ١٩٤٢ صرح وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن في مجلس العموم بأن الحكومة البريطانية تنظر بعين "العطف" إلى كل حركة بين العرب ترمي إلى تحقيق وحدتهم الاقتصادية والثقافية والسياسية[2] ومن

(١) ادعى بعض رجال الحكومة المصرية المؤيدين لبريطانيا أن أعداد الجنود المصريين التي شاركت بريطانيا في الحرب - أو فلنقل: سخرتها بريطانيا - فاقت المليون ومئتي ألف عددًا (د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/ ٣٤) وهو رقم مستحيل تصوره آنذاك.

(٢) راجع د. محمد حسين هيكل: **مذكرات في السياسة المصرية**، دار المعارف، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٧٧م، ٣/ ١٩.

غير المتصور أن تحرض بريطانيا على تأسيس منظمة يمكن أن تشكل خطرًا قريبًا عليها.. وهي التي حالت دون تكوين دولة عربية واحدة في جزيرة العرب، وقوضت أمنيات الشريف حسين في هذه الشأن، بل قسمت مع فرنسا تلك الدولة المزمع قيامها، وفرضت ذلك التقسيم في اتفاقية سايكس بيكو.. وإن الإقرار بهذه الحقيقة لا يعد طعنًا في سلامة قصد بعض القادة العرب الساعين إلى لم شمل أمتهم، والحالمين بنظام عربي واحد.

ولعل الدول الغربية قدرت أن وجود كيان سياسي ينسق بين الدول العربية سوف يسهل التأثير عليها في صراعها ضد الصهيونية التي بدأت في اغتصاب فلسطين تحت ذريعة وعد بلفور الصادر سنة ١٩١٧م، ويضمن الهيمنة على مقدراتها الاقتصادية التي تزايدت أهميتها إثر تباشير اكتشاف النفط في هذه الفترة.

كما يضمن أن ترتفع راية مخادعة للقومية العربية في مقابل قوميتين أخريين كبيرتين: القومية الفارسية والقومية التركية، فيزداد العالم الإسلامي تفرقًا وانشعابًا، وإن كانت رايات القوميات الثلاث لا تعني في الحقيقة قوة ذاتية للأمة بعدما تم إفراغها من سر قوتها وهو الإسلام الجامع لها، وكان المعبر عنها آنذاك تلك النظم العسكرية الوارثة للاستعمار الغربي، والوكيلة عنه.

لقد أقر ميثاق الجامعة العربية مبدأ سيادة الدول الداخلة فيه ضمن حدودها المعترف بها، أي أنها أقرت بالواقع الذي أفرزته اتفاقية سايكس بيكو، والتقسيمات الاستعمارية للوطن العربي الواحد الذي كان جزءًا من دولة الخلافة العثمانية.

وانتهى الأمر إلى أن الجامعة كيان تنسيقي بين الدول الأعضاء، ونص ميثاقها على أن الغرض منها توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها، وتنسيق خططها السياسية، تحقيقاً للتعاون بينها، وصيانة لاستقلالها و سيادتها، وتعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها[1].

(١) راجع المادة الثانية من ميثاق جامعة الدول العربية على الرابط: https://cutt.us/pPxup .

وهذا ما كان يتقاصر كثيرًا عن آمال العاملين للإسلام، الذين أمَّلوا وضع خطط جادة لتحقيق الوحدة بين الدول العربية، لتكون نواة لوحدة أكبر بين الأقطار الإسلامية، أو ما يقارب الوحدة من تنسيق وتحالف.. والذين أدركوا خطورة تأصيل معنى العروبة المنعزلة عن الإسلام، أو المعادية له، وأدركوا مغزى تحريض بريطانيا على تأسيس جامعة عربية، لقد قدم وفد من الإخوان المسلمين رسالة من مرشدهم حسن البنا إلى رؤساء الوزراء العرب في اجتماعهم التشاوري حول ميثاق الجامعة في الإسكندرية سنة ١٩٤٤، تحوي تصورًا عن ميثاق الجامعة المقترح، وقد نص الاقتراح على أهداف؛ لو أمكن تحقيقها آنذاك لقادت إلى وحدة حقيقية عربية[1].

---

(١) من هذه الأهداف:

١- تحقيق مظاهر الوحدة العامة: من خلال:

أ) رفع الحواجز الجمركية.

ب) إلغاء جوازات السفر ومنح حرية المرور والتنقل في أي قطر من الأقطار العربية لكل عربي، بعد التأكد من شخصيته، وإباحة الهجرة والاستيطان على نظام واسع ميسر.

ج) التوسع في التعاون الاقتصادي وتأليف الشركات العربية الواسعة النطاق من سكان البلاد العربية جميعًا في أي قطر من هذه الأقطار، ولدراسة المشروعات العربية العامة دراسة مشتركة، وإحياء ما تعطل منها، كمشروع سكة الحديد الحجازية التي أنشئت بأموال العرب والمسلمين جميعًا وأوقافهم.

د) تنمية التعاون الثقافي والتشريعي والعسكري بتوحيد برامج التعليم ومناهجه، وتوحيد منابع التشريع وقواعده، وتوحيد نظم التدريب العسكري وأساليبه.

٢- تحقيق الأماني القومية ومساعدة الأمم الناشئة على نيل استقلالها واستكمال نهوضها

٣- الكيان السياسي العام للأمم العربية المتحدة: وهو أمر يجب تدارسه وإن لم يحن وقته بعد.

٤- تحديد الصلة بين البلاد العربية وجاراتها من الممالك الإسلامية غير العربية.

٥-المطالبة بحقوق الشعوب الإسلامية المظلومة ورعاية الأقليات المسلمة في مختلف البلاد والأقطار.

٦- لون الحضارة التي يجب أن تصطبغ بها الأمة العربية.

٧-التمسك بالقيم الروحية والإسلامية. (راجع ١مقال الإمام البنا: جامعة شعوب عربية"، **جريدة الإخوان المسلمين اليومية**،، العدد (٤٢١)، السنة الثانية، ١ ذو القعدة ١٣٦٦هـ ١٦ سبتمبر ١٩٤٧م، ص(٥-٦).

وضع القومية العربية في خصومة مع الهوية الإسلامية:

لقد دفعت الأحداث العالمية بعد الحرب العالمية الثانية إلى تراجع الاستعمار القديم ليفسح المجال لاستعمار جديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي؛ القطبان الجديدان للسياسة الدولية. وبرزت سياسة تصفية الاستعمار القديم إذ تزايدت كلفته العسكرية والاقتصادية التي لا تطيقها خزائن بريطانيا وفرنسا بعدما تجشمته في الحرب العالمية، واقتضت مصالح الغرب الاستعماري تهيئة المسرح السياسي العربي لسلسلة من الانقلابات العسكرية تقودها الجيوش العربية التي ضمن الغرب ألا تخرج عن سياساته.

ومثلت الحقبة الناصرية (١٩٥٢-١٩٧٠م) توهجًا لفكرة القومية العربية التي تم تفريغها من بعدها الإسلامي لتصبح أيديولوجية علمانية، وجرى توريطها في حرب مع عقيدة الأمة وهويتها الحقة التي عاشت بها أكثر من ألف وأربع مئة عام..

وأصبحت الدولة الوطنية القطرية هي الأساس الذي تقوم عليه الأنظمة، مع رفع عقيرتها بالدعوة الحماسية إلى الوحدة القومية العربية؛ من غير أن تحقق في هذا الصدد نجاحًا واحدًا، وتلاشت واقعيًا فكرة الخلافة التي استند إلها الشريف حسين سابقًا، بل أصبحت المناداة بها جريمة يحاسب عليها القائلون بها، إذ اشتد العداء لمنهج الإسلام في السياسة والحكم، وفي البناء المجتمعي والأخلاقي، وفي التصور المالي والاقتصادي.. ودخل الإسلاميون في محنة طويلة على امتداد الحقبة الناصرية في المنطقة العربية - بل الإسلامية - على وجه الإجمال.

لقد استمرت المواجهة مع الإسلاميين تتخذ طابع الاستيعاب والتدجين من خلال المؤسسات الدينية الرسمية، جنبًا إلى جنب مع سياسة قمعهم بواسطة هذه الأنظمة الانقلابية الفاشلة.

لقد كان يتم استدعاء الحمية الإسلامية من قبل القادة والحكام لاستجاشة المشاعر الوطنية في أوقات الخطر، حيث يكون مستقبل الزعماء والشعوب أنفسهم في مهب الريح، فإذا ذهب الخوف عادت سياساتهم أدراجها.. فمصطفى كمال أتاتورك- فيما يُروى - كان يدعو الله بالنصر في إحدى معارك الاستقلال في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٢م، قائلاً: "يا ربي! انصر الجيش التركي، ولا تسمح بأن يبقى الأتراك والإسلام مكبلين بسلاسل الأسر"[١].

وخطب جمال عبد الناصر في الجامع الأزهر يحرض شعبه على الصمود في مواجهة العدوان الثلاثي على مصر سنة [٢]١٩٥٦.

كما كان يتم استدعاء الحمية الإسلامية لضرورات نفعية سياسية، مثلما حدث حين أعلن السادات إقامة ما أسماه "دولة العلم والإيمان" بمصر، ومنح نفسه لقب "الزعيم المؤمن" ليواجه أنصار سلفه عبد الناصر من الشيوعيين والناصريين، أو كما حدث من صدام حسين في حرب الخليج سنة ١٩٩١م، أو في أثناء دعوة الغرب - التي ساندتها الأنظمة الحاكمة - إلى الجهاد ضد العدوان السوفيتي على أفغانستان (١٩٧٩-١٩٨٩م).

وأدت الدعوات العنصرية للقومية العربية إلى **اشتعال عداوات مع قوميات وأجناس كان الإسلام رابطًا بينها**، فتشقق السودان إلى شمال عربي وجنوب إفريقي، وتعالت صيحات القوميين الأمازيغ البربر في شمال إفريقية يحيون لغتهم، ويعلون تاريخهم قبل الإسلام، وخاض القوميون في العراق مع إيران حربًا ضروسًا استمرت ثماني سنوات بُددت فيها قوى الدولتين، وأُزهق فيها نحو مليون نفس، وراجت فيها مصالح تجار

(١) أدهم روحي فيغلالي: **أتاتورك والدين والعلمانية** ص١٠٢، (أحد فصول كتاب **الفكر الكمالي، كتاب يجب أن يكون في متناول اليد**)، ترجمة د. آدم أفين، مؤسسة أتاتورك العليا للثقافة واللغة والتاريخ، مركز أبحاث أتاتورك، أنقرة، سنة ٢٠٠٢م.

(٢) كان ذلك الخطاب في ٢/ ١١/ ١٩٥٦.

السلاح في الغرب بين عامي ١٩٨٠-١٩٨٨، وكل من الفريقين ينادي بقوميته العربية أو الفارسية، وطائفيته السنية أو الشيعية.

محاولة التوفيق بين القومية العربية والوحدة الإسلامية:

ستظل القومية العربية والوحدة الإسلامية تلتقيان في نقاط عدة: منها معاداة الاستعمار، والدعوة لتحرير فلسطين، لكن الرؤية الإسلامية تختلف في تناولها لهذا وذاك، فهي لا تعارض المشروع الاستعماري الغربي في جانبه السياسي والعسكري فقط، بل تعارضه في أسسه المادية، وبنائه العنصري، ونظرته لله والكون والحياة والإنسان، أي تعارض منظومته الحضارية في الأساس..

وهي تنظر إلى فلسطين كإرث إسلامي لا يحل التفريط فيه، وليس كمساحة جغرافية يجب تحريرها لتكون في النهاية جزءًا من المنظومة السياسية العربية فاقدة الهوية.

والرؤية الإسلامية تنظر إلى القومية العربية على أنها إحدى مراحل الطريق إلى تحقيق الوحدة الإسلامية الأكمل، وإن كان فضل العرب لا ينكر، فهم مادة الإسلام، وأوائل بناة مجده وصناع تاريخه، "إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيًّا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين... ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لابد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية، وتأييدها ومناصرتها"[١].

وبالتالي فإن الرؤية الإسلامية هي القادرة على إحداث **التصالح بين القومية والدين**، وتخليص القومية من أكبر عيوبها البنيوية، إذ إنها في منهجها العلماني إفراز للحضارة

(١) حسن البنا: رسالة المؤتمر الخامس (ضمن كتاب مجموعة رسائل الإمام البنا)، ص٢٨٠ -٢٨١.

الغربية، وإحدى مراحل تطورها، ومن ثم فإن ادعاء قدرتها على مقاومة المشروع الغربي - وهي ابنته - يظل دعوى تفتقر إلى الدليل، بل إنها تحقق المطلب الأسمى للمشروع الغربي بإبعاد الأمة عن مصدر قوتها، وعماد هويتها، وهو الإسلام الذي قادها عبر تاريخها إلى ما حققته من تقدم.

القومية الفارسية:

وفي إيران كان الشاه رضا بهلوي (حكم بين عامي ١٩٢٥ -١٩٤١م) يبذل جهودًا حثيثة لصبغ البلاد بصبغة فارسية قومية علمانية، فظهرت العناية بالحضارة الفارسية القديمة، والتنقيب عن آثارها، والاهتمام بدراستها، بل ظهرت في هذه الأجواء الدعوات المتطرفة لإعادة الدولة الساسانية القديمة، والديانة الزرادشتية، بزعم أن الإسلام فُرض على إيران وكان سببًا لتخلفها[١].

وألغى الشاه التقويم الهجري الذي كان معمولاً به منذ الفتح الإسلامي لبلاد فارس، وأحل محله التقويم الشاهنشاهي الفارسي، وابتهج إعلامه بهذه الخطوة، وعدَّها علامة على مجيء حضارة عظيمة جديدة، إذ قفز التقويم مرة واحدة من العام ١٣٩٥هـ إلى العام ٢٥٣٥[٢]، حتى نشرت صحيفة "اطلاعات" الإيرانية في عددها رقم ١٥٥٧٥ تحت عنوان "رسالة من المجوس إلى الشاه" تقول فيها: "إن المجتمع المجوسي في جميع أنحاء العالم؛ يشكر الشاهنشاه، ويرى من واجباته رد الجميل، لأنه لم يأت غيره - منذ هجرة المجوس من إيران - من أحيا الثقافة المجوسية، وحفظ التاريخ المجوسي بإخلاص"[٣].

---

(١) د. كريم مطر حمزة الزبيدي: تاريخ إيران الحديث، (د.ت)، (د. ن)، ص ٩٧، على الرابط: https://2u.pw/VcjkIC.

(٢) فهمي هويدي: **إيران من الداخل**، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٩١م، ص ٣١.

(٣) المرجع السابق ص ٣٢.

إن إعلاء شأن القومية الفارسية يحقق للقوى الغربية فوائد جمة، إذ تتلبس القومية الفارسية بالتشيع الاثني عشري، مما يباعد بينها وبين المحيط السني المجاور لها من كل جانب.

ولم تقلل الثورة الشيعية التي قادها الخميني سنة ١٩٧٩م من الروح القومية الفارسية، بل زادت أوارها، وأوجدت أرضية خصبة للفتن المذهبية، وتحالفات مصلحية بين الدولة الإيرانية والطوائف والقوى الشيعية في العراق وسورية ولبنان واليمن وغيرها على نحو ما نشاهد اليوم. مما أتاح الفرص لقوى الغرب لاستغلال تلك الصراعات المذهبية والطائفية لضرب كل منها بالأخرى، ولقد أدى العداء المذهبي القومي الإيراني لأهل السنة إلى تقديم التسهيلات الخطيرة للغزو الأمريكي لأفغانستان ثم للعراق، وارتكاب المذابح المروعة بحق أهل السنة في العراق وسوريا واليمن، مما ورّث عداء ومرارات تجني الأمة كلها ثماره المرة.

القومية الكردية ومصادمة طموحها:

يتوزع أكراد كردستان - بشكل أساس- في أربع دول: تركيا وإيران وسوريا والعراق، وهو إقليم تغلب على تضاريسه الوعورة، وعلى سكانه العصبية القبلية والعشائرية، وهم مسلمون سنة، عُرفوا بحميتهم الدينية.

ولا يوجد إحصاء دقيق لعدد الكرد، بشكل علمي ومحايد. وبحسب الموقع الإلكتروني لمشروع جوشوا للمجموعات الإثنية (JOSHUA PROJECT) يصل عدد الكرد إلى ٢٧،٣٨٠،٠٠٠ نسمة، ٥٦٪ في تركيا، و١٦٪ في إيران، و١٥٪ في العراق، و٦٪ في سورية، بينما يرى الباحثون والساسة والمثقفون الكرد أن عددهم يتجاوز ذلك بكثير، ليصل إلى

أربعين مليون نسمة، نصفهم في تركيا، و١٠ مليون في إيران، و٧ مليون في العراق، و٣ مليون في سورية[١].

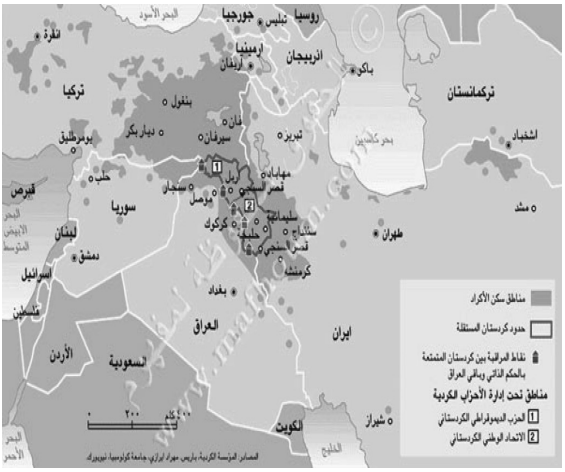

وقدم الأكراد للعالم الإسلامي أبطالاً عبر تاريخه[٢]، على رأسهم صلاح الدين الأيوبي وأسرته التي حكمت دولة واسعة تمتد من مصر والشام والحجاز واليمن وشمالي العراق، وتصدت للعدوان الصليبي، وحققت للأمة انتصارات هائلة أشهرها نصر حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، واسترداد بيت المقدس بعد احتلال استمر زهاء تسعين سنة.

ولما غزا السلطان سليم الأول الدولة الصفوية، وهزمها هزيمة مدوية في جالديران سنة ١٥١٤م، انضم زعماء ٢٥ قبيلة كردية إلى جيش السلطان سليم الأول بسبب العصبية الدينية المذهبية، إذ كانت حرب دولة سُنِّية ضد دولة شيعية مغالية، أكرهت أهل السنة في إيران على تغيير مذهبهم، ولم يكن أمام من يرفض خيار التشيع سوى التعذيب والقتل، وأصبح ثلثا بلاد الأكراد ضمن أراضي الدولة العثمانية، وقد ظل كثير من الأكراد يحتفظون – فيما بعد – بعلاقات مفتوحة مع إيران وتركيا، فعندما تسوء علاقاتهم بإحداهما يجدون ترحيبًا من الأخرى[٣].

---

(١) خالد عقلان: **الجذور التاريخية للقضية الكردية**، المعهد المصري للدراسات، ملفات إقليمية، ١٨ مايو ٢٠١٧، ص ٥.

(٢) راجع أمثلة لأعلام أكراد في مجالات متعددة في د. إسماعيل محمد حصاف: **كوردستان والمسألة الكوردية**، مؤسسة موكرياني للبحوث والنشر، أربيل، ط١، سنة ٢٠٠٩م، ص ١١٨-١٢٢.

(٣) فانفصلت منذ ذلك الحين الموصل وأربيل وديار بكر عن إيران، راجع أحمد تاج الدين: **الأكراد تاريخ شعب وقضية وطن**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١، ص ٨٥ - ٨٦.

بدأ الشعور الغامض بالقومية الكردية في القرن التاسع عشر الميلادي، أما قبل ذلك فإن سيطرة الروح القبلية والعشائرية، وتفشي الجهل، وصراعات الإمارات الإقطاعية الكردية المتناحرة حالت دون نمو ذلك الشعور القومي الجامع.

محاولات الدول الاستعمارية توظيف القومية الكردية لصالحها:

وكانت روسيا أكثر الدول عناية بدراسة المسألة الكردية لمجاورة المناطق الكردية لها، ولرغبتها في استغلال المطامح الكردية في الصراع الروسي - التركي - الفارسي، وكان للرحالة والباحثين والسياسيين الروس دور بارز في هذا، حتى أصبحت مدينة بطرسبرج في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مركزًا لدراسة الأبحاث الكردية: اللغة والتاريخ والدين والأدب والعادات[1].

كانت مناطق كردستان تشكل جبهة خلفية لروسيا القيصرية، وكانت جميع الانتفاضات الكردية ضد تركيا أو إيران في القرن التاسع عشر تصب في صالح روسيا التي شجعت روح التمرد لدى القبائل الكردية[2].

وكان عدد من كبار زعماء الكرد يحاولون استجلاب دعم روسيا لمشاريع استقلالهم ولو بإبداء الرغبة في الخضوع لها.. من هؤلاء عبد الرزاق بدرخان الذي وثق علاقاته بالسفير الروسي في تركيا، الذي أرسل إلى وزير خارجيته يطلب السماح لعبد الرزاق باللجوء السياسي إلى روسيا، ومنحه الجنسية الروسية، وذلك سنة ١٩١٠م، ومن هناك سافر إلى كردستان إيران - وكانت تحت تأثير الروس - متعهدًا بأن يعمل نصيرًا لروسيا بين شعب بلاده، وأن يطلب من حكومة فارس تعيينه واليًا على كردستان فارس ليبذل جهوده في تخليص كردستان تركيا من سيطرة الأتراك، ثم يجعل بلاده تحت حماية

(١) راجع د. إسماعيل محمد حصاف: المرجع السابق ص ١٢٣-١٤٧.

(٢) د. إسماعيل محمد حصاف: المرجع السابق ص ١٧٠-١٧٢.

الروس، مؤكدًا أنه سوف يثبت عمليًا إخلاصه لروسيا، إلا أن روسيا لم تأخذ كلام هذا الخائن على محمل الجد، فلما أعلن ثورته وواجهه الأتراك؛ فر إلى قنصلية روسيا ليضمن سلامته، فأراد بعض الدبلوماسيين الروس تسليمه إلى تركيا، لكنهم نكصوا عن ذلك لعله يفيدهم فيما بعد، ولم يجد سبيلاً إلا الفرار إلى فرنسا[1].. لقد تكرر الأمر من زعامات كردية أخرى سنة ١٩١٠، ١٩١٣، ١٩١٤ طالبين دعم روسيا لاستقلال بلادهم من تركيا، مقابل وضع كردستان تحت الحماية الروسية[2].

وكانت معاناة الأكراد في الدولة العثمانية تزداد في هذه الفترة بسبب تزايد المشاعر القومية التركية ضد القوميات الأخرى إبان حكم تركيا الفتاة منذ ١٩٠٩، كما رأينا في حالة القومية العربية، وفي نفس الوقت كان الأتراك يجدون مبررًا لسلوكهم إزاء استعانة العرب والترك بخصوم الدولة العثمانية، وفيما يخص الأكراد فقد كثرت الأخبار عن تهجير آلاف منهم إلى أماكن متعددة في أرجاء الدولة العثمانية، مع إبعاد كبار الزعماء عن قبائلهم[3].

ولا شك في أن جزءًا كبيرًا من هذه المعاناة تولد من محاولة استبدال الولاء القومي بالرابطة الدينية الإسلامية، في هذه الفترة التي بدأت فيها تأثيرات الغرب وحمى القومية تعصف بالعالم الإسلامي.

وإذا كنا نستطيع تفهم هذه المشاعر والصراعات في وقتها بالنظر إلى الدوافع والظروف التاريخية التي أنتجتها؛ فإننا لا نستطيع التماس العذر لكاتب معاصر يردد مبررات أعداء الأمة وخائنيها فيقول في عنصرية واضحة: "كان الشعب الكردي بأغلبيته ينتظر المساعدة الروسية بأمل الخلاص من الظلم التركي، وإلحاق كوردستان بروسيا، وقد يفسر ذلك

(١) حصاف: السابق ص ١٨١-١٨٣.

(٢) السابق ص ١٨٤، ١٨٥.

(٣) راجع جداول بأعداد من تم تهجيرهم وأماكنهم في أحمد تاج الدين: الأكراد تاريخ شعب وقضية وطن ص ١٠١-١٠٣.

الفرقُ الشاسع بين التركي المتوحش والروسي المتحضر ثقافيًا صاحب الكنوز الأدبية الثمينة؛ والرغبة في الخلاص من الظلم التركي الذي دام قرونا عديدة، وعلى أمل أن يؤدي التعاون مع روسيا إلى تحرير الشعب والوطن فيما بعد"[١].

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى تم فرض معاهدة سيفر ١٩٢٠م على الدولة العثمانية كدولة مهزومة، ونُص فيها (في البنود ٦٢-٦٤) على الاعتراف بحق الأكراد في الدولة العثمانية - دون أكراد إيران وسورية والعراق- في الحكم الذاتي، وإن لم تحدد منطقة الحكم الذاتي على وجه الدقة، وأنه تتم مراجعة الأمر بعد سنة، فإن وُجد الأكراد قادرين على الاستقلال فإنه يجب على الدولة العثمانية تنفيذ ذلك[٢]..

ويتضح من هذه الاتفاقية حقيقة أن الدول الاستعمارية أرادت استخدام القومية الكردية وسيلة لتجزئة الدولة العثمانية، والانتقام منها، إذ انحصرت خطة منح الاستقلال الذاتي - ثم الاستقلال المطلق - لأكراد تركيا دون إيران والعراق وسوريا، وذلك بسبب علاقات الغرب الوطيدة بإيران، وسيطرة بريطانيا وفرنسا الواقعية على العراق وسوريا آنذاك، وهما يريدان السيطرة على الدولتين كاملتين دون استقلال لأكرادهما.

كما تتضح محاولة الغرب الإفادة من النزاعات في داخل القومية الكردية، حيث تتعالى العصبية القبلية والعشائرية، بدليل أن معظم أكراد تركيا لم يستجيبوا لهذه الاتفاقية، وانضموا إلى إخوانهم الأتراك ضد القوى الغربية في حرب الاستقلال التي قادها أتاتورك سنة ١٩١٩م.

لقد ولدت هذه الاتفاقية ميتة، إذ رفضها أتاتورك ومن معه، وكان في حاجة إلى تأييد الأكراد له، وقام الأكراد بالفعل بدور كبير في محاربة الأرمن واليونانيين، كما شاركوا

---

(١) د. حصاف: المرجع السابق ص ١٨٥.

(٢) أحمد تاج الدين: المرجع السابق ص ١٠٥-١٠٦.

الأتراك في تقديم تضحيات بارزة في حربهم ضد الإنجليز والفرنسيين، وفي هذه الأثناء قُدمت للأكراد وعود باستقلالهم الذاتي[١].

ونجحت حكومة أنقرة في إقناع الأكراد بإرجاء مطالبهم القوميّة، فأرسل مصطفى كمال وفداً إلى مؤتمر لوزان ١٩٢٣م، برئاسة صديقه عصمت إينونو، وأثناء تواجد الوفد هناك، طلب مصطفى كمال من النواب الأكراد في البرلمان الرد على الاستفسار الذي وصله من إينونو (الكردي الأصل) حول رغبة الأكراد في البقاء ضمن الدولة التركيّة الجديدة، فردّ النائب الكردي عن أرضروم، حسين عوني بيك، قائلاً: "إن هذه البلاد هي للأكراد والأتراك، وإن حقّ التحدّث من هذه المنصّة، هو للأُمتَين، الكرديّة والتركيّة"، وأيده النواب الكرد في البرلمان. وبموجبه، أعلن إينونو في مؤتمر لوزان، أن "تركيا هي للشعبَين، التركي والكردي، المتساويَين أمام الدولة، ويتمتعان بحقوق قوميّة متساوية".. وحين وجد المشاركون، أن الأكراد، لا يريدون الانفصال عن تركيا، وأن الأخيرة وعدت بتلبية مطالبهم القوميّة، وافقوا على غض النظر عن أي فكرة لاستقلال كردستان، وحذفوا ذكر الأكراد من وثائق المؤتمر[٢].

وتم توقيع معاهدة لوزان التي أنهت الخلافة العثمانية، وتوارت معها فكرة الجامعة الإسلامية التي أرَّقت الغرب.. وكان أعظم ما ظفر به الأكراد في اتفاقية لوزان- في الفصل الثالث منها - هو النص على احترام حقوقهم كأقلية جنسية في التحدث بلغتهم الكردية، وإصدار الصحف والمجلات والكتب بها، وإنشاء الأندية الاجتماعية، والتمتع بالحقوق السياسية مثل غيرهم من الأتراك[٣].

---

(١) راجع محمد أمين زكي: **خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن**،.ترجمه من الكردية محمد علي عوني، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٣٩م، ص ٢٨٦-٢٨٧

(٢) د. إسماعيل محمد حصاف: كوردستان والمسألة الكوردية ص٢١٧، ٢٢١، خالد عقلان: الجذور التاريخية للقضية الكردية ص ١٣-١٤.

(٣) د. إسماعيل محمد حصاف: السابق ص ٢٢١، أحمد تاج الدين: المرجع السابق ص ١٠٨.

ولم تتحقق هذه البنود أيضًا، فقد تصاعدت نزعة القوميين الأتراك، وحرموا استخدام اللغة الكردية، ونشطت محاولات تتريك الأكراد، مما أدى إلى تعدد ثوراتهم[1].

ميلاد المشكلة الكردية:

جاء ميلاد المشكلة الكردية إذن عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، واقتسام ممتلكاتها بتوقيع اتفاقية سايكس بيكو سنة ١٩١٧م، التي جعلت العراق تحت الانتداب الإنجليزي، وسوريا تحت الانتداب الفرنسي، وأبقت الجزء الكردي في تركيا على حالته، وكذلك الجزء الواقع تحت سيطرة فارس خاضعًا لها، وعلى ذلك تقسمت أراضي الأكراد بين الدول الأربع: تركيا، وإيران، والعراق، وفارس.

كان ذلك التقسيم الغريب الذي تم بإرادة استعمارية مقصودًا لإيجاد بؤرة صراع دائم يستنزف قوى الدول الأربع، ويوجد حالة من عدم الاستقرار والتوتر بين شعوب إسلامية، ويغري بالعداوة - باسم القومية والوطنية - بين الأمة الكردية وحكومات هذه الدول الأربع التي تتقاسمها أنظمة حكم متباينة تجمع بينها تطبيقات مختلفة للعلمانية، وتتخذ موقفًا مجانبًا أو معاديًا للدين، فلما خالفت إيران تلك المنظومة السياسية بعد الثورة اتخذت مذهبًا شيعيًا مغاليًا يستفز مشاعر الأكراد وهم في غالبيتهم سنة قبليون مقاتلون.

الثورات الكردية:

وقعت ثورة الشيخ الكردي سعيد بيران سنة ١٩٢٥، ضد نظام كمال أتاتورك، ورفعت رايات العودة إلى الخلافة الإسلامية - التي ألغيت قبل ذلك بعام واحد - وسيادة الشريعة، وقد كلفت هذه الثورة الحكومة التركية كثيرًا من الجهد حتى تمكنت من قمعها، وشكلت

---

(١) د. حامد محمود عيسى: **المشكلة الكردية في الشرق الأوسط منذ بدايتها حتى سنة ١٩٩١**، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٩٩٢م، ص ٣٥٧- ٣٥٩.

المحاكمات العسكرية لرجالها، فأُعدم أكثر من مئتين منهم، على رأسهم الشيخ سعيد قائد الثورة، وقتل عدة آلاف، وهدمت أكثر من مئتي قرية -بحسب الروايات الكردية- واتخذت إجراءات جذرية للسيطرة على الخطر الكردي[1]، وذلك بالرغم من صعوبة إدراج حركة الشيخ سعيد بيران ضمن الحراك القومي بسبب دوافعها الإسلامية الظاهرة، وإن كانت الصحف التركية قد بالغت في تصوير الهدف القومي للثورة- وأنها سعت إلى تكوين "كردستان مستقل"[2]، تفاديًا لإبراز النزعة الإسلامية لهذه الثورة.

قاد نمو المشاعر والوعي القومي لدى الأكراد إلى تشكيل أحزاب سياسية وتشكيلات عسكرية حاولت الاستفادة من التناقضات السياسية والمذهبية والقومية القائمة بين الدول الأربع: تركيا وإيران والعراق وسوريا.

توحدت الأحزاب والجمعيات الكردية في حزب واحد سُمِّي حزب خويبون Xoybûn (أي الاستقلال) في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٧، وأعلن عن تأسيسه في الشام، نتيجة لقاءات وتنسيق تم بين القيادات الكردية والأرمينية برعاية المفوضية الفرنسية في سوريا[3]، وسرعان ما أعلن الحزب عن قيام جمهورية أرارات الكردية في شرق تركيا في ٨ أكتوبر في السنة نفسها، لتكون أول دولة كردية مستقلة، وخاطب قادتها دول العالم وعصبة الأمم للاعتراف بها، فلم تجد إجابة من أحد، وسرعان ما عصفت بها القوات التركية وقضت عليها سنة ١٩٣٠م[4].

---

(١) د. حامد محمود عيسى: السابق ص ٣٦٠-٣٦٦، حصاف: مرجع سابق ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) أحمد تاج الدين: المرجع السابق ص ١١١-١١٢.

(٣) فريق باحثين: **مسألة أكراد سورية الواقع والتاريخ والأسطورة**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، يناير سنة ٢٠١٣م، ص٤٩.

(٤) راجع مادة (خويبون)، ومادة (تمرد أرارات) في **ويكيبيديا الموسوعة الحرة**.

وفي هذه الأجواء أُعلن التصريح المنسوب إلى وزير العدل التركي وأستاذ القانون محمود أسعد بوزكورت - في نفس السنة ١٩٣٠- الذي يفيض عنصرية واستعلاء حيث يقول: "نحن نعيش في أكثر بلدان العالم ديموقراطية، أقصد تركيا. التركي هو السيد، وصاحب الحق الوحيد في هذه البلاد، أما الذين لا ينتمون إلى العرق التركي النقي فلهم حق واحد؛ وهو أن يكونوا خدمًا وعبيدًا، دع الصديق والعدو يعرفان هذه الحقيقة، ودع الجبال تعرفها أيضًا"[١].

لم تنقطع الانتفاضات الكردية ضد تركيا، ولم تحقق أي منها هدف الانفصال أو الحكم الذاتي، ودخلت القضية الكردية منعطفًا جديدًا بتأسيس حزب العمال الكردستاني PKK سنة ١٩٧٨ بقيادة عبد الله أوجلان، واعتنق الفكر اليساري القومي، وتسبب منهجه العدواني في وضع عديد من الدول إياه ضمن لائحة المنظمات الإرهابية، وقد تعددت محاولات الاتفاق بين الجانبين: التركي والكردي منذ بداية تسعينات القرن الماضي، لكنها لم تفلح بسبب عدم التزام مقاتلي الحزب بالمتفق عليه، ومعارضة بعض القوى الفاعلة في الداخل التركي والجيش لمقتضى الاتفاقيات، ودعم إيران وسورية بعض سياسات الحزب نكاية في تركيا[٢].

أوضاع القومية الكردية في إيران والعراق بعد الحرب العالمية الثانية:

وكان من المتوقع أن يواصل الاتحاد السوفيتي - بعد خروجه منتصرًا في الحرب العالمية الثانية - استغلال المسألة الكردية، وهو ما حدث بالفعل، إذ توغلت القوات السوفيتية في داخل الأراضي الإيرانية لمعاقبة شاه إيران بحجة ميله إلى ألمانيا النازية،

---

(١) راجع أحمد تاج الدين: المرجع السابق ص ١٢٠، حصاف: السابق ص ٢٢٨، نقلًا عن جريدة مليت التركية عدد ١٩ سبتمبر ١٩٣٠م.

(٢) خالد عقلان: **الجذور التاريخية للقضية الكردية** ص ١٥-١٨.

وحرضوا أكراد إيران على إعلان دولة لهم في المناطق المجاورة للاتحاد السوفيتي، في يناير ١٩٤٦م، عرفت بجمهورية مهاباد، أو جمهورية كردستان الديمقراطية، وقدم السوفييت للجمهورية الوليدة الدعم والسلاح، ثم انسحب السوفييت من إيران ضمن توافقات مع أمريكا، فأرسلت الحكومة الإيرانية قواتها فسحقت الدولة الجديدة، وأعدمت قادتها في ديسمبر من السنة نفسها، أي أن عمر هذه الدولة كان نحو ١١ شهرًا[١].

ومن المهم أن نشير هنا إلى اصطناع الدول الكبرى رجالاً لها، وتهيئتهم لصناعة المستقبل، فقد كان الملا مصطفى البرزاني من هؤلاء الأكراد الذين فروا إلى الاتحاد السوفيتي في سنوات الاضطراب أثناء الحرب العالمية، فأعطوه رتبة جنرال، ولما عاد إلى الظهور أصبح وزيرًا للحربية في جمهورية مهاباد الكردية التي أقامها السوفييت، فلما سقطت الدولة الوليدة سريعًا عاود الفرار إلى الاتحاد السوفيتي، ومكث هناك نحو ١٠ سنين؛ ليظهر من جديد بعد نجاح ثورة عبد الكريم قاسم في العراق سنة [٢]١٩٥٨.

نجح البرزاني في إقامة علاقات وطيدة مع عبد الكريم قاسم، وقاد ذلك إلى مفاوضات انتهت بتحقيق قدر من الحكم الذاتي للأكراد، واعترف الدستور المؤقت بالقومية الكردية قومية رئيسة، واعتبر الأكراد شركاء في الوطن مع العرب والأقليات الأخرى.. غير أن طبيعة النظامين الشمولية العسكرية قادت كلا الرجلين إلى خلاف عميق قوَّض كل ما انتهيا إليه، وعاد البرزاني إلى القتال المسلح عام ١٩٦١.[٣]

وفي مطلع السبعينات من القرن الماضي نشب الصراع بين إيران والعراق، ووجدت إيران ضالتها في البرزاني الذي قبل التحالف معها، وكان عدوها بالأمس- حيث كان الشاه

---

(١) أحمد تاج الدين: المرجع السابق ص ٢٥-١٢٥.

(٢) أحمد تاج الدين: المرجع نفسه ص ١٢٤-١٢٥.

(٣) خالد عقلان: الجذور التاريخية للقضية الكردية ص ٢٤-٢٥.

قد أصدر قرارًا بإعدامه أثناء ثورة جمهورية مهاباد- وأمده الشاه ب ٣٠٠ مليون دولار، كما أمدته المخابرات الأمريكية ب ١٢ مليونًا أخرى، ليشن الحرب على النظام البعثي في العراق، تلك الحرب التي استنزفت الجيش العراقي، فلجأ صدام حسين إلى التصالح مع الشاه، وتوقيع اتفاق باقتسام منطقة شط العرب المتنازع عليها بين البلدين، مقابل إيقاف الدعم الإيراني للأكراد، وهو ما حدث بالفعل سنة ١٩٧٥، كما خذلتهم أمريكا، ولم يتلق البرزاني ردًا من الرئيس الأمريكي كارتر على رسائله المتكررة التي يطلب فيها لقاءه.. فأدرك البرزاني- الثائر الضال - أنه " لم يكن زعيم ثورة، بل كان مخلب قط في يد الشاه والمخابرات المركزية الأمريكية"، فقرر الذهاب إلى أمريكا ليعيش ما بقي له لاجئًا سياسيًا هناك حتى وفاته سنة ١٩٧٩[1].

المعارضة الإسلامية الكردية لنظام إيران:

وفي إيران قامت الثورة ضد الشاه محمد رضا بهلوي، وانتهت بخلعه سنة ١٩٧٩، واجتذبت الشعارات الإسلامية للثورة عواطف كثير من الإسلاميين في العالم قبل أن يفيقوا على حقيقتها المذهبية الشيعية الضيقة، وكان الإسلاميون من الأكراد ضمن هؤلاء، حيث أيدها أحمد مفتي زادة (١٩٣٣-١٩٩٣) الزعيم الإسلامي الكردي السني ومؤسس "مدارس القرآن" ومجلس شورى أهل السنة والجماعة، وأحد قيادات الإخوان المسلمين في كردستان، وكان ينادي بدولة كردية إسلامية ذات استقلال ذاتي ضمن الدولة الإيرانية، وممن عُرفوا بمعارضة الشاه المخلوع، وتعرض للسجن في عهده، وجرت مفاوضات في مرحلة التجهيز للثورة الإيرانية بينه وبين الخميني وأنصاره أيد فيها الخميني مطالب الكرد في الحكم الذاتي مقابل مشاركتهم النشطة في الثورة، ولما نجحت الثورة أصبح مفتي زادة عضوًا في مجلس الثورة ومجلس الشورى الإسلامي في إيران.. لكن سرعان ما

(١) أحمد تاج الدين: الأكراد تاريخ شعب وقضية أمة ص ١٢٩-١٣٠، خالد عقلان: مرجع سابق ص٢٥.

اتضحت له حقائق التعصب المذهبي الشيعي؛ والرؤية القومية الفارسية للخميني وثورته، فاستقال من المجالس التي شارك فيها، وأعلن خلافه مع الخميني، فما لبث أن اعتُقل سنة ١٩٨٣، وحكم عليه بالسجن خمس سنين، وفي سجنه الانفرادي ناله التعذيب الشديد، ولم يطلق سراحه بعد انتهاء فترة حبسه، بل بقي خمس سنين أخرى، ثم أطلق سراحه سنة ١٩٩٣، وتوفي بعد إطلاق سراحه بأسبوعين، وذكر أقاربه أن سبب وفاته كان ما لقيه من تعذيب، حيث كان معظم عظامه قد تكسر في سجن الثورة التي منّى نفسه بنجاحها، وشارك في صنعها، ثم تجرع مرارة انقلابها على تعهداتها له وللأكراد[١].

استغلال الأكراد في أثناء الحرب العراقية الإيرانية:

واشتد الصراع بين العراق وإيران إثر قيام الجمهورية الشيعية في إيران، فنشبت الحرب التي دامت ثماني سنوات ١٩٨٠-١٩٨، واستعمل الطرفان المتصارعان الورقة الكردية لتحقيق غاياتهما، فأمد العراق الأحزاب الكردية لقتال إيران، بينما لجأ الأكراد المتحالفين مع إيران إلى خطوة جريئة مباغتة، فاستولوا على بلدة حلبجة جنوبي كردستان العراقية، فلم يتوان صدام حسين من ارتكاب جريمة مروعة، حيث أمر بضرب البلدة بالأسلحة الكيماوية في ١٧ مارس ١٩٨٨، فلقي نحو خمسة آلاف من أهلها من الرجال والنساء والأطفال مصرعهم، وأصيب نحو عشرة آلاف[٢].

ولما تعرضت العراق للضغوط الدولية والهزيمة في حرب الخليج سنة ١٩٩١م فرضت الولايات المتحدة وحلفاؤها منطقة حظر جوي على شمال العراق، مما سمح للأكراد

---

(١) خالد عفلان: الجذور التاريخية للقضية الكردية ص ٢٠، وراجع مادة "**أحمد مفتي زادة**" في ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط https://2u.pw/3XsSMB وموقع ويكيبيديا الإخوان المسلمين.

(٢) إسماعيل بيشيكجي: **كردستان مستعمرة دولية**، ترجمه إلى العربية زهير عبدالملك، دار APEC السويد، سنة ١٢٢١، ص ٢٠.

بالتمتع بحكم ذاتي[١]. كما توافقت القوى السياسية على أن يكون رئيس الجمهورية من الأكراد، وهو منصب شرفي يرمز لسيادة البلاد ووحدتها، كما نص الدستور العراقي الجديد على أن تكون اللغتان العربية والكردية هما اللغتان الرسميتان للعراق، وتستعملان في شتى المجالات[٢].

اعتراف أمريكي باستغلال قضية الأكراد:

يقول الجنرال والمحلل البريطاني جون هاكيت: "إن الغرب يساعد الكرد على التمرد لإيجاد قوة ضغط في الخليج العربي، ليس إلا". وورد في تقرير للجنة شكلها الكونجرس الأمريكي سنة ١٩٧٥ والمعروفة بلجنة Pike قوله: "لقد كانت سياستنا غير أخلاقية تجاه الكرد، فلا نحن ساعدناهم، ولا نحن تركناهم يحلون مشاكلهم بالمفاوضات مع الحكومة العراقية، لقد حرضناهم، ثم تخلينا عنهم"[٣].

القضية الكردية في سوريا:

يمثل الأكراد ما بين سبعة وعشرة في المئة من تعداد السوريين، ويعيش معظمهم في محافظتي الحسكة وحلب وفي العاصمة دمشق.

وقد مرّت القضية الكردية في سورية بعدة مراحل، فمنذ الانسحاب العثماني وبدء مرحلة الانتداب الفرنسي لم تكن القضية الكردية في سورية متبلورة بشكلها القومي الحالي، باستثناء مطالبات بعض وجهاء العشائر الكردية الفرنسيين بمنح مناطقهم

---

(١) خالد عقلان: مرجع سابق ص ٢٦.

(٢) راجع مادة (٤) من الدستور العراقي على الرابط الآتي، https://presidency.iq/info.aspx?jimare=gsc.tab#١٠٠٢=٠ وتم الاطلاع عليه في ٧/ ٧/ ٢٠٢٢.

(٣) محمد مورو: استخدام الأقليات في الصراع مع العالم الإسلامي، تقرير ارتيادي (استراتيجي)، المجلد ٢٠٠٧، مجلة البيان، السعودية، العدد ٤، بتاريخ ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٧.

حكمًا ذاتيًا، بينما رفض ذلك وجهاء آخرون أصروا على إبقاء الارتباط مع دمشق. ولم تتغير الأمور كثيرًا بعد الانسحاب الفرنسي نظرًا لطبيعة الحياة السياسية ذات الشكل الديموقراطي آنذاك، فقد شهدت تلك الفترة استلام عدد من الكرد رئاسة الجمهورية دون أن يشكل انتماؤهم القومي أية مشكلة لدى السوريين، أمثال حسني الزعيم (١٩٤٩) وفوزي السلو (١٩٥١-١٩٥٣)، إضافة إلى محسن البرازي الذي كان رئيسًا للوزراء أثناء حكم حسني الزعيم[١].

وكان للأكراد دور كبير في انقلاب حسني الزعيم حتى "تردد الحديث في تلك الفترة عن قيام دولة كردية في سوريا، تعريضًا بمنفذي الانقلاب"، فقد كان قائده وأكبر معاونيه من الأكراد، وكانت فيهم عصبية مناوئة للعرب، لا يجهرون بها، حيث ذكر الضابط الأرمني ألبير كيلاجيان - أحد المقربين من حسني الزعيم - أنه "استدعاه عقب الانقلاب، وكلفه بانتقاء حرس خاص بالرئاسة من عناصر غير عربية، كالأكراد والشركس، وقال له: إن استطعت ألا يكون بينهم من يتكلم العربية فذلك أفضل"[٢].

تسببت معاناة الأكراد في تركيا في هجرة كثير منهم إلى الجوار السوري، كما تسبب الخلاف السياسي بين سوريا وتركيا؛ وبين سوريا والعراق في انتقال بعض الزعماء الأكراد إلى سوريا، ومنهم السياسي الكردي العراقي جلال الطالباني - الذي تولى رئاسة العراق بعد الغزو الأمريكي- وقد أثمر نشاطه تأسيس الحزب الديمقراطي الكردستاني السوري سنة ١٩٥٧، بموافقة ضمنية من النظام السوري الذي وجهه لإحداث قلاقل في تركيا بسبب كونها إحدى دول حلف بغداد[٣].

---

(١) عبد الرحيم سعيد: **مستقبل المشروع الكردي في سوريا دراسة تحليلية**، مركز جسور للدراسات، يناير ٢٠٢٠، ص٣.

(٢) مطيع السمان: **وطن وعسكر**، بيسان للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، سنة ١٩٩٥، بشير زين العابدين: مرجع سابق ص ١٤٨، ص٣٣١.

(٣) خالد عقلان: مرجع سابق ص ٢٧-٢٨، وقد ضم حلف بغداد بريطانيا ومعها العراق وتركيا وإيران وباكستان سنة ١٩٥٥، ودعمته أمريكا لمقاومة المد الشيوعي آنذاك..

في الواقع، كانت **سيطرة حزب البعث** على السلطة في سورية هي المحطة الأبرز في القضية الكردية، حيث تم تغيير اسم الجمهورية السورية إلى الجمهورية العربية السورية، وبدأ تنفيذ عدة مشاريع، أبرزها الإحصاء الاستثنائي في محافظة الحسكة سنة ١٩٦٢ لتحديد هوية المواطن، وتحديد الأكراد الأجانب القادمين من تركيا، وتصحيح السجلات المدنية، حيث اعتبروا كل من كان مسجلاً في سجلات الأحوال المدنية قبل سنة ١٩٤٥م سوريًا، بخلاف من جاء بعد ذلك. مما نتج عنه إسقاط الجنسية السورية عن عشرات الآلاف من الأكراد ممن قيل إنهم نزحوا من الأراضي التركية نتيجة فرارهم إليها من ممارسات القوميين الأتراك، وكانت سلطات الانتداب الفرنسي على سوريا قد شجعتهم على ذلك، وسهلت لهم الإقامة والعمل، ومنحتهم الجنسية السورية، مما يهيئ فيما بعد لدعوات الانفصال[١]، كما هاجرت إلى الحسكة عدة آلاف أخرى من الأكراد أرادت الحصول على أراضٍ زراعية مجانية؛ إثر تطبيق سياسة الإصلاح الزراعي التي انتهجها النظام أثناء الوحدة مع مصر[٢].

وفي عام ١٩٦٥، قررت الحكومة السورية إنشاء حزام عربي في منطقة الجزيرة، أو محافظة الحسكة، على امتداد الحدود التركية السورية، وهدف المشروع إلى تفريغ الشريط الحدودي بين سوريا وتركيا من سكانه الأكراد، وتوطين أسر عربية بدلا عنهم، واكتسب المشروع صفته التنفيذية سنة ١٩٧٣، حتى تم توطين أكثر من أربعة آلاف أسرة

(١) فريق باحثين: مسألة أكراد سورية الواقع والتاريخ والأسطورة ص١٧-٢٨، ٣٤، وقد جرى الإحصاء في ٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٢ ونجم عنه انقسام الأكراد في سوريا إلى: أكراد متمتعين بالجنسية السورية، وأكراد مجردين من الجنسية، ومسجلين في القيود الرسمية على أنهم أجانب، وأكراد مجرّدين من الجنسية،غير مقيدين في سجلات الأحوال المدنية الرسمية، وأطلق عليهم وصف "مكتوم القيد" وهو مصطلح إداري سوري يشير إلى عدم وجود الشخص المعني في السجلات الرسمية (خالد عقلان: مرجع سابق ص ٣٠-٣٢).

(٢) فريق باحثين: مسألة أكراد سورية الواقع والتاريخ والأسطورة ص٢٨- ٢٩.

عربية في الشريط الحدودي، وظفر المشروع بضجيج عالٍ من جانب النظام السوري ليبرهن على قوميته، ومن جانب الأكراد ليؤكدوا مظلوميتهم[١].

وازدادت العلاقات السورية التركية سوءًا في فترة السبعينات حيث سمح حافظ الأسد لحزب العمال الكردستاني – ذي التوجهات اليسارية – المعادي لتركيا بفتح معسكرات تدريب له في سورية، وسمح لزعيمه عبد الله أوجلان بالإقامة فيها، وإزاء اتساع عمليات الحزب الدموية في تركيا حشدت قواتها على الحدود السورية في عام ١٩٩٨ مهددة باجتياحها، فتدخلت القوى الإقليمية لكبح جماح الأزمة، ووقع الطرفان معاهدة سرية عُرفت باتفاق أضنة، تعهد فيه النظام السوري بالامتناع عن دعم حزب العمال، وإغلاق معسكراته في سوريا، وطرد زعيمه أوجلان، الذي استطاعت تركيا القبض عليه فيما بعد، وإيداعه السجن[٢]. وكان من بنود الاتفاق إعطاء تركيا الحق في "ملاحقة الإرهابيين" في الداخل السوري حتى عمق خمسة كيلومترات، و"اتخاذ التدابير الأمنية اللازمة إذا تعرض أمنها القومي للخطر" [٣].

ومع اندلاع الثورة السورية في مارس ٢٠١١ وجد الكرد فرصة لفرض الاعتراف بوجودهم وقوميتهم واستقلالهم، واضطر نظام الأسد إلى الانسحاب من المناطق الكردية بشكل جزئي في صيف ٢٠١٢م، وسلّم إدارتها لحزب العمال الكردستاني وفرعه السوري حزب الاتحاد الديمقراطي، مما عده الأكراد تحريرًا وتحقيقًا لآمالهم في الاستقلال الذاتي أسوة بإخوانهم في كردستان العراق[٤].

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩-٤٢.

(٢) اختُطف عبد الله أوجلان من العاصمة الكينية نيروبي في ١٥/ ٢/ ١٩٩٩، وتمت محاكمته في تركيا، حيث حكم عليه بالإعدام، ثم خُفف الحكم إلى السجن المؤبد.

(٣) **اتفاق أضنة التركي السوري.. بروتوكول أمني حمّال أوجه**، تقرير بموقع الجزيرة للأخبار، تم الاطلاع عليه في ٨/ ٧/ ٢٠٢٢ الساعة ١٥ ,٠٠ على الرابط https://2u.pw/qqPllU.

(٤) راجع خالد عقلان: الجذور التاريخية القضية الكردية ص٣٧-٣٨.

الاستعمار الفرنسي يستغل طموحات البربر:

إبان الاحتلال الفرنسي للمغرب أصدر الملك محمد الخامس سنة ١٩٣٠ الوثيقة المعروفة بالظهير البربري، واسمها الأصلي "الظهير المنظم لسير العدالة في المناطق ذات الأعراف البربرية"، والتي لا توجد بها محاكم شرعية، والظهير هو القانون الصادر عن الملك، والذي أباحت فيه السلطة المستعمرة للقبائل البربرية الاحتكام إلى أعرافها القبلية، فاعتبرته الحركة الوطنية المغربية محاولة لإقصاء تلك المناطق عن الوطن المغربي، وإلحاقها بالثقافة الفرنسية؛ ضمن مخطط فرنسة بلاد المغرب، ولم ينضم الملك إلى صف معارضة هذا الظهير الذي وقعه بنفسه وبدون إكراه، إلا بعد أن اقتنع بأطروحة الحركة الوطنية التي رأت في الظهير خطوة استعمارية قد تؤدي إلى تقسيم البلاد[١].

ويعبر الزعيم المغربي علال الفاسي -وقد عارض بقوة هذا الظهير البربري، واعتقل ونُفي بسبب معارضته إياه- عن خطورته ببيان أن القصد منه كان السعي إلى فرنسة المغاربة البربر، وتنصيرهم، وذلك عن طريق عزلهم عن المجتمع العربي المغربي، يساعد على ذلك وعورة أماكنهم الجبلية المعزولة، وضعف التزامهم الديني، وقد عبر الكتاب الفرنسيون في هذه الفترة عن ضرورة أن تكون اللغة الفرنسية لا البربرية هي البديل للغة العربية في المنطقة البربرية، وأن يكون التعليم فرنسيًا خالصًا، فتكون المدرسة هناك "مدرسة فرنسية بتعليمها وحياتها، بربرية بتلاميذها وبيئتها، إذن فليس ثمة واسطة أجنبي، كل تعليم عربي وكل تدخل من قبل الفقيه، وكل ظاهرة إسلامية؛ يجب منعها بصرامة تامة"[٢].

---

(١) راجع د. عبد السلام بلاجي: **الأمازيغية والملكية بالمغرب**، مقال على موقع الجزيرة، تم الاطلاع عليه في ١٠/ ١٠/ ٢٠٢٢ على الرابط: https://cutt.us/y1Rm2.

(٢) علال الفاسي: **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، دار نشر عبد السلام جسوس، طنجة، المغرب، (د.ت)، ص ١٤١- ١٤٢.

ويقول موريس لا جلاي أحد رجال الإدارة الفرنسية بالمغرب في مقال له بعنوان "المدرسة الفرنسية لدى البربر" نشره سنة ١٩٢١: "يجب أن نحذف تعليم الديانة الإسلامية واللغة العربية في مدارس البربر، وأن تُكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية... يجب أن نعلم البربر كل شيء ما عدا الإسلام[١].

وكان مما نص عليه الظهير ترك الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية في مناطق البربر، وإتاحة احتكامهم إلى محاكم عرفية، تقضي بأعرافهم القبلية الجاهلية، وأن تُرفع قضايا الجنايات التي تقع في مناطقهم إلى المحاكم الفرنسية ذاتها، أي يعمد إلى فصل الجزء الأكبر من البلاد عن سلطة الملك الدينية والسياسية التي تتجلى في المنظومة القانونية المغربية، كما تنص على غلق الكتاتيب والمدارس الدينية والمساجد، وتحول دون تجوّل العلماء في تلك المناطق لتعليم الناس دينهم[٢].

وامتدت جهود الاستعمار الفرنسي إلى تشجيع البحوث التي تتزيَّا بأردية العلم لتبحث في أصول اللغة البربرية، وتجتهد في ادعاء أصول لاتينية للبربر، متجاهلين الأدلة الكثيرة -وإن لم تكن قطعية الدلالة- التي تذهب إلى أن أصول البربر عربية، ولغتهم عظيمة الشبه بالعربية القديمة اليمنية[٣]، وأنهم بعد الفتح الإسلامي تعربوا، وأصبح نحو ثلث الكلمات في اللغة البربرية التي يتكلم بها أبناء منطقة القبائل الكبرى عربية[٤].

لقد كان للحراك الذي تفجر غضبًا من الظهير البربري فضل بعث حركة وطنية مغربية شابة، ظلت تعارض هذه التفرقة بين العرب والبربر، وتنظم المظاهرات الغاضبة، وتقيم

---

(١) الفاسي: المرجع السابق ص ١٤٣.

(٢) الفاسي: السابق والصفحة.

(٣) راجع: د. عثمان السعدي: **الأصول العربية للبربر**، منشورات الطليعة، سنة ١٩٨٨، مقدمة الكتاب، وانظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٢٠-١٢٣، جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٣، ص ٢٥٨.

(٤) لوبون: السابق ص ٢٥٩.

الدروس الدينية لتوعية الأمة، وتقدم العرائض الرافضة لسلطات الاحتلال وللملك، وامتد تأثيرها إلى العالم الإسلامي في مصر وفلسطين وجاوة وغيرها، بل وجدت نصراء لها في فرنسا نفسها.. وشارك فيها البربر أنفسهم الذين عبروا عن عمق انتمائهم الإسلامي، وأكدوا استمرار مسيرة الالتزام به على نهج أبطالهم السابقين ممن قامت على أكتافهم دول بربرية نشرت الإسلام، وحافظت عليه، ودافعت عنه في المغرب والأندلس من مرابطين وموحدين وبني مرين وسواهم(١).

ولم تنته محاولات التفريق بين العرب والبربر بعد الاستقلال، إذ واصل دعاة الفرنكوفونية جهودهم في التفريق، ومع نهاية ستينيات القرن العشرين أسست جمعيات تدعو إلى الاهتمام بالثقافة واللغة الأمازيغيتين، وربما جاء ظهورها كرد فعل على الحركات السياسية القومية وحركة التعريب المركزية، ومنذ أواسط التسعينات من القرن الماضي، تكاثر عدد هذه الجمعيات في مختلف مناطق المغرب - ويفوق عددها الآن ٦٠٠ جمعية- وبدأت مطالبها تتسيَّس: ومنها تعميم تدريس اللغة الأمازيغية على المغاربة، واعتبارها لغة رسمية، والتنصيص عليها في الدستور المغربي(٢).

واتخذ الملك المغربي خطوة لتلبية بعض مطالب الأمازيغ، حيث أعلن عن تأسيس "المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية" مؤكدا أن "الأمازيغية ملك لكل المغاربة بدون استثناء.. وبعد تأسيس هذا المعهد، وإقرار تدريس الأمازيغية في المدارس الحكومية، قامت معركة أخرى حول الحروف التي ستكتب بها هذه اللغة هل هي الحروف العربية أم اللاتينية أم حروف تيفيناغ؟ وبدا للملاحظين أن المنادين بتبني الحروف اللاتينية كان لهم الصوت الأقوى داخل المعهد وخارجه، يليهم أنصار حروف "تيفيناغ"، وأن أنصار الحرف العربي لا قوة لهم داخل المعهد بل خارجه(٣).

(١) راجع الفاسي: السابق ١٤٥-١٤٨.

(٢) راجع د. عبد السلام بلاجي: الأمازيغية والملكية بالمغرب، مقال سبقت الإشارة إليه.

(٣) راجع المقال السابق.

ومن المعارك الرئيسة المحتدمة معركة المطالبة ب"دسترة اللغة الأمازيغية" بالنص عليها في الدستور كلغة رسمية إلى جانب اللغة العربية، وتجدر الإشارة إلى كون دستور المغرب لسنة ١٩٩٦ ومختلف الدساتير السابقة له نصت على أن "المغرب دولة إسلامية، لغتها الرسمية هي اللغة العربية"، وبذلك فقد نص على إسلامية الدولة؛ لأن الإسلام هو القاسم المشترك بين مكوناتها السكانية، ولم ينص على عروبة الدولة، وإنما فقط على كون اللغة العربية هي لغتها الرسمية[١].

٢- ظهور الوطنية الضيقة:

أصل فكرة الوطنية لا يعارض الإسلام:

وفي ذات الوقت نشأت فكرة الوطنية، ولا نكير على إحساس المرء بوطنه، واعتزازه بمولده، وارتباطه به، ومن المواثيق التي أخذها الله على بني إسرائيل ألا يخرج أقوياؤهم ضعفاءهم من ديارهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤].. وقد روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قدم من سفر؛ فأبصر درجات المدينة؛ أوضع ناقته، وإن كانت دابة حركها"[٢]، وقال ابن حجر: "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"[٣].

ويلحق بذلك قوله صلوات الله عليه لما أخرجه قومه إلى المدينة:"ما أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَك"[٤].

---

(١) المقال نفسه.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الحج، حديث رقم ١٧٠٨، ومعنى أوضع ناقته أي أسرع حركتها.

(٣) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣/ ٦٢١.

(٤) الترمذي: سنن الترمذي ٦/ ٢٠٨، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي-بيروت، ط١، سنة ١٩٩٦.

وأنه لما بشره ورقة بن نوفل بالنبوة وأن قومه سيكذبونه ويؤذونه، سكت صلوات الله عليه، فلما قال ورقة: "ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك"، انزعج النبي ﷺ وقال: "أومخرجيَّ هم؟ قال السهيلي: "ففي هذا دليل على حب الوطن، وشدة مفارقته على النفس، وأيضًا فإنه حرم الله، وجوار بيته، وبلدة أبيه إسماعيل، فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه ما لم تتحرك قبل ذلك"[1].

وكانت الوطنية في المفاهيم القديمة لا تتجاوز حدود البلدة التي عاش فيها المرء، وربما مرابع قبيلته، ثم تطور الحال فأصبح ينسب إلى مدينته أو مقاطعته، ثم دولته[2]، وفي الواقعية التاريخية الإسلامية لم تكن نسبة الإنسان إلى بلده حائلاً دون يقينه في وحدة دار الإسلام، وحقه في التجوال في أي بلد إسلامي شاء، وكانت رحلة العلماء في طلب العلم، أو رحلة الحجيج إلى أداء مناسكهم خير مثال على ذلك.. وظل الأمر كذلك حتى في حال ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها إلى أكثر من دولة خلافة: عباسية في بغداد، وأموية في قرطبة، وعبيدية فاطمية في القاهرة، إلى جانب الدويلات المستقلة في المشرق أو في المغرب.. فلم يكن المسلم يعرف حدودًا جغرافية تفصله عن الذهاب حيث شاء، فكان الإسلام هو الجنسية والوطن.

نشأة الوطنية في أوروبا وانتقالها إلى الشرق:

أما في أوروبا فقد ظهرت سيادة الدولة الوطنية بعد عقود من الحروب المدمرة بين بلادها بسبب المذهبية الدينية والصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية، فضلاً عن الأطماع

(١) السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، سنة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ٢/ ٢٧٣.

(٢) كان يقال: هذا مواطن أثيني - من أثينا - أو إسبرطي، أو ينسب إلى مقاطعته؛ فيقال: مقدوني، أو من تارنتو Taranto أو بولونيا Bologna مثلما نرى في قادة الحروب الصليبية: جودفري دي بوايون، أو بوهيموند دي تارنتو..

السياسية، ثم تداعوا إلى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨م، حيث تقرر مبدأ السيادة السياسية للدول، وإنهاء الحروب على أساس ديني[١].

أي أن السيادة الوطنية في الغرب قد ظهرت لإنهاء سيطرة الكنيسة ورجال الدين على أمور السياسة والمجتمع، وللنجاة من صراعات دينية مذهبية سالت فيها دماء الأوروبيين عقودًا من الزمن، وأبادت خضراءهم، ودمرت بلادهم، وكانت الوطنية تطورًا طبعيًا لظروفهم السياسية، وسياقاتهم الفكرية.

أما في بلادنا فقد وفدت أفكار الوطنية بالمفهوم الغربي، واكتسبت أنصارًا لها في ظل الانبهار بالأفكار الغربية، وسيطرة المستعمر وثقافته، وفي الوقت ذاته كانت محققة لرغبات خبيثة للمستعمر في إيجاد البديل عن الرابطة الدينية الجامعة لبلادنا.

فميلاد الدولة الوطنية في العالم العربي تم في أجواء إسقاط الخلافة، وتجاوُز مبدأ الجامعة الإسلامية، وفرض اتفاقية سايكس بيكو والواقع الاستعماري.. "فشرعيتها تنبع من الاتفاقيات الدولية، لذا فإنها تُفرض غصبًا عن الواقع.... وبهذا الشكل تكون الدولة الإقليمية متصالحة مع "الأمر الواقع"، أو "الأمر المفعول"؛ مهما كان مريضًا، ولا تعبر سوى عن مصلحة مرحلية، وإرادة مرحلية"[٢].

ووجدنا من مفكرينا وزعمائنا من يتلقف مبادئ الوطنية باعتبارها أداة لمقاومة الاستعمار الغربي نفسه، بعد أن كان معتقد الجهاد، ووجوب ولاية المؤمن على المؤمن، وأنه لا ولاية للكافرين على ديار الإسلام، هي التي تحرك الأمة طوال تاريخها.

وكان الضعف قد دب إلى الخلافة العثمانية، وانتابها الهرم، وتقاسم الاستعمار ممتلكاتها، فبدأ يفرض إرادته في التفرقة بين البلاد التي احتلها، ويجعل لكل منها حدوده،

---

(١) راجع مادة "**صلح وستفاليا**" في ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط https://2u.pw/zuFBqA.

(٢) مازن بلال: **المسألة الكردية**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م، ص ٧٧.

ورايته، ونشيده الوطني، وجواز سفره الخاص به، وتعالت صيحات الوطنية الانعزالية، التي نفخ فيها الاستعمار من روحه.

دعاة وطنيون يؤيدون الخلافة:

وظهرت الدعوة للوطنية في الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فألَّف السياسي والأديب التركي نامق كمال مسرحيته "وطن" حوالي سنة ١٨٧٢، وعُرف بشاعر الوطن[١]، وتأسست جمعيتا "تركيا الفتاة"، و"مصر الفتاة" في زمن متقارب، وكانت الأخيرة قد أنشأها جمال الدين الأفغاني في أثناء إقامته في مصر (١٨٧١-١٨٧٩م)، والعجيب أنها كانت جمعية سرية "لم يكن فيها مصري واحد، وكان أغلب أعضائها من شبان اليهود"!! بحسب تعبير الشيخ محمد عبده تلميذ الأفغاني[٢].

وتحدث رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) حديثًا مسهبًا عن الوطن والوطنية[٣]، وكان مما قاله: "ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف، إن لم نقل إنها أشرف الأمكنة، فهي أرض الشرف والمجد في القديم والحديث... فمن ذا يضاهي مصر في كمال الافتخار، أو يباريها في الجمال والاعتبار"[٤].

وواكب حديثه صنيع محمد علي باشا الذي أسس جيشًا من المصريين؛ وإن كانوا مكرهين، ولأجل ذلك الجيش ظهرت مؤسسات دولة أرادها مستقلة له ولأولاده من

---

(١) راجع مادة "**نامق كمال**" في ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) رشيد رضا: **تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده**، مطبعة المنار، ط١، سنة ١٩٣١م، ١/ ٧٥، د. محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص ٦٣، وثمة وجه شبه آخر بين مصر الفتاة هذه وجمعية تركيا الفتاة التي قامت بالدور الأكبر في الثورة على السلطان عبد الحميد وعزله، وذلك أن كليهما تأسس على نظام جمعيات الكاربوناري الإيطالية السرية (العفاني: أعلام وأقزام ١/ ٧٨).

(٣) رفاعة الطهطاوي: **الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي**، تحقيق د. محمد عمارة، نشر مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة ٢٠١٠م، ٢/ ٤٥١-٤٥٢، المرشد الأمين ص ٩٠-٩١.

(٤) رفاعة الطهطاوي: **المرشد الأمين في تربية البنات والبنين** ص ٩١.

بعده، فكان التعليم العسكري، ثم المدني، وكانت الصناعة، وكان التطبيب، وترعرع الجهاز البيروقراطي والأمني للدولة. وكان يحيط بمحمد علي كتّاب مصريون وأجانب يعززون إنجازاته في مصر كدولة وطنية[١].

فلما جثم الاحتلال الإنجليزي على صدر مصر سنة ١٨٨٢م توارت الدعوة للوطنية مدة، لتنبعث من جديد أوائل القرن العشرين الميلادي، على يد مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨م) والحزب الوطني الذي أسسه، حيث رأوها سبيلاً إلى الاستقلال والحرية، ومرقاة إلى النهضة والمجد[٢]، فيقول مصطفى كامل: " إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد، والأساس المتين الذي تبنى عليه الدول القوية، والممالك الشامخة، وكل ما ترونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية؛ ما هو إلا ثمار الوطنية"[٣].

وجعل بعضهم في غمرة الحماسة للوطنية منها دينًا أو ما يشبه الدين، فيقول أحمد شوقي مخاطبًا وطنه مصر لما عاد إليه سنة ١٩٢٠ بعد منفاه منه:

ولو أني دُعيت لكنتِ ديني ... عليه أقابل الحتْمَ المجابا

أديـر إليك قبل البيت وجهي ... إذا فُهْتُ الشهادة والمتابا[٤]

ويقول مخاطبًا الشباب سنة ١٩٢٤م وقد أطلق سراحهم من سجون الاحتلال:

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم ... أن تجعلوه كوجهه معبودا

---

(١) راجع د. خالد فهمي: **كل رجال الباشا محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة**، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م ص ٤٠٨-٤١١، ٤١٣.

(٢) راجع د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ١/ ٦٩-٧٠.

(٣) راجع د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ١/ ٨٢.

(٤) أحمد شوقي: الشوقيات ١/ ٦٦، ويعني بالحتم المجاب: الموت، إذ لا مفر منه.. وقوله: "فهت الشهادة والمتابا" أي تفوهت ونطقت بلفظ الشهادة والتوبة، والمقصود بالبيت هنا الكعبة والقبلة..

ولُّوا إليه في الدروس وجوهكم وإذا فرغتم فاعبدوه هجودا[1]

ولا ريب أن هذه الحماسة الدافقة لا تعبر عن كفر بالدين، ولا استهانة به، وإن خالفت تحفظ أهل الإيمان، واعتزازهم بعقيدتهم أن تمس بجموح العواطف الدافقة.

ولم تكن دعوة الوطنية في بدئها معادية للدين، ولا لدولة الخلافة العثمانية، فيرى رفاعة الطهطاوي أن حب الوطن من الإيمان[2]، ويقول مصطفى كامل: " لا سلامة للدولة العلية ولمصر إلا بالوفاق والاتحاد"[3]. ويؤكد أنه لا تناقض بين دعوى الوطنية والدين الذي تقوم الخلافة باسمه، فيقول: "قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء، ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان"[4].

ويقول الإمام محمد عبده: وإنني على ضعفي -والحمد لله- مسلم العقيدة، عثماني الهوى.. فإنما الخلافة حفاظ الإسلام، ودعامة الإيمان، فحادُّها محادٌّ لله ورسوله، ومن يحاد الله ورسوله فأولئك هم الظالمون"[5].

ويقول: "لا يوجد مسلم يريد بالدولة (أي العثمانية) سوءًا، فإنها سياج في الجملة، وإذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود، بل أقل من اليهود، فإن اليهود عندهم شيء يخافون عليه، ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم، وهو المال، ونحن لم يبق عندنا شيء، فقدنا كل شيء".. ويرى أن "المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين،... وإنا على هذه العقيدة والحمد لله، عليها نحيا، وعليها نموت"[6].

---

(١) أحمد شوقي: السابق ١/ ١١١.

(٢) رفاعة الطهطاوي: **مناهج الألباب المصرية** ص ١٠.

(٣) مصطفى كامل: المسألة الشرقية ص ٧٢.

(٤) د. محمد حسين: مرجع سابق ١/ ٨٢.

(٥) محمد عبده: **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده ٣/ ٩٥**.

(٦) د. محمد حسين: مرجع سابق ١/ ٦٤-٦٥.

دعاة للوطنية المجافية للوحدة الإسلامية:

بينما رأى فريق آخر - علماني المشرب - أن الوطنية أشمل معنى من الدين، وأن الدين لا يعدو أن يكون أحد مكوناتها، وليس العهد الإسلامي إلا جزءًا من تاريخ متصل منذ عهد الفراعنة، وكان يعبر عن ذلك بقوة حزب الأمة، وأحد زعمائه أحمد لطفي السيد (١٩٦٣- ١٩٧٢)[١]، الذي سفَّه القول بأنَّ أرض الإسلام وطن لكل المسلمين، ورأى ذلك محض قاعدة استعمارية لتوسيع أملاك الدولة العثمانية، ونشر نفوذها فيما حواليها من البلاد[٢]، وعلى ذلك فهو ينادي بأن مصر للمصريين، ولا يرى سبيلًا إلى ربطها بالخلافة العثمانية[٣]، في حين لا يرى غضاضة في مدح الاحتلال البريطاني، والإشادة بالمنافع التي جلبها للبلاد، والتأكيد على أنه أمر واقع يجب التسليم به، وإن عارضه أحيانًا فلنزعته الاستبدادية، وليس لكونه أجنبيًا[٤].

لقد **غذى الاستعمار الغربي** مفاهيم الوطنية الضيقة الانعزالية بعدما تقاسم البلاد الإسلامية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم تزايدت هذه النزعات بعد فشل مشروع المملكة العربية الهاشمية الذي تزعمه الشريف حسين بن علي ضد الخلافة العثمانية، وبتوجيه الإنجليز ودعمهم سنة ١٩١٦م، وهي السنة نفسها التي تحققت فيها الخديعة الاستعمارية بتوقيع اتفاقية سايكس بيكو، وتقسيم البلاد العربية في المشرق بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، ومن ثم أصبحت الحدود الجغرافية للدول الوطنية كما قررها الاستعمار حقيقة تولت الأنظمة السياسية المتعاقبة في ظل الاحتلال تعميقها في وعي الشعوب، وحراستها.

---

(١) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٢٠٩.

(٢) أحمد لطفي السيد: تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٣م، ص ٦٣.

(٣) أحمد لطفي السيد: السابق ص ٦٥، وانظر ص ٧٠.

(٤) حوراني: السابق ٢٢٠/ ٢٢١، محمد محمد حسين: المرجع السابق ١/ ٩٥-٩٦.

المغالاة في تمجيد الوطنية الانعزالية:

ومضي دعاة الوطنية الضيقة يغالون في تمجيدها، ويلتمسون في ماضي كل بلد ما يعزز مشاعر الانتماء إليه بديلاً للرابطة الإسلامية الجامعة بينهم.. وظهرت شوفينية خرقاء؛ لا أساس لها بين شعوب جمعها الدين والتاريخ واللغة والعادات والمشاعر والآمال المشتركة على مدى أكثر من ألف عام..

فبينما نادى الوطنيون الأتراك بشعار "تركيا فوق الجميع"؛ نادى نظراؤهم المصريون بشعار "مصر فوق الجميع"، وهي شعارات ليس لها نصيب من الواقع، ولا حظ من الحكمة.

ففي مصر كانت العناية بالآثار الفرعونية، وتمجيد التاريخ القديم[1]، والدعوة إلى الكتابة والخطابة باللهجة العامية المصرية، وإلى الأدب المصري، والفنون المصرية[2].

فدعا أحمد لطفي السيد في عام ١٩١٢م إلى تمصير اللغة الفصحى، وشاركه سلامة موسى، ولويس عوض وغيرهما[3]، وقد مر بنا بيان خطورة هذه الدعوة وخبثها، فلو نعق كل قطر بمثل ذلك لما بقي من لغة القرآن الكريم شيء.

وكانت الدعوة إلى الكتابة باللهجات العامية بديلاً عن الفصحى مدخلاً للاهتمام بالآداب الوطنية، فلكل قطر قضاياه التي تعنيه، والتي ينبغي أن تتجه آدابه إلى التعبير عنها، ثم إن هناك ما أسموه "الأدب الشعبي"، حيث يجب - فيما يرون - أن تعبر عنه لغة عامة الناس، لا فصحى العربية.

وفي تركيا سرت الدعوة لكتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية بدل العربية التي كانت تكتب بها آنذاك، وشكل أتاتورك سنة ١٩٢٨ لجنة لتنفيذ أمره بذلك على وجه السرعة

---

(١) راجع د. محمد حسين: مرجع سابق ٢/ ١٣٧-١٣٩، ١٤٥-١٤٦.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٥٠-١٥٢.

(٣) راجع د. عبد الله أحمد جاد الكريم: **محاولات استبدال العامية بالفصحى**، مقال سابق.

والحسم، فأنجزت اللجنة عملها في أقل من شهرين، حيث بدأت في ١٩٢٨/٦/٢٦، وتم الإعلان عن تبديل الأحرف ليلة ١٩٢٨/٨/٩، وصدر القرار بذلك رسميًا في ١٩٢٨/١٠/١[١].

وزاد الطين بلة فرض اللغة التركية في أداء الشعائر الدينية، فتم فرض الأذان للصلوات باللغة التركية في ٣٠ يناير ١٩٣٢، ثم تم تجريم الأذان باللغة العربية في أوائل العام التالي[٢]. وظل الأمر على ذلك حتى نجح رئيس الوزراء عدنان مندريس في إصدار قانون بإعادة الأذان باللغة العربية قي ١٦ يونيو ١٩٥٠م، ولم ينس له القوميون الغلاة إنجازه، فما زالوا حتى انقلب الجيش عليه سنة ١٩٦٠م، وحكموا عليه وعلى اثنين من وزرائه بالإعدام[٣].

الوطنية الضيقة عامل انقسام للأمة:

أدت العصبية الوطنية إلى تشظي القومية الواحدة.. كما رأينا في حالة القومية العربية التي تصارعت أقطارها، بعد تصادم طموحات أنظمتها السياسية، ومغالاة بعضها في اعتزازها بمشاعرها الوطنية، واستعلائها، وسعى بعضها إلى تحقيق مكاسب متوهمة بالعدوان على بعض.

لقد قامت الدولة الوطنية كدولة إجرائية رسمتها الحدود والمصالح السياسية الخارجية؛ جعلها لا تعبر عن المجتمع ووحدته، لذلك تكون تربة خصبة لظهور مختلف النزعات العرقية والفئوية[٤].

---

(١) د. عصمت عبد المجيد بكر: **المدخل إلى النظام القانوني في العهدين العثماني والجمهوري التركي**، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠١٢م، ص٢٢١.

(٢) لويس: مرجع سابق ص ٤٩٨.

(٣) راجع رضا هلال: **السيف والهلال** تركيا من أتاتورك إلى أربكان، الصراع بين المؤسسة العسكرية والإسلام السياسي، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٩م، ص ١١٣-١١٥.

(٤) مازن بلال: المسألة الكردية ص ٧٧.

وقد رأينا تصاعد الخلافات بين العراق وسوريا، وهما ينتميان إلى نفس المرجعية السياسية لحزب البعث، وتحولت الخلافات أحيانًا إلى صراعات دموية كما حدث بين الأردن والفدائيين الفلسطينيين سنة ١٩٧٠م، وبين مصر وليبيا حيث وصل حد الاشتباك المسلح سنة ١٩٧٧، وكذلك بين اليمن الشمالي واليمن الجنوبي حتى توحدهما سنة ١٩٩٠م.

واختلف العرب بين جمهوريين وملكيين.. فكان تصارع مصر والسعودية حول الموقف من الثورة اليمنية سنة ١٩٦٢م، وانقسام أهل اليمن أنفسهم بين أنصار الثورة والجمهورية وخصومها من أنصار الملكية، فكانت الحرب المريرة التي امتدت ثماني سنوات (١٩٦٢-١٩٧٠)، وخلفت ألوف القتلى بين الجانبين[1].

وأخفقت الأنظمة الحاكمة في الأقطار في تحقيق أمل الأمة في الوحدة بينها، ففشلت وحدة مصر وسوريا (١٩٥٨-١٩٦١)، ومشروع اتحاد الجمهوريات العربية: الوحدة بين مصر وسوريا وليبيا (١٩٧٢-١٩٧٧م)، ومشروع الوحدة الإندماجية بين مصر وليبيا سنة ١٩٧٢، وفي ١٢ يناير ١٩٧٤ تم تأسيس الجمهورية العربية الإسلامية بوحدة ليبيا وتونس، ولم يطل عمر تلك الجمهورية سوى يوم واحد!! ثم انفصلت عراها التي لم تكتمل، وفي سنة ١٩٨٩ تأسس اتحاد المغرب العربي بين ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، وما زال قائمًا على الورق دون تأثير حقيقي.. والقائمة تطول لتشمل محاولات أخرى لم تحقق شيئًا.

---

(١) قامت ثورة المشير عبد الله السلال ضد حكم الإمام البدر - محمد البدر بن حميد الدين- في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، وأيد جمال عبد الناصر الثائرين الذين نادوا بالنظام الجمهوري، بينما أطلق ذلك مخاوف النظام الملكي السعودي من زحف النظم الجمهورية إلى جنوب بلاده، فألقى بثقله خلف الإمام المخلوع، وزاد تورط الجيش المصري، وبلغت ضحايا تلك الحروب بين ١٠٠ ألف، و ٢٠٠ ألف يمني، فضلاً عن ألوف الضحايا المصريين، ودمرت الأرصدة المالية في البنوك المصرية، وشغلت الجيش المصري عن عدوه الصهيوني، فكانت الهزيمة المذلة سنة ١٩٦٧م التي لم يُفق العرب والمسلمون من آثارها حتى اليوم. (راجع موسوعة ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مادة: **ثورة ٢٦ سبتمبر اليمنية على الرابط** (https://cutt.us/v7YvP.

ويرجع السبب في فشل هذه التجارب الوحدوية إلى نظر النظم الحاكمة إلى قضية الوحدة بانتهازية سياسية على أنها مهرب من مآزقها الداخلية، وقيام تلك المحاولات على نحو متعجل دون دراسة متعمقة توفر لها أسباب النجاح، وسوء إدارة فترة التحول إلى دولة واحدة، وغلبة النهج الاستبدادي على تلك الإدارة.

٣- الأقليات الدينية:

تدور معاني "الأقلية" في اللغة إلى القلة العددية، أي ضد "الكثرة"، أو إلى الذلة واتضاع القوة، أو إلى ضعف المكانة والوجاهة، وهي نفسها المعاني التي ينصرف إليها مصطلح "الأقلية" في الاستعمال المعاصر(١).

ويطلق لفظ "الأقلية" على الجماعة التي تعيش في مجتمع ما بين أكثرية تختلف معها في العرق، أو الدين، أو المذهب، أو اللغة..

ويعد الإسلام الاختلاف بين البشر أمرًا طبعيًا، وآية على عظمة الخالق سبحانه، وطلاقة قدرته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وأن هذه التعدد ليس مدعاة للصراعات، بل للتعارف، وسبيل إلى التمايز، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

كما أن الاختلاف في الدين والمعتقد ليس – في حد ذاته – سببًا في الاقتتال والعداوات، والإسلام يقرر حرية الاعتقاد تقريرًا لا لبس فيه، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

---

(١) راجع محمد بن شاكر الشريف: **وضع الأقليات في الدولة الإسلامية**، مجلة البيان، الإصدار الثالث، سنة ١٤٢٧هـ، ص ٢-٤.

وقَّل أن نجد في عالم اليوم مجتمعًا يخلو من أقلية أو أكثر، سواء في ذلك مجتمعات الدول الصغرى والعظمى، على امتداد قارات العالم.

وطالما تعايشت تلك الأقليات في مناخات العدالة السياسية والاجتماعية، والانضباط التشريعي والقانوني؛ فإن مساحات المشترك الإنساني والقومي بين هذه الجماعات الصغيرة والكبيرة تتعاظم، وعكس ذلك صحيح، إذ يصيب النسيج الاجتماعي التوتر والتوجس؛ وربما التأزم بين مكوناته والعداء، ويجد أعداء الأمة في تلك الأجواء فرصتهم السانحة لتحقيق أغراضهم.

وفي حالات ضعف الدولة؛ وارتخاء عصبيتها الجامعة؛ تجد الطموحات القومية وأهواء الأقليات وأطماعها السبيل للتعبير عن نفسها، والفرصة لتحقيق ما تراه ضامنًا لعافيتها في ظلال التحلل العام، وقد عبر ابن خلدون عن حال الأمة حينذاك بقوله إن "الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة"[1].

وكان الإسلام يقدم في إطاره النظري، وفي معظم تطبيقاته العملية والسياسية نموذجًا للقدرة على تقريب ما بين شعوبه وطوائفه[2]، وأعظم الأدلة على ذلك هو بقاء هذه الأقليات الدينية والعرقية في العالم الإسلامي، محكومة بالمسلمين، من غير اضطهاد، أو سياسات منظمة لتهجيرها أو إفنائها، كما حدث في حضارات أخرى ودول.. وما مأساة المسلمين في الأندلس بشاهد وحيد في القديم، ولا مأساة مسلمي البوسنة والهرسك بشاهد وحيد في الجديد.

واستمر ذلك النهج الإسلامي حتى العصر الحديث، إذ استفتى السلطان سليمان القانوني شيخ الإسلام أبا السعود العمادي في إكراه النصارى في الدولة العثمانية على

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٠٦.

(٢) راجع د. محمد عمارة: **الإسلام والأقليات، الماضي والحاضر والمستقبل**، مكتبة الشروق الدولية، ط١، سنة ٢٠٠٣م، ص ١٢-٢٤.

الإسلام أو الجلاء، ردًا على ما فعله صليبيو إسبانيا بالمسلمين في الأندلس، فأبى أن يفتيه بجواز ذلك، موضحًا أن شريعة الإسلام لا تجيزه، فأذعن السلطان لحكم الشريعة؛ وإن خالف رأيه[1].

ثم كان أن ضعفت الدولة العثمانية، وفشا فيها سعار القوميات، وتحللت في جنبات الحكم فيها وفي مؤسساتها القائدة الرابطة الدينية، وتجرأ عليها الاستعمار المتربص بها منذ قرون، فظهرت مشاكل القوميات فيها، وبرزت النزعات الطائفية والمذهبية، واستغلها الاستعمار الغربي، ووظفها لتحقيق أطماعه، وضرب الأمة بعضها ببعض.

يقول د. جمال حمدان إن المشكلة الطائفية "لم تنفصل في أي مرحلة من مراحلها عن الاستعمار، هو الذي غذاها؛ إن لم يكن خلقها، وهو الذي اتخذ منها أداة سياسية يدعم بها وجوده"[2].. وأنه "احتضن الأقليات، وعمل على خلق شعور بكيان خاص لها، متورم منتفخ، وفتح الباب للتبشير والإرساليات والمدارس الدينية... إلخ، كما سهَّل استيراد أقليات أخرى دينية غربية؛ ليضاعف من التخليط والتنافر الداخلي، من هذه الأقليات المجلوبة: الأرمن والآشوريين النساطرة في المشرق العربي، و"طفيليات الاستعمار "من مالطيين وقبارصة ويونانيين ويهود... إلخ، هذا بطبيعة الحال عدا الطفيليات الكبرى من جاليات دول الاستعمار نفسها"[3].

استغلال الاستعمار الأقليات الدينية:

بدأت الحملة الأمريكية لحماية المضطهدين دينيًا - كما تراهم- وبخاصة النصارى؛ بمقال نشره المحامي اليهودي مايكل هورو فيتز في ٥ يوليو ١٩٩٥ بجريدة وول ستريت،

(١) رشيد رضا: الخلافة ص ١٠٥.
(٢) العالم الإسلامي المعاصر ص ٨٩.
(٣) جمال حمدان: المرجع السابق ص ٩٠-٩١.

تحت عنوان: "التعصب الجديد بين الصليب والهلال"، ودعا فيه إلى اتخاذ خطوات لمقاومة ذلك الاضطهاد، ثم كلف الرئيس كلينتون وزير خارجيته وارين كريستوفر، بتشكيل لجنة لمتابعة مناقشة الموضوع، وأطلق عليها لجنة "الشريط الأزرق"، وقد أثمرت الحملة صدور قانون "التحرير من الاضطهاد الديني" عام ١٩٩٧، وأعقبه قانون دون نيكلز عام ١٩٩٨ الذي عُرف بعد عدة تعديلات عليه بقانون "الحرية الدينية في العالم"، والذى يعطى الحق لأمريكا في عقاب أية دولة تمارس أي شكل من أشكال الاضطهاد الديني.[١].

وكان صدور هذه التشريعات مبررًا للتدخل الأمريكي في سياسات الدول، واستخدام الضغوط السياسية والاقتصادية، أو التهديد باستخدامها ضد ما تريد الإدارة الأمريكية من دول تسميها دولاً مارقة، أو دولاً راعية للإرهاب، أو ما شابه ذلك من نعوت وأوصاف.

كما كان حجة للأقليات الدينية في بلدانها للضغط على حكوماتها والأغلبية المخالفة فيها بالتلويح بالضغوط الأمريكية.

خطة برنارد لويس لتجزئة العالم الإسلامي:

ولا بد أن السياسة القاضية باستغلال الأقليات لتحقيق المصالح الأمريكية كانت تتم وفق استراتيجية محددة تجري على المدى الطويل.. وقد تكشفت هذه الاستراتيجية بعد إذاعة خطط المفكر الاستراتيجي والمؤرخ اليهودي البريطاني المتأمرك برنارد لويس Bernard Lewis ونشره في مجلة Executive Intelligent Research Project التي تصدرها وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، واقترح فيها تقسيم الشرق الأوسط إلى

---

(١) باسل قس نصر الله: "**الولايات المتحدة واستغلال الاضطهاد الديني**"، مقال بموقع الميادين، منشور بتاريخ ١٥ آب ٢٠٢٢، على الرابط الآتي، وقد تم الاطلاع عليه بتاريخ ٢٣/ ١/ ٢٠٢٣ الساعة ١٨,٠٠: https://2u.pw/Dswv53

أكثر من ثلاثين دويلة إثنية ومذهبية؛ لحماية المصالح الأمريكية وإسرائيل؛ اعتمادًا على توزيع الأقليات العرقية والدينية فيه.

وبحسب ما ورد في تلك الخطة تُقسم مصر إلى ٤ دول، والسودان إلى ٤ دول، وكل من شبه الجزيرة العربية والعراق إلى ٣ دول، والشام إلى ٨ دول، وكذلك الحال مع بقية دول المنطقة[1]، وتبقى إسرائيل هي القوة الأكبر المهيمنة على ما عداها، وهو ما يتقاطع في الغاية مع مشروع "إسرائيل الكبرى" الذي أطلقه شمعون بيريز رئيس وزراء إسرائيل الأسبق.

---

(١) راجع د. أحمد سعيد نوفل: **دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي**، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ط٢، سنة ٢٠١٠، ص ٢٨-٣٠، د. هبة جمال الدين محمد: **الرؤية الصهيونية للقومية العربية بين الفكر والمخطط**، مقال بالمجلة العلمية لكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية، جامعة الإسكندرية، المجلد ٦، العدد ١٢، يوليو ٢٠٢١، وقد أوردت المصادر تقسيم العالم العربي على النحو الآتي: مصر: ويتم تقسيمها إلى ٤ دول: دولة شرق البلاد وتضم سيناء لتكون تحت النفوذ اليهودي، ودولة قبطية تمتد من جنوب بني سويف حتى جنوب المنيا، ودولة النوبة تنضم إلى شمال السودان، وعاصمتها أسوان، ودولة مصر الإسلامية عاصمتها القاهرة، وتشمل الجزء المتبقي من مصر.

السودان: تقسم الى أربع ولايات: دولة النوبة المتكاملة مع دويلة النوبة السابق ذكرها، وعاصمتها أسوان، ودولة شمال السودان وعاصمتها الخرطوم، ودولة جنوب السودان المسيحية والتي تم إعلان استقلالها بالفعل، ودولة دارفور.

تفكيك ليبيا والجزائر والمغرب وتونس بهدف إقامة دولة البربر على امتداد دويلة النوبة بمصر والسودان، دولة البوليساريو.

شبه الجزيرة العربية: تتضمن ثلاث دول فقط هي: دولة الإحساء الشيعية؛ وتضم الكويت والإمارات وقطر وعمان والبحرين والجزء الشرقي للمملكة السعودية، ودولة نجد السنية، ودولة الحجاز السنية.

سوريا: ويتم تقسيمها الى أربع دويلات: دولة علوية شيعية على امتداد الساحل، ودولة سنية حول حلب، ودولة سنية حول دمشق، ودولة الدروز في الجولان ولبنان وشرق الأردن.

العراق: ويجري بالفعل تقسيمه إلى ثلاث دول: دولة شيعية في الجنوب، ودولة سنية في الوسط، ودولة كردية في الشمال.

لبنان: ويتم تقسيمه الى ثمانية دول: دويلة سنية في الشمال وعاصمتها طرابلس، ودويلة مارونية وعاصمتها جونية، ودويلة علوية في سهل البقاع وعاصمتها بعلبك، ودويلة بيروت ويتم تدويلها، دويلة فلسطينية حول صيدا وحتى نهر الليطاني، ودويلة مسيحية في الجنوب، ودويلة درزية (في أجزاء من الأراضي=

لقد قدمت "المنظمة الصهيونية العالمية ما أسمته" استراتيجية إسرائيل في الثمانينات" من القرن الماضي، ونشرته مجلتها الفصلية كيفونيم "Kivunim – أي الاتجاهات – في عدد ١٢ فبراير ١٩٨٢م، وتتحدث فيه عن النجاحات التي حققتها إسرائيل في لبنان إبان الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥-١٩٨٩م، عن طريق تحالفها مع النصارى الموارنة اللبنانيين، باعتباره النموذج الواجب تعميمه مع بقية الأقليات في المنطقة، فقالت: "إن تفتت لبنان بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربي بأسره"، وتتحدث عن أهمية تفتيت مصر، ثم تقول: "إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منهما لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقتفي أثر مصر في انهيارها وتفتتها، فمتى تفتت مصر تفتت الباقون، إن رؤية دولة قبطية مسيحية في صعيد مصر؛ إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية مصرية – لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن - هو مفتاح هذا التطور التاريخي.... وإن تفتت سورية والعراق لاحقًا إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية - على غرار لبنان - هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل"، ثم تحدث عن تفتيت شبه الجزيرة العربية والأردن، ثم تقرر أن هذا هو "ضمان الأمن والسلام في المنطقة بأسرها، في المدى الطويل، ففي العصر النووي لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدًا بعثرة السكان، فهذا دافع استراتيجي، وإذا لم يحدث ذلك فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود"[١].

ولا ريب أن الواقع الذي نراه يدفعنا إلى درجة من التصديق بحقيقة تلك المخططات، فقد تم تقسيم السودان بالفعل إلى دولتين، ويجري تثوير إقليم كردفان ليلحق بهما. وتم التقسيم الواقعي للعراق إلى ثلاث دول: كردية في الشمال، وشيعية في الجنوب، وسنية

= اللبنانية والسورية والفلسطينية المحتلة، ودويلة مسيحية تحت النفوذ الإسرائيلي.

(١) محمد السماك: **الأقليات بين العروبة والإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٠، ص ١٤٠-١٤٤، د. محمد عمارة: الإسلام والأقليات ص ٣٦-٣٧

في الوسط، وما نراه الآن في سوريا يستهدف تقسيمها إلى كيانات سنية وعلوية ودرزية، وكذا تجري مؤامرات التقسيم في ليبيا، واليمن، وجزيرة العرب، وغيرها..

وذلك يستدعي من العالم الإسلامي يقظة كاملة إلى تلك المخططات، وإيجاد استراتيجية عاقلة وواقعية لمواجهتها، وسبلاً لترشيد التعامل مع تنوع القوميات والأقليات فيه؛ بما يجعلها أداة للثراء الفكري والمجتمعي، لا وسيلة للاحتراب والتجزئة، وبما يحقق لها اعترافًا سياسيًا وحقوقًا تشريعية يحفظ انتماءها للأوطان، فتكون لبنة بناء لا معول هدم وإفناء.

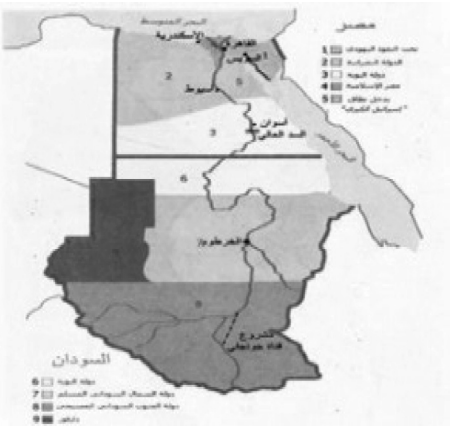

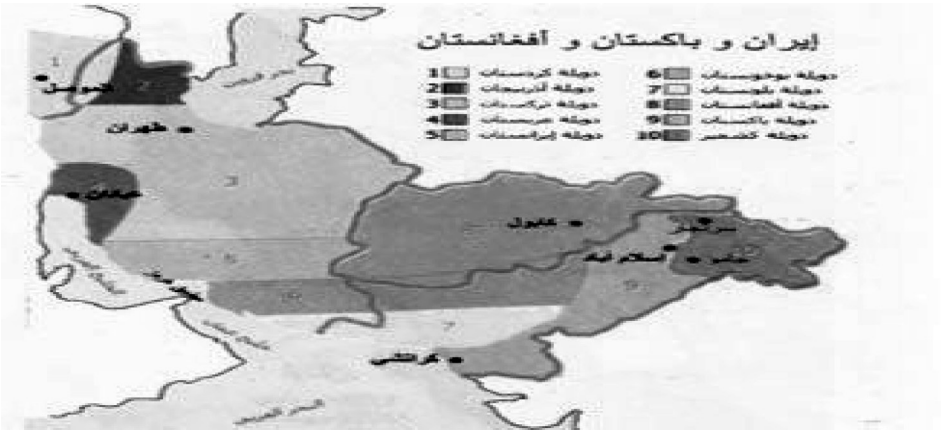

أوضاع النصارى في مصر والدور الأجنبي تجاهها:

إننا نجد نفس النهج الاستعماري الطامح إلى إثارة الأقليات في العالم الإسلامي، واستغلالها لتحقيق أغراضه منذ زمن الحملة الفرنسية على مصر، فقد كان من مشروع نابليون لما قدم إلى مصر تجنيد ٢٠ ألفًا من الأقليات في الولايات العثمانية التي ينوي فتحها[١].. وقد كوَّن الجنرال كليبر -خليفة نابليون - فرقة من اليونانيين (الأروام) بعد ثورة القاهرة الأولى كانت متمركزة بجزيرة الروضة، بلغ عددها ألفًا وخمس مئة [٢].

أما القبط فقد اتخذ كليبر منهم فرقة من ألفي مقاتل عُرفت بالفرقة القبطية ضمن الجيش الفرنسي، وعين لقيادتها أحد أخلص زعماء الأقباط للفرنسيين وهو المعلم يعقوب، الذي تولى تسليح هذه الفرقة وتجهيزها بما تحتاجه للقتال على نفقته الخاصة[٣]، وكان يعقوب قد أبدى حماسًا في قتال المماليك في الصعيد ضمن الجيش الفرنسي[٤]،

(١) أحمد حسين الصاوي: **المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط٥، سنة ٢٠٠٩م، ص ٢٩.

(٢) الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار** ٢/ ٢٤٥، ٣٥٤، ٣٥٧، الصاوي: السابق ص ٢٨

(٣) الصاوي: السابق ص ٢٨-٢٩.

(٤) الجبرتي: السابق ٢/ ٢٠٢، أحمد حسين الصاوي: السابق ص ٢١-٢٢.

وكذلك في مواجهة المصريين الثائرين ضد الفرنسيين في ثورة القاهرة الأولى، وحول بيته إلى قلعة عسكرية حصينة[١]، وقدم يعقوب وجنده خدمات كبيرة لمساعدة كليبر في قمع ثورة القاهرة الثانية، فكافأه كليبر بأن وكله بجمع الأموال العامة من الشعب كيف يشاء، فلم يتوانَ يعقوب، واستخدم أسوأ الوسائل لجمع المال، ومن لم يستطع الوفاء بما أوجبه عليهم من ضريبة كان أعوان يعقوب يتطاولون عليهم بالسب والضرب، وحرق ممتلكاتهم، والاعتداء على أعراضهم[٢].

وتقديرًا لجهوده في حرب بني وطنه، وجيرانه وأهله؛ فقد منحه الجنرال كليبر رتبة كولونيل[٣].

ولما قتل سليمان الحلبي الجنرال كليبر سنة ١٨٠٠م لم يشهد جنازته من المصريين إلا ممثلين للأقباط ونصارى الشام المقيمين بها[٤].

واستمر يعقوب في تقديم خدماته للاحتلال الفرنسي بعد اغتيال كليبر وتعيين الجنرال جاك مينو قائدًا للحملة، فكافأه مينو بأن منحه رتبة جنرال، وكان ذلك في عام ١٨٠١م[٥].

وقد صحب المعلم يعقوب مينو والحملة حين غادرت مصر مهزومة سنة ١٨٠١، ولم يجرؤ على البقاء بعد ما كان من خيانته وتربص الناس به، وأصيب بعد يومين من ركوبه السفينة بإسهال شديد، كان فيه هلاكه[٦].

---

(١) الجبرتي: السابق ٢/ ٣٣١، الصاوي: السابق ص ٢٦.
(٢) الجبرتي: السابق ٢/ ٣٤٧، الصاوي: السابق ٢٦-٢٧.
(٣) الصاوي: السابق ص ٢٨.
(٤) الصاوي: السابق ص ٣٣.
(٥) الصاوي: السابق ص ٣٥.
(٦) الصاوي: السابق ص ٥١.

ويسجل الجبرتي استغلال السفلة من النصارى ما نزل بالمسلمين من جائحة الاحتلال، واستقوائهم بالفرنسيين ليستعلوا بمكانتهم على شركائهم في الوطن الممتحن، فيسجل "ترفُّع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود، وركوبهم الخيول، وتقلدهم بالسيوف؛ بسبب خدمتهم للفرنسيس، ومشيهم الخيلاء، وتجاهرهم بفاحش القول، واستذلالهم المسلمين. كل ذلك بما كسبت أيديهم"(١).

وفي طريق نابليون لغزو الشام احتل العريش، فلما وصل الخبر إلى القاهرة "أظهر النصارى الفرح والسرور بالأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولائم، وغيروا الملابس والعمائم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في القبح والشناعة"(٢).

وبالرغم من ممالأة هؤلاء الأقباط للغزاة الفرنسيين ضد أبناء مصر من مسلمين وأقباط مسالمين فإن السلطات الحاكمة في مصر في أعقاب انسحاب الجيش الفرنسي خشيت من موجات انتقام تجاه هؤلاء الخائنين، فنودي "بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصراني ولا يهودي سواء كان قبطيًا أو روميًا أو شاميًا، فإنهم من رعايا السلطان، والماضي لا يُعاد"(٣)، وكتبت فرمانات وأرسلت إلى البلاد مضمونها -كما يذكر الجبرتي- "الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم، وفي ضمنها آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم"(٤)، كما قرئت فرمانات فيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط، والوصية بهم"(٥).

(١) الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار ٢/ ٢٥٠.
(٢) الجبرتي: السابق ٢/ ٢٥٤.
(٣) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢/ ٤٨١.
(٤) الجبرتي: المصدر السابق ٢/ ٤٨٨.
(٥) الجبرتي: السابق ٢/ ٤٣٩.

أما نصارى الشام الموجودون بمصر وكذا الأروام - النصارى الأوربيون بالبلاد - فكانوا متحالفين مع الفرنسيين في أثناء احتلالهم مصر[١]، وفي أثناء غزو بونابرت الشام وجد الترحيب من النصارى هناك حيث حلَّ، كما وجد المساعدة في نقلهم أخبار الجيوش المقاومة له، وقد أفاد منهم خلال حصار عكا كله، ولما فشل حصاره عكا فر بعضهم، وعادوا مع جيشه، إذ خافوا انتقام الأهلين منهم لخيانتهم، وقد عبر نابليون عما وجده من ترحيب النصارى به في الشام بأن "فرح المسيحيين لا يمكن وصفه، فقد رأوا قومًا من دينهم بعد قرون طويلة من الظلم[٢].

الاستعمار البريطاني وقضية الأقليات:

كان تعاون الإنجليز مع الهندوس والسيخ ضد المسلمين في الهند نهجًا متكررًا، وبتلك السياسة استطاع "ألف من الموظفين وجيش صغير من الأوروبيين... أن يخضعوا به أكثر من مئتي مليون من الآدميين، أي أكبر إمبراطورية في العالم بعد الصين"[٣].. ومن ذلك أنهم كثيرًا ما كانوا يستولون على أملاك المسلمين، ويعطونها الهندوس، وكثيرًا ما كانوا يعزلون الموظفين المسلمين، ويعينون هؤلاء بدلاً منهم[٤].

وفعل التعليم الأجنبي والإرساليات التنصيرية في مصر فعلهما في ظل الاحتلال البريطاني، وظهرت صور من المحاباة الاجتماعية، والتمييز الطائفي، حيث رأى نصارى مصر في الاحتلال البريطاني سندًا وظهيرًا، وقد أدى وجوده إلى تحسين أوضاعهم التي استقرت طوال الحكم العثماني، وقد زادت نسبتهم في الوظائف الحكومية زيادة كبيرة

(١) الجبرتي: السابق ٢/ ٢٢١.
(٢) محمد جلال كشك: ودخلت الخير الأزهر ص ٣٣٢.
(٣) غوستاف لوبون: **حضارات الهند** ص ٦٧٩.
(٤) د. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص ٥١٥.

عن نسبتهم في التعداد السكاني مقارنة بالمسلمين، كما زادت فرص التعليم الأجنبي من قدراتهم ومكانتهم، مما أدى إلى ارتياحهم إلى الوجود البريطاني المحتل، وأدى إلى ازدياد مشاعر غضب المسلمين وسوء ظنهم فيهم إزاء موقفهم من الاحتلال، واتهموهم بموالاتهم "لما يجمع بينهم من رابطة المسيحية، وكان المسيحيون يسيؤون الظن بالمسلمين، ويتوهمون أنهم يتحينون الفرصة للانتقام منهم، ولا يحول بينهم وبين ذلك إلا الإنجليز، فارتفع الجدار النفسي بين شركاء الوطن الواحد، ونظر النصارى إلى أنفسهم على أنهم "شعب الكنيسة"، وأصدروا الصحف الخاصة بهم التي تعبر عن مصالحهم[1]،

وكانت بعض هذه الصحف لا تلقي بالاً للشعور الوطني العام، فكانت تطالب "بالالتجاء إلى دولة قوية تكون عضدًا لهم في المستقبل"، أو الالتجاء إلى عموم الدول الأوروبية "للنظر فيما هو آتٍ إليه حالهم"، ومنها ما يطالب بالاستنصار بوزير خارجية المحتل البريطاني، و"جناب المعتمد البريطاني بمصر"، ويدعو إلى إرسال وفد قبطي إلى وزارة الخارجية البريطانية للدفاع عن حقوقهم[2].

علاقات الود بين بعض زعماء النصارى والاحتلال البريطاني:

ولم يقتصر تواصل النصارى المثير للريبة – مع الغرب المستعمر آنذاك – على علاقتهم ببريطانيا التي تحتل البلاد، فقد كان بعض كبار زعمائهم وكلاء لقناصل عدد من الدول الأجنبية في مصر، فكان بشرى حنا بك وكيل قنصل روسيا في أسيوط، وكان سينوت حنا بك وكيل قنصل روسيا في ألمانيا، وكان جورجي ويصا بك وكيل قنصل أمريكا في

(١) فصدرت صحيفة الوطن سنة ١٨٧٧، وصحيفة مصر سنة ١٨٩٥، فضلًا عن صحف أخرى، (د. محمدة محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ١/ ١٢٧ – ١٢٨) ولعل صدور صحيفة الوطن قبل الاحتلال البريطاني دليلاً على بروز مشكلة الانعزال الديني وتباعد المصالح مبكرًا.

(٢) د. محمد حسين: السابق ١/ ١٣٤.

أسيوط، وكان الخواجة تادرس مقار وكيل قنصل فرنسا بأسيوط، وكان يسي أندراوس بك وكيل قنصل إيطاليا في الأقصر[1].

وزراء ورؤساء وزارات نصارى في مصر:

بل وجدنا بعض كبار النصارى وزراء ورؤساء للوزارة في بلد أغلبيته العظمى من المسلمين، ولم يكن هؤلاء محمودي السيرة، ولا أنقياء السريرة.. من أمثال نوبار باشا الأرمني الأصل (١٨٢٥-١٨٩٩)، وكان يتقن اللغات الفرنسية والإنجليزية واليونانية والتركية، ولا يتقن اللغة العربية، وتولى وزارات الخارجية والمالية والتجارة، ثم أصبح أول رئيس وزراء لمصر، وشغل هذا المنصب ثلاث مرات، واتسع ثراؤه حتى بلغت حيازته من الأراضي الزراعية أكثر من ألفي فدان، ولاحقته الاتهامات بالفساد المالي، والاستبداد السياسي، والخضوع للاحتلال البريطاني[2].

ثم برز نجم بطرس غالي القبطي (١٨٤٦ - ١٩١٠م).. وله هنا أهمية خاصة، إذ كان أول قبطي يحصل على رتبة الباشوية، وفي عام ١٨٩٣ تولى نظارة "وزارة" المالية، ثم أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية، واستمر في هذا المنصب ثلاثة عشر عاما بين عامَيْ ١٨٩٥-١٩٠٨، وفي أثناء وزارته للخارجية وقع على اتفاقية الحكم الثنائي المصري البريطاني للسودان في يناير ١٨٩٩ ممثلاً للحكومة المصرية، وبموجبها أصبح لبريطانيا حق الاشتراك في إدارة السودان، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية.. وكانت الجريمة الثانية رئاسته للمحكمة التي نظرت قضية دنشواي، باعتباره

(١) راجع د. محمد حسين: المرجع السابق ١/ ١٣١، حاشية (٢)، نقلًا عن مقال "وطنيون أم أجانب؟"، جريدة العلم المصرية عدد ٧ مارس ١٩١١م.

(٢) كانت وزارته الأولى من ١٨٧٨ حتى ١٨٧٩، والثانية من ١٨٨٤ حتى ١٨٨٨، وآخر وزاراته كانت من ١٨٩٤ حتى ١٨٩٥ (ويكيبيديا الموسوعة الحرة مادة "نوبار باشا"، على الرابط: https://cutt.us/3NTe9.

وزيرا للحقانية بالنيابة؛ حيث أصدر الحكم بإعدام أربعة من أهالي قرية دنشواي بالمنوفية؛ فضلاً عن أحكام بالسجن والجلد على آخرين ممن دافعوا عن أنفسهم ضد اعتداءات البريطانيين.. ثم تولى بطرس غالي رئاسة الوزارة بطلب من الخديوي عباس حلمي في الفترة التي والى فيها الاحتلال البريطاني، فأمر بتفعيل قانون المطبوعات – الذي يضيق على حرية التعبير– سنة ١٩٠٩، وكان قد أصدره الإنجليز في نوفمبر ١٨٨١ أثناء اشتعال الثورة العرابية، وبدأ التفاوض مع شركة قناة السويس لمد امتيازها أربعين سنة، مقابل أربعة ملايين جنيه مصري تدفعها الشركة إلى الحكومة المصرية، وقد قتل بطرس غالي أثناء نظر الموضوع في مجلس النواب، والذي انتهى برفضه.. وقد أدت هذه السياسات الإجرامية إلى غضب في البلاد، ظل يتنامى إلى أن اغتال شاب مصري اسمه إبراهيم ناصف الورداني (١٨٨٦-١٩١٠) بطرس غالي في ٢٠ فبراير ١٩١٠، مما أدى إلى اشتعال الغضب القبطي، ووصل الحال إلى حد الاستعانة بالمستعمرين البريطانيين، وغيرهم من دول أوروبا؛ والسعي إلى تهييجهم ضد المسلمين. وبالرغم من أن مقتله كان لدواعٍ سياسية في المقام الأول، إلا أن الأقباط في مصر صوروا الأمر على أنه عدوان مسلمين على نصارى بسبب الدين، مما أدى بهم إلى عقد المؤتمر القبطي في أسيوط بمصر سنة ١٩١١، ورد المسلمون بالتنادي لعقد "المؤتمر المصري" في العام التالي، مخافة شيوع اتهامهم بالاضطهاد الديني للأقباط[١].

كانت بعض الصحف القبطية مرتعًا للغلاة الذين يعلنون دون مواربة عن ولائهم للاحتلال البريطاني، وينادون في تبجح بالاستقواء بالإنجليز لتحقيق المطالب الطائفية للأقباط، مثلما فعلت صحيفة الوطن القبطية، التي انتهجت التحريض ضد المسلمين، وبالغت في المطالب القبطية، وتشجيع الأقباط على السعي لتحقيقها، وقالت: "إن لم تنجحوا فعليكم بالدول الأوروبية ناصرة الإنسانية، وأولهم الدولة الإنجليزية"[٢].

---

(١) د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ١/ ١٣٢-١٣٧.

(٢) د. طارق البشري: **المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٨٠م، ص ٦١.

وكان أخنوخ فانوس رئيس المؤتمر القبطي أحد عملاء بريطانيا المجاهرين بذلك، وقد أسس حزبًا أسماه "الحزب المصري"، جاء في أول أهدافه: الاجتهاد في إيجاد صداقة وإخلاص حقيقي بين مصر وإنجلترا، حتى نكسب صداقة إنجلترا"، ولم يكن الرجل قبطيًا أرثوذكسيًا، بل كان زعيمًا للطائفة الإنجيلية، مباينًا للكنيسة القبطية[1]، لكنه مسعر حرب طائفية بحق.

دور أمريكي مشجع للطائفية النصرانية في مصر:

بل لعلنا لا نعدو الحقيقة إن التمسنا دورًا أمريكيا لتشجيع الطائفية بمصر قبل بروز الدور الأمريكي السياسي النشيط في الحرب العالمية الأولى، إذ إن الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت السابق(١٩٠١-١٩٠٩) كان ممن قدموا إلى مصر للتعزية في مقتل بطرس غالي سنة ١٩١٠، ورثاه رثاءً حارًا، محاولاً إثارة النزعة الطائفية، وصرح بأن طلب المصريين الدستور سابق لأوانه، إذ إن الأمم التي تمنح الدستور وهي في طور التكوين تكون خطرًا على نفسها[2]، ولما ذهب إلى لندن في أعقاب ذلك ألقى محاضرة اتهم فيها المصريين بالتوحش، وقال إن الإنجليز ليسوا حراسًا على مصالحهم فقط، بل "حراس على مرافق المدنية"، وانتقد الإنجليز لأنهم أعطوا المصريين شيئًا من الحرية[3].

رئيس وزراء قبطي جديد:

ولما نشبت الثورة المصرية سنة ١٩١٩م وقع اختيار الساسة الإنجليز المتحكمين وأنصارهم في الداخل على يوسف وهبة باشا السياسي القبطي، والوزير السابق ليكون رئيسًا للوزراء (١٩/ ١١/ ١٩١٩ حتى ٢٠/ ٥/ ١٩٢٠م)، فقبل ذلك، في وقت رفض فيه

(١) البشري: السابق ص ٦٢.
(٢) طارق البشري: مصدر سابق ص ٦١.
(٣) البشري: السابق ص ٦١.

الساسة المصريون قبول الوزارة وسط مقاطعة شعبية كاملة للاحتلال والسلطة المتعاونة معه، وبادر بعض الزعماء المسيحيون أنفسهم إلى تحذيره من مغبَّة الوقوف أمام الجماعة الوطنية المصرية، وكان عليه في أثناء ذلك أن يواجه التوجه الوطني الجارف للمصريين مسلمين وأقباط في ثورتهم، وأن يقابل لجنة ملنر التي أوفدتها الحكومة البريطانية لتنزع فتيل الثورة العارمة، وقت أن كان سعد زغلول في المنفى، ولم تجد اللجنة من يتفاوض معها من الزعماء المصريين سوى رئيس الوزراء المسيحي، وكان من نتائج ذلك أن حاول شاب قبطي وطني - يدعى عريان يوسف - اغتيال يوسف باشا بعد شهرين من رئاسته للوزراء، وألقى عليه قنبلتين، لكنه نجا من محاولة الاغتيال، وقد أعرب الشاب القبطي في التحقيقات عن عزمه على اغتيال الرجل حتى لا يقدم مسلم على ذلك فتكون مدعاة لفتنة وطنية في هذا الظرف الحرج الذي تمر به البلاد[1].

مشاركة قبطية بارزة في ثورة ١٩١٩ وتراجع بعد ثورة ١٩٥٢:

ومع قيام الثورة المصرية بقيادة سعد زغلول سنة ١٩١٩م ظهر للأقباط دور في الكفاح الوطني الذي برز فيه حزب الوفد، وكان عدد بارز من قياداته من بين الأقباط، منهم سينوت حنا وويصا واصف، ومنهم مكرم عبيد باشا (ت ١٩٦١م)، الذي أصبح وكيلًا لحزب الوفد، وقام بدور سياسي واجتماعي بارز في هذه الفترة التي سبقت قيام ثورة ١٩٥٢م. غير أن هذا الدور تعرض لانتكاسة مع قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م التي أنهت وجود الأحزاب السياسية، وأولها حزب الوفد بما داخله من نفوذ قبطي، فضلاً عن سياسة التأميم ومصادرة الممتلكات التي اتبعتها الثورة في بداية نهجها الاشتراكي، والذي قضى على بعض أملاك البرجوازية القبطية التي تضخمت في الفترات السابقة.

لقد أعقب ذلك موجات من الهجرة للشباب القبطي المتعلم، ولعدد من العائلات القبطية الثرية إلى دول الغرب، حيث تأسست مجتمعات قبطية، وكنائس تدين بالولاء

(١) البشري: السابق ص ١٥٤-١٥٧.

والرابطة الروحية للكنيسة الأم في مصر، كما تمارس نوعًا من النفوذ فيها من خلال مساعداتها المالية والسياسية لها، وبمرور الوقت غدت هذه التجمعات القبطية تشكل جماعات ضغط سياسي تجاه السلطة السياسية في مصر(١).

دور الغرب في تحريض الفتنة الطائفية بمصر:

ولم تكن البابوية والمنظمات الكنسية الغربية والحكومات الاستعمارية الأوروبية بعيدة عن تلك السياسات الأمريكية، ونهجها في استعمال سلاح الأقليات الدينية لتحقيق مصالحها..

فقد تعالت صرخات المنظمات الكنسية الدولية المدعومة من الغرب تشكو من مظلومية النصارى في العالم الإسلامي، وتعددت التقارير الصحفية الدولية التي تزعم أن نحو ١٠٠-٢٠٠ مليون مسيحي يتعرضون للاضطهاد بسبب عقيدتهم في الدول التي تقطنها أغلبية مسلمة.(٢)..

وطالب السياسي البريطاني جيريمي هنت - الذي تولى وزارة الخارجية بين عامي ٢٠١٨-٢٠١٩- بإعداد تقرير عن أوضاع النصارى حول العالم، فأعده أسقف كنيسة توروررو البريطانية فيليب ماونستيفن، ويشير فيه إلى أن المسيحيين هم أكثر الجماعات تعرضا للاضطهاد الديني، وأن الاضطهاد الذي يلاقونه اقترب من حد "الإبادة الجماعية" في أجزاء من العالم، وأن المسيحية تواجه خطر الاختفاء من أجزاء في الشرق الأوسط(٣).

---

(١) هيكل: **خريف الغضب**، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، سنة ٢٠٠٦ ص٢٧٣- ٢٧٤، ٢٧٩-٢٨٤.

(٢) Bruce Thornton. Christian Tragedy in the Muslim World, Defining Ideas. A Hoover institution. 2013,07-23.

(٣) "المسيحية: تقرير بريطاني يقول إن اضطهاد المسيحيين بلغ حد الإبادة الجماعية"، "تقرير هيئة الإذاعة البريطانية في ٤ مايو ٢٠١٩م على الرابط:
https://www.bbc.com/arabic/world-48158766

مع بروز الصحوة الإسلامية في مصر في سبعينات القرن الماضي كانت صحوة قبطية تتولد، وتنداح دائرتها بتأثير الكنيسة التي أصبحت إطارًا جامعًا لمطامح جيل جديد من الشباب القبطي تحت رعاية البابا شنودة الثالث؛ الذي بدا كأنه زعيم سياسي للأقباط، فضلاً عن مكانته الدينية، حيث طور علاقات الكنيسة بالكنائس العالمية، وأعطاها زخمًا سياسيًا كبيرًا[1].

لقد واكب ذلك نشاط المنظمات الكنسية العالمية، والبابوية في روما، والدعم القوي الذي قدمته لقضية التنصير على مستوى العالم، كما تواكب مع انهيار الاتحاد السوفيتي، وبروز الولايات المتحدة قطبًا عالميًا وحيدًا، يسعى لضمان السيطرة على العالم كله، وانتهاز كل فرصة لتحقيق تلك الغاية، ومن بينها استغلال قضايا الأقليات الدينية وبخاصة المسيحية..

دور زعماء أقباط المهجر في الفتنة الطائفية:

كما نشط أقباط المهجر، وبرز بينهم - وبخاصة في الربع الأخير من القرن العشرين - اتجاه يتبنى الاستقواء بالغرب لتحقيق ما يرونه مؤديًا إلى مصالح الأقباط في الداخل المصري، ووجد التشجيع من الدوائر السياسية في أوروبا وأمريكا، فعقد المؤتمرات، واتسعت له أروقة الكونجرس الأمريكي، ومن أهم رموزه مجدي خليل ومايكل منير، وموريس صادق، ثم ظهرت تكتلات وجمعيات منظمة لهم، من بينها التجمع القبطي الأمريكي، واتحاد المنظمات القبطية في أوروبا سنة ٢٠٠٨، والمجلس القبطي الدولي في أبريل ٢٠٠٩، وقد انضمت إليه ١٥ منظمة قبطية في المهجر[2].

ومن استقوائهم بالغرب ما نادى به أحد زعمائهم وهو مجدي خليل - في أحد مؤتمراتهم في شيكاغو في أكتوبر ٢٠٠٧م - بأن تدفع كل من الكنائس المصرية في المهجر؛ وعددها

(١) هيكل: المصدر السابق ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) هاني لبيب: **الكنيسة المصرية، توازنات الدين والدولة**، نهضة مصر، القاهرة سنة ٢٠١٢م، ص ٨٢-٨٣.

حوالي ١٢٢ كنيسة، ٣٠-٥٠ ألف دولار لبعض رجال الكونجرس الأمريكي المتعاطفين مع القضية القبطية بغية استمرار دعمهم لهم[١]، كما نادى يهود العالم ومنظماتهم لدعم أقباط مصر؛ لأن دعمهم "يخدم المصالح الغربية والأمريكية واليهودية،لأنهم يدافعون عن تحول مصر إلى دولة جهادية مسلحة مناوئة للغرب، ومعادية لإسرائيل"[٢].

أما النموذج الأكثر فجاجة وغلظة في الاستقواء بالأجنبي فهو موريس صادق المحامي القبطي في المهجر الذي جاهر باستعداء الغرب وإسرائيل على مصر ومسلميها، فقد أرسل بيان استغاثة إلى زعماء الدول الكبرى أثناء اجتماعهم في مؤتمر شرم الشيخ المصرية، في تسعينات القرن الماضي، يطالبهم بإنقاذ أقباط مصر، كما أرسل رسالة إلى رئيس وزراء إسرائيل الهالك أرييل شارون للسبب نفسه، وطالب في رسالة أخرى أرسلها إلى أفيجيدور ليبرمان وزير خارجية إسرائيبل يطالبه بأن تتدخل إسرائيل لفرض الوصاية الدولية على مصر، كما طالب مرارًا الولايات المتحدة الأمريكية بقطع المعونات الاقتصادية عن مصر، ومنع تصدير القمح إليها، إذ سيؤدي ذلك إلى إضعاف الجانب الإسلامي فيها لصالح الأقباط[٣].

وأدان تقرير لمنظمة العدل الدولية سنة ٢٠٠٧م ما عدَّه تمييزًا ضد الأقباط في مصر، فأشار الرد الحكومي على التقرير - على لسان وزيرة القوى العاملة والهجرة عائشة عبد الهادي – إلى تقرير لمجلة فوربس؛ أحصى ثلاثة أقباط من بين أثرى أثرياء العالم كدليل على أوضاعهم الجيدة، أما على الصعيد العربي فقد جعلت مجلة فوربس هؤلاء الأقباط الثلاثة من العشرة الأثرى بين العرب.. فيما تؤكد تقارير صحفية مصرية إلى أن الأقباط

(١) هاني لبيب: المصدر السابق ص ٨٦-٨٧.
(٢) السابق ص ٨٨.
(٣) السابق ص ٨٩.

يمثلون ٢٥٪ من أعضاء النقابات المهنية المصرية، وأنهم يمتلكون أكثر من ٢٢٪ من الشركات التي تأسست زمن الانفتاح أي بين سنتي ١٩٧٤ و١٩٩٥، ويسيطرون على ٢٠٪ من شركات المقاولات، و٥٠٪ من المكاتب الاستشارية، و٤٥٪ من العيادات الطبية، و ٣٥٪ من عضوية غرف التجارة الأميركية والألمانية، وعلى ٦٠٪ من عضوية غرف التجارة الفرنسية، والأقباط وفق هذه المعطيات يمثلون ٢٠٪ من رجال التعليم، ويشغلون أكثر من ١٥٪ من وظائف وزارة المالية و٢٥٪ من المهن المميزة[١].

ولا شك أن هذه الأرقام تعطي دلالة تنفي الاضطهاد والتمييز ضد الأقباط، وإن لم تكن كافية للدلالة على نفي حالة التأزم الاجتماعي والسياسي التي تحياها البلاد وأهلها جميعًا مسلمين وأقباط.

أوضاع الأقليات الدينية في الشام:

وتقاسم الفرنسيون الشام مع بريطانيا بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى، فاستولت بريطانيا على الأردن وفلسطين، واحتلت فرنسا سوريا ولبنان لما دخلوها سنة ١٩٢٠، فكان من أخطر ما فعلوه أن سلخوا لبنان عن سوريا، وجعلوها دولة مستقلة يتحكم فيها النصارى الموارنة أتباع فرنسا ومن وافقهم.. وقد سلطوا التعليم الأجنبي والإرساليات التنصيرية على البلاد، فأنهضوا النصارى فيها، ويسروا لهم سبل العلم والترقي في المناصب الإدارية، بينما ظل المسلمون بعيدًا عن ذلك بطبيعة الحال، مما مكن للنصارى في مستقبلها، وجعل منهم طبقة متميزة ثقافيًا واجتماعيًا[٢].

---

(١) "**ملف التمييز ضد الأقباط في مصر**" حلقة نقاشية على قناة الجزيرة الوثائقية في ٣١/ ٥/ ٢٠٠٧م، على الرابط التالي، وتم الاطلاع عليها مؤرشفة في ٢٣/ ١/ ٢٠٢٣ الساعة ١٥,٣٠:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/AF9D7247-8E36-4CF0-861F-1502A22E1F97.htm

(٢) محمد عبده: الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ٣/ ٩٩.

وقد مر بنا الحديث مفصلاً عن دور فرنسا في تأسيس الجيش السوري، واعتمادها في ذلك على العناصر الطائفية، بعدما أذكت روح الفتن والعداء بين أبناء الوطن الواحد، ولما انسحبت فرنسا من سوريا تركت إرثها الطائفي الكريه المدمر، الذي سعت إلى تأصيله طوال سنوات الاحتلال.. كما ترك التركيب الطائفي المتنافر في الجيش أثره في تحريك الانقلابات العسكرية المتكررة في سوريا على النحو السابق بيانه.

ففي أول انقلاب تشهده سوريا؛ وقاده حسني الزعيم، برز دور الأقليات الدينية والعرقية، فكان من أبرز قادته من كبار الضباط: ثلاثة مسيحيين، وثلاثة أكراد، واثنين من الشركس، فضلاً عن شيعي واحد وآخر علوي[1].

وتشكل المجلس العسكري الأعلى الذي قاده سامي الحناوي في انقلابه على حسني الزعيم في أغسطس سنة ١٩٤٩ من عشرة أفراد من بينهم اثنان فقط من العرب السنة، والباقون من الكرد والمسيحيين والشيعة – علويين وإسماعيليين– والشركس والدروز[2].

وقامت العناصر المسيحية في المؤسسة العسكرية السورية بأدوار بارزة في تدبير وقيادة الانقلابات العسكرية في الفترة ١٩٤٦-١٩٦٢، وتولى كثير منهم منصب رئاسة الوزراء؛ وعددًا من الحقائب الوزارية؛ والمناصب المهمة في الإدارة الحكومية[3].

وفي سنة ١٩٥٠ جرت مناقشات في مجلس النواب لمواد الدستور المقترح، ومنه مادة تنص على أن دين الدولة الإسلام، فنشطت مختلف الطوائف المسيحية ضد النص المقترح، وقام زعيم البعث المسيحي ميشيل عفلق بحملة للدفاع عن علمانية الدولة، ووقف إلى جانبه السياسي البروتستانتي المخضرم فارس الخوري الذي رفض أي

(١) د. بشير زين العابدين: الجيش والسياسة في سوريا ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) د. بشير زين العابدين: السابق ص ١٧٧-١٧٨.

(٣) راجع د. بشير زين العابدين: الجيش والسياسة في سورية ص ٢٢٤.

ذكر للدين، وردد شعارات الثورة العربية بأن "الدين الله، أما الوطن فللجميع"، كما تحركت طوائف الكاثوليك برئاسة المطران حريكة لمعارضة نص أن الإسلام دين الدولة، حيث قابل وفد منهم رئيس الوزراء خالد العظم، وصرح المطران حريكة عقب الاجتماع بأن إضافة مادة إلى الدستور تتعلق بالدين ستحط من سمعة البلاد.. وأخيرًا عُقد مؤتمر للمسيحيين في دمشق يوم ٢٠ يوليو، مثلت فيه جميع الطوائف المسيحية وقدموا مذكرة إلى الحكومة طالبت ألا يتضمن الدستور الجديد أي ذكر لدين خاص بالدولة، ووصلت الأزمة ذروتها لدى مناقشة المسألة في مجلس الشعب من خلال جلسات سرية ومنعت المظاهرات، وأوعز إلى الصحافة الإحجام عن تسريب الأخبار حول مداولات المجلس، وحُسمت المسألة في نهاية الأمر بالنص على أن دين رئيس الجمهورية الإسلام، وأضيفت مادة تنص على أن الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيس للتشريع"[١].

الدور الصهيوني في فتنة الدروز:

وامتدت الإجراءات العنيفة للرئيس الشيشكلي إلى مواجهة مسلحة مع الدروز، حيث اعتقل كبار قادتهم، ودخلت قواته المسلحة إلى معاقلهم في جبل العرب، وارتكبت من الجرائم ما أثار السخط، وحرك دوافع الانتقام، فكان لهم أكبر الدور في إسقاطه والانقلاب عليه في فبراير ١٩٥٤[٢].

وكان الغضب قد أدى بالدروز السوريين إلى التنسيق المشين مع إسرائيل لإسقاط الشيشكلي بعدما فعله بهم واعتقل زعماءهم، وقامت الحكومة الإسرائيلية بالاتصال

---

(١) بشير زين العابدين: المرجع السابق ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) أكرم الحوراني، **مذكرات أكرم الحوراني**، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د. ت)، ٢/ ١٥٩٧-١٥٩٨، بشير زين العابدين: مرجع سابق ٢٢٤-٢٢٥.

مع الدروز رسميا للتعبير عن تعاطفها معهم، وشجعت السلطات الإسرائيلية دروز إسرائيل على التظاهر ضد الشيشكلي دعمًا لإخوانهم في جبل العرب.. وتم تشكيل وفد من الدروز لزيارة تل أبيب - بالتنسيق مع الجهات الرسمية - حيث استقبلهم رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك موشي شاريت، ورتبت لهم زيارة للكنيست. وتم الاتفاق على تغطية أخبار التمرد في جبل العرب في أجهزة الإعلام الإسرائيلية، وقامت إذاعة إسرائيل بحض الحكومة على التدخل لرفع المعاناة عن دروز سورية. بل إن موشي ديان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي كان يحرض رئيس وزرائه على تسليح دروز إسرائيل؛ وتمكينهم من التدخل في المعارك الدائرة بين الحكومة والمتمردين في جبل العرب؛ غير أن ذلك لم يتم[1].

أمريكا تستغل العامل الطائفي:

استغلال أمريكي للملف الشيعي:

لقد ظل العراق منذ تأسيس دولته الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الأولى كيانًا متنوع الأعراق والمذاهب، يضم العرب والأكراد، والسنة والشيعة، والنصارى واليزيديين والصابئة وغيرهم، وبالرغم من ذلك لم يشهد العراق نزاعًا قوميًا أو طائفيًا خطيرًا - سوى النزعة الانفصالية الاستقلالية عند الأكراد، وبعض هبَّات الشيعة- إلا بعد التدخل الأمريكي والغربي في البلاد.

لقد وجد الأمريكان في النظام الشيعي في إيران معينًا لهم في حربهم ضد أفغانستان سنة ٢٠٠١، وقت حكم طالبان، إذ تم الغزو بتشاور بين البلدين، فضلاً عن مساعدات استخباراتية ولوجستية إيرانية ذات بال، ومشاركة فعلية في القتال من جانب الحرس

(١) بشير زين العابدين: السابق ص ٢٢٧-٢٢٨.

الثوري الإيراني، فلما تحقق لأمريكا ما تريده من إنهاء حكم طالبان عادت إلى مهاجمة إيران ووصفها بأنه من محور الشر[1].

وكان نداء المصالح أقوى عند شيعة إيران، وكذلك شيعة العراق، الذين سعوا إلى التحالف مع الولايات المتحدة في غزو العراق سنة ٢٠٠٣م، حيث كان التحالف علنيًا، وكان التنسيق كاملاً، ونالت إيران المكافأة السخية بتسليم الشيعة الموالين لها حكم العراق، وإقرار دستور طائفي بها، وأصبح العراق مصنعًا للميليشيات الطائفية العراقية، وساحة للميليشيات الطائفية الإيرانية، التي انتهجت حربًا حقيقية ضد النفوذ السني السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل مصادرة احتمالات عودة ذلك النفوذ في المستقبل القريب بتفكيك البنى الاجتماعية والدينية والعلمية للسنة هناك، ووصل الأمر إلى حد الفرز الطائفي والقتل على الهوية، وكان كل ذلك يجري على قدم وساق في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق، وفي الفترة التالية للغزو برعاية أمريكية، أو صمت وغض للطرف..

وفتحت الإدارة الأمريكية للعراق بعد الاحتلال الطريق إلى تحقيق ذلك، إذ عمدت إلى هدم مؤسسات الدولة، وإحداث حالة من الفراغ السياسي بعد حظر حزب البعث الذي كان مسيطرًا عليها، وحل الجيش والمؤسسات الأمنية، مما ترك البلاد في خواء سياسي وأمني، ملأته الميليشيات المنظمة وشيوخ العشائر..

وبتشكيل مجلس الحكم المؤقت من قبل الحاكم الأمريكي بول بريمر في يوليو ٢٠٠٣، اتضح البعد الطائفي والعرقي لسياسات الاحتلال، حيث تم توزيع عدد مقاعد المجلس، البالغ عددها ٢٥ مقعدًا، على أسس الطائفة والعرق بين معظم مكونات العراق المختلفة، ثم امتد هذا التوزيع الطائفي إلى مختلف الوزارات التي تشكلت، وبالتالي فقد

(١) "الحرس الثوري ومساعدة الولايات المتحدة في غزو أفغانستان (الحلقة الخامسة): تقرير لقناة الجزيرة الإخبارية في ٧/ ٩/ ٢٠١٩، على الرابط: https://cutt.us/Rru1P

أصبحت الاعتبارات الطائفية هي المعيار الأساس لاختيار الأعضاء، وذلك لأول مرة في تاريخ العراق الحديث. وكما تم وضع الدستور الدائم عام ٢٠٠٥، والذي يؤصل الطائفية، فقد تم توزيع المناصب الرئيسة الثلاثة، وهي: منصب الرئاسة، ورئاسة الوزراء، ورئاسة البرلمان، على أساس طائفي، فجعلوا منصب رئاسة الوزراء من نصيب الشيعة، والذي يعد أهم المناصب الثلاثة نظرا إلى كون النظام السياسي العراقي نظاما برلمانيا، على الرغم من كونها في المرتبة الثانية من حيث الحجم السكاني بعد الطائفة السنية، بينما ذهبت رئاسة الجمهورية إلى الطائفة الكردية، وهو منصب شرفي بالأساس، وذهب منصب رئيس البرلمان إلى الطائفة السنية[١].

ودخلت البلاد في دوامة عنف طائفي مريع، ووفقا لأرقام البنتاغون ارتفع عدد القتلى المدنيين العراقين من ٥٠٠ قتيل في بداية عام ٢٠٠٦ إلى حوالي ٣٧٠٠ قتيل في بداية ٢٠٠٧، مع تصاعد أعمال العنف الطائفي، لكن العدد بدأ يتناقص على نحو متقطع إلى ٢٠٠٠ قتيل في منتصف عام ٢٠٠٧، وقرابة ٦٠٠ قتيل في بداية ٢٠٠٨[٢].

ونتيجة للعنف الطائفي فر آلاف من السنة من مناطق الشيعة إلى مناطق ذات أغلبية سُنية، وهكذا الأمر بالنسبة للشيعة، ومع صعود العنف الطائفي السني الشيعي إلى ذروته في عام ٢٠٠٦ كانت تجري إقامة أحياء سنية وشيعية متجانسة، وقد وصل عدد المهجرين قسريًا من مناطقهم إلى مناطق أخرى إلى أكثر من ٢ مليون مهاجر، وقد أشار تقرير بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق إلى أن عدد النازحين داخليًا بلغ حوالي مليون فرد، منهم ١٤٨ ألفًا قبل سنة ٢٠٠٦، و٨٠٠ ألف بعد سنة ٢٠٠٦[٣].

---

(١) عبد الله جمال حسني يوسف: **أثر الاحتلال الأمريكي على العنف السياسي الطائفي في العراق (٢٠٠٣ - ٢٠١٧)**، موقع المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية الاقتصادية والسياسية، ١٥ يوليو ٢٠١٩، على الرابط https://democraticac.de/?p=61716

(٢) جيمس غلانز، **"أعداد الضحايا في العراق"، المستقبل العربي**، العدد ٣٧٠، ٢٠٠٩، ص ١٥٧.

(٣) عبد الله جمال حسني يوسف **أثر الاحتلال الأمريكي على العنف السياسي الطائفي في العراق**، مقال سابق.

ولا شك أن تحويل العراق - بما يمثله من قوة سياسية واقتصادية واستراتيجية للعرب، إلى دولة فاشلة؛ مثَّل غاية للسياسة الصهيونية، والسياسة الأمريكية؛ بإدخاله في أتون حروب طائفية غبية، ثم تقسيمه واقعيًا إلى ثلاث دول: سنية وشيعية وكردية.

التمدد الشيعي في جوار العراق وإيران:

ثم أقرت السياسة الأمريكية التمدد الشيعي خارج إيران والعراق، كما حدث في حالة حزب الله في لبنان الذي أعلن زعيمه حسن نصر الله مرارًا أن ولاءه لإمام الشيعة في إيران، والذي أصبح قادرًا على فرض إرادته على منظومة الحكم في لبنان، أو التحكم فيها في الحد الأدنى. بل تجاوز حدود لبنان من خلال دعم السياسة الإيرانية في سوريا بتقديم الدعم اللامحدود لنظام الحكم العلوي الطائفي فيها، بإجهاض الثورة الشعبية السورية، والتصدي للمعارضة المسلحة هناك.

كما امتدت السيطرة الشيعية إلى اليمن من خلال ميليشات الحوثيين بها، وهم يجاهرون بسياساتهم الطائفية باليمن، ويسعون إلى السيطرة الكاملة عليها، وتتجه ممارساتهم السياسية وقوتهم العسكرية إلى إضعاف الوجود السني في اليمن، ومحاربة الجماعات السنية فيه. وأصبحوا يشكلون تهديدًا للنظام السعودي، وللحكومة اليمنية الموالية له.

ويتم ذلك كله برضا أمريكي وارتياح غربي، بالرغم من الصياح الإعلامي المستمر بالعداء ضد إيران، واعتبارها خطرًا يهدد الأمن في الخليج العربي، ودوله المنتجة للنفط، وفزاعة تخيف بها أمريكا دول المنطقة، وتدفعها إلى موالاة السياسة الأمريكية، وطلب الحماية منها.

المبحث الثالث

الاستعمار الغربي والصهيونية

١- الاستعمار الأوربي ومراحله:

الكشوف الجغرافية جذور الاستعمار الحديث وامتداد الصليبية:

تمثل الكشوف الجغرافية جذور الاستعمار الحديث، "فقد ولد الاستعمار المعاصر في حجر الكشوف الجغرافية، ولا نقول في رحمها، ففي تلك الفترة خرجت أوروبا تضرب في المجهول، فعادت تحمل إلى العالم عالمًا جديدًا، بل عوالم جديدة،... وربما لا يعدل تلك الطفرة في عالم الإنسان شيء من قبل إلا كشف الزراعة، ولا من بعد إلا غزو الفضاء"(١).

كانت نتائج حركة الكشوف الجغرافية ثورية وهائلة، في جميع المجالات العلمية والاقتصادية والاستراتيجية، حيث قلبت استراتيجية العالم القديم من صميمها، فمع اتساع رقعة العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى، وخرج الاستعمار لأول مرة من دائرته التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتخومه؛ إلى عالم لا متناهٍ، فبعد أن كان محليًا وإقليميًا أساسًا؛ أصبح عالميًا وكوكبيًا تمامًا، وأصبح البحر المتوسط - الذي شغل أحداث التاريخ فيما مضى، وسادت العالمَ الدولُ المطلة عليه- أصبح زقاقًا مغلقًا، وانساقت الأهمية العظمى إلى المحيط الأطلسي- والمحيطات الأخرى- والدول المطلة عليه، "وانحدرت قيمة دول وموانئ البحر المتوسط لتنتقل الزعامة إلى دول وموانئ غرب أوروبا "(٢).

---

(١) د. جمال حمدان: **استراتيجية الاستعمار والتحرير**، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٣م، ص ٤٩-٥٠.

(٢) راجع السابق ص ٥٠-٥١.

ويمكن أن نقسم تاريخ الاستعمار في العصر الحديث إلى مرحلتين: أولاهما تغطي القرنين السادس عشر والسابع عشر، واتجهت إلى اكتشاف الأراضي الجديدة، على سواحل إفريقية وآسيا، أو في الأمريكتين، والسمة العامة له هي الاستيطان في تلك الجهات، والثانية في القرن التاسع عشر، واتجهت إلى استعمار العالم القديم المعروف من قبل، وينتمي معظمه إلى العالم الإسلامي، والسمة العامة له هي استغلال هذه المناطق اقتصاديًا، والتحكم فيها سياسيًا وفكريًا[1].

الطابع الصليبي للكشوف الجغرافية:

تعد الكشوف الجغرافية حلقة من سلسلة الحروب الصليبية الممتدة على العالم الإسلامي، وكان المشروع الصليبي قد أصيب بهزيمة فادحة بعد الزحف العثماني المظفر على شرق أوروبا وافتتاح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، وإسقاط الدولة البيزنطية العتيدة، فجاء رد الفعل الصليبي من الغرب بطرد المسلمين من الأندلس سنة ١٤٩٢م، ولما تواصلت الفتوحات العثمانية في حوض البحر المتوسط جنوبًا بعد فتح مصر والشام ١٥١٦-١٥١٧م، ثم الساحل الإفريقي حتى مراكش؛ ردت إسبانيا والبرتغال بغزوات متتالية للساحل الشمال الغربي لإفريقيا، واحتلال أجزاء منه.

ثم بدأت الكشوف الجغرافية من البرتغال وإسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وأوائل القرن السادس عشر، في إطار مواصلتهما الحرب ضد المسلمين، ونقل الصراع إلى آفاق أبعد، وكانت الرغبة عارمة في السيطرة على طرق التجارة التي تربط بين الشرق حيث الهند وشرق آسيا والغرب الأوروبي، والتي كان يحتكرها المسلمون من خلال موانئهم على جنوب البحر المتوسط وشرقيه، وحرمان دولة المماليك المناوئة لهم من ميزات تلك الوساطة التجارية، مع الرغبة في تطويق العالم الإسلامي بالالتفاف حوله

(١) راجع د. جمال حمدان: السابق ص ٤٩، بتصرف.

من المحيطات المحيطة به، وكانت البابوية واقفة بقوة خلف هذه المشاريع الاستعمارية الطموحة، وهو امتداد لما اعتادته الكنيسة الكاثوليكية في دعم إسبانيا والبرتغال منذ حروبهما ضد الوجود الإسلامي في الأندلس، وقبله منذ الحروب الصليبية في الشرق.. وكان المظهر المكمل لهذه السياسة هو رسم الصلبان على أشرعة السفن في مغامرتها الكبرى في البحار، مع صحبة مزيد من المنصرين يتجهون لنشر الكاثوليكية حيث تتجه الجيوش الغازية في الأراضي الجديدة.

الاستعمار البرتغالي:

وفي مطلع القرن الخامس عشر تمكن البرتغاليون من اكتشاف سواحل غرب إفريقية، وفي سنة ١٤٨٨ استطاع بارثلميو دياز البحارة البرتغالي الوصول إلى أقصى الطرف الجنوبي لإفريقيا عند الموضع الذي أسماه "رأس الرجاء الصالح"، وبعد سنوات قلائل في سنة ١٤٩٧ تجاوز الملاح البرتغالي "فاسكو دا جاما" رأس الرجاء الصالح في طريقه إلى جنوب غرب الهند، بمعاونة البحار المسلم أحمد بن ماجد، الذي أرشده إلى طريق الهند، مما كان يعني انتقال السيادة على الطريق التقليدي للتجارة البرية- الذي يتحكم فيه المسلمون- إلى طريق بحري يمتلكه البرتغاليون والمستعمرون الجدد..

وفي "خلال العقد الأول من عودة دا جاما من الهند كانت سفن العرب من الإسكندرية وبيروت تدخل الإسكندرية فارغة، لأول مرة، لقد غاض الدم، وجف من الشريان والوريد معًا، فتوقف قلب الاقتصاد العربي الإسلامي"[1].

ثم أكمل البرتغاليون غزو سواحل الهند، وما لبثوا أن ظهرت سفنهم في بحر العرب والخليج العربي أوائل القرن السادس عشر، فأحكموا سيطرتهم على جزيرة سقطرى، وعلى هرمز ومسقط، والبحرين، وغيرها.

---

(١) د. جمال حمدان: السابق ص ٥٥.

وفي النصف الأول من القرن السادس عشر كانوا قد استولوا على مجموعة من الممتلكات على طول شواطئ غرب إفريقية وشرقها، وفارس والخليج العربي والمليبار -في جنوب غربي الهند- وسيلان والهند الصينية - في جنوب شرق آسيا - وأرخبيل الملايو[1]. حيث أقاموا مراكز لهم في ملقا وشمال سومطرة وغيرها..

وألبت النزعة الصليبية الأهالي على البرتغاليين، حيث كان أول ما فعلوه بعد استيلائهم على ملقا هو بناء حصن لهم بحجارة انتزعوها من مقابر المسلمين، ثم أقدموا على إعدام دفعات متتالية منهم، ثم أمعنوا في أعمال القرصنة في المحيط الهندي، وقتلوا السلطان هارون سلطان "تيرنات" سنة ١٥٧٠ الذي كان سلطانه يمتد حتى الفلبين[2].

وحاول الأسطول المملوكي فيما بعد تحرير سواحل الهند، واسترداد طريق التجارة، والقضاء على الخطر البرتغالي في المحيط الهندي، وقد حقق نجاحًا، وهزم الأسطول البرتغالي في موقعة شاول سنة ١٥٠٨، ولكن الأسطول المملوكي - مع أساطيل أخرى صديقة- لقي هزيمة كاملة أمام الأسطول البرتغالي في موقعة ديو البحرية في السنة التالية ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، فكانت معركة فاصلة كتبت النهاية لسيطرة المسلمين البحرية في المحيط الهندي، وأصبحت السيادة والسيطرة على طريق التجارة في هذه النواحي للأسطول البرتغالي والأساطيل الأوروبية من بعده.

وتمكن البرتغاليون من احتلال مزيد من السواحل الإسلامية في ساحل الهند الغربي وسواحل الخليج العربي وبحر العرب، ولم تغير محاولات الأسطول العثماني هزيمة أسطول البرتغال في عامي ١٥٣٨، و١٥٦٤ من ذلك الواقع شيئًا..

---

(١) راجع عبد الرحمن حسن حبنكة: **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستشراق - الاستعمار**، دار القلم، دمشق، ط٨، سنة ٢٠٠٠م، ص ١٧١.

(٢) محمود شاكر: إندونيسيا ص ٣٩-٤٠، د. إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر: **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر** ١/ ٢٨٨.

وكانت بعض خطط البرتغاليين بها مسحة من جنون، فقد تحالفوا مع النصارى في الحبشة، بعدما شاعت في أوروبا خرافة عن وجود مملكة القديس يوحنا بها، فلما خاب أملهم بعد مجيئهم آثروا أن تتجه خطتهم مع الأحباش إلى فكرة خيالية تقضي بمحاولة تحويل مجرى نهر النيل من مصر، بما تمثله من خطورة على المشروع الصليبي الغربي، إلى البحر الأحمر ليموت أهلها عطشًا، كما فكروا في غزو الحجاز لينبشوا قبر النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويزحفوا بعد ذلك إلى الشام حيث بيت المقدس والمسجد الأقصى، وقد قُبض على جواسيسهم الذين أرسلوهم إلى مكة ليرتادوا لهم الطريق سنة ١٥١٠م[١].. وتلك أمنية قديمة حاولها صليبيو بيت المقدس من قبل أيام نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ففشلوا.

وحاول البرتغاليون غزو البحر الأحمر، واحتلوا بعض الجزر في مدخله الجنوبي، ومن هناك وصلوا إلى جدة، لكن الأسطول العثماني نجح في طردهم من البحر الأحمر، ثم أصدرت السلطات العثمانية أوامرها بمنع دخول السفن البرتغالية- بل المسيحية كافة - مياه البحر الأحمر حفاظًا على حرمة الأماكن المقدسة في الحجاز وسلامتها[٢].

لم يكن الوجود البرتغالي في المناطق التي احتلها مستأهلاً شروط البقاء، فقد ظلت السيادة البرتغالية تمثل نقاطًا وتحصينات لأماكن محدودة على السواحل، غير قادرة على تحقيق امتداد ضامن للاستمرار في البر، فكان وجوده مرهونًا بغياب قوة بحرية أعظم قادرة على فرض سيطرتها البحرية، ولم تمتلك البرتغال القوة البشرية اللازمة للامتداد والاستيطان وفرض السيطرة على مساحات ممتدة خارج بلادها؛على ذلك النحو الذي وجد البرتغاليون أنفسهم فيه، فلم يكن عدد سكان البرتغال حينها يزيد عن مليون نسمة،

---

(١) د. عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ٢/ ٢٣.

(٢) د. الشناوي: المرجع السابق ٢/ ٢٤.

بل ظلت مساحة البرتغال الدولة نفسها محدودة الاتساع بالمقارنة بجارتها القوية إسبانيا، فلم يكن غريبًا أن تضم إسبانيا إليها البرتغال وممتلكاتها عبر البحار ما بين عامي ١٥٨٠ - ١٦٤٠، ناهيك عن وجود مقاومة مستمرة للاحتلال البرتغالي المتسم بالقسوة البالغة والتعصب الديني والروح الصليبية الحاقدة[١].

الاستعمار الإسباني:

استمرت المخططات الطموحة للبرتغال فقد اتجه أميريكو فيسبوتشي إلى الغرب من البرتغال بهدف الوصول إلى الهند من طريق الغرب، فاكتشف البرازيل ومناطق من أمريكا الجنوبية.

ودخل الإسبان في السباق نحو مزيد من الكشوف التي ارتادها البرتغاليون، فأيدوا مشروع اثنين من الملاحين الذين رفضت البرتغال دعمهما، أولهما هو كريستوفر كولمبوس الجنوي الأصل الذي آمن بإمكان الوصول إلى الشاطئ الشرقي لآسيا عن طريق الدوران غرب المحيط الأطلسي، وقد تمكن من الوصول إلى أمريكا الوسطى، عند جزر البهاما وهايتي وشمالي كوبا، وكان قد بدأ مشروعه سنة ١٤٩٢م، ثم تمدد الإسبان فيما بعد غربي أمريكا الشمالية والجنوبية، محتلين أجزاء واسعة تعادل مساحة إسبانيا نفسها عشرات المرات، في مدى زمني محدود لا يجاوز ربع قرن من الزمان ليستعمروا ١٢ مليون من الهنود الحمر لدولة لا يزيد تعداد سكانها عن ٦ ملايين[٢].

والرجل الثاني الذي وضع نفسه تحت أمر ملك إسبانيا هو الملاح البرتغالي ماجلان الذي خطط للوصول إلى جزر البهار (جزر التوابل أو جزر مالوكو Moluccas ضمن

---

(١) راجع د. محمد حسن العيدروس: **سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي (١٦٢٢-١٦٥٠)**، دار المتنبي للطباعة والنشر، أبو ظبي، سنة ١٩٩٧، ص٢١-٣٢.

(٢) راجع د. حمال حمدان: مرجع سابق ص ٥٧-٦٠.

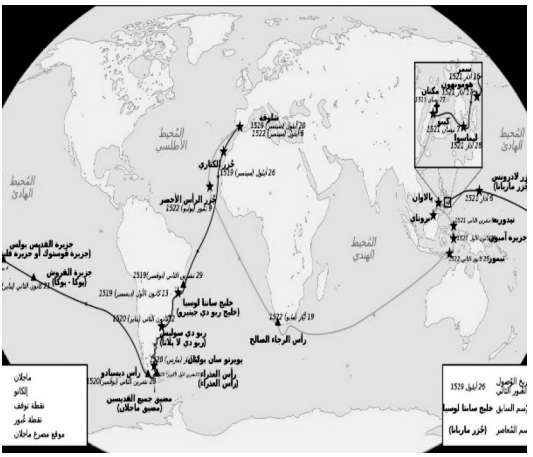

جزر إندونيسيا الآن[1]) عن طريق الدوران من الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية، وانطلقت الرحلة سنة ١٥١٩م، وحقق ماجلان نجاحًا كبيرًا بالوصول إلى الفلبين سنة ١٥٢١م، وهو يظن أنها جزر البهار، وارتكب ضد أهلها حماقات صليبية أدت إلى قتله هناك في نفس السنة، وأكمل بحارته الطريق فوصلوا إلى جزر البهار بالفعل، ثم أتم ما بقي من السفن والبحارة الرحلة عائدين إلى إسبانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح[2]، بعد خسائر فادحة، فلم يعد من خمس سفن إلا سفينة واحدة، وسفينة أخرى كانت تأخرت لإصلاح عطبها، ولا من ٢٣٤ بحارة سوى ١٨ بحارًا على السفينة الأولى، وأربعة على السفينة الأخيرة، وتأخر ١٣ آخرون أسرهم البرتغاليون، ثم أطلقوهم..

عادت رحلة ماجلان بعد ما حفلت به من جرائم هائلة من حرق للبلاد الآمنة، وتنكيل بالأهلين، ونهب لخيراتهم، وسجلت مقاومة المسلمين من أهل الفلبين صفحة بيضاء من صفحات الجهاد الإسلامي، إذ رفض سكان جزيرة ماكتان ما فرضه ماجلان من جزية، ومن تنصير قسري، فتصدوا له، واستطاعوا هزيمة قواته هزيمة ماحقة، وقتل ماجلان نفسه على يد زعيمهم "لابو" الذي ما زال أهل الفلبين يعدونه بطلاً قوميًا لهم.. إلا أن رحلة ماجلان ظلت -مع مزيج من الدعاية والادعاء- أول رحلة بشرية تدور حول الأرض دورة كاملة[3].

---

(١) راجع مادة **جزر الملوك** ضمن موسوعة ويكيبيديا الحرة على الرابط https://cutt.us/2g5bx

(٢) د. عبد العزيز سليمان نوار ود. محمود محمد جمال الدين: **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٩٩م، ص ٦٢-٦٧.

(٣) راجع مقالة أحمد الشافعي: "**ما وراء أسطورة ماجيلان" إمبريالي فاشل أحرق القرى وأزهق الأرواح**"، =

وهكذا كان الاستعمار الإسباني يأخذ نصيبه من الوصول إلى بلاد المسلمين، أو بلاد بها أعداد كبيرة من المسلمين في الفلبين وإندونيسيا، كما وصل البرتغاليون إلى أراضي المسلمين في سواحل شرق إفريقية والهند والخليج العربي.

وعلى كل حال فإن ملك الإسبان في آسيا ظل محصورًا في الفلبين، بخلاف وفرة ممتلكات البرتغال، وقد آلت تلك الممتلكات البرتغالية في بلاد الإسلام إلى حكم الإسبان إبان خضوع البرتغال لإسبانيا كما مر بنا. وقد عوضت إسبانيا ذلك النقص باتساع ممتلكاتها في الأمريكتين، وفي أوروبا نفسها[1].

الاستعمار الهولندي:

استقلت هولندا عن الاحتلال الإسباني في القرن السابع عشر، وسرعان ما تبوأت مكانة عالية بين الأقوياء، تمدها خبرات طويلة من المهارة البحرية من أجدادهم الفايكنج، ويعد القرن السابع عشر الميلادي قرن هولندا"، فقبل أن يمضي نصف قرن على استقلالها كانت هولندا في كل بحار العالم، وبعدها بقليل وصلت إلى أوج قوتها، وفي الطريق إلى الهند أقاموا مستعمرات ساحلية في ساحل غانا، وانتزعت السيادة من البرتغال في جزر الهند الشرقية،.. وهي بذلك قد ورثت امبراطورية البرتغال، كما ورثت موقعها الجغرافي، ودورها التاريخي ا[2].

بدت سياسة هولندا في أولها مغايرة لسياسة البرتغال تجاه المسلمين، إذ حاولت الإفادة من كراهية المالاويين للبرتغال، وحاجتهم للتخلص منهم، فعقدت مع بعض

= موقع Independent عربية بتاريخ ١٢/ ٢/ ٢٠٢٢، على الرابط التالي، وتم الاطلاع عليه في ٢٥/ ١/ ٢٠٢٣ الساعة ٢١,١٥ https://cutt.us/weDjP، وكذلك مادة "**لابو**" في ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الرابط https://2u.pw/rc33XR

(١) راجع د. جمال حمدان: مرجع سابق ص ٦٢-٦٣.

(٢) د. جمال حمدان: المرجع السابق ص ٦٥.

سلاطينهم المعاهدات لمساعدتهم في التحرر من البرتغاليين، وإقامة مراكز تجارية لهم في بلادهم، وأسست هولندا عدة شركات تجارية في مظهرها، سرعان ما جمعتها في شركة واحدة سُميت شركة الهند الشرقية الهولندية سنة ١٦٠٢م، وبنت الحصون للدفاع عنها[١].. واحتكرت المنتجات الزراعية للسكان لصالحها، وفرضت الأسعار المناسبة لها، وانتزعت ملكية الأراضي التي لا تستجيب لها، وكذلك فعلت مع الموانئ المهمة في البلاد، حيث استولت على ملكيتها لصالح الحكومة الهولندية، واحتكرت التجارة في تلك الجهات[٢].

وفي القرن التاسع عشر قامت ثورات عديدة من المسلمين ضد الاستعمار الهولندي، ففي جزيرة جاوة خاضت حروبًا أشهرها حروب الأمير المسلم ديبو نيجورو التي استمرت خمسة أعوام، وانتهت سنة ١٨٣٠م، والحروب التي قادتها جمعية "قوم بدري"، وهي جمعية دينية تأسست قبل وصول الهولنديين، ومعنى اسمها "البيضاء"، إشارة إلى طهارة القلوب، وإلى الملابس البيضاء التي كانت ألبستهم، وقد حققوا الانتصار على الهولنديين، وأقاموا حكمًا يرأسه ثمانية من العلماء، واستمرت حروبهم ضد الهولنديين ١٥ سنة حتى سنة ١٨٣٧م، أما الحروب الهولندية ضد مملكة آتشيه الإسلامية في شمال سومطرة فقد طالت لمدة ٣١ سنة (١٨٧٣-١٩٠٤م) قبل أن تهدأ الأمور لصالح هولندا[٣].

هذا ما يخص ممتلكات هولندا في بلاد المسلمين، أما خارجها فقد استولت على مناطق في إفريقيا والأمريكتين، كانت البرتغال تبسط سيطرتها على كثير منها.. ولم تعمر الإمبراطورية الهولندية طويلاً لنفس الأسباب التي أدت إلى زوال إمبراطورية البرتغال،

---

(١) إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر** ص ٢٨٩.

(٢) عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين: مرجع سابق ص ٧٢-٧٣.

(٣) محمود شاكر: **إندونيسيا** ص ٤٣-٤٤.

من حيث قلة سكانها، وضيق مساحتها الجغرافية، وأطماع الأقوياء المتربصين بها في فرنسا وبريطانيا، ولا يبدأ القرن الثامن عشر حتى كانت هولندا قد فقدت معظم تجارتها، وخسرت كل قوتها البحرية، وخرجت تمامًا من دائرة صراع القوة[١].

الاستعمار الفرنسي:

أنفقت فرنسا عقودًا من الزمن لترتيب أوضاعها في الداخل الأوروبي قبل أن تدخل حلبة السباق الاستعماري الدولي في القرن السابع عشر، واستطاعت فرنسا إقامة مستعمرات لها في كندا وأمريكا، أما في العالم القديم فقد وصلت إلى الهند واستولت على مواقع في شرق البلاد وفي غربها، وأسست شركة الهند الفرنسية الشرقية سنة ١٦٦٤م، لكنها اصطدمت في الهند بالاستعمار البريطاني الأقدم زمنًا، والذي كان وطد أقدامه هناك، وخسرت فرنسا في ذلك الصراع كثيرًا من مكاسبها بسبب قصور البحرية الفرنسية عن نظيرتها البريطانية، ولم يتبق لها في الهند سوى بضعة جيوب رمزية، تمامًا كما خسرت كثيرًا من مستعمراتها في أمريكا وكندا[٢].

الاستعمار الإنجليزي:

مثلت الكشوف الجغرافية أهمية كبرى لبريطانيا، إذ "هي التي حولت هذا القطب السالب المعزول المتطوِّح إلى قطب موجب في قلب المعمور المتمدد ما بين العالم القديم والجديد".. وكانت الانطلاقة البريطانية بعد انتصارها على الأسطول الإسباني الضخم (الأرمادا) سنة ١٥٨٨م، وتطلعها التدريجي لوراثة الدور الهولندي والفرنسي، وقد تكفلت فرنسا بتقزيم الدور الهولندي، لتكمل بريطانيا المهمة[٣]..

---

(١) د. جمال حمدان: السابق ص ٥٦- ٦٦.

(٢) د. جمال حمدان: المرجع السابق ص ٧١، د. غوستاف لوبون: **حضارات الهند** ص ٢٤٢.

(٣) راجع حمدان: السابق ٧٣-٧٥.

لقد بدأ الاستعمار البريطاني للعالم الجديد سنة ١٥٧٨م، وسرعان ما انطلق إلى العالم القديم، حيث أسس مستعمرة عجيبة في الهند بقليل من رجاله، وكثير من الهنود أنفسهم!

وكان البدء بتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٦٠٠، واستطاع أن يقضي على إمبراطورية المغول الإسلامية العتيدة، وأجلت فرنسا من مستعمراتها في الهند لتخلو لها سنة ١٧٦٣م[١].

الاستعمار البريطاني للهند:

تسلحت شركة الهند الشرقية في البدء بالخديعة والتودد إلى حكام الهند، وتقديم الهدايا والوعود بالمساعدة ضد البرتغاليين القساة، واستمسكوا بسمت التجار المرتزقين، الذين يستدرون عطف الحكام عليهم، ورفع الضرائب عنهم، أو منحهم إذنًا بإنشاء مراكز تجارية لهم.. وما كان المركز التجاري سوى قطعة أرض في ناحية، تضم بعض أكشاك خشبية للموظفين، ويحرسها حراس وطنيون من الهنود، لقد زاد الحراس فيما بعد بزيادة النشاط ونمو التجارة، وأصبحوا إنجليز مسلحين سلاحًا جيدًا، ومن هؤلاء نبت الجيش البريطاني الذي أخضع الهند بمعاونة الحكام الغافلين والأهالي الساذجين الطامعين، ثم رأت الحكومة البريطانية وحكام الهند ضرورة توافر اتصال رسمي بينهم لرعاية المصالح النامية، فعينت الحكومة البريطانية ممثلاً لها في بلاط الملك المغولي جهانكير[٢].

يصف غوستاف لوبون كيف أن الشركة الإنجليزية "بدت وضيعة في أوائل الأمر"، وبدا وكلاؤها الذين بُعثوا إلى بلاط المغول خُضَّعًا"، وأن وزراء الملك المغولي كانوا يرون أن "ملك إنكلترة ليس غير سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون"، وأن سفير ملك إنجلترا ظل ينتظر على مدى عامين كي يعطيه الملك المغولي كتابًا إلى سيده ملك

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة: **أجنحة المكر الثلاثة** ص ١٧٣.

(٢) راجع د. عبد المنعم النمر: **تاريخ الإسلام في الهند** ص ٤٣٣-١٣٤.

إنجلترا، فقال له الوزير الأول: "إن مما لا يناسب قدر ملك مغولي أن يكتب إلى أمير صغير كملك إنكلترة"، بيد أن "تلك الشركة الإنكليزية لم تقنط، فنالت بالدسائس براءة من الملك المغولي سمح لها فيها بأن تتاجر في سورت، فاتسعت دائرة أعمالها بالتدريج، فكان لها في أقل من ستين سنة فروعًا في كل مكان تقريبًا"[1].

ويكاد لا يؤخذ على سلطان المغول أورنكزيب (عالمكير١٦١٨-١٧٠٧م)- وهو أعظم ملوك المغول المسلمين، بل أحد أعاظم ملوك الإسلام في تاريخه- إلا تهاونه في أمر هؤلاء الغزاة الخبثاء، وإحسانه الظن بهم، إلا أنهم طوال فترة حكمه لم يظهروا نواياهم الحقيقية في الاستعمار والبغي، وكذلك كان شأن الفرنسيين هناك، "لم تفكر دولة أوروبية ثانية في بسط سلطانها - ولو قليلاً - على جزء من داخل الهند ما ظلت دولة المغول قائمة، مكتفية بما لها من المؤسسات في سواحلها، ولكن أبواب المطامع فُتحت بوفاة أورنكزيب، الذي كان موته نذير انهيار سلطان المغول، فلما تم انحلال الدولة المغولية العظمى قامت على أنقاضها عدة ممالك، فصار من الممكنات إقامة إمبراطورية جديدة في الهند، بالتدخل فيما يقع بين أمرائها الكثيرين من المنازعات الداخلية"[2].

كانت استفادة الإنجليز إذن كاملة من التدخل في صراعات حكام البلاد، وضرب بعضهم ببعض، كما أفادوا إفادة عظمى من الخلافات بين ديانات الهنود، وبخاصة بين المسلمين والهندوس، حتى قال لوبون إن الإنجليز "توصلوا إلى فتح الهند برجال الهندوس وأموالهم، وإن شئت فقل: بجنود غير جنودهم، ونقود غير نقودهم، فالحق أن الهند دانت للإنكليز بجيوش مؤلفة من الهندوس، وبأموال أدتها حكومات من الهندوس"، فالهند مجرد تعبير جغرافي، لكنها أبعد ما تكون عن معنى الأمة الواحدة؛

(١) د. غوستاف لوبون: حضارات ال.هند، ص٢٤٣

(٢) لوبون: السابق ص ٢٤٢-٢٤٣.

بسبب تباعد ما بين أديانهم وقومياتهم، ونظام الطبقات الحاد الذي يفرق بين مختلف طبقات العرق الواحد[١].

ويؤكد الكاتب البريطاني "هنتر" مؤلف كتاب "مسلمو الهند" منهج التدرج والمخاتلة التي اتبعها الإنجليز في احتلال الهند، ويزكي ذلك النهج الذي جنب الإنجليز إثارة المسلمين وردَّات غضبهم، وسورة جهادهم، ثم يقول: "وأخذنا بالتدريج نغير شيئًا فشيئًا، حتى تغيرت الهند من دار الإسلام إلى دار الحرب، دون أن يحس أحد بوقع هذا التغيير، حتى إننا لا نعرف تمامًا متى بدأ؟ فحين تمكنا من السلطة أقدمنا على التغيير، ووضعنا القوانين الجديدة، وأبطلنا العمل بالشريعة الإسلامية، وعزلنا القضاة والعلماء المسلمين، وكذلك الموظفين المسلمين".

ويعترف هنتر بأنهم "حينما قبضنا على الهند كان المسلمون فيها أرقى السكان عقلاً، وسياسة وعملاً وعلمًا، وكانوا يمتازون بقوة الجسم والشجاعة، ولكنا -مع ذلك- أغلقنا جميع أبواب العمل بالحكومة في وجوههم... بحيث لا نجد من المسلمين ضباطًا أو قوادًا، أو قضاة في المحاكم العالية"، ويضيف إلى جملة ما فعله الإنجليز أنهم صادروا أوقاف المسلمين التي تنفق على التعليم والمساجد[٢].

لقد أدت هذه الأوضاع إلى ثورات الهنود -وبخاصة المسلمون- فقامت ثورة أهلها ضد سلطة شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٨٥٧م التي فرضت على البلاد الفقر والجهل والجوع، لقد حدثت مجاعات في الهند وقحوط هلك فيها ملايين الناس، منها ست مجاعات بين عامي ١٨٥١-١٨٧٥ مات فيها ٦ - أو عشرة - ملايين، على اختلاف أقوال المؤرخين، وبين عامي ١٨٧٦-١٩٠٠ حدثت ١٨ مجاعة، هلك فيها ٦٢ مليونًا[٣].

---

(١) لوبون: المرجع السابق ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) راجع د. النمر: **تاريخ الإسلام في الهند** ص ٥٠٩-٥١٧.

(٣) راجع السابق ص ٥٠٢.

وقمع البريطانيون قليلو العدد الثورة الحاشدة بجماهيرها، المتواضعة بعلومها وقدراتها، بوحشية بالغة، ودُمرت مدن الثورة وقراها[1].

ثورات مسلمي الهند بقيادة العلماء:

وكان للعلماء دورهم في قيادة تلك الثورة[2]، فلما قُضي عليها لم ييأسوا، بل أدركوا عظم الفوارق بين القوتين، وفداحة الضعف البالغ للمسلمين، فقرر عالم الهند الكبير محمد قاسم الناتوتوي (ت ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) ومعه جماعة من العلماء اللجوء إلى بناء معقل للحضارة الإسلامية وعلوم الشريعة، فأسس معهد ديوبند الكبير؛ أو دار العلوم ديوبند، مركزًا لتربية الدعاة والعلماء المجاهدين، وكانت له مواقف عظيمة في مواجهة التنصير، وتخريب العقيدة الإسلامية والتغريب التي نهض بها السيد أحمد خان ومذهب القاديانية الضالة، وأعقب ذلك تأسيس ندوة علماء الهند على يد الشيخ محمد علي المونكيري (ت ١٣٤٦هـ) والتي قادها العلامة شبلي النعماني (ت ١٣٣٢هـ) وتلميذه السيد سليمان الندوي، وجعلوا منها قنطرة تصل ما بين الحضارة الإسلامية الأصيلة والغربية الوافدة، باستخلاص النافع منها، وكان لجهودهم فضل كبير في "إعادة ثقة الجيل الجديد بالثقافة الإسلامية، ومكافحة مركب النقص عندهم"[3].

واكتسبت الثورة في الهند دفعة قوية بحركة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية العامة ضد الاحتلال البريطاني، وقد فجرها وقوف بريطانيا في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية، بما لها من رصيد روحي عند مسلمي الهند، وفي مدة يسيرة خلع الهنود أردية الحياة الغربية، وهجروا منتجات الحضارة الغربية، وعادوا إلى حياة البساطة والزهد

(١) السابق ص ٥٣٥-٥٥٠.

(٢) السابق ص ٥٥٧-٥٦٠.

(٣) راجع أبو **الحسن** الندوي: **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية** ص ٦٤-٦٨.

التي عاشها أسلافهم، واستمرت المقاومة التي قادها غاندي مع القادة المسلمين محمد علي وشوكت علي وأبو الكلام أزاد وغيرهم، حتى تحقق للبلاد استقلالها[1].

الاستعمار الأوربي في القرنين التاسع عشر والعشرين:

مهد ما يسمى الكشوف الجغرافية للاستعمار الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين، كما دفع التطور الصناعي الذي أعقب حركة الكشوف؛ ووفرة المواد الخام المنهوبة، والحاجة إلى مزيد من الأسواق؛ في اتجاه مزيد من الغزو، ومزيد من التنافس الاستعماري والصراع.. وأدى التطور في وسائل النقل البحري، واختراع القطار، ثم ركوب الطائرات، وتطوير وسائل الاتصال؛ إلى تقليص العالم، واختزال المسافات، وفي الوقت نفسه أدى إلى إحكام السيطرة السياسية على الدول القومية، وسهولة ضبط الحراك السياسي فيها، وبالتبعية إلى حدوث ثورة ديموغرافية هائلة، فأُتخمت أوروبا بالسكان، واحتاجت إلى "تصدير" فائضها البشري والإفادة منه في المستعمرات الجديدة، أي الجمع بين الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الاستغلالي.

إن ٦٠ مليون أوروبي غادروا قارتهم إلى العالم الجديد في القرن التاسع عشر وحده، وإن عاد بعضهم إليها بعد ذلك، مما أدى إلى "عالمية الجنس الأبيض"، أو "أوربة العالم"، مما يعني أن أوروبا أصبحت قلب العالم الذي أصبح يدور حولها، ومن الطبعي أن يكون ذلك الاستعمار البشري على حساب الشعوب الأصلية في البلاد المبتلاة بالغزو، فتمت عملية إبادة رهيبة، عامدة أو عفوية لهذه الشعوب، وتم ذلك بالحرب أو الإفناء، أو المطاردة حتى الانزواء، أو تصدير الأوبئة والأمراض الفتاكة، والسخرة القاتلة لهذه الشعوب، أي أن ذلك الاستعمار البغيض "كان حركة عنصرية ضخمة، انتهت بإبادة

(١) راجع أبو الحسن الندوي: السابق ص ٧٩-٨٠.

أجناس برمتها، وابتزاز قارات بأسرها، والغريب أن إبادة الهنود الحمر في أمريكا دفع الاستعمار إلى جلب ألوف الأفارقة عبيدًا إليها، ثم إلى جلب ألوف الهنود والآسيويين إلى إفريقيا لملء الفجوة الحادثة من التهجير القسري لأهلها[1].

الاستعمار الروسي:

يرى البعض أن روسيا "لم تكن في يوم ما طوال تاريخها إلا دولة توسعية في الخارج، مثلما لم تكن إلا دولة استبدادية في الداخل"، وكان صاحب مقولة" من كف عن التوسع أصابه العطن" هو بعض ساسة روسيا القيصرية[2].

ومن يطلع على تاريخ تطور روسيا من دولة نواة محدودة حول موسكو إلى حدود الاتحاد السوفيتي في أوائل العقد الأخير من القرن العشرين- أو حتى حدود روسيا الحالية -يجد مصداق ذلك.

ويهمنا هنا التوسع الروسي في أراضي المسلمين. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اجتاحت روسيا أراضي القوقاز، ودخلت في حرب مع فارس صاحبة السيادة على جنوب القوقاز، واستولت منها على أرمينيا وجورجيا، ثم غزت أراضي تركستان، فضمت إليها طشقند سنة ١٨٤٦، وسمرقند سنة ١٨٦٨، وغيرها من العواصم والبلدان، فلم يمض عقد كامل حتى استولت على كامل التركستان[3].

---

(١) راجع د. جمال حمدان: مرجع سابق ص ١٠٣- ١٢٠.

(٢) راجع جمال حمدان: السابق ٩٤-٩٥.

(٣) راجع جمال حمدان: مرجع سابق ص ٩٢.

غير أن الهدف الاستراتيجي الروسي لم يتحقق بهذا التوسع، فقد كانت تهدف إلى الوصول إلى البحار الدافئة، لعلها تشارك الدول الاستعمارية الكبرى في وجباتها الدسمة، وفي نفوذها الكبير، وكان البحر المتوسط هو الهدف القريب، ولا سبيل إليه إلا السيطرة على البحر الأسود والمضايق الواصلة بينه وبين البحر المتوسط، وهي بأيدي الدولة العثمانية، لذا تعددت الحروب بين الدولتين: القيصرية الروسية والعثمانية، وكان الروس قد استطاعوا السيطرة على السواحل الشمالية للبحر الأسود، وشبه جزيرة القرم، واشتهوا المزيد..

لقد "حدثت سبع حروب على الأقل بين روسيا وتركيا للسيطرة على المضايق، وفي كل هذه الحروب -بلا استثناء ولا اختلاف- كانت تتقدم دولة بحرية غربية - فرنسا أو إنجلترا- لتساند تركيا ضد روسيا، ثم اتحدت مصالح الدولتين المتنافستين إنجلترا وفرنسا في وجوب دعم الدولة العثمانية، والحفاظ عليها قوة حاجزة دون تقدم الروس غربا في اتجاه البر الأوروبي[1].

الاستعمار الأوروبي يُنهي الخلافة العثمانية:

ونتيجة تغير المعطيات السياسية وتوازنات القوى تغيرت مواقف الدولتين -بريطانيا وفرنسا- تجاه الدولة العثمانية، فبدأت في تأييد القوى المناوئة لها، فانفصلت دول البلقان عن جسم الدولة، واستقلت البوسنة والهرسك وصربيا واليونان وبلغاريا وألبانيا وغيرها.. ثم كانت قاصمة الظهر بدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى متحالفة مع ألمانيا، في صراع مكشوف مع بريطانيا وفرنسا وحلفائهما، بعدما فقدت الدولة العثمانية القدرة على حفظ التوازن في سياساتها، والإفادة من تضارب مصالح الدول الاستعمارية، وذلك

(١) حمدان: السابق ٩٧-٩٨.

بعد تغيير القيادة السياسية للدولة، وسيطرة رجال الاتحاد والترقي على سدة الحكم، ثم فرضت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى شروطها على الدولة العثمانية في معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠، التي قسمت تركيا الحالية نفسها إلى أربعِ مناطقِ احتلال تسيطرُ عليها جيوش أربع دول: بريطانيا واليونان وإيطاليا وفرنسا في شروط مجحفة، واضطر السلطان محمد رشاد إلى قبولها، إذ كانت استانبول العاصمة تحت سيطرة بريطانيا، لكن تم رفض المعاهدة من قبل الشعب التركي، وقيادات عسكرية على رأسها كمال أتاتورك، فنشبت حرب الاستقلال التي انتهت بتوقيع معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ التي قلصت مساحة تركيا إلى مساحتها المعروفة الآن وألغت حقوقها السابقة كدولة خلافة إسلامية.

أسبق التجارب الاستعمارية في العالم العربي:

الحملة الفرنسية على مصر:

كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م جزءًا من التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا، وتعد الحلقة الواصلة بين الاستعمار التجاري الذي هو سمت الحراك الاستعماري في موجته الأولى- التي تمثلت في الكشوف الجغرافية- والاستعمار السياسي والاستراتيجي الذي يسم الموجة الثانية من موجات الاستعمار الغربي.

ذلك أن النجاح الذي حققته بريطانيا حين انتزعت من فرنسا ممتلكاتها في الهند، حرك أطماع فرنسا في الوصول إلى الهند، وتوجيه ضربة قاصمة لبريطانيا بها، وكانت مصر هي الطريق الأقصر مسافة، والأكثر أمانًا إلى الهند من خلال البحر المتوسط والشام والعراق فالخليج العربي، حتى تتجنب فرنسا مصادمة الأسطول البريطاني الأقوى في المحيطين الأطلسي والهندي، فضلاً عما تمثله مصر من ثقل في العالم الإسلامي، وقيمة حضارية راسخة.. ولذا فقد قال نابليون: سأستعمر مصر، سأستعمر مصر، وأستورد الفنانين

والعمال من جميع الأنواع، والنساء والممثلين، إن ست سنوات تكفيني للذهاب إلى الهند لو سارت الأمور سيرًا طيبًا"[1].

وللحملة الفرنسية على مصر أهمية خاصة من ناحيتين:

الأولى: أنها الحملة الاستعمارية الأولى على البلاد العربية في أخريات القرن الثامن عشر الميلادي وأوائل التاسع عشر.

الثانية: أنها نموذج كاشف لسلوك الغزاة ومقاومة الشعوب إياهم.. فقد واجه المصريون الغزو الأوروبي لهم من منطلق عقدي واضح، يرى فرضية جهادهم، وحرمة الاستسلام لهم، وهو شعور شديد الأهمية بالنظر إلى ما حدث بتقادم الزمن من "قابلية للاستعمار"- بتعبير مالك بن نبي- كما سنرى في موضعه.

وكان العلماء في مقدمة المجاهدين، وكان الأزهر والمساجد قلاع المقاومة التي لا يجدي معها قهر، ولا هدم، ولا تحريق.

لقد بذل قائد الحملة الفرنسية الجنرال نابليون بونابرت أقصى جهده لتدجين العلماء بالنظر إلى أنهم قادة الأمة الحقيقيون، وطليعة المقاومين، وقادتهم.. وقاوم العلماء تلك المحاولات بإباء بالغ، ومن ذلك رفض الشيخ الشرقاوي محاولة بونابرت معه ومع كبار مشايخ الأزهر، حين ألبسه طيلسانًا بألوان العلم الفرنسي، فألقاه الشيخ عن ظهره في شمم، "واستعفى، وتغيَّر، وانتقع لونه، واحتد طبعه، فقيل له إنه يقصد تعظيمكم ورفع مكانتكم بين الناس، فقال الشيخ وأصحابه: إنه بذلك تضيع أقدارنا عند الله وعند إخواننا المسلمين، فقال نابليون: إن الشيخ لا يصلح للرياسة، فاستعفى بقية المشايخ من تلك الرياسة القادمة من محتل كافر[2].

---

(١) في مذكراته التي دونها في معتقله بسانت هيلانة، نقلًا عن د. زينب عبد العزيز: **مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس** ص ٢٩.

(٢) الجبرتي: السابق ٢-٢٠٤، د. زكريا سليمان بيومي: **قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين**، مرجع سابق، ص ١٥٠-١٥١.

وتولى الشيخ السادات قيادة ثورة القاهرة الأولى سنة ١٧٩٨ مع جماعة من شيوخ الأزهر، سمَّاهم نابليون "لجنة الثورة"، وألقي القبض عليه، وأراد قتله، لكنه تراجع عن قراره حتى لا يصبح عند الناس شهيدًا؛ فتثور القلاقل بسببه، وأمر نابليون بإعدام ٨٠ رجلاً من هذه اللجنة[١].. ثم بعد مقتل كليبر سنة ١٨٠٠، أعيد اعتقال الشيخ السادات، وضيق عليه في سجنه مع زوجته، وعذب تعذيبًا شديدًا أمامها، وصودرت أمواله، وتعرض للإهانة البالغة[٢].

ولما واجه الفرنسيون ثورة القاهرة الأولى صبوا جام غضبهم على الأزهر وشيوخه، بما يمثله من رمزية عند المسلمين، وبما يمثله رجاله من قيادة للثورة، ومركز للتجمع حولها، وقد نصبوا مدافعهم على القلعة وجبل المقطم، و"وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر"، كما يقول الجبرتي، ولم يبق في الحي المجاور له إلا بيوت مدمرة، ودور محترقة، وقتلوا من الأهالي نحو أربعة آلاف - على حسب تقديرات بعض جنرالات نابليون[٣] - فلما قمعوا الثورة بعد مقاومة هائلة اقتحموا الجامع الأزهر، وأطلقوا لأحقادهم العنان، فأهانوا بالكتب والمصاحف، "وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه، وتغوطوا، وبالوا، وتمخطوا، وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه..."[٤].

ولم تكد القاهرة تلملم جراحها من ثورتها الأولى حتى عادت تنتفض من جديد في ثورتها الثانية سنة ١٨٠٠، ولم تستسلم إلا بعد فظائع ارتكبها الفرنسيون، وقصفوها بالمدافع، وهدموا أحياء بكاملها، وحرقوها، حتى غدت خرائب وأنقاضًا[٥].

---

(١) الرافعي: **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر**، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، سنة ١٩٥٥م، ١/ ٢٧٥-٢٧٦، ٢٩٣-٢٩٤، محمد جلال كشك: المرجع السابق ص ٢١٠.

(٢) راجع الجبرتي: السابق ٢/ ٢٠٤،، محمد جلال كشك: **ودخلت الخيل الأزهر** ص ٥٤١.

(٣) راجع الرافعي: المرجع السابق ١/ ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٠

(٤) الجبرتي: المصدر السابق ٢/ ٢٢١.

(٥) راجع الجبرتي: السابق ٢/ ٣٣٢-٣٣٣، الرافعي: المرجع السابق ط٣، سنة ١٩٥٨م، ٢/ ١٦٦-١٦٨.

ولم تقتصر المقاومة – ولا جرائم الغزاة في مواجهتها– على القاهرة فقط، بل كانت حاضرة على طول طريق الحملة، وحيثما وطئتها أقدامها، وكما وصفها الجنرال ريبو – أحد قادة الحملة - "الثورة كانت كحيَّةٍ ذات مئة رأس، كلما أخمدها السيف والنار من ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت"[١]..

ويتحدث الجنرال برنييه عن قرية بني عدي في المنيا التي تصدت للغزاة فجعلوها "أكوامًا من الخرائب"، وقتلوا فيها زهاء ثلاثة آلاف نفس، أما دمنهور – بحسب شهادة الجنرال ريبو– فقد أصبحت "ركامًا من الأحجار السوداء، اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى"[٢]، وفي بني سويف قتل ألفان من الفلاحين المسلمين، ويصف القائد لاجونكير ذلك بأنه "عمل مجيد بلا ريب"[٣]..

وفي غزو بونابرت الشام ارتكب مذبحة في يافا ذهب ضحيتها ٤٤٤١ من المدنيين الذين استسلموا؛ بحسب إحصاء الميجر دي تروا[٤]، ويصف أحد الجنود المذبحة وصفًا تقشعر منه الجلود، حيث قُتل ثلاثة آلاف منهم بدم بارد، بعدما اقتيدوا أسرى إلى شاطئ البحر، فاصطبغ البحر بدمائهم، وفي اليوم التالي قتل ١٢٠٠ – أمام خيمة بونابرت – بعد تجويعهم لمدة يومين، "وصدرت التعليمات للجنود بألا يسرفوا في الذخيرة، فكان قتلهم ذبحًا وطعنًا بالسونكي، ومنهم أطفال كثيرون كانوا يتشبثون بآبائهم وهم يذبحون[٥].

ويتحدث معاصرو الحملة الفرنسيون عن جرائم أخرى غير القتل والتحريق، ومن أشدها قبحًا نهب خيرات البلاد، وسرقة تاريخها، حيث كانت سرقة الآثار المصرية القديمة والمخطوطات القبطية يجري على قدم وساق[٦].

---

(١) د. زينب عبد العزيز: مرجع سابق ص ٣١..

(٢) السابق والصفحة.

(٣) السابق ص ٣٢.

(٤) السابق والصفحة.

(٥) السابق ص ٣٣-٣٤.

(٦) جون ماري كاريه: مختارات من كتاب رحالة وأدباء فرنسيون في مصر، ترجمة د. سونيا نجا ود. رشا =

الاستعمار الغربي للعالم العربي:

بدأ الاستعمار الغربي للعالم العربي باحتلال مدينتي سبتة ومليلية المغربيتين المطلتين على البحر المتوسط في القرن الخامس عشر، أما سبتة فقد احتلتها البرتغال سنة ١٤١٥[١]، ثم آلت إلى إسبانيا بعد سيطرة الإسبان على البرتغال نفسها سنة ١٥٨٠، كما احتلت إسبانيا مدينة مليلية سنة ١٤٩٧.

ثم كان الغزو الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨، كما مر بنا، ثم جاءت حركة الاستعمار الكبرى في القرنين التاسع عشر والعشرين.. ويمكن إجمال الغزو الاستعماري في هذه الفترة في ثلاث موجات[٢]:

بدأت الموجة الأولى في ثلاثينات القرن التاسع عشر باحتلال فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠، واحتلال بريطانيا عدن سنة ١٨٣٩، ومن هناك ظل الاستعمار البريطاني يتمدد إلى أن ضم ساحل بحر العرب والخليج العربي حتى الكويت شمالاً.

وجاءت الموجة الثانية في ثمانينات القرن التاسع عشر، حيث توسعت فرنسا من الجزائر إلى تونس، فاحتلتها سنة ١٨٨١، واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢، ومنها توسعت جنوبًا فضمت إليها السودان.

أما الموجة الثالثة فكانت في أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث انقضت إيطاليا على ليبيا سنة ١٩١١، وضمت إليها إريتريا، وتقاسمت مع بريطانيا وفرنسا أراضي الصومال،

= صالح، نشر مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، سنة ٢٠٠٦م، ص ٢٠٨، ٢١٤، ٢٣٥، ٦٨٠.

(١) السلاوي: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، القسم الثاني، ج٤، ص ٩٢، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م.

(٢) د. جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار ص ١٣١.

وامتدت فرنسا إلى المغرب سنة ١٩١٤، وفي أثناء الحرب العالمية أيضًا تم تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو، واقتسمت بريطانيا وفرنسا المشرق الإسلامي، فاحتلت بريطانيا العراق والأردن، واستولت على فلسطين لتحقق وعد بلفور الذي أعطته لليهود، بتمهيد استيلائهم عليها، واحتلت فرنسا سوريا ولبنان.

رحيل الاستعمار العسكري وبقاء وكلائه:

لقد تبدلت الأحوال بعد الحرب العالمية الثانية التي فقدت فيها القوى الاستعمارية الكبرى مكانتها بعدما لقيته من خسائر فادحة في تلك الحرب التي قتل فيها نحو ٦٠ مليونًا من البشر، ودمرت اقتصاديات القارة الأوروبية، وكثير من بنيتها الأساسية، وخرجت الدولتان الاستعماريتان الكبيرتان - بريطانيا وفرنسا - دولتين من الدرجة الثانية، لتفسح المجال للقوتين الكبيرتين الوارثتين: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.

وإزاء هذه الأوضاع الجديدة التي أفرزتها سنوات الحرب الست (١٩٣٩-١٩٤٥)، إضافة إلى تزايد المد القومي والوطني، وثورات التحرر من الاستعمار، مع الكوارث التي حاقت بالمستعمرين.. أدت هذه العوامل إلى اتخاذ الاستعمار القديم قراره بالتخلي عن مستعمراته التي زادت تكلفة بقائه فيها عن المردود الناتج منها، وبدأت تلك القوى المتراجعة في ترتيب أوضاع البلاد التي سترحل عنها، وطرق إدارتها فيما بعد الاستقلال، وقد كانت تأهبت لذلك اليوم منذ أمد، وجهزت صفًا كثيفًا من الأفراد والمؤسسات الموالية لها، والتي تشربت مناهجها، ومعتقداتها، ورؤاها، وهو ما يمكن تسميته بطبقة "وكلاء الاستعمار"، التي تضمن الحفاظ على مصالحه بعد رحيله، دون أن يتجشم عناء القوة الخشنة، وكلفة البقاء في المستعمرات الثائرة ضده.

وبالنسبة للعالم الإسلامي كانت تلك الثورات غالبًا ما تنطلق من عقيدة الشعوب المسلمة، التي تلتزم الولاء للمؤمنين، والبراء من الأغيار الكافرين المستعمرين، وترى أنه

ليس من الدين في شيء أن يتخذ المؤمنون من الكافرين أولياء، وأن إرادة الله اقتضت ألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا.

وباسم الإسلام وتحت راياته قدمت هذه الشعوب جحافل الشهداء، ملايين في الجزائر ومصر والشام وأفغانستان وتركستان وغيرها.

لكن الاستعمار حين رحل أسلم أزمّة الحكم في معظم البلدان إلى الجيوش التي ربى كثيرًا منها على عينه، ووثق علائقه بها، وربط مصالحها بمصالحه، فدخلت معظم بلاد الإسلام في مرحلة الانقلابات العسكرية لتأتي بالسادة الجدد من العسكريين.. ويتوسد الأمر جماعات من العلمانيين المعادين للإسلام، أو المتوجسين منه، أو الجاهلين به، مما كان يعني أن يستمر الاستعمار العالمي في أثواب جديدة، فوقها غلالات مصطنعة من أردية الوطنية والقومية.. وأن يستمر الاستعمار السياسي والاقتصادي من خلال دوام الاستعمار الفكري والاستلاب الاجتماعي.

وفي ختام هذه الجولة المختصرة لاستعمار العالم الإسلامي نورد فقرتين لرجلين تركا آثارا ضخامًا على الفكر الإسلامي..

حسن البنا ونداء جهاد المستعمر:

أولهما هو الإمام حسن البنا الذي يوضح الموقف الإسلامي من قضية الاستعمار في قوله: إن الوطن الإسلامي واحد لا يتجزأ، وإن العدوان على جزء من أجزائه عدوان عليه كله،..... إن الإسلام فرض على المسلمين أن يكونوا أئمة في ديارهم، سادة في أوطانهم،... بل إن عليهم أن يحملوا غيرهم على الدخول في دعوتهم، والاهتداء بأنوار الإسلام التي اهتدوا بها من قبل". ويحمل الإمام على الاحتلال البريطاني لبلده مصر، ويطالب بالاستعداد لإنهائه، "فلسان القوة هو أبلغ لسان".. ويذكر جرائم بريطانيا في

فلسطين[1]، فيقول: "ولنا حساب بعد ذلك مع إنجلترا في الأقاليم الإسلامية التي تحتلها بغير حق، والتي يفرض الإسلام على أهلها -وعلينا معهم- أن نعمل لإنقاذها وخلاصها".. "أما فرنسا- التي ادعت صداقة الإسلام حينًا من الدهر - فلها مع المسلمين حساب طويل"، ويذكرها بمواقفها في سورية والمغرب الأقصى والظهير البربري، "وسيأتي اليوم الذي يُصفى فيه هذا الحساب"... "وليس حسابنا مع إيطاليا بأقل من حسابنا مع فرنسا"، ويطالب أصحابه بعد ذلك بأن يوضحوا هذا للناس، وأن يعلموهم "أن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال، فضلاً عن السيادة، وإعلان الجهاد، ولو كلفهم ذلك الدم والمال، فالموت خير من هذه الحياة، حياة العبودية والرق والاستذلال"[2].

مالك بن نبي وضرورة التحرر من القابلية للاستعمار:

والفقرة الثانية من كلام المفكر الجزائري المسلم مالك بن نبي، حيث عدّد جرائم الاستعمار ثم قال: "إنه أخذ من حريتنا وسيادتنا وكرامتنا، وكتبنا المنسية، وجواهر عروشنا، وأرائكها الناعمة التي كنا نود لو بقينا عليها نائمين! ولكن إذا كان هذا هو الواقع الاستعماري فيجب أن نعترف بأنه أيقظ الشعب الذي استسلم لنوم عميق، بعد الغداء الدسم الذي أكله عندما كان يرفل في نعم حضارته، والتاريخ قد عودنا أن كل شعب يستسلم للنوم فإن الله يبعث عليه سوطًا يوقظه"[3].

ثم يتطرق مالك بن نبي إلى ما أسماه " القابلية للاستعمار"، حيث حدد الاستعمار للشعوب المغلوبة أفقًا لا تتجاوزه، ومسارًا للسير فيه، فإذا بها تستجيب لهذه الشروط

(١) الرسائل ص ٣١٩.

(٢) الرسائل ص ٣٢٠.

(٣) مالك بن نبي: **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسعاوي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سنة ١٩٨٦م، ص ١٤٩-١٥٠.

الخارجية المفروضة عليها، وتعطي من أنفسها ما يريده لها أعداؤها، فتتكون بمرور الزمن تلك القابلية للاستعمار، فتتم الهزيمة من الداخل بعد أن فُرضت فرضًا من الخارج، وفي ذلك يقول بن نبي: "إن القضية عندنا منوطة أولاً بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر، أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا؛ وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية؛ مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين: "أخرجوا المستعمر من أنفسكم؛ يخرج من أرضكم"، إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها مواطن الضعف، فسخرها لما يريد، كصواريخ موجهة يصيب بها من يشاء، فنحن لا نتصور إلى أي حد يحتال لكي يجعل منا أبواقًا يتحدث فيها، وأقلامًا يكتب بها، إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا له بعلمه وجهلنا"[1].

٢- الصهيونية:

للصهيونية (Zionism)[2] جذورها وآباؤها الأول في التاريخ اليهودي[3]، لكنها اكتسبت زخمها وآمادها على يد تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤م)، واستطاعت التحول من الأفكار النظرية إلى واقع عملي؛ بفرض هذه الدولة في فلسطين من خلال التماهي بين الإرادة الاستعمارية الأوروبية والمصالح اليهودية.

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) يعد الدكتور ناتان بيرنباوم (١٨٦٤-١٩٣٧) أول من استعمل مصطلح "الصهيونية" للتعبير عن الحركة الداعية لإعادة اليهود إلى فلسطين (صبري جريس: الصهيونية ص ١٥٣)، وتنتسب لفظة الصهيونية إلى "صهيون" إحدى التلال التي تقوم عليها مدينة القدس (أكرم زعيتر: **القضية الفلسطينية**، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٥٥م، ص ٤٢).

(٣) راجع: صبري جريس: **الصهيونية** ١/ ٧١-٩٩.

وتيودور هرتزل هو صحفي مجري الأصل، استوطن النمسا منذ شبابه الباكر، وبالرغم من تخصصه في القانون؛ وحصوله على الدكتوراه فيه؛ إلا أن الأدب والصحافة قد استوليا عليه، قبل أن يسخر حياته القصيرة للفكرة الصهيونية التي أوضح معالمها في كتابه (دولة اليهود) الصادر سنة ١٨٩٦م[١].

وهذا التوافق والتخادم بين المشروعين الاستعماري العالمي والصهيوني يدحض الزعم بأن جذور المشروع الصهيوني تعود إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه "أول من شيد صرح الصهيونية، ووطد دعائمها، ونشر مبادئها السياسية"[٢]، وأن مشروع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ "يكاد يكون مطابقًا في معناه ومبناه لتعاليم هرتزل ونظرياته"[٣] فلم يكن كليم الله عنصريًا، ولا عدوانيًا، ولا مستقويًا بأعداء الأمة لتحقيق أغراضه.. كما لم يكن هرتزل "رمزًا للسلام، وشعارًا للاستقامة والكمال".

وضع هرتزل قضية اليهود في إطار قومي؛ لا اجتماعي ولا ديني، بحسب قوله: "حتى إن كانت في بعض الأحيان تتخذ هذه الأشكال أو أشكالاً أخرى.. إنها قضية قومية، لا يمكن حلها إلا إذا أصبحت قضية سياسية عالمية، يتم تسويتها في ظل مجلس يتشاور فيه الأمم المتحضرة"[٤]، لقد جأر هرتزل بالشكوى المتكررة مما وصفه بعداء الشعوب لليهود، أو معاداة السامية، مهما أبدى اليهود من استعداد للتعايش مع هذه الشعوب، ويقول: "لن نُترك وشأننا في سلام" [٥]، لذا فالحل عنده لإنهاء مشكلة اليهود هي إقامة

(١) راجع: صبري جريس: **الصهيونية** ١/ ١٤٣-١٤٧، إيلي ليفي أبو عسل: **يقظة العالم اليهودي**، دار الفضيلة، (د.ت)، ص ٢٨-٢٩.

(٢) أبو عسل: **يقظة العالم اليهودي** ص ٢٢.

(٣) السابق ص ٢٣-٢٤.

(٤) هرتزل: **الدولة اليهودية**، ترجمة محمد فاضل، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٧م، ص ٤٧.

(٥) السابق ص ٤٨.

دولة لهم، فيقول: "فلنُمنح سيادة على جزء من العالم كبير بما يكفي للوفاء بمتطلبات عادلة لأمة ما، ويمكننا نحن ندبر الباقي، إن تأسيس دولة جديدة ليس بالأمر السخيف أو المستحيل... وستحرص حكومات الدول التي أصابتها البلايا بسبب معاداة السامية على مساعدتنا لنحصل على السيادة التي نسعى إليها"(١).

والغريب أن العقل الذي أنكر العداء للساميَّة، هو نفسه الذي ينادي بالصهيونية، وهي فكرة لا تقل عن اللاسامية عنصرية وعداء للأخر- العربي- الذي يدفع ثمنًا لخطيئة لم يرتكبها، ولم يقرها؛ فالعرب هم أنفسهم ساميون بحسب التوصيف الغربي للأجناس.

لم يكن هرتزل يصر في أول أمره على أن تقوم دولة اليهود المقترحة في فلسطين، فقد اقترح أيضًا الأرجنتين، واقترحت عليه أيضًا أوغندا وسيناء كما سيأتي بيانه، فلم يعترض على أي منها مبدئيًا، وإن ظلت الأولوية عنده لفلسطين(٢)، وبالرغم من إغراءات الأرجنتين من حيث اتساع المساحة، وخصوبة الأرض، واعتدال المناخ، وقلة السكان، فإن فلسطين – بزعمه - "وطننا التاريخي الخالد في ذاكرتنا أبد الدهر، فمجرد ذكر اسم فلسطين يجذب شعبنا بقوة هائلة، فإذا ما أعطانا فخامة السلطان (يعني السلطان العثماني عبد الحميد الثاني) فلسطين سنقوم بدورنا بتدبير جميع الموارد المالية لتركيا، حيث يتعين أن نشكل هناك جزءًا من السور الواقي لأوروبا من آسيا، حائط صد أمامي للحضارة في مقابل البربرية "- والعبارة الأخيرة واضحة الدلالة على المرامي الصهيونية المعادية للإسلام وعالمه – مع تعهد الدولة المرتجاة بالحفاظ على المقدسات المسيحية، أما المقدسات الإسلامية فلم يتطرق إليها(٣).

---

(١) هرتزل: السابق ص ٦٣.

(٢) هرتزل: **يوميات هرتزل**، ترجمة هلدا شعبان صايغ، إعداد أنيس صايغ، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨، ص ٦٧-٦٩.

(٣) هرتزل: الدولة اليهودية ص ٦٦.

لقد زال تردد هرتزل فيما بعد إزاء مكان الدولة المنشودة، واستقر رأيه على ضرورة أن تكون فلسطين، لا غيرها، وبخاصة بعدما رأى حماسة أصدقائه الصهاينة لها، بل إن أحدهم عرض عليه خريطة إسرائيل الكبرى، المرسومة على مدى أربع صفحات غطت أرضية غرفة الاجتماع، فيها موضع الهيكل، وتمتد من جبال كبادوكيا شمالاً إلى قناة السويس جنوبًا، واقترح شعارًا لها: فلسطين داود وسليمان، وتنبأ آخر بقيام هذه الدولة بعد خمسين سنة، على نحو ما تحقق فيما بعد[١].

لم يجد هرتزل حماسة لمشروعه لدى كبار أثرياء اليهود، ومنهم آل روتشيلد، حيث رفض اللورد روتشيلد تأييد مشروعه، فهدده بالنزول بأفكاره إلى الجماهير، وهو ما حدث بالفعل إذ تداعى المؤيدون للفكرة الصهيونية إلى مؤتمر عام في مدينة بازل في سويسرا في أغسطس سنة ١٨٩٧م، وفيه قرر المجتمعون السعي لتحقيق هدف إقامة وطن لليهود في فلسطين، وفق إجراءات حددوها، وتشمل: تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين، وتوطينهم فيها، وعمل المشروعات التي يمكن القيام بها هناك، وتقوية الشعور القومي لدى اليهود، والسعي لدى الحكومات الأوروبية للحصول على موافقتهم على تحقيق المشروع الصهيوني، وعلى إثر ذلك تم تشكيل المنظمة الصهيونية العالمية معبرة عن الصهيونية، وقائدة للسعي لتحقيق أهدافها، واختيار تيودور هرتزل رئيسًا لها [٢].

لقد أسفر المؤتمر الصهيوني العام الأول عن نتائج خطيرة منها تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية؛ والتوصية بأن تكون الدولة المقترحة في فلسطين، واقتراح علم لها ونشيد قومي، وتأسيس شركة لشراء الأراضي هناك واستغلالها[٣]، فكان المؤتمر علامة

---

(١) هرتزل: يوميات هرتزل ص ٧٠-٧٢.

(٢) راجع صبري جريس: السابق ص ١٥٢-١٥٦.

(٣) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية ص ٤٣، وراجع ريجيتا الشريف: **الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ العربي**، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسة عالم المعرفة (٩٦)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٨٥م، ص ١٤٨-١٤٩.

بارزة في تاريخ الحركة الصهيونية، حتى إن هرتزل كتب في يومياته بعد رجوعه إلى فيينا: "في بازل أسست دولة اليهود، ولو قلت ذلك اليوم علمًا لكان الجواب ضحكًا من جميع الجهات، ولكن ربما بعد ٥ سنوات - وعلى الأكثر بعد ٥٠ سنة - سيعترف بهذا الجميع"[١]. وتحققت توقعات الرجل وخطط الصهيونية؛ إذ قامت دولة إسرائيل بعد ٥٠ سنة في ١٩٤٨م.

بذل هيرتزل ورفاقه جهدًا هائلاً بعد المؤتمر الصهيوني العام الأول، سواء في مجال تحفيز الهجرة إلى فلسطين، وتهيئة الأجواء للمهاجرين إليها، أو في الأفق السياسي، إذ سعى هيرتزل إلى الترويج لمشروعه عند كبار قيادات أوروبا بغية البحث عمن يتبنى مشروعه، ويهبه مشروعية سياسية كي يشكل "جزءًا من السور الواقي لأوروبا من آسيا"، بحسب تعبير هرتزل في كتابه.

محاولات هرتزل مع السلطان عبد الحميد:

لم تفلح محاولة هرتزل مع قيصر ألمانيا، إذ لقي ردودًا فاترة صادمة، لكن الرد الأقسى كان من السلطان العثماني عبد الحميد، الذي بذل هرتزل الرشاوي الجزيلة لبعض القريبين منه للقائه، بشرط عدم التحدث معه عن الصهيونية، فلما لقيه في مايو١٩٠١ عرض عليه عرضه السخي بتوحيد ديون الدولة العثمانية للدول الأوروبية، وسدادها بقرض طويل الأمد، مقابل إصدار بيان صداقة من السلطان؛ يرحب فيه بقدوم اليهود إلى فلسطين، والاستيطان فيها، فرفض السلطان بقوة، مما ولّد قناعة لدى هرتزل بأنه "لن يحصل على امتياز توطين اليهود في فلسطين إلا بعد تقسيم تركيا" [٢].

---

(١) صبري جريس: المرجع السابق ص ١٥٨.

(٢) صبري جريس: السابق ص ١٦٤- ١٦٥، هرتزل: يوميات هرتزل ص٣٥.

غير أن جهود هرتزل لقيت نجاحًا مع الحكومة القيصرية الروسية، التي كانت تمارس اضطهادًا منظمًا ضد اليهود لدفعهم إلى الهجرة من أراضيها، وقد أعلنت في رسالة من وزير داخليتها أنها "تنظر بعين العطف إلى الصهيونية ما دام هدفها إقامة دولة مستقلة في فلسطين، وأنها على استعداد لمساعدتها، كما لقيت النجاح مع الحكومة البريطانية التي أعلنت استعدادها منح العريش المصرية لإقامة اليهود، وهو الاقتراح الذي لم يلق القبول بعد دراسته بسبب قلة المياه، وصعوبة الحياة في العريش، ثم رفض الحكومة المصرية له[١]، ثم عرضت الحكومة البريطانية منح أوغندا لتكون موطنًا يأوي إليه اليهود تحت السيادة العليا البريطانية، وهو الاقتراح الذي قبله هرتزل، فتسبب في معارضة شديدة، إذ تعارض مع الآمال العراض بوطن لهم في فلسطين، ولم يتغلب هرتزل على تلك المعارضة التي أوشكت أن تقسم الشارع الصهيوني إلا بعد إعلانه أن أوغندا لن تكون بديلاً عن فلسطين، "فأوغندا ليست صهيون، ولن تكون"، لكنها ستسهم في تخفيف معاناة اليهود، وأن الاقتراح ما زال في طور الدراسة[٢].

كانت الصهيونية "العملية" التي تقوم على تشجيع الاستيطان في فلسطين، وتمارسه بنشاط تعارض صهيونية هرتزل السياسية التي تؤثر الترويج للمشروع الصهيوني لدى زعماء أوروبا بهدف الحصول على وطن تحت الرعاية والاعتراف الغربي، واضطر هرتزل في النهاية لمنع الانشقاق في الصف الصهيوني إلى التواصل مع هؤلاء، والوصول إلى صياغات وسطية، بحيث تحظى المشاريع الاستيطانية بدعم المنظمة الصهيونية العالمية، مع توجيه العناية الكبرى للعمل السياسي الدولي[٣]، وبذات الروح التصالحية تمكن الصهاينة من التوفيق بين التيار الديني المتشدد الذي يريد صبغ الدولة المقبلة بالتقاليد

(١) صبري جريس: السابق ص ١٦٦-١٦٨.
(٢) السابق ص ١٧٠-١٧٢.
(٣) راجع صبري جريس: السابق ص ١٨٥-١٨٦.

اليهودية، ويقوده جماعة من الحاخامات الروس أساسًا، والتيار العلماني الذي يمثله د. حاييم وايزمان (١٨٧٤-١٩٥٢م) وجيل الشباب الصهيوني المتشبع بالمفاهيم السياسية الغربية، فأسس كل من الاتجاهين حركته الخاصة به داخل المنظمة الصهيونية العالمية[١].

وجدت الدعوة إلى الهجرة اليهودية إلى فلسطين تشجيعًا لها في الظروف التي فرضتها أوضاع روسيا القيصرية، واستمرار اضطهاد اليهود بها، على المستويين الاجتماعي والسياسي، مما أدى بجماعات من اليهود إلى اتخاذ أحد موقفين، إما الهجرة خارج روسيا- إلى الغرب الأوروبي، أو فلسطين- وإما الانضمام إلى الحركات الثورية المناوئة للحكم القيصري الروسي، ومنها الحركة الشيوعية، التي وجدت لها أنصارًا في المجتمع اليهودي الفقير والمأزوم، وبعد نجاح الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧؛ وسنوات الاضطراب التي عاشتها البلاد بعد الثورة؛ تم الاعتراف بالقومية اليهودية ضمن القوميات الأخرى في الاتحاد السوفيتي، "وبموقفه هذا كان الاتحاد السوفيتي أول دولة في العالم تعترف بوجود قومية يهودية، وقبل قيام إسرائيل بفترة طويلة"[٢]. وفي السنة نفسها حققت الصهيونية أعظم أحلامها بالحصول على وعد بلفور وزير الخارجية البريطاني في ٢ نوفمبر ١٩١٧م الذي تعهدت فيه بريطانيا صاحبة الانتداب على فلسطين بالسعي لإقامة وطن قومي لليهود على أرضها؟

دور الصهيونية الإنجيلية:

ومما ينبغي الاهتمام به حين الحديث عن الصهيونية اليهودية وتنويعاتها أن نبرز دور الصهيونية غير اليهودية، أو **الصهيونية المسيحية أو الإنجيلية** التي قدمت دعمًا غير محدود للمشروع الصهيوني، ووضعته على طريق النجاح العملي في إقامة دولته في فلسطين[٣]..

---

(١) أسس وايزمان ورفاقه الكتلة الديمقراطية، وألف الحاخامات وأنصارهم حركة مزراحي.. السابق ص ١٨٠-١٨٢.

(٢) جريس: السابق ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٣) راجع ريجيتا الشريف: **الصهيونية غير اليهودية**.

حتى القرن السادس عشر الميلادي كانت فلسطين تمثل قيمة عظمى في الفكر المسيحي بالنظر إلى أنها مهد المسيح وموطن رسالته ووعظه، ومن أجلها شنت أوروبا الحروب الصليبية تحت زعم الحق في الأرض المقدسة، وظلت لفلسطين تلك المكانة في الفكر الكاثوليكي الغربي بعد هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام، وكانت أوروبا حتى ذلك الوقت تنظر إلى اليهود على أنهم مارقون، مستوجبون اللعنة؛ لإقدامهم على صلب المسيح فيما يزعمون.

غير أنه في القرن السادس عشر ظهرت حركة الإصلاح الديني **والمذهب البروتستانتي** الذي أعاد تفسير بعض المعتقدات الكنسية المتعلقة بالنبوءات التوراتية، على أنه لا بد من عودة اليهود إلى فلسطين، وإقامة دولتهم هناك، إذ إن ذلك ضروري لعودة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض المقدسة، تلك العودة التي ينتظرها المسيحيون، ليقيم مملكة الله في الأرض التي ستدوم ألف عام، ولدخول اليهود أنفسهم في المسيحية.. وزادت العناية بالتوراة – العهد القديم– وأصبحت المصدر التاريخي الوثيق لفلسطين والوجود اليهودي فيها، وتلاشى الوجود التاريخي لغير اليهود هناك، كما زادت العناية ببعث اللغة العبرية وإجلالها على أنها لغة الكتاب المقدس، بل إن حركة الإصلاح البروتستانتي جعلتها جزءًا من المنهج الدراسي اللاهوتي، بعدما ظل تعلم العبرية طوال قرون المسيحية الكاثوليكية "بدعة يهودية" [1].

دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد وبعد خلعه:

مرت بنا محاولات هرتزل إغراء السلطان عبد الحميد للموافقة على إعطائهم فلسطين، ويجب أن نسجل هنا كلمات السلطان عبد الحميد كما أوردها هرتزل في يومياته، حيث

(١) ريجيتا الشريف: الصهيونية غير اليهودية ص ٢٨-٣٥، ٣٨.

رد على عرضه السخي قائلاً: "لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدًا من البلاد، لأنها ليست لي؛ بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه البلاد بإراقة دمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا... ليحتفظ اليهود ببلاييهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، إنما لن تُقسم إلا على جثثنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان"[1].

لم تكن أيدي الصهيونية العالمية بعيدة عن خلع السلطان عبد الحميد الذي وقف بصلابة في وجه تحقيق مشروعهم، رغم إغراءاتهم البالغة له، ومن سخرية الأحداث أن من خلعوا عبد الحميد من رجال الاتحاد والترقي أرسلوا وفدًا لإبلاغه قرار الخلع، وكان في الصدارة منه إيمانويل قراصو، ذلك المحامي اليهودي الصهيوني الذي كان متحدثًا باسم أحد الوفود الصهيونية لمراودة السلطان عن فلسطين ضمن محاولات هرتزل اليائسة[2].

الاتحاد والترقي أمل الصهيونية:

وكان رجال الاتحاد والترقي على صلات وثيقة بالصهيونية، وهذا طلعت باشا الذي تولى وزارة الداخلية لهم (١٩١٣-١٩١٧م)، ثم الصدر الأعظم (١٩١٧-١٩١٨م) يقول في مذكراته: "**كان الاتحاد والترقي أمل اليهود**، هذا صحيح!! ولقد بدا اليهود - في عهد تولياتي وزارة الداخلية للمرة الأولى - يتجمعون في فلسطين،... جاء ٥٠,٠٠٠ يهودي إلى أرض فلسطين خلال سنة واحدة من يناير ١٩٠٨ إلى مارس ١٩٠٩"، ويبرر قبوله توطين اليهود على ذلك النحو المتسارع بأن "الخزانة خاوية على عروشها، وليس هناك في الدولة من دخل، واليهود القادمون معهم المال، وأصحاب مؤسسات متكاملة، ليس في المال فقط؛ بل في العلم والتجارة والزراعة والفنون، وسيكونون مخلصين للدولة إذا

(١) يوميات هرتزل ص ٣٥.

(٢) السلطان عبد الحميد: مذكرات السلطان عبد الحميد، حاشية للمترجم د. محمد حرب ص ١٤٢-١٤٣.

منحوا فرصه العمل الحر"[1]، ولما سأل أحد زعماء حلب طلعت باشا: هل ترى أنه من الممكن إقامة دولة يهودية في فلسطين؟ أجابه بقوله: "ليس ممكنا فقط؛ **بل إني أعتبر هذا أمرًا مقدرًا**"[2].

الصهيونية ضمن المشروع الاستعماري الغربي:

أفادت الصهيونية أيما إفادة من أفكار ومعتقدات البروتستانت والصهيونية الإنجيلية، لكنها انفتحت على القوى الأخرى، في مجتمع يعج بالأطماع الاستعمارية، ففي فرنسا الكاثوليكية كانت الفكرة الصهيونية تجد رواجًا، وتمتزج بالأطماع الاستعمارية الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، كما عبر عنها نابليون بونابرت (ت ١٨٢١م)، الذي وصفه حاييم وايزمان أشهر زعيم صهيوني بعد هرتزل بإنه "أول الصهيونيين الحديثين غير اليهود"[3].

وجه نابليون نداء إلى اليهود وهو في حملته على مصر، أثناء توجهه لغزو عكا سنة ١٧٩٩م، يخاطبهم فيه بقوله: "يا ورثة فلسطين الشرعيين"! ويحرضهم على مساعدته، وأنه قد آن الأوان ليقيموا دولتهم في فلسطين، قائلاً: "إن هذه اللحظة المناسبة التي قد لا تتكرر لآلاف السنين للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين، وهو وجودكم السياسي كأمة بين الأمم.."[4]

أما بريطانيا فقد وجدت الصهيونية أنصارًا لها في الصفوف الأولى من قادتها، وفي عهد وزير المستعمرات البريطاني تشامبرلين تزايدت الهجرة اليهودية القادمة من روسيا

(١) مذكرات طلعت باشا ٣/ ١٢٨٢، نقلًا عن د. محمد حرب: مذكرات السلطان عبد الحميد حاشية ص ١٤٣.

(٢) مذكرات طلعت باشا ٣/ ١٢٩٧، نقلًا عن المرجع السابق والحاشية.

(٣) ريجيتا الشريف: السابق ص ١٠٨.

(٤) ريجيتا الشريف: السابق ص ١٠٧.

فراراً من الاضطهاد تحت حكم القيصر، واتجه كثير منهم إلى بريطانيا، مما مثل مشكلة للحكومة، فتشكلت لبحثها "اللجنة الملكية لهجرة الغرباء" سنة ١٩٠٢، واستُدعي هرتزل ليكون ضمن المتحدثين أمامها، فأعلن في وضوح أن الحل يكمن في إيجاد وطن قومي لليهود معترف به، مما لقي استحسانًا من الساسة البريطانيين، ومثّل التقاء بين رؤية الصهيونية السياسية والصهيونية غير اليهودية.. لقد كان تشامبرلين صاحب الاقتراح الذي لم ينفذ بإعطاء العريش المصرية أو أوغندا لتكون مستعمرة لليهود. أما رئيس الوزراء البريطاني الجديد آنذاك فكان آرثر بلفور، الذي سيصدر وعده المشؤوم فيما بعد سنة ١٩١٧ - وهو وزير للخارجية – بأحقية اليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين[١].

وصف بلفور اليهود بأنهم "أكثر شعوب البشرية نبوغًا منذ إغريقيي القرن الخامس الميلادي"، وكان حاسمًا في عدائه للعرب حيث كتب في مذكراته: "ليس في نيتنا مراعاة مشاعر سكان فلسطين الحاليين... إن القوى الأربع الكبرى ملازمة بالصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية على حق أم على باطل؛ جيدة أم سيئة؛ فإنها متأصلة الجذور في التقاليد القديمة للعهد والحاجات الحالية، وآمال المستقبل، وهي ذات أهمية تفوق بكثير رغبات وميول السبع مئة ألف عربي الذين يسكنون الآن هذه الأرض القديمة"[٢].

أما لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني في هذه الفترة (١٩١٦-١٩٢٢) فكان صديقًا حميمًا للزعيم الصهيوني حاييم وايزمان، ومن قبله هرتزل، وقد كان يفاخر بأن معرفته بالتاريخ العبري أكثر من معرفته بتاريخ بلاده بريطانيا[٣].

وأعلن لويد جورج امتنانه لصديقه وايزمان إثر اكتشافه الأسيتون المستعمل في تطوير الذخائر العسكرية، وكان لذلك تأثيره الإيجابي على مسيرة نجاح بريطانيا والحلفاء في

---

(١) راجع السابق ١٥١-١٥٤.

(٢) السابق ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) السابق ص ١٦٠-١٦١.

الحرب العالمية الأولى، وقتها أعلن وايزمان أنه لا يريد مكافأة شخصية على عمله، بل مكافأة لشعبه اليهودي بتلبية رغبته في وطن قومي له[١].

"لم يكن لويد جورج وآرثر بلفور هما الوحيدين المؤيدين لأهداف الصهيونية في فلسطين قلبًا وقالبًا؛ ولكنهما كانا على رأس جيل كامل من الصهيونيين غير اليهوديين الذين كانت لكل منهم شخصيته المتميزة في الحياة العامة وفي الحكومة"[٢].

وقام حاييم وايزمان بجهود كبيرة في بريطانيا آنذاك، وسخر علاقاته الوثيقة بصانعي القرار فيها لتحقيق حلمه الصهيوني، وبخاصة مع قرب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكون بريطانيا تخطط بالفعل للانفراد بالسيطرة على فلسطين، فسعى وايزمان إلى تقرير حقيقة أن المشروعين الصليبي والاستعماري الغربي يتشاركان الرؤية والسبيل، ولقي وايزمان الدعم الكبير من رأس المال اليهودي، وأكبر رموزه آل روتشيلد.. كما سعت بريطانيا للإفادة من الطموح اليهودي والزخم الصهيوني كي يسلم لها بقية الحلفاء بحق الانتداب على فلسطين، ولم يتأخر وايزمان ورفاقه، فقد بذلوا لذلك جهودهم لدى إيطاليا وفرنسا ثم الولايات المتحدة الأمريكية، حتى أصبح التسليم بالمشروع الصليبي أمرًا مقررًا في عواصم الحلفاء[٣].

ثم أصدر بلفور وزير الخارجية البريطاني وعده في ٢ نوفمبر ١٩١٧م على شكل رسالة وجهها - بناء على نصيحة وايزمان - إلى اللورد روتشيلد، وكان نصها: "إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يفهم بجلاء أنه لا يُؤتى أمر من شأنه أن يُجحف بالحقوق المدنية والدينية للطوائف

(١) صبري جريس: السابق ص ٢٧٩-٢٨٠.
(٢) ريجيتا الشريف: السابق ص ١٦٥.
(٣) راجع صبري جريس: السابق ص ٢٨٠-٢٨٨.

غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين، أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في أية بلاد أخرى"[1].

فكان وعد بلفور بحق عطاء من لا يملك لمن لا يستحق، تتخلص فيه أوروبا من معضلة الوجود اليهودي بها، وتصدِّر مشكلتها إلى خارج حدودها، في وقت كانت وعود بريطانيا للشريف حسين بالاستقلال وخلافة عربية إسلامية؛ لم يجف مدادها بعد، في حين تنظر الوثيقة إلى العرب في فلسطين على أنهم مجرد "طوائف غير يهودية"، لهم "حقوق مدنية ودينية"، وحتى هذه الحقوق لا ضمان لها.

وكان وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني – وهو ما سعت إليه بريطانيا بإصرار – توطئة ضرورية لقيام الدولة الصهيونية.

وهكذا اكتملت حلقات تمازج الصهيونية والاستعمار الغربي، ووضع أساس ذلك الكيان البغيض في قلب العالم الإسلامي وفيه أهم مقدساته المسجد الأقصى، ليحول دون نهضة هذه المنطقة، وانبعاثها الإسلامي المرتقب، وبجوار أهم ثلاث قوى إسلامية عربية: مصر وسوريا والعراق، ولتستنزف قوى الإقليم الواعد فتضعف أسباب قوته، ولتمنع التواصل السلس بين مشرق الإسلام ومغربه، ولتكون رأس حربة للاستعمار الغربي بشتى صوره.

وكانت الفترة التالية فترة هجرة منظمة لليهود، واغتصاب لأراضي الفلسطينيين، وتهجير لهم بالإرهاب والعنف، تحت مظلة الانتداب البريطاني وحمايته، وتأييد الصهيونية والقوى الدولية، وتدفق المال اليهودي، وتنامي العجز العربي الرسمي، حتى تم الإعلان عن ميلاد الدولة الصهيونية سنة ١٩٤٨م، مما سوف نعرض له أثناء الحديث عن القضية الفلسطينية إن شاء الله.

---

(١) جريس: السابق ص ٢٨٩.

المبحث الرابع

تسلط الأنظمة العسكرية والاستبداد السياسي

١- دور الغرب في تأسيس الجيوش في العالم الإسلامي:

تشكلت جيوش كثيرة في الدول الإسلامية في صورها المعاصرة على يد الاستعمار الذي كان يجثم على بلادها، أو بدعم مباشر منه، وذلك لإيجاد قوة قمعية ضد حركات التحرر والمقاومة، تضمن سيطرة الاستعمار وطول بقائه، وتمدده إلى أراضٍ جديدة، ثم لاستكمال مؤسسات تلك الدول قبل أن يجلو الاستعمار عنها، وضمان ولائها له، وكانت قيادات هذه الجيوش إما من الأجانب المستعمرين- كما سنرى - أو من أذنابهم الذين هم أهل ثقتهم، ومحل رضائهم. وكانت نظمها العسكرية والتدريبية من وضع الإدارات الاستعمارية لبلادهم، كما كانت أسس الترقي في المناصب العسكرية من صنعهم.

أما المناصب العسكرية الراقية فكانت في البدء لضباط من المستعمرين أنفسهم، ثم بعد حين أصبحت بأيدي أوليائهم من أهل ثقتهم ممن تلقوا تدريبهم على أيديهم، أو في جامعات الغرب العسكرية، ومراكز تدريبه، وفق دورات من إعداده، وعلى أيدي قادته، وتحت بصر أجهزة مخابراته..

ومن الضروري هنا أن نؤكد أن إدانة الدور الاستعماري في تنشئة هذه النظم العسكرية وتوظيفها؛ لا ينسحب بالضرورة إلى الحكم بخيانة أو عمالة جميع من عملوا بها، فقد كانت الدوافع الخيرة، أو طبيعة الضرورة ماثلة لدى أعداد منهم.. وإنما تنصبُّ الإدانات - في معظمها - على القيادات؛ ممن خططوا أو شاركوا واعين بما يفعلون، أو انقادوا للمشاركة في الخطايا ضد شعوبهم؛ ولو كانوا غافلين..

دور فرنسا في تأسيس عدد من الجيوش العربية:

الدور الفرنسي في تأسيس الجيش المصري:

أما مصر فقد كان جيشها في أوائل عهد محمد علي باشا (تولى سنة ١٨٠٥) خليطًا من عناصر الأكراد والألبان والشراكسة، وبهم غزا نجد، وقضى على مملكة ابن سعود الأولى؛ بعد حروب استمرت ثماني سنوات بين سنتي١٨١١-١٨١٩م، وبعدها قرر محمد علي إعادة تأسيس الجيش على يد ضابط فرنسي سابق عمل تحت إمرة نابليون، هو أوكتاف جوزيف أنتيلمي سيف (ت ١٨٦٠م) الذي قدم إلى مصر سنة ١٨١٩، وأعلن إسلامه، وتسمى سليمان الفرنساوي، وهو الذي أسس المدارس الحربية المصرية، وكان الساعد الأيمن لمحمد علي وولده القائد إبراهيم، ورقاه محمد علي سريعًا إلى بكباشي، حتى أوصله إلى رتبة فريق (أمير ميران)، وتلقب بالباشوية، وولى في عهده رئاسة أركان الجيش المصري في أثناء حربه ضد الدولة العثمانية، ثم أصبح وزيرًا للحربية في زمن الخديوي عباس حلمي الأول (تولى ١٨٤٨ إلى ١٨٥٤م)[١].

وبدأ تأسيسه الجيش سنة ١٨١٩م، وبدأت أولى تشكيلات الجيش - ومعظمهم من الفلاحين المصريين - في الظهور سنة ١٨٢٣م[٢].

وتولى عدد من الضباط الفرنسيون المناصب العليا في الجيش الناشئ، وكذلك تأسيس وقيادة مدارسه العسكرية التي تخرج أجياله، سواء في ذلك مدرسة المشاة، أو الخيالة (الفرسان)، أو الطوبجية (المدفعية)، و"نُسِّقت الجيوش المصرية كلها من مشاة وفرسان ومدفعية على نمط الجيوش الفرنسية"[٣]..

---

(١) الأمير عمر طوسون: **صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي، الجيش المصري البري والبحري**، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٩٩٠م، ص ١٠-١٥، كلوت بك: **لمحة عامة إلى مصر**، مرجع سابق ص ٤٩٧.

(٢) بعد أن حاول تجنيد السودانيين فلم يرضَهم لسرعة تفشي الأمراض فيهم (د. محمد محمود السروجي: **الجيش المصري في القرن التاسع عشر**، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٧، ص١٥-١٧).

(٣) كلوت بك: مصدر سابق ص ٥٠٠-٥٠٤.

أما البحرية المصرية فقد عهد محمد علي بإعادة بنائها إلى المهندس الفرنسي مسيو سريزي سنة ١٨٢٩ الذي أنشا ترسانة الإسكندرية البحرية، وذلك بعد أن تم تدمير معظم الأسطول المصري في موقعة نافارين سنة ١٨٢٧م في حرب اليونان؛ التي عاضد فيها الأسطول المصري الأسطول العثماني[١].

وكانت المناصب القيادية في الجيش من الضباط الأجانب ومن المماليك والأتراك، ويؤكد كلوت بك أن السبب في ذلك هو عدم ثقة محمد على في ولاء الجنود له في حالة وجود قيادات من جنسهم، توافقهم على الثورة ضده، أو مخالفة أمره[٢].

في حين كان تجنيد المصريين يجري في أشد صور القهر والإجبار قتامة وقسوة، فلا غرو أن أطلق المصريون على محمد علي "باشا النصارى"[٣].

أدت طموحات محمد علي باشا إلى غزو الدولة العثمانية، والتوغل في أراضي الأناضول حتى وصل قونية سنة ١٨٣٢، فدمر الجيش العثماني بها، وأسر قائده، وانفتح الطريق أمامه إلى الآستانة، لولا أن تدخلت الجيوش الأوروبية ضده حتى لا يتولى أمر السلطنة رجل قوي قد يهدد خططهم، وقضت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ بإجلاء محمد علي عن الشام[٤].

ومنذ أيام محمد علي باشا تقرر تأسيس المدرسة العسكرية المصرية في باريس سنة ١٨٤٤م، لتستقبل المبعوثين العسكريين المصريين، ووضعها تحت إشراف وزير الحربية

---

(١) السابق ص ٥١٦.

(٢) السابق ص ٥٠٨.

(٣) السابق ص ٥٣٩.

(٤) راجع عبد الرحمن الرافعي: **عصر محمد علي** ص ٢٤٤-٢٤٧، دار المعارف، القاهرة، ط٥، سنة ١٩٨٩.

الفرنسي؛ الذي عين لإدارتها لجنة من الضباط الفرنسيين أيضًا[١]، واستمر إيفاد هذه البعثات في عهد الخديوي عباس حلمي ثم الخديوي سعيد[٢].

واستمر أبناء محمد علي في سياسته القاضية بإرسال البعثات العسكرية المصرية إلى دول أوروبا، إضافة إلى تمكينهم من زيارة المدن المشهورة في إنجلترا وألمانيا وفرنسا[٣]، ومن الممكن أن نتصور طبيعة التأثيرات الفكرية والاجتماعية الغربية التي تنتج عن زيارة تلك المدن، والخلطة بأبنائها من المدنيين والعسكريين.

وواصلوا الاستعانة بالبعثات العسكرية الأجنبية لتنظيم الجيش المصري ورفع كفاءته، مما يعني مزيدًا من الاختراق الأجنبي لأقوى أدوات الحكم في البلاد، وتنوعت هذه البعثات ما بين فرنسية وبريطانية وأمريكية[٤].

أما قيادة الجيش المصري فقد استمرت بيد مؤسس ذلك الجيش الجنرال إسماعيل الفرنساوي، وظل على حاله حتى عهد الخديوي إسماعيل الذي عين سنة ١٨٦٤ القائد الفرنسي ميرشير قائدًا لأركان حرب الجيش، وهو المنصب الذي خلفه فيه الجنرال **الأمريكي** تشارلز ستون (Charles Stone) سنة ١٨٧٠ الذي ظل في منصبه علي عهدي إسماعيل وتوفيق، ويُعد المؤسس الحقيقي لهيئة أركان الجيش المصري على النحو الذي تعرفه الجيوش، وكانت هيئة الأركان تتكون من ثمانية أفراد، من بينهم خمسة أمريكيين[٥].

---

(١) عمر طوسون: **البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول وسعيد**، مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية، سنة ١٩٣٤، ص ١٧٥-١٧٦.

(٢) راجع السابق ص ٤١٦ وما بعدها.

(٣) السابق ص ١٣٦.

(٤) السروجي: السابق ٩٩-١٠٥.

(٥) السروجي: السابق ص ٣٢٣-٣٢٨.

الحملة المكسيكية للجيش المصري!!

ومن أغرب صور تسخير الجيش لإرضاء الدول الاستعمارية تلك الفرقة العسكرية المصرية السودانية المكونة من ٤٥٣ ضابطًا وجنديًا التي أرسلها الخديوي إسماعيل باشا إلى المكسيك لمساعدة فرنسا في حربها ضد الحكومة هناك لاستعادة ديون الرعايا الفرنسيين والإنجليز والإسبان من الحكومة المكسيكية، والمثير أن بريطانيا وإسبانيا سحبتا قواتهما من القتال، وتقدمت الحكومة المصرية للمشاركة مع فرنسا في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، وفي بيئات شديدة الوعورة، والحرارة وتتفشى فيها الأمراض.. واستمرت في عملها من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٦٧[١]، ولما رجعت إلى مصر كانت قد فقدت ١٤٠ رجلاً[٢] في سبيل إرضاء فرنسا، ونيل رضاها عن الخديوي.

وكان من أهم أسباب ثورة أحمد عرابي ضد الخديوي توفيق هو هذا التدخل الأجنبي الفاحش في إدارة البلاد، وفي قيادة الجيش، وامتيازات الضباط الأجانب المجلوبين إليه، وانتهت ثورته بكارثة الاحتلال البريطاني الصريح للبلاد سنة ١٨٨٢[٣].

السيطرة البريطانية على الجيش المصري:

منذ الأيام الأولى للاحتلال صدر قرار الخديوي توفيق - بأمر من الإنجليز - بتسريح معظم الجيش المصري، بحجة مناصرته لثورة عرابي، ومحاكمة كبار ضباطه بتهمة العصيان، وإنشاء جيش جديد عهد إلى الضابط الإنجليزي فالنتين بيكر Baker بتكوينه، ثم أسندت قيادته في يناير ١٨٨٣ إلى إيفيلين وود Evelyn Wood - أحد قادة الحملة

---

(١) الأمير عمر طوسون: **بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك**، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، سنة ١٩٣٣م، ص ٣-٤.

(٢) عمر طوسون: السابق ص ٤٢.

(٣) بيرنز: **الاستعمار البريطاني في مصر** ص١١-١٢.

الإنجليزية – فأصبح أول سردار إنجليزي (أي قائد عام) ورئيس أركان للجيش المصري، يساعده في القيادة ضباط إنجليز، وقدم القائد الأمريكي السابق الجنرال ستون باشا استقالته، واستسلم وزير الحربية المصري عمر باشا لطفي لإرادة الإنجليز وبرنامجهم من دون مقاومة، وتم إنقاص عدد أفراد الجيش إلى ٦,٧٦٣ فقط بعد أن كان أيام الثورة العرابية قد وصل إلى ٥٠,٦٠٠ مقاتل[١].

وتم تغيير اسم "نظارة الجهادية" إلى "وزارة الحربية"، ليزيلوا لفظ "الجهاد" بما يحمله من مضامين عقدية وسلوكية، وألغيت المدارس العسكرية عدا واحدة يبلغ عدد تلاميذها مئة، كما تهاوى مستوى التلاميذ الذين يُختارون من الفاشلين في المرحلة الابتدائية، وقد يُختار ضباط للجيش لم ينالوا أي قدر من التعليم العسكري، كما أغلقت المصانع العسكرية، وظل الجيش يحتاج في سلاحه وذخائره إلى الاستيراد من المصانع الإنجليزية[٢]. أما الشرطة المصرية فتم وضعها تحت إمرة مفتش عام إنجليزي، يساعده مفتشون إنجليز[٣].

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وأقحمت مصر في الحرب التي لا مصلحة لها فيها، بل هي حرب ضد الدولة العثمانية التي تربطها بها أواصر الديانة والمصلحة والتاريخ الممتد إلى أربعة قرون.. وإن كانت الدولة العثمانية نفسها قد اقتيدت من خطامها إلى تلك الحرب بسبب القادة الشباب المغامرين من رجال الاتحاد والترقي، دون أن تتهيأ لها الظروف المواتية، أو تتوافر لها القدرة المناسبة.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: **مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٤٨م، ص ٥، ١١-١٣.

(٢) السابق ص ١٤-١٧.

(٣) السابق ص ٢٤.

وأعلنت السلطة العسكرية البريطانية في مصر أنها سوف تتحمل جميع تبعات الحرب، ولن تلزم مصر منها بشيء[١]، إذ إن أي عدوان على مصر وقتها سيكون بسبب وجود القوات البريطانية بها، غير أنها سرعان ما تراجعت في وعودها.. فبسبب تصاعد العمليات العسكرية أدركت القوات البريطانية شدة حاجتها إلى المصريين، فصدرت الأوامر بإشراك ما تبقى من الجيش المصري في القتال تحت القيادة البريطانية، ويحتفي بعض المؤرخين - على نحو مخزٍ- ببطولات الجيش المصري في هذه الحرب في عملياتهم لصالح بريطانيا ضد إخوانهم المسلمين؛ سواء ضد العثمانيين على ضفاف القناة، أو ضد علي دينار سلطان دارفور في السودان - الذي استشهد دفاعًا عن بلاده - أو قوات السنوسي في غرب مصر[٢]!!

ثم قاموا باستدعاء احتياطي الجيش المصري أوائل سنة ١٩١٦، وكانت أعداده تصل إلى حوالي ١٢ ألفًا، وتحملت الحكومة المصرية تكلفة أعمال قتالهم، بالرغم من أن بريطانيا عرضت تحمل تلك الأعباء، فردت الوزارة المصرية بأننا نأنف أن يقال إننا ندافع عن قناة السويس بمال غيرنا؛ وليس بمالنا[٣]!!

وحُشد الألوف من الفلاحين - بشتى صور القسر والإجبار والإذلال[٤]، وأحيانًا تحت ضغط الفقر المدقع والبطالة- فيما عُرف "بفرق العمل"، التي تقوم بالأعمال المساعدة للجيش، ولم يكن من بينهم متعلمون، كما لم ينالوا أي قسط من التدريب العسكري، بل سيقوا للقيام بأشق الأعمال في أصعب بيئات العمل، في تعبيد الطرق، ومد خطوط

---

(١) الرافعي: ثورة ١٩١٩ ص ٣٠.

(٢) لطيفة سالم: السابق ص ٢٣٧-٢٤٠.

(٣) راجع د. لطيفة محمد سالم: **مصر في الحرب العالمية الأولى**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤، ص ٢٤١، نقلاً عن جريدة المقطم، عدد ٢١ يناير ١٩١٦.

(٤) راجع لطيفة سالم: المرجع السابق ٢٤٧-٢٥٣.

السكك الحديدية، وحفر الآبار، وتشييد الحصون، وحفر الخنادق، ومد أنابيب المياه وإخفائها تحت الرمال، وكذا خطوط الهاتف والتلغراف، ونقل المهمات والذخائر، واقتيدوا للعمل خارج البلاد، في الحجاز والشام والعراق واليونان وفرنسا!! "وقدر مجموع المصريين المجندين في مختلف القوات بحوالي **المليون نسمة**، بينما كان مجموع السكان - بين سِنَّي ال ١٧ والثلاثين - مليونًا ونصف المليون"[١]. وتصل بهم بعض التقارير إلى مليون ومئتي ألف[٢]. كان منهم من هو دون الرابعة عشرة، ومن هو فوق السبعين[٣]!

وبلغ مجموع ما أنفقته الحكومة المصرية لصالح الحرب البريطانية **ثلاثة ملايين** جنيه، كان يجب استيفاؤها من الحكومة البريطانية، لكن الحكومة المصرية الأثيمة تنازلت عن هذه الأموال لصالح بريطانيا، "اعترافًا بجميل بريطانيا العظمى التي حمت البلاد من خطر الغارات"، بل منحت الحكومة البريطانية **نصف مليون** آخر، تتحمله الحكومة المصرية في السنة التالية، بحسب قرار الحكومة في جلستها التي انعقدت برئاسة السلطان حسين كامل في ٩ مارس ١٩١٨[٤]!!!

وما كان كل ذلك ليحدث لولا استخذاء النخبة الحاكمة، بل خيانتها، وهوانها على المستعمر، وهوان شعبها وأمتها عندها.

لقد بُذلت كل هذه الجهود لنصرة بريطانيا وقائدها المتعجرف اللورد اللنبي، فانتهت به وهو يدخل القدس ويقول: الآن انتهت الحروب الصليبية!!

---

(١) بيرنز: الاستعمار البريطاني في مصر ص٢٧، وانظر الرافعي: ثورة ١٩١٩ ص ٥٢، لطيفة سالم: السابق ص ٢٤٤-٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٦-٢٥٩.

(٢) بحسب البيان الصحفي لمستر لندس القائم بأعمال السفارة البريطانية (لطيفة سالم: السابق ص ٢٤٥).

(٣) الرافعي: ثورة ١٩١٩ ص ٧١.

(٤) الرافعي: السابق ص ٦٤.

دور فرنسا في تأسيس الجيش السوري:

ترك العثمانيون لما انسحبوا من الشام سنة ١٩١٨- بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى - أعدادًا كبيرة من الضباط والجنود؛ كانوا ضمن قواتهم المكلفة بالدفاع عن الشام، وقد يكون من هؤلاء ما عُرف بالجيش العربي في أثناء حكم الشريف فيصل بن الحسين بن علي سوريا، لكن ذلك الجيش كان في حالة عسكرية يُرثى لها من حيث التسليح والإعداد، فلما قررت فرنسا احتلال سوريا سنة ١٩٢٠، وفرض ما عُرف بالانتداب الفرنسي عليها، لم يستطع الجيش العربي الصمود أمامها ساعة من نهار، وقُتل قائده وزير الحربية الباسل يوسف العظمة[١].

ولم يكن الأمر راجعًا إلى ضعف الكفاءة العسكرية فقط، بل تسبب فيه العجز والخور السياسي الذي عبر عنه الشريف فيصل بن الحسين ملك سوريا في رسالة منه إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٢٠، إذ اعترف بأنه لبى طلبات الجنرال غورو قائد الجيش الفرنسي، فأمر بوقف المقاومة، وتسريح قسم كبير من الجيش بعد أن وعده القائد الفرنسي بألا يسمح لقواته بالتقدم نحو دمشق، ولما رفض الجيش والأهالي تلك الأوامر؛ وهاجموا مخازن السلاح ليدافع به المتطوعون عن بلدهم؛ أرسل فيصل أخاه زيدًا على رأس قوة لحرب من امتنع عن ذلك، فأسقط منهم أكثر من ١٠٠ قتيل و ٣٠٠ جريح، ومع ذلك استمر الفرنسيون بالتقدم، وهنا يقول فيصل في رسالته إلى لويد جورج: "على أنني بالرغم من هذا كله أصدرت الأمر إلى النظاميين الذين نجوا من القنابل بإلقاء السلاح، فأبيدت فرقة من الجنود البواسل تحت قيادة البطل يوسف العظمة وهي في مكانها"[٢]!

(١) د. بشير زين العابدين: الجيش والسياسة في سوريا ص ٨٠-٨١.

(٢) راجع السابق ص ٨١-٨٢.

ولم يُغنِ ذلك عنه شيئًا إذ طردته فرنسا من سوريا، فذهب إلى العراق ليحكم تحت سلطة الانتداب البريطاني (١٩٢١-١٩٣٣م).

ومن الضروري أن نذكِّر هنا بأن فيصل بن الشريف حسين هو القائد العربي الذي شارك بقواته قوات بريطانيا وفرنسا في إخراج العثمانيين من الشام - في أثناء الحرب العالمية الأولى - بعد اتفاق أبيه الشريف حسين معهم على إقامة خلافة عربية له.

وبذلك انتهت المؤامرة بتدمير الجيش العربي الوحيد المستقل، بقية الجيش العثماني، لينفسح المجال لتأسيس جيش جديد في ظل الاحتلال وعلى عينه!!

فرنسا تؤسس الجيش الطائفي في سوريا:

ولعله من المثير أن نعلم أن فرنسا كانت تؤسس للجيش السوري قبل أن تطأ أقدامها سوريا، ومنذ كانت قيادتها في مصر ضمن قيادة الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى، وبدأ ذلك سنة ١٩١٦ حيث شكلت ما عُرف بالقوات الخاصة للشرق، وذلك بتجنيد جماعات من النصارى الأرمن والموارنة الموجودين في سوريا، وقامت الكنيسة المارونية بدور كبير في جلب هؤلاء إلى مراكز التدريب الفرنسية في جزيرة قبرص، ولذلك كانت النزعة الصليبية غالبة على هذه القوات وقيادتها الفرنسية، وتبدت كأوضح ما يكون في صرخة الجنرال غورو لما دخل دمشق ١٩٢٠ منتصرًا، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبي ليقول شامتًا: "ها قد عدنا يا صلاح الدين"، ثم زاد الفرنسيون أعداد القوات الخاصة التي أسسوها، "وأصبح غالبية المنتمين إلى القوات الخاصة من الفلاحين العلويين والدروز والموارنة بالإضافة إلى تشكيل فرق جديدة من الأقليات الإسماعيلية والأكراد والشراكسة"[(١)]. أما في جهاز الشرطة فقد اعتمد الفرنسيون على النصارى الذين بلغت نسبتهم ٦٥ بالمئة، يليهم أبناء الطائفة الإسماعيلية [(٢)].

---

(١) السابق ص ٨٦-٨٩.

(٢) حيث كان تمثيلهم يقدر بحوالي ١٧,٠ رغم أنهم لم يكونوا يمثلون أكثر من ٠٧,٠ بالمئة من سكان الإقليم (المرجع السابق ص ٩٥).

تعددت الثورات ضد الفرنسيين، وكان عمادها من أهل السنة، فقام الفرنسيون بتجنيد جماعات منهم، ممن لا تخشى فرنسا تمردهم، "بحيث تراوحت نسبة تمثيلهم بين ٣٠ و٥٠ بالمئة خلال الفترة ١٩٣٠-١٩٤٣"، وكانت تلك خطوة ضرورية لترتيب مرحلة ما بعد الاستقلال القادم، ولكن القيادة والوظائف العليا ظلت في يد الفرنسيين[١].

ثم خرجت فرنسا منهكة من الحرب العالمية الثانية، وقررت إنهاء احتلالها سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦ وتسليم من رضي بالبقاء في سوريا من ذلك الجيش إلى الجيش السوري الجديد، والسماح لمن أراد الجلاء مع الجيش الفرنسي بالجلاء معه[٢].

وسوف تثبت الأحداث فيما بعد أن معظم قادة ذلك الجيش السوري الجديد كانوا "من ضباط الأقليات من الشركس والأكراد والنصارى والعلويين الذين كانوا ضمن القوات الخاصة في عهد الانتداب الفرنسي"، وهم الذين نالوا الهزيمة القبيحة أمام اليهود في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨[٣]، ثم قادوا سلسلة من الانقلابات العسكرية أضرت بالبلاد والعباد، حيث شهدت سوريا خمسة انقلابات عسكرية في السنوات الخمس ١٩٤٩-١٩٥٤.. ويقود تصفح أسماء وانتماءات قادة هذه الانقلابات التي دبرها قادة الجيش إلى أن عامة هؤلاء كانوا من الأقليات الدينية والقومية، وممن سبق لهم العمل مع الجيش الفرنسي[٤]، وقد ظلت لهؤلاء سطوتهم حتى فرَّق الصراع على السلطة بينهم، فشتتهم اللواء الشيشكلي بعد انقلابه سنة ١٩٤٩، قتلاً ونفيًا وسجنًا[٥].

---

(١) السابق ص ٩٧، أحمد عبد الكريم **حصاد سنين خصبة وثمار مرة**، بيسان للنشر والتوزيع، سنة ١٩٩٤، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) يذكر أحمد عبد الكريم (مرجع سابق ٢٨٧-٢٨٨)، أن معظم من كانوا ضمن الجيش الفرنسي دخلوا ضمن الجيش السوري الجديد.

(٣) د. بشير زين العابدين: المرجع السابق ص ١٣٨.

(٤) راجع القوائم التي قدمها د. بشير زين العابدين: المرجع السابق ص ١٤٨-١٤٩، ١٧٧-١٧٨.

(٥) بشير زين العابدين: المرجع السابق ص ٢٢٢-٢٢٣.

وظلت الطائفية سمة باقية، كما ظل الانغماس في العمل السياسي سمة ثانية للجيش السوري، حتى سيطرت الطائفة العلوية وأنصارها على القيادة المطلقة فيه باسم حزب البعث العربي منذ انقلاب سنة ١٩٦٣، ثم دانت لهم السيطرة المطلقة بعد انقلاب وزير الدفاع حافظ الأسد على مناوئيه من حزبه وطائفته سنة ١٩٧٠م[١].

وحافظت هذه الطائفة على مكتسباتها بالحديد والنار، ولم تستح لجلبها العار على الأمة بتسببها في كارثة الهزيمة من الصهاينة سنة ١٩٦٧، بل أصبح وزير الدفاع المهزوم رئيسًا للجمهورية، يحرك جيشه الطائفي لقتل أهل السنة في مذابح عدة، كان أكثرها دموية مذبحة حماة سنة ١٩٨٢[٢]، ويحرك ولده ووريثه بشار الأسد جيوشه لتدك أبناء شعبه بكل ما أوتي من قوة منذ ثورتهم في الربيع العربي سنة ٢٠١١.

دور فرنسا في تكوين الجيش الجزائري:

اتجهت فرنسا إلى ترتيب أمور الجزائر بعد الاستقلال على نحو يضمن استمرار سيطرة الحزب الموالي لها، والذين عُرفوا فيما بعد بـ"حزب فرنسا"، وكان هؤلاء من الإداريين والتكنوقراط، الذين سيكونون الطبقة الحاكمة والنظام الإداري، والذين فتحت أمامهم أبواب التعليم والترقي الإداري، لكنها أيضًا استطاعت إدماج ألوف – من الجنود الجزائريين الموالين لها الذين كانوا يحاربون الثوار الجزائريين، ومن المتعاونين معهم – ضمن جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وبخاصة سنة ١٩٦١م، أي قبل الاستقلال بعام، وقد وصفهم بلعيد عبد السلام رئيس الحكومة الجزائرية الأسبق بأنهم ناتج خالص للتكوين

(١) "سنوات الانقلاب والخديعة.. كيف نشأت دولة الطائفية الدموية في سوريا الحديثة" تقرير قناة الجزيرة، تم الاطلاع عليه في ٢٦/ ٨/ ٢٠٢٢ الساعة ٢٣، على الرابط الآتي: https: / /cutt.us /fKivD

(٢) قدر الصحفي البريطاني روبرت فيسك أن عدد الضحايا قد بلغَ عشرين ألفًا، بينما قالت اللجنة السورية لحقوق الإنسان إن أعدادهم تجاوزت الأربعين ألفًا، راجع ويكيبيديا الموسوعة الحرة (مجزرة حماة) على الرابط الآتي، وقد جرى الاطلاع عليه في ٢٦/ ٨/ ٢٠٢٢ الساعة ٢٤: https://cutt.us/yRLop

الفرنسي، ويحبون فرنسا بشدة[١]، وصرح اللواء خالد نزار وزير الدفاع الجزائري الأسبق أن أعدادهم تصل إلى ١٥ ألفًا، أصبحوا جزءًا من الجيش الجزائري بعد الاستقلال[٢].

دور بريطانيا في تأسيس عدد من الجيوش العربية:

دور بريطانيا في تأسيس الجيش العراقي:

انسحب الجيش العثماني أمام زحف البريطانيين في العراق – الذي بدأ سنة ١٩١٤م – تاركًا أعدادًا كبيرة من أفراده من الضباط والجنود العراقيين العاملين فيه، ثم فرضت بريطانيا الانتداب على العراق سنة ١٩٢٠، مما أشعل ثورة العراقيين فيما عُرف بثورة العشرين، فاضطرت بريطانيا لتهدئة الأحوال إلى التعهد بتكوين نظام حكم محلي عراقي ممن تثق فيهم، واتفقوا على استدعاء الملك فيصل الذي خلعه الفرنسيون من سوريا ليكون ملكًا على العراق، وقد وافق فيصل على قرار الانتداب البريطاني، كما أن اضطراب أحوال بريطانيا المالية بعد الحرب عجل بقرار تخفيض الجيش البريطاني في العراق والاعتماد على جيش من العراقيين أنفسهم، كان بعضهم ضمن جيش الحجاز العربي تحت قيادة فيصل بن الحسين، ومنهم من كان معه إبان حكمه سوريا، وعُرفوا **بالضباط الشريفيين**، وبعضهم ممن تركوا الخدمة في الجيش العثماني بعد انتهاء الحرب العالمية، وعادوا إلى وطنهم العراق بين عامي ١٩٢٠-١٩٢٢، أو بقوا في العراق بعد هزيمة الجيش العثماني وانسحابه من العراق[٣]..

---

(١) بلعيد عبد السلام: **الرد على مزاعم الجنرال تواتي**، مقال بجريدة الشرق اليومية الجزائرية، في ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٧.

(٢) راجع د. سليم حميداني: **الميراث الاستعماري في العلاقات الجزائرية الفرنسية منذ عام ١٩٦٢**، مركز دراسات الوحدة العربية، منشور على الرابط الآتي، وقد تمت مطالعته في٢٥/ ٨/ ٢٠٢٢ https:// caus.org.lb/ar/colonial-legacy-algeria-france/#_ftn10

(٣) راجع د. رجاء حسين حسني الخطاب: **تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من ١٩٢١-١٩٤١**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م، ص ٢٤-٢٩، وبلغ عددهم جميعًا ٥١٩ ضابطًا =

كان عدد من هؤلاء الضباط العراقيين يحتفظون بذكريات مريرة تجاه الإنجليز الذين أضاعوا على العرب حلم الدولة العربية التي عملوا من أجلها أيام الشريف حسين وأولاده، بينما ظل بعضهم على يقين بأن التغيير كله في يد بريطانيا، وأنها أمل العرب الوحيد، فظل مواليًا لها، وسيقوم هؤلاء بدور بارز في مستقبل العراق بعد ذلك، ومنهم نوري السعيد[1].الذي تولى رئاسة الوزارة في العراق ١٤ مرة (١٩٣٠-١٩٥٨).

وتم توزيع هذه القوات في أماكن القوات البريطانية التي تم سحبها، لتؤدي نفس مهام قوات الاحتلال، مع إحكام السيطرة عليها من خلال المفتش العام البريطاني وضباط هيئة الأركان، وضباط التدريب[2].

كما عمد الاحتلال البريطاني إلى ضم قوات من **العشائر القبلية** في جنوب العراق بعد دخوله إليها، وتعيينهم ضباطًا، وتيسير التحاقهم بالكلية العسكرية بالرغم من أن كثيرًا منهم لم يلق تعليمًا أوليًا كافيًا، أما الجنود المشاة فكان أبناء العشائر في بعض السنوات يشكلون نحو ٧٠-٧٥٪ من الجيش[3].

قامت بريطانيا أيضًا بتشكيل ما سُمي **بقوات الليفي** Levies منذ سنة ١٩١٥، وهي قوات تشكلت أولاً من العرب والكرد، لكنها أصبحت بعد ذلك من الأقلية الآثورية النصرانية ذات الأصول الغامضة منذ سنة ١٩٢١[4]، وخضعت هذه القوات للإدارة

= (راجع السابق ص٣٦، د. عقيل الناصري: **الجيش والسلطة في العراق الملكي ١٩٢١-١٩٥٨**، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، سنة ٢٠٠٠، ص ٣٤، ٤٥-٤٧).

(١) د. عقيل الناصري: مرجع سابق ص٥٠-٥١.

(٢) رجاء حسين: السابق ص ٣٨.

(٣) راجع رجاء حسين: السابق ١٢٧-١٣١، د. عقيل الناصري: مرجع سابق ص ٣٧.

(٤) تعني كلمة (الليفي) عند البريطانيين: (المتطوعين)، أما الآثوريون فهم جماعات وفدت عن طريق إيران على أنهم لاجئون شردتهم الحرب، وأسكنهم البريطانيون مدينة بعقوبة، راجع جي. كيلبرت براون: **قوات الليفي العراقية ١٩١٥-١٩٣٢**، ترجمة د. مؤيد إبراهيم الونداوي، السليمانية، ٢٠٠٦م، ص١٤، ١٨-١٩، ٢١-٢٢.

البريطانية بشكل كلي، شاركت قوات الليفي مع البريطانيين في قمع ثورة العشرين، ولما تسلم الجيش العراقي الوليد تلك القوات سنة ١٩٢٠ اشترطت عليه بريطانيا ألا يفتشها، ولا يراقب أعمالها، وله فقط أن (يطلع) على ميزانيتها[١].

وظلت قوات الليفي قائمة حتى نهاية الانتداب البريطاني على العراق سنة ١٩٣٢، ثم صدر قرار بدمجها مع الجيش العراقي بعد تمردها، وقمع الجيش العراقي ذلك التمرد[٢].

كانت أهداف بريطانيا في هذه المرحلة تشكيل جيش عراقي محدود القوة، قادر على إحكام السيطرة الداخلية، وقمع حركات التمرد والثورة، وموالٍ للعرش الفيصلي الموالي بدوره للاحتلال[٣].

وحين ننظر إلى مكونات الجيش العراقي الذي أسسه الاحتلال نلاحظ أن قياداته من الذين ثاروا على الحكم العثماني مع الشريف حسين وولده ممن اعتنقوا أفكار القومية العربية المناهضة للجامعة الإسلامية، أو ممن كانوا يعملون في الجيش العثماني، وكانوا ممن تأثروا بالعلمانية التي سرت في الجيش العثماني إبان سيطرة الاتحاد والترقي.. وهؤلاء ستكون لهم اليد الطولى في أمور العراق بعد انتهاء الانتداب البريطاني. كما أن القوات الأولى التي اعتمد عليها الاحتلال كانت من النصارى النساطرة (الليفي)، وتداعى إلى الجيش بعد ذلك الكثير من الجنود من أبناء العشائر، ممن لم يحظوا بقدر من التعليم، فلم يكن لهم نصيب موازٍ في قيادة الجيش.

الدور السياسي للجيش العراقي بعد الاستقلال:

ولما انتهى الانتداب البريطاني سنة ١٩٣٢م لم تكن هناك قوة في العراق الجديد تستطيع فرض سيطرتها على مكونات الدولة، ما خلا الجيش الذي كان قوة سيطرة داخلية،

---

(١) د. رجاء حسين: السابق ص ٤٢.

(٢) السابق ص ١٥٧-١٥٨.

(٣) د. عقيل الناصري: مرجع سابق ص ٣٤-٣٥.

وتحول بالتدريج إلى القوة المهيأة للإدارة والحكم[1]- وبخاصة مع ما اتصف به المجتمع العراقي من تعدد مكوناته، واختلاف مصالح كل منها عن الأخرى، مما فتح الباب لتوجه سلطوي دكتاتوري لكبار قيادات الجيش، فما إن زالت قوة الاحتلال البريطانية الظاهرة حتى كان العراق يبدأ سلسلة الانقلابات العسكرية في المنطقة بانقلاب بكر صدقي سنة ١٩٣٦م، وهو ضابط معروف بصلاته العميقة ببريطانيا، التي بدورها علمت بخططه للانقلاب وقت إعداده، ومنحته تأييدها بعد وقوعه[2].

كان تدخل الجيش العراقي في العمل السياسي، ودخول الاتجاهات السياسية إليه ماثلاً منذ وقت باكر، في زمن متسارع الأحداث، تتشكل فيه دول، وينشأ فيه الكيان الصهيوني، وتتدافع فيه الأفكار الدينية مع الشيوعية الوافدة، والعلمانية المستأسدة، والتيار العروبي القومي، وعلى ذلك فإن تعدد الانقلابات على اختلاف انتماءاتها السياسية لم يكن مستغربًا، والمؤسف أنها كانت - في معظمها - نائية عن هوية الأمة ودينها، مسلطة عليها.

استطاع التيار المناهض لبريطانيا أن يجد متنفسًا له وسط تناقض الاتجاهات السياسية، وبلغ ذلك التوجه أوجه في حركة السيد رشيد عالي الكيلاني رئيس الديوان الملكي، ثم رئيس الوزراء سنة ١٩٤١، الذي انضم إليه جماعة من ضباط الجيش الطامحين إلى الاستقلال الحقيقي لبلادهم، وقد استغل أجواء الحرب العالمية الثانية، ودخول دول المحور في حرب بريطاني وحلفائها، فمد تواصله مع الألمان والإيطاليين، مما أغضب بريطانيا وحلفاءَها في العراق، فعادت قوات بريطانيا تدك أراضي العراق، فلم يجد الثوريون المناهضون من دعاة الاستقلال الوطني بدًا من الهرب، وأُعدم من ظفر به الاحتلال وأنصاره[3]..

---

(١) راجع السابق ص ٣٦-٣٨.

(٢) راجع رجاء جسين: السابق ١٦٨-١٨٢.

(٣) راجع عثمان كامل حداد: **حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١**، المكتبة العصرية، صيدا، (د.ت)، ص٢٠، ١٠٩، ١٢٥-١٢٦.

وهكذا فإن الجيش الذي يتصارع قادته من أجل السلطة والنفوذ لم يستطع أن يصمد أمام الهجوم البريطاني المحدود سوى أيام قلائل، وذلك بعد نحو ٢٧ عامًا من بدء الاحتلال سنة ١٩١٤، وبعد أكثر من ١٠ سنوات على اتفاق إنهاء الانتداب سنة ١٩٣٢.

وكان حاله يُرثى له، وللدلالة على ذلك نذكر رواية عثمان كامل حداد- أحد مساعدي رشيد عالي الكيلاني- إذ ذكر أنهم أرادوا أن يواجهوا هجوم الجيش البريطاني في أثناء الثورة على الجبهة الغربية، فلم يجدوا طائرات صالحة لتغطية القوات البرية، فلجؤوا إلى طلب المساعدة من الجيش الألماني، وقدمت طائراتهم بالفعل، لكنهم لم يجدوا وقودًا خاصًا بالطائرات في مخازن الجيش العراقي، على خلاف ما زعم قائد الطيران، إذ وجدوا الوقود المزعوم وقودًا يصلح للسيارات لا الطائرات[١]، ولما أدرك قائد الجبهة صعوبة مواجهة البريطانيين أعلن أن الحل الأنسب هو اللجوء إلى إيران.[٢]. وهو ما تم بالفعل في نهاية الأمر.

ولم يكن متوقعًا من الجيش العراقي أن يكون أداؤه في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ على النحو المأمول[٣]، فالقوات البريطانية ما زالت في قواعدها، والسياسيون من أنصارها يقررون مد المعاهدة مع بريطانيا، وكانت تنتهي بعد سبع سنين، وقد فشلت محاولتهم إثر الغضب الشعبي في يناير ١٩٤٨، ثم نشبت حرب فلسطين بعد عدة أشهر في مايو، ودخلتها الجيوش العربية - ومنها جيش العراق - تحت ضغط الرأي العام الذي حركته دواعي الإسلام والعروبة، بينما كان أنصار بريطانيا لهم نفوذهم وتأثيرهم، وعلى رأسهم الوصي على العرش عبد الإله، فكان شعار "ماكو أوامر" - أي ليس لدينا أوامر بالقتال - مرفوعًا لدى قادة الجيش العراقي في فلسطين، على ما هو مشهور.

---

(١) السابق ص ١١٤-١١٥.

(٢) السابق ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) راجع السابق ص ١٢٨-١٢٩.

دور بريطانيا في تأسيس الجيش الأردني:

ظهرت إمارة شرق الأردن بعد احتلال فرنسا سورية سنة ١٩٢٠م، وهو جزء من المخطط الفرنسي البريطاني لتقسيم الشام، وظلت البلاد تعاني تصارع قبائلها لغياب سلطة مركزية، حتى وصلها عبد الله بن الشريف حسين في العام التالي، ونصبته بريطانيا أميرًا على البلاد[١].

وتأسس **الجيش الأردني** برعاية بريطانية.. حيث أسسه الضابط البريطاني فريدريك جيرارد بك سنة ١٩٢٠م من مجموعات قتالية كانت تقاتل تحت قيادة الهاشميين في أثناء الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين[٢]، وقد تولى فريدريك قيادة ذلك الجيش[٣]، كما تولت بريطانيا تمويله، ثم خلفه الجنرال جلوب باشا سنة ١٩٣٩م، وكان يعمل قبلها في الجيش العراقي، ونال من الملك فيصل بن الحسين ملك العراق وسام الرافدين تقديرًا "لخدماته"[٤].

وقد عززت بريطانيا من قدرات الفيلق العربي أو الجيش الأردني "باعتباره ملحقًا بالقيادة البريطانية للشرق الأوسط"، وكان جزءًا من قوات الحلفاء في أثناء معاركها في

---

(١) فردريك بيك: **تاريخ شرقي الأردن وقبائلها**، ترجمه بهاء الدين طوقان، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمَّان، (د. ت)، ص ٢٠٣.

(٢) د. موسى الكيلاني: "**فريدريك بيك باشا. ما سرُّ قوة هذا الإسلام؟**"، مقال بصحيفة الرأي الأردنية، بتاريخ الأحد ١٨/ ٣/ ٢٠١٢م، وذكر الكاتب أنه كان مندوبًا عن الديوان الملكي في عزاء فريدريك لما توفي ببريطانيا، وأنه شارك في قداس العزاء الذي أقيم في الكنيسة بأسكوتلندا، ثم ذكر أن ابنة فريدريك طلبت منه فيما بعد أن يصلي على والدها صلاة المسلمين (صلاة الجنازة) لأنه كان قد أسلم بعدما ترك الأردن سنة ١٩٣٩م، وراجع **غلوب باشا: مذكراته بعنوان: حياتي في المشرق العربي**، ترجمة جورج حتر وفؤاد فياض، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العربية الأولى، سنة ٢٠٠٥م، ص ١٥٧.

(٣) ألف فريدريك كتاب "تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، السابق الإشارة إليه، وهو ينبئ عن معرفة كبيرة بتاريخ الأرض والإنسان هناك.

(٤) غلوب باشا: المرجع السابق ص ١٥٣.

الشام في الحرب العالمية الثانية، فقد شارك القوات البريطانية في غزو سوريا لإخراج قوات حكومة فيشي المؤيدة لألمانيا النازية سنة ١٩٤١، وكانت قد سيطرت على سوريا.. كما شارك بقوة في غزو العراق لإخماد ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١[١].

وقاد الجنرال جلوب باشا الجيش الأردني في حربه ضد إسرائيل سنة ١٩٤٨م فكان أحد أسباب كارثة سقوطها بغير جدال[٢].. وهل يُتصور من ضابط بريطاني أن يقود مخلصًا جيشًا لحرب الكيان الصهيوني الذي صنعته بريطانيا، تحت ذريعة أنه موظف أردني؟

دور بريطانيا في تأسيس الجيش الليبي:

وفعلت بريطانيا الشيء نفسه في تأسيس الجيش الليبي ليكون عونًا لها ضد إيطاليا - التي تحتل ليبيا - في الحرب العالمية الثانية، وذلك سنة ١٩٤٠م بمساعدة من الأمير محمد إدريس السنوسي، مقابل وعد شفوي بتحقيق استقلال ليبيا في حال هزيمة الطليان، وهو ما لم يتحقق بالطبع[٣].

ولا شك أن ظروف تأسيس بعض الجيوش الإسلامية على النحو السابق ترك أثره على طبيعة أهدافها، وعقيدتها القتالية، فبعد أن كانت تعلن عن عقيدتها الجهادية، وتعتز بهويتها الإسلامية، وتحارب جنبًا إلى جنب في ظل أخوة دينية، وكانت وزارة الحرب تسمى في بعض البلاد "وزارة الجهادية"، أصبحت عقيدتها وطنية، ولا يجد قادتها غضاضة في أن تحارب بعضها بعضًا، فقد حارب الشريف حسين بقواته تحت راية الإنجليز الجيش

---

(١) هيكل: العروش والجيوش، دار الشروق، القاهرة، ط٧، سنة ٢٠٠٢م، ص٨٨.

(٢) راجع عبد الله التل: **كارثة فلسطين**، دار الهدى، سنة ١٩٩٠م.

(٣) كاندول: **الملك إدريس عاهل ليبيا، حياته وعصره**، نشر محمد علي بن غليون، منشستر، ط٢، سنة ١٩٩٠م، ص ٦٤-٦٥.

العثماني، وغزا الجيش العراقي الكويت، وغزت الجيوش المصرية - ثم السعودية والإماراتية - اليمن، والأمر يطول..

كما تحولت كثير من تلك الجيوش إلى أدوات قمع في أيدي السلطات الحاكمة، أو أصبحت هي نفسها الطبقة الحاكمة، مما أضعف أو قوض الحكم التعددي المدني وآلياته، وهو حكم ضعيف أصلاً لم تتح أمامه فرص التطور الطبيعي[1].

٢- الانقلابات العسكرية والاستبداد السياسي:

الاستبداد السياسي:

الاستبداد "صفة للحكومة المطلقة العنان، فعلاً أو حكمًا، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب، ولا عقاب محققَيْن"[2]، ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه "استبداد الحكومات خاصةً، لأنها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة"[3].

ويعد تقلص **الحريات السياسية** في عالمنا الإسلامي واحدًا من أبرز تجليات الضعف وأسبابه، ومن أشد العقبات أمام التنمية الإنسانية الحقيقية، فالاستبداد السياسي- وما يترتب عليه من فساد وفشل اقتصادي واجتماعي- ما يزال نهجًا أثيرًا لكثير من الأنظمة الحاكمة، ولا تزال التعددية والحريات السياسية حلمًا لكثير من شعوبنا.

---

(١) راجع حمدي عبد الرحمن: **الجيوش والسياسة في الخبرة الإفريقية** ص٧، الفصل الثاني من كتاب" الجيوش والتحول الديمقراطي في إفريقيا"، منتدى العلاقات العربية والدولية، لمجموعة باحثين، تحرير حمدي عبد الرحمن، ط١، سنة ٢٠١٥م.

(٢) عبد الرحمن الكواكبي: **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ٢٠١١م، ص١٢.

(٣) المرجع السابق ص١١.

ومنذ القرن التاسع عشر الميلادي ابتُلي عالمنا الإسلامي بسلسلة من الانقلابات العسكرية..

الانقلابات العسكرية في تركيا:

كان أولها ثورة مجموعة من الجيش التركي من الضباط المنتمين إلى حركة "تركيا الفتاة" على السلطان عبد الحميد، وإجباره على إعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨م، ثم عزله وتولية أخيه محمد الخامس في السنة التالية.

تولى أتاتورك القيادة العسكرية والسياسية لحرب الاستقلال التركية ١٩١٩، وكان اختياره رئيسًا للجمهورية بعد القضاء على الخلافة أمرًا متوقعًا، كما كان العنف في إحداث التغيير السياسي والاجتماعي شاملاً، وتم فرض النظام الجديد القائم على العلمانية بمفهومها الرافض لوجود دور اجتماعي أو سياسي للدين، حتى في مظاهره المحدودة كالحجاب ولبس العمامة أو الطربوش والأذان للصلاة باللغة العربية.

وأصبح الجيش التركي في تكوينه الجديد حارسًا للكمالية، أي مبادئ كمال أتاتورك ونهجه العلماني، وعلى ذلك أصبح تدخل الجيش في أمور السياسة أمرًا معهودًا ومقررًا، فلما خالفت الحكومة التركية بقيادة رئيس الوزراء المنتخب عدنان مندريس سنة ١٩٥٠ ذلك الفهم للعلمانية، قام الجيش بانقلابه بقيادة الجنرال جمال جورسيل سنة ١٩٦٠، واعتقل رئيس الوزراء مندريس ورئيس الجمهورية محمود جلال بايار، ورئيس المجلس الوطني، وجميع الوزراء، وحوالي ثلاث مئة من النواب الممثلين للحزب الديمقراطي الحاكم - حزب مندريس - الذي صدر قرار بإيقاف نشاطه، ثم حلِّه، وأصبح عدد المعتقلين ٥٩٢ شخصًا، وتشكلت محاكم صورية حكمت على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء مندريس واثنين من وزرائه - وزيري الخارجية والمالية- وأحد عشر من قادة البلاد بالإعدام، ونفذ حكم الإعدام فعلاً في رئيس الوزراء عدنان مندريس ووزيريه،

بينما خُففت أحكام الإعدام على الرئيس والآخرين إلى السجن مدى الحياة.. وأحال الانقلابيون ٢٣٥ جنرالاً وخمسة آلاف ضابط إلى التقاعد، وأقالوا ١٤٧ من أساتذة الجامعات والمحاضرين من وظائفهم، وفرضوا أجواء الخوف على الناس، وعادت العلمانية بمفهومها السابق ثقيلة الوطأة على المجتمع التركي[١].

تكررت الانقلابات في تركيا، تقريبا مرة كل عشر سنوات، ففي سنة ١٩٧١ حدث انقلاب ناعم لمواجهة الفوضى الضاربة في البلاد، وتفشي حوادث الإرهاب، والصراع بين قوى اليمين واليسار، وقد قام رئيس هيئة الأركان العامة التركية، ممدوح تاجماك، بتسليم رئيس الوزراء سليمان ديميريل إنذارًا من القوات المسلحة، يطالب بتشكيل حكومة قوية في إطار المبادئ الديمقراطية، تضع حدًا للوضع الفوضوي الحالي وتطبق القوانين الإصلاحية المنصوص عليها في الدستور العلماني للبلاد. وإذا لم تتم تلبية هذه المطالب فإن الجيش سوف يتولّى السلطة، وقدّم ديميريل استقالته، وتشكلت حكومة تكنوقراط جديدة لم تستطع التغلب على الصعوبات التي تواجهها البلاد بالرغم من القمع الحكومي للقوى المتصارعة[٢].

وجاء الانقلاب الثالث سنة ١٩٨٠ إثر استمرار الاضطرابات في البلاد، وتصاعد المد الإسلامي فيها، وقاده كنعان إيفرين، وهو أكثر هذه الانقلابات دموية وسوءًا.. حيث جرى اعتقال ٦٥٠ ألفًا من المعارضين، ومحاكمة ٢٣٠,٠٠٠ شخص، والحكم على ٥١٧ منهم بالإعدام، وقال كنعان أيفرين سنة ١٩٨٤ في إشارة لمن أعدموا بعد الانقلاب: "هل كان علينا أن نطعمهم في السجن لسنوات بدلاً من أن نشنقهم؟"، وقضى نحو ٢٩٩ نحبهم بسبب **التعذيب**، واعتبر الآلاف في عداد المفقودين، ناهيك عن إقالة آلاف من

(١) راجع رضا هلال: السيف والهلال ص ١١٣-١١٥.

(٢) راجع السابق ص ١٢٥-١٢٨.

أساتذة الجامعات والمدرسين والقضاة، وسجلت الأجهزة الأمنية مليونًا ونصف المليون شخص على أنهم مطلوبون أمنيًا، ويمثلون خطرًا على الأمن القومي التركي، وفرَّ ٣٠ ألف شخص من المعارضين والمفكرين، وطلبوا حق اللجوء السياسي خارج تركيا[١].

ومع تنامي المد الإسلامي في تركيا، وصعود حزب الرفاه ورئيسه الدكتور نجم الدين أربكان – الذي شارك في الحكومة الائتلافية مع حزب الطريق القويم سنة ١٩٩٦– ازداد قلق الجيش حارس العلمانية الأتاتوركية، فقام بانقلاب "مدني" سنة ١٩٩٧م، وطالب رئيس الحكومة أربكان بالموافقة على مطالب الجيش التي تدور حول مواجهة الصحوة الإسلامية ونفوذها المتصاعد، فاضطر أربكان إلى الاستقالة، وتم إغلاق حزب الرفاه من قبل المحكمة الدستورية في عام ١٩٩٨، ومُنع نجم الدين أربكان من ممارسة السياسة لمدة خمس سنوات[٢].

وأخيرًا جرت محاولة انقلاب فاشلة في ١٥ تموز سنة ٢٠١٦م، قادها بعض جنرالات الجيش، وأنزلوا قواتهم في الميادين والمطارات، وقصفوا مبنى البرلمان، وأذاعوا بيانًا باسم الجيش أنهم سيطروا على مقاليد البلاد، وحاولوا قتل رئيس الجمهورية رجب طيب أردوغان، لكنه نجا من محاولتهم، وطالب شعبه من خلال أحد برامج التواصل أن يتصدى لمحاولة الانقلاب، فنزلت جموع شعبية حاشدة تقف أمام الدبابات، وتحت عجلاتها؛ لتحول دون حركتها، وألقوا القبض على عدد من الضباط والجنود، وانضمت معظم قيادات الجيش والشرطة إلى القيادة الشرعية للبلاد، مما أدى إلى إفشال الانقلاب، ومحاكمة مرتكبيه، والمحرضين عليه، وتطهير الجيش والأجهزة المدنية من أنصارهم[٣].

---

(١) ميرت أوزكان: **السجن المؤبد للرئيس التركي الأسبق إيفرين لدوره في انقلاب ١٩٨٠**، تقرير لوكالة رويتر بتاريخ ١٨ يونية ٢٠١٤م، على الرابطhttps://2u.pw/rRResI وراجع رضا هلال: السيف والهلال، ص٧.

(٢) راجع رضا هلال: السابق ص ١٩٧-٢٠٢.

(٣) "كيف بدأت محاولة الانقلاب بتركيا وكيف انتهت؟"، موقع الجزيرة الإخباري بتاريخ ١٦/ ٧/ ٢٠١٦.

الانقلاب العسكري في إيران:

ووقع الانقلاب العسكري في إيران، الذي قاده ضياء الدين طباطبائي ورضا بهلوي سنة ١٩٢١م[١] بدعم بريطاني صريح، اعترف به رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل سنة ١٩٤١م – لما قررت بريطانيا عزل الشاه رضا بهلوي عن الملك – فقال: "نحن الذين نصبناه على العرش الإيراني، ونحن الذين عزلناه" [٢].

وبعده جاء انقلاب فضل الله زاهدي الذي أسقط حكومة محمد مصدق المناهضة للنفوذ الغربي في البلاد سنة ١٩٥٣م، وأعاد حكم الشاه محمد رضا بهلوي، وذلك بتخطيط من المخابرات البريطانية والأمريكية [٣].

الانقلابات في البلاد العربية:

كان أول انقلاب عسكري تشهده البلاد العربية انقلاب بكر صدقي في العراق سنة ١٩٣٦م، وقد عزل رئيس الوزراء وقتها ياسين الهاشمي، وأبقى على الملك غازي، وتولى هو رئاسة أركان الجيش، وأصبح الحاكم الفعلي للبلاد قبل أن يُغتال في السنة التالية، وكان قد التحق بالخدمة العسكرية في الجيش العراقي بتوصية من بريطانيا، ولعله أول انقلابي عربي كان ينظر بانبهار إلى أتاتورك ورضا شاه إيران[٤]. ثم شهد العراق بعده سلسلة من الانقلابات العسكرية[٥].

---

(١) أحمد محمود السداتي: **رضا شاه بهلوي نهضة إيران الحديثة** ص٤٥-٤٧، مكتبة النهضة المصرية، ط١، سنة ١٩٣٩م.

(٢) كريم مطر حمزة الزبيدي: **تاريخ إيران الحديث** ص ٨٩، وراجع مادة "انقلاب ١٩٥٣ في إيران"، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط https://2u.pw/XmlV72

(٣)

(٤) مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، دار الحكمة، لندن، ط١، سنة ٢٠٠٤، ٢/ ٢٦٨.

(٥) سنوات ١٩٥٨، ١٩٦٣، ١٩٦٨، ١٩٧٩.

وشهدت سوريا وحدها ثلاثة انقلابات في عام ١٩٤٩، كان أولها انقلاب حسني الزعيم في شهر مارس، أعقبه انقلابان في أغسطس، ثم ديسمبر، ثم وقعت عدة انقلابات سنوات ١٩٥١، ١٩٥٤، ١٩٦١، ١٩٦٣، ١٩٦٦، ١٩٧٠، أي تسعة انقلابات في إحدى وعشرين سنة.

ومن تلك الانقلابات العسكرية ما شهدته السودان سنوات ١٩٥٨، ١٩٦٩، ١٩٨٥، ١٩٨٩. ومِصْر في ١٩٥٢، و ٢٠١٣، والجَزائر سنتي ١٩٦٥، ١٩٩٢. واليمن في سنوات ١٩٦٢، ١٩٦٧، ١٩٧٤. وموريتانيا سنوات ١٩٧٨، ١٩٨٤، ٢٠٠٥، ٢٠٠٨.

انقلابات أخرى في العالم الإسلامي:

ومن هذه الانقلابات ما حدث في النيجر[١]، وباكِستان[٢]، وبوركينا فاسو[٣]، وسيراليون[٤]، ومالي[٥]، ونيجيريا [٦]، وتشاد[٧]، وأفغانستان [٨].. ناهيك عن عشرات محاولات الانقلاب التي لم تنجح في هذه البلاد.

وبالرغم من ذلك فإن كثرة الانقلابات والتقلبات والفورات وما أسموه حركات التصحيح وغيرها لم يحقق لهذه البلاد المنكوبة نهضة، ولا استقرارًا حقيقيًا، وإن طال

---

(١) سنوات ١٩٧٤، ١٩٩٦، ١٩٩٩، ٢٠١٠.

(٢) سنوات ١٩٥٨، ١٩٧٧، ٢٠٠١.

(٣) سنوات ١٩٦٦، ١٩٨٠، ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٧.

(٤) سنوات ١٩٩٢، ١٩٩٦، ١٩٩٧.

(٥) سنوات ١٩٦٨، ١٩٩١، ٢٠١٢.

(٦) سنوات ١٩٨٣، ١٩٨٥، ١٩٩٣.

(٧) سنتي ١٩٧٥، ١٩٩٠.

(٨) سنة ١٩٧٣م، راجع إسلام ماهر: عن "حُكْم العَسْكَر: الِانْقِلابات العَسْكَرِيَّة في دُوَل العالَم الإسْلامي"، موقع ساسة بوست، بتاريخ ٤/ ٩/ ٢٠٢٠ الساعة ٢٨ , ١٢ص، راجع الرابط:
https: / /www.sasapost.com /opinion /military-coups-in-islamic-countries

عمر بعضها فليس مرد ذلك إلى نجاح سياساته، ولا رضا الشعوب عنه، وإنما لقدرته على إحكام سيطرته على مقاليد الأمور، وإضعاف المناوئين المحتملين له، وبراعة أجهزة حكمه في تضليل عامة الشعب وتخديره، وتزييف وعيه، فضلاً عن رضا السادة المتحكمين في العالم عنه.

الآثار السلبية للانقلابات والاستبداد:

فرضت الانقلابات العسكرية التي شملت معظم العالم الإسلامي حكمًا استبداديًا غليظًا، ثقيل الوطأة، أوقف التطور السياسي الطبيعي في هذه المنطقة من العالم زهاء قرن من الزمان، وحكم شعوبها بالحديد والنار، حتى أصبح العمل السياسي المدني عظيم الكلفة، شديد الخطر، لا يقدم عليه أحد إلا إقدام فدائي يوقن بنبل رسالته، ويترقب في كل خطوة مصرعًا أو نائبة.

لقد تم تجفيف الحياة السياسية في بلدان إسلامية كثيرة، وبقي الاعتماد على القوة العسكرية والأمنية ضمانة لاستقرار قواعد الاستبداد السلطوي، مما أدى إلى إطلاق يد الجيش والأجهزة الأمنية للسيطرة على كثير من المرافق الحيوية للبلاد، بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، فجرى توظيف بعض القيادات العسكرية والأمنية على رأس المؤسسات المدنية، ممن اشتهر ولاؤهم للحكام، مما أدى إلى ضعف إنتاجية وفاعلية هذه المؤسسات بعدما تولى قيادتها أهل الولاء والثقة لا أهل الكفاية والدراية.

بل امتدت اليد الطولى للأجهزة الأمنية والعسكرية لتشدد رقابتها على جميع مؤسسات الدولة، وتقدم التقارير التي تضمن ترقي المرضي عنهم في الجهاز الإداري والاقتصادي والتعليمي، واستبعاد المشكوك في كمال ولائهم لأنظمة الحكم، ناهيك عن المعارضين لها.

زيادة النفقات العسكرية مع قلة عائدها:

ومن صور الفساد السياسي العائد إلى تنامي نفوذ العسكر وصولته، أو الراجع إلى حرص الحكام على تأمين سلطانهم، **زيادة النفقات العسكرية**، ويكفي أن نقارن بين نسب الإنفاق العسكري للدول العظمى ونسبه في بعض البلاد الإسلامية لنرى الفارق الكبير، فبلادنا أعظم إنفاقًا وأقل أمانًا وأضيع قيمة!! ففي سنة ٢٠١٨م بلغ متوسط الإنفاق العسكري للولايات المتحدة الأمريكية ٣,٢٪ من الناتج القومي الأمريكي، وبلغ الإنفاق العسكري الروسي ٣,٩٪ من ناتجها القومي، بينما بلغ في المملكة العربية السعودية ٨,٨٪، وفي عمان ٨,٢٪ في السنة نفسها، بل بلغ في ليبيا ١٥٪ سنة ٢٠١٤م[(١)]، وقد بلغ مجموع النفقات العسكرية في المنطقة العربية بين عامي ١٩٨٨-٢٠١٤م ما يقرب من ألفي مليار دولار أمريكي، ويزيد نصيب المواطن العربي من هذه النفقات العسكرية عن المتوسط العالمي بمقدار ٦٥٪، وذلك بالتأكيد خصم من الإنفاق على النواحي الضرورية الأخرى كالتعليم والصحة والبنى التحتية والقطاعات الإنتاجية[(٢)].

والمؤسف أن هذه النفقات لا تتوجه إلى مقاومة الأعداء الحقيقيين للأمة الذين يسومونها الخسف ليل نهار، بل تتوجه في العادة إلى دعم الأنظمة الحاكمة، وتخويف المعارضين لها، ويُترك المجاهدون من المسلمين دون سلاح، بل يُحاصرون وتُسد أمامهم سبل الحياة، كما نرى في فلسطين وتركستان الشرقية وميانمار وأفغانستان وغيرها.. بينما

---

(١) تقرير معهد ستوكهولم الدولي لبحوث السلام، الكتاب السنوي: الأسلحة، ونزع السلاح، والأمن الدولي.: الإنفاق العسكري (٪ من إجمالي الناتج المحلي)، موقع البنك الدولي على هذا الرابط، وتم الاطلاع عليه في ١٤/ ٢/ ٢٠٢٠ الساعة ٦ مساء:/https://data.albankaldawli.org/indicator ms.mil.xpnd.gd.zs

(٢) راجع **تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦، الشباب وآفاق التنمية الإنسانية في واقع متغير**، صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ص ٣٢-٣٣ على الرابط:
https://www.un.org/ar/esa/ahdr/ahdr16.shtml

تتكدس الأسلحة في مخازنها سنوات دون جدوى، حتى يأكلها الصدأ وتنتهي فاعليتها بظهور الأحدث منها، والأعظم فتكًا.

إن كثيرًا من هذه النفقات يشوبها الفساد والهدر، وهذا ما يؤكده مؤشر مكافحة الفساد في قطاع الدفاع الصادر عن منظمة الشفافية الدولية[1].

شيوع الاستبداد ونتائجه:

وقد استراحت أنظمة الحكم في كثير من بلدان العالم الإسلامي الآتية بالانقلابات العسكرية إلى **نظم الحكم الشمولي**، فمنعت على مدى عقود من الزمن وجود أحزاب سياسية، واعتبرت الحزبية والتعددية تفريقًا للأمة، وتفتيتًا لوحدتها وتماسك بنائها الداخلي، وتعرضت تلك الأنظمة بمضي الزمن، وتراكم الوعي لدى شعوبها، وتحت ضغط ما سببته من نكبات لشعوبها، وتأخير لنهضتها، إلى التسليم بالتعددية السياسية والحزبية، لكنها لجأت في ذات الوقت إلى تفريغ التعددية من محتواها ومقصدها، بمنع المعارضين من حرية الحركة بين الناس، وفتحت لهم أبواب السجون والمعتقلات، وتعقبتهم بالمحاكمات الجائرة، وبذلت وسعها في تعطيل مؤسسات المجتمع المدني، بل تجريمها أحيانًا، وتزوير الانتخابات بشتى أنواعها ومستوياتها لتضمن استمرار بقاء النظم الحاكمة، وادعاء التأييد الشعبي لها.

اتساع النزاعات المسلحة:

يتزايد حجم النزاعات المسلحة؛ التي خلفت كوارث مفجعة في العالم الإسلامي، وقد رأينا ما عانته الصومال والعراق وسورية وليبيا، والإبادة الجماعية للمسلمين في البوسنة والهرسك، وفي تركستان الشرقية، والصراعات في إقليم دارفور في السودان،

(١) التقرير نفسه ص ٣٣.

فضلاً عن الجرح الإسلامي النازف في فلسطين، ومعاناة الأقليات الإسلامية في أماكن متعددة، وتبدو الإحصاءات مؤلمة في المنطقة العربية مثلاً، التي يشكل سكانها ٥٪ من سكان العالم، وتتركز فيها ربع النزاعات المسلحة فيه منذ سنة ٢٠١٠م[١]، ويُتوقع أنه بحلول عام ٢٠٥٠ سيعيش ٣ من كل ٤ أفراد في المنطقة العربية في مناطق نزاعات ممتدة لأكثر من ١٦ عامًا[٢].

وبلغت أعداد الضحايا في تلك النزاعات ٥, ٦٨٪ عام ٢٠١٤م من مجموع قتلى الحروب في العالم، وتزداد أعداد اللاجئين إلى خارج بلدانهم، وقد وصلت أعدادهم إلى ٥, ٥٧٪ من أعداد لاجئي العالم في السنة نفسها، وتزداد أعداد النازحين في داخل بلدانهم، ووصلت أعدادهم في العالم العربي إلى ٤٧٪ في نفس السنة[٣]، بما يمثله ذلك كله من تقويض للحق في الحياة والأمن والعدل وإمكانات التنمية، ولا غرو أن بلغت تكلفة المواجهات بين الثوار في سوريا والنظام الحاكم وداعميه حوالي ٣١٪ من الناتج الإجمالي المحلي سنة ٢٠١٢م، و٣٨٪ من الناتج سنة ٢٠١٣م[٤].

٣- ثورات الربيع العربي:

لقد هدأت وتيرة الانقلابات العسكرية في العالم الإسلامي في العقود الأخيرة، ولم يكن استقرار الأوضاع مع استمرار القمع السياسي والعسكري للشعوب يعني نجاحًا لسياسات الأنظمة الحاكمة بقدر ما كان يعني رضا القوى الدولية المسيطرة في عالم القطب الواحد عنها، وعجز الشعوب عن تغيير أوضاعها.

---

(١) راجع تقرير التنمية الإنسانية العربية ص ٣٢.
(٢) التقرير السابق ص ٢٢.
(٣) التقرير السابق ص ٢٧.
(٤) التقرير السابق ص ٣٢.

ثم انفجرت الأوضاع في ثورات سلمية عُرفت **بالربيع العربي** منذ ٢٠١١م، وقوبلت ببطش بالغ في معظم الأحيان، مما أدى إلى ردود أفعال غاضبة، وتفسخت بسبب ذلك الروابط السياسية والنسيج الاجتماعي في أقطار متعددة، ودفعت الشعوب الأثمان الفادحة في تلك الظروف البائسة: قتلاً، وتشريدًا، وسجنًا، ونزوحًا عن الأوطان، وأزمات نفسية، وتفككًا أسريًا ومجتمعيًا، ووجد أعداء الأمة السبيل للتدخل الصريح في شؤونها، واستغلال حاجة الأنظمة السياسية إلى البقاء لقضم المزيد من السيادة الوطنية.

وبلغ العنف في مواجهة هذه الاحتجاجات السلمية مداه في سوريا، فقوبلت بالرصاص والمدافع، حتى اضطر الثوار إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، فاستعمل النظام الحاكم المدافع والدبابات والطائرات في قصف شعبه، بالقنابل والبراميل المتفجرة.

انتهاكات حقوق الإنسان:

تقول الشبكة السورية لحقوق الإنسان إنها وثّقت مقتل أكثر من ٢٢٢ ألف شخص في سوريا (٢٠١١ -٢٠٢٠)، وهؤلاء من تم توثيقهم فقط، بينما تقدر منظمة هيومن رايتس ووتش Human Rights Watch أن عدد من قُتل يزيد عن ٤٠٠ ألف شخص[١]، وهو قريب من تقدير مبعوث الأمم المتحدة والجامعة العربية في سوريا في ٢٣ أبريل ٢٠١٦م، حيث قدرت أعداد القتلى بحوالي ٤٠٠ ألف قتيل، ووفقا للمفوضية السامية لشؤون اللاجئين بالأمم المتحدة، خلفت سنوات الثورة التسع الماضية ٦،٦ ملايين نازح داخلي و٥،٦ ملايين لاجئ في جميع أنحاء العالم.[٢].. أي أكثر من ١٢ مليون شخص وهو ما يزيد

---

(١) **"الثورة السورية في ذكراها التاسعة، قتلى وجرحى ومفقودون ومعتقلون ومهجرون بالملايين"**، تقرير موقع الجزيرة ١٣/ ٣/ ٢٠٢٠، https://cutt.us/AEiNh

(٢) "Syria death toll: UN envoy estimates 400,000 killed" تقرير موقع الجزيرة، تم الاطلاع عليه في ٨/ ١/ ٢٠٢١م، على الرابط: https://cutt.us/7HFan

عن نصف العدد الإجمالي للسكان، وتراجعت مستويات التنمية الاقتصادية لتعود إلى ما كانت عليه قبل أربعة عقود[١].

ولم تتجنب آلة القتل الأطفال والنساء، فقد قتل في أحداث هذه الثورة نحو ٢٠ ألف طفل، وأكثر من اثنتي عشرة ألف امرأة، وقتل في السجون عدة آلاف من معارضي النظام الحاكم تحت التعذيب[٢].

وفي مصر واصلت السلطات الحاكمة بعد انقلاب يوليو ٢٠١٣ التضييق على المعارضة، وتجريم عمل كثير من منظمات المجتمع المدني، وسجن الصحفيين المستقلين والمعارضين، وحجبت أكثر من ست مئة موقع على الإنترنت، منها مواقع للصحف المستقلة ومنظمات حقوق الإنسان[٣]، واتهمت كل من يمارس المعارضة الفعالة بالإرهاب والانتماء إلى جماعة "الإخوان المسلمين"، بعدما اعتبرتها جماعة إرهابية، وارتكبت في حقها وأنصارها المذابح المروعة التي راح ضحيتها المئات، كما

---

(١) **تقرير الهجرة الدولية الذي تصدره الأمم المتحدة سنة ٢٠١٥**، ص ١٢٣، على الرابط: https://www.un.org/en/development/desa/population/migration/publications/migrationreport/docs/MigrationReport2015_Highlights.pdf

(٢) أعلنت الأمم المتحدة أن ٨٠٨٣ طفلًا قد قتلوا بحلول نهاية أبريل ٢٠١٤، وذكرت مجموعة من نشطاء المعارضة من المرصد السوري لحقوق الإنسان في منتصف مارس ٢٠١٨م أن عدد الأطفال الذين قتلوا في الصراع قد ارتفع إلى ١٩,٨١١، في حين قتل في الوقت نفسه ١٢٬٥١٣ امرأة. وبالإضافة إلى ذلك توفي أكثر من ٦٠٠ محتجز وسجين سياسي تحت التعذيب، في مطلع عام ٢٠١٢، بينما قدرت-منظمة العفو الدولية في فبراير ٢٠١٧ - أن ما بين ٥٬٠٠٠ و١٣٬٠٠٠ شخص قد أُعدموا في السجون الحكومية، راجع مادة "ضحايا الحرب الأهلية السورية"، موقع ويكيبديا الموسوعة الحرة، على الرابط: https://2u.pw/F0EfTe

(٣) **"منظمات حقوقية تطالب السلطات المصرية بالتوقف عن ممارسة الرقابة على الانترنت وحجب مواقع الوب"** تقرير على موقع منظمة Accessnow بتاريخ ٤/ ١١/ ٢٠٢٠، على الرابط التالي، تم الاطلاع عليه في ٢٠/ ١١/ ٢٠٢٢ الساعة ٨,١٤ https://cutt.us/RRZ5T

حدث في اعتصامَيْ ميدان رابعة العدوية بمدينة نصر، وميدان النهضة بالجيزة، وفتحت لأعضائها ومناصريها السجون والمعتقلات، فزاد عددهم وفق المنظمات الحقوقية الدولية إلى أكثر من ٦٥ ألفًا - من نحو ١٢٠ ألف سجين ومعتقل في مصر[١] - وألقت بزعمائها في الحبس الانفرادي، ومدت أجل الحبس الاحتياطي دون محاكمة، ولقي كثير من الشباب والشيوخ حتفهم إما بالتعذيب، أو بالإهمال الطبي الجسيم، بل منعت تسليم جثث من توفي من قادتهم إلى أهليهم، ودفنتهم السلطات الحاكمة في جنح الظلام ودون جنازات لتشييعهم، كما حدث مع مرشد الإخوان المسلمين السابق الأستاذ محمد مهدي عاكف، وعضو مكتب الإرشاد د. عصام العريان.. وأمر قادة الانقلاب بتعيين دوائر قضائية خاصة من قضاة فاسدين عُرفت بدوائر الإرهاب، كان من نتائجها أن حكم ١٩ قاضيًا منهم بإعدام ١٠٥٦ من المعارضين في خمس سنين، واشتهر هؤلاء بقضاة الإعدامات[٢].

ومن هؤلاء القاضي محمد ناجي شحاتة الذي أصدر وحده أكثر من ٢٦٣ حكمًا بالإعدام بحسب تقارير إعلامية، وأصدر في واحدة من قضاياه أحكامًا بإعدام ١٨٣ متهمًا، وأعطى ٢٣٠ حكمًا بالحبس المؤبد في قضية لم يستغرق النظر فيها أكثر من ٤٨ ساعة، بينما أصدر القاضي حسن فريد أكثر من ١٤٧ حكما بالإعدام، أما القاضي سعيد صبري فقد أصدر نحو ٤٩٦ حكما بالسجن المؤبد، كما أحال أوراق ٦٨٣ شخصًا للمفتي طالبًا الموافقة على إعدامهم في القضية المعروفة بمركز العدوة بالمنيا بجنوب مصر[٣].

---

(١) "حقوقيون للجزيرة مباشر: عدد المعتقلين السياسيين في مصر "مخيف"، موقع الجزيرة مباشر: على الرابط: https://cutt.us/7A36P

(٢) أنس السنجري: "**بالأسماء.. ١٩ قاضيًا بمصر أصدروا ١٠٥٦ حكم إعدام في ٥ سنوات**"، مقال بموقع عربي ٢١، بتاريخ ١٩ - Feb- ٢٠، على الرابط https://2u.pw/5ZJgN6

(٣) "**قضاة الإعدام.. مقصلة السيسي لترهيب المعارضين**"، تقرير لموقع الجزيرة، بتاريخ ٢١/ ٢/ ١٩١٩م، على الرابط: https://2u.pw/hhZHug

الخوف من المشاركة السياسية عند الشباب:

ومن الطبيعي في هذه الأجواء أن تُسجل المشاركة السياسية الرسمية للشباب في العالم الإسلامي واحدة من أدنى المعدلات في العالم، فالمنطقةُ العربية مثلاً تحتلُّ المرتبة الأخيرة عالميًا من حيث معدل مشاركة الشباب في العمل المدني التطوعي، بمعدل ٩٪، مقارنة مع ١٤٪ في إفريقيا جنوب الصحراء، وهي المنطقة التالية من حيثُ انخفاض نسبة المشاركة[1]، ناهيك عن المشاركة السياسية العملية - وهي محفوفة بالمخاطر- والمشاركة في العمل السياسي العام، ويرجع السبب الرئيس في ذلك إلى النهج الإقصائي المتبع لدى الأنظمة السياسية الحاكمة، وما تسنه من قوانين، وتقلص ثقة الشباب في جدية المشاركة السياسية وجدواها.. بالرغم من تزايد وعيهم بأهمية تلك المشاركة نتيجة ثورة الاتصالات العالمية.

(١) تقرير التنمية الإنسانية العربية ص٢٢.

الفصل الثالث

الحرب على المجتمعات الإسلامية

المبحث الأول

بين خطر التعليم الأجنبي والتخلف العلمي

أولاً: دور التعليم الأجنبي في العالم الإسلامي:

تتمثل أهداف التعليم الأجنبي في العالم الإسلامي في غايتين كبيرتين:

- تغريب العقول الإسلامية.

- التنصير.

وما أشد ترابط الغايتين، فإحداهما تسلم إلى الأخرى غالبًا.

فالمستشرقون الذين تولوا مهمة استلاب العقول الإسلامية، وإبهارها بالفكر والنموذج الغربي كانوا في معظمهم منصرين، كما سوف نرى.

وتولت الإرساليات التنصيرية عبء إنشاء المدارس والجامعات التي تأسست في الشرق الإسلامي، والتي استهدفت تكوين النخبة المستغربة الرائدة التي ستتولى قيادة البلاد فيما بعد.. ويسر لها الاستعمار سبل ذلك، فقامت على عينه، وحظيت برعايته.

ويعبر عن ذلك المسيو شاتليه Chatelier المستشرق والمبشر النصراني عن ذلك بقوله في سنة ١٩١٠: "ينبغي لفرنسا أنْ يكون عملها في الشرق مبنيًا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية"[١]. ويقول: "إن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائمًا للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية"[٢].

---

(١) **الغارة على العالم الإسلامي**، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، منشورات العصر الحديث، ط٢، جدة، سنة ١٣٨٧هـ، ص١٣.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٠.

وكان القس الإنجليزي صموئيل زويمر أكثر خبثًا حيث قال: "إنَّ لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين: مزية تشييد، ومزية هدم، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب"، ويقصد بالهدم إخراج المسلمين من عقيدتهم كليّة، أو إضعافها فيهم، ويقصد بالبناء إدخالهم في النصرانية، أو تقريبهم منها، ويخبر أن المنصرين في الشرق الإسلامي "متحققون من وجود مئات من الناس، انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم، واعتنقوا النصرانية في طرف خفي"[1].

ويخالف شاتليه زويمر في تفاؤله الخاص بتقدير أن مئات من المسلمين تنصروا سرًّا، ويعترف بصعوبة زحزحة المسلمين عقائدهم، إلا أن تكون حوادث محدودة، ويؤكد على أن تعليم اللغات الأوروبية يفتح المجال للتأثر بالفكر الغربي، ويقود بهدوء إلى هدم الفكرة الإسلامية[2].

التعليم إذن هو الباب الأوسع لإحداث الأثر، وديمومته، أو طول بقائه..

وكان للتعليم آنذاك التأثير الأكبر في تغيير العقول، وتوجيه النفوس، وبخاصة حين لم يكن الإعلام المسموع والمرئي قد ظهرا، ولا وسائل الاتصال الاجتماعي، وكان المهتمون بالصحافة - حديثة النشأة - قليلين نظرًا لتفشي الأمية بين عامة الشعوب الإسلامية.

تغيير مسيرة التعليم في العالم الإسلامي:

كان التعليم في العالم الإسلامي طوال تاريخه تعليمًا دينيًا، بمعنى أنه ينطلق من منطلقات إسلامية تحقق المفهوم الشامل للإسلام الذي ينظم حياة الناس جميعًا، فكان يبدأ بحفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، في الكتاتيب أو المساجد، أو دور بعض الموسرين أو المعلمين، ثم يتلقى الطالب بعدها

(١) شاتليه: السابق ص ١٧.

(٢) شاتليه: السابق ص ١٧-١٨.

جوانب من العلوم الإسلامية العامة في حلقات المساجد، ثم يتخير ما شاء من تلك العلوم ليعكف على تعلمها، والتخصص فيها، ثم ظهرت المدارس، وتحددت مراحل التعليم بمنحى نظامي، وظهرت المدارس المتخصصة في العلوم الدينية كالتفسير والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام، وفي العلوم التجريبية كالطب والهندسة والفلك وغيرها، وكان الطلاب يتعاطَون في بعض المساجد الكبرى، حيث حلقات العلماء الموسوعيين في العلوم الدينية والمدنية، أو في معاهد متخصصة، فطلاب الطب يدرسون في معاهد مرتبطة بالمشافي، وطلاب الفلك يتلقون علومهم في مراصد معروفة[1].

وبمضي القرون كانت الأحوال الحضارية والعلمية للأمة تذوي، فكان الجمود وإيثار التقليد في العلوم الدينية، وكان التزهد والازورار عن العلوم التجريبية، مصحوبًا بالاستبداد السياسي والفساد الاجتماعي، فتراكمت أسباب الضعف والركود، مما أفسح المجال أمام أعداء الأمة لانتقاص أطرافها، والسيطرة على مقدراتها، واستبعاد أسباب القوة والمنعة فيها، ومن أولها الإمساك بأزمَّة النظم التعليمية، وتطويعها لمصلحة الغزاة المحتلين، أو الأعداء المهيمنين.

وبدأ التوجه نحو التعليم الغربي في العالم الإسلامي في زمان متقارب، بدءًا من مطلع القرن التاسع عشر الميلادي؛ في أكبر بلدين إسلاميين: مصر الساعية في مشروع التغيير بالتغريب على يد واليها محمد علي باشا، والدولة العثمانية المتداعية - في أثناء حكم السلطان محمود الثاني، ولم يكن الحال في إيران وتونس مختلفًا عما هو عليه في مصر والدولة العثمانية.

---

(١) راجع د. مصطفى السباعي: **من روائع حضارتنا**، دار الوراق للنشر والتوزيع، الرياض، والمكتب الإسلامي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٩م، ص ٢٠٥-٢٦٨.

تغريب التعليم في مصر:

ففي مصر، كان سوء حال الأزهر - قلعة العلوم الدينية - في جمود مناهج تعليمه، وقصور قدرات كثير من طلابه ومشايخه، وسوء أحوال معيشتهم وطبائعهم وسلوكهم. كان كل ذلك مدعاة للانتقاد المرير من بعض دعاة الإصلاح[1]، وكان مما جرأ دعاة التغريب على المناداة بتجاوز الأزهر، والسعي لإيجاد اتجاه جديد في التعليم يأخذ من الغرب مناهجه ووسائله وغاياته.

وكان محمد علي باشا أشد أنصار التغريب الذي رآه محققًا آماله في السيطرة على مصر، وتوسيع رقعتها ليحكمها هو وأولاده من بعده، وميسرًا طموحاته في مناطحة الخلافة العثمانية؛ وحكمها بدلاً من سلطانها محمود الثاني.

وكان جل اعتماده في ذلك على الفرنسيين الذين استعان بهم في تأسيس جيشه، وتنظيمه، ومعنى ذلك أن التغيير في مجال التعليم بدأ بالتعليم العسكري، باستقدام المدربين الفرنسيين، ثم انتقل إلى التعليم المدني المستقل عن الأزهر ونظامه التعليمي، لتجهيز رجال قادرين على إدارة الدولة، في وضعها الجديد، وتم وضع نظام تعليمي لم يكن "نابعًا من الشرق، ومتصلاً بتاريخه وتقاليده، بل كان تعليمًا غربيًا اقتبسته مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ ليكون عونًا لها للقيام على ما استجد بها من نظم حربية وإدارية واقتصادية مستمدة هي أيضًا من بلاد الغرب"[2]،، وبخاصة فرنسا، "وعلى ذلك كانت اللجنة التي ألفت لوضع اللوائح المنظمة للتعليم في مصر، "تسودها الثقافة الفرنسية، حتى إن اللوائح التي وضعتها تلك اللجنة في عام ١٩٣٦م، واللوائح الثانية التي وضعتها اللجنة في عام ١٨٤١ وضعت أولاً باللغة الفرنسية، ثم ترجمت إلى اللغة العربية"[3].

(١) راجع د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ١/ ٣٣٧-٣٤٠.

(٢) د. أحمد عزت عبد الكريم: **تاريخ التعليم في عصر محمد علي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٨م، ص ٥٢-٥٣.

(٣) المرجع السابق ص ٥٣.

كان صنيع محمد علي يعني أن التعليم أصبح مسؤولية الدولة، ولما كانت الدولة آنذاك تُختصر في حاكمها المتسلط الفرد؛ فإن التعليم أصبح في قبضة الحاكم وحكومته، "وكان مرجع الأمر فيه إلى إرادة رجل واحد، ولم يكن التعليم وحده هو الذي احتكرته الحكومة، بل لقد احتكرت مرافق الحياة جميعًا" (١).

فالحكومة إذن هي من تقيم مؤسسات التعليم، وتضع مناهجه، وتنفق على أفراده من معلمين وطلاب علم، وتنفرد بحق التقويم والثواب والجزاء، بعد أن ظل منذ مطلع الإسلام - في الأغلب الأعم - عملاً أهليًا، يعده المجتمع من اختصاصه، فترصد له الأوقاف، أو يكفل أهلَه الموسرون، مما يوفر للمعلمين والطلاب استقلالاً ماليًا؛ يأمنون فيه على أرزاقهم وأهليهم، وتتحرر بذلك جهودهم وآراؤهم من قبضة المال، وتحكم الساسة.

ولما وقعت مصر في قبضة الاحتلال الإنجليزي تم تعيين القس الاسكوتلندي دوجلاس دنلوب مستشارًا لوزارة المعارف سنة ١٩٠٦م-١٩٢٠، فوضع نظامها التعليمي الذي استهدف تخريج موظفين ينفذون سياسات الاستعمار البريطاني، ويديرون دولاب مصالحه، فأبعد ما لا يناسبهم من مقررات إسلامية وعربية، وأخضع التعليم لرؤية غربية علمانية.

مؤسسات التعليم الأجنبي في الشام ومصر:

في ظل الاحتلال الأجنبي للعالم الإسلامي أنشئت مؤسسات تعليمية أجنبية بتشجيعه ورعايته، ونشطت الإرساليات التنصيرية في إنشاء المؤسسات التعليمية في بلاد الشام: من إنجليزية وفرنسية وروسية، وغيرها، ومنها الإرسالية المشيخية الأمريكية التي جاءت إلى لبنان سنة ١٨٢٠م، وافتتحت ٣٣ مدرسة في خلال ٤٠ سنة حتى سنة ١٨٦٠، وتأسست أكبر مؤسستين تربويتين في لبنان: الكلية السورية الإنجيلية سنة ١٨٦٦م - وأصبح اسمها فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت - وجامعة القديس يوسف اليسوعية سنة ١٨٧٥م.

---

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم: المرجع السابق ص ٥٦٥.

واضطلعت هذه المؤسسات بالدعاية لسياسات بلدانها الأصلية، كما قامت بالدور التنصيري المطلوب منها، وقدمت الرعاية للواعدين من طلابها النصارى، فأصبحوا بعد قليل أبرز مثقفي تلك البلاد، كما حدث في مصر والشام، ولهم القِدْح المُعَلَّى في تدوير دولاب السياسة والفكر فيهما[١]، ولا غرو فإن ربع النخبة السياسية في سوريا كانوا منهم[٢].

وكان مما قاله الجنرال الفرنسي بيير كيللر: "كانت التربية الوطنية بكاملها تقريبًا في أيدينا، وفي بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ يتعلمون في مدارسنا، وكان من بينهم من ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية - التي تألفت في باريس- تعلن عام ١٩١٧م أن جميع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا؛ بعد أن تعلموا لغتها، وخبروها على مر الأجيال، وتأكدوا من إخلاصها وتجردها".. وقال الجنرال كيللر: "إن مؤسساتنا تعمل دون كلل لتغذية النفوذ الفرنسي، مثل معهد الدراسات العبرية في القدس، ومعهد الدراسات الإسلامية في القاهرة، والمدرسة الإكليريكية الدومينيكانية في الموصل"[٣]

وانشأ اللورد كرومر - المندوب السامي البريطاني في مصر (١٨٨٢-١٩٠٦)- كلية فيكتوريا في الإسكندرية التي قصد بها تربيه جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي؛ ليكونوا أدوات المستعمر الغربي في إدارة شؤون المسلمين، وليكون في الوقت نفسه أدواته في التقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوروبي، وفي نشر الحضارة الغربية[٤].

---

(١) زين نور الدين: **نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية** ص ٥٠-٥٤.

(٢) د. بشير زين العابدين: **الجيش والسياسة في سوريا ١٩١٨-٢٠٠٠**، دراسة نقدية، ص ٧٤.

(٣) راجع د. محمد حسين: **الاتجاهات الوطنية** ٢/ ٢٨٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٩٨٤م.

(٤) د. محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص ٤٥-٤٦.

وامتدح المندوب السامي البريطاني الجديد في مصر اللورد لويد سنة ١٩٣٦م صنيع سلفه اللورد كرومر حين افتتح كلية فيكتوريا، حيث أسهمت في توطيد ما أسماه بالشراكة الوطيدة بين بريطانيا ومصر، وأنه "ليس من وسيلة لتوطيد هذه الرابطة أفعل من كلية تعلم الشبان من مختلف الأجناس المبادئ البريطانية العليا"[١].

وقامت مدارس الأقليات الكاثوليكية في الشرق بدور مهم في تكوين النخبة التي بدأت تتبوأ مكان الصدارة في الشرق العربي منذ منتصف القرن العشرين، وقد ذكر موقع الكنيسة الكاثوليكية في مصر أسماء ١٢٨ مدرسة تخص هذه الطائفة وحدها[٢].

معلمون أجانب في مدارس وجامعات العالم الإسلامي:

وفي ظل الاحتلال الأجنبي وجد المعلمون الأجانب فرصًا وافرة للتدريس في المدارس الوطنية، وبخاصة حين تفتقر البلاد إلى ذوي الكفاءات العلمية من أبناء البلاد، كما حدث في وزارة المعارف المصرية التي وصل عدد الأجانب العاملين فيها إلى ١٩٢ أوروبيًا سنة ١٩٠٦، وظل المستشار البريطاني لوزارة المعارف دوجلاس دنلوب صاحب اليد العليا فيها، وكذا من أعقبه في وظيفته حتى سنة ١٩٢٢، وتولى المهمة من بعدهم مراقبون إنجليز للإشراف على مراحل التعليم للرجال والنساء[٣].

وعُنيت الكنائس الغربية بتأسيس مدارس للبنات في الشرق الإسلامي، ليضمنوا امتداد الأثر الاجتماعي العميق في الأجيال القادمة، وبخاصة في الأسر الأرستقراطية المؤهلة للنفوذ والحكم.

---

(١) د. محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/ ٢٨٦.

(٢) راجع "دليل الكنيسة الكاثوليكية، المدارس"، على الرابط: https://cutt.us/Nd6WNوقد اطلعت عليه في ١٨/ ١١/ ٢٠٢٢ الساعة ١٤,٣٠.

(٣) د. محمود محمد سليمان: **الأجانب في مصر ١٩٢٢-١٩٥٢، دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ط١، سنة ١٩٩٦م، ص ٢٥٦.

فكانت أول مدرسة للبنات في الدولة العثمانية في بيروت، سنة ١٨٣٠م، تلتها مدارس في مصر والسودان وسوريا والهند وأفغانستان وغيرها[١]، ففي مصر كانت هناك كليتان للبنات سنة ١٩٣١ مهمتهما تخريج بنات الطبقات الراقية في المجتمع، وكان جميع المدرسين فيها من الأجانب[٢]، وتقول المُبَشِّرَةُ آن ميليغان: "لقد استطعنا أَن نجمع في صفوف كلية البنات في القاهرة بناتٍ آباؤهن باشاوات وبكوات، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تَحْتَ النُّفُوذِ المَسِيحِيِّ، وبالتالي ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة" [٣].

وتزايدت أعداد الأساتذة الأجانب في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة فيما بعد) منذ تأسيسها سنة ١٩٠٨، فوصلت أعدادهم سنة ١٩٢٧ إلى ٣٢٪ من مجموع أساتذتها، وتركزت عنايتهم بالتدريس في كليتي الآداب والحقوق، وهما الكليتان اللتان تخرجان الساسة وأعضاء المجالس التشريعية والصحفيين والخطباء، من موجهي الرأي العام، فكانت أعدادهم في كلية الآداب ٤٥٪ من جملة الأساتذة الأجانب في الجامعة، وتنافس البريطانيون والفرنسيون في السيطرة على هاتين الكليتين[٤]. وكان بعضهم من أخطر المستشرفين مثل "**ماسينيون**" الفرنسي (ت ١٩٦٢م) الذي وجه جل عنايته إلى دراسة المذاهب المنحرفة عن الإسلام، من باطنية وقرامطة ونصيرية ويزيدية، وعن شخصيات مثيرة للجدل والطعن في الاتجاه الإسلامي السني العام مثل الحلاج، وكان عضوًا نشطًا في دوائر المستعمرات الغربية، وأدى لها خدمات كبيرة، ثم تم إسناد مهمة تدريس تاريخ

(١) د. مصطفى خالدي وعمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، شباط سنة ١٩٥٣م، ص ٨٧.

(٢) د. محمود محمد سليمان: المرجع السابق ص ٢٦٣.

(٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ: المرجع السابق ص ٨٧.

(٤) د. سليمان: المرجع السابق ص ٢٦٩-٢٧٠.

الفلسفة إليه في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) سنة ١٩١٢- ١٩١٣م، فأي علم نشره؟ وأي مناهج أصّلها بين عقول جيل من الشباب غض الفكر، فتخرج على يديه طه حسين وآخرون غير بعيدين عنه، ثم تطوع في الجيش الفرنسي في أثناء الحرب العالمية الأولى، وعمل مساعدًا في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان تحت قيادة الجنرال اللنبي لما دخل القدس محتلاً سنة ١٩١٧م، وقال: "اليوم انتهت الحروب الصليبية"، وتنسب إلى ماسينيون بعض الآراء المعتدلة، ولكن كان ذلك في الفترة الأخيرة من حياته[١].

ومنهم المستشرق الفرنسي "دوديه" الذي درس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وأثار غضبًا شديدًا حين قرر كتاب "محمد" للمستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون، بلغ فيه من العداوة المكشوفة لنبي الإسلام ما حرك الغضب العام ضده، وانتهى إلى منع تدريس الكتاب[٢].

تغريب التعليم في الدولة العثمانية:

أما في **الدولة العثمانية** فقد أرسل السلطان محمود البعثات الدراسية إلى عدة بلدان أوروبية متنوعة بدءًا من سنة ١٨٢٧م، وبدءًا من السنة نفسها تم افتتاح مدرسة للطب في استنبول، وكان الغرض منها تدريب الأطباء الذين يحتاجهم الجيش الجديد، ثم تلتها مدارس عسكرية أخرى وكان التدريس في هذه المدارس باللغات الأجنبية مع اللغة العثمانية[٣]. على أن تعلم اللغات الأجنبية ظل أمرًا نـادرًا، حتى إنه في استانبول سنة

---

(١) راجع ترجمته عند د. عبد الرحمن بدوي: **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، سنة ١٩٩٣م، ٥٢٩- ٥٣٥.

(٢) د. إسماعيل علي محمد: **الاستشراق بين الحقيقة والتضليل**، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، سنة ٢٠٠٠، ص ٩٤-٩٨.

(٣) المرجع السابق ص ١١٢-١١٣.

١٨٤٤م لم يكن هناك سوى دستة من الأفراد يستطيعون التحدث بإحدى اللغات الأجنبية، وقراءة كتاب بها[١].

وفي سنة ١٨٤٥ تشكلت لجنة من سبعة موظفين كبار للنظر في تطوير التعليم، وقد اقترحت إقامة جامعة تابعة للدولة، واعتماد نظام للمدارس الابتدائية والثانوية، بعد أن كان التعليم في الكتاتيب والمدارس الدينية التقليدية، وقد تعذر تنفيذ تلك المقترحات على النحو المأمول، فتأخرت إقامة الجامعة، لكن المدرسة الثانوية "الرشدية" ظهرت إلى الوجود، وتأسس مجلس للتعليم العام، أصبح وزارة للتعليم سنة ١٨٤٧م، وكان كل من السلطان ولجنته حريصين على الظهور بمظهر من يقوم بخدمة سياسة الدين في التعليم، وتنص مذكرة مارس ١٨٤٥ بأن "أولى ضروريات هذه الحياة معرفة الواجبات والالتزامات التي يفرضها الدين على الإنسان"، ومع ذلك فقد أقيمت مدارس جديدة ومعلمون ومناهج دراسية خارج نطاق العلماء والعلوم الدينية، "ومن ثمّ فقد مُهد الطريق لنظام التعليم العلماني، وقد أكد إنشاء وزارة مستقلة للمعارف، استبعاد هذا الأمر المهم من نطاق سلطة العلماء الوحيدة"[٢].

وتأسست منذ القرن التاسع عشر عدة مدارس أجنبية في الدولة العثمانية قامت عليها بعثات أجنبية، منها كلية روبرت الأمريكية البروتستانتية سنة [٣]١٨٦٢. كما تأسست في عام ١٨٦٨ مدرسة الليسيه العثمانية في جالاتا سراي، وكان معظم التدريس فيها باللغة الفرنسية، وقد قدر لخريجيها أن يقوموا بدور بارز في السياسة والمجتمع فيما تبقى من عمر الخلافة، وفيما سيأتي من عمر الجمهورية فيما بعد.

---

(١) لويس: السابق ص ١١٦.

(٢) لويس: السابق ص ١٤٤.

(٣) راجع لويس: السابق ص ١٥٢، ١٥٧.

لقد كان تغريب التعليم في الدولة العثمانية يسير ببطء في بداياته، يصفه برنارد لويس بقوله: ".. ففي المدارس والكليات التي أنشئت خلال القرن التاسع عشر تطورت – تدريجيًا وبصعوبة جديدة – نخبة متعلمة جديدة، وبروح جديدة، وبفهم جديد وأوضح للحقائق، كانت مشاكل التكيف الأخلاقي والروحي هائلة... وكان ضخ هذه الروح الجديدة في الطبقات المسيطرة في الإمبراطورية يتم ببطء، وهو أمر مثبط ومدمر للغاية، ولكن مع حلول القرن العشرين كانت قد أُفرزت نخبة حاكمة ذات معرفة وقدرة، وقبل كل شيء صار لديها إحساس بالمسؤولية والتصميم لتنفيذ القرار بالقيام بثورة اجتماعية وسياسية عظيمة، هي التي أقامت تركيا الحديثة"[1].

تغريب التعليم في الهند:

وقد تولى السيد أحمد خان (ت ١٨٩٨م) كِبرَ ذلك حين أنشأ جامعة عليكرة لإذاعة أفكاره التغريبية المتطرفة، وشرط في قانونها أن يكون العميد دائمًا بريطانيًا، وأستاذان على الأقل بريطانيين، ومدير الثانوية بريطاني، ويزاد في هذا العدد كلما سمحت بذلك ميزانية الجامعة.. وقد أتاح ذلك التأثير الكبير على طلاب الجامعة، وأصبح عميدها المستر ثيودريك –الداهية البريطاني– صاحب التوجيه الأول في السياسية الهندية، وقيادة الرأي، مما كان له عواقبه الوخيمة، وعني بتعليم الآداب الغربية والعلوم الإنسانية التي تصوغ العقل والوجدان، دون العلوم الطبيعية التي كانت البلاد في مسيس الحاجة إليها، وقد نشأ بفعل هذه المؤثرات "جيل مثقف إسلامي الاسم، غربي التفكير، إنجليزي الطراز، مضطرب العقيدة في بعض الأحيان"[2].

(١) برنارد لويس: مرجع سابق ص ١٥٧.

(٢) أبو الحسن الندوي: المرجع السابق ص ٧٤-٧٥.

تحذير العلماء من خطر التعليم الأجنبي:

تعددت كتابات العلماء المسلمين تحذر من خطورة مؤسسات التعليم الأجنبي، ودورها التنصيري والاستعماري، ومهمتها في سلخ أبناء المسلمين من دينهم وهويتهم، أو على أقل تقدير إضعاف سلطان ذلك عليهم[١].

ومن هؤلاء الشيخ محمد عبده الذي حذر من خطر مؤسسات التعليم الأجنبي - وقد عاينها في أثناء وجوده منفيًا في الشام بعد الثورة العرابية - فقال: "فالزاعمون أنهم من رغَبَة العلوم يبعثون بأبنائهم إلى تلك المكاتب (يعني المدارس) المسيحية، فرنساوية أو ألمانية أو إنكليزية أو وطنية بالاسم؛ أجنبية بالحقيقة، ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك، وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين: تحويل العقائد إلى المسيحية، وإمالة المشارب إلى الدول المنسوبة إليها، فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها إما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد؛ مسلمين بالاسم، أو دهريين لا عقيدة لهم"[٢].

وصرخ شاعر الإسلام محمد إقبال منبهًا إلى خطورة الدور التغريبي للتعليم الأجنبي، وأنه السبيل الآكد لتحقيق أهداف المستعمرين، قائلاً على لسان قائد غربي يعلم ابنه دهاء المستعمر:

ولا تبغِ بالسيف قهر المحكومين

وألقِ بذاتك في حمض مناهج التعليم

ثم شكِّل منها ما يلائم مرادك

إن هذا الحمض يفوق في تأثيره الإكسير

---

(١) راجع بكر بن عبد الله أبو زيد: **المدارس العالمية، الأجنبية الاستعمارية تاريخها ومخاطرها**، دار ابن حزم، دار ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ١٣-١٨، حيث أثبت ٦٤ كتابًا وبيانًا وتصريحًا من العلماء في ذلك.

(٢) محمد عبده: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده ٣/ ١٠٣.

الذي يحول جبل الذهب إلى كومة تراب[1].

وقد تأكد المنصفون من النصارى من خطورة ذلك التعليم الأجنبي، وأنه مرقاة إلى تقبل الاستعمار الغربي، بل إلى طلبه ونشدانه، يقول جبران خليل جبران: " ففي سوريا مثلا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة؛ لأننا جياع متضورون، ولقد أحيانا ذلك الخبز، ولما أحيانا أماتنا؛ أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبَّه عقولنا قليلاً؛ وأماتنا لأنه فرق كلمتنا، وأضعف وحدتنا، وقطع روابطنا، وأبعد ما بين طوائفنا، حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة، مختلفة الأذواق، متضاربة المشارب، كل مستعمرة منها تشُد في حبل إحدى الأمم الغربية، وترفع لواءها، وتترنم بمحاسنها وأمجادها، فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيرًا فرنسيًّا، والشاب الذي لبس قميصًا من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا... إلى آخر ما هناك من المدارس، وما تُخرِجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء"[2].

ثم يبين الخطر السياسي لذلك التعليم قائلاً: " وأعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء؛ وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون أمريكا أو انكلترا وصية على بلادهم، والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم، والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك، بل يتبعون سياسة أدنى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم. وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل

(١) محمد إقبال: ديوان ضرب الكليم ص ١٣٧.

(٢) البدائع والطرائف ص ٥٧-٥٨.

في نفوس الشرقيين، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجرًا من جهة واحدة؛ وتهدم جدارا من الجهة الأخرى؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابةً؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يومًا وتميتنا دهرًا؟[١].

ثانيًا: التخلف العلمي في العالم الإسلامي وأسبابه:

يربط أبو الأعلى المودودي بين التأخر الحضاري في العالم الإسلامي والانهزام النفسي أمام الغرب، حيث المتصدرين سباقات العلم وتطبيقاته، فيقول: "لما انقطع في المسلمين نبوغ أهل الفكر وأصحاب التحقيق؛ ولما ترك القوم مزاولة التفكير والبحث والتدقيق؛ وقعد بهم اللغوب عن موالاة الاجتهاد وتحصيل العلم؛ فلكأنهم تنازلوا من تلقاء أنفسهم عن مكانتهم في قيادة العالم، ونهضت من جانب آخر أمم الغرب تتقدم في هذا السبيل"[٢].

ويلخص مالك بن نبي أسباب أزمة العالم الإسلامي بقوله:" إن جوهر المسألة هو مشكلتنا العقلية"، ويعني بها التجافي الحاصل بين الهوية الإسلامية – التي يجب أن تنبع منها الحضارة – والواقع العقلي والثقافي للأمة[٣].

لقد أوضح المفكران المسلمان بعض أهم أسباب تأخر المسلمين، ومنها التأخر في سباق العلم والبحث الدقيق، وتعارض سعيهم في اللحاق بركب المتصدرين مع هويتهم الراسخة التي برهن التاريخ على أن التوافق معها، والانبعاث منها هو السبيل للنهوض.

---

(١) المرجع السابق ص ٥٨.

(٢) نحن والحضارة الغربية ص ٤.

(٣) مالك بن نبي: **شروط النهضة** ص ٣٦.

١- مظاهر التخلف العلمي في العالم الإسلامي:

تتعدد المظاهر الدالة على عمق الهوة العلمية التي تردى فيها العالم الإسلامي منذ عقود من الزمن، وآلت إلى ما يعانيه اليوم، بعدما عاش قرونًا من الألق العلمي والزهو الحضاري الذي تأسس على القيم الأصيلة لبنائه العقدي، وامتد عطاؤه الثري ليشمل عالم تلك القرون.

فالأمة التي خاطبها القرآن الكريم بأول نداء إلهي: "اقرأ"؛ بلغت فيها نسبة الأمية نحو ٤٠٪ في صفوف الذكور و٦٥٪ في صفوف الإناث وفق تقرير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) سنة ٢٠١٤[١]. أما في العالم العربي فقد ذكرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، إن نسبة الأمية فيه تجاوزت ١٩٪، أي أن عدد الأميين به يفوق ٩٦ مليونا[٢].

وذهبت بعض التقارير المنسوبة إلى عدد من المراكز البحثية إلى أن متوسط القراءة في العالم العربي ربع صفحة للفرد سنويا، بينما تصل معدلات القراءة سنويًا للفرد في أميركا إلى ١١ كتابا، وتصل في بريطانيا إلى سبعة كتب[٣]. وقد دفعت تلك الأرقام بعض الباحثين إلى الشك في صدقيتها، وأكد أنه استقصى ما تنسب إليه من مصادر فلم يجد نسبة منها صحيحة[٤].

---

(١) راجع تقرير موقع الجزيرة الإخباري: "نصف سكان العالم الإسلامي أميون" على الرابط الآتي وتم الاطلاع عليه في ٩/ ١١/ ٢٠٢٢: https://cutt.us/tw4ar

(٢) تقرير موقع الجزيرة الإخباري وعنوانه "**أكثر من ٩٦ مليون أمي بالوطن العربي**" على الرابط: https://cutt.us/G5Clw

(٣) "**العربي لا يقرأ سوى ربع صفحة سنويًا**"، دراسة على موقع الجزيرة الإخباري عنوانها على الرابط: https://cutt.us/AZ3YO

(٤) "The Arab Reader and the Myth of Six Minutes Leah Caldwell, مقال منشور على الرابط الآتي: http://www.pcp.ps/article/156/The-Arab-Reader-and-the-Myth-of-Six-Minutes وقد اطلعت عليه في ٩/ ١١/ ٢٠٢٢.

وإذا نظرنا إلى الأوضاع في جامعاتنا فإن هناك ١٤ جامعة فقط تنتمي إلى الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي في قائمة أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم- ضمن تصنيف التايمز للجامعات العالمية ٢٠٢١ - أما في تاريخ جوائز نوبل التي من المفترض أن تعطى لأكثر العلماء تميزًا في مجاله؛ فإن نصيب العالم الإسلامي منها في مجال العلوم ثلاث جوائز[١].

وفي دائرة البحث العلمي والتطوير فإن البيانات المتاحة سنة ٢٠١٦ تشير إلى أن نسبة إنفاق الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي على البحوث والتطوير تبلغ ٠,٣٧٪ من إجمالي الناتج المحلي لهذه الدول، وهو أقل بكثير من المتوسط العالمي البالغ ١,٧٥٪[٢]، أما في العالم العربي فلم يتجاوز معدل الإنفاق القومي على البحث العلمي سنة ٢٠٢٠ في الدول العربية قاطبة ٠,٧٢٪، بينما بلغ في دولة الاحتلال الصهيوني ٤٤,٥٪[٣].

ووفقا للإحصاءات الصادرة عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية WIPO في عام ٢٠١٤ يصل العدد الإجمالي لطلبات براءات الاختراع في جميع أنحاء العالم نحو ٢,٦٨ مليون، بينما بلغ في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي ٤٦,٧٨١ براءة اختراع، أي نحو ١,٧٤٪ منها[٤].

---

(١) حصل العالم الباكستاني الدكتور محمد عبد السلام في سنة ١٩٧٩ على جائزة نوبل في مجال الفيزياء، كما مُنح العالم المصري الدكتور أحمد زويل في سنة١٩٩٩ جائزة نوبل في الفيزياء، وفي مجال الكيمياء حصل الدكتور عزيز سنجار من تركيا على جائزة نوبل سنة ٢٠٠٥.

(٢) مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب التابع لمنظمة التعاون الإسلامي (sesric): **التعليم والتنمية العلمية في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي ٢٠١٦** ص ٥٢.

(٣) "الإنفاق على البحث والتطوير٪ من إجمالي الناتج المحلي"، تقرير على موقع **البنك الدولي**. تم الاطلاع عليه في ١٤/ ١١/ ٢٠٢٢ على الرابط الآتي،
https://data.albankaldawli.org/indicator/GB.XPD.RSDV.GD.ZS

(٤) مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية... (sesric): مرجع سابق ص ٥٩.

ويتراوح عدد مستخدمي الإنترنت بين ٣ لكل ألف فرد في السودان، و٣١٣ لكل ألف في الإمارات العربية المتحدة، وأقل من ٥٠ مستخدماً لكل ألف في أحد عشر بلدًا عربيًا[١].

ولا سبيل لتجاوز تلك الهوة العلمية إلا بإحداث نهوض علمي شامل يعالج أسباب التخلف والعجز، ويأخذ بأسباب الانبعاث الحضاري والقوة العلمية، في زمن لا يعترف إلا بالأقوياء في شتى مجالات الحياة.

ويمكن رد أسباب ذلك التخلف العلمي في العالم الإسلامي إلى مجموعتين من الأسباب: داخلية وخارجية:

٢- الأسباب الداخلية للتخلف العلمي:

وترجع في مجموعها إلى سوء فهم الموروث الثقافي والديني للأمة، فقاد المشهد الثقافي على مدى عقود إلى مهالك دفعت الأمة ثمنها في عصورها المتأخرة، ولم تكن بها بصيرة، إذ غشَّى أسبابَ الضعف هذه أنوارُ التقدم السالف، الذي ظلت الأمة ردحًا سائرة فيه بالقصور الذاتي.

من ذلك إهمال العلوم التجريبية العملية، أو علوم الحياة من طب وهندسة وفلك وطبيعيات، مع تغليب العلوم النظرية من تفسير وفقه وتاريخ، وقسموا العلوم فجعلوا منها العلوم "الشريفة" المتصلة بالشرع الحنيف، والعلوم الأخرى المتصلة بعمارة الكون، مع أن عمارة الكون إحدى صور العبادة الشاملة في الإسلام، بل إن الغاية من الخلق هي عمارة الدنيا بالدين، فلا فصل بينهما. ولم يفيقوا من خطأ ذلك إلا على سنابك خيل الغزاة الذين أخذوا بأسباب العلوم.

---

(١) تقرير السكان والتنمية العدد الثالث الهجرة الدولية والتنمية في المنطقة العربية: التحديات والفرص، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا): الأمم المتحدة، نيويورك، سنة ٢٠٠٧، ص ٣١.

ويتصل بهذه الأسباب التي أدت إلى الضعف إغلاق باب الاجتهاد في العلوم الشرعية، ناهيك عن الدنيوية، فجمدت، وأسن نهرها، وكان دفَّاقًا فيما مضى، واقتصروا على مذاهب الفقه المعروفة المستقرة، والشروح حولها والحواشي، ولم ينتبه الدعاة إلى أن النصوص الشرعية تتناهي، والمستجدات الحياتية لا تتناهى، ولا سبيل إلا الاجتهاد المستمر بضوابطه؛ لتنزيل النصوص الشرعية على وقائع الحياة.

كما وسَّعوا مفهوم البدعة ليشمل كل جديد، فخلطوا معناها بمعنى الإبداع الواجب في الحياة، وأساؤوا الظنون بكل جديد مما لم يألفوه، فأساء ذلك الفهم إلى حقيقة الدين الخاتم الذي جاء ليحكم حركة الحياة إلى قيام الساعة.. ووقف بالأمة وخصومها يسابقون إلى ساحات التقدم، ويرتادون عصر البخار فالكهرباء فالذرة فالفضاء.

وسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل فيما يلي:

أ- إهمال العلوم التجريبية:

مما يسترعي النظر تأخر المسلمين في العلوم التجريبية أو العملية في القرون الأخيرة، بالنظر إلى عنايتهم بعلوم الدين التقليدية من تفسير وحديث وفقه، وعلم كلام..

ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين لا نكاد نجد من العلماء المتقدمين في هذه العلوم جملة معتبرة أو أفرادًا يُشار إليهم في تخصصاتهم، صحيح أن التأخر العلمي كان عامًّا في العلوم كلها، وأن العلوم الدينية المشار إليها كانت تعاني الجمود وتفتقر إلى الاجتهاد والتجديد، لكن إهمال العلوم التجريبية كان أشد، وكانت نتائجه شديدة الضرر على الأمة حتى يومنا هذا.

ومن ذلك أنه في سنة ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م أرسلت الدَّولة العثمانية واليًا على مصر، هو أحمد باشا المعروف بكُور وزير - لحول كان في عينه - (حكم ما بين سنتي ١١٦١ -

١١٦٣هـ)، "وكان من أرباب الفضائل، وله رغبة في العلوم الرِّياضية"، ولما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة؛ قابله صدور العلماء في ذلك الوقت، ومنهم الشَّيخ عبد اللَّه الشَّبراوي، شيخ الجامع الأزهر،، فتكلَّم معهم وناقشهم وباحثهم، ثم تكلَّم معهم في الرِّياضيات، فأحْجموا، وقالوا: لا نعرف هذه العلوم، فتعجَّب وسكت، فقال يومًا للشَّيخ الشَّبراوي: "المسموعُ عندنا بالدِّيار الرُّومية أنَّ مصر منبعُ الفضائل والعلوم، وكنتُ في غاية الشَّوق إلى المجيء إليها، فلما جِئْتُها وجدتُها كما قيل: تَسْمع بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تراه!". ودار بينهما حوار اعتذر فيه شيخ الأزهر بأن " غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث؛ كعلم الحساب والغبار، واحتج الوالي بأن علم الفلك أيضًا من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلة، وغير ذلك. فقال: نعم، معرفة ذلك من فروض الكفاية؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط، والرسم، والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، واخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك". وانتهى الأمر بترشيح والد الجبرتي الذي أخذ يتردَّد على الوالي يومين في الأسبوع، فَسُرَّ به الوالي ومدَحه قائلاً: "لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني.. وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له: "سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا، فإنه لولا وجودك كنا جميعًا عنده حميرًا"[1].

وفي سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٧٧م أرسل استفتاء إلى شيخ الأزهر محمد الإنبابي عن مدى جواز تعلم المسلمين العلوم الرياضية والطبيعيات والهيئة والكيمياء. وقد أجاب الشيخ

(١) الجبرتي: **تاريخ عجائب الآثار** ١/ ٢٧٦-٢٧٨.

بأنه يجوز تعلم العلوم الرياضية وعلم الطب والطبيعيات، أما الهيئة (الفلك) فلا يجوز، كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها، ولم يكونوا من مخترعيها، وذوي التفوق فيها[١].

هذا القصور لم يبدأ في التاريخ المذكور، بل حتى العصور الزاهية تستطيع أن تجد في الفقه والحديث أضعاف من برعوا في الفلك والرياضيات والطب والهندسة، ومن يقرأ تراجم علماء المئة الثامنة أو التاسعة مثلاً ستتأكد عنده النتيجة السابقة[٢].

ولهذا جذوره عند كبار علمائنا الذين نظروا إلى العلوم الطبيعية على أنها أقل رتبة ومكانة من علوم الشريعة، فضلاً عن الامتيازات المادية التي كان يضمنها علماء الشريعة وتلاميذهم من وظائف مرموقة، ومخصصات مالية موفورة ضمنتها الأوقاف الزاخرة التي أوقفها أصحابها قربة لله لطلاب العلوم الدينية وعلمائها.

فأبو حامد الغزالي مثلاً – وهو من هو علمًا وأثرًا– يقرر سوء ظن معاصريه بالطبيعيات، ويبدو أن كثيرًا ممن برعوا فيها في عصره كانوا فلاسفة ماديين، أو ممن تأثروا بهم[٣]، فيصف العلوم الطبيعية قائلاً: "وأما الطبيعيات فالحق فيها مشوب بالباطل، والصواب فيها مشتبه بالخطأ، فلا يمكن الحكم عليها بغالب أو مغلوب"[٤].

---

(١) أحمد أمين: **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت)، ص ٧م، محمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، عالم الكتب سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٤٦٨.

(٢) راجع مثلًا ابن حجر العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، ١٩٩٣م، السخاوي: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجبل - بيروت، ط١، ١٩٩٢، الذهبي: **معجم شيوخ الذهبي**، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

(٣) بحسب وصف ابن خلدون للطبيعيين فقد كانوا هم "المقتصرين "على إثبات الأجسام خاصّة، المعرضين عن النّقل والعقل، المعتقدين أنّه ليس وراء الجسم في حكمة الله شيء" (تاريخ ابن خلدون ١/ ٧٠٩).

(٤) الغزالي، محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، **مقاصد الفلاسفة**، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٢.

وأما الرياضيات فيصفها بأنها "أمور برهانية"، لا سبيل إلى جحودها واللجاج فيها، لكن تولدت منها آفتان: الأولى أن الإعجاب بها يقود إلى الإقرار لأهلها بالفضل والعقل، فإذا رأى الناس كفرهم وتهاونهم بالشرع قالوا: "لو كان الدين حقًا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم!..... فهذه آفة عظيمة لأجلها **يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم**.... فقلَّ من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين، وينحلُّ عن رأسه لجام التقوى"، أما الآفة الثانية: فنشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إلى هؤلاء المتشككين أو المعطلين، مما أدى إلى الضد من ذلك، حيث رأى مخالفوهم دقة برهان الرياضيين، وتعصب هؤلاء ضدهم فاعتقد أن الإسلام مبني على الجهل؛ وإنكار البرهان القاطع، فازداد لأهلها حبًا، وللإسلام بغضًا[1].

وهو مع تعلقه بسد ذرائع هؤلاء الجهال؛ يجنح إلى العدل في النظر إليها، ويرى أنها من علوم الكفاية التي يجب على الأمة في مجموعها القيام بها، وتأثم إن ضيعتها[2]، فيقول: "ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية"[3].

ويذكر الغزالي أهمية علم الطب، وأنه لا غنى عنه لحفظ الأبدان التي لا يمكن عبادة الله إلا بها[4]، ولكن الطب أدنى مرتبة عنده من الفقه، حيث نفى الغزالي عن نفسه شبهة الظن أنه يسوي بينهما، وقال: "حاشا لله أن أسوي بين العلمين في الشرف والرتبة"[5]،

---

(١) الغزالي: **المنقذ من الضلال**، تحقيق د. عبد الحليم محمود، نشر دار الكنب الحديثة، القاهرة، (د. ن)، ص ١٤٩-١٥٠، ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) الغزالي: **فاتحة العلوم**، المطبعة الحسينية، القاهرة، ط١، سنة ١٣٢٢هـ ص ٣٨.

(٣) الغزالي: المنقذ من الضلال ص ١٣٩-١٤٠.

(٤) السابق ص ٤٤.

(٥) الغزالي: فاتحة العلوم ص ٤٥.

فإن "التلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد؛ أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد، فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح؛ المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد، وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد؟"[1].

وصحيح أن الشرع لم يتعرض لهذه العلوم بالنفي أو الإثبات، لكنه لفت الانتباه إلى أهميتها في أهم أبواب الدين، وهو باب الاعتقاد، وفي أهم جوانب الاعتقاد وهو إثبات وجود الخالق وتوحيده، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، وقد بلغ عدد الآيات القرآنية التي تحض الإنسان على النظر في الكون ما يربو على (٧٥٠) آية[2].

وقد شغلت قضية المفاضلة بين العلوم، وأيها أشرف مكانة وأعلى درجة كثيرًا من علمائنا في العصور الماضية، ولو أنهم اقتصروا على بيان فروض العلم العينية التي لا يسع المسلم جهلها في دينه، وسوَّوا بين بقية العلوم الكفائية التي تجب على الأمة في مجموعها، مع التنبيه على أولوية ما يعظم احتياج الأمة إليه، لكان أسلم وأولى. لكن أصحاب كل علم فضلوه على بقية العلوم، وحسَّنوا مسائله، وانشغلوا ببيان مزاياه وسجاياه، فزلَّت بهم الأقدام، وطاشت الرؤى، وجنت الأمة الخبال..

ومن ذلك أن العناية الفائقة بعلم الفقه مثلاً استحوذت على كثير من ذوي العقول النابهة، ولما كانت أمهات مسائله قد قررها الأولون؛ فإن كثيرين ممن تلاهم انشغلوا بتشقيق

---

(١) إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (د. ت)، ١/ ٤.

(٢) بحسب إحصاء د. زغلول النجار: **مشكلة التخلف العلمي في العالم الإسلامي**، مقال منشور على موقع مداد، على الرابط https: / /cutt.us /45llF

مسائله، والإمعان في افتراض فرضيات لم تقع، واجترّوا ما قاله السابقون على أنساق متعددة لا تقدم جديدًا، وطفقوا يكتبون الحواشي والشروح على كتب السابقين التي ربما تزيدها غموضًا، وتحتاج بدورها إلى شروح، واكتفوا بشرف العلم عن الاجتهاد فيما يجدُّ من قضاياه، بل تنادوا بإغلاق باب الاجتهاد فيه. فكانوا كما قال كعب بن زهير بن أبي سلمى

ما أَرانا نَقولُ إِلّا رَجيعًا وَمُعاداً مِن قَولِنا مَكرورا

وأمعنوا في افتراض فرضيات لم تقع، في حين تركوا الاجتهاد فيما وقع فعلاً، فخالفوا منهج الأثبات من علماء الصحابة الذين كرهوا الانشغال بما لم يقع عما وقع بالفعل، من ذلك قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " أحرِّج عليكم ان تسألوا عما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلاً"[1]، وقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " لا تسألوا عما لم يكن، فاني سمعت عمر يلعن السائل عما لم يكن"[2]. وكان زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا سئل عن الشيء يقول: كان هذا؟ فان قيل: لا، قال: "دعوه حتى يكون"[3].

فترتب على ذلك أن تضخمت أبواب في الفقه، مثل فقه الطهارة والصلاة، وضمرت أخرى مما تشتد الحاجة إليها، مثل مسائل الإمامة والجهاد وقضايا السياسة والعلاقات الدولية.

بينما أهملت علوم الحياة الدافقة من طب وهندسة وفلك وطبيعيات وغيرها، في حين تقدمت أمم الغرب بعنايتهم بتلك العلوم، وتسخير إمكاناتهم السياسية ومواردهم

---

(١) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك** ٢/ ١٣.

(٢) الخطيب البغدادي: **الفقيه والمتفقه**، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، سنة ١٤٢١هـ، ٢/ ١٢.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ١٣، ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية (د. ت). ١٣/ ٢٦٦، محمد جمال الدين القاسمي: **محاسن التأويل**، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ، ٤/ ٢٦٧.

الاقتصادية في دعمها، ونجحوا في تكسير قيود الكنيسة التي اجتهدت في صد سيلهم الزاخر، فتقدموا وتأخرت شعوبنا، ولم تفدهم الشروح والحواشي، وتشريف بعض العلوم، والغض من علوم أخرى.

ودفعت الأمة أثمانًا فادحة لتأخرها في تلك العلوم، حيث وقفت عاجزة عن صد الطامعين فيها الذين امتلكوا أزمَّة العلم وقوته المادية الكاسحة.

وقد اعتدل الميزان أو قارب الاعتدال في القرن الأخير، إذ اتجه كثيرون من طلاب العلم إلى العلوم التجريبية، وربما كان الدافع الاقتصادي مما قاد إلى تلك الوجهة، إذ علت مكانة المشتغلين بالرياضيات والطب والهندسة، وأجورهم، في مقابل المتخصصين بالآداب واللسانيات والعلوم الدينية، إلا أن تدارك ما فات وإقامة نهضة علمية حقيقية في العالم الإسلامي لم تعد مسألة فردية، نحفز من أجلها آحاد العلماء أو طالبي العلم، بل غدت مرهونة بالإرادة السياسية التي تعاني أغلالاً ثقيلة، والموارد المالية التي يجب أن تخصص للبحث العلمي الرصين الباهظ الكلفة في أحيان كثيرة، وهو ما لا يتحقق في عالمنا الإسلامي، إذ تتوجه موارد الأمة لمسارات أخرى تحتل منازل أعلى عند صناع القرار، يأتي على رأسها حفظ الأمن السياسي والدفاع القومي.. كما أصبح التقدم العلمي مشروطًا بما تسمح به الدول التي سبقت إليه في الغرب، وبما تمليه رؤيتها المتوجسة من أي تقدم حر يظفر به العالم الإسلامي.

ب- الدعوة لإغلاق باب الاجتهاد والجمود الفقهي:

تعالت النداءات بإغلاق باب الاجتهاد الفقهي[1] حوالي القرن الرابع الهجري، وكانت نيات المنادين به تبدو صالحة، بالرغم مما آلت إليه من نتائج وخيمة على الأمة

(١) وتعريف الاجتهاد هو بذل الطاقة من الفقيه في تحصيل حكم شرعي ظنِّي. (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت: **الموسوعة الفقهية**، دار السلاسل، الكويت، ط٢، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ١/ ١٨-١٩).

ودينها.. فقد رأى أصحابها شيوع المذاهب الفقهية واستقرارها، وما صحب ذلك من تعصب مذهبي، وعكوف على نصوص الأئمة والفقهاء السابقين، وإثارة الخلافات المذهبية، والمناظرات والمجادلات الضيقة، والوقوف على الفروع الفقهية والجزئيات الخلافية، مع ضعف الملكات، وغياب الحركة الاجتهادية، وضعف الوازع الديني، حتى وصل الأمر إلى ادّعاء الاجتهاد من غير أهله، ومماألأة الحكام في رغباتهم وأهوائهم، "ولذلك أعلن كثير من العلماء غلق باب الاجتهاد؛ لسد الطريق أمام الجهال أو أنصاف العلماء، للوقوف حصرًا على أقوال المذهب المنتشرة والسائدة، وذلك بحسن نية، ومن باب السياسة الشرعية التي تعالج حالة قائمة، أو أمرًا مؤقتًا، أو فوضى اجتهادية، وظرفًا طارئًا، وليس لها دليل شرعي صحيح، أو حجة قوية، ثم شاع ذلك وانتشر.. وكان من أثر هذه الدعوة، ورفع هذا الشعار أن فترت الهمّة، وجمد النشاط، وخف الاجتهاد إلى أدنى مستواه، وانصرف معظم الفقهاء إلى تدوين الكتب المذهبية والخلافية، واختصارها في متون، ثم وضع الشروح والحواشي عليها"[1].

ولا يعني ذلك أن عصور الإسلام - منذ تصاعد هذه الآراء بإغلاق باب الاجتهاد - خلت من مجتهدين كبار، كان وجودهم قدحًا في دواعي ذلك وضرورته، ومنهم في القرن الثامن الهجري وحده ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) وابن القيم (ت ٧٥١هـ) وشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وفي أخرياته عاش ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)؛ أحد المجددين الكبار في تاريخ الإسلام، ومن المؤكد أن مسيرة الاجتهاد قد تواصلت بالنظر إلى امتداد تاريخ الأمة، واتساع ساحات أراضيها، ورحابة عالمها، لكن الغالب على الفكر الإسلامي آنذاك كان القول بإغلاق باب الاجتهاد.

---

(١) د. محمد مصطفى الزحيلي: **الوجيز في أصول الفقه الإسلامي**، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، سنة ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م، ٢/ ٣٠٤.

وظلت هذه الصيحات بإغلاق باب الاجتهاد تتردد على مدى قرون، حتى عصرنا الحديث لأسباب شتى.. ومن هؤلاء العلماء الكبار سعيد النورسي في "رسالة الاجتهاد"، فبالرغم من أنه يقرر ضرورة الاجتهاد؛ إلا أنه تخوف من انفتاح أبوابه، وانشعاب الآراء بسببه في وقت يحارب فيه الإسلام وأصوله وثوابته[١].

وقد كان تخوف الشيخ له ما يبرره، ففي حمى إعلاء القوميات ودعاوى الوطنية وجدنا من ينادي بإسلام هندي أو تركي أو عربي[٢].

والدعوة إلى إغلاق باب الاجتهاد تخالف طبيعة الإسلام نفسه، فهو الدين الخاتم الذي ينبغي أن يواكب حاجات البشر إلى قيام الساعة، والذي تعهد الله تعالى لأمة الإسلام "أن يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مِئة سنةٍ من يُجَدِّدُ لها دينَها" [٣].. وهو الدين الذي يسعى إلى نشر مبادئه وشريعته وسيادته وسلطانه، "ولا يكون ذلك إلا بالاجتهاد في شرعه الواسع المرن، فترك الاجتهاد هو الذي رد بعضهم إلى البداوة التي قُضي عليها، أو إلى ما يقرب منها، وطوَّح ببعضهم إلى التفرنج والإلحاد، والسعي إلى البعد عن الدين"[٤].

يقول الإمام حسن البنا: "إن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبدًا، وإن كثيرًا من

---

(١) راجع د. وثيق بن مولود و د. عمار جيدل: **وقفات مع رسالة الاجتهاد للأستاذ النورسي**، النور للدراسات الحضارية والفكرية.
NUR Academic Studies on Thought and Civilization. 2013; 7(7)

(٢) د. محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص ٥٢-٥٣.

(٣) حديث" إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مئة سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا"، رواه أبو داود حديث رقم٤٢٩١، وصححه السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ): المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المنتشرة على الألسنة، تحقيق د. محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٥م، ص ٢٠٣، حديث رقم ٢٣٨.

(٤) رشيد رضا: الخلافة ص٨٠.

الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام؛ وتلونت بلونه؛ تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها... لذا يجب أن تُستقى النظم الإسلامية التي تُحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي، معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية، حتى لا نقيد أنفسنا غير ما يقيدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام للبشرية جميعا"[١].

وأدى التنادي بترك الاجتهاد؛ والاكتفاء بالموروث الفقهي وما يتفرع عنه؛ إلى الزهادة في فقه نوازل عصورهم، ثم ضعف ملكة التفكير النابه عندهم، ثم العجز عن مواجهة التحديات العلمية الثائرة في زمانهم، مما باعد بالتدريج بينهم وبين حكام زمانهم، والمتصدرين للتشريع والسياسة والمال.. فآلت الأمور إلى "استبدال بعض القوانين الإفرنجية بالشريعة الإسلامية، تقليدًا، ثم تشريعًا"[٢]، وأدى إبعادُهم عن تيار الحياة الزاخر من حولهم إلى أن أصبحوا "أجهل أهل بلادهم بالفنون المالية، وبما يرتبط بها من الأمور السياسية"[٣]، حتى تأسى خير الدين التونسي (١٨٢٠-١٨٩٠م) - الوزير الأول في تونس؛ ثم الصدر الأعظم في الدولة العثمانية - على حالهم في زمانه، فقال: "أفيحسن من أُساة -قدوات - الأمة الجهل بأمراضها؟"[٤].

فلا عجب أن تباعدت السبل بين السلاطين والعلماء، فالعلماء جعلوا غاية هممهم "مدارسة الكتب التي أُلفت للأزمنة الماضية، التي كانت دار الإسلام فيها ذات استقلال

---

(١) رسائل الإمام حسن البنا ص ٢٨٨.

(٢) رشيد رضا: المرجع السابق ص٨٨.

(٣) رشيد رضا: المرجع السابق ص ٩٥.

(٤) خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص ٨. أُساةُ الأمة: مداووها ومعالجوها، وهم المصلحون.

ومنعة"[1]، وتجاهلوا نصيحة شهاب الدين القرافي المالكي (ت ٦٨٤هـ) وهو يقول:" ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك"[2].. واستراحوا إلى الاسترزاق من أموال الأوقاف التي دأب أصحابها على وقفها لأصحاب المذاهب الفقهية الجامدة، فأصبحت أزمَّتها بأيديهم، والسلاطين أسعدهم فضح جهل هؤلاء العلماء بالواقع السياسي والاقتصادي والتشريعي المتجدد، وتغييبهم عن مشكلات الأمة ومصالح الرعية، وتوجيه الحكام بشأنها، والإنكار عليهم إن جاروا وبغوا.. "على أن مقلدة المذاهب لا تكاد تطلب الحكومة منهم شيئًا إلا ونجد فيهم من يفتيها؛ ولو بالتأويل والخروج عن صحيح المذهب. إذن لا يمكن خروج الأمة الإسلامية من جحر الضب الذي دخلت فيه إلا بالاجتهاد"[3].

ولا ريب أن الاجتهاد يحتاج إلى أدوات لا يملكها إلا أهله، أما عامة الناس فلهم اتباع مذاهبهم.. وعبر الأستاذ حسن البنا عن ذلك الموقف الوسطي الواجب بقوله: "ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إمامًا من أئمة الدين، ويحسن به – مع هذا الإتباع – أن يجتهد ما استطاع في تعرُّف أدلة إمامه، وأن يتقبّل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى صحَّ عنده صلاح مَنْ أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر"[4]؛ أي القدرة على الترجيح والاجتهاد ولو جزئيًا.

جـ- التوسع في مفهوم البدعة والخلط بينها وبين الابداع:

الإبداع: إنشاء صَنعة بلا احتذاء واقتداء[5]، .....

(١) راجع رشيد رضا: السابق ص ٩٦.

(٢) القرافي: **الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)** عالم الكتب، (د.ت)، ١/ ١٧٦.

(٣) رشيد رضا: السابق ص ٩٧- ٩٨.

(٤) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** ص٢٣٦.

(٥) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٢ ص ١١٠-١١١.

ومنه حديث" كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"[1]، وتتعدد آراء العلماء في مفهوم البدعة[2]، "والتحقيق: أنها إن كانت مما يندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما يندرج تحت مستقبح فهي مستقبحة، وإلا فهي من قسم المباح"[3].

إن هذا الفهم لمعنى البدعة في الدين، وصدهم عنها، والتفريق بينها وبين الإبداع في أمور الدنيا ومصالح الخلق، وحضهم عليه، قد تعرض لتشويه كبير في عصور الضعف والتراجع، بل كان من أبرز أسبابه.. ومما أدى إلى مخاصمة العلوم والتقنيات، ثم وسم الإسلام نفسه بأنه دين رجعي منغلق، يحول بين أتباعه وآفاق الحضارة الرحيبة، وأنه لا سبيل لانطلاق الأمة من عقالها، ولحاقها بركب العالم المتقدم إلا بالانسلاخ من الدين كله.

نماذج لكراهية الجديد:

ومن خلال الفهم الخاطئ لمفهوم البدعة تولَّد الحذر من كل جديد ومخترَع!، بل تحريمه وتجريمه! كما سنرى..

---

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تحفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٢، حديث رقم ٨٦٧.

(٢) راجع في تفسيرات العلماء لمعنى البدعة: علي محفوظ: الإبداع في مضار الابتداع مكتبة الرشد، الرياض، ط١، سنة ٢٠٠٠م، ص ٢١-٢٦، ويرى بعض علمائنا أن البدعة ما كانت في أمور الدين، دون أمور الدنيا التي لا بد فيها من تجديد وإبداع، ما دام لا يخالف الشريعة، وفي ذلك يقول ابن رجب: "المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، أما ما كان له أصل يدل عليه، فليس بدعة شرعًا، وإن كان بدعة لغة"، (جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، سنة٢٠٠١م، ٢/ ١٢٧)، ويرى آخرون أن كل محدثة بدعة، سواء كانت من أمور الدين أو الدنيا، وأن "البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم" على حد قول الشافعي (أبو نعيم: حلية الأولياء، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٩٧٤م، ٩/ ١١٣، ابن رجب: المصدر السابق ٢/ ١٣١)، ومنه قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "نعم البدعة هذه"، لما جمع المسلمين على صلاة التراويح في رمضان، فجعلها شعيرة دائمة، ولم يكن النبي صلوات الله عليه قد جمعهم عليها (البخاري: صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان ٢/ ٧٠٧).

(٣) فتح الباري ٤/ ٢٥٣.

موقف المماليك والعثمانيين من التجديد في أدوات القتال ووسائله:

ومن الأمثلة المثيرة للشفقة والعجب معًا موقف آخر سلاطين المماليك من استعمال البنادق في الدفاع عن دولتهم!

ويحكي ابن زنبل - الذي أرخ آواخر أيام المماليك - أن رجلاً مغربيًا جاء للسلطان قنصوة الغوري، وأخبره عن قوة سلاح البندقية، وأنه قد "استعملها عساكر الروم والعرب، فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه، ففعل، وجيء بهم، فرموا بحضرة السلطان، فساءه ذلك، وسيء بهم، وقال للمغربي: **نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى**، وقد قال مولانا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٠] فرجع ذلك المغربي وهو يقول: من عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية، وقد كان كذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"(١).

وظل ذلك موقف المماليك بعد أن قتل الغوري وسيطر العثمانيون على الشام سنة ١٥١٦م، ثم تقدموا نحو مصر وهزموا سلطانها طومان باي في العام التالي، وجرى شنقه، وتفرق جيشه، وأسر بعض قادته، ومنهم "كرتباي" الوالي، فلما اقتيد إلى مجلس السلطان العثماني سليم جرت بينهما محاورة، فكان مما قال للسلطان مبررًا انهزامهم أمام قوة البنادق العثمانية: "هذه هي البندق التي لو رمت بها امرأة لمنعت بها كذا وكذا إنسانًا، (أي لقتلتهم)، ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا إليه، ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد، ويا ويلك كيف ترمي بالنار على من يشهد لله بالوحدانية؛ ولمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة؟"(٢).

---

(١) ابن زنبل الرمال: **آخرة المماليك** تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٩٨م، ص ١٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩-١٤٠.

وقد عاير أحد أمراء المماليك - واسمه شار بك- السلطان سليم قائلاً: آه يا جبان يا ابن الجبان، يا من يقاتل المسلمين بالنيران"[١].

والغريب أن المماليك كانوا يستعملون المدافع، وقد جهزها طومانباي لحرب السلطان سليم الأول لما هاجم مصر، إلا أنه لم يستطع ذلك؛ إذ نصحه أحد كبار قادته المخادعين بإخفائها في الرمال حتى لا يكتشفها جواسيس العدو، ثم أفشى سرها للعثمانيين ليتجنبوا آثرها[٢]، فكيف يتحرجون من استعمال البنادق حتى تحصد جنودهم؟ ويقول مؤرخهم: "ما ضرهم إلا البندق، فإنه يأخذ الرجل على حين غفلة، لا يعرف من أين جاءه، فقاتل الله أول من صنعها، وقاتل من يرمي بها على من يشهد لله بالوحدانية، ولرسوله ﷺ بالرسالة"[٣].

ولا غرابة أن نجد التفكير ذاته عند بعض فرق الجيش العثماني نفسه، فقد كانت فرقة السباهية - أي الفرسان العثمانيين المدرعين - آنذاك يتسلحون بالسيف والرمح والقوس، ويرون أن استخدام الأسلحة النارية لا يليق بشجاعة الفرسان- بظنهم- ويلاقون العنت أمام المشاة الألمان المسلحين بالأسلحة النارية، حتى أصلح السلطان سليمان القانوني ذلك الخلل، بتقليل أعدادهم، وزيادة أعداد المقاتلين بالبارود والمدافع بالأسلحة النارية[٤].

وهل من تفسير لذلك سوى التمسك بتقاليد بالية في القتال، ورفض التجديد دون تعقل، وإسناد ذلك الخبال إلى أنه سنة الرسول صلوات الله عليه وصحبه الكرام؟ بينما يأمر الله تعالى في قرآنه قائلاً: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ورسولنا ﷺ قد حفر الخندق في حرب قريش والأحزاب؟ أخذ ذلك

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٧-١٢٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٥.
(٤) راجع د. خليل إينالجيك: **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار** ص ٧٨-٧٩.

عن الفرس، وتلك حيلة لم يكن للعرب بها عهد، كما قال زعماء قريش، واتخذ المنجنيق في حصار الطائف، وفي حرب خيبر.

واستمر التخلف العلمي يأتي بثماره المرة حتى القرون الأخيرة، فلما نشبت الحرب الروسية العثمانية سنة ١٧٦٨م قيل للعثمانيين: إن الروس عزموا على جلب أسطول لهم من بحر البلطيق؛ ليعززوا به قوتهم البحرية، فرفض العثمانيون - الذين غفلوا عن تطور علم الجغرافيا ووسائل الانتقال البحري - أن يصدقوا أن ثمة طريقًا بحريًا يصل ما بين بحر البلطيق والبحر المتوسط، حتى باغتهم الأسطول بالفعل[١].

موقف الخلافة العثمانية من استعمال آلات الطباعة:

قامت الطباعة بدور حاسم في التطور البشري، والنهوض الثقافي والمعرفي، إذ نقلت النتاج العقلي المكتوب من مرحلة النتاج المحدود للنسَّاخين والورَّاقين إلى مرحلة النتاج الكثيف للمطابع الآلية. لكن الفتاوى المتعجلة والخاطئة حالت دون لحاق المسلمين بركب التقدم عقودًا من الزمن.

لقد طُبع أول كتاب في الغرب بالحروف اللاتينية ما بين عامي ١٤٤٠م و ١٤٥٠م، أما أول كتاب مطبوع بالحروف العربية فقد ظهر عام ١٥١٤م في مدينة فانو بإيطاليا[٢].

وفي عام ١٤٩٣ أسس بعض اليهود الفارين من الأندلس - بعد سقوط غرناطة - أول مطبعة في عاصمة الدولة العثمانية إبان حكم السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢م)، الذي أصدر فرمانًا يحرم الطباعة على رعاياه المسلمين، بينما سمح لليهود والمسيحيين بإنشاء

---

(١) أرنولد توينبي: **مختصر دراسة للتاريخ** ٣/ ٣١٢.

(٢) سليم نزهت: **تاريخ الطباعة في تركيا ١٧٢٩-١٩٢٩م**، ترجمة وتعليق سهيل صابان، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٣هـ، ص ١٠-١١.

مطابعهم داخل الدولة العثمانية؛ شريطة عدم استعمال الحروف العربية. فأسس الأرمن أول مطبعة لهم سنة ١٥٦٧م، وأسس الروم اليونانيون أول مطبعة لهم سنة ١٦٢٧م[١].

أما اشتراط السلطان بايزيد عدم استعمال الحروف العربية في الطباعة فجاء تلبية لبعض الفتاوى التي ذهبت إلى تحريم طباعة القرآن الكريم والكتب الشرعية، مخافة أن يؤدي استعمالها إلى الخطأ في كتابة آيات القرآن العظيم، أو كتب العلوم الشرعية، وشيوع تلك الأخطاء بسبب سرعة انتشار المطبوعات، وكذلك إمكان تسبب الاعتماد على الكتب المطبوعة في إضعاف ملكة الحفظ والاستظهار التي امتاز بها علماء المسلمين.

ومن هذه الفتاوى فتوى الفقيه المغربي محمد بن إبراهيم السباعي الذي خط وثيقة سماها "رسالة في الترغيب في المؤلفات الخطية، والتحذير من الكتب المطبوعة، وبيان أنها سبب في تقليل الهمم، وعدم حفظ العلم ونسيانه"، ومن الواجب أن يضاف إلى هذه الهواجس تلك النظرة الضيقة التي تراعي مصالح جماعات من الخطاطين، رأوا في الطباعة سببًا لكساد مهنتهم، والخط من أقدارهم كجماعة متميزة في السُلَّم الاجتماعي. وكان علينا أن ننتظر ثلاثة قرون منذ بدء الطباعة حتى أصدر السلطان "أحمد الثالث" فرمانا سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م - بموافقة شيخ الإسلام- يقضي بتأسيس مطبعة لطباعة الكتب باللغة التركية، لكنها غير مسموح لها بطباعة الكتب الدينية.. وظلت الأمور تتراوح بين الموافقة على الطباعة والمنع، حتى عصف الانفتاح على أوروبا في النهاية بتلك المخاوف[٢].

---

(١) سليم نزهت: المرجع نفسه ص ٢١-٢٢.

(٢) برنارد لويس: ظهور تركيا الحديثة ص ٦٥، ٧٣-٧٤، ٢٣٦، شكيب أرسلان: **تاريخ الدولة العثمانية** ص ٢٤٤، حسن الوزاني: **تحريم الطباعة**، مقال بجريدة العرب، بتاريخ ٢٣ يوليو ٢٠١٦م، تم الاطلاع عليه بتاريخ ٦/ ١/ ٢٠٢٢ الساعة ١٠ ,٦، وراجع **الطباعة في العهد العثماني بين الافتراءات والحقيقة**، مقال بموقع ترك برس، تم الاطلاع عليه في التاريخ المذكور، ورابطه:
https://www.turkpress.co/node/43195

أما في مصر فقد تأخر ظهور المطبعة حتى الحملة الفرنسية، حيث جلبها نابليون في غزوته سنة ١٨٩٧م لطباعة منشوراته الدعائية، وكتابات المستشرقين المرافقين له، وتيسير أمور حربه[١].. وفي سنة ١٩٢١م أنشئت المطبعة الأميرية، بقرار من محمد علي باشا لتكون أحد أسباب النهضة التي أرادها والي مصر.

لقد أدت التخوفات المبالغ فيها- والإسراف في باب سد الذرائع، والتسرع في إصدار الفتاوى - دون معرفة حصيفة بالواقع، أو نظر سديد إلى المآلات - إلى تأخر المسلمين في الأخذ بأسباب النهوض قرونًا من الزمن..

٣- الأسباب الخارجية للتخلف العلمي:

أ- اجتذاب العقول الإسلامية إلى الغرب وهجرتها إليه:

تشير دراسات عائدة إلى سبعينات القرن الماضي إلى أن الوطن العربي يُساهم بنحو ٣١٪ من الكفاءات والعقول المهاجرة من الدول النامية، كما أن نحو ٥٠٪ من الأطباء و٢٣٪ من المهندسين و١٥٪ من العلماء من مجموع الكفاءات العربية، يهاجرون متوجِّهين إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا بوجه خاص. وتوضِّح هذه الدراسات أن نحو ٧٥٪ من الكفاءات العِلمية العربية مُهاجرة إلى ثلاث دول غربية بالتحديد وهي: بريطانيا وأمريكا وكندا [٢].

وتزايد معدل هجرة العقول إلى الغرب بسبب اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية والمجتمعية في العالم الإسلامي، مع توافر الإغراءات المالية والعلمية والاجتماعية في

---

(١) راجع جون ماري كاريه: **مختارات من كتاب رحالة وأدباء فرنسيون في مصر** ص ٢٢٩، د. زينب عبد العزيز: **مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس** ص ١٤.

(٢) راجع د. أنطونيوس كرم: العرب أمام تحديات التكنولوجيا، عالم المعرفة(٥٩)، الكويت، سنة ١٩٨٢م، ص١٠١، أنطوان زحلان: **هجرة الكفاءات العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٤، ص ٢٣-٢٤.

بلاد المهجر.. فقد هاجر أكثر من سبع مئة وخمسين ألف عالم عربي إلى الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٧٧م، حتى سنة ٢٠٠٦م. وتشير التقارير إلى أن أربعة وخمسين بالمئة (٥٤٪) من الدارسين والطلاب العرب والمسلمين الذين يدرسون في الدول الغربية يستقرون فيها، ولا يعودون إلى أوطانهم.. وأن أربعة وثلاثين بالمئة (٣٤٪) من الأطباء الأكفاء في بريطانيا ينتمون إلى الجاليات العربية، وأن مصر وحدها قدمت في السنوات الأخيرة ستين بالمئة (٦٠٪) من العلماء إلى الولايات المتحدة، وقدمت العراق ولبنان خمسة عشر بالمئة (١٥٪) من علمائها.. ووفقا لإحصاء- الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء المصري سنة ٢٠٠٣م يقدر عدد المصريين المتميزين من الكفاءات والعقول التي هاجرت بثمان مئة ألف وأربعة وعشرين ألفا (٨٢٤,٠٠٠)، وتتضمن الأرقام السابقة تخصصات مختلفة، يدخل بعضها دائرة التخصصات الاستراتيجية والحرجة؛ مثل الطب النووي والعلاج بالإشعاع والجراحات الدقيقة، والهندسة النووية والوراثية والإلكترونية والميكروإلكترونية، وعلم تكنولوجيا الأنسجة والفيزياء النووية، وعلوم الليزر، والفضاء، والميكروبيولوجيا والعلوم الإنسانية والاقتصادية والعلاقات الدولية[1].

ومن الجليِّ أن أعداد الكفاءات المهاجرة من العالم الإسلامي إلى الغرب قد تفاقمت في الألفية الجديدة إثر الاضطرابات السياسية والثورات الشعبية والانقلابات العسكرية والتدخلات الأجنبية، ناهيك عن استهداف تلك الكفاءات بالقتل المنظم والاغتيالات

(١) توزع الكفاءات المصرية المهاجرة من العلماء والخبراء الذين يعملون في مختلف التخصصات، وفقا لأكاديمية البحث العلمي هكذا: أحد عشر ألفا (١١,٠٠٠) في تخصصات نادرة، وأربعة وتسعون (٩٤) عالما في الهندسة النووية، وستة وثلاثون (٣٦) في الطبيعة الذرية، وثمانية وتسعون (٩٨) في الأحياء الدقيقة، ومئة وثلاثة وتسعون (١٩٣) في الإلكترونيات والحاسبات والاتصالات. وتحظى الولايات المتحدة بالنصيب الأكبر من الكفاءات والعقول المصرية بنسبة تسعة وثلاثين بالمئة (٣٩٪)، تليها كندا بنسبة أربعة عشر بالمئة (١٤٪)، وإسبانيا في المؤخرة بنسبة أثنين بالمئة (٢٪). (راجع د خالد حربي: **هجرة العقول والكفاءات معادلة حضارية**، كتاب الأمة، ص ١٢٤-١٢٥.

الممنهجة لأسباب سياسية وطائفية؛ كما رأينا في حالات علماء العراق وسوريا ومصر وفلسطين وليبيا واليمن.

ولا يجوز الانصراف عن المخاطر التي تحتوش هؤلاء المبعوثين في بيئات ثقافية؛ ومنظومات اجتماعية وتربوية؛ تخالف القيم الإسلامية، والميراث الاجتماعي الذي أَلِفه هؤلاء المبعوثون، فلا غرابة إذن أن نجد الانبهار الشديد بالغرب وحضارته، تمتزج مع النقمة البالغة على تردي الأوضاع في بلادنا، وتلك مشاعر متوقعة لدى شباب لم يُحصنه العلم ولا التربية في بلده، ولم يدرك مزالق الحضارة الغربية، ولم تتكشف أمام ناظريه سوءاتها، وجنايات الغرب الاستعماري على بلاده، وأنه كان أهم أسباب نكباتها، وأن التخلف العلمي الذي تعانيه بلاده هو نتيجة منطقية لسياسات الغرب تجاهها.

ولا شك أن توليد وتغذية وترسيخ هذه المشاعر والأفكار الخطيرة لدى المبتعَثين من بلاد الإسلام كان عملاً غربيًا مخططًا له. ولنا أن نستحضر هنا مقولة المستشرق الفرنسي ماسينيون: "إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يُلوَّنوا بالمدنية المسيحية"[1].

ويزداد الأمر سوءًا إذا علمنا أن كثيرًا من هذه الكفاءات لا تجد لها مكانًا مناسبًا في الغرب، فتضطر إلى الرضا بما لا ترضاه في بلدها، فقد تمكن ٤٧٪ من المهاجرين من تونس و ٤٣٪ من مصر – فقط – من الحصول على مهن تناسب مهاراتهم[2]، مما يعني أن أكثر من نصف هذه العقول المهاجرة تعجز عن تحقيق طموحات تناسبها في الوطن الأم والمهجر على السواء.

---

(١) خالدي وفروخ: مرجع سابق ص ٨٩.

(٢) الإسكوا: مرجع سابق ص ٣٠.

وينبغي ألا نسرف في لوم هذه العقول المهاجرة، ونشكك في صدق ولائها الوطني أو الديني، فمن الإنصاف أن نتوجس في أن يكون لتلك العقول المهاجرة تأثير إيجابي في البلاد التي هاجرت منها؛ فيما لو بقيت فيها، إذ سيكون مآلها الانكماش والعطالة؛ كالعقول التي لم تهاجر، وذلك بحسبان أنّ المناخ العامّ في تلك البلاد غير مساعد على الانطلاق في سبيل الريادة والابتكار والعطاء، وهو ما كان أحد أسباب هجرتها إلى بلاد يتوفّر فيها ذلك المناخ[١]. كما أنّ هذه الكفاءات تبحث عن الفضاء الذي تجد فيه أقدارًا من الاحترام لعلمها، وضمانًا لكرامتها، حيث يشعر أصحاب هذه الكفاءات في كثير من الحالات بالغربة داخل الوطن[٢]..

وتتعدد العوامل الداخلية التقليدية الطاردة للعلماء، ومنها ضعف العوائد المالية، والميزانيات العلمية، حيث تتدنى نسب الإنفاق الحكومي على التعليم في كثير من البلدان الإسلامية[٣]، وتقل فرص الترقي النزيهة المبرأة من الفساد، ويعظم التضييق السياسي للمخالفين في الرأي والمذهب، والمعارضين في السياسة، ويتشابك الاستبداد السياسي والفساد الداخلي في التأثير الطارد للإبداع والقاهر للعلم، فالحريات بأشكالها المختلفة تعد أبرز سمات البيئات المحفزة للمعرفة، فكل بيئة تمكينية راعية للحريات توفر إطارًا ملائمًا لقيام مجتمع المعرفة[٤].

---

(١) د. عبد المجيد النجار و د. محمد الغمقي و د. محمد المستيري: **البعد الحضاري لهجرة الكفاءات**، كتاب الأمة العدد ٨٩، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ - أيلول (يوليو)- آب (أغسطس) ٢٠٠٢م، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٧.

(٣) تقرير المعرفة العربي للعام ٢٠٠٩م، تصدره مؤسسة محمد بن راشد المكتوم بدبي بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية، سنة ٢٠٠٩، ص ٧٢.

(٤) تقرير المعرفة العربي للعام ٢٠٠٩م، ص ٥٣-٥٤.

في حين نجد العوامل الجاذبة لهم في الغرب كاحترام العلماء، والتقدير الأدبي والمادي لهم، وانفتاح أبواب الحياة الكريمة أمامهم، وتوفر ميزانيات البحث العلمي ووسائله، وأجواء الترقي العلمي وآفاقه.. وغير ذلك[1].

ولنا أن نتصور حجم الجهود التي بذلت لتربية وتعليم هذه الألوف من العلماء ومشاريع العلماء، وتقديمها جاهزة للغرب، ومبلغ الخسارة التي تكبدها عالمنا الإسلامي بخسارة العطاء المنتظر من هؤلاء العلماء..

محاولات الإفادة من العقول المهاجرة:

ويشير بعض الناصحين إلى ضرورة الإفادة من ظاهرة هجرة العقول إلى خارج العالم الإسلامي، وبخاصة إزاء العجز عن منعها أو ترشيدها، ويرون بحق أنها من الممكن أن تقوم بدور حضاري في بلاد المهجر، من حيث تصحيح المفاهيم والتصوّرات الخاطئة عن الإسلام والمسلمين سواء لدى عامة الناس، أو مع المراكز البحثية ودوائر اتخاذ القرار، والدفاع عن قضايا العالم الإسلامي وحقوقه، وترشيد أداء الجاليات المسلمة هناك، فضلاً عن القيام بالفريضة الدينية والبعد الرسالي المنفتح على تلك المجتمعات[2].

وقد استطاعت بعض الدول الإفادة من الكفاءات العلمية المهاجرة منها بطرق شتى، منها دعوة هؤلاء العلماء إلى المؤتمرات العلمية بالداخل، أو ألقاء محاضرات في جامعاتها، أو تنفيذ برامج علمية بين المراكز البحثية في الوطن الأم والجامعات والمراكز التي يعمل بها العلماء المهاجرون، وبناء شبكات بحثية عالية المستوى بين علماء الداخل والمهجر، أو استقدام بعض تلك الخبرات الكبيرة لتولي وظائف قيادية في مشروعات

(١) راجع أنطونيوس كرم: العرب أمام تحديات التكنولوجيا ص ١٠٣-١١١.

(٢) عبد المجيد النجار و د. محمد الغمقي و د. محمد المستيري: البعد الحضاري لهجرة الكفاءات، ص ٨١.

ومؤسسات التنمية بالداخل، وقد قامت بعض الأقطار مثل ماليزيا وتركيا ولبنان والمغرب العربي بمحاولات ناجحة في ذلك المجال[1].

ب- الحصار العلمي للعالم الإسلامي:

ولا ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أننا نقف أمام التلاقح الفكري بين الشرق والعرب، أو التعاون العلمي بينهما، أو ننكر دور هجرات العلماء عبر التاريخ في النقل الحضاري والتقدم الإنساني.. ولكننا ننكر التفريغ المنهجي المتعمد للأمة من علمائها بالترغيب المالي لمن يستجيب منهم، أو القتل والاغتيال لمن يمثل خطرًا على المشروع الغربي الصهيوني، أو يتمنع عن التماهي فيه.. والأمثلة على ذلك تطول.

والأدلة على حرص الغرب على حجب التقنية العالية والعلوم المؤثرة بقوة في التقدم العلمي للمسلمين واضحة، ومن ذلك الجهود الغربية التي بذلت لمنع الباكستان المسلمة من إنتاج قنبلتها النووية، ثم معاقبة باكستان بعد نجاح جهودها وإنتاج قنبلتها، وتدمير الكيان الصهيوني المفاعل النووي العراقي لحرمان العراق من السلاح النووي، وما قامت به أمريكا والغرب من حصار للعراق، ثم عدوان متكرر حشدت له أكثر من ثلاثين دولة بحجة منعه من إنتاج السلاح الكيميائي والنووي، وما قامت به أمريكا والغرب والصهيونية العالمية من تعقب علماء الذرة العراقيين إثر احتلال العراق أمر معروف.

ناهيك عن فرض التخلف الاقتصادي والفساد السياسي والاجتماعي، والصراعات الطائفية والعرقية، والاضطرابات الداخلية، والحروب بين الدول الإسلامية.. كل ذلك مما أسهم في إلهاء العالم الإسلامي عن التفرغ لنشدان التقدم العلمي، ولا سبيل للنهضة إلا به.

---

(١) راجع الإسكوا: مرجع سابق ص ٣١-٣٤.

ولا مرية في أهمية البحث عن وسائل لاختراق ذلك الحصار العلمي، مع المحافظة على علماء المسلمين من الأخطار المحدقة بهم، وقد نجحت بعض الدول الإسلامية في ذلك حين توفرت فيها الإرادة السياسية، فأنتجت باكستان قنبلتها النووية، وحافظت على علمائها العاملين في مجالها، غير أنها لم تواصل السعي في إحداث نهضة علمية شاملة. وقطعت ماليزيا وتركيا شوطًا في إحراز تقدم تقني واقتصادي.

المبحث الثاني

بين إقصاء الشريعة وإفساد الأخلاق وهدم الأسرة

أولاً: إقصاء الشريعة الإسلامية:

جاءت محاولات إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية واستبدال القوانين الغربية بها متزامنة مع تعاظم التأثير الغربي؛ والغزو الفكري والهيمنة السياسية والاقتصادية للغرب، ثم تحقق الإلغاء العملي للحكم بالشريعة مع بدايات الاحتلال العسكري الغربي للعالم الإسلامي، وكانت محاولات الإحلال أو التغيير لتلك التشريعات مبكرة؛ تجري بمجرد اطمئنان الاحتلال إلى ابتلاعه هذه البلاد المنكوبة به، وبمن أجهزوا عليها من حكامها، حتى غدت فريسة سهلة للاستعمار؛ العليم بحقيقة تأثير الإسلام على أتباعه، والساعي بعد ذلك إلى تحجيم ذلك التأثير بإضعاف عقائده، وتغييب شرائعه.

في الهند:

كانت الهند أول بلد تلغي فيه الشريعة الإسلامية ويستبدل بها القوانين الوضعية، فحتى سنة ١٧٩١م كانت الحدود الشرعية تطبق في البلاد، ثم أخذ الإنجليز يلغون أحكام الشريعة بالتدريج، وما إن وصلنا إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي إلا كانت الشريعة قد ألغيت، وحلت القوانين الغربية محلها، عدا تلك المتعلقة بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وأحكام الأسرة[1].

(١) د. محمد موسى الشريف: **القصة الأليمة لتنحية الحكم بالشريعة وآثارها وبيان محاولات استعادتها** مركز إبصار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٧م، ص ٣٢-٣٣.

في مصر:

وفي مصر كانت أولى محاولات الاستعمار تغيير الشريعة الإسلامية الحاكمة أيام الحملة الفرنسية على البلاد، حيث قام الجنرال مينو Menou القائد الثالث للحملة بإلغاء قوانين المواريث الإسلامية، والقانون الجنائي الإسلامي[1].

وفي أثناء حكم الخديوي إسماعيل (بن إبراهيم باشا بن محمد علي، حكم بين سنتي ١٨٦٣-١٨٧٩م) اتخذ قراره بإنهاء العمل بأحكام الشريعة عدا ما يختص بالأحوال الشخصية، ولا عجب فقد كان إسماعيل مفتونًا بالحضارة الغربية منذ أرسله أبوه وهو صبي في الرابعة عشرة إلى فيينا ليستكمل تعليمه بها، وقد بقي فيها مدة عامين، ثم التحق بالبعثة المصرية الخامسة إلى باريس لينضم إلى تلاميذها.

تلخصت آمال الخديوي إسماعيل في أن يجعل بلاده جزءًا من أوروبا في مدنيتها وقيمها الاجتماعية.. وفي سبيل ذلك أغرق البلاد في الديون الربوية التي أدت إلى مزيد من التدخل الأجنبي توطئة للاحتلال العسكري البريطاني[2].

وفي أجواء التدخل الأجنبي في البلاد، تم إنشاء المحاكم القنصلية، وهي محاكم تابعة لقنصليات الدول الأجنبية المتعددة، وكان لها سلطة الحكم في ما يرتكبه رعايا الدول الأجنبية، أو يقيمونه من دعاوى ضد الأفراد أو الحكومة المصرية، وكان كل قضاء يحكم بقانون بلده، وبلغ عدد تلك المحاكم القنصلية سبع عشرة محكمة؛ تمثل سبع عشرة دولة تتمتع بالامتيازات الأجنبية، ولم يكن من الجائز الطعن في أحكامها إلا أمام محاكم الاستئناف في البلاد الأجنبية التابع لها القاضي القنصلي..

---

(١) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص ٤٥٣.

(٢) د. عبد الستار فتح الله سعيد: **الشريعة الربانية المعجزة والقوانين الوضعية العاجزة** ص٣٣، شركة منارات للإنتاج الفني والدراسات، القاهرة، ط٢، سنة ٢٠١١.

ولما جاء الخديوي إسماعيل حوَّل هذه المحاكم القنصلية إلى ما سمي بالمحاكم المختلطة، وأصبحت تبعيتها للدولة المصرية، لكن أغلب قضاتها كانوا من الأوروبيين الذين يحكمون بالقانون الفرنسي، وعلى ذلك فإنه بدلاً من أن يكون الأجانب خاضعين للقضاء المصري أصبح القضاء المصري خاضعا للأجانب، وظلت هذه المحاكم قائمة حتى سنه ١٩٤٩. ولما قدم الاحتلال الإنجليزي إلى مصر سنه ١٨٨٢ سرعان ما ترجم القانون الفرنسي إلى اللغة العربية[١]، وجعلوه قانونًا عامًا للمحاكم الأهلية التي يتحاكم إليها المصريون سنة ١٨٨٣م، وبذلك تم استبعاد الشريعة الإسلامية من جميع جوانب التقاضي عدا الأحوال الشخصية، وتم فصل الدين عن الدولة، وأصبحت كليات الحقوق تدرس هذه القوانين، وتوفد طلابها لتعلم هذه القوانين في الغرب، وأبيح الربا واستشرى الفساد الأخلاقي، حيث أصبحت دور البغاء وحانات الخمور ومحلات القمار، وبيوت المراهنات مرخصة، وشاعت الملاهي والمراقص[٢].

ثم ألغيت المحاكم الشرعية في سبتمبر سنة ١٩٥٥م، وأدمجت اختصاصاتها في المحاكم العادية في مسائل الأحوال الشخصية فقط[٣].

في تركيا:

أما في تركيا – بلد الخلافة الإسلامية– فقد احتاج الأمر إلى تمهيد طويل، ولما لم يُجد نفعًا، تدخلت القوة العسكرية لفرض الأمر الواقع الجديد.

فقد انفتحت أبواب التغريب منذ حكم السلطان محمود الثاني (حكم من ١٨٠٨–١٨٣٩م) بعدما أدرك كارثة التخلف الكبير عن الغرب، ولقي الهزائم الشنيعة أمام الروس وفي مواجهة عامله على مصر محمد علي باشا.

(١) وذلك لأن القانون البريطاني غير مكتوب، ويعتمد على سوابق قانونية ومصادر أخرى.

(٢) د. عبد الستار سعيد السابق ٣٤–٤١، د. محمد بن موسى الشريف: القصة الأليمة لتنحية الحكم بالشريعة ص ٤٨–٥١.

(٣) د. محمد بن موسى الشريف: المرجع السابق ص ٥٦.

وفي عهد ابنه السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١م) جرت محاولات لإدخال القوانين الغربية، لكنها ما لبثت أن قضى عليها الوعي عند العلماء، والالتزام الديني عند العامة، فقد أنشئت محكمة عدل خاصة للفصل في المنازعات التجارية، يحكمها قانون مستمد من القانون الفرنسي، وذلك سنة ١٨٤١م، فاعترض الفقهاء، ووأدوا تلك المحاولة، بل أدى اعتراضهم إلى قيام السلطان عبد المجيد بعزل وزيره مصطفى رشيد الذي تبنى هذا القانون[١].

لكن الوزير المعزول عاد إلى وزارته سنة ١٨٤٥، وفي عام ١٨٤٧م تشكلت المحاكم المختلطة المدنية والجنائية، بأعداد متساوية من القضاة الأوربيين والعثمانيين، وبقوانين مستمدة من الممارسات الأوروبية، وأصدر سنة ١٨٥٠ القانون التجاري الذي عجز عن إصداره سنة ١٨٤١[٢]، ثم صدر قانون عقوبات جديد سنة ١٨٥٨م، وأعقبته قوانين أخرى تجارية وبحرية وغيرها، وجميعها من أصل فرنسي[٣].

ازدادت خطوات التغريب اتساعًا مع حكم الاتحاد والترقي بدءًا من ١٩٠٩م، وازدادت الجرأة على شريعة الإسلام.

وها هو جلال نوري بك المفكر التركي يقول:" ظل الإسلام جامدا متبلورا طوال الأزمان حتى زماننا هذا؛ فإن الإمام أبا حنيفة وبقية الأئمة الثلاثة لم يتورعوا عن أن يضعوا من القواعد التشريعية التي تتطلبها حاجات الحياة، ما يضاد أوامر القرآن ونواهيه في بعض الأحيان، متخذين التأويل لإصلاح الشريعة سبيلاً؛ فلو أننا اتبعنا نفس هذه السياسة في الدين، فلا يبعد أن يكون الإسلام قد وصل الآن إلى حالة توافق حاجات هذا العصر. غير

(١) لويس: **ظهور تركيا الحديثة** ص ١٤٠.
(٢) المرجع السابق ص ١٤٤-١٤٥.
(٣) المرجع نفسه ص ١٤٩.

أن فقهاء الإسلام لم يتبعوا هذه الطريقة، بل اتبعوا أحكام الأئمة الأربعة عماية وضلالاً من غير نظر ولا تحقيق، ولا مماشاة لمقتضى الحال، وقفلوا على ذلك باب الاجتهاد، فأقاموا بذلك أكبر سدٍّ من الجمود أمام الإسلام. لم يعرفوا أن شرائع الإسلام قد وضعت لتوافق مزاج العصر الذي وضعت فيه، وأنه بتغير الأزمان يجب أن تتغير بعض الشرائع؛ بل بعض المبادئ الدينية ذاتها، وإلا فإن باب الارتقاء يوصد" [1].

وتعالت السخرية من التشريع الإسلامي، الذي أسماه بعضهم "قانون الصحراء"، كما جاهر بعض كبارهم بارتكاب الفواحش علانية[2].

وتشكلت لجنتان في البرلمان التركي للنظر في تعديل القوانين؛ تختص الأولى بالواجبات أو الالتزامات، والثانية بالأحوال الشخصية، وجنحت اللجنتان إلى الاعتماد على القوانين العثمانية الإسلامية مع بعض التعديلات، لكن صدرت التعليمات التي أعلنها وزير العدل محمود أسعد بك بالاقتباس مباشرة من القوانين المدنية الغربية، وأن المطلوب من البرلمان ليس تعديل القوانين، بل تغييرها بناء على قرار الثورة التركية التي لا بد من الانصياع لها؛ لأنها تمثل إرادة الشعب، فيما يرى[3]، وهذا منطق غريب! فما قيمة البرلمان إذن ما دام لا يعبر عن إرادة الشعب؟

وبناءً على ذلك تمت ترجمة القوانين المدنية النمساوية والألمانية والفرنسية والسويسرية، واختيار ما ترضاه اللجنة الجديدة منها ليكون قانونًا عامًا للبلاد، وفي ٢٥ ديسمبر ١٩٢٥ اختارت اللجنة القانون السويسري، وصدر القانون المدني التركي في ١٧

---

(١) نقله إسماعيل مظهر: وثبة الشرق، مؤسسة هنداوي، القاهرة، (د.ت)، ص ٤٤.

(٢) أرمسترونج (هـ. س): **الذئب الأغبر**، دار الهلال، القاهرة، سنة ١٩٥٢م، ص ٥١-٥٢، ١١٨، ١٥٠، ١٥١.

(٣) د. عصمت عبد المجيد بكر: **المدخل لدراسة النظام القانوني في العهدين العثماني والجمهوري التركي** ص ٢١٧.

فبراير [1]١٩٢٦، وفرضته الحكومة مع بعض التعديلات، ومنها النص على جواز زواج الإخوة من الرضاعة، مع أن مادة منع زواج الإخوة من الرضاعة موجودة حتى في القانون الفرنسي والسويسري[2].

وساوى القانون الجديد بين الرجال والنساء في الميراث، وفي الشهادة أمام القضاء، وتم حظر تعدد الزوجات[3]، إلى آخر ما بالقانون من مخالفات للشريعة الإسلامية؛ حتى في مجال الأحوال الشخصية التي ظلت التشريعات في الدول الإسلامية تحتفظ بمرجعيته الإسلامية مهما تأثرت بالقوانين الغربية، أو استبدلتها بها.

الدستور التركي:

وأراد العلمانيون في الجمهورية التركية الجديدة ضمان استمرار تشريعاتهم، وكانت نصوص أول دستور وضعوه للجمهورية سنة ١٩٢٤م، تقرر في المادة الثانية أن "دين الدولة التركية الإسلام"، فألغوا ذلك النص في الدستور الجديد الذي صدر سنة ١٩٢٨، وتقرر فيه أن "المواطنين الأتراك متساوون دون تمييز بينهم بسبب الدين"، وفي دستور ١٩٣٧ جاء النص الصريح بأن "الجمهورية التركية دولة علمانية"[4].

الجرأة على الشريعة في بلدان إسلامية أخرى:

إن الاجتراء على الشريعة الإسلامية وجد أرضًا خصبة في أقطار أخرى، **ففي تونس** استطاع الرئيس الأسبق الحبيب بورقيبة استصدار قانون يمنع تعدد الزوجات، وذلك

---

(١) المرجع السابق والصفحة.

(٢) الرجل الصنم ص ٣٢٩.

(٣) راجع **نصوص القانون المدني التركي** سنة ١٩٢٦ على الرابط: https://stringfixer.com/ar/Civil_Code_of_Turkey

(٤) د. عصمت عبد المجيد بكر: المرجع السابق ص ٢٢٣.

في ١٣ أغسطس ١٩٥٦ أي بعد أقل من خمسة أشهر من الاستقلال عن فرنسا، وقرر القانون معاقبة من يخالف ذلك بالسجن سنة وغرامة مالية[١].. فشجعه ذلك على المضي في خطوة أخرى بالدعوة لترك الصيام في شهر رمضان، تحت ستار كثيف من وحوب استمرار الاجتهاد في أمور الدين، وأن الوضع الاقتصادي الذي تمر به البلاد بعد الاستقلال يستدعي زيادة الإنتاج بالإفطار في نهار رمضان، وبادر بنفسه، فشرب كوبًا من عصير وهو يخطب الناس في رمضان؛ ويحضهم على ترك الصيام، وهنا تصدى له الشيخ الطاهر بن عاشور – شيخ جامع الزيتونة وأبرز علماء تونس – فأكد في لقاء إذاعي فرضية الصوم، وتحدث عن مبيحاته، وأنه ليس من بينها الهواجس من قلة الإنتاج، وقال قولته التي اشتهرت عنه: "صدق الله وكذب بورقيبة".

وفي تونس أيضًا صدر منشور ١٠٨ سنة ١٩٨١ الذي يقضي بمنع ارتداء ما يسميه "بالزي الطائفي" في المؤسسات العامة، ويقصد به حجاب النساء، فتم منع الطالبات المحجبات من التسجيل في المعاهد والجامعات.

وأطلق الرئيس التونسي الراحل الباجي قائد السبسي مبادرته التي تنص على المساواة بين الرجال والنساء في الميراث سنة ٢٠١٧م، وصادقت عليه الحكومة بالموافقة سنة ٢٠١٨، ثم عُرض على البرلمان، فطالت المناقشات حوله، وتصاعدت المعارضة ضده، حتى توفي السبسي سنة ٢٠١٩، فقُبر معه مشروعه، وأدرك خلفه قيس سعيّد خطورة المبادرة فأعلن معارضته لها.

إن حديثنا هنا يتجه إلى الشريعة الإسلامية بشقها القانوني والتشريعي، ولا ريب أن مفهوم الشريعة أوسع مدى، إذ يشمل تشريعات تخص الجوانب العقدية والسياسية

---

(١) د. أبو خولة: الاجتهاد البورقيبي في إلغاء تعدد الزوجات، مقال بمحلة إيلاف الإلكترونية، الأحد ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٧ تحت عنوان، على الرابط:
htm.٢٨٣٠٤١ /١١ /٢٠٠٧ /https: / /elaph.com /Web /AsdaElaph

والاقتصادية والفكرية والاجتماعية، وهي جوانب تم تجاهلها وتقليصها بمرور الزمن في عالم المسلمين.

ثانيًا: محاولات إفساد الأخلاق والدعوة إلى تحرير المرأة وهدم الأسرة:

١ - الإفساد الأخلاقي:

كان من المستهدف مع اشتداد تيار التغريب في العالم الإسلامي أن تتغير منظومة الأخلاق الإسلامية الموروثة، ويضعف الالتزام بها، فالارتباط بين الدين والأخلاق - في الفكر الإسلامي - ارتباط عضوي وثيق.

وتغيير تقاليد البلاد والعبث بأخلاقها المستمدة من دينها هدف قديم للاستعمار.. فمنذ غزت الحملة الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨ كانت تلك الدعوات لتحقيق ذلك الهدف حاضرة، ومارس الفرنسيون عاداتهم القبيحة في الاحتفالات الصاخبة، وشاركهم مشايعوهم من نصارى الداخل، ومنهم الأقباط والشوام والأروام[١]، فلما خرجوا للاحتفال بعيد وفاء النيل على عادة المصريين، أتوا بكل قبيح، فركبوا مراكبهم في نهر النيل، "وصحبتهم الآلات والمغاني، وخرجوا في تلك الليلة عن طورهم ورفضوا الحشمة... وصحبتهم نساؤهم وقِحابهم وشرابهم، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات، ومحاكاة المسلمين... وأجرى الفرنساوية المراكب المزينة، وعليها البيارق، وفيها أنواع الطبول والمزامير في البحر، ووقع في تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصي والفسوق ما لا يُكيَّف ولا يوصف، وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العلام ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة، ورذالة الرقاعة، بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم، بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه، وما يخطر بباله، وأن لم يكن من أمثاله"[٢].

---

(١) قال نابليون في رسالته إلى نائبه على مصر كليبر: "فإنك مهما تفعل فستجد المسيحيين دائمًا أصدقاءنا" (أحمد حافظ عوض: فتح مصر الحديث، أو نابوليون بونابارت في مصر ص ٤٠٩.

(٢) الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢/ ٣٠١-٣٠٢.

ولما غادر نابليون مصر أرسل إلى نائبه على الحملة الجنرال كليبر رسالة ينبهه إلى أمور مهمة، كان من بينها قوله له: "كنتَ قد طلبت مرارًا جوقة تمثيلية، وسأهتم اهتمامًا خاصًا بإرسالها لك، لأنها ضرورية للجيش، **وللبدء في تغيير تقاليد البلاد**"(١).

ووصف الكاتب الفرنسي بيير لوتي (Pierre Loti) بعض الآثار الاجتماعية للحملة حيث قال إن القاهرة "تحولت إلى سوق دولية، حيث أتت إليها الحضارة الفرنسية بالخمَّارات والقمار والبيوت المشبوهة وفتيات الليل... وإن تغريب مصر؛ أو فرض الحضارة الغربية عليها؛ يطفئ طابعها، ويكتم تألقها، ويقلل من قوة إبداعها وإلهامها"(٢).

كان من المستهدف أن تتصاعد في المجتمع نـداءات التحرر من ربقة الأخلاق، ومنظومة الحلال والحرام، وأن تستخدم المرأة عنصر إفساد بالنظر إليها على أنها وسيلة استمتاع، والزعم بأن التزام المرأة المسلمة بالحجاب والستر قيد لها ينبغي أن تتحرر منه، وصحبت الدعوة إلى ذلك دعوات إلى إباحة الزنا، والبغاء وتيسير الوصول إليه، وانتشار الصور العارية في صحافة ذلك الزمان، والدعوة إلى مسابقات ملكات الجمال، وتنشيط الفن الذي يخدم ذلك في السينما والمسرح، ثم في الإذاعة والتلفاز.. وتقديم هؤلاء الممثلين والفنانين على أنهم قدوة للشباب، ونخبة المجتمعات، مع انتشار المخدرات.. وانسياق الأدب من شعر وقصة ونثر في ذات التيار الزاخر.

الدعوة لتحرير المرأة لا الوطن:

لقد كان من المنطقي في عالم إسلامي يعاني سطوة الاحتلال الأجنبي- سواء في صورته العلنية الخشنة بالاستعمار العسكري، أو بصورته البديلة الناعمة - بإدارته عن طريق وكلاء الاستعمار ووارثيه من أبنائه- كان من المنطقي والواجب أن تكون دعوة

(١) أحمد حافظ عوض: المرجع السابق ص ٤١٠.

(٢) زينب عبد العزيز: مرجع سابق ص ٢٢، نقلًا عن بيير لوتي في روايته موت فيلة.

الحرية التي تهتز لها جنباته، وتسيل من أجلها دماء أبنائه، دعوة للحرية الكاملة للوطن ومن فيه من رجال ونساء.. تحرر يعيد للوطن هويته السليبة، وشريعته السماوية الحارسة، وسيطرته على ثرواته ومقدراته، وترى فيه النساء أن حريتهن لا تنفصل عن حرية الوطن، وأنهن شقائق الرجال، ولسن خصومًا لهم في معركة زائفة.

لكن ما حدث بالفعل هو تجزئة هذه الدعوة، وافتراض وجود صراع بين أبناء الوطن من رجال ونساء، وبين ركني الأسرة: الزوج وزوجه، بخلق معركة حامية الوطيس تنادي فيها المرأة بحريتها التي اغتصبها الرجل، وتتشظى فيها الأسرة بين طرفين يتربص أحدهما بالآخر، وأبناء هم ضحية الصراع العبثي.. وهنا "تتمركز الأنثى على ذاتها، ويتمركز الذكر هو الآخر على ذاته، ويُفسر تاريخ الحضارة البشرية على أنه تاريخ الصراع بين الرجل والمرأة، وهيمنة الذكر على الأنثى، ومحاولتها التحرر من هذه الهيمنة"(١).

صراع ممتد.. بلا رحمة ولا مودة، وليس كما أراد الله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧].

ثم تمركزت هذه الدعوة حول خلع المرأة المسلمة حجابها، ووقوفها موقف الند المتحفز ضد زوجها، وسعيها لتقييد حق الرجل في تعدد الزوجات، أو إيقاع الطلاق، وبحثها المُلحِّ عن إثبات ذاتها وقدراتها بمنافسة الرجل في ميادين العمل؛ بغض النظر عن مناسبته إياها، والتضحية من أجله بعملها الأساس الذي لن يقوم به غيرها، من رعاية أولادها وبيتها- وهو عمل لا يحظى باهتمام الرؤية الغربية المادية؛ على جلالته، إذ إنه لا يقابله أجر مالي محسوب، ولا يتم في رقعة الحياة العامة- والخلاصة أن حركات تحرير

(١) د. عبد الوهاب المسيري: **قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى**، سلسلة في التنوير الإسلامي رقم ٣٨، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، أغسطس ٢٠١٠م، ص ٢١..

المرأة تنظر إليها "باعتبارها فردًا مستقلاً بذاته عن المجتمع، لا باعتبارها أما وعضوًا في أسرة"[١].

وتعبر عن ذلك الكاتبة الفرنسية الوجودية سيمون دي بوفوار (١٩٠٨-١٩٨٦م)- خليلة الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر الذي عاشت معه دون زواج أكثر من خمسين سنة - بقولها: "إن العمل الذي تقوم به المرأة في الداخل يمنحها الاستقلال الذاتي، لكنه لا يفيد المجتمع مباشرة، ولا يطل على المستقبل، ولا ينتج شيئًا،... إنه لا يحررها، بل يجعلها معلقة بالزوج والأطفال، وهي لا تشكل في حياتهم سوى وسيط غير جوهري، لأن وضعها يستند إلى تكوين الرابطة الزوجية نفسها"[٢].

وكانت الدعوة إلى إزالة الحجاب، وتحرير المرأة المسلمة بالمفهوم الغربي السابق مدخلاً ضروريًا لهدم الأسرة المسلمة، فالأسرة في الحقيقة هي الجائزة الكبرى التي استهدفها هؤلاء، باعتبارها أهم مؤسسات المجتمع التي يحقق الإنسان "من خلالها جوهره الإنساني، ويكتسب داخل إطارها هويته الحضارية والأخلاقية"[٣].

ومن أجل تغريب الأسرة المسلمة بذلت جهود، وقامت مؤسسات، وعقدت مؤتمرات، وصيغت فلسفات ورؤى كما سنرى.

٢- الدعوة إلى تحرير المرأة بالمفهوم الغربي:

لقد بدت فكرة الاستجابة إلى الدعوة إلى السفور وترك الحجاب عصية على العقل الإسلامي الذي اعتاد النظر إلى المرأة من خلال الموروث الديني المستقر في أعماق الأمة.. لذا كان لا بد من بذل الوقت الكافي لترويض هذه الأفكار، ووضع الخطط لضمان نجاحها.

---

(١) المسيري: قضية المرأة ص ١٥، ١٧-١٨.

(٢) سيمون دي بوفوار: **الجنس الآخر**، ترجمة ندى حداد، الأهلية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د. ت)، ص١٤٧

(٣) المسيري: السابق ص١٦

بدأ التأثير الغربي يقتحم العالم الإسلامي مع حملة نابليون بونابرت على مصر ١٧٩٨م، وقد رصد الجبرتي جهود الحملة الفرنسية في ذلك المجال الخطير الهادف إلى التأثير على منظومة الوعي والأخلاق والحضارة المتأصلة في البلاد، من خلال تزيين التبرج والاختلاط الفاحش، وتيسير الفجور والخنا والدياثة، لكن جهودهم لم تتجاوز آثارها تلك القشرة الهشة الطفيلية من المجتمع التي تبحث عن منفعة عاجلة تستلبها من أوضاع طارئة، بالرغم مما حملته الحملة الفرنسية من بطش وقتل وإرهاب، وما تسربلت به من خداع ومخاتلة.

يسجل الجبرتي أن الغزاة في الحملة الفرنسية كانوا يصطحبون معهم أعدادًا من النساء الفرنسيات، بما عُرف عنهن من تبذل وفساد، وكانوا يسيرون معهن في شوارع القاهرة، فتظهر النساء ما اعتدن عليه من جرأة في ملبسهن وسلوكهن، فمالت إليهم وإليهن نفوس أهل الاهواء من النساء الأسافل، فتداخلن مع الجنود ونسائهم، لخضوعهم للنساء، وبذل الأموال لهن، "وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام، وخشية عار، ومبالغة في إخفائه"، فلما كانت ثورة القاهرة ضد الفرنسيين؛ وقمعهم إياها في وحشيتهم المشهورة، اقتادوا أعدادًا من النساء أسارى، فعشن في بيوتهم، وتأثرن بهم، "فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية"، واجتمع إليهن غيرهن من النساء الفواجر، "لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصا عقول القاصرات"[١].

وهكذا بدأ التيار التغريبي يجد موطئ قدم له في المجتمع الإسلامي في تلك المرحلة، وكانت قضية تغيير التوازن الاجتماعي المستقر من خلال الحديث المكرور عن مظلومية المرأة، وتحريرها من تلك الأوضاع الجائرة، مدخلاً مناسبًا لاختراق ذلك السياج الفكري المصمت.

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢/ ٤٣٦.

كان الحديث عن أهمية تعليم المرأة يكاد يكون موضع اتفاق بين العقلاء، الذين رأوا في أوضاع المرأة في ذلك العصر زراية بها، يأباها الفهم الصحيح لمكانة المرأة في الإسلام، والإدراك الرشيد لدورها في المنظور الحضاري الإسلامي.

بيد أنه كان هناك من يضع الدعوات لتعليم المرأة في سياق الدعوات لتحريرها بالمفهوم الغربي[١]، وليس ذلك صحيحًا بشكل كلي، إذ إن السابقين من أصحاب هذه الدعوات اقتصروا على الدعوة لتعليمها، دون التطرق لسفورها، أو ترك حجابها، ومن هؤلاء رفاعة الطهطاوي في كتابه "المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين"، وقد عرضنا له من قبل، وأحمد فارس الشدياق في كتابه "الساق على الساق فيما هو الفارياق" الصادر سنة ١٨٥٥[٢]، حيث يؤكد أن ترقي المرأة في الدراية والمعارف يكون "بحسب اختلاف الأحوال عليها"[٣].

وكان أول من تجرأ على الدعوة إلى تحرير المرأة بالمفهوم الغربي هو المحامي النصراني مرقص فهمي (١٨٧٠-١٩٥٥) - أحد المقربين من اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر - فنشر كتابه "المرأة في الشرق" سنة ١٨٩٤م، ودعا فيه صراحة - وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق خمسة أهداف محددة، وهي: القضاء على الحجاب الإسلامي، وإباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها، وتقييد

---

(١) أنور الجندي: **تاريخ الغزو الفكري والتعريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٢٠- ١٩٤٠**، دار الاعتصام، القاهرة (د. ت)، ص ٦٩.

(٢) الفارياق لفظ منحوت من كلمتين هما اسم المؤلف، بأخذ أول ثلاثة أحرف من (فارس)، وآخر ثلاثة من (الشادياق).

(٣) ويضرب مثالًا على ذلك بأن الفارياقية - زوج الفارياق راوي قصته - كانت لا تفرق بين الأمرد والمحلوق اللحية، وبين البحر المالح وبحر النيل، لكنها "تدرجت في المعارف بحيث صارت تجادل أهل النظر والخبرة، وتنتقد الأمور السياسية، والأحوال المعاشية والمعادية في البلاد التي رأتها أحسن انتقاد" (**الساق على الساق**، المقدمة ص ١٧).

الطلاق، وإيجاب وقوعه أمام القاضي، ومنع الزواج بأكثر من واحدة، وإباحة الزواج بين المسلمات والأقباط[1].

كانت طموحات الكاتب النصراني كبيرة، ولم يكن ينتظر لها أن تسفر عن نتيجة كبيرة، وربما لم يكن يُراد لها أن تكون أكثر من محاولة إثارة الجدل والشكوك في مسلمات دينية؛ لم تشهد خروقًا ذات بال في تاريخ الأمة.

ثم جاءت المحاولة الجادة من قاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨) الأزهري المصري الذي سافر إلى فرنسا، وتأثر بأفكار أهلها، وعاد فكتب كتابه "تحرير المرأة" سنة ١٨٩٩ الذي دعا فيه إلى ترك الحجاب المعهود للمرأة المسلمة، وإسفارها عن وجهها، وتشجيعها على العمل، لكنه تمهل حتى عرضه على بعض علماء الدين ورجال الفكر آنذاك، منهم الشيخ محمد عبده، وأحمد لطفي السيد وسعد زغلول وعلي شعراوي.. وأقام دعوته على أن النقاب ليس فريضة، وأن خروج المرأة من بيتها لطلب العلم أو العمل المباح ليس محرمًا، ولا منهيًا عنه. وعزز دعوته بما تحتاجه من أدلة شرعية وعقلية.. وذكر أن سبب تخلف مجتمعاتنا هو فقدان الفضائل الاجتماعية، ومردّ ذلك إلى انهيار العلاقات السوية في الأسرة نتيجة انتشار الجهل، وأن إصلاحه يكون بتعليم المرأة، وهو لا يطالب بتثقيفها تثقيفاً عاليًا كالرجل، بل يكفي التعليم الابتدائي، حتى تتقن القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الاجتماعية، مع التربية الدينية والتدريب الرياضي، وتثقيف الذوق الفني، مع ضرورة إعدادها لاكتساب الرزق، وإعالة نفسها حتى تقضي على استبداد الرجل، إذ إنه لا اكتمال لشخصية المرأة وهي محجوبة عن مجتمعها[2].. ورأى أن الحجاب عادة

(١) محمد أحمد إسماعيل المقدم: **عودة الحجاب، القسم الأول: معركة الحجاب والسفور** ص ٢٩، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١٠، سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(٢) ألبرت حوراني: مرجع سابق ٢٠١-٢٠٣.

لا صلة لها بالشرع الإسلامي، يمكن أن تندثر بمضي الوقت كما تندثر سائر العادات، وأن الطلاق من سلطة الرجل، لكنه أمر لا يقره الشرع إلا للضرورة القصوى، ويجب أن يتدخل القاضي لتقييده، والحد منه، ولا يكون إلا أمام شهود، وبتوثيق رسمي، وأن تعدد الزوجات ليس مباحًا بشكل مطلق في الإسلام، إنما يباح للضرورة القصوى، وأنه يجوز للحاكم أن يمنعه لما يترتب عليه من أضرار، رعاية للمصلحة العامة..

وقد هاجم كثير من العلماء آراء قاسم أمين، وتعقبوها بالرد والنقض من منطلق علمي شرعي، ومن زاوية جرأته في مصادمة آرائه العرف العام وإلف المجتمع، ولعل تلك الصدمة والجرأة هي الباعث الأكبر للرد عليه، إذ إن ما أثاره لم يكن في كثير منه خاليًا من حجة شرعية لها وجاهتها، سواء قوله بجواز كشف الوجه والكفين، أو دعوته إلى تعليم المرأة، أو حقها في عمل مناسب لها، وهي أمور أصبح كثير من الدراسات الفقهية يتجه إلى القول بها في زماننا هذا.

وقد أساء الرجل بأن جعل ترك نقاب المرأة مدخلاً للإصلاح الاجتماعي، وجعل الارتباط بين سفور المرأة وتعليمها وعملها ارتبطًا لازمًا، وبخاصة أنه جعل التعليم مجرد محو لأميتها، مع تحسينات محدودة، ولم يكن العمل في المدن ميسرًا أمام الرجال فضلاً عن النساء، أما في القرى المصرية فكانت المرأة تشارك الرجل في عمله، فالنساء الريفيات – وهن معظم نساء مصر آنذاك – كن يقدمن العون لرجالهن في الحقول، أو يقمن بأعمال في بيوتهن تدر شيئًا من المال، ليقاسمنهم مرارة الحياة، وشظف العيش، أما في مجال التعليم فكانت الأحوال متردية في المجتمع بوجه عام، إذ غلبت الأمية، وتفشى الجهل، فلم تكن مشكلة الأمية تخص المرأة وحدها، وكانت نساء الطبقات العليا في المدينة يأخذن بحظ من التعليم، قلّ أو كثر، وهل كانت هدى شعراوي وصويحباتها إلا نماذج ممن تعلمن على النسق الغربي في بيوت أهليهن؟

لكن المثير للتساؤل أن قاسم أمين نفسه قد تناول هذه المسائل - في كتاب آخر له- رد فيه على كاتب فرنسي هو دوق داركور، وفندها تفنيدًا دقيقًا ينتصر فيه للآراء السائدة بين علماء الأمة آنذاك؛ في أول تأليف له أسماه (المصريون) سنة ١٨٩٤م، بينما عاد يردد كثيرًا من آراء ذلك المستشرق، ويدلل عليها في كتابه "تحرير المرأة" سنة ١٨٩٩[١]، كما أن حجاجه الفقهي في ذلك الكتاب ليس في مقدور محامٍ مثله؛ غير مستبحر في علوم الشريعة، مما يرجح معه بعض الباحثين أن يكون كتابه الأخير تسجيلاً لآراء عالم أزهري متمكن؛ لم يشأ أن يواجه الناس بها مراعاة لحساسية موقعه العلمي والاجتماعي؛ هو الشيخ محمد عبده[٢].

وفي سنة ١٩٠٠ أصدر قاسم أمين كتابه "المرأة الجديدة"، وأهداه إلى صديقه سعد زغلول، وفيه تكرار لبعض ما ورد في كتابه الأول، لكن نزعة الجدال فيه أشد، والاحتجاج بالشريعة أكثر خفوتًا، بل تعلو أصوات اللجاج بالتجربة الأوروبية، وعلم الاجتماع وهربرت سبنسر مرات، "وهكذا أصبحت الآن مقاييس الحكم على الأشياء مبادئ القرن التاسع عشر الكبرى: الحرية والتقدم والمدنية[٣]، وأسفر قاسم أمين عن الباعث إلى دعوته وهو التأثر بالحياة والفكر الغربيين، وليس الانطلاق من رؤية أصيلة لعلاج أدواء الأمة من واقع عقيدتها؛ وموروثها القيمي الرشيد.

التنفيذ العملي لمخطط إفساد المرأة في مصر:

وفي مصر حققت دعوة قاسم أمين نجاحًا كبيرًا، قادته النخب المستغربة، التي لقيت دعم الاحتلال، وساندته أجهزة الإعلام، وتوجهات الساسة، وراغبو الكسب الحرام.

---

(١) د. محمد عمارة: **قاسم أمين الأعمال الكاملة**، ص ٥٥-٦٥.

(٢) د. محمد عمارة: المرجع السابق ص ٦٥-٦٦.

(٣) السابق ص ٢٠٥.

لما عاد سعد زغلول من منفاه عام ١٩٢١، واستقبلته مصر استقبال الغزاة الفاتحين، كانت معه زوجته صفية زغلول، فقالت له قبل وصول الباخرة إلى ميناء الإسكندرية: إنه حان الوقت لكى ننزع البرقع الأبيض، فالتفت سعد زغلول إلى شابين من أنصاره هما واصف غالى وعلى الشمسي، وسألهما رأيهما، فعارضا أن تبدأ صفية زغلول بنزع حجابها، لكن سعدًا رفض الانصياع لذلك، فقال: هذه ثورة! ارفعي الحجاب.. ونزعت صفية زغلول الحجاب[١]. فكانت أول سيدة تفعل ذلك.

ومن عجب أن يعارض واصف غالي - ابن بطرس غالي القبطي المصري - أن تخلع السيدة حجابها، بينما يحرضها عليه زوجها الأزهري الذي عدّه الشعب زعيمًا معبرًا عنه!

ووقفت صفية زغلول مع هدى شعراوي وجماعة من أنصارهما على أعتاب ميدان التحرير في مظاهرة تنادي بخلع الحجاب عام ١٩٢٣، فقمن بخلع حجابهن، وألقين به على الأرض، وأشعلن فيه النار[٢]، وانخدعت الجماهير الغافلة وهم يرون زوجات زعمائهم، ونساء النخبة القائدة فيهم، يخلطن بخبث شديد بين التحرر من الاستعمار والتحرر من الحجاب.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الحجاب المشار إلى خلعه وحرقه هو البرقع أو النقاب التي كانت النسوة آنذاك حريصات على ارتدائه، طلبًا للمزيد من الاحتشام، وكانت هذه خطوة ضرورية لضمان عدم إثارة الرجال عليهن في مجتمعات كانت لا يزال رجالها يحافظون على قيم الغيرة والدين، وإن كان تدينهم لينًا، هو للظاهر أدنى منه إلى الحقيقة الكاملة.

فكان ادعاء المحافظة على القيم الإسلامية، والالتزام بالشريعة الغراء راية يرفعنها بحرص وحزم، وإن كن يدركن أن تلك الطريق إن قطعن بدايتها سيصلن إلى نهايتها بلا ريب؛ وهو التغريب الكامل للمرة المسلمة.

---

(١) د. أمال السبكي: **الحركة النسائية في مصر بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢**.

(٢) محمد قطب: **قضية الحجاب**، مطبعة شفير، الرياض، ط٢، سنة ١٤١٠هـ، ص٢١.

هذه هدى شعراوي رائدة تحرير المرأة في مصر تقول: إن المرأة الشرقية لا تطلب انتقاص حقوق الرجال كما تفعل المرأة الغربية، وإنما تطلب أن يفتح الرجال أمامها أبواب الثقافة والتجارب، لتحسن إدارة شؤونها، واستغلال حقوقها التي خولتها لها الشريعة الإسلامية[١].. وها هي تتصدى لطلب سلامة موسى منها أن ترسل خطابًا إلى وزير الحقانية (العدل) تطلب فيه إصدار تشريع يسوي بين الرجل والمرأة في الميراث، وتقول في مقال لها بجريدة السياسة إنها بصفتها الشخصية ليست موافقة على رأيه، "ولا أظن أن النهضة النسوية في هذه البلاد -لتأثرها بالحركة النسوية بأوروبا- يجب أن تتبعها في كل مظهر من مظاهرها، وذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده، وليس كل ما يصلح في بعضها يصلح في البعض الآخر"[٢].

لكن السيدة لا تجد غضاضة في موضع آخر أن تطالب بمنع تعدد الزوجات، وألا يقع الطلاق إلا أمام القاضي[٣].. ولا تعتبر هذه ولا ذاك مخالفًا لأحكام الشريعة!

ولا تجد حرجًا من التعبير عن سعادتها بحضور حفل اختيار ملكة الجمال في لبنان سنة ١٤٣٤م، وعن سعادتها بفوز ابنة خالها بلقب ملكة الجمال، وأنها "كانت بهذا الفوز سفيرة مصر الجميلة التي تعبر عن مدى تقدم المرأة المصرية[٤].

وقد عبرت هدى شعراوي - زعيمة التحرر النسوي في العالم العربي، ونائبة رئيس الاتحاد النسائي الدولي - في زيارة الاتحاد تركيا ولقائها بالزعيم التركي مصطفى كمال عن مشاعر الفخر والإجلال لهذا "الغازي" الذي يستحق لقب "أتا الشرق" -أي والد الشرق كله- وليس "أتاتورك"، أو والد الأتراك فقط، وأعلنت عن سعادتها الكبرى بما

(١) **مذكرات هدى شعراوي**، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠١٣م، ص ٣١٢.
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٠.
(٣) السابق ص ٢٩٩.
(٤) السابق ص ٣٢١.

وصلت إليه المرأة التركية من مكانة بعد إسقاط الخلافة وقيام الجمهورية العلمانية، فقالت: "إنه ليلوح لي أن هذا الجديد الذي أحدثه الغازي العظيم لم يكن يعني به إدخال القشور من مدنية الغرب على أبناء البوسفور أو بناته، وإنما كان يعني به تجديد العقليات وتوجيهها إلى وجهة التفوق مسايرةً للجيل الجديد...."[1].

وتشكل عدد من الجمعيات النسائية التي تتبنى قضية تحرير المرأة وتدافع عنها، ومن أوائل تلك الجمعيات: "جمعية الاتحاد النسائي" التي أسستها هدى شعراوي سنة ١٩٢٣، -كما سبق بيانه- وجمعية "بنت النيل" التي أسستها د. درية شفيق سنة ١٩٣٩[2].

تأثير الإعلام على قضية تحرير المرأة:

ظلت قضية الحجاب شاغلاً للنخب المثقفة في مصر، ومن يسعى سعيهم من المعجبين بالحياة الغربية، في حين ظلت معظم نساء المصريين في القرى والأحياء المحافظة في المدن يحفظن حجابهن، وكان تنامي التأثير الإعلامي الذي يقوم بأمره التغريبيون يقدم نمط الحياة الغربي على أنه المثال الذي يجب نشدانه، وكانت الصحافة والمسرح يتوليان كبر ذلك التأثير، حتى ظهر المذياع والتلفاز، وأصبحا نزيلين شديدي الجذب في كل بيت، يلحَّان لإظهار الحجاب مظهرًا للتخلف والرجعية، وتقديم التبرج والاختلاط بين الرجال والنساء على أنه مظهر للتقدم والتحضر في المجتمعات الشعبية والمخملية على السواء.

لقد تحولت الإذاعة في مصر إلى إذاعة رسمية تحتكرها الحكومة في ٣١ مايو عام ١٩٣٤م، وكانت قبل ذلك بسنوات إذاعات أهلية بأيدي الهواة والشركات والقادرين على

---

(١) السابق ص ٣٢٦.

(٢) مثنى أمين الكردستاني: **حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، دراسة إسلامية نقدية** دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، الكويت، ط١، سنة ٢٠٠٤، ص ٢٠٥.

امتلاك أدواتها [1]. وقد بثت إحدى هذه المحطات الأهلية واسمها (راديو مصر الملكية) -على سبيل المثال- في أسبوع واحد محاضرات مثل: "حقوق المرأة" لسلامة موسى، و"لمحة عن المرأة الغربية" لعلي مظهر [2]... وهذان مثالان لبيان توجهات هذه الوسيلة الإعلامية منذ بداياتها، ومدى سيطرة العلمانيين والتغريبيين عليها، وقد مر بنا حديث عن كلا الرجلين: الصليبي والملحد.. ولن يتحسن الأمر كثيرًا بعدما سيطرت الحكومات الخاضعة للاحتلال عليها.

أما التلفاز فهو الوسيلة الأخطر في الوصول إلى الناس وتشكيل وعيهم، وقد بدأ البث التليفزيوني في عدد من الأقطار العربية في عقد الخمسينات من القرن الماضي[3]، حيث قدم نمط الحياة الغربية نموذجًا يُحتذى، بمنطقه وفلسفته، وأسلوب حياته، ومفرداتها.. وأصبح من المعتاد تقديم المراقص والخمارات في الأفلام والمسلسلات، ونسج قصص الخيانة الزوجية التي تقدم لأصحابها المبررات والأعذار، وتظهر تلك النماذج الشائهة على أنها قدوات للشباب، ونماذج المواطنين الصالحين!

وسخر عدد من رؤساء الجمهورية من المظهر الإسلامي على الملأ في مؤتمراتهم، كما فعل جمال عبد الناصر حين سخر من دعوة الإخوان المسلمين النساء إلى الحجاب، وكما فعل السادات حين شبه حجاب المرأة المسلمة بالخيمة.

---

(١) ظهرت الإذاعة في بريطانيا سنة ١٩٢٢، وتأسست هيئة الإذاعة البريطانية سنة ١٩٢٦م، بينما بدأت الإذاعة في مصر أهلية حوالي سنة ١٩٣٢، وأصبحت رسمية سنة ١٩٣٤م راجع د. حلمي أحمد شلبي: **تاريخ الإذاعة المصرية، دراسة تاريخية ١٩٣٤-١٩٥٢**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٥م، ص ١٥-١٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥.

(٣) بدأ البث في العراق سنة ١٩٥٤، ثم في الجزائر سنة ١٩٥٦، تحت ظل الاحتلال الفرنسي، وجاء بث التلفاز المصري سنة ١٩٦٠، وقبلها بعام كان بث التلفاز اللبناني..

واشتد التضييق على كل مظهر إسلامي، حتى خلت الجامعات والمدارس من الحجاب، ولم يكن في جامعة القاهرة – أكبر الجامعات العربية – فتاة محجبة واحدة، وإن ارتدت أعداد محدودة غطاء الرأس سعيًا إلى نوع من الاحتشام. ولم تحتج السلطات الحاكمة إلى سنّ تشريعات تمنع الزي الإسلامي، فقد تركت أجهزة الإعلام؛ والأجواء المفعمة بالكراهية للإسلاميين؛ وحملات التخويف والإرهاب في مواجهتهم؛ لتقوم بالدور المطلوب.

غير أن ذلك السعي الكبير، والجهد الجهيد لم يفلح في صرف المرأة المصرية عن أصالتها وتدينها، فما لبثت أن تحسنت الأوضاع العامة لضرورات التوازن بين القوى السياسية في السبعينات من القرن الماضي، حتى أسفرت الحقائق الناصعة؛ أن الهوية الإسلامية ضاربة بجذورها في أعماق الأمة، تتحين الفرصة للظهور والعلانية، وللتمدد والفتح، فعادت المرأة المصرية إلى حجابها، والتزامها بدينها، ضمن عودة عامة المجتمع المصري إلى تدينه، وهي عودة أسهمت فيها الحركات الإسلامية ودعاتها بحظ وافر، وفي مقدمتهم الإخوان المسلمون الذين خرجوا لتوِّهم من سجون الناصرية..

صحيح أن تلك الصحوة تعرضت لمحاولات الإجهاض في عنف وغلظة، وتكررت تلك المحاولات كل عدة سنوات، وقدمت قوافل من الشهداء والمشردين، لكنها لم تفلح في وأد تلك الصحوة، أو إعادتها أدراجها الأولى، فقدر الله غالب، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

دعاوى تحرير المرأة في الدولة العثمانية:

وفي الدولة العثمانية كانت الجرأة على القيم الإسلامية الموروثة والمتأصلة تتصاعد مع تولي زعماء الاتحاد والترقي أمور البلاد بدءًا من سنة ١٩٠٩، واندفاعهم في التعبير

عن انبهارهم بقيم الغرب وعاداته، وأنها طريق التقدم وإنقاذ الخلافة المتداعية، فتعالت النداءات باطِّراح حجاب المرأة، وأهمية سفورها وتعليمها؛ كما يتعلم الرجال، لتحل محلهم في حال توجههم للقتال في الحرب العالمية الأولى، وعلى ذلك ظهرت النساء يرتدين الملابس الأوروبية الحديثة قبل إسقاط الخلافة فعليًا بسنوات، وفي عام ١٩١٦ صدر قانون يسمح للمرأة بالحصول على الطلاق في حال سوء أخلاق زوجها، أو سعيه للزواج من امرأة أخرى دون إذنها[١].

وبعد إسقاط الخلاقة العثمانية سنة ١٩٢٤ ظلت قضية الحجاب مثيرة لهواجس العلمانية في تركيا بالنظر إلى أنها معبرة عن التوجه الإسلامي، وظلت المؤسسة العسكرية والمحكمة الدستورية - الحارستان للعلمانية طوال عقود من الزمن - تحوطان قضية الحجاب بالقرارات والتحصينات الضامنة لاستمرار منعه، والحيلولة دون ظهور الشارع التركي بمظهر الحنين إلى أصوله الإسلامية.

بعد انقلاب الجنرال كنعان أيفرين سنة ١٩٨٠ صدر قرار بمنع المحجبات من دخول الجامعات وسائر المعاهد والمدارس، وباقي مؤسسات الدولة، وهو أمر زاد من معاناتهن فاضطرت أكثر من أربعين ألف طالبة إلى مغادرة البلاد لاستكمال دارستهن في أميركا وألمانيا وهولندا والمجر وأذربيجان وغيرها من الأقطار الأوروبية، بدل بلدهن المسلمة[٢].

وبعد الانقلاب العسكري ضد حكومة حزب الرفاه سنة ١٩٩٧م بدأت المرحلة الأصعب في حياة المحجبات، حيث أغلقت العديد من مدراس الأئمة والخطباء الدينية، وطُردت المحجبات من الجامعات والعمل، وتم الاعتداء بالضرب على العديد منهن في

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: **في أصول التاريخ العثماني**، ص ٢٨٢.

(٢) خورشيد دلي: **تحرير الحجاب في تركيا**، موقع الجزيرة، ٢٤/ ١٠/ ٢٠١٠، على الرابط: https://cutt.us/1Wp8V

الشوارع والكليات.. كما طُرد الجنود الذين لديهم أخوات أو أمهات محجبات من الجيش التركي.. وتم إنشاء ما عُرف باسم "غرف الإقناع"، وهي غرف كانت المحجبات يدخلن إليها ويتعرضن لأبشع أنواع التعذيب النفسي والعصبي؛ ليتم إقناعهن بنزع الحجاب مقابل السماح لهن بدخول الجامعات[١].. وأصدرت المحكمة الدستورية في عام ١٩٩٧ قرارًا بطرد المحجبات من الجامعات؛ حتى ولو لم يبق على تخرجهن سوى ساعات[٢].

وبالرغم من ذلك التضييق كانت الصحوة الإسلامية تفرض نفسها، حتى استطاعت احدى السيدان المحجبات "مروة قاوقجي" Merve Kavakcı النجاح في الانتخابات التشريعية سنة ١٩٩٩، لتصبح أول نائبة محجبة في البرلمان التركي، غير أن العلمانية القاهرة لم تُطق رؤية الحجاب في هذا الموضع، فتم طرد النائبة من البرلمان في أولى جلساته علي يد رئيس الوزراء وقتها بولند أجاويد، بل تم سحب الجنسية التركية منها[٣]، ثم أسقطت عضويتها من البرلمان سنة ٢٠٠١م[٤].

شملت المعاناة منع المحجبات من الدراسة والعمل في المؤسسات العامة، وطال ذلك بعض بنات بعض كبار المسؤولين، بمن فيهن ابنة رئيس الوزراء –ورئيس الجمهورية

---

(١) **"ما لا تعرفه عن نضال المحجبات في تركيا: من "غُرف الإقناع" إلى التجريد من الجنسية، فتقلّد الوزارات"** تقرير بموقع "عربي بوست" تم الاطلاع عليه بتاريخ ١٣/ ٨/ ٢٠٢٢ الساعة ١٣,٣٠، على الرابط: https://cutt.us/rzSw4

(٢) خورشيد دلي: تحرير الحجاب في تركيا، موقع الجزيرة، مقال سبقت الإشارة إليه

(٣) مروة صفاء قواقجي: **ديمقراطية بلا حجاب تاريخ داخل التاريخ**، ترجمة مصطفى يعقوب، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٦، ص٨٢، ٨٨-٨٩، ١٦٤-١٦٥.

(٤) قواقجي: المرجع السابق ص ٢٣٩، ولما مُنعت مروة قواقجي من البرلمان ذهبت إلى أمريكا - وكانت لديها الجنسية الأمريكية – فاستطاعت الحصول على الدكتوراه من جامعة هارفارد في العلوم السياسية، ثم أعيدت إليها الجنسية التركية عام ٢٠١٦ في ظل حكم الرئيس أردوغان، وقد اختارتها جامعة جورج تاون ضمن قائمة أكثر ٥٠٠ شخصية مسلمة مؤثرة في العالم، وحازت على أكثر من ١٠ جوائز في مجالات مختلفة ("ما لا تعرفه عن نضال المحجبات في تركيا: من "غُرف الإقناع" إلى التجريد من الجنسية، فتقلّد الوزارات"، مقال سبقت الإشارة إليه).

فيما بعد- رجب طيب أردوغان الذي تولى رئاسة الوزراء سنة ٢٠٠٣، حيث درست في الجامعات الأميركية حيث لا يُحظر ارتداء الحجاب.

واستمر اضطهاد المحجبات في تركيا حتى العام ٢٠١٠، حيث قامت حكومة حزب "العدالة والتنمية" بطرح استفتاء شعبي ألغى قانون منع الحجاب، بل فتح الطريق لرفع قضايا جنائية لمحاكمة الشخصيات التي ارتكبت جرائم ضد المحجبات منذ انقلاب ١٩٩٧[١].

كان الأمر الحاسم في قضية المرأة في تركيا وانتصار حجابها هو تغير المزاج العام الذي تأثر دون شك بالصحوة الإسلامية العامة في العالم الإسلامي، وبجهود الدعاة الإسلاميين الذين تحملوا المحن المتتالية بصبر وثبات، من لدن بديع الزمان النورسي (١٨٧٦-١٩٦٠م) ورسائل النور، حتى نجم الدين أربكان (١٩٢٦-٢٠١١م) وتلاميذه، مرورًا بكثير من الدعاة والمربين.

فكان إصرار المرأة التركية على الحجاب، وبخاصة في الأناضول، التي ظل التوجه العام فيها محافظًا، وكذلك هذه النماذج الرائعة من الفتيات والسيدات اللاتي رفضن خلع حجابهم، ولو على حساب نيل حقوقهن في التعليم والعمل، وبمضي الوقت، واستمرار الثبات، وتواصل الصحوة الإسلامية؛ كانت المؤسسات الحاكمة؛ والنخب المسيطرة، والساسة المتغربون يجدون أنفسهم مضطرين للاعتراف بالأمر الواقع، وهو تجذر الالتزام الإسلامي في المجتمع التركي، وفشل المحاولات الدائبة على مدى نحو مئة عام في إقصائه.

واليوم تطالعنا الصحف بتصريحات رئيس حزب الشعب التركي كليتشدار أوغلو التي يطلب فيها الصفح من المحجبات في تركيا، ويعلن بدء صفحة جديدة يعتذر فيها حزبه

(١) "ما لا تعرفه عن نضال المحجبات في تركيا"، مقال سابق

- وهو الوارث لمبادئ أتاتورك، والمدافع عنها- عن سلوكه طوال الزمن الماضي تجاه المحجبات والمتدينين والمحافظين بوجه عام، وسواء اضطر الرجل إلى ذلك الإعلان رغبة في كسب الأصوات الانتخابية في الانتخابات القادمة ٢٠٢٣، أم كان إعلانه تعبيرًا عن قناعة حقيقة، فهو شديد الدلالة على انتصار الالتزام الإسلامي في وجه الزحف العلماني المدجج بالقوة القاهرة على مدى قرن كامل[١].

الدعوة إلى تحرير المرأة في إيران:

كانت دعوات التغريب في المجال المجتمعي- وأبرز مظاهرها الدعوة إلى خلع حجاب المرأة المسلمة، وتعديل قوانين الأحوال الشخصية لتشبه ما لدى الغرب- تتصاعد وتتآزر، من مصر إلى تركيا، ومنهما إلى إيران وأفغانستان..

أَولَى شاه إيران رضا بهلوي (حكم بين عامي ١٩٢٥ -١٩٤١م) أهمية كبرى للتغريب الفكري والعملي في إيران، وهي بلد لرجال الدين فيها سلطان مبين، ولم يكن يُتوقع أن تمر سياسات التغريب فيها دون مقاومة كبيرة.

بدأ رضا شاه بالسماح للنساء بالخروج دون الحجاب، وتشجيع من يفعلن ذلك، وكانت زوجته أول من تركن حجابهن، ثم فرض على الموظفين منع زوجاتهم من الحجاب، وفي سنة ١٩٢٨م أصدر مجلس النواب قرارا يلزم الإيرانيين ارتداء الملابس والقبعات الأوروبية[٢].

---

(١) زاهد صوفي:: "**زعيم حزب الشعب التركي يطلب الصفح من المحجبات، نيّة صادقة أم مناورة انتخابية؟** مقال بموقع الجزيرة، تم الاطلاع عليه في ٢٠/ ٨/ ٢٠٢٢ الساعة ١٣, ٥٠ والرابط: https://cutt.us/GIsfC

(٢) الزبيدي: **تاريخ إيران الحديث** ص ١٠٣، أسامة صاحب منعم وأناس حمزة مهدي: **متغيرات السياسة الإيرانية ١٩٠٠-١٩٤١، دور المرأة أنموذجًا**، مجلة مركز الدراسات الإنسانية، سنة ٢٠١٨، مجلد ٨، العدد ٣، ص ١٣٢.

لقد تأثر الشاه رضا بمنهج أتاتورك وسياساته العلمانية في تركيا، واعتزم بعد زيارته لها سنة ١٩٣٤ ولقائه بأتاتورك المضي قدمًا في خطته متأسيًا بركب التغريب التركي، وبدأ في التمهيد لذلك، فأمرت وزارة التربية والتعليم المدارس بأن تحضر التلميذات والمعلمات مراسم الاحتفال فيها والمحاضرات بغير حجاب. كما نشرت الصحف مقالات تنتقد من يلبسنه.. وفي صيف عام ١٩٣٥م أصدر الشاه رضا بهلوي أمره بإلزام جميع الرجال ارتداء القبعات على الطراز الأوروبي، وأثار ذلك مظاهرات واسعة النطاق في بعض المدن، مثل مدينة مشهد، حيث واجهها الجيش بوحشية، مما أسفر عن مقتل أكثر من ١٦٠٠من الرجال والنساء والأطفال في أحد مساجدها[١].

واستمرت مسيرة التغريب، والعداء للسمت الإسلامي في إيران أثناء حكم الشاه الابن محمد رضا بهلوي (١٩٤١-١٩٧٩م)، وبالرغم من كل هذه الجهود ظل الحجاب قضية حاضرة في كل صور التمرد والثورة على نظام الشاه، حتى تم إسقاطه وخلعه بعد نجاح الثورة التي قادها الخميني سنة ١٩٧٩م، وكان الحجاب من أبرز شعاراتها، فلما نجحت الثورة ألغيت القوانين التي تحد من تلك المظاهر الإسلامية، بل تم فرض الحجاب على النساء في الجمهورية الشيعية الجديدة.

الدعوة إلى تحرير المرأة في أفغانستان:

تولى أمان الله خان حكم بلاد الأفغان (١٩١٩- ١٩٢٩م)[٢]، وكان له دور كبير في هزيمة بريطانيا وطردها من بلاده سنة ١٩٢١م، وأسكرته نشوة إنجازه، وجذبته سيرة

(١) راجع غلام رضا نجاتي: **التاريخ الإيراني المعاصر، إيران في العصر البهلوي**، ترجمة عبد الرحيم الحمراني، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران، ط١، سنة ٢٠٠٨م، ص ٥٥-٥٦، ويكيبيديا، "**كشف الحجاب في إيران**"، تم الاطلاع على المقال بتاريخ ٢٧/ ٧/ ٢٠٢١م، الساعة ١٠ ,٠٠ والرابط: https://cutt.us/brHlm

(٢) تولى أميرًا سنة ١٩١٩، ثم حول البلاد إلى النظام الملكي، وأصبح أول ملوكها سنة ١٩٢٦م.

مصطفى كمال في تركيا، وكان مفتونًا بالغرب، فرأى أن تقدم بلاده لا يكون إلا بالسير على نهج أوروبا، فسعى إلى تغيير العادات الاجتماعية المتأصلة في أفغانستان، وهي بلاد مشهورة بشدة التزامها بالإسلام، ومن ذلك موقفه من كشف حجاب المرأة الأفغانية، حيث أنكر علانية أن يكون الحجاب تشريعًا إسلاميًا، وكان لامرأته ثريا طرزي نفوذ كبير، وقد خفت إلى تنفيذ إشارته بخلع الحجاب، كما فعلت نساء المسؤولين الآخرين، وسعت ثريا إلى افتتاح المدارس لتعليم الفتيات، وأرسلت ١٥ فتاة إلى تركيا الكمالية من أجل تلقي التعليم العالي هناك، حيث كانت المرأة في تركيا تعيش مرحلة الاستقلال عن تعاليم الشريعة، وشجعت ثريا المرأة الأفغانية على العمل، كما أصدرت أول مجلة نسائية تُدعى "إرشاد النسوة"، وشكلت أول حركة نسائية أسمتها "إنجمان حماية النسوان"[١]، وبالرغم مما يبدو من إرادة التحديث في سياسة الملك إلا أنها كانت تتم وفق رؤية يلفظها الشعب الأفغاني، ويراها إبعادًا له عن الإسلام، وسَوْقًا قهريًا نحو الغرب.

وكانت بعض ثورات الأفغان ضد أمان الله خان عنيفة دامية، مثل ثورة إقليم خوست جنوبي البلاد سنة ١٩٢٤م، التي استمرت نحو عام، وترتب عليها مقتل ١٤٠٠ شخص، وألوف الجرحى، وأعقبتها أعمال انتقامية مروعة من الثوار، وكان من أسبابها المباشرة إقرار دستور سنة ١٩٢٣ الذي ألغى الحجاب، وقرر تقييد تعدد الزوجات، ومنع زواج الصغيرات[٢].

وفي جولته التي زار فيها أوروبا وبلدانًا أخرى أواخر سنة ١٩٢٧م ظهرت امرأته الملكة ثريا طرزي، وبناته وحاشيته بغير حجاب، وهن يرتدين الملابس الأوروبية، وأسفرت

---

(١) راجع مادة (**ثريا طرزي**) **على موقع** (**المعرفة**)، وقد تم الاطلاع عليه في ٧/ ٨/ ٢٠٢٢، الساعة ٤ عصرًا على الرابط: https://cutt.us/bPkJi

(٢) راجع مادة (**تمرد خوست ١٩٢٤-١٩٢٥**) على ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تم الاطلاع عليها في ٧/ ٨/ ٢٠٢٢ الساعة ١٣، على الرابط: https://cutt.us/Kenwb

تصرفات الملكة الجريئة عن غضب عارم في أفغانستان، ونشرت السلطات البريطانية في الهند صورها وهي تجالس الرجال على موائد الطعام، وصورها بينما زعيما فرنسا وألمانيا يقبلان يدها[1]، مما زاد النقمة عليها وعلى زوجها أمان الله خان، تلك النقمة التي ألهبتها مظاهر بذخهما وإسرافهما، وما كاد الملك يعود إلى البلاد حتى تم خلعه سنة ١٩٢٩م، وهرب إلى سويسرا حيث ظل بها حتى وفاته سنة ١٩٦٠م[2].

الدعوة إلى تحرير المرأة في تونس:

وفي تونس استطاع الرئيس الأسبق الحبيب بورقيبة استصدار قانون يمنع تعدد الزوجات في ١٣ أغسطس ١٩٥٦ - أي بعد أقل من خمسة أشهر من الاستقلال عن فرنسا - وتقرر معاقبة من يخالف ذلك بالسجن سنة وغرامة مالية، وصدر قرار آخر سنة ١٩٨١ بمنع من تلبس الحجاب من دخول الجامعات والمؤسسات الرسمية، وحاول الرئيس الراحل قائد السبسي استصدار قانون بمساواة الرجل والمرأة في الميراث سنة ١٩١٧م، لكنه أفضى إلى ربه قبل أن يتم إقرار القانون، فقُبر معه.. وقد سبق بيان ذلك.

٣- التآمر الغربي على الأسرة المسلمة:

أ- التآمر قديم:

وليس غريبًا أن برنامج الغرب لتغيير أوضاع المجتمعات الإسلامية، وفرض رؤيته على العالم لم يتغير على مدى ما يزيد عن قرن من الزمان، منذ أن وضع مفرداته اليهود ورائدات الحركة النسوية الغربية، التي تم تقديمهن إلى مجتمعاتنا على أنهن القدوات المستنيرة التي سبقن شعوب الشرق المتخلفة والرجعية.

---

(١) راجع مادة ثريا طرزي السابق الإشارة إليها.

(٢) راجع محمود شاكر: **أفغانستان**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، سنة ١٩٨٥م، ص ٥٢-٥٣.

فقد كان نزع الحجاب واقتحام المرأة سوق العمل؛ بغض النظر عن مناسبته لطبيعتها أم لا؛ وإعلاء قيم المجتمع الغربي، وبخاصة المساواة المطلقة بين المرأة والرجل، والتنفير من نموذج الأسرة المستقر في الشرق، وتقديم المرأة الحديثة على أنها فرد يبحث عن مكانته الشخصية؛ وليس من خلال منظومة أسرية ومجتمعية، والإلحاح على التحرر الجنسي وما يستتبعه من تيسير الفجور والزنا، وتشجيع المراهقين على ممارسته، ودعوة المجتمع لتحمل تبعاته من رعاية أولاد الحرام، والعناية بما يسمونه الحمل خارج نطاق الأسرة، وإيجاد التصور المغالط عن الأشكال المتعددة للأسرة، حتى تتسع لتشمل الشاذين جنسيًا، كل ذلك كان مفردات لاكتها ألسنة رواد الدعوة لتحرر المرأة من القرن الماضي، ووضعوا لها خطط التنفيذ على مدى عقود، من غير تعجل أو سآمة.

أما دور اليهود في ذلك الإفساد فيشير إليه رجل الأعمال الأمريكي هنري فورد (١٨٦٣-١٩٤٧) في كتابه (اليهودي العالمي) حين يتحدث عن دور اليهود في تعليم الأطفال الجنس في المدارس الأمريكية في بدايات القرن العشرين، فيتساءل: وماذا بالنسبة لأطفال الأمميين (أي غير اليهود)؟ يقول التربويون اليهود: "سنعلمهم الجنس، سنمحو كل خيوط العنكبوت الموجودة في عقولهم حول هذا الموضوع، فلا بد أن يعلموا حقيقة كل شيء"، وكانت نتائج ذلك سيئة جدًا، ولا يمكن سردها"[(١)]

أما رائدات تحرير المرأة - كما يسمين أنفسهن - فمن هؤلاء الرواد الكاتبة الفرنسية سيمون دي بوفوار (١٩٠٨-١٩٨٦) التي وصفتها أكبر الصحف المصرية بأنها "كانت نموذجًا يحتذى بالنسبة للفتاة المصرية والعربية"[(٢)]، وقد دافعت عن الحق في ممارسة

---

(١) هنري فورد: **اليهودي العالمي**، ص ١٦٠.

(٢) رانيا حفني: مقال بعنوان "**بدعوة من "الأهرام" سارتر في مصر**"، جريدة الأهرام، عدد الجمعة ٢٧ من ذي الحجة ١٤٣٩هـ ٧ سبتمبر ٢٠١٨، السنة ١٤٣، العدد ٤٨١٢٢.

الشذوذ الجنسي لدى الذكور والإناث، ولم تستح هي نفسها من الاتهامات التي طالتها بأنها مارسته مع بعض تلميذاتها، وفصلت بسببه من مواصلة عملها بالتدريس سنة ١٩٤٣م[١]، كما التمست المعاذير لمن يمارسن الدعارة، قائلة: "تعد الدعارة من متممات الزواج الحتمية"[٢]، ورأت أن: "الفرق بين النساء اللواتي يبعن أنفسهن عن طريق الدعارة وبين اللواتي يبعن أنفسهن بواسطة الزواج؛ ينحصر في ثمن ومدة عقد البيع... ومن جهة ثانية تتمتع المتزوجة بحماية رجل واحد ضد كل الرجال، أما الثانية فإنها محمية من قبل جميع الرجال ضد احتكارها لحساب رجل واحد"[٣]، ومن ثم لم يكن غريبًا أن تدعو دعاءً حارًا إلى منح النساء الحق القانوني في **الإجهاض** لمعالجة آثار ذلك الفساد، قائلة: "يصر القانون على اعتبار الإجهاض جنحة، ولا شيء أسخف من الحجج التي توجه ضد تشريعه"[٤]، وما زالت في لجاجها حتى صدر قانون فرنسي بتشريع إباحة الإجهاض سنة ١٩٧٤م[٥]

دي بوفوار في زيارة مصر:

ومما يذكر هنا أن سيمون دي بوفوار قد قدمت إلى مصر بصحبة خليلها الفيلسوف اليهودي سارتر حين دعيا إليها من رموز اليسار المصري، وكان ذلك في مارس ١٩٦٧م، أي قبل هزيمة يونيو بنحو ثلاثة شهور، واستمرت زيارتهما ١٦ يومًا، واستقبلهما خلالها الرئيس المصري حينذاك عبد الناصر في أجواء الحفاوة البالغة، وطال لقاؤهما معه ثلاث

---

(١) راجع مادة "**سيمون دي بوفوار**" **ويكيبيديا الموسوعة الحرة**، تم الاطلاع عليه في ١٥/ ٨/ ٢٠٢٢ على الرابط: https://cutt.us/7IlnJ

(٢) سيمون دي بوفوار: الجنس الآخر ص ١٩٢.

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٥.

(٥) راجع مادة "سيمون دي بوفوار" على موسوعة ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

ساعات[1]، ثم عاد بعدها سارتر ليعلن عن وجهه الصهيوني المؤيد للعدوان الصهيوني ضد العرب[2].

ب- دور مؤتمرات الأمم المتحدة في فرض العولمة في منظومة الأسرة:

خطورة الرؤية الغربية للأسرة في زمن العولمة:

ساعد تطور وسائل الاتصال على النحو المذهل الذي عاشه العالم في العقود الأخيرة، مع سيطرة القطب الدولي الواحد - الولايات المتحدة - بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في ظهور دعوى العولمة، التي تسعى لفرض الرؤية الغربية على العالم، من خلال آليات متعددة، منها تلك المنظمات الدولية التي تحكم السيطرة عليها، وأجهزة الثقافة والإعلام - حيث تتحكم بهما في الأغلب الأعم النخب المستغربة - والضغوط السياسية والاقتصادية التي تمارَس ضد أنظمة حاكمة مستعدة للامتثال والطاعة.

ومن مكونات الرؤية الغربية التي تفرضها العولمة على ما عداها **النظرة إلى الأسرة وتعريفها**، وقد شهد ذلك انحرافًا جسيمًا عما درجت عليه البشرية في عمومها على مدى الزمن، إذ ظل المعهود البشري أن الأسرة كيان اجتماعي يتكون من رجل وامرأة بينهما رباط شرعي في الأساس، قد ينتج عنها أولاد، غير أن التغيرات التي شهدتها المجتمعات

---

(١) رانيا حفني: مقال سابق بعنوان "بدعوة من "الأهرام" سارتر في مصر".

(٢) قبل شهر من حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧ وقع الثنائي - سارتر ودي بوفوار - بيانا ضمن ٦٦ مثقفًا فرنسيًا دعا الجمهور الفرنسي إلى دعم إسرائيل، معتبرا أنها "الدولة الوحيدة التي يجري التشكيك في وجودها في حد ذاته، والتي يجري تهديدها من القادة العرب"، وبعبارات واضحة رفض البيان فكرة أن إسرائيل أمة إمبريالية. وتابع البيان "نعتقد أنه من غير المفهوم تحديد هوية إسرائيل بكونها ضمن معسكر إمبريالي وعدواني"، راجع سارتر ودي بوفوار.. كيف شكلت القضية الفلسطينية نهاية لثنائي الفلسفة الوجودية الأشهر؟ تقرير بموقع الجزيرة، تم الاطلاع عليه في ١٥/ ٨/ ٢٠٢٢ الساعة ١٣ ,٩ على الرابط: https://2u.pw/IF5ZVc

الأوروبية ألقت بظلالها على التعريف السابق، فتفشي الشذوذ الجنسي، واعتباره أحد حقوق الإنسان، وانتشار الزنا وتيسير سبله، والسعار اللاهث وراء اللذة الجنسية الميسورة، وكثرة أولاد السفاح، والزهادة في تحمل مسؤوليات الأسرة وأعبائها، وتسارع وتيرة الطلاق، كل ذلك أدى إلى تغير المفهوم النمطي للأسرة.

لم يعد وجود أطفال هدفًا تسعى إليه الأسرة في رؤية الغرب، كما لم يعد اختلاف النوع بين الذكر والأنثى شرطًا لتكوين الأسرة، فيمكن أن توجد أسرة من اثنين شاذين، ذكرين كانا أو أنثيين، وقد أقرت الأمم المتحدة بوجود هذه الصور من الأسرة، ودافعت عن حقها في الحصول على الحماية، وطالبت الحكومات بإقرار ما تسميه "كل أشكال الأسرة "، وتقديم الحماية لها[1].

دور المؤتمرات الدولية:

وظهرت المؤتمرات الدولية التي تسوِّق الرؤية الغربية للمجتمعات، وتقدمها على أنها النموذج الأمثل دون سواه لهذه المجتمعات، وتجعل من الحكومات الوطنية مطية لتنفيذ هذه الإرادة الغربية، ومن أجهزتها حارسة على دقة التنفيذ الذي تقرر أن يخضع للمراجعة الدورية من قبل المؤتمرات الأممية، وقد تُفرض العقوبات الأدبية والاقتصادية والسياسية على المتمردين على تلك المقررات، أو المخالفين إياها، حيث اعتُبرت تلك الرؤية الغربية للعالم هي الصواب الوحيد، ووُصِم ما عداها بالتطرف والرجعية والظلامية والإرهاب.

في البدء نصَّ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة في مادتيه الأولى والثانية على حقوق الإنسان، وعلى المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الحقوق، دون تمييز من أي نوع: كالعرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين.

---

(١) راجع د. نهى القاطرجي: **الأسرة في أدبيات الأمم المتحدة) التحولات - العوامل- الآثار(**، رسالة ماجستير منشورة على شبكة الانترنت ص ٥-٦ على الرابط https://2u.pw/jG29vE

وفي سنة ١٩٧٩م اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو CEDAW)[١]، التي سنتحدث عنها أدناه، ثم عقدت أربع مؤتمرات حول المرأة والمساواة بين الجنسين، كان أهمها مؤتمرا القاهرة ١٩٩٤م، ومؤتمر بكين سنة ١٩٩٥ الذي أنتج إعلان بكين، وتقرر بعده أن يعقد مؤتمر كل خمس سنوات للنظر في تنفيذ ما تقرر في مؤتمر بكين[٢].

وتدور اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو CEDAW) حول مبدأ المساواة التامة بين الرجل والمرأة، وتجريم أي تمييز ضد المرأة، أو تفريق بين الجنسين، وتُلزم أطرافها - أي الدول الموقعة عليها – بتعديل أية تشريعات وطنية تخالف ذلك[٣]..

ويبدو فرض مفهوم المساواة المطلقة مثيرًا للمشكلات في المجتمعات الإسلامية التي قامت معتقداتها على أساس تحقيق العدل؛ مع الإيمان بقوله تعالى ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ومع التسليم بوجود الاختلاف في التكوين البيولوجي بين الذكر والأنثى يأتي التسليم بوجوب اختلاف الوظائف والمسؤوليات، في إطار الإلزام بتحقيق العدالة والتكامل بين الجنسين، ونشدان المودة والرحمة– وليس خلْق العداوة والتربص–

---

(١) تم اعتمادها من الأمم المتحدة في ٢٨ ديسمبر ١٩٧٩م. ثم أصبحت سارية المفعول بتوقيع خمسين دولة عليها في ٣ ديسمبر ١٩٨١م، وكلمة CEDAW اختصار للأحرف الأولى من:
Convention on the Elimination of All Forms of Discrimination Against Women

(٢) تقرير "المرأة والمساواة بين الجنسين"، موقع الأمم المتحدة، تم الاطلاع عليه في ١٥/ ٠٨/ ٢٠٢٢، الساعة ١٠ مساءً على الرابط الآتي: https://www.un.org/ar/conferences/women، وراجع عن هذه المؤتمرات فؤاد بن عبد الكريم العبد الكريم: **العدوان على المرأة في المؤتمرات الدولية**، نشر مجلة البيان، الرياض، ط١، سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٦–٨، ٥٢–٥٧.

(٣) "اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة"، منشورة على **موقع الأمم المتحدة** على الرابط https://cutt.us/XQ9c7، وتم الاطلاع عليها بتاريخ ١٥/ ٨/ ٢٠٢٢ الساعة ١١ مساءً.

والعمل على إيقاظ مشاعر الحرص على المصلحة الجامعة للأسرة، وليس البحث عن المصلحة الفردية والنفعية، في ظل نظر كل من الرجل والمرأة على أنه فرد مستقل، لا عضو في أسرة تحمل رسالة عمران الكون وفق مراد الله وشرعه.

مؤتمر القاهرة ومؤتمر بكين:

وفي مؤتمر السكان والتنمية الذي عقد بالقاهرة في الفترة ٥ -١٣ سبتمبر ١٩٩٤م، ظهرت مقاصد هذه المؤتمرات، وأنها تدور حول الحد من النمو السكاني، وهو هدف خبيث للغرب الذي يعاني قلة في عدد المواليد، تسببت في شيخوخة مجتمعاته، ولم لا وقد أصبحت مجتمعات تفر من تبعات الزواج والإنجاب وتربية الأولاد، وتبحث عن اللذة والمنفعة، في حين ما زالت المجتمعات الإسلامية والإفريقية فتيّة شابة، مما يهدد الغرب بتزايد معدلات الهجرة إليه، وتغيير تركيبته الديموغرافية، والتأثير في معدلات رخائه ورفاهيته.

فأباحت وثيقة المؤتمر الإجهاض، وأسمته "الحمل غير المرغوب فيه"، وطالبت الحكومات والهيئات والمنظمات غير الحكومية بتأمينه بشروطه الصحية.

وشجعت الفاحشة، وأسمتها "الممارسات الجنسية التي تقع خارج نطاق الزواج"، مما لا يترتب عليها إنجاب ووفرة، كما تحدثت عن ضرورة "وضع سياسات وقوانين تقدم دعمًا أفضل للأسرة، وتأخذ في الاعتبار تعددية أشكالها"، وتعددية أشكال الأسرة تعبير مقصود، إذ يُراد به زواج الجنس الواحد، والمعاشرة بدون زواج.

ويجب - بحسب الوثيقة- أن تكون حرية ممارسة الجنس مكفولة للجميع، مع ضمان توفير الحماية الصحية لأصحابها، وعلى الدول الالتزام بإلغاء القوانين التي تحد من ممارسة الأفراد نشاطهم الجنسي بحرية، وحماية الحاملات سفاحًا.

وبذلك تفتح الوثيقة الباب واسعًا للفساد الأخلاقي و"التحرر" الجنسي أمام المراهقين، حيث تطالب الدول بأن تحمي ما تعتبره "حقوق المراهقين" في الحصول على الثقافة الجنسية، وأن توفر لهم سبل الرعاية الصحية الجنسية والتناسلية، وأن "تزيل العوائق القانونية، والتنظيمية، والاجتماعية التي تعترض سبيل ذلك"[1].

ثم انعقد مؤتمر السكان في بكين عاصمة الصين سنة ١٩٩٥م، فأنتج ما أسموه "إعلان ومنهاج عمل بكين"، وفيه يقرر الخطوات العملية لتحقيق أهداف الحركات النسوية ومن يقفون وراءها، على نحو أكثر صراحة ووضوحًا..

ويعلن منهاج عمل بكين الحرب على المفهوم الشرعي المعروف للأسرة، حيث ينص - في مادته ٩٣ - على معارضته الزواج المبكر، والأمومة المبكرة للشابات، بحجة أن ذلك سوف "يحد بدرجة كبيرة من فرص التعليم والعمل"، في ذات الوقت الذي يدعو فيه إلى تيسير زنا المراهقين، وضرورة تثقيفهم وإمدادهم "بالمشورة والمعلومات والخدمات فيما يتعلق بالصحة الجنسية والإنجابية"، ويؤكد على "حق الشابات في الخصوصية والسرية والاحترام والموافقة المستنيرة"، ويحذر من عواقب "العلاقات الجنسية **غير المحمية** والسابقة لأوانها"، مما يوجب التثقيف الجنسي، وتوفير وسائل "الحماية" لتلك العلاقات!!

ويحدد المنهاج - في مادته ٩٤ - المقصود بالصحة الإنجابية، وأنها تعني "قدرة **الناس** (أي كل الناس؛ وليس الأزواج فقط) على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة، وقدرتهم على الإنجاب، وحريتهم في تقرير موعده وتواتره"، وأنه - وفقًا للمادة ٩٥ - يجب

---

(١) راجع د. الحسيني سليمان جاد: **وثيقة مؤتمر السكان والتنمية رؤية شرعية**، ضمن سلسلة كتاب الأمة، العدد ٥٣، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، جمادى الأولى سنة ١٤١٧هـ/ أكتوبر ١٩٩٦م ص ٥٥- ٦١.

"الاعتراف بالحق الأساسي لجميع الأزواج والأفراد (هكذا وليس الأزواج وحدهم) في أن يقرروا بحرية ومسؤولية عدد أولادهم، وفترة التباعد فيما بينهم، وتوقيت إنجابهم، وأن تكون لديهم المعلومات والوسائل اللازمة لذلك".. ولتقليل الناتج من أولاد الزنا فإنهم ينادون بإباحة "الإجهاض الآمن" على حد تعبيرهم، أي قتل الأجنة البشرية في بطون أمهاتهم في عصر حقوق الإنسان.. حيث إنه بحسب قولهم: "عمليات الإجهاض غير المأمون تهدد حياة عدد كبير من النساء، مما يمثل مشكلة خطيرة من مشاكل الصحة العامة"[1].

المستهدف من تلك الحروب والمؤتمرات:

ولنا أن نتساءل عن المستهدف من هذه الحملة الأممية الطاغية في ظل آليات التنفيذ المتاحة التي تمكنت منها منظومة العولمة؟ إذ يصعب تصور أن تكون المجتمعات الغربية هي المقصودة، فالأسرة في تلك المجتمعات قد تحللت حتى كادت تختفي، والمتبقي منها لا يستلزم احتشاد الأمم المتحدة على النحو الحادث، فلا يبقى إلا أن تكون المجتمعات الإسلامية والأسر المسلمة هي المقصد والغاية. فما زالت الأسرة في مجتمعاتنا عامل حماية للأمة، ومحضن تربية لأفرادها على عقائد الدين وقيمه وأخلاقه، وحارسة لتلك القيم من غارات الغرب عليها على مدى قرون..

وإذا كانت معظم النظم الحاكمة في العالم الإسلامي قد ألقت بقيادها إلى الغرب، وتيقنت أن لا بقاء لها؛ ولا استقرار إلا برضائه ومدده؛ وإذا كانت النخب المستغربة قد أعلنت ولاءها للغرب، واتخذته قبلة لها وملاذًا، ومرجعية لها وملهمًا؛ فإن الفرقة الناجية من الأمة؛ والعصيَّة على التدجين؛ ما زالت هي الأسرة المسلمة التي تشكل عصب

(١) تقرير المؤتمر العالمي الرابع المعني بالمرأة ببيجين، ٤-١٥ أيلول سبتمبر ١٩٩٥" على الرابط:
https://documents-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/N96/272/99/PDF/N9627299.pdf?OpenElementl

الحياة الرشيدة لهذه المجتمعات.. ولذا أجلب عليها الغرب بخيله ورجله، ووسائل قوته وعولمته ومؤسساته.

ولنا أن نتساءل لماذا صمتت المنظمات الدولية عن مآسي النساء اللاتي يعانين الجوع والقتل والتشريد والسجن في أماكن الاضطرابات والصراعات في العالم؟ ومعظمها في بلدان إسلامية، في العراق وسوريا ومصر واليمن والصومال وأفغانستان، وفي والبوسنة والهرسك وميانمار وتركستان الشرقية حيث الاغتصاب الموثق، والقتل الممنهج، والاعتقال الممتد، وفي أماكن الصراعات القبلية التي وقف الغرب أمامها متفرجًا كما حدث في رواندا بين قبائل الهوتو والتوتسي (١٩٩٠-١٩٩٣)..

هنا لا مجال لحديث المؤتمرات عن مساواة الرجل والمرأة، والحرية الجنسية للمراهقين، وتقنين الإجهاض، وضمان سلامة الحمل خارج نطاق الزوجية، وحقوق الشواذ والمتحولين جنسيًا الذين خصصت لهم الأمم المتحدة ما أسمته "اليوم العالمي لمناهضة كراهية المثلية"، وتنشر على موقعها أنه "أصبح يومًا مهمًا بالنسبة للملايين في جميع أنحاء العالم، يتوقفون فيه لتذكر ضحايا الخوف والعنف والتمييز ضد المثليين، ولدعم قضية المساواة الحقيقية للأشخاص المثليين[١].

وهم يلتمسون الأعذار لظاهرة الشذوذ الجنسي بالمبالغة في افتراض تأثير التنشئة الاجتماعية على شعور المرء بالذكورة أو الأنوثة، فالطريقة التي ينشأ بها الذكر والأنثى؛ وما يتعلمه، وما يتربى عليه، وما يوجهه من مؤثرات اجتماعية؛ هي التي تتحكم في ميوله، ومشاعره الجنسية، ولذا يأنفون من تسمية ذكر وأنثى، ويؤثرون وصف "الجندر" الذي

(١) راجع مقال "الأمم المتحدة تدعو الدول إلى إلغاء القوانين التي تميز ضد المثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية"، منشور على موقع الأمم المتحدة، في١٧ مايو ٢٠١٣، الرابط https://news.un.org/ar/story/2013/05/178512

يعبر عن إحساس المرء بذكورته أو أنوثته، وما يريده من الاختيار بينهما، فأيهما شعر به وأراده فهو كذلك، وإن تناقض مع واقعه البيولوجي..

أي أنه من حق الذكر إذا شعر أنه أنثى أن يعامل معاملة الأنثى؛ بما في ذلك الزواج من ذكر آخر، ومن حق الأنثى أن تتصرف كذلك، وفي هذا اعتراض على فطرة الله التي فطر الخلق عليها، وهو القائل ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وفيه تجاهل لحقائق الاختلافات الحيوية والعضوية والنفسية والعصبية والهرمونية، وانعكاساتها من ثم على الوظائف والأدوار السلوكية والاجتماعية[1]، وبدل الإقرار بتلك الاختلافات، وحسن التعامل معها وفق مراد الله، وتطويع التنشئة والتأثير الاجتماعي ليمضي كل نوع لما فُطر عليه، فإن البديل عندهم هو اللجوء إلى ذلك المسخ، وقسر العالم على الإقرار به، وتقبل جناياته عليه.

آليات تنفيذ المقررات الدولية:

ولكي تضمن هذه المنظمات الدولية تنفيذ مخططاتها، وتلبية أوامرها، فقد توسلت بعديد من الوسائل منها:

أولاً: الزام الدول الموقعة على الاتفاقيات الدولية بتغيير تشريعاتها القانونية، ومنها قوانين الأحوال الشخصية، أي ما يتصل بالأسرة. وهو ما تم بالفعل في عدد من الأقطار الإسلامية.

ثانيـًا: تقديم الدعم المادي والمعنوي للمنظمات غير الحكومية والنسوية، التي تتبنى الدعاية لهذه المقررات، مما يوفر لها قوة في الدعاية والتأثير، وقدرًا من الحصانة والاستقلال في مقابل التدخل الحكومي، ويجعلها أداة ضغط سياسي واجتماعي.

---

(١) أمل بنت عائض الرحيلي: **مفهوم الجندر وآثاره على المجتمعات الإسلامية، دراسة نقدية تحليلية في ضوء الثقافة الإسلامية**، مركز باحثات لدراسات المرأة، الرياض، سنة ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ص ٧٧-٧٨.

ثالثاً: استغلال الإعلام؛ بكل ما أصبح للإعلام من سطوة وتأثير، من خلال البرامج المخصصة للأسرة، والمرأة، والشباب، ومن خلال التغطية الإخبارية لأوضاع المجتمعات الغربية، وتطبيع الشاذ منها، وتقديم نموذج الحياة الغربية على أنه النموذج القدوة، وتزيين الفساد الجنسي من خلال الحوارات والمسلسلات والأفلام وغيرها.

رابعاً: تسخير التعليم لخدمة أهداف مقررات مؤتمرات الأمم المتحدة، من خلال تغيير المقررات العلمية التي تقدم الصورة النمطية للأسرة، وتأكيد الوعي باستقلالية المراهقين عن أسرهم، والعناية بمسائل الصحة الجنسية والإنجابية، وترسيخ الشعور بتفوق الإنسان والمجتمع الغربي.

خامساً: التشجيع على عمل المرأة، والتركيز على أهمية عملها خارج البيت، دون النظر إلى مناسبته طبيعتها ومسؤولياتها، والغض من قيمة عملها داخل بيتها الذي لا يحقق لها الاستقلال الاقتصادي والمعنوي[1].

(١) راجع د. نهي القاطرجي: الأسرة في أدبيات الأمم المتحدة ص ١٠-٢٠.

المبحث الثالث

تخريب العقائد بين التنصير والماسونية

أولاً: التنصير:

التنصير هو الدعوة إلى اعتناق النصرانية، أو إدخال غير النصارى في النصرانية. وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (١).

إن ثمة مقصدًا آخر يسعى إليه المنصرون حين عجزهم عن إدخال المسلمين في دينهم، ألا وهو إخراج المسلمين من دينهم، بتشكيكهم فيه، وإضعاف التزامهم به، ويعد المنصر الأشهر صموئيل زويمر أول من أوضح بجلاء ذلك القصد الخبيث، حيث قال لجموع المنصرين في مؤتمر التنصير الذي انعقد في القدس سنة ١٩٣٥ إبان الاحتلال البريطاني لفلسطين: "... ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها..."(٢).

ولعل هذا القول هو ما عناه شاتليه حين نقل عن زويمر قوله: "إنَّ لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين: مزية تشييد، ومزية هدم، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب"(٣).

---

(١) البخاري: الصحيح، كتاب الجنائز (حديث رقم ١٢٩٢)، مسلم: الصحيح، كتاب القدر (حديث رقم ٢٦٥٨).

(٢) عبد الله التل: **جذور البلاء** ص ٢٧٥، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ١٩٧١.

(٣) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٦-١٧.

صلات التنصير بالاستشراق:

للاستشراق دوره المشهود في التمهيد للاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، ونشير هنا إلى دور الاستشراق في حركة التنصير، حيث تصاحب الشرَّان منذ بدايتهما، فكان رائد الاستشراق ريموند لول[1] (١٢٣٥-١٣١٥م) رائدًا في التنصير، فهو "أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها"[2].. كما تلاقيا في الغرض والغاية، فاتفقا على التشكيك في عقائد المسلمين، وحرث الأرض لبذر بذور التحول عن الإسلام.

وقد أفاد المنصرون من الاستشراق، سواء في التعرف على عادات الشرق الإسلامي ولغاته وآدابه، وطرق تفكير أهله، والمداخل النفسية والعقلية للوصول إليهم، والتأثير فيهم، أو من ناحية كون جماعة من أكابر علماء الاستشراق أنفسهم كانوا منصرين كبارًا، منهم هنري لامنس البلجيكي (ت ١٩٣٧م)، وصموئيل زويمر (ت ١٩٥٢).. وزويمر هذا عمل رئيسًا لإرسالية التنصير في البحرين، وقام برحلات تنصيرية كبيرة في دول الخليج ومصر، كما أنه مؤسس مجلة "العالم الإسلامي"، أكبر المجلات التي تخصصت في قضية التنصير البروتستانتي؛ وضمت عددًا من أكابر المستشرقين، منهم لوي ماسنيون، ومنهم المسيو شاتليه، الذي رأس تحرير هذه المجلة[3].

---

(١) هو قس إسباني قطلوني تعلم العربية، وألف بها، وكان يلح في ضرورة تعليم المبشرين اللغات الشرقية، ويطلب إلى الأمراء والجامعات إنشاء المدارس لهذا الغرض، فقرر أحد المجامع الكنسية إنشاء كراسي لتعليم العربية واليونانية والعبرية والكلدانية في جامعات أوروبا الكبرى، وطاف هو منصرًا شمال إفريقيا ومصر وفلسطين والهند، ثم كانت نهايته في شمال إفريقية، حيث رماه أهل الجزائر بالحجارة، فمات على إثر ذلك في طريق عودته إلى إسبانيا (راجع عنه: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠١٤، ص ١٧٣-١٧٥).

(٢) شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٩.

(٣) راجع المصدر السابق ص ٨.

صلات التنصير بالاستعمار الغربي:

لقد ظل العالم النصراني في طور التراجع في جغرافيته وعقيدته إزاء تمدد الدولة الإسلامية وانتشار عقيدتها، واتساعها في الأراضي التي كان الغرب يبسط سيطرته عليها؛ في الشام ومصر وشمال إفريقية والأندلس وجزر البحر المتوسط وغيرها، حتى دار الزمن دورته، وحل الضعف بالمسلمين، وتفرقت وحدتهم السياسية، وتراجع أَلَقُهم الحضاري، وبدأ الاستعمار الغربي، مصحوبًا بالغزو الفكري، فأصبح التنصير جهدًا جماعيًا منظمًا، ترعاه قوى الاستعمار، وتدعمه آلياته وقدراته ووسائله..

"لقد جاء التنصير والمنصرون في ركاب الغزاة، وليس تعبيرًا عن صحوة إيمانية نصرانية في المجتمعات الغربية، بل لقد كان الأمر على العكس من ذلك تمامًا"[1].

وكان الاستعمار يخلق الأجواء المناسبة للتنصير:

فهو يملك أزمَّة القيادة والتحكم في البلاد المستعمَرة، فيستطيع من مركز قوته أن يفتح الأبواب واسعة أمام جيوش المنصرين، ويذلل الصعاب في طريقهم، ويوفر الوسائل لتحقيق غاياتهم، وإنجاح سعيهم.. ومن ذلك تشجيع التعليم الأجنبي، وهو أوسع مجالات التنصير، وأيسرها توفيقًا.

وهو يقهر الشعوب المستضعفة، ويُشعرهم بالدونية والذلة والاتضاع النفسي، فتنكسر مقاومتهم للغزو الفكري، وتهن عزائمهم في مواجهة سيل التغريب، وهجمات العلمنة، ويفرضها على مسارات الحياة السياسية والتشريعية والاجتماعية.. وفي أجواء الإكراه الثقافي تجد الكنائس سوقًا لتجارتها المجلوبة بحد السيف.

---

(١) د. محمد عمارة **الغارة الجديدة على الإسلام**، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٤١.

وهو ينزع عن الشعوب وسائل منعتها، فيضيق على العلماء، ويصادر الأوقاف القادرة على تسيير العمل المجتمعي المستقل، ويستبدل قوانينه بتشريعات الإسلام التي تحقق العدالة لأهله، وتحول دون تمييز الأجانب عليهم، ويشجع المؤسسات الاقتصادية الربوية، فيحول دون فرص العيش الكريم، وهو أرجى ما يريده المنصرون، حيث تتجلى قدراتهم في استغلال حاجات الفقراء لجذبهم إلى إغراءات العطاء الكنسي الوفير.

والاستعمار قد فتت الوحدة الإسلامية الجامعة، بعد نجاحه في إنهاء الخلافة، وتوزيع التركة بين بلدانه، وذلك مهد السبيل أمام غول التنصير ليقضم كل لقيماتها على مهل، وفي ذلك يقول شاتليه: "والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبيل لأعمال المدنية الأوروبية"[1].

فلما انتهت حقبة الاستعمار العسكري للعالم الإسلامي أدرك المنصرون ألا سبيل للإبقاء على هذه الصلة الذميمة التي تربطهم بالاستعمار، فتوقظ العداء لهم في عقول الشعوب التي تحررت منه، فأخذوا سبيلاً جديدًا يتبرأ من وشائج القربى القديمة الدامغة.

وبقيت مأساة الاحتلال الصهيوني لفلسطين، ودور الغرب النصراني في التمهيد لهذا الاحتلال، وزراعته، والاعتناء به، حائلاً يعرقل تأثير التنصير والمنصرين على المسلمين، ولذلك فقد تواصوا ألا يتورطوا في الدفاع عن ذلك الماضي البغيض والحاضر الدامي، في وسط يحمِّلهم أوزار الأجداد منذ العدوان الصليبي، مرورًا بحقبة الاستعمار الحديث، ووصولاً إلى جرائم الصهاينة[2].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٠.

(٢) راجع ماكري (دون): (محرر) **التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي** (وهو سجل أعمال مؤتمر التنصير العالمي المنعقد في كلورادو الأمريكية سنة ١٩٧٨م)، دار نشر Marc، (د. ن) ص ٢٠١، ٢٠٤.

من تاريخ التنصير:

ارتبط التنصير في إندونيسيا -وكانت تسمى جزر الهند الشرقية - بالاستعمار البرتغالي الذي شجع التنصير الكاثوليكي، فأنشأ المدارس الكاثوليكية، ومراكز التنصير، واستغل حاجة الناس الاقتصادية، ولم يقل الاهتمام بالتنصير الكاثوليكي بعد سيطرة هولندا على الجزر، برغم اعتناقها المذهب البروتستانتي، وتشجيعها التنصير على مذهبها أيضًا[١].

واستطاعت هولندا تنصير نحو مئة ألف **في جاوة** (بإندونيسيا حاليًا) سنة ١٧٢١، وقد قسمتها إلى مناطق في كل منها أقامت كنيسة ومدرسة[٢].

ومن المؤلم أن نشاط التنصير قد تزايد في البلاد بعد استقلالها، بل وُجد من أبناء البلاد المتنصرين من حمل رسالة التنصير على عاتقه، وشق بها مجالات جديدة، أقاموا حزبًا سياسيًا يعبر عنهم سنة ١٩٤٩م، أطلقوا عليه اسم "الحزب الكاثوليكي"، وهو الحزب الذي تجمعت حوله الأحزاب الكاثوليكية في الولايات المختلفة[٣]، وهو ملمح مهم إذ يدل على توطين التنصير في هذه الجهات منذ وقت مبكر من زمن الاستقلال الذي تم سنة ١٩٤٥م.

وفي سنة ١٩٦١ أنشأ النصارى الإندونيسيون مجلس رعاة الكنائس الإندونيسي، الذي تولى الإشراف على شؤون الكنائس الكاثوليكية جميعًا، ويدير كافة أعمال التنصير النشط في البلاد، حيث يعمل تحت إدارته آلاف المنصرين، فلا غرو أن حقق التنصير في إندونيسيا نجاحات كبيرة[٤].

---

(١) محمد صالح بن رحماني: **توطين التنصير في إندونيسيا**، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة ١٤٠٧هـ، ص٤.

(٢) شاتليه: السابق ص ٣١.

(٣) رحماني: المرجع السابق ص ٦.

(٤) رحماني: السابق ص ٦-٧.

ولم يقل نشاط البروتستانت عن الكاثوليك في التأسيس للعمل التنصيري هناك منذ وقت مبكر من الاستقلال، حيث أسسوا حزبًا سياسيًا عرف بـ"الحزب النصراني الإندونيسي" بعد ثلاثة أشهر فقط من الاستقلال، كما أسسوا مجلس الكنائس الإندونيسي الذي تغير اسمه بعد ذلك إلى "اتحاد الكنائس الإندونيسي"، الذي تولى الإشراف على النشاط الكنسي والتنصيري البروتستانتي، ويخضع لإشرافه آلاف الكنائس والمنصرين أيضًا[1].

واتخذ المنصرون في الهند من التجويع والقهر سلاحًا لهم، واستغلت شركة الهند الشرقية - وهي الإدارة البريطانية الحاكمة في الهند - جهازها الإداري في التنصير، فكان المنصرون يتقاضون مرتباتهم من الشركة، ويغري كبارُ موظفيها صغارَها، ويرتبون لقاءاتهم بالقساوسة المنصرين ليجذبوهم إلى البروتستانتية، ويزلزلوا عقائدهم، ويهدوهم كتبهم، ويغشون مجتمعاتهم في حماية الشرطة البريطانية، وربطت إدارة الشركة فرص الترقي الاجتماعي بتقبل إملاءات المنصرين، وفق خطة موضوعة، ومنهاج مرسوم، حتى قال أحد أعضاء البرلمان البريطاني سنة ١٨٥٧م: "الحمد لله الذي أرانا هذا اليوم الذي أصبحت فيه الهند تحت سيطرة إنجلترا، وأمكن أن يرفرف علم المسيح عليها كلها، وعلينا أن نجمع قوانا ونبذل جهدنا في تنصير شعب الهند، ولا نترك الكسل يستولي علينا"[2].

تنظيم التنصير في الهند من خلال مؤسسات:

ومن أجل مؤازرة التنصير في الهند تأسست "**جمعية لندن التبشيرية**" سنة ١٧٩٥، ثم ما لبثت أن تأسست **جمعيات أخرى** مناظرة في اسكوتلندا ونيويورك وألمانيا وهولندا والدانمرك والسويد، والنرويج والسويد وغيرها، وتوالى تأسيس **الجمعيات التنصيرية** في مختلف أرجاء أوروبا، واستهدف كثير منها اجتذاب الشباب الكنسي المتحمس للتنصير،

(١) رحماني: السابق ٨-١٠.

(٢) د. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص ٥٠٨.

وتدريبه، وتنظيم جهوده، واتجه قسم من نشاط هذه الإرساليات التنصيرية إلى تنصير الأطفال الهنود، مستغلين فقرهم واتضاع أحوالهم[١].

أما في إفريقيا؛ حيث بُذلت جهود هائلة لتنصير أهلها؛ فقد وقف الإسلام حجر عثرة في سبيل نجاحها، وفي ذلك يقول أحد المنصرين البارزين هناك؛ المستر "بلس": "إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقيا، والمسلم هو العدو اللَّدُودُ لنا، لأن انتشار الإنجيل لا يجد معارضًا لا من جهل السكان، ولا من وثنيتهم، ولا من مناضلة الأمم المسيحية وغير المسيحية"، وهو يرى أن المواجهة الأكبر بين المنصرين وخصومهم ستكون في شمال إفريقيا وغربها، حيث تتغلغل العقيدة الإسلامية[٢].

وقد بدأ التنصير الكاثوليكي في غرب إفريقيا مع الاستعمار البرتغالي في القرن الخامس عشر الميلادي، ولم ينشط التنصير البروتستانتي إلا في القرن التاسع عشر، حيث وجد منافسة وعداء ومزاحمة من المنصرين الكاثوليك، سواء في غرب القارة أم في شرقيها ووسطها[٣].

وفي القرن التاسع عشر أيضًا نشط التنصير في غرب آسيا وأراضي الدولة العثمانية، وتأسست كنيسة بروتستانتية في الآستانة سنة ١٨٤٦، وأصبحت مركزًا عامًا لأعمال التنصير، واستهدف المنصرون النصارى المخالفين للمذهب البروتستانتي، اليعاقبة والنسطوريين، والأقلية النصيرية في سوريا، والـدروز في جبل لبنان، فضلاً عن المسلمين[٤].

---

(١) راجع شاتليه: السابق ٣١-٣٥، ٤٣.

(٢) شاتليه: السابق ص ٣٦-٣٧.

(٣) شاتليه: السابق ص ٣٧-٣٨.

(٤) السابق ص ٤٠-٤١.

التنصير في القرن العشرين:

تنظيم المؤتمرات التنصيرية:

كانت المؤتمرات التنصيرية تنعقد منذ القرن التاسع عشر، لكنها كانت مؤتمرات محلية في كل بلد، منها مؤتمر "مدراس" بالهند الذي كان يُعقد كل عشر سنوات..

لكن القسيس " زويمر " رئيس إرسالية التبشير العربية في البحرين كان أول من ابتكر فكرة عقد مؤتمر دولي عام يجمع إرساليات التبشير البروتستانتية في العالم للتفكير في مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين في مطلع القرم العشرين، سنة ١٩٠٦م، وقد انعقد المؤتمر في القاهرة في ٤ أبريل سنة ١٩٠٦م، وبلغ عدد مندوبي إرساليات التبشير الذين حضروا فيه ٦٢ بين رجال ونساء، واختار زويمر الذي اختير رئيسًا للمؤتمر - بدهاء - أن يكون عقد المؤتمر في بيت الزعيم المصري أحمد عرابي[١]، الرجل الذي حارب الإنجليز، حتى غُلب سنة ١٨٨٢، ولم يكن عرابي يملك بيته إذذاك، فقد عاد من منفاه سنة ١٩٠١، لكنه ظل محرومًا من بيته وأملاكه - التي صودرت بعد الاحتلال - ومقيمًا في بيت أبنائه[٢].

وضوح أهداف التنصير:

إنه تحويل العالم الإسلامي عن دينه، وهو هدف كبير؛ فيما يراه زويمر الذي يقول: "إن تنصير العالم الإسلامي مهمة كبيرة وصعبة جدًا، ومثبطة للهمة في بعض الأحيان... إن تنصير العالم الإسلامي ليس مجرد عبارة نتبادلها بسهولة، بل هو هدف عميق نسخر

---

(١) شاتليه: السابق ص ٩, ٤

(٢) محمود محمد شاكر: **أباطيل وأسمار**، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د. ت) ص ١٥٨، محمود شيت خطاب: **الوسيط في رسالة المسجد العسكرية**، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، سنة ١٩٨١، ص٣٠٢.

له حياتنا، وعمل مشبع بالإيمان، وجهد محبة، وصبر في انتظار أمل تأجل طويلاً، ولكنه لن يموت"[١].

وفي سبيل ذلك الهدف يجب أن تذلل الصعاب، "لا توجد أرض مغلقة أمام الكتاب المقدس، فأينما وُجد أتباع المسيح وجد الكتاب المقدس معهم"[٢].

أما مؤتمرات الحوار بين العالمين الإسلامي والمسيحي التي يعلن عنها مجلس الكنائس العالمي[٣] فلا تعدو أن تكون عملًا دعائيًا لا يعبر عن حقيقة أهداف التنصير، ففي تقرير مؤتمر كلورادو ١٩٧٨م يقول المنصر آرثر كلاسر:"نحن نواجه تحديًا عندما نقف على أبواب العالم الإسلامي، ولكننا كمنصرين نرفض أن نحصر دعوتنا في تطوير وتحسين العلاقات النصرانية الإسلامية، أو أن ننشغل بخدمات اجتماعية نقوم بها نيابة عنه، لقد حدد لنا يسوع المسيح برنامجنا، ولمحبتنا له فنحن مجبرون أن نلتزم أيضًا بالتفويض الذي منحه للكنيسة لتنصير العالم الإسلامي"[٤].

تفرق المسلمين يقوي آمال التنصير:

ويقرر بعض زعماء المنصرين أنه مفعم بالأمل في إمكانات نجاح تنصير المسلمين، ويقول "هنالك على الأقل حقيقتان معاصرتان تؤيدان هذا التفاؤل: أولاً: الخلافات والفرقة في داخله، والضغوط التي تدعو إلى التغيير والتي تهاجمه، لاحظوا أن الإسلام لم يعد ذلك الدين المتماسك؛ كما كان عاده يوصف في السنوات الماضية، بل هو عالم من الخلافات الواسعة والتفرق[٥]..

---

(١) التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي ص ٦٢٤.

(٢) التنصير، مرجع سابق ص٦٢٦.

(٣) راجع عن جهود مجلس الكنائس العالمي وصلته بالتنصير، وتقييم المنصرين لعمله (التنصير ص ٧٢٤-٧٣٩).

(٤) التنصير ص ٥٣.

(٥) التنصير ص ٢٧.

ويبالغ في تصوره عن تفرق الأمة الإسلامية، فيعلي من شأن بعض النتوءات الناشفة على جسد الأمة، وكأنه يسوي بينها وبين تيارها الهادر الوسطي السني، فيقول: "إن هنالك اكثر من ٥٠ أمة تقول إنها إسلامية، كما توجد جاليات إسلامية في إكثر من ١٥٠ دولة، وتوجد ٣٥٠٠ مجموعة فرعية من المسلمين في إنحاء العالم، كما أن المسلمين ليسوا شعبًا واحدًا؛ فإن الإسلام ليس عقيدة موحدة، فهناك الإسلام الشعبي الذي يتبعه ملايين المسلمين، والذي هو خليط من الأرواحية[١] والتقاليد، وهنالك الإسلام الأسود الذي تدين به الأقليات السوداء في أمريكا، كما يوجد أيضا الدين الاسلامي المدني الذي يمارسه ظاهريًا المتعلمون والطبقات الراقية من المسلمين، الذين يفتقرون داخليًا إلى الإيمان الحقيقي، وتطبق أقلية نسبية الإسلام المستند إلى تعاليم القرآن والسنة النبوية"[٢].

التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي تُطمع التنصير:

يضاف إلى اختلاف المسلمين أنفسهم أن الإسلام كعقيدة يتعرض لضغوط عديدة: منها اندفاع المسلمين لتقليد الغرب، والأفكار العلمانية، والتغيرات الاجتماعية"[٣]، ويعني بها تلك التغيرات التي أصابت المجتمعات البدوية العربية نتيجة النفط؛ فقادتها إلى التمدن على النمط الغربي.

حجم الجهاز التنصيري العالمي:

تقدم الأرقام المأخوذة من النشرة الدولية للبحوث الإرسالية النصرانية عن التنصير وأنشطته في العالم سنة ١٩٩١ بعض المؤشرات على حجم الأجهزة التنصيرية التي تشكل جيشًا يشن حربًا ضروسًا ولا أخلاقية ضد الإسلام وأمته، ومن هذه الأرقام:

---

(١) تعني الأرواحية الاعتقاد بأن كل شيء له روح حتى الجمادات، وأن هذه الأرواح ينبغي استرضاؤها.

(٢) التنصير ص ٢٧-٢٨.

(٣) التنصير ص ٢٨.

١- أن عدد مؤسسات التنصير وإرسالياته ووكالات الخدمة النصرانية يبلغ ١٢٠,٨٨٠ مؤسسة.

٢- والمعاهد التي تؤهل المنصرين وتدربهم يبلغ عددها ٩٩،٢٠٠ معهد.

٣- والمنصرون المحترفون العاملون يبلغ تعدادهم ٤،٢٠٨،٢٥٠

٤-عدد المجلات التي تصدرها المؤسسات التنصيرية يبلغ ٢٤،٩٠٠ مجلة.

٥- عدد محطات الإذاعة والتلفاز التي تبث التنصير ٢،٣٤٠ محطة.

٦- نسخ الاناجيل التي وزعتها مجانًا في عام واحد ٥٣ مليون نسخة.

٧-دخل الكنائس العاملة في التنصير ٩٣٢٠ مليار دولار[١].

تطوير وسائل التنصير:

إن المطلع على توصيات مؤتمر زويمر سنة ١٩٠٦ التي عرضها شاتليه في كتابه، وتوصيات مؤتمر التنصير العالمي الذي انعقد في كلورادو الأمريكية سنة ١٩٧٨ سيجد تشابهًا كبيرًا في الوسائل الأثيرة لدى المنصرين لغزو العالم الإسلامي، إلا أن الوسائل الحديثة تطورت بما يناسب التطور السريع الحادث في نحو سبعين سنة هي الفارق بين المؤتمرين.

ومن هذه الوسائل التي خضعت للتطوير والتحسين والابتكار أحيانًا:

١- الإفادة من التعليم الأجنبي:

يقول شاتليه موجهًا الاستعمار الفرنسي سنة ١٩١٠: "ينبغي لفرنسا أنْ يكون عملها في الشرق مبنيًا قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية"[٢].. ويعني بذلك التعليم الأجنبي..

---

(١) د. محمد عمارة: **الغارة الجديدة على الإسلام**، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) **الغارة على العالم الإسلامي**، ص١٣.

ويقول: ولا شك في أنَّ إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية، تعجز عن أنْ تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلّا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية فبنشرها اللغات الإنجليزية، والألمانية والهولندية والفرنسية، يتحكك الإسلام بصحف أوروبا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية، التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها[1].

وللحديث عن التعليم الأجنبي وآثاره الخطيرة على الهوية الإسلامية موضع آخر.. ولكننا هنا نشير إلى تأثير التعليم الأجنبي في التنصير في الهند مثلاً.. حيث يسرت شركة الهند الشرقية البريطانية في الهند -وهي سلطة الاحتلال هناك- إقامة المدارس التنصيرية للبنين والبنات، ينشئون فيها الأجيال الجديدة بطريقتهم، ووفق تقاليدهم، ومع تعليم الهنود اللغة الإنجليزية تولَّد الإعجاب بالمستعمر ودينه، حتى كتب اللورد ماكولي -السياسي البريطاني المسؤول عن التعليم في الهند - في رسالة إلى أبيه من الهند يقول: "لقد أثر هذا التعليم في الهند كثيرًا، حتى لا يوجد واحد منهم يعرف الإنجليزية وبقي على صداقته لدينه، وإني متيقن أننا إن ثابرنا على خطتنا التعليمية التي وضعتها فسوف لا يبقى هندوسي على دينه في مدة ثلاثين سنة"[2]. وعبارته الأخيرة لا تعني أنهم كانوا يستهدفون الهندوس فحسب بالتنصير، بل تعني أن خطتهم كانت تلقى النجاح الأكبر مع الهندوس على خلاف المسلمين الذين طالما اشتكى المنصرون من صعوبة حلحلتهم عن دينهم.

٢- مراعاة خصوصية البيئات الثقافية للمسلمين:

ومن وسائل التنصير التي أقرها مؤتمر زويمر والتي رآها المؤتمرون جاذبة للمسلمين، محببة إليهم: العزف بالموسيقى، وعرض مناظر الفانوس السحري عليهم، وأن يخاطبوا

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٧-١٨.

(٢) راجع د. النمر: المرجع السابق ص ٥٠٦-٥٠٨.

العوام المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم، ويجب أن تلقى الخطب عليهم بأصوات رخيمة وبفصاحة، وأن يخطب المبشر وهو جالس ليكون أشد على السامعين، وأن لا تتخلل خطاباته كلمات أجنبية عنهم، وأن يبذل عنايته في اختيار الموضوعات، وأنه من الضروري أن يكون المنصر خبيرًا بالنفس الشرقية وأن يستعمل التشبيه والتمثيل أكثر مما يستعمل القواعد المنطقية التي لا يعرفها الشرقيون[١].

أما في مؤتمر كلورادو فقد وضعوا التصور التفصيلي لتنصير المسلمين من خلال استخدام لغتهم ومفهومهم الثقافي وبيئاتهم المحلية[٢].. وفي ذلك يقول المنصر دون ماكري: "إن إرساليات التنصير كانت ترفض دائما ثقافه المسلم المتنصر، وتفرض عليه ثقافه المنصِّر، وعمليه الاقتلاع هذه؛ والإصرار على هذا التحويل المزدوج؛ أي تحويل المسلم إلى المسيح أولاً، وإلى ثقافه المنصر ثانيًا؛ قد تكون حقًا أهم أسباب عدم فاعليه العمل في صفوف المسلمين"[٣].

وعلى ذلك تواصوا أن يتجنب المنصرون إثارة حفيظة المسلمين ومواجهتهم.. فلا ضرورة لتسمية المتنصر الجديد مسيحيًا، واستبدال ذلك بتسمية "مسلم عيسوي"، وكذا استخدام تسمية "مسجد عيسوي" على مكان عبادة هؤلاء المتنصرين الجدد بدل كلمة "كنيسة"، وإمكان أن يؤدي هؤلاء الصلاة وهم واقفون، ويرفعون أيديهم في أثنائها كما يفعل المسلمون، وأن تفرش هذه الكنائس أو "المساجد العيسوية" بالحصر كما تفرش مساجد المسلمين[٤]، بل يرون أنه لا ضرر من اتخاذ يوم الجمعة يومًا أسبوعيًا للصلاة

(١) شاتليه: السابق ص ٥٣-٥٤.
(٢) راجع التنصير ص ٦٦٣.
(٣) التنصير ص١٢.
(٤) التنصير ص ٦١٢-٦١٣.

وبدء الأسبوع الجديد بدل يوم الأحد المعهود عند النصارى[1]، كما نصحوا بملء شهر رمضان بالعمل الروحي والدروس الدينية؛ كما يفعل المسلمون[2].

٣- التجديد في خطاب الدعوة والإعلام كمًّا وكيفًا:

يقرر المنصرون أن النجاح الذي صادفوه في تنصير المسلمين كان محدودًا جدًا؛ بالقياس إلى تنصير غيرهم، ويرون أن من أسباب ذلك الإخفاق أن وسائلهم في الدعوة لدينهم من خلال الكتابات والمطبوعات كانت منفرة، ومثيرة لمشاعر الرفض والغضب عند المستهدفين بالدعوة، حيث كانت تهاجم المسلمين، وتتحدث بصوره سلبية عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وبسبب ذلك أصدرت لجنه المطبوعات النصرانية للمسلمين قرارًا في لاهور(وكانت في الهند آنذاك) عام ١٩٣٥ بإيقاف المطبوعات المتداولة والتي تتضمن الهجوم على النبي محمد[3].

وعلى ذلك فقد أقروا بأنه من الخطأ إعادة الحياة إلى الكتابات والمطبوعات القديمة، وأنهم بحاجه الى "كتابات جديدة لكل جيل، ومطبوعات مختلفة لكل بلد وشعب، ويجب أن يفيض هذا الأدب بروح الحاضر؛ اذا اردنا له ان يجد اذانًا صاغية، إن أي جيل جديد يتطلب ادبًا جديدًا"[4].

ووجه المنصرون اهتمامًا كبيرًا إلى وسائل الإعلام المفترض إنشاؤها، أو تطوير أدائها، ومن ذلك تأسيس مجلة أو مجلات للدعوة للتنصير، يتجه بعضها إلى المنصرين أنفسهم بغية تجميع جهودهم، ورفع كفاءاتهم، وشحذ هممهم، وتتجه أخرى إلى المسلمين

(١) التنصير ص ٦١٤.
(٢) التنصير ص ٦١٤-٦١٥.
(٣) التنصير ص ٥٥٤.
(٤) التنصير ص ٥٦١.

الذين تأثروا بالتنصير بدرجة أو أخرى، وأولئك الذين تنصروا بالفعل، لتكون وسيلة لتكملة الطريق معهم[١].

أما الإذاعات ومحطات الإرسال التلفزيوني التنصيرية فقد بلغ عددها ٢٣٤٠ محطة، سوى ما تديره دول ومؤسسات كنسية أخرى، وقد تأسست رابطة الشرق الأوسط للاتصالات التي تشرف على كل هذه الإذاعات، وتنسق جهودها[٢].

وبعض هذه الإذاعات ناطق بالإنجليزية، وبعضها ناطق باللغات الأخرى، لضمان الوصول إلى جميع المستهدفين بالتنصير[٣].. ولمعالجة التأثير الهش والنجاح المحدود لهذه الإذاعات - على كثرة عددها، ووفرة الاعتمادات المالية لها- فقد قرروا تطوير محتواها ليحقق تواصلاً أفضل مع المسلمين لدعوتهم من مكان قريب، بانتهاج الأساليب غير المباشرة التي تتجنب الاصطدام المتعجل بمعتقدات المسلمين وثقافتهم.

لقد قرروا مؤانسة المستمعين من خلال الموسيقى الشعبية العربية، والأغاني المحببة إليهم، ويقولون: إنها كانت "بمثابة طُعْم" لجعل المسلمين يستمرون في الاستماع إلى برامجهم، ومن ذلك أنهم قدموا منشدًا للنصوص المقدسة عندهم؛ صاحب صوت جميل "ينشدها كما يرتل المسلمون القرآن، وأن قراءة الكتب المقدسة بهذه الطريقة غيرت الموقف تمامًا، فقد وردتنا مثل هذه الاستفسارات: أي جزء من القرآن يقرأ هذا المنشد"؟ ثم استطاع ذلك المنشد - بمرافقة آخر مثله - أن يغنيا قصصًا من الإنجيل بلحن شرقي رائق، وهكذا اتخذت الدراما وسيلة للتنصير" ولكن كان من الصعب الحصول على عدد كافٍ من الممثلين ليقوموا بأداء الأدوار في هذا المجال"، وكانت الأدوار الكوميدية التي يؤديها ممثلون عرب موضع ترحيب في هذا الشأن[٤].

---

(١) راجع التنصير ص ٧٦٢-٧٦٨.

(٢) د. محمد عمارة: الغارة الجديدة على الإسلام ص ١٩٣.

(٣) التنصير ص ٦١١.

(٤) التنصير ص ٥٤٥-٥٤٧.

وبينما كان "شيخ مسلم متنصر"(!!) يعد بعض البرامج الدينية، ويلقي الموعظة كشيخ مسلم،وبنفس الأسلوب، ولكن المحتوى كان من الإنجيل، وكان برنامجه يقدم دائما يوم الجمعة، وكانوا يستخدمون في هذه البرامج نفس المصطلحات الإسلامية، فمثلا يستعملون اسم "عيسى" بدلاً من "يسوع" أو "المسيح"[١].

وضمن محتويات البرامج الإذاعية كانت برامج تعليم اللغة الإنجليزية للناطقين بالعربية؛ التي كانت تبثها هيئة الإذاعة البريطانية BBC، وقد منحت تلك البرامج للمؤسسات التنصيرية، وسُمح لهم بإذاعتها، وقد أجروا تعديلات على السلسلة واستخدموها "كطعم"- بحسب تعبيرهم أيضًا- وفي ختام إذاعة تلك الحلقات كان المذيع يسأل عما إذا كان أحد مستمعيه يرغب في نسخة مجانية من كتاب يحتوي على العربية والإنجليزية جانبا إلى جنب، وعندئذ يرسلون إليه نسخة من الإنجيل بالعربية والإنجليزية[٢].

كما استخدمت برامج الرحلات في التنصير، منها -على سبيل المثال- برنامج عنوانه "مرحبا بك في قبرص"، يتحدثون من خلال عرض الأماكن السياحية في المدينة عن قصه القديس بولس، وكذا برنامج "مرحبا بك في لبنان" يفيضون فيه الحديث عن المظاهر الخلابة، والآثار السياحية، ويكون وسيله لجعل المستمعين يتواصلون معهم حتى يرسلوا إليهم نسخًا من الإنجيل، ويسجلونهم في برنامجهم ودورات المراسلة الخاصة بهم[٣].

٤- استغلال حاجات المسلمين المادية والمعنوية:

من وسائل التنصير التي عُني بها مؤتمر زويمر استغلال حاجات الناس، وسوء أوضاعهم الاجتماعية، فقد أوصى بتأسيس الإرساليات الطبية لهم[٤]، لكن هذه الوصية

(١) السابق ص٥٤٦.
(٢) السابق ص٥٤٦.
(٣) التنصير ص.٥٤٧
(٤) شاتليه: الغارة ص ٥٣.

المتعجلة تحولت إلى برنامج عمل شامل في مؤتمر كلورادو، حيث عمد إلى تفصيل حاجات المسلمين المادية والمعنوية ووضع تصور للإفادة منها في تنصيرهم..

يرى التقرير وجوب الإفادة من مشاعر الخوف والضعف الإنساني، وسوء الأوضاع الحياتية التي يعيشها المسلمون، وإن استغلال هذه الظروف هو السبيل الأنجع لإحداث تحول كبير من الإسلام إلى النصرانية، فيقول:" ولكي يكون هنالك تحول فلا بد من وجود أزمات معينة، ومشاكل، وعوامل إعداد وتهيئة تدفع الناس أفرادًا وجماعات خارج حالة التوازن التي اعتادوها، وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية مثل التفرقة العنصرية، أو الحساسية بسبب تسامح المجتمع تجاه النفاق، أو الوضع الاجتماعي المتدني. وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية"[1].

"إن التوصل إلى تحول جماهيري نحو المسيح يجب أن يشكل القاعدة الفلسفية لكل عملنا التنصيري بين المسلمين، إن الرب يريد ذلك، وكلمة الرب تؤكده"[2].

وهم بهذا يوجهون إلى ضرورة استهداف مجتمعات بأكملها بالتنصير الجمعي في مناطق تعاني أوضاعًا مأساوية، ويضربون على ذلك مثالاً بما حدث من تحول جمعي في إندونيسيا بين سنتي ١٩٦٥ و ١٩٧١، وما حدث في باكستان لما تنصر ١٨٠ فردًا في منطقة ريفية[3].

ويعبر التقرير عن نماذج لهذه الاهتمامات التي تشغل بحق المسلم – فيما يراه– فيقول:" إن عالم المسلم تهيمن عليه "العين الشريرة"، والمرض والموت واللعنات والسحر، فهو

(١) التنصير ص ٢٣٠.
(٢) التنصير ص ٦٠٨.
(٣) السابق ص ٢٣٥.

لا يلتزم بالإسلام القرآني، ولكن بإسلام أرواحي، يولد عن خواء في القلب..."هذا الجوع والخواء هو ما يجب أن يواجهه الشاهد النصراني، حيث إن المسيح هو الوحيد الذي يستطيع أن يشبعه"[١].

ويفرقون بين "إسلام الخاصة" المؤسس على الفهم العميق للإسلام والقناعة به، و"إسلام العامة" القائم على التعاويذ والطلاسم والخوف من السحر والجن، "فالسحر والشعوذة والتعاويذ تمثل الخلفية النفسية" لهؤلاء العامة، ويرى المنصرون أن هؤلاء العامة أقرب إلى تقبل النصرانية؛ حيث يفتنهم المنصرون بقدرتها على شفائهم وحفظهم من أسباب الخوف والردى[٢].

ويفرد التقرير صفحات لشرح طرق الإفادة من سوء الأوضاع الاجتماعية لكثير من المجتمعات الإسلامية التي يفشو فيها الفقر، ويدعو المنصرين إلى استغلال ذلك بحرص، فتوفير الغذاء، وبث القناعة في نفوس المستهدفين بأن مشاكل فقرهم قابلة للحل، وأن جهات التنصير قادرة على تغيير أوضاعهم البائسة؛ خطوات مهمة في اتجاه استجابتهم لجهود المنصرين، ويحتاج الأمر -بعد توليد هذه القناعة- إلى مهارات المنصرين ومواهبهم[٣]، كما أن تقديم النصائح لتربية غذائية سليمة، ونشر العادات الصحية السليمة، والعناية بالنساء في فترات الحمل والرضاعة، ونصحهن بالرضاعة الطبيعية التي تحفظ صحة أبنائهن، كل ذلك باب واسع من أبواب الدعاية للنصرانية، وإن كان من زاوية استغلال حاجات الناس وضروراتهم[٤].

---

(١) التنصير ص ١٨٩.

(٢) راجع التنصير ص ٢٩٠-٢٩٢.

(٣) راجع التنصير ص ٧٧٨.

(٤) راجع التنصير ص ٧٨٠-٧٨٤.

٥- الإفادة من تردي أوضاع النساء المسلمات:

أما المرأة فتلقى عناية عظمى عند المنصرين، لسهولة التأثير على كثيرات ممن تغلبهن العاطفة، ويضعف عندهن الالتزام بالدين، ويقدم المنصرون إليهن صورة شائهة عن أوضاع المرأة في الإسلام: مكانتها، وميراثها، وقوامة الرجل عليها[١]، كما يبالغون في تصوير المظالم التي تتعرض لها النساء في المجتمعات الإسلامية (البعيدة عن حقيقة الإسلام)، وسوء أوضاعهن بها، والسلطة المطلقة للرجال عليهن، وخوفهن الدائم من الأزواج، ومن الطلاق، ومن الحرمان من الثروة، وبخاصة حين مقارنة ذلك بما آلت إليه مكانة النساء في الغرب ومساواتهن بالرجال، وتوفير فرص العمل والاستقلال المادي لهن[٢].. وهنا يجب التنبيه إلى ثقة المنصرين في أنه كلما خطت المجتمعات الإسلامية في طريق الحضارة الغربية، وزاد إعجابها بها، وتسارعت خطوات التغريب والعلمنة فيها كلما قارب ذلك بينها وبين التحلل من الإسلام والسعي نحو النصرانية[٣].

ويفضل المنصرون التأثير على النساء المسلمات من خلال الدور الاجتماعي الذي تقوم به الأسر المسيحية الصديقة، أو القريبة منهن، مع الابتعاد عن مصادمة موروثهن الذي يقضي بإبداء الاحترام لمكانة الأزواج، وتقدير سلطتهم، مع العناية بإعطاء الأولوية لاجتذاب الشخصيات النسوية ذوات التأثير الاجتماعي والشخصيات الزعيمة، فضلاً عن النصيحة بوجوب مراعاة مخاوف النساء من الأرواح الشريرة والسحر والحسد، والتذكير المتكرر بقدرة روح المسيح على إبرائهن من الأذى، وشفائهن من المخاوف والوساوس والعلل[٤].

---

(١) راجع التنصير ص ٨١٤، د. محمد عمارة: الغارة الجديدة على الإسلام ص ١٦٩-١٧٦.

(٢) التنصير ص ٨١٤-٨١٨.

(٣) راجع التنصير ص ٤١٤.

(٤) راجع التنصير ص ٨٢٣-٨٢٦.

٦- السعي إلى تنصير الطلاب المسلمين في جامعات الغرب:

ويرقب المنصرون باهتمام تزايد عدد المسلمين الذين يسافرون الى الغرب، ويرون أن إمكانات السعي لتنصيرهم واردة لأنهم في اغترابهم يفتقرون الى الدعم التقليدي الذي تقدمه المجتمعات الإسلامية؛ "فيشعرون بالتمزق، ويكونون غير واثقين من أنفسهم، ويعيشون نمطًا من الحياة يختلف عن ذلك الذي يجب عليهم اتباعه"[١].. ويضرب بعضهم أمثلة على ما قاموا به للتقارب مع هؤلاء الطلاب من خلال أصدقائهم أو زملاء دراستهم[٢].

التنصير يحشد قواته:

ووضع المؤتمرون في مؤتمر كلورادو تصورًا لزيادة أعداد المنصرين، ورفع كفاءاتهم، ومن ذلك:

١- الاستعانة بالكنائس الوطنية:

يقول المنصر فرانك خير الله: إن المساعدات المقدمة من الكنائس الخارجية على شكل أموال وموظفين وخبرة ربما كان لها فائدة كبيرة، ولكن في نهاية الأمر فإن تنصير أهل البلاد سوف يتم بصورة أساسية من خلال النصارى المنتمين إلى الكنائس المحلية[٣].

إن هذا الإقرار بدور الكنائس المحلية في التنصير لا ينبغي أن يلفتنا عن تحفظ أكابر المنصرين على هذه الكنائس، مما تسبب في تنافس بين خطط التنصير الكاثوليكي والبروتستانتي، يقول شاتليه: "ولو كان المُبَشِّرُونَ الكاثوليك والبروتستان الذين يجتمعون

---

(١) التنصير ص ٢٨.

(٢) التنصير ص ٦٣١-٦٣٢.

(٣) التنصير ص ٧٩٢.

في بلاد إسلامية، ينتبهون إلى أن انقسامهم يحط من قدرهم، ويقلل هيبتهم، ويوطد أركان الإسلام، لكانوا على الأقل يوهمون بأنهم متفقون ظاهرًا"[١].

٢- الاستعانة بالمدنيين والعمالة الأجنبية في العالم الإسلامي:

يوضح بعض المنصرين الذين عملوا في شمال إفريقية أنهم قد اعتمدوا هناك على المدنيين النصارى العاملين في تلك المناطق من غير رجال الكنيسة، فحققوا نتائج جيدة، وأن العائق الرئيس كان تخوف هؤلاء من أن الدعوة المكشوفة إلى التنصر تعرض وظائفهم أو شركاتهم للخطر، غير أن اعتمادهم على المؤسسات التنصيرية الداعمة لهم كان مما يربط على قلوبهم، ومما يساعدهم على توفير وقت أطول لعملهم الديني[٢].

لقد اكتسب تجنيد هؤلاء المنصرين المدنيين أهمية ضافية بالنظر إلى الأماكن المغلقة التي تمنع التنصير، وتحول دون بناء الكنائس، مثل بعض دول الخليج، أو تلك التي اتخذت موقفًا معارضًا للتنصير لأسباب سياسية مثلما حدث في إثيوبيا وإريتريا في سبعينات القرن الماضي.

لقد وجدت المنظمات التنصيرية بغيتها في هذه العمالة الأجنبية التي تفتح لها بلدان الخليج وأقطار إسلامية أخرى أبوابها؛ ليصلوا إلى قناعة مفادها أنه "لا توجد أرض مغلقه أمام الكتاب المقدس، فأينما وُجد أتباع المسيح وُجد الكتاب المقدس معهم، وعلينا تدريب الأتباع سواء كانوا منصرين؛ أم موظفين تنفيذيين في حقول البترول أو في المشاريع الإنشائية"[٣].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٨.
(٢) التنصير ص ٣٦١-٣٦٢.
(٣) التنصير ص ٦٢٦.

كما أن تجنيد هؤلاء يقدم رافدًا متسعًا للمنصرين المحترفين، وقد أعطوا مثالاً على ذلك بأن أعداد المنصرين الأمريكيين لا يتعدى ١٪ من أعداد المدنيين الأمريكيين فيما وراء البحار، بحسب مصادر الخارجية الأمريكية[١].

وقد قام أحد المنصرين المدنيين الذين مارسوا التنصير إبان عمله مهندسًا في بلدان الشرق الأوسط؛ بعد أن تقاعد من عمله، بتأسيس وكالة في الولايات المتحدة لتعيين النصارى في أماكن حساسة في تلك البلدان[٢].

٣- تدريب المنصرين المدنيين والعمالة الأجنبية:

ولا ريب أن هؤلاء كانوا يحتاجون برامج لتأهيلهم، وتدريبهم على مهمات كنسية، لم يعتادوها كمدنيين، وكانت المنظمات الكنسية توفر لهم ذلك[٣]، أما المدربون فكانوا يُعدون إعدادًا خاصًا على مستوى احترافي عالٍ، حيث يتم تكوين "مجموعات صغيرة من المتخصصين من الرجال والنساء؛ من بقاع مختلفة من الشرق والغرب، حيث يقومون بدراسة عقيدتهم بعمق، إضافه إلى دراستهم الإسلام واللغة العربية،... إن مثل هؤلاء الناس يفضل أن يكونوا قد تخصصوا في الدراسات الإسلامية حتى مستوى الدكتوراه، ويقوم بعضهم بإجراء بحوث عليا متقدمة في نفس المجال، بينما يقضي الآخرون وقتا أطول في التدريس... فبدون هذه المجموعات من المتخصصين فإن الرسالة النصرانية الرسولية إلى المسلمين سوف تعاني من السطحية، ومن المحتمل أن تنحرف عنه وسائلها وأهدافها، ويمكن تدريب هؤلاء المتخصصين باستعمال الجامعات العلمانية والنصرانية، ومراكز البحوث الإسلامية والنصرانية، ومن خلال دراسات ميدانية"[٤].

---

(١) التنصير ص ٦٩٢؟

(٢) التنصير ص ٦٤٠-٦٤١.

(٣) التنصير ص ٦٢٥.

(٤) التنصير ص ٦٣٠

لقد تم بالفعل عقد عدد من الدورات التدريبية للعاملين الذاهبين إلى منطقه الشرق الأوسط من الباكستانيين والهنود والفلبينيين والكوريين... إلخ، جرى بعضها في معهد اللاهوت في كراتشي في الباكستان لباكستانيين ذاهبين إلى مناطق الخليج، وجرى بعضها في "ناسك" بالهند، للهنود المتجهين إلى الخارج[١].

وتجد المنظمات التنصيرية تبريرًا وأسوة لتجنيد العاملين في خارج أوروبا للعمل التنصيري، وذلك بالنظر إلى جهود الدعاة المسلمين المتطوعين عبر تاريخهم لنشر رسالة الإسلام، بالرغم من أنهم لا يجهلون الفارق المحسوس بين الحالين، إذ إن المحتسبين المسلمين يقومون بذلك العمل من منظور تطوعي مطلق، وبوازع داخلي صرف، ومن دون دعم أو توظيف لجهودهم من منظمات إسلامية أو حكومية غالبًا[٢].

٤- تكوين شبكة من مراكز الأبحاث الخادمة للتنصير:

حيث يتأسس العمل التنصيري على ركائز علمية، أو ركائز تدعي العلم والحيادية، وتمد المنصرين بالدورات والمراجع والكتب والمجلات والبحوث المتخصصة في أوضاع العالم الإسلامي، وفي اللغة العربية والدراسات الإسلامية، وبعض هذه المراكز يحمل أسماء علمية محايدة، مثل: معهد الآداب العربية بتونس، ومركز دراسات العالم العربي الحديث، بجامعة القديس يوسف في بيروت، ومشروع الإسلام في إفريقيا بمدينة نيروبي في كينيا، وغيرها[٣].

وفي مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨ تم الاتفاق على تأسيس مركز للبحوث التنصيرية، ينسق بين جهود هذا الحشد من المنصرين، ويوجههم، ويحمل اسم أشهر المنصرين في زمنه صمويل زويمر[٤].

---

(١) التنصير ص ٦٣٥

(٢) التنصير ص ٦٩٤

(٣) راجع التنصير ص ٦٥٢-٦٦٢.

(٤) التنصير ص٧.

ولعلنا نختم به هذه الإطلالة على حركة التنصير في عالمنا الإسلامي بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

إن هؤلاء لا يألون جهدًا ولا مالاً ليصدوا عن سبيل الله، وقد قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقد اعترف المنصرون أنفسهم بالحقائق التي عاينوها، حيث أظهروا في أكثر من بحث من مباحثهم حسرتهم على خيبة حصادهم بعد كل ما بذلوه من جهود وأعمار وأموال، وقالوا إن معظم المتنصرين المستجيبين لهم "إما مراهقون أو شباب غير متزوجين"[١].. وإن غالبيتهم "مسلمون بالاسم فقط"[٢].. وهو نفس ما قاله شاتليه الذي خالف زويمر في تفاؤله الخاص بتقدير أن مئات من المسلمين تنصروا سرًّا، واعترف شاتليه بصعوبة زحزحة المسلمين عقائدهم، إلا أن تكون حوادث محدودة[٣].

ثانيًا: الماسونية:

الماسونية - أو البناؤون الأحرار- هي منظمة عالمية غامضة، يلفُّها قدر كبير من السرية، يتشارك أفرادها عقائد وأفكارًا واحدة حول الأخلاق وتفسير الكون والحياة، والإيمان بخالق- بغض النظر عن تحديده - وتقبل انضمام جميع الناس - بشرط تزكية خاصة لراغبي العضوية- بغض النظر عن دياناتهم، وتحظر مناقشة الدين والسياسة[٤].

---

(١) التنصير ص ٣٥٨.

(٢) التنصير ١٤٢.

(٣) شاتليه: السابق ص ١٧-١٨.

(٤) راجع مادة (ماسونية) في ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط https://2u.pw/KEU6DF

وتكتفي الماسونية باشتراط الإيمان بوجود إله، يسمونه "مهندس الكون العظيم"، بغض النظر عن طبيعة ذلك الإله[١]، وتلك إحدى خبيثات أفكارهم، إذ الاعتراف بإله عندهم يعد عملاً تكميليًا يندسون به بين أصحاب الديانات كافة، وما الظن بإله قد يكون معبودًا مجردًا، أو مادة، واحدًا أو متعددًا، قادرًا فاعلاً أو منعزلاً متفردًا عن العالم، وقد يكون بقرة، أو فأرًا، أو وثنًا، وقد يترتب على الإيمان به اعتقاد في وجوب البعث والحساب، أو اعتقاد في حتمية الفناء الذي لا قيام بعده.. وهل يقود الإيمان الغامض بمثل هذا الإله إلى امتلاك رؤية كلية للكون والحياة، وللدنيا والآخرة، تلزم أصحابها بالعمل المنبثق عن ذلك الإيمان؟ أو الالتزام الوثيق بمنظومة أخلاق تستقيم بها الحياة، ويشرع لأجلها القانون؟

وتُفرض السرية داخل المحافل الماسونية؛ ودرجات العضوية فيها منذ بداياتها المليئة بالرموز، والإلزام الصارم بحفظ أسرار المنظمة، والتهديد بمعاقبة من يفشي شيئًا منها، وأنها "تحفظ أسرارها بصمت، أو "حرز حريز"، وولاء مطلق"، وهي أستار كثيفة جعلت الظنون تحيط بها، وبما يجري داخلها[٢]. ويأخذ أحد مشاهير الماسون العرب جرجي زيدان على الماسونية "شدَّة محافظة أعضائها على التستر في أعمالهم، إلى حد أوجب إساءة الظنون واختلاف الأقاويل"[٣]، ثم يبرر ذلك بمقولة يسوقها على لسان الماسونية نفسها، فتقول: "ليس بين أسراري ما يهمكم استطلاعه، إنما هي إشارات ورموز جعلت واسطة للتعارف بني أبنائي المختارين، فلا يقوى غير المختار على التلبس بالدعوى،

(١) سامي مروان مبيض: **شرق الجامع الأموي، الماسونية الدمشقية ١٨٦٨-١٩٦٥**، رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٦م، ص ٤٢.

(٢) سامي مروان مبيض: المرجع السابق ص ٤٣.

(٣) جرجي زيدان: **تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذا اليوم**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٧.

فيسترق من حقوقهم المقدسة ما ربما لا يكون له أهلاً، فيفسد في الأرض، فإذا كثر أمثاله عمّت البلوى، وربما آلت إلى انفصام عروتي"[1].. فلا يزيد بتلك التبريرات إلا غموضًا وإدانة وشكًّا.. ثم تعلن الماسونية عن اعتزازها واستهانتها بآراء أعدائها، أو المرتابين فيها، فتقول - فيما يسوقه زيدان على لسانها-: " على أني لم أعدم نُصَراء من ملوككم وسلاطينكم وعلمائكم وفلاسفتكم وقادة أديانكم، فما أنا خاشية سطوتكم، ولا أنا راجية نُصرتكم"[2].. وهي بذلك المنطق تخالف شعاراتها الداوية: حرية - إخاء- مساواة.

أما نشأة الماسونية فجرى حولها اختلاف عريض، فبينما يجعل بعضهم تاريخ نشأتها في القرن السابع عشر أو الثامن عشر، يرجع بعضهم به إلى عصر الحروب الصليبية، بل يعود بها آخرون إلى عصر سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو إلى الكهانة المصرية والهندية، وتقود الهلاوس بعضهم إلى الزعم بأن "الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسسها في جنة عدن، وإن الجنة كانت أول محفل ماسوني، وميخائيل رئيس الملائكة كان أول أستاذ أعظم فيه"[3].. فما أعظم الفرية على الله وجنته وملائكته!

المحافل الماسونية منتدى الكبراء والزعماء:

واجتذبت الشعارات البراقة للماسونية كثيرًا من المثقفين المولعين بالغرب، كما اجتذبت جماعات من الثائرين المثاليين المتطلعين إلى الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية، أو الراغبين في تحقيق مزيد من الوجاهة السياسية بالتحاقهم بهذه المنظمات النخبوية، أو الإفادة من العلاقات الاجتماعية المتشابكة لأعضائها، وكثير من هؤلاء كانوا غافلين عن طبيعة هذه الماسونية وارتباطها باليهود والاستعمار، وأهدافها التي تستبعد

(١) جرجي زيدان: السابق ص ١٢.
(٢) جرجي زيدان: السابق ص ١٢.
(٣) جرجي زيدان: السابق ص ١٣.

الدين من التأثير الاجتماعي، وتوهن رابطته في النفوس.. ومن الصعب تصور أن هؤلاء الكبراء جميعًا كانوا خائنين لأوطانهم ودينهم، مع اختلاف توجهاتهم السياسية والدينية.. وإن ظل انخداعهم بهذه المنظمات السرية الغامضة والمثيرة للريب موضع مؤاخذة.

تأسس أول محفل ماسوني في الدولة العثمانية في إسطنبول سنة ١٧١٧م، في عهد السلطان أحمد الثالث، وانتسب عدد من كبار رجال الدولة إليها، منهم الصدر الأعظم إبراهيم باشا (١٧١٧-١٧٣٠م)، ورشيد باشا سفير الدولة العثمانية سنة ١٨٥٢، الذي أسس جمعية ماسونية في إسطنبول بالتعاون مع السفير البريطاني[١]، وانتسب إلى الماسونية مراد الخامس - وقت أن كان وليًا لعهد السلطان عبد العزيز - في أثناء زيارته إلى لندن برفقة السلطان سنة ١٨٦٧[٢]، ومحمد فؤاد باشا الذي شغل مرتين منصب الصدر الأعظم للسلطان عبد العزير، ومدحت باشا الذي تولى عدة مرات منصب الصدر الأعظم في عهد عبد العزيز وعبد الحميد، ومن المفكرين والصحفيين نامق كمال باشا وضياء باشا.. فضلا عن عديد من قادة الاتحاد والترقي على رأسهم طلعت باشا وجمال باشا وعمانويل قره صو[٣].

وقد بلغ عدد الماسونيين الأتراك في عام ١٨٨٢ حوالي عشرة آلاف، كان منهم عدد من الوزراء والنواب وقادة الجيش، ولما تولى السلطان عبد الحميد أمر بإغلاق جميع المحافل الماسونية في سلانيك بسبب ارتباطاتها الدولية[٤].

---

(١) د. أحمد نوري النعيمي: **اليهود والدولة العثمانية** ص ١٧٦.

(٢) أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢-٧٢.

(٣) النعيمي: السابق ص ١٧٧-١٧٨ حاشية الصفحتين، نقلًا عن المجلة الماسونية العدد ٢٧/ ٢٨، سنة ١٩٢٥.

(٤) النعيمي: السابق ص ١٧٧، هدي درويش: حقيقة يهود الدونمة ص ٤٦.

وفي مصر انتسب جمال الدين الأفغاني إلى محفل "كوكب الشرق" التابع للمحفل الماسوني الأسكتلندي سنة ١٨٧٦م، ثم أصبح رئيسًا له في العام التالي، وضم إليه عددًا كبيرًا من أصحاب النفوذ في مصر[١]، قبل أن يدبر مؤامرة سياسية بذهابه إلى القنصلية الفرنسية في القاهرة، وطلبه من القنصل السعي لعزل الخديوي إسماعيل، وتولية ابنه توفيق مكانه؛ وكان آنذاك من مريدي الأفغاني، ونشر ذلك في بعض الصحف الموالية له، مما أدى إلى عزل الأفغاني من المحفل الماسوني لتجنب المشكلات التي يمكن أن تحدث، ثم طُرده من مصر سنة ١٨٧٩م[٢].

وفي سبيل الدفاع عن جمال الدين الأفغاني يرى د. محمد عمارة أن هذا المحفل كان تابعًا للمحفل الفرنسي، وليس البريطاني الأسكتلندي، وأن انتماءه إليها كان لمقاومة الاستعمار الإنجليزي، لما بين فرنسا وبريطانيا من تنافس وصراع [٣]..

وإنكارنا هنا في الأساس متجه إلى الانتماء إلى جمعية أجنبية، لا دينية، يشوبها الغموض، على حد قول الأفغاني نفسه: إنها والمنتمين إليها يقفون "عند حدود رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها، ولا المراد من وضعها"، وأنه عندما يدخلها "أخٌ جديد" يُتلى عليه من **أساطير الأولين ما يمل، ويخل في عقيدة الداخل**[٤]، وليس النكير متجهًا إلى كونها بريطانية أو فرنسية المنشأ، وكان الفرنسيون من مجرمي المستعمرين؛ كالبريطانيين أو أشد سوءًا وأعظم جرمًا..

---

(١) بحسب أوراق الأفغاني الخاصة التي نشرتها جامعة طهران سنة ١٩٦٣م، (د. علي شلش: **الماسونية في مصر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣م، ص ٤٤-٤٥).

(٢) المرجع السابق ص ٤٨-٥٠.

(٣) **جمال الدين الأفغاني المفترى عليه** ص ٩٥.

(٤) المرجع السابق ص٩٦- ٩٧.

ويبدو التساؤل وجيهًا حين يوجه إلى الداعية الثائر؛ حاد المزاج: ما الذي أكرهك على قبول أساطير الأولين التي تمل النفس، وتُخِل العقيدة حين دخلت تلك الجمعية الماسونية؟ بل حين أسست ذلك المحفل؛ وكنت رئيسه؟

كما يبدو مستغربًا قول د. محمد عمارة: "تلك هي قصة الأفغاني مع الماسونية، إنها صفحة من صفحات صراعه ضد الاستعمار، والاستعمار الإنجليزي على وجه الخصوص"[١].

أما الخديوي توفيق فقد أصبح رئيسًا للمحفل الماسوني سنة ١٨٨٨م[٢].

كما أسس محمد فريد – خليفة مصطفى كامل في زعامة الحزب الوطني بمصر، وأحد المدافعين بقوة عن الخلافة العثمانية – محفلاً ماسونيًا، وظهرت أسماء شخصيات كبيرة في شتى المجالات ضمن أعضاء ورموز الماسون المصريين، مثل: سعد زغلول، وأخيه أحمد فتحي زغلول، وعبد الخالق ثروت، وعلي شعراوي، وأحمد ماهر، وفؤاد سراج الدين، ومن الأدباء: أحمد زكي أبو شادي، وولي الدين يكن، ومن الفنانين يوسف وهبي، وبعض أبرز مشايخ الأزهر الشريف، منهم شيخ الأزهر حسن مأمون، ومحمد أبو زهرة، وبعض كبار الجيش المصري[٣].

من المؤكد إذن خفاء حقائق الماسونية عن كثير من الشخصيات الكبيرة التي انضمت إليها، وأنها كانت تبدو – في فتراتها الأولى قبل أن تتكشف حقائقها – مثل نادٍ اجتماعي للنخبة وعلية القوم، يسارعون إليه لمزيد من الوجاهة الاجتماعية، والسياسية بالتبعية.

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٧.

(٢) علي شلش: السابق ص ٥٧-٥٨.

(٣) علي شلش: السابق ص ٥٩-٦٠.

إننا نجد نفس الظاهرة في الشام، حيث كانت الماسونية قبل مئة عام تقريبًا "ذات شعبية كبيرة في سوريا، ضمت بين صفوفها معظم الآباء المؤسسين للدولة السورية... حتى إن أحد عشر من رؤساء الوزارة السوريين في عهد الانتداب الفرنسي وبداية الاستقلال كانوا من الماسون، ومعهم ثلاثة من وزراء خارجيتها، واثنان - على الأقل - من رؤساء الدولة: الزعيم فوزي سلو والعقيد أديب الشيشكلي"[١].

واحتضنت الماسونية كثيرًا من المفكرين والصحفيين من نصارى الشام، من أبرزهم شاهين مكاريوس - الذي يعد أشهر مؤرخي الحركة الماسونية ودعاتها - ويعقوب صروف وإبراهيم اليازجي وخليل مطران وجرجي زيدان، والسياسي القومي فارس نمر، وقد قاومت بعض الكنائس المسيحية هذه الحركة، وعانت التضييق من العامة، فانتقلوا إلى مصر تحت حماية الاحتلال الإنجليزي، فباضوا بها وأفرخوا، وانفتحت أمامهم أبواب التأثير وبخاصة ما أسسوه من صحف؛ منها المقتطف والمقطم واللطائف[٢].

دور اليهود في الحركة الماسونية:

وبالتدريج بدأت أصابع اليهود تتضح في محافل الماسون.. وقد "وجد اليهود في الماسونية ما وجده فيها المسيحيون الشوام: مظلة للحماية، ووسيلة لاكتساب عطف الأغلبية واحترامها، فضلاً عن كونها مجالاً خصبًا للعلاقات العامة التي لا تتيسر المصالح بدونها"[٣]، وتركز نشاط اليهود الماسون في الإعلام، وتأسيس المحافل ونشرها[٤].

لقد بدا واضحًا تأثير الصهيونية على الحركة الماسونية، بالرغم من أستار السرية المضروبة عليها، وقد طلب حاييم وايزمان من المحفل الوطني المصري إصدار بيان

---

(١) سامي مروان مبيض: شرق الجامع الأموي، ص ٢١-٢٢.
(٢) علي شلش: السابق ص ٦٣-٦٦.
(٣) شلش: السابق ص ٦٩.
(٤) السابق ص ٧٠-٧١.

يطالب فيه الفلسطينيين بالتزام الهدوء تجاه اليهود في أثناء الاحتفال بمولد النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأصدر المحفل ذلك النداء في ٢ أبريل سنة ١٩٢٢م، الذي طالب بإفساح المجال لليهود في سبيل فائدة الوطن المشترك وعظمته، مما ترتب عليه أصداء واسعة اتهمت الماسونية بالخضوع للصهيونية، والخيانة للحق العربي في فلسطين، والتدخل في أمور السياسة بما يناقض ميثاقها المعلن بترك التدخل في أمور الدين والسياسة، وانقسمت الماسونية على نفسها، ولم تُجدِ محاولات معالجة الأمر[١].

ثم كان إقامة الدولة الصهيونية سنة ١٩٤٨م إفاقة للأمة على خطورة الماسونية، وتغلغل التأثير الصهيوني فيها، وقامت الثورة المصرية في ١٩٥٢، وسيطر حكم الفرد على البلاد، وأخضعت جميع الأحزاب والجمعيات لإرادة الدولة، باسم القانون، ورفضت الماسونية التفتيش على مقارها وأنشطتها، والإفصاح عن مصادر تمويلها ونفقاتها، فصدر قرار بحل الجمعيات والمحافل الماسونية سنة ١٩٦٤م، ثم تتابعت الدول العربية على إصدار قرارات مماثلة[٢]، مما أدى إلى زوال هذه المحافل، والبحث عن مسارات أخرى لتنفيذ الأهداف الماسونية العالمية.

أذرع جديدة للماسونية:

ومن الغفلة الظن باستمرار الحذر أو العداء للماسونية في العالم الإسلامي، فقد ظلت تمارس أخطر أدوارها مدعومة بالصهيونية، ودوائر المال والإعلام اليهودي، وتشكلت في أشكال أخرى لم تتكشف مخاطرها كاملة مثلما تكشف خطر الماسونية الأم، فظهرت أندية الروتاري[٣] والليونز، وتظاهرت بالعمل الخيري، وعمدت إلى ضم الشخصيات

(١) السابق ص ٩٥-٩٩.

(٢) شلش: السابق ص ١١٣-١١٦.

(٣) أسس المحامي بول هاريس سنة ١٩٠٥ أول ناد للروتاري في شيكاغو، وجاءت التسمية من التعبير الإنجليزي In Rotation ويعني "بالتناوب"، حيث كانت اجتماعاتهم تتم بالتناوب بين الأعضاء، (جمعية الإصلاح الاجتماعي بدولة الكويت: حقيقة نوادي الروتاري والليونز، ط٣، سنة ٢٠١١م، ص٢٤).

السياسية والمالية والاجتماعية البارزة، التي استطاعت من خلالها النفاذ إلى دوائر الحكم في كثير من دولنا الإسلامية، وتجتهد أندية الروتاري أن تتحكم في عضوية أفرادها، فلا ينضم أحدهم إلى النادي إلا باختيار إدارة النادي نفسه، ويكون ممثلاً لإحدى المهن، وتمثل المهنة بممثل واحد، أو اثنين، وتكون الاستثناءات محدودة، إذ ترغب إدارة الروتاري في التحكم في نوعية أعضائها[1]، ويضم الروتاري فروعًا للشباب والشابات لمن تقل أعمارهم عن ١٨ سنة يسمى إنتراكت (Intract)، وفروعًا للشباب والشابات لمن أعمارهم بين ١٨ و٣٠ سنة تسمى (Roteract)، وثالثة للنساء تعرف باسم إنرويل (Inner weel)..وقد اتسعت عضوية النادي بمرور الوقت لتشمل في سنة ٢٠٠٦حوالي مليون ومئتي ألف عضو في ٣٢ ألف نادٍ؛ من ٢١٠ دولة ومنطقة جغرافية[2].

أما أندية الليونز(Lions Clubs International) فقد تأسس أولها سنة ١٩١٧ من قبل ملفن جونس، وهو رجل أعمال من مدينة شيكاغو، ولديها قائمة عضوية حالية تضم ١,٤ مليون عضو حول العالم، وتشبه في نظامها وعضويتها جمعية الروتاري، حيث لا يستطيع أحد الانضمام إليها بإرادته، بل باختيار من إدارة النادي نفسه، وقد كان مؤسسها عضوًا في المنظمة الماسونية، وكذا كثير من أعضائها البارزين، وتتجه نشاطاتها إلى نفس الوجهة التي تدعي العمل الخيري، وتقديم الرعاية الاجتماعية والطبية، ومساعدة الطلاب والباحثين... إلخ[3].

قامت نساء الطبقات العليا في المجتمع بدور كبير في دعم أنشطة هذه النوادي، والترويج لها من خلال مجموعات معقدة من العلاقات الاجتماعية وشبكات المصالح.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧-٢٨.

(٢) مادة الروتاري الدولي، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط: https://2u.pw/VglRvH

(٣) راجع جمعية الإصلاح الاجتماعي بدولة الكويت: المرجع السابق ص ٣٣-٣٤، ومادة "نوادي ليونز الدولية"، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط: https://2u.pw/be4iSz

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية القديمة:

ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠):

الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٧

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله الحسني (ت ٥٦٠هـ):

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٩هـ

البخاري محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ):

صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، ط ٥، سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ):

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، سنة ١٤١٧هـ

البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت ٤٨٧هـ):

المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة ١٩٩٢م

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ):

فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة١٩٨٨م

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ):

سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٦

ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم الحراني(ت ٧٢٨هـ):

مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م

الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥هـ):

البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة ١٤٢٣هـ

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت ١٢٣٧هـ):

تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، (د. ت)

الحاكم، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ):

المستدرك على الصحيحين، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١١/ ١٩٩٠

ابن حجر العسقلاني:

الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد، ١٩٩٣م

فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية (د. ت)

الحميدي، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح الأزدي (ت٤٨٨هـ):

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٦م

الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ):

الروض المعطار في خبر الأقطار، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٠م

ابن حنبل، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ):

مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وأخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل (ت ٣٦٧هـ):

صورة الأرض، دار صادر، بيروت، أوفست ليدن، سنة ١٩٣٨م

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت ٨٠٨هـ):

تاريخ ابن خلدون (المسمى العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط١، سنة ١٩٨١

مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، سنة ٢٠٠٤م

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت٦٨١هـ):

وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٤م

الخطيب البغدادي:

الفقيه والمتفقه، حققه أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، سنة ١٤٢١هـ

خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري (ت ٢٤٠هـ):

تاريخ **خليفة بن خياط**، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، سنة ١٣٩٧هـ

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٠٥هـ):

سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، مؤسسة الرسالة العالمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩

الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨هـ):

معجم شيوخ الذهبي، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢هـ):

المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٢

الرافعي، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٢٣هـ):

فتح العزيز بشرح الوجيز، تحقيق علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

ابن رجب الحنبلي عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي (ت ٧٩٥هـ):

جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، سنة٢٠٠١م

ابن أبي زرع، علي بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي (ت ٧٢٦هـ):

الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٢م

ابن زنبل الرمال أحمد بن علي بن أحمد (ت بعد ٩٨٠هـ):

آخرة المماليك تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٩٨م

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ):

طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، سنة ١٤١٣هـ

السخاوي محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ):

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجبل - بيروت، ط١، ١٩٩٢

المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المنتشرة على الألسنة، تحقيق د. محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٥م.

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت ٤٩٠هـ):

شرح السير الكبير، الشركة الشرقية للإعلانات، القاهرة، سنة ١٩٧١م

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ):

الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، سنة ١٩٦٨م

السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن (ت ٥٨١هـ):

الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، سنة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ):

تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٧هـ.

ابن عبد الحكم:

فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، سنة ١٤١٥ هـ

الغزالي، محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ):

إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (د. ت)

فاتحة العلوم، المطبعة الحسينية، القاهرة، ط١، سنة ١٣٢٢هـ

مقاصد الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة، ١٩٦١

المنقذ من الضلال، تحقيق د. عبد الحليم محمود، نشر دار الكنب الحديثة، القاهرة، (د. ن)

القرافي، أحمد بن إدريس الصنهاجي (٦٨٤هـ):

الفروق، أو أنوار البروق في أنواء الفروق، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)

ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن عليّ بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ):

تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت ٧٥١هـ):

أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، رمادى للنشر، الدمام، ط١، سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

الكاساني، أبو بكر بن مسعود بن أحمد (ت ٥٨٧هـ):

بدائع الصناع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

ابن كثير:

البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، سنة ١٤٠٨/ ١٩٨٨م

مالك بن أنس بن عامر الأصبحي (ت ١٧٩هـ):

المدونة، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م

الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ):

الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة (د.ت)

المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ):

أخبار الزمان، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ):

صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م

ابن مفلح، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الحنبلي (ت ٧٦٣هـ):

الآداب الشرعية، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، سنة ١٩٩٩م

المقري، أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ):

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٩٧م

المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (ت ٨٤٥هـ):

الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة، ١٨٩٥م

الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق (ت ٤٣٠هـ):

حلية الأولياء، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٩٧٤م

ابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، (ت ٢١٣هـ):

السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط٢، سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م

الهمذاني رشيد الدين بن فضل الله (ت ٧١٨هـ):

جامع التواريخ، (الإيلخانيون)، ترجمة محمد صادق نشأت وصاحبيه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ت)

الهيتمي، أحمد بن محمد بن علي بن حجر (ت ٩٧٤هـ):

تحفة المحتاج في شرح المنهاج، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٨٣م

ياقوت الحموي:

معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٥م

ثانيًا: الكتب العربية الحديثة:

إبراهيم علي طرخان:

إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة عام ١٩٧٣م

أحمد أمين:

زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت)

أحمد تاج الدين:

الأكراد تاريخ شعب وقضية وطن، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١

أحمد حافظ عوض:

فتح مصر الحديث، أو نابوليون بونابارت في مصر، مطبعة مصر، سنة ١٩٢٥

أحمد حسين الصاوي:

المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط٥، سنة ٢٠٠٩م

أحمد سعيد نوفل:

دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ط٢، سنة ٢٠١٠م

أحمد الشكري:

الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، سنة ١٩٩٩م

أحمد شوقي:

الشوقيات، دار العودة، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٨م

أحمد عبد الحميد مصطفى:

في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، سنة ١٩٨٦م

أحمد عبد الكريم:

حصاد سنين خصبة وثمار مرة، بيسان للنشر والتوزيع، سنة ١٩٩٤

أحمد عرابي الحسيني (الزعيم):

كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية، ١/ ٢٧٠، مطبعة مصر، (د.ت)

أحمد عزت عبد الكريم:

تاريخ التعليم في عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٣٨م

أحمد فارس الشدياق:

الساق على الساق، نشر باريس سنة ١٨٥٥م

أحمد لطفي السيد:

تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٣م

أحمد محمود الساداتي:

تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الآداب، القاهرة، (د.ت)

أحمد مختار العبادي:

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت)

أحمد نوري النعيمي:

اليهود والدولة العثمانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٧م

إسماعيل أحمد ياغي:

الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

إسماعيل أحمد ياغي ومحمود وشاكر:

تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، مكتبة دار المريخ للنشر، الرياض، سنة١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م

إسماعيل علي محمد:

الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، سنة ٢٠٠٠

إسماعيل محمد حصاف:

كوردستان والمسألة الكوردية، مؤسسة موكرياني للبحوث والنشر، أربيل، ط١، سنة ٢٠٠٩م

إسماعيل مظهر:

وثبة الشرق، مؤسسة هنداوي، القاهرة، (د.ت)

أبو الأعلى المودودي:

نحن والحضارة الغربية دار الفكر، دمشق، (د. ت)

أكرم الحوراني:

مذكرات أكرم الحوراني، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د. ت)

أكرم زعيتر:

القضية الفلسطينية، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٥٥م

آمال السبكي:

تاريخ إيران السياسي بين ثورتين ١٩٠٦-١٩٧٩، سلسلة عالم المعرفة (٢٥٠)، المجبس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ١٩٩٩م

أمل بنت عائض الرحيلي:

مفهوم الجندر وآثاره على المجتمعات الإسلامية، دراسة نقدية تحليلية في ضوء الثقافة الإسلامية، مركز باحثات لدراسات المرأة، الرياض، سنة ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

أمين الريحاني:

ملوك العرب، دار الجيل، بيروت، ط٨، سنة ١٩٨٧م

أنطوان زحلان:

هجرة الكفاءات العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٤،

أنطونيوس كرم:

العرب أمام تحديات التكنولوجيا، عالم المعرفة(٥٩)، الكويت، سنة ١٩٨٢م

أنور الجندي:

تاريخ الغزو الفكري والتعريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٢٠-١٩٤٠، دار الاعتصام، القاهرة (د. ت)

أنيس منصور:

من أوراق السادات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، (د. ت)

أورخان محمد علي:

السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عصره، مكتبة الأسرة العربية، ط١، سنة ٢٠١٩م

إيلي ليفي أبو عسل:

يقظة العالم اليهودي، دار الفضيلة، (د.ت)

برهان غليون:

اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٤، ٢٠٠٦م

بشير زين العابدين:

الجيش والسياسة في سوريا ١٩١٨-٢٠٠٠، دراسة نقدية، دار الجابية، ط١، سنة ٢٠٠٨م

بكر بن عبد الله أبو زيد:

المدارس العالمية، الأجنبية الاستعمارية تاريخها ومخاطرها، دار ابن حزم، دار ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م،

تاج السر أحمد حران:

حاضر العالم الإسلامي، إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

جبران خليل جبران:

البدائع والطرائف، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١٣م

جمال الدين الأفغاني:

مجلة **العروة الوثقى لا انفصام بها**، حققها وضبط نصها وعلق عليها عبد الرحمن أبو ذكري، تنوير للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٢١م

جمال حمدان:

استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٣م

العالم الإسلامي المعاصر، نشر عالم الكتب، ط١، سنة ١٩٧١م

جمال الدين الشيال:

تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٥٠م

جمعية الإصلاح الاجتماعي بدولة الكويت:

حقيقة نوادي الروتاري والليونز، ط٣، سنة ٢٠١١م

جميل عارف:

صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، المكتب المصري الحديث، القاهرة، سنة ١٩٧٧م

جرجي زيدان:

تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذا اليوم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م

تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٢

حامد محمود عيسى:

المشكلة الكردية في الشرق الأوسط منذ بدايتها حتى سنة ١٩٩١، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٩٩٢م

حسن إبراهيم حسن:

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٤، سنة ١٩٩٦م

حسن أحمد محمود:

الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٨٦م

حسن البنا:

مجموعة رسائل الإمام البنا، البصائر للبحوث والدراسات، ط٢، سنة ٢٠١٠

أبو الحسن الندوي:

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، دار الندوة للتوزيع، لبنان، ط٢، سنة ١٩٦٨م

الحسيني سليمان جاد:

وثيقة مؤتمر السكان والتنمية رؤية شرعية، ضمن سلسلة كتاب الأمة، العدد ٥٣، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، جمادى الأولى سنة ١٤١٧هـ/ أكتوبر ١٩٩٦م

حسين مؤنس:

أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٧م

فجر الأندلس، مكتبة العصر الحديث للنشر والتوزيع، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٢م

موسوعة تاريخ الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٦م

حلمي أحمد شلبي:

تاريخ الإذاعة المصرية، دراسة تاريخية ١٩٣٤-١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٥م

حمدي شاهين:

الدولة الأموية المفترى عليها، دار القاهرة للكتاب، ط١، سنة ٢٠٠٢م

الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، دار الهاني للطباعة، (د.ت)

حمدي عبد الرحمن:

الجيوش والسياسة في الخبرة الإفريقية، الفصل الثاني من كتاب" **الجيوش والتحول الديمقراطي في إفريقيا**"، منتدى العلاقات العربية والدولية، لمجموعة باحثين، تحرير حمدي عبد الرحمن، ط١، سنة ٢٠١٥م

خالد عقلان:

الجذور التاريخية للقضية الكردية، المعهد المصري للدراسات، ملفات إقليمية، ١٨ مايو ٢٠١٧م

خير الدين التونسي:

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠٢٢م

خير الدين الزركلي:

الأعلام دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، سنة ٢٠٠٢ م

رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي):

ديوان الأعاصير، طبع في مطبعة مجلة الشرق، (د.ت)

رفاعة الطهطاوي:

الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، تحقيق د. محمد عمارة، نشر مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة ٢٠١٠م

تخليص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٢م

المرشد الأمين في تربية البنات والبنين، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة، ط١، سنة ١٢٩٢هـ

مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٤م

رجاء حسين حسني الخطاب:

تأسيس الجيش العراقي وتطور دوره السياسي من ١٩٢١-١٩٤١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م

رضا نور:

أتاتورك ورفاقه ونهاية العثمانيين (مذكرات رضا تور)، تحرير وتعليق د. أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٢٠م

رضا هلال:

السيف والهلال تركيا من أتاتورك إلى أربكان، الصراع بين المؤسسة العسكرية والإسلام السياسي، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٩م

رفعت العوضي:

عالم إسلامي بلا فقر، كتاب الأمة، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، سنة ٢٠٠٠م

زكريا سليمان بيومي:

قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، عالم المعرفة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، سنة ١٩٩١

زياد أبو غنيمة:

السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، دار عمّان للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، سنة ١٩٨٩

زين نور الدين:

نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، دار النهار للنشر، بيروت، ط٤، سنة ١٩٨٦م

زينب عبد العزيز:

مئتا عام على حملة المنافقين الفرنسيس، (د. ن)، ١٩٩٨م

سامي مروان مبيض:

شرق الجامع الأموي، الماسونية الدمشقية ١٨٦٨-١٩٦٥، رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٦م

سعيد إسماعيل علي:

دور التعليم المصري في النضال الوطني زمن الاحتلال البريطاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥

سعيد شبَّار:

مختصر الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط١، ٢٠١٦

سعيد عبد الفتاح عاشور:

الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، سنة ١٩٧١م

سلامة موسى:

اليوم والغد، المطبعة العصرية، القاهرة سنة ١٩٢٨م

سهيل زكار:

مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية (ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م

سيد بن حسين العفاني:

أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، جدة، الطائف، المملكة العربية السعودية، ط١، سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م

السيد عبد العزيز سالم:

تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط٢، سنة ١٩٨٢م

السيد عبد العزيز سالم، و د. أحمد مختار العبادي:

تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٦٩م

شكري فيصل:

المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، سنة ١٩٨١م

شكيب أرسلان:

تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دمشق، ط١، سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

"**التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي؟ تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية ١٢٨١-١٩١٣م**"، علق عليه وقدم له محمد العبده، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٥م.

صبري جريس:

تاريخ الصهيونية، مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، سنة ١٩٨١م

طارق البشري:

دراسات في الديمقراطية المصرية، دار الشروق، القاهرة، ط ١، سنة ١٩٨٧م

المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٨٠م

طه حسين:

مستقبل الثقافة في مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٤م

عابد بن محمد السفياني:

دار الإسلام ودار الحرب وأصل العلاقة بينهما، رسالة ماجستير من كلية الشريعة، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤٠٠-١٤٠١هـ

عبد الحي بن فخر الدين الحسني:

الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى "نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

عبد الرحمن حسن حبنكة:

أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها – التبشير – الاستشراق – الاستعمار، دار القلم، دمشق، ط٨، سنة ٢٠٠٠م

عبد الرحمن الرافعي:

تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، سنة ١٩٥٥م

ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١، دار المعارف، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٨٧م

عصر محمد علي، دار المعارف، القاهرة، ط٥، سنة ١٩٨٩

مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٤٨م

عبد الرحمن بدوي:

موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، سنة ١٩٩٣م

عبد الرحمن الكواكبي:

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ٢٠١١م

عبد الرحيم سعيد:

مستقبل المشروع الكردي في سوريا دراسة تحليلية، مركز جسور للدراسات، يناير ٢٠٢٠

عبد الستار فتح الله سعيد:

الشريعة الربانية المعجزة والقوانين الوضعية العاجزة، شركة منارات للإنتاج الفني والدراسات، القاهرة، ط٢، سنة ٢٠١١

عبد العزيز سليمان نوار ود. محمود محمد جمال الدين:

التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٩٩م

عبد العزيز محمد الشناوي:

الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٨٠م

عبد الفتاح الغنيمي:

حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، سنة ١٩٨٥م

عبد القادر عودة:

التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي، دار الكاتب العربي، بيروت، (د.ت)

عبد الكريم زيدان:

أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م

عبد الله التل:

جذور البلاء، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، سنة ١٩٧١م

خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، دار القلم، سنة ١٩٦٤

كارثة فلسطين، دار الهدى، سنة ١٩٩٠م

عبد المجيد النجار ومحمد الغمقي ومحمد المستيري:

البعد الحضاري لهجرة الكفاءات، كتاب الأمة العدد ٨٩، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ - أيلول (يوليو)- آب (أغسطس) ٢٠٠٢م

عبد المنعم النمر:

تاريخ الإسلام في الهند، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

عبد الوهاب خلاف:

السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، دار القلم، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

عبد الوهاب المسيري:

فكر حركة الاستنارة وتناقضاته، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٨م

قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، سلسلة في التنوير الإسلامي رقم ٣٨، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، أغسطس ٢٠١٠م

من هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟ أسئلة الهوية وأزمة الدولة اليهودية، دار الشروق، القاهرة، ط٦، سنة ٢٠٠٩م

الهوية والحركية الإسلامية، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٩م

عثمان السعدي:

الأصول العربية للبربر، منشورات الطليعة، سنة ١٩٨٨

عثمان كامل حداد:

حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١، المكتبة العصرية، صيدا، (د.ت)

عز الدين موسى:

دراسات إسلامية غرب إفريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

عزتلو يوسف بن آصاف:

تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٥م

عصمت عبد اللطيف دندش:

دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، دار الغرب الإسلامي، ط١، سنة ١٩٨٨م

عصمت عبد المجيد بكر:

المدخل إلى النظام القانوني في العهدين العثماني والجمهوري التركي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠١٢م

عقيل الناصري:

الجيش والسلطة في العراق الملكي ١٩٢١-١٩٥٨، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، سنة ٢٠٠٠

علال الفاسي:

الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار نشر عبد السلام جسوس، طنجة، المغرب، (د.ت)

علي شلش:

الماسونية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣م

علي الوردي:

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، نشر انتشارات الشريف الرضي، قم، سنة ١٩٧٤

عمر رضا كحالة:

معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت)

عمر طوسون (الأمير):

بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، سنة ١٩٣٣م،

البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول وسعيد، مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية، سنة ١٩٣٤

صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي، الجيش المصري البري والبحري، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٩٩٠م

عمر فاخوري:

نهضة العرب، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠٢٠م

فهمي هويدي:

إيران من الداخل، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٩١م

فؤاد بلخير:

التعاون في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية الحقوق، ٢٠٠٩-٢٠١٠م

فؤاد بن عبد الكريم العبد الكريم:

العدوان على المرأة في المؤتمرات الدولية، نشر مجلة البيان، الرياض، ط١، سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

فؤاد عبد المعطي الصياد:

المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨٠م،

قاسم عبده قاسم:

ماهية الحروب الصليبية سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٤٩، الكويت، سنة ١٩٩٠م

قيس جواد العزاوي:

الدولة العثمانية قراءة جديدة في عوامل الانحطاط، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط٢، سنة ٢٠٠٣م،

كريم مطر حمزة الزبيدي:

تاريخ إيران الحديث، (د.ت)، (د. ن)، على الرابط: https://:2u.pw/VcjkIC

لطيفة محمد سالم:

مصر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٩م، وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤

مازن بلال:

المسألة الكردية، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م

مالك بن نبي:

شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسعاوي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سنة ١٩٨٦م

مثنى أمين الكردستاني:

حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر، دراسة إسلامية نقدية دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، الكويت، ط١، سنة ٢٠٠٤

محمد أحمد إسماعيل المقدم:

عودة الحجاب، القسم الأول: معركة الحجاب والسفور ص ٢٩، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١٠، سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

محمد البهي:

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط١٠، مكتبة وهبة، القاهرة (د.ت).

محمد جلال كشك:

ثورة يوليو الأمريكية، علاقة عبد الناصر بالمخابرات الأمريكية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٨٨م

ودخلت الخيل الأزهر، الزهراء للإعلام العربي، ط٣، سنة ١٩٩٠م

محمد جمال الدين القاسمي:

محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٨هـ

محمد حسن العيدروس:

سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي (١٦٢٢-١٦٥٠)، دار المتنبي للطباعة والنشر، أبو ظبي، سنة ١٩٩٧م

محمد حسين هيكل:

مذكرات في السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٧٧م

محمد حسنين هيكل:

خريف الغضب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، سنة ٢٠٠٦م

العروش والجيوش، دار الشروق، القاهرة، ط٧، سنة ٢٠٠٢م

محمد بن خالد بن محمد السلاوي (ت ١٣١٥هـ):

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، القسم الثاني، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٧م

محمد خميس الزوكة:

جغرافية العالم الإسلامي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ٢٠٠٠م

محمد رشيد رضا:

تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٢٤هـ

الخلافة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٣م

محمد روحي بك الخالدي:

أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، مكتبة المنار، القاهرة، ١٣٢٦هـ

محمد أبو زهرة:

العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م،

محمد السماك:

الأقليات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٠م

محمد سهيل طقوش:

تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، ط٣، سنة ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

محمد بن شاكر الشريف:

وضع الأقليات في الدولة الإسلامية، مجلة البيان، الإصدار الثالث، سنة ١٤٢٧هـ

محمد صالح بن رحماني:

توطين التنصير في إندونيسيا، تحث مكمل لنيل درجة الماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة ١٤٠٧هـ

محمد عبد الله عنان:

دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٩٧م

محمد عبد الله النقيرة:

انتشار الإسلام في شرق إفريقية ومناهضة الغرب له، دار المريخ للنشر، الرياض، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

محمد عبده:

الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٣

محمد عمارة:

الإسلام والأقليات، الماضي والحاضر والمستقبل، مكتبة الشروق الدولية، ط١، سنة ٢٠٠٣م

جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٤

الغارة الجديدة على الإسلام، مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م

فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين، نشر جمعية المركز العالمي للتوثيق والدراسات والتربية الإسلامية، (د. ت)

قاسم أمين الأعمال الكاملة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨م

معركة الإسلام وأصول الحكم، دار الشروق، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م

محمد عوض الهزايمة:

حاضر العالم الإسلامي وقضاياه السياسية المعاصرة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، سنة ٢٠١٢

محمد الغزالي:

الإسلام في وجه الزحف الأحمر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٥م

محمد فريد بك:

الدولة العلية العثمانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٤م

محمد قطب:

قضية الحجاب، مطبعة شفير، الرياض، ط٢، سنة ١٤١٠هـ

واقعنا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٧م

محمد محفوظ:

تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، سنة ١٩٩٤م

محمد حسين:

الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٩٨٤م

الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان، القاهرة، (د. ت)

محمد محمود السروجي:

الجيش المصري في القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٧م

محمد مصطفى الزحيلي:

الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، سنة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

محمد منير مرسي:

التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، عالم الكتب سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

محمد موسى الشريف:

القصة الأليمة لتنحية الحكم بالشريعة وآثارها وبيان محاولات استعادتها مركز إبصار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٧م

محمود شاكر:

أفغانستان، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، سنة ١٩٨٥م

إندونيسيا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م

التاريخ الإسلامي، ج٨، العهد العثماني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م

موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، سنة ٢٠٠٢م

محمود شيت خطاب:

الوسيط في رسالة المسجد العسكرية، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، سنة ١٩٨١

محمود محمد شاكر:

أباطيل وأسمار، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د. ت)

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مكتبة الأسرة، سنة ١٩٩٧م

محمود عيد فهمي:

الإسلام في أرخبيل الملايو في القرون العشر الأول من الهجرة، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم جامعة المنيا، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م

محمود محمد سليمان:

الأجانب في مصر ١٩٢٢-١٩٥٢، دراسة في تاريخ مصر الاجتماعي، عن للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ط١، سنة ١٩٩٦م

محمود مزروعة:

شبهات القرآنيين حول السنة النبوية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، سنة ١٤٢١هـ

مركز الأبحاث الإحصائية والاقتصادية والاجتماعية والتدريب للدول الإسلامية التابع لمنظمة العالم الإسلامي (سيسرك):

"التعليم والتنمية العلمية في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي، أنقرة، سنة ٢٠١٦م

التوقعات الاقتصادية لدول العالم الإسلامي"، دراسة على: أنقرة، سنة ٢٠١٩

الزراعة والأمن الغذائي في الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي، أنقرة، سنة ٢٠١٦

المشاكل الاقتصادية للبلدان الأقل نموا والبلدان غير الساحلية الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ٢٠٠٩م

مروة صفاء قواقجي:

ديمقراطية بلا حجاب تاريخ داخل التاريخ، ترجمة مصطفى يعقوب، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٦.

مصطفى خالدي وعمر فروخ:

التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، شباط سنة ١٩٥٣م

مصطفى السباعي:

من روائع حضارتنا، دار الوراق للنشر والتوزيع، الرياض، والمكتب الإسلامي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٩م

مصطفى عبد الكريم الخطيب:

معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٦م

مصطفى كامل (الزعيم):

المسألة الشرقية، مقدمة الكتاب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، سنة ٢٠١٤

مطيع السمان:

وطن وعسكر، بيسان للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، سنة ١٩٩٥

مهدي آدامو:

الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط، مقال ضمن كتاب (تاريخ إفريقية العام)، أصدرته منظمة اليونسكو، سنة ١٩٨٨م، المجلد الرابع

مير بصري:

أعلام السياسة في العراق الحديث، دار الحكمة، لندن، ط١، سنة ٢٠٠٤

نادية محمود مصطفى:

(إشراف) **العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية**، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٦م

نجدة فتحي صفوة (اختيار وترجمة وتحرير):

"**الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، نجد والحجاز**"، دار الساقي، بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٦

نفوسة زكريا سعيد:

تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط١، سنة ١٩٦٤م

نهى القاطرجي:

الأسرة في أدبيات الأمم المتحدة) التحولات - العوامل- الآثار(، رسالة ماجستير منشورة على شبكة الانترنت على الرابط https://2u.pw/jG29vE

هاني لبيب:

الكنيسة المصرية، توازنات الدين والدولة، نهضة مصر، القاهرة سنة ٢٠١٢م

هدى درويش:

حقيقة يهود الدونمة في تركيا، وثائق جديدة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٣م

هدى شعراوي:

مذكرات هدى شعراوي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠١٣م.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت:

الموسوعة الفقهية، دار السلاسل، الكويت، ط٢، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

وهبة الزحيلي:

آثار الحرب في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، دار الفكر، دمشق، ط٣، سنة ١٤١٩هـ

يوسف حلاج أوغلو:

تهجير الأرمن، الوثائق والحقيقة، ترجمة أورخان محمد علي، مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول، ط١، سنة ٢٠٢٠م

يوسف كرم:

تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة ٢٠١٤،

يوسف القرضاوي:

الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، سنة ١٩٩

فقه الجهاد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، سنة ١٤٣٥ه/ ٢٠١٤م

فريق باحثين:

مسألة أكراد سورية الواقع والتاريخ والأسطورة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، يناير سنة ٢٠١٣م

ثالثًا: الكتب الأجنبية والمترجمة:

Bruce Thornton. **Christian Tragedy in the Muslim World**. A Hoover institution. 2013

Sesric, **statistical yearbook on O I C member countries 2019**

أرمسترونج (هـ. س):

الذئب الأغبر، دار الهلال، القاهرة، سنة ١٩٥٢م،

أرنولد (توماس):

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وصاحبيه، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧١م

إقبال (محمد):

ديوان ضرب الكليم، ترجمة جلال السعيد الحفناوي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٤م

أماري:

المكتبة العربية الصقلية، طبعة ليبسك سنة ١٨٥٧م

أنطونيوس (جورج):

يقظة العرب، تعريب علي حيدر الركابي، مطبعة الترقي، دمشق، سنة ١٩٤٦م

أينالجيك (خليل):

تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة د. محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٢م

أوزتونا (يلماز):

تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، نشر مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، ط١، سنة ١٩٨٨م

بتلر (ألفريد):

فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

براون (جي. كيلبرت):

قوات الليفي العراقية ١٩١٥-١٩٣٢، ترجمة د. مؤيد إبراهيم الوندواوي، السليمانية، ٢٠٠٦م

بروكلمان (كارل):

تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، سنة ١٩٦٨م

بلانت (ويلفريد):

مستقبل الإسلام، تحقيق د. صبري محمد حسن، دار الجمهورية، القاهرة، سبتمبر ٢٠١٠

بوزورث (كليفورد):

الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ط٢، سنة ١٩٩٥م

بيرنز، ألينور:

الاستعمار البريطاني في مصر، ترجمة أحمد رشدي صالح، دار القرن العشرين، القاهرة، ١٩٤٦م

بيشيكجي (إسماعيل):

كردستان مستعمرة دولية، ترجمه إلى العربية زهير عبد الملك، دار APEC السويد، سنة ١٢٢١م

نزهت (سليم):

تاريخ الطباعة في تركيا ١٧٢٩-١٩٢٩م، ترجمة وتعليق سهيل صابان، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٣هـ

توينبي (أرنولد):

مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة ٢٠١١م

جب (هاملتون):

وجهة الإسلام، ترجمه محمد عبد الهادي أبو ريدة، طبعة جامعة لندن، سنة ١٩٣٣م

حوراني (ألبرت):

الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩م، دار النهار للنشر، بيروت، ترجمة كريم عزقول، ١٩٦٨م

دومون (بول):

فترة التنظيمات، ضمن (مانتران (محرر):

تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٣.

دي بوفوار (سيمون):

الجنس الآخر، ترجمة ندى حداد، الأهلية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د. ت)

ديورانت (ويل):

قصة الحضارة، الإصلاح الديني، ترجمة د. عبد الحميد يونس، مجلد ٦، ج٢، دار الجيل للطبع والنشر، بيروت.

رامزور (أرنست):

تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة د. صالح أحمد العلي، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، ١٩٦٠م

زكي (محمد أمين):

خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية حتى الآن، ترجمه من الكردية محمد علي عوني، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٣٩م

ستودارد (لوثروب):

حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، وضع حواشيه وتعليقاته شكيب أرسلان، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م

شاتليه (أ. ل.):

الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، منشورات العصر الحديث، ط٢، جدة، سنة ١٣٨٧هـ

الشريف (ريجيتا):

الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ العربي، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسة عالم المعرفة (٩٦)، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٨٥م

عبد الحميد الثاني، السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد:

مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم وترجمة د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٩٩١م

غلوب باشا:

حياتي في المشرق العربي، ترجمة جورج حتر وفؤاد فياض، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العربية الأولى، سنة ٢٠٠٥م،

فردريك بيك:

تاريخ شرقي الأردن وقبائلها، ترجمه بهاء الدين طوقان، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمَّان، (د. ت)،

الفردوسي (أبو القاسم حسن بن علي) (ت٤١٠هـ):

الشاهنامة، ترجمة الفتح البنداري،/ طهران، مكتبة الأسدي، سنة ١٩٧٠م

فيغلالي (أدهم روحي):

أتاتورك والدين والعلمانية ص١٠٢، (أحد فصول كتاب **الفكر الكمالي، كتاب يجب أن يكون في متناول اليد**)، ترجمة آدم أفين، مؤسسة أتاتورك العليا للثقافة واللغة والتاريخ، مركز أبحاث أتاتورك، أنقرة، سنة ٢٠٠٢م

فهمي (خالد):

كل رجال الباشا محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م

فورد (هنري):

اليهودي العالمي، ترجمة أكرم مؤمن، ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، سنة ٢٠١٣م

كاريه (جون ماري):

مختارات من كتاب رحالة وأدباء فرنسيون في مصر، ترجمة د. سونيا نجا ود. رشا صالح، نشر مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، سنة ٢٠٠٦م

كاندول:

الملك إدريس عاهل ليبيا، حياته وعصره، نشر محمد علي بن غليون، منشستر، ط٢، سنة ١٩٩٠م

كلوت بك:

لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ٢٠١١م

كوبريلي (محمد فؤاد):

قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (د. ت)

كولز (بول):

العثمانيون في أوروبا، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٣م

لوبون (جوستاف):

جوستاف لوبون:

حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١٣

حضارات الهند، ترجمة **عادل** زعيتر، دار العالم العربي، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٩م

لورانس العرب (توماس إدوارد):

أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة محمد نجار، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان- الأردن، الطبعة العربية الأولى، سنة ١٩٩٨م

لويس (برنارد):

ظهور تركيا الحديثة، ترجمة قاسم عبده قاسم وسامية محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٦م

ماكري (دون):

(محرر) **التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي** (وهو سجل أعمال مؤتمر التنصير العالمي المنعقد في كلورادو الأمريكية سنة ١٩٧٨م)، دار نشر Marc، (د. ت)

نجاتي (غلام رضا):

التاريخ الإيراني المعاصر، إيران في العصر البهلوي، ترجمة عبد الرحيم الحمراني، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران، ط١، سنة ٢٠٠٨م

النورسي (بديع الزمان):

الكلمات. كليات رسائل النور. ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، استانبول، ط ٣،،سنة-١٩٩٨م

اللمعات، اللمعة السابعة عشرة، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، استانبول، ط٦، سنة ٢٠١١

المكتوب السادس والعشرون، منشور على موقع "نافذة النور"، تم الاطلاع عليه بتاريخ ١٧/ ٣/ ٢٠٢٢، على الرابط: https://cutt.us/du4uS

هرتزل (تيودور):

الدولة اليهودية، ترجمة محمد فاضل، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٧م

يوميات هرتزل، ترجمة هلدا شعبان صايغ، إعداد أنيس صايغ، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨

هنتنجتون (صمويل):

صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، ط٢، سطور، سنة ١٩٩٩م

رابعًا: المقالات والمواقع على الشبكة الإلكترونية:

أ- المقالات:

أحمد الشافعي:

"ما وراء أسطورة ماجيلان" إمبريالي فاشل أحرق القرى وأزهق الأرواح"، موقع Independent عربية بتاريخ ١٢/ ٢/ ٢٠٢٢، على الرابط التالي .https://cutt.us/weDjP

أسامة صاحب منعم وأناس حمزة مهدي:

متغيرات السياسة الإيرانية ١٩٠٠-١٩٤١، دور المرأة أنموذجًا، مجلة مركز الدراسات الإنسانية، سنة ٢٠١٨، مجلد ٨، العدد ٣، ص ١٣٢

إسلام ماهر: عن "**حكم العسكَر: الإِنْقلابات العَسْكَريَّة في دوَل العالَم الإِسْلامي**"، موقع ساسة بوست، بتاريخ ٤/ ٩/ ٢٠٢٠، راجع الرابط: https://www.sasapost.com/opinion/military-coups-in-islamic-countries

أسماء ملكاوي:

حالة العالم الإسلامي، أرقام ومؤشرات، موقع قناة الجزيرة، على الرابط: https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/c73b7204-f2e5-4083-9476-9908b7e5bf64

أمل خوري:

مجلة العالم الإسلامي.. رحلة تبشير في مئة عام، مقال منشور بموقع أتباع المرسلين على الشبكة العنكبوتية بتاريخ ٤/ ٣/ ٢٠١١م)، على الرابط: https://www.ebnmaryam.com/vb/showthread.php?t=183216

أنس السنجري:

"**بالأسماء.. ١٩ قاضيًا بمصر أصدروا ١٠٥٦ حكم إعدام في ٥ سنوات**"، مقال بموقع عربي ٢١، بتاريخ١٩ فبراير ٢٠٢٠م، على الرابط https://2u.pw/5ZJgN6

باسل قس نصر الله:

"**الولايات المتحدة واستغلال الاضطهاد الديني**"، مقال بموقع الميادين، منشور بتاريخ ١٥ آب ٢٠٢٢، على الرابط https://2u.pw/Dswv53

بلعيد عبد السلام:

الرد على مزاعم الجنرال تواتي، مقال بجريدة الشرق اليومية الجزائرية، في ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٧

جيمس غلانز:

"**أعداد الضحايا في العراق**"، **المستقبل العربي**، العدد ٣٧٠، سنة ٢٠٠٩م

حسن البنا:

"**الأمة العربية بين حضارتين** "، مقال بمجلة الإخوان المسلمين، العدد (٥٥)، السنة الثانية، ٣ ربيع ثان ١٣٦٤/ ١٧ مارس ١٩٤٥م

"**جامعة شعوب عربية**"، **جريدة الإخوان المسلمين اليومية**،، العدد (٤٢١)، السنة الثانية، ١ ذو القعدة ١٣٦٦هـ/ ١٦ سبتمبر ١٩٤٧م

حسن دادخواه ومحمد رضا علم:

رؤية تاريخية - تحليلية لعملية إمحاء العربية، على الرابط https://2u.pw/7scl3Q

حسن الوزاني:

تحريم الطباعة، مقال بجريدة العرب، بتاريخ ٢٣ يوليو ٢٠١٦م

حسين عبد المطلب الأسرج:

تفعيل دور التصنيع الغذائي في تحقيق الأمن الغذائي العربي، بحث منشور على موقع مجلة Mpra، أغسطس ٢٠١٢، على الرابط: https://mpra.ub.uni-muenchen.de/42502/1/MPRA_paper_42502.pdf

خالد رُوشه:

أزمة الهوية الإسلامية، مقال بموقع المسلم، ١٨ ذو الحجة ١٤٢٩هـ، ورابطه: https://almoslim.net/node/103661

خضر أ. حيدر:

الميديا اليهودية ملحمة التضليل الكبرى في السيطرة على العالم، مجلة الاستغراب، العدد ١١، أبريل ٢٠١٨

خورشيد دلي:

تحرير الحجاب في تركيا، موقع الجزيرة، ٢٤/ ١٠/ ٢٠١٠، على الرابط: https://cutt.us/1Wp8V

أبو خولة:

الاجتهاد البورقيبي في إلغاء تعدد الزوجات، مقال بمحلة إيلاف الإلكترونية، الأحد ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٧، على الرابط https://elaph.com/Web/AsdaElaph/2007/11/283041.htm

رانيا حفني:

مقال بعنوان "**بدعوة من "الأهرام" سارتر في مصر**"، جريدة الأهرام، عدد الجمعة ٢٧ذي الحجة ١٤٣٩هـ/ ٧ سبتمبر ٢٠١٨، السنة ١٤٣، العدد ٤٨١٢٢

زاهد صوفي:

"**زعيم حزب الشعب التركي يطلب الصفح من المحجبات، نيّة صادقة أم مناورة انتخابية؟** مقال بموقع الجزيرة، والرابط: https://cutt.us/GIsfC

زغلول النجار:

مشكلة التخلف العلمي في العالم الإسلامي، مقال منشور على موقع مداد، على الرابط https://cutt.us/45IlF

سليم حميداني:

الميراث الاستعماري في العلاقات الجزائرية الفرنسية منذ عام ١٩٦٢، مقال بمركز دراسات الوحدة العربية، منشور على الرابط: https://caus.org.lb/ar/colonial-legacy-algeria-france/#_ftn10

عبد السلام بلاجي:

الأمازيغية والملكية بالمغرب، مقال على موقع الجزيرة، على الرابط: https://cutt.us/y1Rm2

عبد الله أحمد جاد الكريم:

محاولات استبدال العامية بالفصحى، مقال على موقع منتدى مجمع اللغة العربية، ورابطه http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=16874

عبد الله جمال حسني يوسف:

أثر الاحتلال الأمريكي على العنف السياسي الطائفي في العراق ٢٠٠٣ - ٢٠١٧، موقع المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية الاقتصادية والسياسية، ١٥ يوليو ٢٠١٩، على الرابط https://democraticac.de/?p=61716

عبد الله عيسى:

مكانة الإسلام في مملكة سنغاي خلال القرن ١٦ ميلادي، مقال بمجلة قراءات إفريقية، العدد ٢٣، محرم ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥ م

عبد الله قدير أحمد:

أثر الهجرة في انتشار الإسلام في إفريقية، حالة الحبشة، مجلة كلية الإلهيات، العدد ٣٨، جامعة ١٩ مايو، سنة ٢٠١٥

عبد الغني يعقوب فطاني:

مساهمات علماء جاوا في إثراء التراث الملايوي العلمي، مجلة الإسلام في آسيا، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية الماليزية، مجلد ١٢، العدد ٢، ديسمبر سنة ٢٠١٥م

فدوى النصيرات:

فتنة دمشق ١٨٦٠ دراسة تاريخية تحليلية، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مجلد ١٥، عدد١، سنة ٢٠٢١

محمد الرماني زيد:

العالم الإسلامي مفهوم واحد أم مفاهيم متعددة؟ مقال على موقع الألوكة، ورابطه: https://www.alukah.net/world_muslims/0/126052/#ixzz67ov07ZQ4

محمد مورو:

استخدام الأقليات في الصراع مع العالم الإسلامي، تقرير ارتيادي (استراتيجي)، المجلد ٢٠٠٧، مجلة البيان، السعودية، العدد ٤، بتاريخ ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٧

مصطفى إنجاي:

من كانم إلى صوكوتو: موجز التاريخ السياسي للسودان الأوسط، مقال بمجلة قراءات إفريقية، العدد ٣٥

معتز زاهر:

اللغة والهوية بين الاستلاب الحضاري واستعادة الوعي (٧)، ملف بموقع رؤيا للبحوث والدراسات، ٢٠مارس ٢٠١٩، على الرابط: http://ruyaa.cc/Page/8605/#_ftnref34K

موسى الكيلاني:

"**فريدريك بيك باشا. ما سرُ قوة هذا الإسلام؟**"، مقال بصحيفة الرأي الأردنية، بتاريخ الأحد ١٨/ ٣/ ٢٠١٢م

ميرت أوزكان:

السجن المؤبد للرئيس التركي الأسبق إيفرين لدوره في انقلاب ١٩٨٠، تقرير لوكالة رويتر بتاريخ ١٨ يونية ٢٠١٤م، على الرابط https://2u.pw/rRResI

هارون المهدي ميغا:

إمبراطورية سنغاي، دراسة تحليلية في الترتيب التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا، محلة دراسات إفريقية، العدد ٣٧، سنة ٢٠٠٧م

هبة جمال الدين محمد:

الرؤية الصهيونية للقومية العربية بين الفكر والمخطط، مقال بالمجلة العلمية لكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية، جامعة الإسكندرية، المجلد ٦، العدد ١٢، يوليو ٢٠٢١م

وثيق بن مولود و د. عمار جيدل:

وقفات مع رسالة الاجتهاد للأستاذ النورسي، النور للدراسات الحضارية والفكرية، على الرابط: .NUR Academic Studies on Thought and Civilization 2013; 7(7)

يعقوب علي:

دولة مالي الإسلامية (٦٢٨هـ- ٨٣٤هـ/ ١٢٣٠م- ١٤٣٠م)، مجلة قراءات إفريقية، العدد ٢٠ ربيع الاخر ١٤٣٥هـ/ ابريل ٢٠١٤ م

Leah Caldwell:

The Arab Reader and the Myth of Six Minutes, http://www.pcp.ps/article/156/The-Arab-Reader-and-the-Myth-of-Six-Minutes

ب- مواقع الانترنت:

تقارير لمنظمات دولية وإقليمية:

"**اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة**"، منشورة على **موقع الأمم المتحدة** على الرابط https://cutt.us/XQ9c7

"**الأمم المتحدة تدعو الدول إلى إلغاء القوانين التي تميز ضد المثليين ومزدوجي الميل الجنسي ومغايري الهوية الجنسانية**"، منشور على موقع الأمم المتحدة، في١٧ مايو ٢٠١٣، الرابط https://news.un.org/ar/story/2013/05/178512

"**التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠١٦ الشباب وآفاقُ التنمية الإنسانية في واقع متغير**"، صادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، موقع الأمم المتحدة، على الرابط:

https://www.un.org/ar/esa/ahdr/ahdr16.shtml

"**السكان والتنمية، العدد الثالث: الهجرة الدولية والتنمية في المنطقة العربية**: التحديات والفرص"، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا): الأمم المتحدة، نيويورك، سنة ٢٠٠٧

"**المرأة والمساواة بين الجنسين**"، موقع الأمم المتحدة على الرابط الآتي: https:// www.un.org/ar/conferences/women

"**المؤتمر العالمي الرابع المعني بالمرأة، بيجين، ٤-١٥ أيلول سبتمبر ١٩٩٥**" على الرابط:

https://documents-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/ pdf?OpenElement.PDF/N9627299/99/272/N96

تقرير الهجرة الدولية ٢٠١٥" **International Migration Report ٢٠١٥** "على الرابط: https://www.un.org/en/development/desa/ population/migration/publications/migrationreport/docs/ Highlights.pdf_MigrationReport2015

"**الإنفاق العسكري % من إجمالي الناتج المحلي**"، تقرير معهد ستوكهولم الدولي لبحوث السلام، الكتاب السنوي: الأسلحة، ونزع السلاح، والأمن الدولي، منشور على موقع البنك الدولي على هذا الرابط، https://data.albankaldawli.org/ indicator/ms.mil.xpnd.gd.zs

"**الإنفاق على البحث والتطوير من إجمالي الناتج المحلي**"، تقرير منشور على موقع البنك الدولي. على الرابط الآتي، https://data.albankaldawli.org/indicator/GB.XPD.RSDV.GD.ZS

"**نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي، وفقا لتعادل القوة الشرائية (بالأسعار الجارية للدولار الدولي**"، موقع البنك الدولي على الرابط:

https://data.albankaldawli.org/indicator/NY.GDP.PCAP.PP.CD

بيان عن دول منظمة التعاون الإسلامي، على موقع منظمة التعاون الإسلامي على الرابط: http://oic-oci.org/states/?lan=ar

التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٩م، موقع صندوق النقد العربي، على الرابط:

https://www.amf.org.ae/ar/publications/altqryr-alaqtsady-alrby-2009-almwhd/altqryr-alaqtsady-alrby-almwhd

مواقع قنوات الجزيرة:

اتفاق أضنة التركي السوري.. بروتوكول أمني حمّال أوجه"، تقرير بموقع الجزيرة للأخبار، على الرابطhttps://2u.pw/qqPIlU

"**أكثر من ٩٦ مليون أمي بالوطن العربي**"، تقرير موقع الجزيرة الإخباري على الرابط: https://cutt.us/G5Clw

"**الانقضاض على معاهدة لوزان.. هل اقترب انهيار الاتفاقية التي أسست لظهور دول الشرق الأوسط؟**" تقرير بموقع الجزيرة للأخبار، على الرابط: https://2u.pw/UTrfJE

"**الثورة السورية في ذكراها التاسعة، قتلى وجرحى ومفقودون ومعتقلون ومهجرون بالملايين**"، تقرير موقع الجزيرة ١٣ مارس ٢٠٢٠م، https://cutt.us/AEiNh

"**الحرس الثوري ومساعدة الولايات المتحدة في غزو أفغانستان (الحلقة الخامسة)**: تقرير لقناة الجزيرة الإخبارية قي ٧/ ٩/ ٢٠١٩، على الرابط: https://cutt.us/Rru1P

"**حقوقيون للجزيرة مباشر: عدد المعتقلين السياسيين في مصر** "مخيف"، موقع الجزيرة مباشر: على الرابط: https://cutt.us/7A36P

"**سارتر ودي بوفوار.. كيف شكلت القضية الفلسطينية نهاية لثنائي الفلسفة الوجودية الأشهر؟**"، تقرير بموقع الجزيرة، على الرابط:https://2u.pw/IF5ZVc

"**سنوات الانقلاب والخديعة.. كيف نشأت دولة الطائفية الدموية في سوريا الحديثة**"، تقرير قناة الجزيرة الإخبارية، على الرابط الآتي: https://cutt.us/fKivD

"**العربي لا يقرأ سوى ربع صفحة سنويًا**"، دراسة على موقع الجزيرة الإخباري على الرابط: https://cutt.us/AZ3YO

"**قضاة الإعدام.. مقصلة السيسي لترهيب المعارضين**"، تقرير لموقع الجزيرة، بتاريخ ٢١/ ٢/ ١٩١٩م، على الرابط: https://2u.pw/hhZHug

"**ملف التمييز ضد الأقباط في مصر**" حلقة نقاشية على قناة الجزيرة الوثائقية في ٣١/ ٥/ ٢٠٠٧م، على الرابط: http://www.aljazeera.net/NR/exeres/ AF9D7247-8E36-4CF0-861F-1502A22E1F97.htm

"**نصف سكان العالم الإسلامي أميون**"، تقرير موقع الجزيرة الإخباري: على الرابط: https://cutt.us/tw4ar

"Syria death toll: UN envoy estimates 400,000 killed" تقرير موقع الجزيرة، على الرابط: https://cutt.us/7HFan

موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة:

"أحمد مفتي زادة" على الرابط https://2u.pw/3XsSMB

"الإمبراطورية البرتغالية" على الرابط: https://cutt.us/cV9q0

"انقلاب ١٩٥٣ في إيران" على الرابط https://2u.pw/XmlV72

"تمرد أرارات" على الرابط: https://2u.pw/MiMkxL

"تمرد خوست ١٩٢٤-١٩٢٥" على الرابط: https://cutt.us/Kenwb

"ثورة ٢٦ سبتمبر اليمنية" على الرابط https://cutt.us/v7YvP

"جزر الملوك" على الرابط https://cutt.us/2g5bx

"خويبون"، على الرابط: https://2u.pw/kRW2Pq

"الروتاري الدولي"، على الرابط: https://2u.pw/VglRvH

سلطنة أتشيه"، على الرابط https://cutt.us/OVEGP

"سياسة نفطية" على الرابط: https://2u.pw/hcH7c0

"سيمون دي بوفوار" على الرابط:https://cutt.us/7llnJ

"صلح وستفاليا" على الرابط https://2u.pw/zuFBqA

"ضحايا الحرب الأهلية السورية"، على الرابط https://2u.pw/F0EfTe

"كشف الحجاب في إيران"، والرابط: https://cutt.us/brHlm

"**لابو لابو**" **على الرابط** https://2u.pw/rc33XR

"ماسونية" على الرابط https://2u.pw/KEU6DF

"مجزرة حماة" على الرابط https://cutt.us/yRLop

"**نامق كمال**" على الرابط https://cutt.us/wbJqr

"نوادي ليونز الدولية"، على الرابط: https://2u.pw/be4iSz

"نوبار باشا"، على الرابط: https://cutt.us/3NTe9

مواقع متفرقة:

"**ارتفاع استثمارات الخليج في سندات الخزانة الأمريكية ٤ ,١٪..**" تقرير على موقع وكالة الأناضول الإخبارية، على الرابط https://2u.pw/tTdDku

تقرير عن التركيبة السكانية الدينية في العالم الإسلامي، " Size & Demographic Characteristics of Religious Groups على موقع مركز بيو للأبحاث Pew Research Centre راجع الرابط: https://www.pewforum.org/2015/04/02/muslims/#fn-22776-40

"**دليل الكنيسة الكاثوليكية، المدارس**"، على الرابط: https://cutt.us/Nd6WN

تقرير المعرفة العربي للعام ٢٠٠٩م، تصدره مؤسسة محمد بن راشد المكتوم بدبي بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية، سنة ٢٠٠٩

الطباعة في العهد العثماني بين الافتراءات والحقيقة، موقع ترك برس، تم الاطلاع عليه في التاريخ المذكور، ورابطه: https://www.turkpress.co/node/43195

"**ما لا تعرفه عن نضال المحجبات في تركيا: من "غُرف الإقناع" إلى التجريد من الجنسية، فتقلّد الوزارات**" تقرير بموقع "عربي بوست" على الرابط: https://cutt.us/rzSw4

"**المسيحية: تقرير بريطاني يقول إن اضطهاد المسيحيين بلغ حد الإبادة الجماعية**"، تقرير هيئة الإذاعة البريطانية في ٤ مايو ٢٠١٩م على الرابط: https://www.bbc.com/arabic/world-48158766

"**منظمات حقوقية تطالب السلطات المصرية بالتوقف عن ممارسة الرقابة على الانترنت وحجب مواقع الوب**" تقرير على موقع منظمة Accessnow بتاريخ ٤/ ١١/ ٢٠٢٠، على الرابط التالي، تم الاطلاع عليه في ٢٠/ ١١/ ٢٠٢٢ الساعة ٨, ١٤ https://cutt.us/RRZ5T

مادة "**ثريا طرزي**" على موقع (المعرفة)، https://cutt.us/bPkJi

الفهارس

أولاً: فهرس المحتويات

ثانيًا: فهرس الخرائط

ثالثًا: فهرس الحواشي

أولاً: فهرس المحتويات

مقدمة الطبعة الأولى ٦
وتستبين من فقه الواقع علامات واضحات: ٨

القسم الأول

الفصل الأول التعريف بمصطلح العالم الإسلامي وتطوره..... ١٥
المبحث الأول مفهوم مصطلح "دار الإسلام" وما اتصل به جدلية الفقه والتاريخ .. ١٦
رؤية فقهائنا قديمًا لدار الإسلام ودار الحرب: ١٦
رؤية الفقهاء المعاصرين لدار الإسلام ودار الحرب:..... ١٨
سبب اختلاف تعريف الفقهاء لدار الإسلام ودار الحرب: ١٩
النظر في الأصل الذي تقوم عليه العلاقات الدولية في الإسلام: ١٩
نظرات في أدلة تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب ودار عهد:..... ٢٠
دار الإسلام بعد سقوط الخلافة العثمانية: ٢٥
كل هذه التطورات أدت إلى عدة نتائج:..... ٢٦
المبحث الثاني ظهور مصطلح "العالم الإسلامي" ودلالته ٢٨
مفهوم العالم الإسلامي والأمة الإسلامية:..... ٣١
تعداد المسلمين في العالم:..... ٣٢
الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي: ٣٣
الفصل الثاني نشأة العالم الإسلامي وتطوره ٣٥
المبحث الثاني توسع الدولة الإسلامية زمن الخلافتين الأموية والعباسية: ٣٨
أولاً: توسع الدولة الإسلامية زمن الخلافة الأموية: ٣٨
انتشار الإسلام في شرق الدولة الإسلامية: ٣٩
انتشار الإسلام في شمال إفريقية:..... ٤٢
فتح الأندلس:..... ٤٣

انتشار الإسلام في الأندلس: ٤٥
الفتوحات في جنوب فرنسا: ٤٧
ثانيًا: توسع الدولة الإسلامية في خلافة العباسيين: ٤٨
التوسع الحضاري في العصر العباسي: ٥٠
ثالثًا: فتح جزر البحر المتوسط: ٥٠
المبحث الثالث الفتوحات الإسلامية في الهند وشرق آسيا: ٥٥
١- فتح الهند: ٥٥
انتشار الإسلام في الهند: ٦٠
٢- انتشار الإسلام بين المغول: ٦٢
٣- انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا: ٦٥
المبحث الرابع الفتوحات الإسلامية في آسيا الصغرى وأوروبا: ٦٨
١- فتح آسيا الصغرى زمن السلاجقة: ٦٨
٢-الفتوحات زمن العثمانيين: ٧١
المبحث الخامس الفتوحات الإسلامية في إفريقية: ٨٥
١- انتشار الإسلام في غرب إفريقية: ٨٥
٢- انتشار الإسلام في شرق إفريقية: ٩١
٣- انتشار الإسلام في وسط إفريقية: ٩٤
الفصل الثالث عوامل القوة في العالم الإسلامي بين الإفادة منها والتفريط فيها ٩٧
المبحث الأول من عوامل القوة في العالم الإسلامي ٩٨
أولاً: وحدة العقيدة الدينية وتأثيراتها: ٩٨
ثانيًا: الموقع الاستراتيجي: ١٠٢
ثالثًا: وفرة الثروة البشرية: ١٠٤
رابعًا: وفرة الموارد الاقتصادية: ١٠٨
الموارد الزراعية: ١٠٨

الثروة المعدنية: ١٠٩
المبحث الثاني من عوامل الضعف الاقتصادي في العالم الإسلامي..... ١١١
١- ضعف الناتج القومي: ١١١
أ- ضعف الناتج الزراعي: ١١٣
ب- مشكلة توزيع الموارد المائية: ١١٤
جـ- ضعف التصنيع والاعتماد على تصدير المواد الأولية: ١١٥
٢- استثمار الأموال الإسلامية في الغرب: ١١٧
٣- مشكلات الفقر وغياب العدالة الاجتماعية: ١١٨
٤- استشراء الفساد: ١٢٠

القسم الثاني

الفصل الأول التغريب والحرب على الهوية الإسلامية ١٢٣
المبحث الأول المقصود بالتغريب وأهدافه: ١٢٥
هل كان الاستعمار الغربي استباقًا لبعث إسلامي بازغ؟ ١٢٦
المبحث الثاني شروط النهوض الحضاري للأمة: ١٢٩
الانفتاح على الآخر - بضوابطه - شرط للنهوض: ١٣٠
المبحث الثالث وسائل التغريب وروافده: ١٣٢
١- دور البعثات العسكرية وعلمنة الجيوش: ١٣٢
تغيير العقيدة القتالية للجيوش: ١٣٣
٢- دور الساسة والأنظمة الحاكمة في مسيرة التغريب: ١٣٤
دور السياسيين المصريين في التغريب: ١٣٦
دور السياسيين العثمانيين في التغريب: ١٤٠
٣- تأثير الاستعمار الغربي: ١٤٢
٤- تأثير المبعوثين واللاجئين إلى بلاد الغرب: ١٤٤
٥- تأثير الترجمة: ١٤٥

٦- تأثير التبادل الدبلوماسي: ١٤٦
٧- دور الأقليات الدينية والإثنية: ١٤٧
٨- دور مؤسسات التعليم الأجنبي: ١٤٩
٩- الهجوم على اللغة العربية: ١٥١
١٠- تأثير الإعلام: ١٥٤
المبحث الرابع تعدد المواقف إزاء التغريب: ١٥٦
١- اتجاه رفض التغريب ومقاومته: ١٥٦
٢- اتجاه الدعوة إلى التغريب الكامل وأزمة المنطلق: ١٦١
رواد الدعوة إلى التغريب الكامل: ١٦٢
الاندفاع نحو التغريب على يد تركيا الفتاة: ١٦٨
٣- اتجاه التوفيق بين الهوية الإسلامية والحضارة الغربية: ١٦٩
أ) تحليل بعض مواقف أوائل المبعوثين إلى الغرب: ١٦٩
- موقف رفاعة الطهطاوي من التغريب: ١٧٠
موقفه من المرأة: ١٧٤
مآخذ على الطهطاوي: ١٧٦
- موقف خير الدين التونسي من التغريب: ١٧٧
ب) مواقف أخرى لاتجاه التوفيق: ١٨٢
- في الدولة العثمانية: ١٨٢
- في مصر والهند: ١٨٦
الفصل الثاني المخاطر السياسية على العالم الإسلامي ١٩٣
المبحث الأول إسقاط الخلافة العثمانية ١٩٣
الدعاية لمبدأ الجامعة الإسلامية يطيل عمر الخلافة: ١٩٥
تشابك القوى التي أسقطت عبد الحميد والخلافة: ١٩٥
ضرر تدخل الجيش في السياسة: ١٩٧

سوء أحوال البعثات العثمانية إلى الخارج: ١٩٧
الأحداث التي سبقت عزل عبد الحميد: ١٩٨
دور اليهود في عزل عبد الحميد: ٢٠٠
مغامرة الاتحاد والترقي بخوض الحرب العالمية ونتائجها: ٢٠١
حركة المقاومة على يد أتاتورك وتداعياتها: ٢٠٣
إعلان قيام الجمهورية وإسقاط الخلافة: ٢٠٦
نتائج إسقاط الخلافة العثمانية: ٢٠٦
استمرار الآمال والجهود من أجل استعادة الخلافة الإسلامية: ٢١١
المبحث الثاني تجزئة الدولة الإسلامية الواحدة ٢١٢
١- دعاوى القومية: ٢١٣
إثارة العصبية القومية وسيلة لهدم الدولة العثمانية: ٢١٥
القومية الأرمينية: ٢١٦
القومية التركية العلمانية: ٢١٧
بروز القومية العربية: ٢٢٢
استغلال الاستعمار الغربي دعوة القومية العربية: ٢٢٦
لم يكن العرب جميعًا خائنين للدولة العثمانية: ٢٣١
تأسيس جامعة الدول العربية: ٢٣٣
وضع القومية العربية في خصومة مع الهوية الإسلامية: ٢٣٦
محاولة التوفيق بين القومية العربية والوحدة الإسلامية: ٢٣٨
القومية الفارسية: ٢٣٩
القومية الكردية ومصادمة طموحها: ٢٤٠
ميلاد المشكلة الكردية: ٢٤٦
الثورات الكردية: ٢٤٦
أوضاع القومية الكردية في إيران والعراق بعد الحرب العالمية الثانية: ٢٤٨

المعارضة الإسلامية الكردية لنظام إيران: ٢٥٠
استغلال الأكراد في أثناء الحرب العراقية الإيرانية: ٢٥١
اعتراف أمريكي باستغلال قضية الأكراد: ٢٥٢
القضية الكردية في سوريا: ٢٥٢
الاستعمار الفرنسي يستغل طموحات البربر: ٢٥٦
٢- ظهور الوطنية الضيقة: ٢٥٩
أصل فكرة الوطنية لا يعارض الإسلام: ٢٥٩
نشأة الوطنية في أوروبا وانتقالها إلى الشرق: ٢٦٠
دعاة وطنيون يؤيدون الخلافة: ٢٦٢
دعاة للوطنية المجافية للوحدة الإسلامية: ٢٦٥
المغالاة في تمجيد الوطنية الانعزالية: ٢٦٦
الوطنية الضيقة عامل انقسام للأمة: ٢٦٧
٣- الأقليات الدينية: ٢٦٩
استغلال الاستعمار الأقليات الدينية: ٢٧١
خطة برنارد لويس لتجزئة العالم الإسلامي: ٢٧٢
أوضاع النصارى في مصر والدور الأجنبي تجاهها: ٢٧٦
الاستعمار البريطاني وقضية الأقليات: ٢٧٩
علاقات الود بين بعض زعماء النصارى والاحتلال البريطاني: ٢٨٠
وزراء ورؤساء وزارات نصارى في مصر: ٢٨١
دور أمريكي مشجع للطائفية النصرانية في مصر: ٢٨٣
رئيس وزراء قبطي جديد: ٢٨٣
مشاركة قبطية بارزة في ثورة ١٩١٩ وتراجع بعد ثورة ١٩٥٢: ٢٨٤
دور الغرب في تحريض الفتنة الطائفية بمصر: ٢٨٥
دور زعماء أقباط المهجر في الفتنة الطائفية: ٢٨٦

أوضاع الأقليات الدينية في الشام: ٢٨٨
الدور الصهيوني في فتنة الدروز: ٢٩٠
أمريكا تستغل العامل الطائفي: ٢٩١
استغلال أمريكي للملف الشيعي: ٢٩١
التمدد الشيعي في جوار العراق وإيران: ٢٩٤
المبحث الثالث الاستعمار الغربي والصهيونية ٢٩٥
١- الاستعمار الأوربي ومراحله: ٢٩٥
الكشوف الجغرافية جذور الاستعمار الحديث وامتداد الصليبية: ٢٩٥
الطابع الصليبي للكشوف الجغرافية: ٢٩٦
الاستعمار البرتغالي: ٢٩٧
الاستعمار الإسباني: ٣٠٠
الاستعمار الهولندي: ٣٠٢
الاستعمار الفرنسي: ٣٠٤
الاستعمار الإنجليزي: ٣٠٤
الاستعمار البريطاني للهند: ٣٠٥
ثورات مسلمي الهند بقيادة العلماء: ٣٠٨
الاستعمار الأوربي في القرنين التاسع عشر والعشرين: ٣٠٩
الاستعمار الروسي: ٣١٠
الاستعمار الأوروبي يُنهي الخلافة العثمانية: ٣١١
أسبق التجارب الاستعمارية في العالم العربي: ٣١٢
الحملة الفرنسية على مصر: ٣١٢
الاستعمار الغربي للعالم العربي: ٣١٦
رحيل الاستعمار العسكري وبقاء وكلائه: ٣١٧
حسن البنا ونداء جهاد المستعمر: ٣١٨

مالك بن نبي وضرورة التحرر من القابلية للاستعمار: ٣١٩
٢- الصهيونية: ٣٢٠
محاولات هرتزل مع السلطان عبد الحميد: ٣٢٤
دور الصهيونية الإنجيلية: ٣٢٦
دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد وبعد خلعه: ٣٢٧
الاتحاد والترقي أمل الصهيونية: ٣٢٨
الصهيونية ضمن المشروع الاستعماري الغربي: ٣٢٩
المبحث الرابع تسلط الأنظمة العسكرية والاستبداد السياسي ٣٣٣
١- دور الغرب في تأسيس الجيوش في العالم الإسلامي: ٣٣٣
دور فرنسا في تأسيس عدد من الجيوش العربية: ٣٣٤
السيطرة البريطانية على الجيش المصري: ٣٣٧
دور فرنسا في تأسيس الجيش السوري: ٣٤١
دور بريطانيا في تأسيس عدد من الجيوش العربية: ٣٤٥
دور بريطانيا في تأسيس الجيش العراقي: ٣٤٥
الدور السياسي للجيش العراقي بعد الاستقلال: ٣٤٧
دور بريطانيا في تأسيس الجيش الأردني: ٣٥٠
دور بريطانيا في تأسيس الجيش الليبي: ٣٥١
٢- الانقلابات العسكرية والاستبداد السياسي: ٣٥٢
الاستبداد السياسي: ٣٥٢
الانقلابات العسكرية في تركيا: ٣٥٣
الانقلاب العسكري في إيران: ٣٥٦
الانقلابات في البلاد العربية: ٣٥٦
انقلابات أخرى في العالم الإسلامي: ٣٥٧
الآثار السلبية للانقلابات والاستبداد: ٣٥٨

زيادة النفقات العسكرية مع قلة عائدها: ٣٥٩
شيوع الاستبداد ونتائجه: ٣٦٠
اتساع النزاعات المسلحة: ٣٦٠
٣- ثورات الربيع العربي: ٣٦١
انتهاكات حقوق الإنسان: ٣٦٢
الخوف من المشاركة السياسية عند الشباب: ٣٦٥
الفصل الثالث الحرب على المجتمعات الإسلامية ٣٦٧
المبحث الأول بين خطر التعليم الأجنبي والتخلف العلمي ٣٦٧
أولاً: دور التعليم الأجنبي في العالم الإسلامي: ٣٦٧
تغيير مسيرة التعليم في العالم الإسلامي: ٣٦٨
تغريب التعليم في مصر: ٣٧٠
مؤسسات التعليم الأجنبي في الشام ومصر: ٣٧١
معلمون أجانب في مدارس وجامعات العالم الإسلامي: ٣٧٣
تغريب التعليم في الدولة العثمانية: ٣٧٥
تغريب التعليم في الهند: ٣٧٧
تحذير العلماء من خطر التعليم الأجنبي: ٣٧٨
ثانيًا: التخلف العلمي في العالم الإسلامي وأسبابه: ٣٨٠
١- مظاهر التخلف العلمي في العالم الإسلامي: ٣٨١
٢- الأسباب الداخلية للتخلف العلمي: ٣٨٣
أ- إهمال العلوم التجريبية: ٣٨٤
ب- الدعوة لإغلاق باب الاجتهاد والجمود الفقهي: ٣٩٠
جـ- التوسع في مفهوم البدعة والخلط بينها وبين الابداع: ٣٩٤
نماذج لكراهية الجديد: ٣٩٥
موقف المماليك والعثمانيين من التجديد في أدوات القتال ووسائله: ٣٩٦

موقف الخلافة العثمانية من استعمال آلات الطباعة: ٣٩٨
٣- الأسباب الخارجية للتخلف العلمي: ٤٠٠
محاولات الإفادة من العقول المهاجرة: ٤٠٤
ب- الحصار العلمي للعالم الإسلامي: ٤٠٥
المبحث الثاني بين إقصاء الشريعة وإفساد الأخلاق وهدم الأسرة ٤٠٧
أولاً: إقصاء الشريعة الإسلامية: ٤٠٧
في الهند: ٤٠٧
في مصر: ٤٠٨
في تركيا: ٤٠٩
الدستور التركي: ٤١٢
الجرأة على الشريعة في بلدان إسلامية أخرى: ٤١٢
ثانيًا: محاولات إفساد الأخلاق والدعوة إلى تحرير المرأة وهدم الأسرة: ٤١٤
١- الإفساد الأخلاقي: ٤١٤
الدعوة لتحرير المرأة لا الوطن: ٤١٥
٢- الدعوة إلى تحرير المرأة بالمفهوم الغربي: ٤١٧
التنفيذ العملي لمخطط إفساد المرأة في مصر: ٤٢٢
تأثير الإعلام على قضية تحرير المرأة: ٤٢٥
الدعوة إلى تحرير المرأة في إيران: ٤٣١
الدعوة إلى تحرير المرأة في أفغانستان: ٤٣٢
الدعوة إلى تحرير المرأة في تونس: ٤٣٤
٣- التآمر الغربي على الأسرة المسلمة: ٤٣٤
أ- التآمر قديم: ٤٣٤
دي بوفوار في زيارة مصر: ٤٣٦
ب- دور مؤتمرات الأمم المتحدة في فرض العولمة في منظومة الأسرة: ... ٤٣٧

خطورة الرؤية الغربية للأسرة في زمن العولمة: ٤٣٧
دور المؤتمرات الدولية: ٤٣٨
مؤتمر القاهرة ومؤتمر بكين: ٤٤٠
المستهدف من تلك الحروب والمؤتمرات: ٤٤٢
آليات تنفيذ المقررات الدولية: ٤٤٤
المبحث الثالث تخريب العقائد بين التنصير والماسونية ٤٤٦
أولاً: التنصير: ٤٤٦
صلات التنصير بالاستشراق: ٤٤٧
صلات التنصير بالاستعمار الغربي: ٤٤٨
وكان الاستعمار يخلق الأجواء المناسبة للتنصير: ٤٤٨
من تاريخ التنصير: ٤٥٠
تنظيم التنصير في الهند من خلال مؤسسات: ٤٥١
التنصير في القرن العشرين: ٤٥٣
تنظيم المؤتمرات التنصيرية: ٤٥٣
وضوح أهداف التنصير: ٤٥٣
تفرق المسلمين يقوي آمال التنصير: ٤٥٤
التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي تُطمع التنصير: ٤٥٥
حجم الجهاز التنصيري العالمي: ٤٥٥
تطوير وسائل التنصير: ٤٥٦
١- الإفادة من التعليم الأجنبي: ٤٥٦
٢- مراعاة خصوصية البيئات الثقافية للمسلمين: ٤٥٧
٣- التجديد في خطاب الدعوة والإعلام كمًّا وكيفًا: ٤٥٩
٤- استغلال حاجات المسلمين المادية والمعنوية: ٤٦١
٥- الإفادة من تردي أوضاع النساء المسلمات: ٤٦٤

٦- السعي إلى تنصير الطلاب المسلمين في جامعات الغرب: ٤٦٥
التنصير يحشد قواته: ٤٦٥
١- الاستعانة بالكنائس الوطنية: ٤٦٥
٢- الاستعانة بالمدنيين والعمالة الأجنبية في العالم الإسلامي: ٤٦٦
٣- تدريب المنصرين المدنيين والعمالة الأجنبية: ٤٦٧
٤- تكوين شبكة من مراكز الأبحاث الخادمة للتنصير: ٤٦٨
ثانيًا: الماسونية: ٤٦٩
المحافل الماسونية منتدى الكبراء والزعماء: ٤٧١
دور اليهود في الحركة الماسونية: ٤٧٥
أذرع جديدة للماسونية: ٤٧٦
المصادر والمراجع **٤٧٩**
أولاً: الكتب العربية القديمة: ٤٧٩
ثانيًا: الكتب العربية الحديثة: ٤٨٧
ثالثًا: الكتب الأجنبية والمترجمة: ٥١٥
رابعًا: المقالات والمواقع على الشبكة الإلكترونية: ٥٢٣
تقارير لمنظمات دولية وإقليمية: ٥٣٠
موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: ٥٣٤
مواقع متفرقة: ٥٣٥

ثانيًا: فهرس الخرائط

الفتوحات الإسلامية زمن النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ٣٦
خريطة الفتوحات الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي ٣٨
الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقية ٤١
الفتح الإسلامي للأندلس ٤٤
الفتوحات الإسلامية جنوبي فرنسا ٤٧
الفتح الإسلامي لجزر البحر المتوسط وسواحله ٥١
دولة المغول الإسلامية في الهند ٥٨
الأراضي التي شهدت القيام الأول للدولة العثمانية ٧١
التوسع الأول للدولة العثمانية ..... ٧٢، ٧٤
فتح القسطنطينية ٧٩
الفتوحات العثمانية في شرق أوروبا ٨٠
الممالك الإسلامية في غرب ووسط افريقيا ٩٠
غانا دوله اسلاميه كبرى ٩٥
المضايق التي يشرف عليها العالم الاسلامي ١٠٣
انتشار الاسلام وكثافته في العالم ١٠٥
معاهده سيفر سنه ١٩٢٠ ..... ٢٠٢
معاهده لوزان سنه ١٩٢٣ ..... ٢٠٥
مناطق تمركز الأكراد ٢٤١
تقسيم العالم الاسلامي وفق خطه برنارد لويس ٢٧٥-٢٧٦
الكشوف الجغرافية ٣٠١
الاستعمار الروسي للعالم الاسلامي ٣١٠

ثالثًا: فهرس الحواشي

أ) الأعلام:

جنكيز خان والمغول ..... حاشية ١ ص ٦٢
السيد احمد خان في الهند ..... حاشية ١ ص ١٦٨
رفاعة الطهطاوي ..... حاشية١ ص ١٧٠
خير الدين التونسي .....حاشية ٤ ص ١٧٧
مروة قاواقجي ..... حاشية ٤ ص ٤٢٩
علاقه سارتر وسيمون دي بيفوار بالصهيونية ..... حاشية ٢ ص ٤٣٧
ريموند لول ..... حاشية ١ ص ٤٤٧

ب) الأماكن الجغرافية:

تعريف بدولة غويانا .....حاشية ٢ ص ٢٩
تعريف بقلعه روملي حصار .... حاشية ٤ ص ٧٨
تعريف بالسودان الغربي ....حاشية ١ص ٨٥
تعريف بمدينه غانا (كومبي صالح)..... حاشية ٢ ص ٨٦

ج) الجماعات والمصطلحات:

حركه تركيا الفتاة ..... حاشية ٣ ص ١٦٨
يهود الدونمة ..... حاشية ١ ص١٩٦
الطورانية ..... حاشية ٢ ص ٢٢٠
نشأة مصطلح الصهيونية..... حاشية ٢ ص ٣٢٠
مصطلح الليفي والاثوريين ..... حاشية ٤ ص ٣٤٦
شرح مفهوم البدعة الاسلام .....حاشية ٢ ص ٣٩٥

د) الأحداث التاريخية:

توجهات مجلة العالم الاسلامي ..... حاشية ١ ص ٢٨
تعريف بحروب الردة ..... حاشية ١ ص ٣٥
تعريف بفتنة سنة ١٨٦٠ في الشام بين النصارى والمسلمين ..... حاشية ٢ص ١٤٨
تأثير اليهود في الاعلام ..... حاشية٣ ص ١٥٥
بمعاهده سان ستيفانو ..... حاشية ١ ص ١٩٨
معاناة السلطان عبد الحميد بعد عزله ..... حاشية ٣ ص ٢٠٠
كشف الروس البلاشفة لمعاهده سايكس بيكو ..... حاشية ٢ ص ٢٢٩
مقترح الاخوان المسلمين لميثاق جامعه الدول العربية .....حاشية ١ ص ٢٣٥
ازمة اليمن وتدخل الجيش المصري هناك ..... حاشية ١ ص ٢٦٨
بخطه برنارد لويس لتقسيم العالم الاسلامي ..... حاشية ١ ص ٢٧٣
انتهاكات حقوق الانسان في سوريا ..... حاشية ٢ ص ٣٦٣
عن توزيع الكفاءات المسلمة المهاجرة الى اوروبا ..... حاشية ١ ص ٤٠١

هذا الكتاب

في رحلة تمتد عبر قرون من الزمن؛ يصحب هذا الكتاب مصطلحَ "دار الإسلام" ودلالاته - كما استقر في تراث المسلمين - حتى أصبح "العالم الإسلامي" - كما ظهر في كتابات الغربيين في الربع الأول من القرن الماضي.

ونرحل من جديد مع "دار الإسلام" هذه منذ بداية تشكّلها زمن النبوة، وتوسعها بعد أن طويت لها الأرض؛ بجهاد الفاتحين يزيل سلطان ظغاة الأرض، أو بجهود الدعاة من العلماء والحجيج والتجار، يفتحون مغاليق القلوب بحسن المعاملة ووضيء الخلق.

ونستعرض عوامل القوة في "عالم الإسلام" من عقيدة دينية وموقع استراتيجي وثروة لشرية ووفرة اقتصادية، وعوامل الضعف من إهدار أسباب القوة، وسوء إدارتها، واستشراء الفساد، وتحكم الاستبداد.

وثمة دراسة مفصلة للمخاطر المحيطة بالعالم الإسلامي، وأبرزها تخريب "إنسانه" بعد تغريبه، وإسقاط الخلافة الجامعة له، وتجزئته بدعاوى القومية والوطنية الضيقة، وإثارة الفتن الاجتماعية بين أبنائه وطوائفه، وتقاسمه بين أيدي الاستعمار: الغربي والشرقي والصهيوني، وانتهاك حقوق الإنسان فيه على أيدي وكلاء من الساسة، وعملاء من الجيوش، وفاسدين من أرباب المال.. مع استعار الحرب على المجتمعات الإسلامية بالتعليم الأجنبي، وفرض التخلف والحصار التقني عليه، واستنزاف ثرواته الاقتصادية، وكفاءاته العلمية، وإفساد أخلاق أبنائه، وفرض قيم الغرب، ومعتقدات التنصير والإلحاد عليه، وتغلغل الماسونية العالمية بمؤسساتها ودهاتها في داخله، وعوامل النجاة من ذلك كله.

ISBN: 978-625-6752-40-5
9 786256 752405
asaletyayinlari.com.tr
asaletyayinlari
دار الأصالة